الطبعة الثانية

علي عزت بيجوفيتش

هروبي إلى الحرية

أوراق السجن ١٩٨٣ - ١٩٨٨

نقله إلى العربية: محمد عبد الرؤوف

هذه هي الترجمة العربية لكتاب
Notes from Prison 1983 - 1988
By: Alija Izetbegovic
ترجمة عربية جديدة تُنشر بموجب اتفاق خاص بين
مدارات للأبحاث والنشر وبكر علي عزت بيجوفيتش

هروبي إلى الحرية: أوراق السجن ١٩٨٣ - ١٩٨٨
تأليف: علي عزت بيجوفيتش
نقله إلى العربية: محمد عبد الرءوف
مراجعة وتقديم: د.شكري مجاهد

الطبعة الأولى: نوفمبر ٢٠١٤م - المُحرَّم ١٤٣٦ هـ
الطبعة الثانية: يناير ٢٠١٦م - ربيع الآخر ١٤٣٧هـ

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٣٣٠٦ / ٢٠١٤
الترقيم الدولي: ISBN 978-977-6459-00-7

العنوان: ٥ ش ابن سندر - الزيتون - القاهرة - جمهورية مصر العربية
تليفون: ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٠ - ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧١ - ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٢
البريد الإلكتروني: info@madarat-rp.com



علي عزت بيجوفيتش



أوراق السجن ١٩٨٣ - ١٩٨٨

نقله إلى العربية: محمد عبد الرءوف

مراجعة وتقديم: د. شكري مجاهد



مـدارات للأبحاث والنشـر
Madarat for Research and Publishing

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ

"سورة العنكبوت، آية
69"

إلى زوجتي خالدة، وأبنائي ليلى وسابينا وبكر

الأدب هو الحرية

هاينريش بول

خريف

الأوراقُ تتساقط، تتساقط كأنَّها آتيةٌ من السماوات البعيدة
كأنَّ حدائقَ تموتُ بعيدًا في الفضاء
كلُّ ورقةٍ تسقط وكأنَّها تُومِئُ قائلةً «لا»
وفي الليلِ تسقطُ الأرضُ المُثقَلَةُ
تهوي في العُزلة بعيدًا عن كلِّ النجوم
ونحن جميعًا نسقط، هذه اليدُ، هنا، تسقط
وانظر إلى تلك اليدِ الأخرى، إنَّه السقوطُ يُطوِّقُها جميعًا
ولكنْ هناك أحد، تُمسك يداه، بكلِّ رحمةٍ
بهذه الأشياء المتساقطة جميعًا

(راينر ماريا ريلكه، خريف)

المحتويات

مقدمة المراجع

يقدم بيجوفيتش في تصديره للكتاب الذي بين أيدينا أكثر من إشارة إلى بنيته والموضوعات التي تشيع فيه، وأولها ما يتصدر غلاف الكتاب «الهروب والحرية» أو «القيد والحرية». وكما يتبادر على الذهن عند سماع هذه الكلمات، فإنَّ الهَمَّ السياسي العام وما خلّفه من أثر على المؤلف يُمثِّل دليلاً تفسيريًا حاضراً دائمًا. أما فكرة الهروب، فنصيبها من النقاش المباشر لا يكاد يتجاوز صفحات التصدير؛ إذ يتحوَّل الهروب إلى تحرُّر وكأنَّ كلمتيّ العنوان مترادفتان. وأما فكرة الحرية فتظهر بأشكال مختلفة، بوصفها الموضوع الرئيس لخواطر كثيرة أو مسلمة فكرة خاطرة أو نتيجة لها.

ويحسم السياسي والمفكر الديني موقفه من معنى الحرية فيقرر أنه سعى إلى الهروب الروحي والفكري، ولو استطاع لاختار «الهروب الحقيقي، الهروب الجسدي». هذه الملاحظة التصديرية غير العابرة تشير إلى الرؤية الحاكمة لجُلِّ الخواطر التي كتبها الرجل خلف قضبان سجن «فوتشا» وأسواره العالية. إنَّ كلَّ خاطرة، وإن حلَّقت في سماوات روحية، تضرب بجذورها في الأرض في دنيا الناس، مما يعطي كافة قُرَّاء الكتاب الشعور، بل البرهان، على أن الكتاب لا يخاطب فئة دون فئة. فمن الكتب ما غلب عليها أيديولوجية إقصائية، تصنّف وتُصدر الأحكام، وبالتالي تخاطب قاعدة قُرَّاء أقرب إلى القَبَلية الفكرية. والكتاب الذي بين أيدينا أبعد ما يكون عن هذا. فكاتبه، لم يدن حتى من حكموا عليه بتسع سنوات من السجن المشدد بتهمة «الاعتداء اللفظي».

كان من مظاهر الهروب أو الحرية الفكرية في خواطر بيجوفيتش، أنه تحرر من هَمِّه الشخصي وجعله همًا عامًا. فقد جعل الرجلُ من سجنه مساحة عصف ذهني، بل وبحث علمي في أسئلة لم تولد كلها داخل السجن. فخواطره «تعليقات على أحداث مهمة» منعه السجن من المشاركة فيها. وأفكار عن «الحرية؛ سواء الجسدية أو الروحية» وما يتعلق أو توحي بها من موضوعات مثل حياة الإنسان ومصيره «عن الناس والأحداث» وكتب قرأها ومؤلفيها. ولا يكتب بيجوفيتش في موضوع إلا وظن القارئ أنه متخصص فيه. ولا يجد القارئ والمعلق على كتاب بيجوفيتش بُدًا من استحضار صورة النحل حيث يتحول رحيق

الأزهار -أو الكتب والأحداث- إلى «شراب مختلف ألوانه»، خواطر بها من البصيرة ما فيه شفاء لعقول بقدر ما فيها من إجابات أو أسئلة توحي بالمشاركة في الحيرة أو بإجابات أراد لها الرجل ألا تُكتب صراحةً.

وفي جملة تقريرية أكسبها الزمن نبرة ساخرة يخبرنا بيجوڤيتش أنه استبدل «بكلمات خطيرة مثل الدين والإسلام والشيوعية والحرية والديمقراطية والسلطة» كلمات شفرية. وتحدد هذه الجملة الموضوعات الرئيسة. كما تشير النبرة الساخرة التي تظهر في وصفها بالخطيرة إلى عنصر التأريخ الحاضر في خواطر السجين المفكر. أما المبدأ الحاكم لهذه الخواطر، إبداعًا لدى الكاتب واستقبالاً لدى القارئ، فهو مبدأ المفارقة، الذي يصرح به أحيانًا ويسكن جوهرَ الخاطرة دون تصريح في أغلب الأحيان. ونرى أن المفارقة هي ما كان سيقع عليه اختيار بيجوڤيتش كعامل توحيدي لو أتيح له ما أراد من تحوُّل خواطره إلى «نص كامل متماسك». لكن، يبدو أنَّ من حسن الحظ أن ضاق وقت الرجل عن ذلك حتى يقدم لنا نصًا أقرب إلى ما يسميه رولان بارت «النص الكتابي»، ولا يعني ذلك تفلُّت المعاني، كما قد يستحضر اسم بارت، بل ثراءها كما يثبت نصٌّ بيجوڤيتش.

ثمة عامل توحيدي آخر لم يذكره بيجوڤيتش في تصديره وهو عنصر الهم الأخلاقي، تعريفًا أو وصفًا أو تمثيلاً. فلا تكاد تخلو خاطرة من منطلق أو منطق أو مغزى أخلاقي في كل مجال تتعلَّق به الخاطرة، ولهذا ستتوجه مقدمتنا هذه إلى تتبُّع الأحكام أو التساؤلات الأخلاقية فيما تدور حوله خواطر بيجوڤيتش من موضوعات. وهناك ملحوظة أخيرة تضاف إلى فضائل الكتاب العديدة، ليس من باب الإلحاق على فضائل أسبق منها، وهي سمة الموسوعية التي تجمع سعة الاطلاع إلى عمق النظر. ومن أهم تجلِّيات هذه الفضيلة ذلك الحشد من أسماء الكتب والمفكرين الذي يأتي بلا تكلُّف فيخلق جوّاً من التناص بين أصوات عديدة من مجالات متنوعة من أدب إلى دين إلى سياسة وفن تشكيلي وموسيقى يصرح به أحيانًا، ويشير إليه من طرف خفي أحيانًا، مثل إشارته إلى رواية جورج أورويل «مزرعة الحيوانات»، وأول مادة في دستور الحيوانات «كلُّ الحيوانات سواء» الذي أضيف إليه بعد التحول الديكتاتوري -الإنساني عبارةُ الاستثناء: «لكنَّ بعض الحيوانات أكثر مساواة من غيرها».

الهم الأخلاقي ومفارقاته الكاشفة

لأن كلّ كتابة أو حديث أو خطاب أو حكي يفترض مخاطبًا، فإن لون الخطاب وطابعه يكشف شخصية الكاتب أو المتحدث والمخاطَب أو المحكي له جميعًا. والسمة الغالبة على خواطر بيجوڤيتش تطبعها تجربته الحياتية بوصفه صاحب فكر أصيل وهوية لا يتطابقان مع الفكر والهوية الرسميين. وليس مخاطَب بيجوڤيتش هنا ابنه بكر كما يقول، فالابن لا يعدو أن يكون جليس حوار هادئ بين الأب ومعارضيه أو مخالفيه حول الأفكار التي أدَّت به إلى السجن وغيرها. ويستخدم الأب-المفكر منهج كشف الإشكالية أو المفارقة الكامنة في مقولات الأيديولوجية أو الرؤية الكونية التي يرفض اعتناقها والإشارة إلى بدائل لها فيما يعتنقه فعلاً. وهو في كثير من خواطره يسعى جاهدًا إلى إعادة النظر في المفروغ منه. ولأن موقعه الحضاري موقع إشكالي لأنه مسلم خبير بالتراث العربي الإسلامي صاحب ثقافة غربية رفيعة يعيش في نظام قمعي يسكن قلبَ أوروبا جغرافيًا وهو خارج الزمان والمكان الأوروبيين حضارةً، تأتي خواطره بعمق وبساطة يستدعيان الكتاب المقدس، لاسيما سفر الأمثال، والقرآن الكريم والأحاديث النبوية ومأثورات التراث الإسلامي.

وفي إشارة كاشفة إلى الفكرة الحاكمة لكل ما يرد في خواطره، يستهلُّ بيجوڤيتش كتابه بقصيدة «خريف» لراينر ماريا ريلكه التي تستحضر تساقط أوراق الأشجار في الخريف وتساقط كل ما في الكون، وبهذا يخرج معنى السقوط من الدلالة الحرفية إلى المجاز، ثم يأتي الاستدراك «لكن هناك أحد، تمسك يداه، بكل رحمة/ بهذه الأشياء المتساقطة جميعًا». وكما سيرد في خواطر عدة في الكتاب، فإنَّ ثنائية السقوط أو الخسران والإنقاذ هي ما يربط بيجوڤيتش بسورة طالما أثارت فكر الكُتّاب الإسلاميين وهي سورة «العصر»، التي يمكن أن نصنفها بأنها نموذج تفسيري لكثير مما سيرد في فصول الكتاب. وسنكتفي في مقدمتنا القصير هذه بقراءة في الفصل الأول تتتبع مبدأ كشف المفارقة تعبيراً عن الهم الأخلاقي في إطار رؤية الإنسان في خسر إلا أن يعمل صالحًا أو يتحرى الصدق ويتحمل أخاه.

يبدأ بيجوڤيتش كتابه بالتأكيد على تقدير الحياة ويربطها بأداء رسالة. ومع استنكاره للتقدير الذي تحظى به صفة الاستخفاف بالموت يجعل بيجوڤيتش تحمُّلَ الحياة، أو التواصي بالصبر، في منزلة أعلى من طلب الموت. وهو في ذلك يتحدث عن البشر أفرادًا، فهو

مفكر يضع الفرد قبل الجماعة، لذلك فهو يأخذ على هيجل «عنصريته الواضحة» أو تملُّك نزعة المركزية الأوروبية منه، ويقرر أن إطلاق الأحكام الأخلاقية على شعوب كاملة «يفرغ الأخلاق من معناها»، فالفرد هو الذي يوصف بأنه صاحب خلق أو معدوم الخلق». لذلك، فليس العدد هو ما يحدد معياراً لحالة السويَّة، لأن اليقظ بين أغلبية من السكارى «يبدو شاذًا»، لذلك فثمة حاجة إلى معيار ثابت، لا يتَقلب مع تقلب رغبات الناس، معيار يأتي من تلك اليد التي تحول، بكل رحمة، دون سقوط الأشياء.

ولأن الإنسان الفرد هو الذي يقع عليه الظلم أو يوقع الظلم على غيره، فلا سبيل إلا النظر إلى حالات فردية أو إلى النفس حتى نفهم «حقيقة الإنسان» وهي من الهموم الأولى لدى بيجوڤيتش، حتى إنه يتتبَّعها في كل ما يقرأ أو يشاهد، فهو يرى أن «عمل أي فنان حقيقي هو في الحقيقة نوع من السيرة الذاتية»، أي إن الرسام والمثال والروائي يعيدون إنتاج أنفسهم فيما يبدعون، حتى القارئ يسهم من ذاته في معنى ما يقرأ، «كالنحلة تحول الرحيق في بطنها إلى عسل». هذه الفردية، عند بيجوڤيتش، هي أغلى ما يملك الإنسان، لذلك يتوجه إليها الطغاة لأنها علامة الكرامة الإنسانية، وهذا ما يراه بيجوڤيتش في رواية ميلان كوندرا «خفَّة الوجود التي لا تُحتَمَل»، حيث تنظر بطلتها تيريزا إلى فرض الجلادين العري على المعتقَلين بأنه «فرض التماثل القهري» وبأنه «إشارة إلى الإذلال». وفي هذه الإشارة إلى رواية كونديرا انعكاس لحالة السجين بيجوڤيتش الذي يرى جوهر فكرة السجن في انتفاء الفردية الذي يتجلى في انتفاء الخصوصية وهي «إحدى سمات معسكرات الاعتقال».

إن جوهر الدين والأخلاق عند بيجوڤيتش هو احترام فردية الإنسان أو كرامته من حيث هو فرد، ويقوده ذلك إلى أن يرى هذه الفردية في أصل تحريم الخمر لكنه يجعل شاهده من خارج السياق الديني حيث يورد مقولة إيڤو أندريتش «لا تسكروا، من أجلكم أنتم، من أجل احترامكم لأنفسكم، من أجل كرامتكم». ويراها أيضًا تفسيراً لمظهر اجتماعي مثل - الموضة- حيث يراها في أحد جوانبها «تعبر عن حاجة الفرد إلى أن يكون فردًا». مع ما في ذلك من إشكالية إثبات الفردية واتباع معايير من خارج الذات، وقد تكون هذه من تناقضات بيجوڤيتش التي سنشير إليها لاحقًا. ويوازي بيجوڤيتش بين الفردية والإنسانية نفسها إذ يجعل «الشرط الأول لأن يكون المرء إنسانًا. أن يمتلك أناه».

ينشغل بيجوڤيتش بتعريف أو توصيف سمات الإنسانية وفي إطار ذلك يطوف بقارئه بين مفكرين وكتابات شتى معارضًا أو معضِّدًا أو متجاوزًا. وصفة العقل من الصفات التي يراها بيجوڤيتش لازمة للإنسان لكنها ليست الخاصية الفارقة المحددة للإنسانية لأنها بشكل ما تقلص فردية الإنسان؛ إذ يتبع قوانين فوق إرادته ونزعاته تمشيًا مع ما يقول العقل «الجمعي» إنه مقبول أو ظالم أو عادل، حسبما يرى بيجوڤيتش، قد يضل استنادًا إلى العقل والبرهان وحده «فالبرهنة على الحاجة إلى العدالة» كما يقول «إما أنه أمر زائد وغير ضروري بالنسبة لمن له قلب [وهو الإنسان] أو شيء عديم الجدوى بالنسبة لمن لا قلب له [وهو ليس بإنسان]». ويستخدم بيجوڤيتش أحيانًا مفردات القلب والروح والمشاعر على نحو ترادفي عند وصفه للإنسانية فيقول إن «المشاعر هي الأقرب للروح، إن لم تكن هي الروح ذاتها». ويتساءل بيجوڤيتش إذا كانت العقلانية هي سمة الإنسان فلماذا يحب «الحكايات الخرافية»، ويضيف سؤالاً: هل هذا الحب هو ما يميز الروح الإنسانية؟ فالحكايات الخرافية وغيرها من الحكايات الخيالية تعمل على المشاعر أكثر مما تعمل على الفكر. والإنسان عند بيجوڤيتش لا يعرف بآرائه وإنما بمشاعره، «فقد يغير الإنسان رأيه تمامًا، ويظل كما هو». ويجعل بيجوڤيتش صفة الكرامة مميزة للإنسان، ويرى في هيئة الإنسان المنتصبة تجليًا لهذه الصفة المميزة فيقول: «خلقنا الله نسير منتصبي القائمة، بخلاف الحيوانات، بيد أن كثيرًا من الناس لا ينتفعون بهذه الهبة»، وهنا يأتي شرط تحقق الكرامة الإنسانية في التعامل مع الآخرين فجوهر الدين كما سبق هو الكرامة، لذا يستخدم بيجوڤيتش لغة دينية للتعبير عن التفريط في الكرامة فيتساءل: «أليس من الكفر أن ننكر هذه النعمة العظيمة: نعمة السير منتصبي القامة»؟

إن الحياة الاجتماعية تمثِّل خطرًا، وفي الوقت نفسه معيارًا للفردية والإنسانية والأخلاق. ويشير بيجوڤيتش إلى أن المغزى من رواية «الحمامة» لباتريك زوسكيند هو إثبات «أن الوجود الإنساني لا يكون إنسانيًا إلا في وجود بشر آخرين». وكما أن المجتمع هو أصل الأخلاق السامية فهو أيضًا أصل ما دونها، ومن هنا تأتي المفارقات الأخلاقية التي تمثِّل الهمَّ الأكبر لدى بيجوڤيتش، ترد كلمة مفارَقة صراحةً في عدد من الخواطر وصفًا لها، لاسيما في الفصل الأول. ففي الخاطرة رقم (١٨٣٣) يصرح بأن «الحياة مليئة بالمفارقات» حيث يذكر واقعة إعدام الشاعر أوسيب ماندلشتام «بسبب قصيدة عن ستالين كتبها بشيء

من التحرر»، أما المفارقة فتكمن في التناقض بين ادعاء الديكتاتور احتقار الشعراء وتأثره بما يكتبون لدرجة الأمر بإعدامهم. وتأتي هذه الخاطرة في سياق المقارنة بين من يهتدي سلوكه بضميره ومن يدَّعي امتلاك السلطة وتُوجِّهه ردود أفعال الآخرين. وهذه الخاطرة وغيرها تستحضر روح جورج أورويل في كثير من كتاباته، وبالتحديد مقاله الشهير «قتل فيل» حيث يُدفع الضابط الإنجليزي دفعًا إلى قتل فيل لمجرد أن بعض أهالي القرية كانوا يتوقعون منه ذلك.

وفي الخاطرة رقم (٥٠٠) يستخدم بيجوڤيتش المفارقة الكلاسيكية بين حضور الضوء وغياب الرؤية وحصول الرؤية في غياب الضوء. ولا تكمن أهمية هذه الخاطرة في فكرتها، لكنها تشير إلى عزم بيجوڤيتش التفتيش عن معانٍ خفية في ظواهر كونية واجتماعية. فكما هو واضح، يصح فهم الخاطرة بمعناها الحرفي ويصح فهمها مع التوسع في إيحاءات مفرداتها. ومنها ما يجده الرجل من فرصة للرؤية في ظلمة تجربة السجن. وتقع الخاطرة رقم (٥٣٤) مثلاً في هذا السياق، فهي ترى الحياة في الخطر والعدم في الأمن الكامل، والخاطرة رقم (١٠١٢) التي لا ترى للإنسان السعيد قصة حياة. وكأن الرجل يستكشف مزايا تجربته من كافة جوانبها. ومن الملاحظات التي تأتي في الإطار نفسه، وتشير إلى روح الناقد الأدبي في بيجوڤيتش ما يكتبه عما أصاب شخصيات مسرحية شكسبير الملك لير «فالملك لم يفهم الحياة إلا عندما فقد عقله، وجلوستر لم ير الحياة إلا عندما فقد بصره».

ينظر بيجوڤيتش في شخصيات الناس وعلاقاتهم فيجد أن عبارة «فلاح غبي» عاطلة عن الصدق، وأن «الغباء أكثر شيوعًا لدى دراويش الثقافة» ويجد أن كثيراً من الناس يكشفون «خواء جعبتهم» بإطالة حكاياتهم. ويرى كيف يخلق المجتمع أعداءه بالتربية، كما ربى اليسوعيون عند ڤولتير أعدى أعدائهم. ولا يرمي بيجوڤيتش من كشف المفارقات في الظواهر الاجتماعية والنفسية إلى إزكاء التناقضات أو إعلان عجز الإنسان عن حلِّها، بل إنه يسعى إلى حل هذه التناقضات أو مصالحتها في إطار منظومة أخلاقية إنسانية عامة لا تتوقف عند ثقافة دون أخرى. فهو، كما سبق، يرى الشجاعة في مواجهة الحياة، أي المجتمع، لا الموت، أي العزلة والتخلي؛ «ذلك أن الحياة أكثر صعوبة وأشد خطراً من الموت»، ويرى أن «الإنسان الحق يؤدي مهمته الإنسانية أو يفني عمره محاولاً تحقيقها»،

فما الدين والأخلاق عنده إلا «محاولات لجعل هذه المهمة أكثر موضوعية» أي ارتباطًا بالناس وخيرهم. وهو في هذا السياق يقدم تعريفًا طريفًا للحظ السعيد في السياق الاجتماعي فيقول إنه «تلاق بين مهمتنا الشخصية ومهمتنا التاريخية. . في ترك ما هو شخصي وقبول الحقيقة التاريخية باعتبارها أمرًا شخصيًا». ويطبق بيجوڤيتش هذا التعريف على نفسه فيقول: «ويالها من مفارقة أن يحدث هذا الحظ السعيد في هذه المرحلة المتأخرة من حياتي»، ويقصد بها مرحلة السجن. والمفارقة الكاشفة هنا هي وصف الرجل لتجربة السجن في عمره هذا بأنها «حظ سعيد».

وتواصل خواطر السجين المفكر كشف المفارقات في أحكام الناس على أنفسهم وغيرهم مستعينًا بمخزون ضخم من القراءات في الإنسانيات عامة، لاسيما في الآداب. ولا تُبرز هذه الخواطر مجرد معرفة بالأدب؛ بل بصيرةً نافذةً وموقفًا نقديًا ملتزمًا يعامل عالم المسرح والقصص بوصفه عالمًا موازيًا للواقع، إن لم يكن انعكاسًا له، يحمل من الصدق ما قد يفتقر الواقع إليه. فقيمة الشخصية في العمل الأدبي لا تكمن في «أهميتها الاجتماعية، ولكن في حجم المعضلة الأخلاقية التي تُقدِّمها" أما «الاسم والمهنة والوضع المادي والمكانة الاجتماعية فهي أشياء لا تحمل أي قيمة أخلاقية». ويعاود بيجوڤيتش الإشارة إلى أن صفة الكبر واحتقار الناس مرة تلو المرة يكشف في كل مرة الوزن الأخلاقي لمن يتصف بها. وهو كعادته يولي لدوافع السلوك أهمية أكبر من السلوك ذاته؛ إذ يميز بين من يحتقر الناس لأنه أناني لا يكترث لشعور غيره، وهي علامة خواء ذاتي أو -وهنا تكمن المفارقة التي تكشفها الخاطرة- «أن يكون الاحتقار الوجه الآخر لحب الناس. وخيبة الأمل فيهم». وكأن الرجل قد فرغ لتوه من قراءة رحلات جليفر، ووجد احتقار الحب الذي يصبه جوناثان سويفت على البشر إذ يحولهم إلى أقزام مدمرين أو مدعي علم يطيرون بجزيرة فوق رءوس من يحتقرون ولا يساعدون، أو يحولهم إلى حيوانات حقيرة في هيئة بشر تنفر الخيول من أخلاقهم ورائحتهم. ومن الخواطر التي تعزز استحضار سويفت في تعليقنا على خواطر بيجوڤيتش ما يقوله عن الإنسان الأعلى أو «السوبرمان»، فهو إنسان ضعيف، يشبه إنسان «الياهو» عند سويفت، فما أسهل «أن يعيش المرء لذاته، وأن يتبع غرائزه»، كما ينصح نيتشه إنسانه الأعلى ولكن الصعب هو «مقاومة الفتنة، فهذه المقاومة وحدها هي ما يتطلَّب إنسانًا أعلى».

أختتم هذه المقدمة القاصرة عن تمثيل ثراء فكر على عزت بيجوفيتش وتجربته الفريدة بالإشارة إلى ما قد يجده القارئ من «تناقضات» المفكر الأصيل الذي تتجاذبه الأفكار والتجارب القاسية فهو لا ينفك يتحرك بين أحكام أخلاقية فيراجع ويعدّل ويشكو عجز اللغة. مع ذلك، فالناظر إلى الكتاب بكل فصوله لن يجد صعوبة كبيرة في إيجاد نسق فكري عام ونظرة كونية، إذا أطلق حكمًا يخالفها، فسرعان ما يعود بحجج أقوى. وهو في ذلك يمارس حريته في كسر قوانين الاتساق والتماسك التي لابد منها إذا كان بالكتابة بصيرة وإبداع.

أما مترجم الكتاب، محمد عبدالرءوف، وهو متخصص في الفلسفة مغرم باللغة، فقد أثبت بما قدم من ترجمة وتعليقات وتوضيحات أنه قارئ ومترجم من طراز فريد يجمع بين أمانة المترجم وأصالة الكاتب. وإنَّ ما قدم من تعليقات وتفسيرات ومعلومات يُظهر سعة اطلاعه والجهد الذي بذله وثراء المراجع التي استند إليها، كما يُظهر حرصًا على وضع خواطر بيجوفيتش في سياقها التاريخي والثقافي. وأخيرًا، فإنني أستدعي تعريف عزرا باوند للأدب بأنه نبأ لا يتقادم. وأقول إن كتاب على عزت بيجوفيتش لن يُقرأ ويُترك، بل سيكون دائمًا في متناول اليد، يعود إليه القارئ كلما صادفه موقف يعوزه فيه التعبير الصادق البصير.

شكري مجاهد

أستاذ الأدب الإنجليزي

جامعة عين شمس

تصدير

تصدير

ما يطالعه القارئ (وربما سيقرأه) هو هروبي إلى الحرية.

وللأسف، بالطبع، لم يكن هروبًا حقيقيًا، ولكن كنتُ أتمنَّى لو كان كذلك. كان هذا هو الهروب الوحيد المُتاح من سجن فوتشا بجدرانه العالية وقضبانه الحديدية؛ هروب الروح والفكر. ولو كان بإمكاني أن أهرب، لاخترتُ الهروبَ الحقيقي، الهروب الجسدي.

وكذلك أفترض أنَّ القُرَّاء كانوا يُفضِّلون الاستماع إلى قصة مثيرة عن هروب سجين من سجن ذي حراسة مُشدَّدة بدلاً من قراءة أفكاري وتعليقاتي حول قضايا في السياسة والفلسفة.

لم يكن بإمكاني أن أتكلَّم، ولكن كان بإمكاني أن أُفكِّر، ومن ثمَّ قرَّرتُ استغلال هذه الإمكانية بأقصى درجة ممكنة. في البداية، كنتُ أقوم بحوارات داخلية صامتة حول جميع الأشياء وعلَّقتُ على الكتب التي كنتُ أقرأها والأحداث التي كانت تقع خارج السجن. ثم شرعتُ في تدوين الخواطر، بشكل سري في البداية، ولكنَّني أصبحتُ فيما بعد أكثر «شجاعة»، فأطلتُ التفكيرَ، وقرأتُ، وكتبتُ. وهكذا، كان لدي ثلاثة عشر دفترًا من القطع الذي يُسمِّيه الفنِّيون (A-5) كتبتها بأصغر خطٍّ وتعمَّدتُ أن يكون الخطُّ غير مقروء، ولذلك عاشت «ميرسادا»، وهي من يقوم لي بأعمال الآلة الكاتبة، عاشت في عذاب لكي تنسخها. وأودُّ أن أشكرها لصبرها على فكِّ الشفرات التي كتبتُها. في هذه الخواطر، استبدلتُ بكلمات «خطيرة» مثل الدين والإسلام والشيوعية والحرية والديمقراطية والسلطة كلمات أخرى لم يكن يعرفها أحد سواي، كلمات رأيتُها أنا نفسي، بعد سنوات، غريبةً وبالكاد مفهومة.

لم أكتب شيئًا خلال العام الأول كلِّه تقريبًا، لم أتمكَّن من الكتابة؛ كان هذا عامَ الاستجواب والمحاكمة والتكيُّف مع السجن. وأعتقد أنَّ الخواطر الأولى كُتِبَتْ في عام ١٩٨٤م، واستمرَّت كتابة الخواطر بشكل يومي على مدى خمسة أعوام تقريبًا. وكما أرى

الآن، فالخاطرة الأخيرة تحمل رقم ٣٦٧٦ بتاريخ ٣٠ سبتمبر ١٩٨٨م. في ذلك الوقت كنتُ أنتظر ثلاثة عشر عامًا تقريبًا في السجن، وبدا أنَّ الموت هو أملي الوحيد، إلا أنَّني أبقيتُ هذا الأمل مخبوءًا تمامًا مثل سرٍّ كبير لم يكن يعرفه أحد سواي، سرٌّ لم يكن بإمكانهم أن ينتزعوه مني.

ومن ثمَّ، فقيمة هذه الأفكار لا تكمن في الأفكار ذاتها، ولكن بالأحرى في الظروف التي كُتِبَتْ فيها. فعلى هذا الجانب من الجدار كان هناك الصمت المُطبق داخل السجن، وفي الخارج كان ثمة إشارات لعاصفة ستتحوَّل في عام ١٩٨٨م إلى إعصار سيسحق جدار برلين، ويُطيح بكلٍّ من هونيكر وشاوشيسكو، ويقضي على حلف وارسو، ويُزلزل الاتحاد السوفييتي ويوغوسلافيا. كنتُ أشعر بمرور الزمن وأطواره المتغيرة كما لو كان مُجسَّدًا أمامي.

كان ذلك زمنَ المراجعة الجذرية للأفكار والمعتقدات، وذلك بعد التجارب الكارثية لأنظمة الحكم الشيوعية في شرق أوروبا. كان العالم يشهد تحوُّلاً هائلاً سيُغيِّر حياةَ ملايين البشر ويُغيِّر مجرى التاريخ إلى اتجاه مختلف. صار العالم الذي ظلَّ ثنائيَّ القطب لفترة طويلة عالمًا أُحاديَّ القطب. لا أعرف هل هذا أمر جيد أم لا، إلا أنَّ هذا هو ما حدث.

لم يكن يجمع هذه الأفكار المتناثرة سوى تلك الأيام التي تزيد على الألفين، بالإضافة إلى دفَّتي هذا الكتاب. هذه الأفكار هي، بدرجة ما، تعليقات على الأحداث المهمَّة صدرت عن رجل مُنِع من المشاركة فيها، ولكن كان لديه فائض من الوقت ليتابعها ويُقدِّم آراءه الخاصة حولها، بصرف النظر عن صحة تلك الآراء أو خطأها.

هذه أفكار عن الحرية، سواء الحرية الجسدية أو الجوَّانية، عن الحياة والمصير، عن الناس والأحداث، عن الكتب التي قرأتُها ومؤلِّفيها، عن الرسائل المُتخيَّلة التي لم تُكتَب لأبنائي؛ وبتعبير آخر، عن كلِّ ما كان يخطر ببال سجين خلال تلك الأيام (والليالي) الألفين الطويلة.

عندما كنتُ أكتب، كنتُ أُشير إلى الخواطر بالأرقام ١، ٢، ٣

كانت الخواطر التي تقع تحت رقم (١) عبارة عن بعض الأفكار العامة التي بدا لي، في ذلك الوقت، أن تكون عن الحياة والناس والحرية. وعندما أردتُ أن أضع لها اسمًا أفضل، لم أجد أفضل من العنوان ذاته الذي تحمله الآن.

وكانت الخواطر تحت رقم (٢) عبارة عن بعض الحقائق وأفكار أشخاص آخرين كنتُ أودُّ، لو أُتيحت لي الفرصة، أن ألفتَ انتباه ابني بكر إليها، راجيًا إيَّاه أن يقرأها ويعرفها. وقد اعتدتُ أن أقوم بهذا في الغالب عندما كنتُ طليقًا. وهكذا كان هذا الفصل، بطريقة ما، عبارة عن سلسلة من الرسائل غير المكتوبة إلى ابني.

أمَّا الخواطر تحت رقم (٣) فكانت كلَّ ما كنتُ سأضيفه إلى كتابي «الإسلام بين الشرق والغرب» لو كنتُ كتبتُه حينذاك. وللتذكير فقط، فحقائق كتاب «الإسلام بين الشرق والغرب» وأفكاره تجتمع حول فكرة واحدة أساسية تُشكِّل ما أُطلق عليه، لسبب أعيه أو لا أعيه، «نظرية الطريق الثالث».

في أثناء إعداد النسخة النهائية من مخطوطة الكتاب، نقلتُ الأفكار التي تدور حول الدين والسياسة والشيوعية من الفصل الأول إلى فصول مستقلّة (الثاني والثالث والخامس)، كما نقلتُ الخواطر التي تدور حول الإسلام من القسم الذي يقع تحت رقم (٢) إلى الفصل السادس.

وأُضيف المُلحَق فيما بعد، وهو عبارة عن مجموعة مقاطع انتقيتُها من حوالي ١٥٠٠ رسالة تلقَّيتُها من أبنائي عندما كنتُ في السجن. وإذا كان تعاطي الأدب هو هروبي الفكري إلى الحرية، فقد كانت هذه الرسائل هي هروبي الوجداني. لستُ متأكِّدًا هل عرف أبنائي، أو سيعرفون يومًا ما، ما الذي كانت تُمثِّله تلك الرسائل بالنسبة لي. عندما كنتُ أقرأ تلك الرسائل، لم أكن أشعر أنَّني رجلٌ حرٌ فحسب، بل كنتُ أشعر كذلك أنَّني شخص قد حباه الله كنوز هذا العالم جميعها. ولهذا سمحتُ لنفسي بنشرها في المُلحَق. كما بدا لي أنَّ بعض عبارات هذه الرسائل عكست صورة دقيقة عن الزمن والظروف والأفكار والجوِّ الذي أحاط بعائلة سجين سياسي، كما أنَّها، كذلك، تُبين عن شيء بسيط عن أصحابها.

عندما بدأتُ العمل على المخطوطة بعد مرور أكثر من عشر سنوات على خروجي من السجن، كنتُ أنوي تحويلها إلى نَصٍّ كامل متماسك. وللأسف، لم أُدخل تعديلات كثيرة على الترتيب الأصلي الذي وضعتُه في السجن («الأكوام الثلاثة» كما كنتُ أُسميها). وشعرتُ بضيق الوقت، وربما ليس لدي شيءٌ أُقدِّمه أفضل من المادة الأصلية المتاحة ذاتها. ومن ثمَّ، فإنَّني أعطي القرَّاء مخطوطتي بحالتها الأصلية تقريبًا كما وُلدت أول مرة.

لكنِّي سأحكي لكم حكاية ترتبط بهذه الدفاتر؛ إذ إنَّها بمثابة صورة لأوضاع السجن.

كنتُ كلَّما أنهيتُ دفترًا، لم أتركه في خزانتي إطلاقًا. وإنَّما كنتُ أُودعه لدى زميل آخر، وهو سجين مُدان في جريمة قتل. وهكذا، يكون دفتر واحد، وهو الدفتر الذي أكتب فيه، عُرضةً للمصادرة. في الواقع، كانت سلطات السجن تُفتِّش الخزانات بحثًا عن «أشياء خطيرة». وكانت الأشياء الخطيرة هي الأسلحة والمخطوطات. كان الجميع يخضعون للتفتيش بالتساوي، ولكن كان بعضنا «أكثر مساواة»(*) ولأنَّ صديقي كان من الفلاحين، فكانوا يكتفون بإلقاء نظرة عابرة على خزانته. وقُبيل نهاية فترة سجني قام صديق آخر، ڤاسلين ك. المُدان في جريمة تزوير، بتهريب عشرة دفاتر خارج السجن في صندوق شطرنج. وعندما سلَّم الرزمة لأبنائي رفض أن يأخذ أية نقود. أحيانًا يتمتَّع هؤلاء الذين نُسميهم مجرمين بشعبية مؤكَّدة، بل وبالحب. ويرجع هذا إلى أنَّهم يعرفون عادة ما الذي تعنيه الرفقة الحقيقية وهم على استعداد للقيام بالمخاطرات. وغالبًا يفتقد من يُطلَق عليهم «أُناس متأنِّقون» هذه الصفات.

راجع ابني بكر المخطوطة كاملة قبل التنضيد النهائي للطباعة، وأنا مُمتَنٌّ لصبره ولاقتراحاته الكثيرة المفيدة.

هذا كلُّ شيءٍ. ولم يبقَ إلا أن أقول إنَّ الخواطر مُرتَّبة في كل فصل ترتيبًا زمنيًا.

علي عزت بيجوفيتش

سراييفو، ١٥ سبتمبر ١٩٩٨م

(*) الإشارة هنا إلى عبارة چورج أورويل في رواية مزرعة الحيوانات: «كلُّ الحيوانات سواء، لكنَّ بعضها أكثر مساواة من غيرها». (المراجع)

عن الحياة والناس والحرية

الفصل الأول

عن الحياة والناس والحرية

٦ عندما لا أجد ما أعيش من أجله، سأموت.

٩. الحياة غاية في ذاتها ولذاتها. ويتَّضح هذا بمجرَّد أن تفقدَ الحياةُ كلَّ مظاهرها البرَّانية(*): الشباب، والجمال، والصحة، والحرية. عندئذٍ ندرك أنَّ جمالَ الحياة ليس في هذه القيم المرغوبة، والزائلة، ولكن بالأحرى في الحياة ذاتها!

١٧ لا يحمل قلبي الكراهية، ولكن أثقلتْه المرارة.

٢١ إنَّ الاستخفافَ بالموت، وهو الأمر الذي يَلقى إشادة كبيرة لا يستحقُّها، قد يكون نتيجةً لعدم تقدير الحياة (أو الإنسان).

٢٣ يُقدِّم هيجل صورةً سيئةً للغاية عن السود والهنود والصينيين؛ فعلى سبيل المثال يقول: «ليس هناك في طبيعة السود ما يشبه الإنسان... ويصل احتقار الإنسان عندهم إلى مستويات غير معقولة؛ فالاستبداد لا يُعَدُّ ظلمًا، وأكلُ لحومِ البشر أمرٌ مُباح وواسع الانتشار». كما يقول: «لا تعرف الصين معنى الكرامة. وفي غياب الكرامة يشيع التذلُّل، الذي ما يلبث أن يتحوَّل بسهولة إلى خُبْث، ويرتبط الانحطاطُ الأخلاقي للصينيين بهذا الخبث، فمن المعروف عنهم أنَّهم يمارسون الغشَّ كلما أُتيح لهم ذلك؛ فالصديقُ يغشُّ صديقَه، وإذا كُشف ذلك الغشُّ فإنَّه لا يُعدُّ أمرًا يُؤاخَذ عليه. أمَّا أبرز

(*) استعمل أستاذنا القدير محمد يوسف عدس لفظتي «برَّاني» و«جوَّاني» في ترجمته البديعة لكتاب بيجوفيتش «الإسلام بين الشرق والغرب»، ولم أجد أفضل منهما بالفعل للتعبير عمَّا يقصده بيجوفيتش. وقد يتبادر إلى الذهن أنَّ اللفظتين عاميَّتان أو أنَّه لا أصل لهما في اللسان العربي، إلا أنَّه تبيَّن أنَّهما لفظتان عربيتان؛ ففي لسان العرب لابن منظور في مادة (جوا): «وَفِي حَدِيث سلْمانَ إنَّ لكُلِّ امْرِئٍ جَوَّانِيًا وبَرَّانِيًا فَمَنْ أصْلَحَ جَوَّانِيَّهُ أصْلَحَ اللَّهُ بَرَّانِيَّهُ؛ قَالَ ابْنُ الأثير: أيْ: بَاطِنًا وَظَاهِرًا وَسِرًا وَعَلانِيَةً، وَعَنَى بِجَوَّانِيِّه سرَّهُ وَبِبَرَّانِيِّه عَلانِيَتَهُ، وَهُوَ مَنْسُوبٌ إِلَى جَوِّ الْبَيْت، وَهُوَ دَاخِلُهُ، وَزِيَادَةُ الألِفِ وَالنُّون للتَّأكِيد. وَجَوُّ كُلِّ شَيْءٍ: بَطْنُهُ وَدَاخِلُهُ، وَهُوَ الجُوَّةُ أيْضًا». مع التنبيه إلى أن لفظة «جَوَّاني» تُضبط بفتح الجيم نسبة إلى الجو وليس بضمها كما هو شائع في العامية المصرية، فهذا الضبط الأخير مما ليس له أصل في العربية لفظًا ومعنى (المترجم)

صفات الهندي فهي الخداع والمكر؛ وهو مُذعنٌ وذليلٌ أمام المنتصر والسيد، ومتوحِّشٌ وقاس تمامًا مع المقهورين والمذعنين» (هيجل، فلسفة التاريخ). وتعليقي: تنطوي هذه الأحكام على عنصرية واضحة، أو على الأقل تكشف هذه المقولات عن نزعة المركزية الأوروبية لدى هيجل. وإذا كان الحسُّ الأخلاقي امتيازاً تحظى به بعض الأعراق والشعوب دون غيرها، فإنَّ ذلك يُفرغ الأخلاق من معناها. إنَّ الفرد هو الذي يوصف بأنَّه صاحب خُلُق (أو معدوم الخُلُق)، وليس الشعب، ومن ثمَّ فإنَّ أيَّ تعميمٍ -في هذا الشأن- غيرُ مقبول.

٣٥ ثمَّة حقيقتان؛ الحقيقة الشاعرية والحقيقة العلمية. أمَّا الشاعر، فالنجوم عنده إما متلألئةٌ وحزينةٌ، أو تنظر إلينا من أعالي السماوات وتُحَدِّثنا عن الخلود، والقمرُ هو نورُ السماء ونديمُ العشَّاق، والغديرُ يهمس ويروي حكاية، وشجرةُ السنديان العتيقة تكتم الأسرار، والسماءُ تبتسمُ أو ترعد في غضب، وقممُ الجبال تتأمَّلُ السماءَ الزرقاءَ الواسعةَ وتحكي عن خلود الطبيعة وسرعة زوال كلِّ ما هو إنساني، إلَخ.

وأمَّا العلم فيرى الأشياء بطريقة مختلفة تمامًا؛ الطبيعةُ محايدةٌ، والكونُ خُلوٌ من التعبير، وكلُّ ما فيه مجرَّدُ لعبة لقوى عمياء ولا غاية لها. والقمرُ لا جمال فيه، جرمٌ سماويٌ عاطلٌ عن الجمال يدور في ظلمة الفضاء من ملايين السنين، بلا غاية معروفة أو مفهومة.

قد نكتشف الكثير عن أنفسنا إذا استطعنا أن نُحدِّد يقينًا أيهما نراه الأصدق والأقرب منَّا: اللا حقيقة الشاعرية أم الحقيقة العلمية. وهنا قد تكمن الإجابةُ عن: من نحن؟ ومن أين جئنا؟ أي الإجابة عن ماهية طبيعتنا وأصلنا.

٤٤. الشخصُ اليَقظُ بين السكارى مُضحكٌ ومثيرٌ للسخرية؛ ففي مجتمع السكارى يكون السكارى هم الأغلبية التي تُحدِّدُ معيارَ الحالة السويَّة، ووسط هؤلاء يبدو اليقظ شاذًا.

٥١. عندما نقول إنَّ عملَ أيِّ فنَّان حقيقي هو في حقيقته نوع من السيرة الذاتية، فإنَّنا بالتأكيد لا نقصد أنَّ المغامرات التي يُدخل الفنَّانُ شخصيات أعماله فيها هي بالفعل أحداثٌ

من حـيـاته . وإنَّمـا نقـصـد أنَّ وصف الحـيـاة الجـوَّانيـة ؛ الحـيـرة ، والشكوك والظنون ، والمكابدات ، وخصوصًا المكابدات ، هو وصفٌ لحياة المرء الخاصة . وذلك لأنَّه ما من أحد قطُّ استطاع أن يصف مكابدات شخص آخر ، ولا يمكن لأحد أن يفعل ذلك . فالمكابدات التي يصفها أيُّ كاتب هي مكابداته هو ، وسواء كانت مكابدات مرَّ بها أو سيمرُّ بها ، فإنَّها تخصُّه هو ، وليس أي شخصٍ آخر . وبهذا المعنى ، فكلُّ رواية هي في جوهرها نوع من السيرة الذاتية .

٧٠ لا يتلقَّى الإجابةَ إلا من يُشقيه السؤالُ .

٨٩ . إنَّني أحتمل ما أحتمل لسبب واحد فقط ، ولكنَّه كاف : لأنَّ هذا ما يتوجَّب علي فعله .

١٠٩ ثمة شيءٌ ما إنساني للغاية في الصيام ، بأفضل ما تحمله كلمة إنساني من معنى . وبالطبع ، لا يمكن تحليل هذا الشيء الإنساني أو إثباته ؛ وذلك لأنَّه خبرة شخصية تمامًا . فعندما كنتُ في السجن ، وفي لحظات الضعف والكآبة التي قد تستولي على الإنسان في مثل هذه الحال ، كنتُ دائمًا أشعر بأسوأ حالاتي إذا أكلتُ جيدًا . ودائمًا ما كان الجوع عونًا لي أكثر من سلَّة طعام عامرة تأتيني من البيت ؛ فلا أسوأ من اجتماع روحٍ خاوية ومعدة ممتلئة . ولكن ، ما سرُّ هذا؟ إنَّ التفكيرَ في هذا الأمر قد يساهم في فهمنا لحقيقة الإنسان أكثرَ من المناقشات الفلسفية العلمية العميقة حول هذا الموضوع .

١٣٤ عزَّزَ اختراعُ البارود من سيطرة الروح على القوة المادية المجرَّدة ، ورغم ما يبدو في الأمر من مفارقة ، فإنَّ البارود أعطى الفرصة لضعفاء البدن ، بشرط أن يمتلكوا الروح والشجاعة .

٢٥١ لا ينبغي إثبات مزايا الحرية بشيء خارج الحرية ذاتها ، فالحرية مكتفيةٌ بذاتها .

٢٨٢ علامات الثورة في كلِّ مكان . إنَّه اضطرابٌ يصل إلى أعماق عالمنا ، إلى أقصى جذوره .

٢٨٣ ينتمي هيدجر(*) وفلسفته عن الموت إلى عالم الفكر والشعور المسيحي كليًا، تمامًا كما ينتمي ماركس وفلسفته المتفائلة عن الحياة إلى عالم اليهودية والعهد القديم، والتحيُّزات الصورية لا تعني الكثير. ماركس وهيدجر يُشبهان موسى والمسيح، العهدَ القديم والعهدَ الجديدَ، اليهوديةَ والمسيحيةَ. فلسفة ماركس سطحية ومتفائلة، بينما فلسفة هيدجر عميقة ومتشائمة. والفلسفةُ الحقيقيةُ هي تلك التي تضع في اعتبارها حقيقةَ الموت؛ وإلا فإنَّ السؤالَ الذي يبقى مطروحًا دائمًا هو: كيف يمكن للمرء أن يتحدَّث حقًا عن الحياة، بينما يتجنَّب الحقيقةَ الوحيدةَ التي لا شكَّ فيها؛ حقيقة الموت؟

٢٩٤ كان هناك رجلان يتقامران على سطح سفينة تيتانيك وهي تغرق، وكان أحدهما يغشُّ الآخر. في الحياة الحقيقية، الكثير من الناس يشبهون هذين الاثنين.

٣٠٤. حين تكون في السجن، لا يكون لديك سوى رغبة واحدة: الحرية. وإذا مرضتَ في السجن، فإنَّك لا تفكِّر في الحرية، وإنَّما تفكِّر في الصحة. الصحة، إذن، أهمُّ من الحرية.

٣٢٥. أشُكُّ في صدق عبارة: «فلاح غبي». فالغباء أكثر شيوعًا لدى من يُسَمَّون بدراويش الثقافة، وهو أكثر أشكال الغباء وضوحًا وإثارةً للاشمئزاز. فادِّعاءُ سعة الاطلاع يكشف الغباءَ أكثر مما يُخفيه، وفيه يكون الغباءُ أوضحَ ما يمكن. ولم ألمس قطُّ وجود هذا النوع من الغباء لدى الفلاحين.

٣٢٦. كثرةُ القراءة لا تجعلنا أكثرَ ذكاءً. فبعض الناس «يلتهمون» الكتبَ من دون الوقفات الضرورية للتفكير، هذه الوقفات ضروريةٌ من أجل «هضم» المقروء ومعالجته، من أجل استيعابه وإدراكه. حين يتحدَّثُ أُناسٌ من هذا النوع، فإنَّ شذرات من هيجل وهيدجر وماركس تخرج من أفواههم كما هي، بلا هضم أو معالجة. إنَّ القراءة تقتضي إسهام القارئ فيما يقرأ، ويحتاج هذا إلى وقت، كالنحلة تُحوِّلُ الرحيق في بطنها إلى عسل.

(*) مارتن هيدجر (١٨٨٩-١٩٧٦م) فيلسوف ألماني، انشغل بمشكلات الوجود والحقيقة والحرية والتقنية، له تأثير كبير على مدارس فلسفية كثيرة منها الوجودية والتفكيكية وما بعد الحداثة، بل تعدَّى تأثيره إلى مجالات الأنثروبولوجيا واللاهوت والنظرية الأدبية والنظرية الاجتماعية. عمله الأهم والأشهر هو كتاب «الوجود والزمان» الذي يُعتبر أحد أهم الأعمال الفلسفية في القرن العشرين. (المترجم)

٣٢٨ أدخل نيوتن وداروين وفرويد الجبرية في كل شيء درسوه؛ فالأول أدخلها في الكون، والثاني أدخلها في عالم الأحياء، وأدخلها الأخير في النفس. فيما بعد، خضعت هذه الأنماط الثلاثة من الجبرية للتشكيك، وبالترتيب نفسه، وقد بدأ الأمر مع رفض أينشتين لرؤية نيوتن للكون.

٣٥٥ في العالم، توجد الأشياءُ في علاقات تكافل أكثر من كونها في علاقات عِلِّيَّة. وبدلاً من أن نرى الأشياء في علاقة سببٍ ونتيجةَ، ينبغي أن نراها في ارتباطها وعلاقَاتها التكافلية التضامنية.

٣٦٠ كثيراً ما تكون حكايتهم الطويلة بفيض كلماتها إشارةً واضحة إلى خواء جعبتهم.

٣٦٦ الحياة لعبة، حيث الجميع في خُسر. ﴿**إلاَّ الَّذينَ آمَنُوا وعملُوا الصَّالحَات...**﴾ (القرآن الكريم، سورة العصر).

٣٧٧ كانت تيريزا، بطلة رواية كونديرا(*) (خفَّةُ الوجود التي لا تُحتمل)، تنظر إلى العُري بوصفه إشارةً إلى فرض التماثل القهري في معسكرات الاعتقال؛ إشارةً إلى الإذلال.

٤١٣ هل العالم مُنقسمٌ إلى خير وشر؟ ومن ثمَّ، هل الإنسان كذلك منقسم هذه القسمة؟ أعتقد أنَّه هنا يكمن الاختلاف بين الرومانتيكي والواقعي. فالرومانتيكيون يروْن العالم ساحةَ صراعٍ بين البشر، منهم الأخيار ومنهم الأشرار. ويرى الواقعيون الصراعَ ذاتَه، ولكنَّه -في المقام الأول- صراعٌ داخل الإنسان نفسه، وأعتقد أنَّ هؤلاء هم الأقرب إلى الحقيقة.

(*) ميلان كونديرا (١٩٢٩م-) كاتب وروائي تشيكي، يُعتبَر أحد أهم الروائيين المعاصرين الأحياء، هاجر إلى فرنسا بعد منع كتبه من التداول في التشيك إثر الغزو السوفييتي للتشيك، ثم أُسقطت عنه الجنسية التشيكية بعد نشره لكتابه «كتاب الضحك والنسيان»، فحصل على الجنسية الفرنسية عام ١٩٨١م بعد تقدمه لطلب بذلك. من أهم أعماله «خفَّةُ الوجود التي لا تُحتمل» و«الخلود» و«كتاب الضحك والنسيان» و«المزحة» و«الهوية». (المترجم)

٤١٧ . في مسرحية «الملك لير»، يُبيّن شكسبير أنَّ الملك لير لم يفهم الحياةَ إلا عندما فقد عقله، وأنَّ جلوستر لم يرَ الحياة إلا عندما فقد بصره. في الغالب، ليس بالعقل والبصر يفهم الإنسان ويرى، بل الروح هي التي تفهم وترى.

٤١٨ . توجد أماكنُ أكثرُ بؤسًا وكآبةً من المقابر، فالناس يذهبون إلى المقابر مُحمَّلين بالذكريات والمشاعر، يبكون ويضعون الورود. ولذلك، لا ينبغي أن نقول: كئيبٌ مثل مقبرة. فالمقارنة خاطئة.

٤٢٣ . إذا كنتُ لا أستطيع أن أتحدَّثَ بحرية مع صديق -ومن الواضح أنني لا أستطيع، هكذا يُشير الحكم الصادر بحقي- وإذا انتفتْ الخصوصيةُ تمامًا، فنحن، إذن، في معسكر اعتقال. إنَّ الأمر هنا ليس مجرَّدَ عنف عادي؛ إنه القضاء الكامل على الخصوصية، وهذه إحدى سمات معسكرات الاعتقال.

٤٢٦ . ليس هناك دليلٌ على وجود الروح، إلا ما تكشف عنه بعض أسئلتنا التي لا إجابة لها. ومن هذه الأسئلة: لماذا يُحدِّثنا الشعر عن الروح الإنسانية أكثر مما يُحدِّثنا علمُ النفس المُعاصر كلُّه؟ لماذا يكون الشعراءُ هم من يكشف النقابَ عن الروح وليس علماء النفس؟ لماذا شكسبير وليس فرويد أو يونج؟ ولعلَّ هناك سؤالاً آخر: لماذا كلَّما زاد الخير في أيدينا قَلَّ رضانا؟ أو: لماذا نشأت الفلسفة التشاؤمية في بلاد الوفرة والغنى؟ لماذا يتأثَّر الإنسان سلبًا بالراحة والرفاهية؟

٤٢٨ . انظر إلى مبنى شاهق، صحيح أنَّه متماسكٌ بفعل أنواع الملاط المستخدمة أو الصلب الذي يتخلَّلُه، غير أنَّ الحقيقةَ الفعليةَ هي أنه متماسكٌ بفعل الفكرة الكامنة في توازنه الأساسي وفي دقَّة النِّسَب بين أجزائه.

٤٥٧ . تُوضِّح حالةُ ڤولتير (وليس ڤولتير وحده) أنَّ التربية قد تؤدِّي إلى ما لم يكن في الحسبان؛ فقد ربَّى اليسوعيون ڤولتير، ولكنَّهم ربَّوا داخله أعدى أعدائهم.

٥٠٠ . ثمَّة بعضُ المفارقات. فلو لم يوجد الليلُ، لحُرِمنا من المشهد الرائع للسماء المرصَّعة بالنجوم. وهكذا، يُجرِّدنا الضوءُ من «الرؤية»، ويساعدنا الظلام على أن «نرى».

٥٠٩ الكلمةُ التي تكشفُ الحقيقةَ، يمكن استخدامُها أيضًا لإخفائها.

٥٢١ المحاكاة أوضح صور القبول.

٥٢٣ السؤال الأعمق والأهم الذي طرحه العقل البشري على نفسه، أهمُّ سؤال سُئِلَ على الإطلاق، هو: لماذا كان وجودٌ ولم يكن عدمٌ؟ أو: لماذا كان الوجودُ أصلاً؟ أعتقد أنَّ هذا السؤال هو السؤال الأساسي لمبحث الوجود (الأنطولوچيا).

٥٣٣ قد تكون هناك أكاذيب لا نهايةَ لها حول الشيء الواحد نفسه، ولكن حقيقتَه واحدة.

٥٣٤ الحياة شيءٌ خطير. عدم الأمان هو ثمن الحياة. أمَّا الآمنون كلَّ الأمن فهم هؤلاء الذين ماتوا وهؤلاء الذين لن يولدوا أبدًا.

٥٤٠ أدرك أفلاطون، منذ زمنٍ طويلٍ، أنَّه من المستحيل مناقشةُ أيِّ شيءٍ قبل الاتفاق على المصطلحات، أي الاتفاق على دلالة المفاهيم والأسماء.

٥٦٢ الوجودية فلسفةٌ من جهة موضوعها، وهي فنٌ من جهة الوسائلِ التي تستخدمُها لمعالجة هذا الموضوع.

٥٦٣ كلُّ محاولات هيدجر لإقامة «فلسفة الوجود»، هذه المحاولات المدفوعة بدأبٍ ومعرفة وشغف لا يُصدَّق، كلُّها، وباعترافه هو، باءت بالفشل.

٥٧٨ يقول المثل السائر: «أن تتعاملَ مع ذكيٍّ شرير خيرٌ من أن تتعامل مع أحمق لطيف طيب». علَّةُ ذلك، على الأرجح، أنَّ الوغدَ الذكيَّ تُحرِّكه المصلحةُ، ومن ثَمَّ يُمكن غالبًا توقُّع تصرفاته، عكس الأحمق اللطيف الطيب، أي إنَّك مع الذكي الشرير تعرف أين تقف وماذا تتوقَّع.

٥٨٥ في لحظات المأساة الحقيقية، لا يوجد مكانٌ للتمثيل أو للحزن المُفتَعَل.

٥٨٨ أحيانًا يسخر التاريخ منَّا ومن أفضل نوايانا.

٥٩١ . سُئل إيڤو أندريتش(*) ذات مرَّة، ما أهمُّ رسالة يمكن أن يقولها إذا ما طُلب منه أن يعطي رسالة شديدة الإيجاز، فقال: «لا تسكروا». كان أندريتش يعرف أنَّ هناك شرورًا أخرى سيختفي معظمها لو توقَّف الناسُ عن السكْر، ومع ذلك فقد أكَّد الأديب أنَّه: «عندما يتحدَّث الناس عن أضرار الخمر ومفاسدها، فإنهم يُقدِّمون أمثلةً كثيرة مُقنعة؛ فالطبيب يتحدَّث عن ضررها على الصحة، والمشتغل في المجال الاجتماعي يتحدَّث عن المشكلات العائلية الناتجة عن تعاطى الخمور، كالطلاق، والأطفال التعساء، والبيوت المُدمَّرَة، ويتحدَّث الموظفون الرسميون عن الأضرار الاقتصادية، إلخ، غير أنَّ هناك سببًا واحدًا يُهمَل غالبًا، ولعلَّه السببُ الأهمُّ: الكرامة الإنسانية. أودُّ أن أقولَ للناس: لا تسكروا، من أجلكم أنتم، من أجل احترامكم لأنفسكم، من أجل كرامتكم، لا تُهينوا أنفسكم».

وتعليقي: على ما يبدو، فإنَّ هذا هو تفسير لماذا يصل منع الخمر إلى درجة أن يصبح قضيةَ تحريمٍ ديني؛ وذلك لأنَّ الدين قد لا يبالي فيما يتعلَّق بحسابات المكسب والخسارة، لكنَّه لا يمكن أن يبقى غيرَ مُبال فيما يتعلَّقُ بانتهاك الكرامة الإنسانية.

٦٩٥ بين الحزن واللا مبالاة، سأختار الحزن.

٦٩٦ الزيف هو الشيء الوحيد الأكثر بشاعة من حقيقة بشعة.

٧٨٢ إذا لم أقتل الوقتَ، قتلني.

٧٩٠ الحزن مسألة تتعلَّق بالروح، وليس النفس، ولذلك كان دائمًا موضعَ اهتمام الفلاسفة والشعراء (ورجال الدين أيضًا)، وليس الأطباء النفسيين.

٨٢٤ . إذا كان هناك شيءٌ ما له كاريزما وسحر، فهو المعاناة («كاريزما المعاناة»).

٨٢٥ . يمكن للإنسان أن يهربَ من الحاضر البغيض في اتجاهين: الماضي أو المستقبل، ويتوقَّف الاختيار على طبيعة الشخص وقناعاته. أمَّا ما يُسمَّى الانسحاب الكريم من الواقع

(*) إيڤو أندريتش (١٨٩٢-١٩٧٥م) أديب وروائي من صرب البوسنة، حصل على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٦١م، أشهر أعماله رواية «جسر على نهر درينا». (المترجم)

فقد يكون محض جُبْن، أو استسلامًا في مواجهة الواقع، أو خداعًا للنفس مشفوعًا بالنحيب. ومن الصعبِ أن نعرف بالضبط أي موقف من هذه المواقف يصلح لوصف حالة بعينها.

٨٤٧. ليست القضيةُ قضيةَ كرامة الحياة فقط، بل أيضًا كرامة الموت، فكلاهما مرتبط بالآخر. إنَّ عدمَ احترام الموت هو نتيجَةٌ لعدم احترام الحياة.

٨٥٣. شيئان مختلفان تمامًا: خبرتُنا بالحياة، ومعرفتُنا بالحياة. وبالمثل، أن تكونَ فنَّانًا، أن تُبْدِع، هذا شيءٌ، وأن تكون على معرفة بالفنِّ، أو جاهلاً به، هذا شيءٌ آخر، وهذا الأمر الأخير هو الأكثر شيوعًا والأقرب للحقيقة.

٨٧٣. يُقال إنَّ الرياضيات هي ابنة العقلانية.

٨٧٦. إنَّني على قناعة بأنَّ من الأمراض ما لا يُصيب الحمقى. وأعتقد أنَّني، إن حاولتُ، أستطيع أن أُعَدِّدَ بعض هذه الأمراض.

٨٧٨. أيُّ درجات الشرف أعلى؟ هي خصلة تعلو على ما سواها: أن تكون صادقًا مع نفسك ومع قَدَرك.

٨٧٩. ما حجم خيبة الأمل؟ بقدر ما كان الأمل. الأملُ الكبيرُ تنشأ عنه خيبةُ أملٍ كبيرة.

٨٨٠. «بئس العصر عصرنا، حيث أمكن تحطيم الذرة وتعذَّر تحطيم التحيُّز الأعمى» ألبرت أينشتين.

٨٩٨. يُتيح السجنُ للمرء أن يُدرك من الأمور ما يمكن وصفه بأنَّه «جوهري إلى حدِّ الألم».

٩٢٩ يتحدَّث الإنسان المخلص بقسوةٍ أكثرَ مع من يُحبهم، أو عن الأشياء التي يهتمُّ بها أكثر من غيرها.

٩٦٦ هل يمكن للحياة أن تنتهي نهايةً سعيدةً؟ كيف تتخيَّلُ هذه النهاية؟ أليس ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسرٍ﴾؟ (القرآن الكريم، سورة العصر).

٩٩٨ يقول مخرج سينمائي شهير: «مَن يقرأ كثيراً، فهو إمَّا واسع الثراء أو فقير مُعدَم». وأضيف أنا: أو سجين (مثلي).

١٠١٠ لم ألاحظ خلال فترة سجني أيَّ هبوط في رغبتي في الحياة، لكنّي كنتُ على وعي بأنَّني أجد الراحة في تذكُّر أنَّ الموت ليس بعيدًا عمَّن في عمري. كنتُ أجد في هذه الفكرة راحة وسلوى، واحتفظتُ بها كَسرٍ كبير.

١٠١٢ يتَّهِمُنا الواقعيون بأنَّ ما نقوله أو نفكّر فيه بشأن الإنسان مثالية مُفرطة وليس الحقيقة. نعم، ربما لا يكون كلامنا عن الإنسان كما هو، ولكن بالأحرى عن رغباتنا، أي لا نتحدَّث عن الإنسان بما هو عليه بالفعل، ولكن عمَّا ينبغي أن يكون عليه. قد يكون هذا صحيحًا، إلا أنَّ هذا الحلم الجميل بما ينبغي أن يكون عليه الإنسان هو ما يجعلنا بشراً، ولو طرحنا هذه الفكرة جانبًا باعتبارها وهمًا أو حماقة، وذلك باسم «الحقيقة» أو «الواقعية»، فسيختفي كلُّ شيء يجعل حياتَنا مُحتَمَلَة، وسنصبح في آخر الأمر مُهَيَئِين لكلِّ الشرور والشناعات التي يميلُ إليها الإنسان. وللأسف، فقد وقع بالفعل كثيرٌ من هذه الشرور والشناعات في أجزاء واسعة من كوكبنا، وقد بدأ الأمر باسم «حقيقة» أنَّ الإنسان غير موجود.

١٠٤٩ الإنسان السعيد ليس لديه قصة حياة. ومن الممكن للمرء أن يقول: الأمر مُملٌّ مثل سيرة حياة رجل سعيد يعيش في وقت السِّلْم. على الأقل هذا ظاهر الأمر. ولكن هَل الأمر هكذا بالفعل؟ هل هناك رجلٌ سعيد حقًا؟ هل المواطن السويسري العادي أو السويدي العادي سعيد اليوم فعلاً؟ قد نجد شيئًا عن هذا الأمر في أعمال كُلٍّ من باور Bauer وإبسن.

١٠٨٠ هناك مستويات من الوعي والإدراك لا يمكننا أن نتحقَّق منها بأية طريقة إلا بأن نكابدها بأنفسنا. سيُكلِّفُ الأمرُ بعضَ المعاناة (والألم) حتى نصل إلى هذا المستوى، حتى نرى ونتيقَّن بأنفسنا، لكن ليس هناك طريقة أخرى.

١٠٩٤ يمكن للمرء أن يكون عجوزًا بطريقتين؛ إمَّا أن يكون مثل حذاء عتيق، وهذه هي الطريقة الأولى، أو يكون مثل مدينة عتيقة أو على الأقل شجرة سنديان عتيقة بلغت

من العمر مائة عام. يستطيع المرء أن يكبر ويصير عجوزاً بالطريقة الثانية إن شاء. بيد أنَّ الأمر بحاجة إلى روح. فما الروح؟ ربما لا يُعرَف لهذا السؤال إجابة، وقطعًا ليس له إجابة مباشرة، لكنَّ سقراط يحضرني. هذا الحكيم اليوناني العجوز ذو النهاية البائسة والوجه الدميم الذي أحبَّه الجميع، كان، رغم ذلك، مثالاً للإجلال والاحترام من قِبل هؤلاء الذين عرفوه جيدًا، خاصة تلاميذه. على الأقل قد يكمن هنا جزءٌ من إجابة السؤال: ما الروح الإنسانية؟

١١١٧ من اجتمع لهم منتهى الحكمة وذروة الرّوحانيّة، هذا الصنف من الناس هو من يعرف كيف يفرح ويبتهج بلا حدود، وكيف يتألم ويعاني إلى ما لا نهاية، هذا الصنف من الناس ديدنه الغلوّ.

١١٢٢ حتى الحكمة الأكثر عمقًا والأكثر ثراءً التي قد «يعرفها» الإنسانُ، أو يشعر بها، أو «يحياها»، بمجرَّد أن ينطق بها فإنَّها تصير فكرة، تُختَزَلُ إلى فكرة. والفكرة، بطبيعتها، جزئية وذات بعد واحد. وتلك هي الحدود الإنسانية التي لا مفر منها أو حدود المعرفة والتواصل الإنساني.

١١٢٣ الشاعر الحق، الفنَّان الحق، «ملتزمٌ» حتى عندما لا يرغب في ذلك. إنَّ فنَّه - إذا كان فنًّا أصيلاً - هو دائمًا شهادةٌ ضد الكذب والزيف، وهنا يكمن التزام الفنان الذي لا مهربَ منه.

١١٨٢ تأتي على الإنسان أحوال يوقظ فيها تذكُّرُ الموت رغبةً في الحياة ويُحرِّك الروح من خدرٍ تام.

١١٨٧ هكذا امتدحوا الشيخوخة (وما زلت لا أعرف ما إذا كانوا على صواب أم لا)، يقول أفلاطون: «لا تنجلي عين الروح إلا أن تعشوَ عين البدن». ويقول سينيكاً: «تزدهر الروح وتمرح حين تضعف صلتها بالجسد». ويقول زوبر Zuber: «يبدو هؤلاء الطاعنون في السنِّ كأنَّما قد تطهَّروا من الجسد وتحرَّروا منه». ويقول تولستوي: «ندين لكبار السن بالرُّقيِّ الأخلاقي في عالمنا». ويقول ڤواندو Vuando: «كلَّما دنا الجسد من سقوطه، ارتقت الروح إلى ذروتها»، إلخ.

١١٩٣ يعاني المرء في السجن من نقص في المكان وفائض من الزمان. وللأسف، فالمكان والزمان لا يمكن لأحدهما أن يُعَوِّضَ عن الآخر.

١٢٣٢ هناك أناسٌ أحياءٌ من الناحية البيولوجية فحسب، أما من الناحية الوجدانية والنفسية فهم في عداد الموتى. فالحي هو من تتَّقد روحه بالحياة.

١٢٣٣ رغم ما في الموضة من مبالغات كثيرة، بل وتفاهات، إلا أنَّ لها وجهًا مفيدًا: إنَّها تُعبر عن حاجة الفرد إلى أن يكون فردًا، أن يكون «مختلفًا».

١٢٣٥ بطريقة ما، فإنَّ الطفل أكثر إنسانية من الرجل البالغ؛ فالطفل لديه السمات الأكثر جاذبية والأكثر إقناعًا، وهي تلقائيةُ الإرادة والمشاعر. ومن ثمَّ، وبينما يكبر الإنسان، فإنَّه يفقد بعضًا من «إنسانيته»، بعضًا مما جاء به من الجَنَّة. وخلال الحياة، يتحرَّك الإنسانُ مبتعدًا عن أصله، ولهذا ﴿**إنَّ الإنسانَ لَفِي خسرٍ**﴾ (القرآن الكريم). فهل حياتنا هي زيادة مستمرة للإنتروبيا(*)، تمامًا مثل «حياة» الطبيعة؟

(*) الإنتروبيا Entropy مصطلح فيزيائي أساسي وفي غاية الأهمية في الديناميكا الحرارية، له دلالات متعددة. وهذا تبسيط مُخلٌّ لمضمونه: يميل أي نظام مُغلق إلى التحوُّل إلى حالة من التجانس والتساوي بين جميع أجزائه مع مرور الوقت. فمثلاً، عند إلقاء نقطة حبر في كوب ماء نلاحظ انتشار الحبر في الماء رويدًا رويدًا مع مرور الوقت حتى يصل النظام (حبر ذائب في الماء) إلى حالة من التجانس والاتزان وتساوي انتشار الحبر في الماء، هنا نقول إن إنتروبيا هذا النظام قد زادت وتغيرت، فالماء وحده له إنتروبيا، والحبر وحده له إنتروبيا، ولكن إنتروبيا الحبر الذائب في الماء أكبر من مجموع إنتروبيا كلٍّ من الماء والحبر منفصلين. الإنتروبيا هنا تشير إلى احتمالات وطرق انتشار ذرات الحبر بين ذرات الماء، إلى احتمالات «الفوضى» وعدم الترتيب للوصول إلى حالة الاتزان والتساوي بين جميع أجزاء النظام. ولتحديد مدلول الإنتروبيا بدقة، نلاحظ أن انتشار الحبر في الماء سهل ويحدث بشكل طبيعي، ولكن إذا أردنا فصل الحبر عن الماء فهذه عملية صعبة وتحتاج إلى بذل «شغل» أي بذل «طاقة»، وهنا نقول إن إنتروبيا هذا النظام مرتفعة. إذن، احتمال الوصول إلى حالة التساوي بين جميع أجزاء وذرات النظام واحتمالات الفوضى وعدم الترتيب أسهل وأكبر من احتمال بقاء ذرات الحبر وذرات الماء في حالة انفصال وتنظيم وترتيب، ومن ثمَّ، فإن إنتروبيا الحبر الذائب في الماء أعلى بكثير. لنتخيّل أنّ الطبيعة بأسرها أو الكون هو هذا النظام المغلق، والإنسان أحد أجزاء هذا النظام، من المعروف فيزيائيًا أن الطبيعة تسير في اتجاه زيادة مستمرة للإنتروبيا، أي الوصول إلى حالة التجانس والاتزان بين جميع أجزائها، أو ما يُسمى بالاتساق الخامد، عدا الكائن الحي، فهو وحده يسير عكس الاتجاه، أي نقص الإنتروبيا، أي البقاء مستقلا عن النظام الطبيعي المادي حتى يموت. =

١٢٥٧ كنتُ دائمًا أتساءل عن الفرق بين القصة وتقرير عن حدث ما. إنَّ مضمون القصة ليس فقط الحدث نفسه، ليس الحقيقة ذاتها، ولكن بالأحرى هو الحدث كما عايشتُه أنا. إنَّ القصة ليست حقيقية، ولكنَّها تحمل معنى ما، أمَّا التقرير فهو حقيقي، ولكنَّه بلا معنى، إنَّه مجرَّدُ جَمْعٍ من الحقائق، بينما القصة هي حدثٌ مُنَظَّم. وقصةٌ بلا نهاية أو غاية ليست قصةً؛ إذ يتوقَّف الزمن فيها عن أن يكون تيارًا مُتَّصلاً، وفي القصة يكون الزمن، بطريقة ما، ذا حدود مرسومة. ليست القصة هي الحقيقة، مع أنَّها يمكن أن تكون كذلك، بل إنَّ الحقيقة تعوق القصة أكثر من أن تساعدها لتكون قصة.

١٢٦٧ ليس كلُّ ما هو غير عقلاني بلا معنى، ولا كلُّ عقلاني له معني. أحيانًا يكون العكسُ صحيحًا.

١٢٧٥ لا يمكن تجنُّبُ الكَبَد، ولكن يمكن تخفيف وطأته بالأفكار. كلُّ ما هو حيٌّ يكابد ويعاني، لكنَّ الإنسان وحده هو الذي يُضفي على الكبد والمعاناة معنى ما، وهذا هو الفرق.

١٢٧٦ كلُّ تفكير عقلاني يسعى تلقائيًا نحو تكوين نَسَقٍ ما، وهذا هو الجانب الإيجابي في الأمر، كما أنَّه الجانب السلبي أيضًا.

١٢٩٥ يؤدِّي الإنسان الحق مهمَّته الإنسانية، أو يُفني عُمرَهُ محاولاً تحقيقَها. وهذا مبتدى ما نطلق عليه «الإنسان» ومنتهاه. وإدراك كنه هذه المهمة، عادةً، أمرٌ شخصي. وما الدين والأخلاق إلا محاولات لجعل هذه المهمة موضوعية، أي لتحديدها ولجعلها أقلَّ ذاتية. هذه المهمة، دائمًا، هي شيءٌ يتجاوز البُعد البيولوجي المجرَّد، فالحيوانات تحيا أيضًا. ولكي يكون المرءُ إنسانًا، ينبغي أن يكون لديه شيءٌ ما أرقى من الحياة البيولوجية فقط. ليست القضية كيف يعيش المرءُ، بل لماذا يعيش.

= ولفهم ما يتحدث عنه بيجوڤيتش في الفقرة المذكورة، لنتخيل أنّ الإنسان يأتي طفلاً إلى هذا العالم مستقلاً ومختلفًا عنه تمامًا، خاصة من الناحية الروحية والنفسية والأخلاقية، وعليه أن يبذل طاقة ومجهودًا ليبقى كذلك محافظًا على حالة الأصل والخصوصية الإنسانية حتى يموت، ولكن إذا انخرط الإنسان بمرور الوقت في عالم المادة والطبيعة واتجه إلى الانسجام مع قوانين الطبيعة والمادة فهنا نقول إنّه ينطبق عليه قوانين الطبيعة، أي يتجه ناحية الزيادة المستمرة في الإنتروبيا، أي يفقد خصوصيته الإنسانية، ويتحرك مبتعدًا عن الأصل، فلا يكون هناك فارق بينه وبين أي جزء آخر من الطبيعة. (المترجم)

١٣٢٤ كثيرًا ما كنتُ أتباهى (أمام نفسي وأمام الآخرين) بأنّي أتطلّع إلى المستقبل لا إلى الماضي، وكان الأمر هكذا بالفعل. كنتُ أظنُّ أنَّ هذا الأمر ميزةٌ خاصةٌ بي. من المؤكَّد أنَّه كان شيئًا مفيدًا، إلا أنَّه لم يكن ميزة. فلم يَمُرّ وقتٌ طويل حتى أدركتُ أنَّه كان هروبًا من الماضي ومن الذكريات الأليمة. وبدا لي في لحظات بعينها أنَّه لا يوجد شيءٌ جميلٌ في أي شيء قمتُ به في حياتي؛ بدا الأمر كلُّه كأنَّه جحيم كان بإمكاني إنقاذُ أطفالي الثلاثة منه (فهل أنقذتُهم بالفعل؟).

١٣٢٥ يقول كانط إنَّ قوانين الظواهر الطبيعية لا بدَّ أن تتوافق قبْليًا مع العقل وتصوراته(*)، وإنَّ مقولات العقل تُحدِّدُ قوانينَ الظواهر، ومن ثمَّ تُحدِّدُ أيضًا قوانينَ الطبيعة، وذلك باعتبار أنَّ الطبيعة هي «مُركَّب جميع الظواهر». ومن ثمَّ، فالعقل ذو قدرة على وضع القوانين؛ إذ من الواضح أنَّ هناك توافقًا بين الطبيعة والأفكار التي تتعلَّقُ بموضوعات التجربة والخبرة الحسية. السؤال هنا: كيف يتحقَّق هذا التوافق؟

١٣٢٩ هل هناك أحد من بين الساسة والمفكِّرين يتذكَّر البارون تسدلتس Baron Zedlitz الذي خاطبه كانط (في إهداء كتاب نقد العقل الخالص) قائلاً: «خادمكم المتواضع والمطيع للغاية»؟

١٣٣٢ يبدو لي أحيانًا أنَّه لكي يتحمَّل المرءُ ضغوطَ الحياة فلا بدَّ له أن يصطلي بنيران الجحيم، وهذا يعني أن يتحمَّلَ ما لا يمكن تحمُّلُه، وأن يقبلَ ما لا يمكن قبولُه، أن يقبلَ كلَّ شيء يخشاه، كلَّ شيء. وفقط حين يبدو أنَّ كلَّ نوازل الدنيا وآلامها قد أصابته، وأنَّه قد

(*) يقول كانط في كتاب نقد العقل الخالص: «المقولات العقلية بدون معطيات حسية جوفاء، والمعطيات الحسية بدون مقولات عقلية عمياء»، أي إنَّ المعرفة مُركَّبٌ يجمع بين العقل والمادة، الفكر والواقع، وبهذا أراد كانط تجاوز الخلاف التقليدي بين المثالية والمادية. ولتقريب فكرة كانط عن التوافق والارتباط الوثيق بين قوانين الطبيعة ومقولات العقل وتصوراته يمكن تشبيه هذه العلاقة بجهاز استقبال القنوات الفضائية، فلمشاهدة إحدى القنوات لا بدَّ أن يتوافق تردد جهاز الاستقبال مع التردد الخاص بالقناة الذي يبثُّ عليه القمر الصناعي موجاته، فجهاز الاستقبال بدون الموجات التي يبثُّها القمر الصناعي هو قطعة معدنية جوفاء لا قيمة لها، والموجات بدون جهاز يتوافق معها ويستقبلها ويعرضها على الشاشة تبقى مجرَّد موجات عمياء في الفضاء لا قيمة لها. ثم يذهب كانط خطوة أبعد حيث يقول إنَّ العقل، من خلال مقولاته القبلية الأولية، يلعب دورًا أساسيًا في تحديد قوانين الطبيعة وصياغتها حتى يستطيع فهمها والتعامل معها، والطبيعة هنا موجودة مستقلة عن العقل، عكس ما يقول المثاليون، بل هي أحد طرفي مُركَّب المعرفة. (المترجم)

تجرّع كلَّ كؤوس المرارة عدا تلك الأشدَّ مرارة، فهذا يعني أن يأخذ تلك الكأس ويتجرَّعها حتى آخر قطرة. هناك أُناسٌ يُقال إنَّهم قد أصابهم الشَّيْبُ بين عشيَّة وضُحاها، فهل هؤلاء هم الذين نزلوا إلى قعر الجحيم، وما تبقَّى منهم حين عادوا كان شيئًا يمكنه أن يواجهَ العالم بأسره، سماءَهُ وأرضَهُ، وأن يواجه أيَّةَ حقيقة ويُحدِّقَ في وجهها؟ فكلُّ ما يمكن أن يحدث لهم قد حدث فعلاً ولم يعد هناك ما يخشونه، لم تعد هناك بقيَّةٌ من خوف. هؤلاء هم المُهيَّئون لأن يعيشوا حياتَهم، مهما كانت تلك الحياة، وأن يتحمَّلوا الطريق حتى نهايته في سكون وجلال. فهؤلاء الذين يمكنهم تحمّلُ الحياة يمكنهم تحمّلُ الموت؛ ذلك أنَّ الحياةَ أكثرُ صعوبةً وأشدُّ خطرًا من الموت.

١٣٥٦ يُولَدُ الإنسانُ بين الدماء والألم والصراخ، أوّلُ ما يُسمع هو بكاؤه، فالولادة ليست فعلاً طبيعيًا بالمعنى الحرفي للكلمة، بل هي فعلٌ أليمٌ مُفجعٌ إلى حدّ القسوة. ألا يُبين هذا عن شيء من حقيقة الحياة التي خُلقَتْ للتوِّ؟

١٣٨٨ يُضفي الشرُّ المعنى على وجودنا، قد يبدو هذا غريبًا ومُربكًا، لكن لولا الشرُّ ما كان الخير، ولولا الخيرُ والشرُّ لتحوَّل كلُّ شيءٍ إلى مجرّد آلة، وبالتالي إلى عدم (بلا قيمة أو معنى).

١٣٩٥ كنتُ أشكُّ في إيماني أحيانًا، بل كنتُ أتساءلُ هل أنا مؤمن حقًا؟ إلا أنَّ شيئًا واحدًا كان مؤكَّدًا: إنَّني أصبحتُ رجُلاً مُسنًا بالفعل، ومع ذلك لم يكن لديَّ كبيرُ خوف من الموت، ولم يخطر ببالي قطُّ أنني سأموتُ بالفعل. كنتُ مستغرقًا أكثر في الخوف من المسئولية التي كانت تنتظرني، وعندها أدركتُ أنَّ إيماني أقوى مما كنت أظنُّ، وأنَّ مثلَ هذا الشعور لا ينشأ إلا عن الإيمان بالله، ولا يحفظه إلا هو.

١٤٠٧ أحيانًا أتذكَّرُ شبابي كأنَّه قائمٌ أمامي، ذلك الشباب الباكر بكلِّ أوهامه الذي عصفتْ به حياتي اللاحقة وخلَّفت وراءها أرضًا خرابًا. ومع ذلك، لم يذهب كلُّ شيءٍ، فلديَّ أولادي. فالحمد لله على هذا.

١٤١٧ ما نُسَمِّيه حظًا سعيدًا يكونُ أحيانًا مجرّدَ تلاقٍ بين مُهمّتنا الشخصية ومُهمّتنا التاريخية، بين سيرتنا وتاريخنا، بين طموحاتنا الشخصيةً والاتجاهات التاريخية. يجد

البعض هذا «الحظَّ السعيدَ» في ترك ما هو شخصي وقبول الحقيقة التاريخية باعتبارها أمرًا شخصيًا. إذا ما نظرتُ إلى الأمور بهذه الطريقة، سأجد أَنَّ الجزءَ الأكبر من حياتي كان في صدامٍ وتعارضٍ مع الحقيقة التاريخية، ولم يبدأ التوافقُ والانسجامُ إلا مؤخرًا. ويالها من مفارقةٍ أن يحدثَ هذا الحظّ السعيد في هذه المرحلة المتأخرة من حياتي، هذه المرحلة التي أقضيها هنا في السجن. ومن الممكن أن أقولَ أيضًا: وُلدتُ قبل أوان سعادتي، وليتني وُلدت بعد موعدي بقليل. غير أنَّ الميلادَ شيءٌ من بين أشياء كثيرة لا نملكُ اختيارَها، إنَّه جَزءٌ من قَدَرِنا.

١٤٣١ اليوم هو السبت ٢٨ يونيو ١٩٨٦م، انتهيتُ من قراءة رواية هيرمان هيسه «لعبة الكريَّات الزجاجية» (اليوم يُتمُّ ابني عامَه الثلاثين، وأمامي تقريبًا تسع سنوات أقضيها في السجن). كانت الرواية «كثيفَة» للغاية، حتى إنَّني كنتُ أشعر أحيانًا كما لو أنَّني في غابة حيث يجب عليَّ أن أشقَّ طريقي خلالها بمنجل. إنَّها واحدةٌ من أفضل الكتب التي قرأتُها على الإطلاق، وبالتأكيد هي أحد أقرب الكتب إلى أفكاري ومشكلاتي.

١٤٥٢ لا يختار الحبُّ الحقيقيُّ سكنًا له إلا في قلب نبيل، أمَّا القلوبُ الأنانيَّةُ فلا تعرفُ الحبَّ.

١٤٥٨ خصَّص دانتي الدرك التاسع من الجحيم(*) للخائنين، وهو الدرك الأبشع.

١٥١٦ في الأدب، لا تكمنُ عظمةُ البطلِ في أهمّيته الاجتماعيَّة، ولكن في حجم المعضلة الأخلاقية التي يُقدِّمها. فالشخصية تكون عظيمَةً إذا كانت تُقدِّم الخير والشرَّ في الرواية، بصرف النظر عن منزلتها الاجتماعية أو لقبها أو مكانتها. ولهذا، قد يكون الملكُ في رواية أو مسرحيَّة شخصيةً عديمةَ الأهميَّة ويكون الخادمُ بطلاً لماذا لا يكون الأمر هكذا في الحياة؟ السببُ هو أنَّه في الكتابة يُدخلُنا الكاتبُ إلى روحِ البطل وعالمه الجوَّاني، في حين أنَّنا في الحياة الحقيقيَّة نعرف النَاسَ فقط من خلال عالمهم البرَّاني. فقد يكون هناك إنسانٌ بالقرب منَّا لسنوات (في العمل أو في الجوار) وقد نظنُّ أنَّنا نعرفه، في حين أنَّ ما

(*) في القسم الأول من «الكوميديا الإلهية»، وهو الجحيم، يُقسم دانتي الجحيم إلى تسع دركات، حيث الدرك الأول هو الأهون والأقرب إلى الجنة، والدرك التاسع هو الأسوأ والأشد عذابًا. (المترجم)

نعرفه في الحقيقة هي الأشياء التي لا تحمل أيَّةَ قيمة أخلاقيَّة، مثل: الاسم، والمهنة، والوضع المادّي، والمكانة الاجتماعيَّة، إلخ. أمَّا المُهم حقًّا وما لا يستطيع أحدٌ إلا الكاتبَ أن يُحدِّثَنا عنه فيبقى عادةً غير معروف لنا.

١٥٢٥ هناك شخصياتٌ «جبَّارة»، وهي جبَّارة فقط بسبب ضعف المجتمع أو الوسط الذي يتحرَّكون فيه.

١٥٢٦ لا يمكنُك التخلِّي عن مبادئك حتى وأنت ترى بوضوحٍ تام أنَّه لا مكانَ لها في الواقع. إنَّه موقفٌ مأساوي.

١٥٢٩ هناك أناسٌ يُكدِّسون المعارفَ في عقولهم من دون أن تتَّسع رؤيتُهم، فهذا الاتِّساعُ لا يتحقَّقُ إلا من خلال الأفكار.

١٥٣٠ قد يلقى الأدباء القبول من المجتمع أو الرفض وسوء الفهم. في الحالة الأولى، يكونون في مواجهة خطر الانفصال عن الحياة والواقع، وفي الثانية يكونون في مواجهة خطر الاختفاء والتواري، وكلتا الحالتين قد وقعت بالفعل.

١٥٥١ هناك وجهان لاحتقار الناس ينشأآن عن مشاعر متعارضة تمامًا؛ إمَّا عن الأنانيَّة وعدم الشعور بالآخرين، وفي هذه الحالة يكون الاحتقارُ غطاءً للخواء الذاتي، أو أن يكونَ الاحتقار الوجهَ الآخر لحبِّ الناس، وبالتالي فهو نتيجةٌ للحبِّ الدائم للناس وخيبةِ الأملِ فيهم دائمًا. الحالة الأولى سمة الأنانيين وعديمي الشعور، والثانية سمة النفوس الكريمة النبيلة.

١٥٥٢ ما الذي تُمثِّلهُ نجمةٌ (أو صفحة السماء) لعالم الفلك، وما الذي تمثِّلهُ للشاعر، وأيُّهُما الصحيح؟ بالنسبة لعالم الفلك، السماءُ فضاءٌ مُوحشٌ شاغرٌ يُجسِّد نوعًا من الجبر (أو الهندسة). وبالنسبة للشاعر، النجومُ هي رسائلُ متلألئةٌ تُثير مشاعر حزينةً، أو هي رموزٌ للخلود والنظام الذي يُطلُّ من علٍ على عالم زائل متغير دائمًا. مرَّةً أخرى لدينا حقيقتان، فما الذي ينبغي للمرء أن يُعلِّمَهُ للطفل أولاً: قصيدةٌ جميلةٌ عن القمر أم معلومةٌ فَلَكيَّةٌ عنه؟

١٥٥٥ مشهدُ السماء المرصَّعة بالنجوم ممتع للعالم، والعابد، والباحث في الأخلاق، والشاعر، على حدٍّ سواء. وكلُّ واحد منهم، وهو ينظر إلى السماء، يُعايش شيئًا مختلفًا، ويرى صورتَه الخاصة. إنَّه لوحةٌ لا نهائية (مشهدٌ لا نهائي)؛ وما هو لا نهائي لا يمكن مقارنتُه إلا بنفسه، لا بشيءٍ آخر.

١٥٧٩ انتهيتُ لتوِّي من قراءة رواية تشارلز ديكنز (دايفيد كوبرفيلد) وتساءلتُ: هل يُعَدُّ السيد ميردستون وأخته، اللذان ابتدعا ذلك النظامَ الرهيبَ في التربية، هل يُعدَّان من الأشرار من وجهة نظر الأخلاق الصوريَّة؟ قد لا يكونان كذلك، إلا أنَّ المشاهدَ التي يصفها ديكنز، حيث تُشيع كلُّ كلمة من السيد ميردستون وكلُّ حركة من أخته بُرُودةً قاتلة، هذه المشاهدُ تكشفُ الغطاءَ عن نظّام قاسٍ بلا رحمة. فاللهمَّ احفظني من أهل الاستقامة والأمانة الذين لا قلب لهم (اللهمَّ احفظني من نزاهتهم عديمة القلب).

١٥٨٣ المباديءُ وحدها لا تكفي، فالإنسان هو العامل الثاني الحاسم في المعادلة. فقد وَقَعَتْ أسمى أعمال الإحسان والرحمة باسم المباديء المسيحية، ولكن باسمها أيضًا وَقَعتْ حوداثُ الإعدام حرقًا. كان الأمر يعتمد على من كانوا يُطبِّقون المباديءَ، ناهيك عن المدَّعين.

١٥٨٨ وَجَعُ الأسنان يُؤلم، أمَّا الحماقةُ فلا تُؤلم، والرأسُ الأجوفُ لا يؤلم بقدر ما يُؤلم السنُّ الأجوف. الحماقةُ مؤذيةٌ فقط، لكن لا أحدَ يموت من الحماقة.

١٥٩٦ أعتقد أنَّ الظروف والاضطرابات المادية والسياسية التي عايشتُها في حياتي قد جعلتْ أولادي يُفكِّرون في الحياة ومشاكلها ويحكمون عليها مبكِّرًا للغاية أكثر ممَّا كان ينبغي لو كان الأمر يسير بشكل طبيعي. ولا شكَّ أنَّ بعض آثار هذا في حياتهم كان حسنًا وبعضها كان سيئًا، ومن نعمة الله أنَّ الآثارَ الحسنة كانت أكثر.

١٦٠٠ هناك أُناسٌ ليسوا ماديّين بالمعنى الفلسفي، ولكنَّهم ماديّون بطبيعتهم وبسلوكهم الواقعي. في الحقيقة، معظمُ الناسِ هكذا.

١٦٠٧ يبيع فاوست(*) روحَه للشيطان من أجل كنوز هذا العالَم، قصةٌ قديمةٌ، قديمةٌ للغاية وكثيرًا ما تتكرَّر، وحقيقيَّة.

١٦١٣ يقول هوجو: «فيما يتعلَّقُ بالتاريخ، إنَّ الفنَّ هو الذي يُقلِّبُ سريعًا في صفحات كتاب الزمن، يناقشُ الوقائعَ التاريخيةَ، يملأُ الفراغات التي تركها المؤرِّخون وتجاوزوها، يوقظُ الوقائع والعادات والشخصيَّات من جديد، يربط بين مختلف التحليلات، يجمع بين ما انفصل وتفكَّك، يُدخلُ الانسجامَ والتناغمَ إلى ما هو متنافرٌ ومتباينٌ». ومع ذلك، فإنَّني أعتقد، فيما يتعلَّق بالتاريخ والفن، أنَّ هناك اختلافًا في الموضوع ذاته؛ فالتاريخ يصفُ أحداثًا خارجية، بينما تصف الروايةُ التاريخيةُ الحياةَ ذاتَها. يتناول التاريخُ الأحداثَ، بينما تتناول الروايةُ الخبرات والتجاربَ المعيشة. موضوع التاريخ هو شعبٌ ما، مجتمعٌ ما، جماعةٌ ما، أو مجموعةٌ ما، أمَّا موضوع الرواية فهو شخصٌ (فرد). والتاريخ المكتوب على أساس رواية أو قصيدة ملحميَّة هو تاريخٌ سيئٌ للغاية، ولكن في الوقت ذاته لا يُمكن أن تكون لدينا معرفةٌ كاملةٌ بعصر ما من دون رواية أو قصيدة عن هذا العصر. ومع أنَّ الأدبَ قد يكونُ غيرَ دقيق في تقديمه للوقائع التاريخية، إلا أنَّ الأدبَ، بالمقارنة مع التاريخ، دقيقٌ من حيث تصوير أسلوب الحياة، والجو الاجتماعي، وروح العصر، والمشاعر والخبرة الذاتية المتعلِّقة بحدث تاريخيٍّ مُعيَّن، أمَّا التناول التاريخي -وإن كان صادقًا- فلا يتجاوز العرض الخارجي فقط. ومن ثمَّ، ينبغي أن ندعَ التاريخ للمؤرخين، والحياةَ للشعراء، وسيخبرنا الشعراءُ بحقائقَ عن عصر منصرم، بحقائق من نوع لا يمكننا أن نجده أبدًا في التاريخ، فمن الواضح أنَّه يوجد تاريخٌ برانيٌّ وتاريخٌ جوانيٌّ لأي حقبة تاريخية.

١٦٤٥ من الصعب أن تساعدَ إنسانًا دون أن تجرحَ كبرياءه، فكلُّ إنسان يريد أن يكون مُعطيًا لا آخذًا.

(*) فاوست هو الشخصية الرئيسية في الحكاية الشعبية الألمانية التي تدور حول فاوست الذي يُبرم عقدًا مع الشيطان، حيث يبيع روحه للشيطان مقابل المعرفة غير المحدودة واللذَّات الدنيوية. صارت حكاية فاوست هذه أساسًا للكثير من الأعمال الأدبية والفنِّية عبر العصور، ومن أشهر الأعمال التي تناولت هذه الشخصية أعمال جوته وكريستوفر مارلو وتوماس مان وكلاوس مان. ويُعد فاوست تجسيدًا لحلم الإنسان بأن يملك كلَّ قوى المعرفة وإن كان الثمن روحه. (المترجم).

١٦٤٩ أرى أنَّ ما يُسميه نيتشه بالإنسان الأعلى «السوبر مان» إنسانٌ ضعيف، وذلك لأنَّه من السهل أن يعيشَ المرءُ لذاته وأن يتبع غرائزَه، وهذه هي نصيحة نيتشه للسوبر مان، لكن من الصعب أن يعيش المرءُ من أجل الآخرين وضدَّ غرائزه. من السهل أن تنتقم، لكن من الصعب أن تعفو وتصفح. من السهل أن تشتهيَ زوجةَ جارك، لكن من الصعب أن تقاومَ هذه الفتنة. الحالةُ الأولى تتطلَّبُ أقلَّ من إنسان، ووحدها الحالةُ الثانية تتطلَّبُ إنسانًا أعلى «سوبر مان».

١٦٥٢ هناك ارتباطٌ غريب بين الخير والشر، فهل كان سيوجد الخير لو لم يوجد الشر؟ وهل يوجد الخير إلا في النضال من أجل الخير؟ لم يكن إبسن يعترضُ على الاضطهاد والطغيان، بل اعتاد أن يقول: وهل غيرُ ذلك يمكن أن يوقظَ داخلنا الشوقَ إلى الحرية؟ وعندما عَلِمَ أن الجيشَ الإيطاليَّ قد حرَّر روما لم يفرح بشكل واضح، بل قال في مسرحية (براند) على لسان براند: «لقد ضاع للأبد الشوقُ الجميلُ إلى الحرية، وأنا نفسي عليَّ أن أعترفَ بأنَّ النضالَ من أجل الحرية هو الشيء الوحيد الذي يعجبني في الحرية، ولستُ مهتمًا بممارسة الحرية». وتعليقي: هذه آراءُ رجلٍ يتمتَّع بالحرية، ولستُ أدري هل كان براند سيفكِّرُ بالطريقة ذاتها لو كان في موقفي هذا.

١٦٦٥ هل حدث لك أن أُعجبتَ بالفعل بأحد المجرمين أكثر من إعجابك بمن يُسمَّى بالمواطن الصالح؟ هل تساءلتَ عن السبب؟ أعتقد أن الأمرَ قد يكون هكذا لأنَّ المجرمَ أكثر أصالة وأكثر تعبيرًا عن ذاته، فهو هو. وبينما يتصرَّفُ المواطن الصالح في الغالب تبعًا لقانون لا يخصُّه بل فُرض عليه، فإنَّ المجرم يتصرَّف وهو صادقٌ مع نفسه تبعًا لقانونه الخاص. لا يعني هذا أن تعجب بالمخالفات أو تساند الجريمة والخطيئة، ولكنَّ الأمر يتعلَّق بالجانب الآخر من المقارنة، أي عنصر الشخصية. فنحن نعجب بالشخص الذي يُشرِّع لنفسه، وفي المقابل، نحن نعجب بتصرفات الشخص الملتزم أخلاقيًا لا بشخصه، إذ إنَّه يطيع قانونًا ما ويمتثل له، والامتثالُ شكلٌ من أشكال غياب الحرية. والتصرفات التي تكون وفقًا لقانون غير نابع من الروح يسهل نبذها. في شعر أواخر القرن التاسع عشر نجد فهمًا واضحًا للمجرمين والخُطاة، وينشأ هذا الفهم مما تقدَّم ذكْرُه. ويُعبر عنه قول براند في

مسرحية إبسن (براند): «كن ما تريد أن تكونَهُ، ولكن كن صادقًا مع نفسك على طول الطريق». هناك مواقف متطرفة بعينها، يبدو المجرمُ خلالها شخصًا حُرًا، ويبدو المواطن الصالح عبدًا للقوانين. في مواجهة اختيار كهذا، سيكون تعاطفنا التلقائيَّ مع الشخص الحر. ربَّما يحظى العبدُ بالشفقة، لكن لا يودُّ أحد أن يكون مكانه.

١٦٧٤ كثيرًا ما كنتُ أتساءلُ، خصوصًا في الأيام الأولى بعد الحكمِ عليَّ، هل أمتلكُ الشجاعةَ لأتحمَّلَ كلَّ ما كان ينتظرني. مرَّت أيامٌ حيث كان الموتُ أملي الوحيد، ولكنّي احتفظتُ بهذا الأمر باعتباره سرًا لا يعرفه أحدٌ سواي، سرٌ لم يعرفوه (هم)، ولم يكن بإمكانهم أن ينتزعوه منّي.

١٦٧٨ لا يمكن للحبِّ أن يوجدَ كحالة عامة، وإنَّما يوجد فقط كحالة فردية، وهكذا يتحدَّثُ السيدُّ المسيح عن حبِّ الجار. فلا وجود ولا معنى إلا لهذا الحبّ المحدَّد. أمَّا حبُّ الإنسانيَّة، فما هو؟ كيف يحبُّ المرءُ الإنسانيَّةَ؟ يوجد حبٌّ لإنسان ما بعينه أو لا يوجد حبٌّ على الإطلاق.

١٦٧٩ «كن جادًا في عملك، دائمًا وفي أي مكان» هكذا يقول كيركغارد(*)، آخذًا في اعتباره قانون «إمَّا. أو» لإبسن (أو نيتشه). وأنت إمَّا أن تكون الشخصَ المدعو للتضحية والمستعدَّ لها، بلا قيد أو شرط، من أجل مبدأ تؤمن به، أو أنَّك لست هذا الشخص، وفي هذه الحالة فإنَّ جدِّيتك في عملك تعني أنَّك لا تقبل به إطلاقًا. ليس هناك ما هو أسوأ من أنصاف الحلول، فهي أحيانًا تعادل الخيانة والكذب.

١٦٨٠ الشرطُ الأولُ لأن يكونَ المرءُ إنسانًا هو أن يمتلكَ «أناه»، أن يكون واعيًا بها، أن يدافع عنها، بغضِّ النظر عما تعنيه هذه «الأنا». ولهذا أحيانًا نحترم ونتابع باهتمام مسار البطل الشرير وما يَؤول إليه، إذا ما كان متَّسقًا مع نفسه ومستعدًا لتحمُّل ما يترتَّب على مواقفه من نتائج وعواقب.

(*) سورين كيركغارد (١٨١٣-١٨٥٥م) فيلسوف ولاهوتي دنماركي، يُعتبر أبا الفلسفة الوجودية، اهتم بحياة الإنسان كفرد وأهمية اختياراته والتزاماته في الحياة. من مؤلَّفاته: «خوف ورعدة» و«إما. أو» و«مفهوم القلق». (المترجم)

١٦٩١ الرجل والمرأة هما الخلية الأساسية للعالم والحياة. ولا تستطيع الثورات، ولا تبدُّل الإمبراطوريات، ولا تبدُّل القوانين التي تتحكَّمُ في مصالح العالم ولا تبدُّل القائمين على تلك المصالح، لا تستطيع أن تُغيِّر الحياةَ الواقعيةَ الحقيقيةَ ما لم تُغيِّر العلاقةَ بين الرجل والمرأة. والعكس صحيح، فأقلُّ تَغيُّرٍ في هذا العنصر الأساسي للحياة يؤدي إلى انقلابٍ كُلِّيٍّ شاملٍ. الصورة الأولى للرجل والمرأة، هذه الصورة الأولية البدائية، مرتبطةٌ بالجنة، بالخطيئة، بالمسئولية والعقوبة. وكلُّ شيء آخر حدث بعد ذلك، بدءًا من الهبوط إلى الأرض الذي كان بداية عهد جديد، مرتبطٌ بآدم وحواء والعلاقة بينهما. وما حدث بينهما بدأ باعتباره نوعًا من الميتافيزيقا، واستمرَّ كذلك. والتاريخ اللاحق كُلُّه رُسِمَتْ حدودُه بهذه الدراما الأولى وشخصياتها الأساسية، هو وهي.

١٧١٧ كان ذلك عناقَ التعساء، هؤلاء الذين حالتْ قوانينُ هذا العالم دونَ أن يسكنَ أحدهما إلى الآخر. ولَم يكن هناك إلا مخرجٌ من هذا العناق الذي يثيرُ كثيراً من ذكريات الكفاح والنضال؛ وهو الموت. ذلك أنَّ «الموت والحبَّ شيءٌ واحدٌ»، لا أعرف من قال هذه الكلمات، لكنَّها محفورةٌ بعمقٍ في ذاكرتي.

١٧٢٧ يمكن أن يُقال عن كثيرٍ من الناس إنَّهم أرادوا أن يُقوِّضوا النظام، لكنَّهم أصبحوا ضحية له.

١٧٢٨ العدالةُ واحدةٌ من بين أشياءَ قليلة لا تحتاج إلى برهان؛ فالبرهنةُ على الحاجة إلى العدالة والإنصاف إمَّا أنه أمرٌ زائدٌ وغيرُ ضروري بالنسبة لمن له قلبٌ، أو أنَّه شيءٌ عديمُ الجدوى بالنسبة لمن لا قلبَ له. ومجرَّدُ السؤال عن الحاجة إلى العدالة يُبيِّن أنَّه من العبث الدخول في أي حوار أو تقديم تفسير حول هذا الأمر.

١٧٢٩ للمدينة تأثيرٌ غريبٌ على الإنسان، فالإنسان الذي سمَّمَتْه المدينةُ يفقدُ الحس المباشر بالحياة الذي كان لديه حين جاء إلى هذا العالم فيبدأ في كراهية الطبيعة، والبحر، والسُّحُب، ويصبح «مُدمنًا» للمدينة كأنَّها جرعة سُمٍّ يتعاطاها بانتظام لفترة طويلة.

١٧٣٥ لا يسعى الأدباءُ الأمريكيون -بخلاف الأدباء الأوروبيين- إلى إصلاح العالم

وتحسينه ولا يعتقدون أنَّ هذه هي مُهمة الأدب. فالأيديولوجيا، بالنسبة لهم، واحدةٌ من المهالك الخطيرة في هذا العالم. وأنا أتَّفق معهم في هذا.

١٧٤٦ البحث عن المتاعب ليس شجاعة، بل هو جنون. فالشجاعةُ هي استعدادُ الإنسان لأن يُواجهَ، بحكمة، المتاعبَ التي لا يمكنه تجنُّبُها.

١٧٤٨ لأنَّ حيوان الخُلْد (الفأر الليلي) اعتاد على الظُّلْمة، فإنَّه لا يتحمَّلُ النور؛ فالظُّلْمةُ بالنسبة له هي الحالة الطبيعية، والنورُ شيءٌ غيرُ طبيعيٍّ ولا يمكن تحمُّلُه. بعض الناس يُشبهون حيوانَ الخُلْد، لقد ألفوا الظُّلْمةَ، ولا يُحبّون النور.

١٧٥١ كتب نيتشه ذات مرَّة أنه يكره «الضعفاء، ودعاة الأخلاق، والعبيد». كان نيتشه يرى هؤلاء شيئًا واحدًا وصنفًا واحدًا من الناس.

١٧٦٠ لكي تبني، فلا بدَّ من الهدم، ولا يهدم غيرُ الغضب، أمَّا الحبُّ، فلا. ولهذا، فالغضبُ جزءٌ مفيد بل ضروريٌّ من الحياة.

١٧٦٢ نبحث عن الحرية، ولكن هل نستحقُّها؟

١٧٦٣ لقد أنقذتْني هذه المحنةُ الكبرى من مئات المحَن الصغرى التي كان من الممكن أن تأكلني وتستنزفني كلَّ يوم بشكل منتظم شيئًا فشيئًا.

١٧٦٦ انتقمتُ من الشدّة التي ألَمّت بي في حياتي المبكرة بأن نسيتُها.

١٧٧٤ أودُّ أن أعيشَ كإنسان، ولكنّني أودُّ أن أمرض وأموت بهدوء، مثل حيوان.

١٧٨٠ يُروى أنَّ نبيَّ الله يحيى سأل الشيطانَ متى يكون سلطانه على الإنسان أقوى ما يكون؟ فأجاب الشيطان: «عندما يأكل ويشرب حتى يشبع».

١٧٨٩ بعد أن شاهدتُ معرضًا كبيرًا لفنِّ الرسم الحديث (في سرايِيڤو في ١٩٨٠م) استغرق الأمرُ بعضَ الوقت لكي أستعيد توازني وعلاقتي الطبيعية مع العالم الخارجي وحتى أبدأ في التعامل معه بشكل طبيعي. فبعد أن غادرتُ المعرض ودخلت إلى الشارع شعرت بصدام خفيف بين العالمَيْن؛ عالم الفن والعالم الحقيقي. من الواضح أنَّ القوانين التي تحكم العالمَيْن ليست واحدة.

١٧٩٠ عندما تشاهد لوحةً لا تفهمها، فقد تظنُّ أنَّ من رسمها ليس فنَّانًا ولكنَّه أقربُ إلى أن يكون دجَّالاً يتلاعب بجمهور ساذج. ولكن، يمكنك أن تفكر أيضًا بطريقة أخرى: إلى أي مستوى كان على هذا الفنان أن يرتفع، ثم إلى أي مستوى كان عليه أن ينزل لكي يرى مشهدًا ما أو حقيقة ما يحاول أن يُحدِّثك عنها؟ إن فعلتَ هذا قلَّ خطؤك؛ ذلك أنَّك قد لا تفهم مقالاً عن الإلكترونيات، ولا تفهم الكثيرَ مما يُحدِّثك به أحدُ العلماء كيف يبني سفينةَ فضاء للسفر إلى كوكب زُحَل وكيف يخطِّطُ ليوجِّهَ رحلتَها ويتحكَّم بها من الأرض. ومع أنَّ ما يخبرك به العالمُ شيءٌ مُدهش ويصعب فهمه، فإنَّه ليس دجَّالاً، فلماذا يكون الفنَّانُ الذي لا تفهم لوحتَه دجَّالاً؟

١٧٩٥ قد يُجبر الظُّلْم بالعدل؛ أي العقاب. المثل بالمثل، الجريمة والعقاب. لكنَّ الطريقة الوحيدة للتغلُّبِ على الظلم حقًّا هي العفو؛ ولهذا يأمر القرآن بالعدل ويوصي بالعفو. ومع ذلك، كيفَ يعرف المرءُ أنَّ العدلَ عدلٌ حقًّا وليس مجرّدَ ظلمٍ جديد؟ وهل يوجد «المثل» في الحياة الإنسانية؟ هل تساوت الجريمة والعقاب يومًا ما؟ وهل يمكن أن يتماثلا، أي أن يُقاسا بمعيار واحد؟ أليس كلُّ عدل هو دائمًا بمثابة ظلمٍ جديد، طالما أنَّ من يحكمُ به ويُنفِّذُه هو إنسان، وهذا الظلم الجديد يبحث عن عدل آخر يقابله؟ وهكذا مراراً وتكراراً إلى ما لا نهاية.

١٧٩٧ على ما أعتقد، فإن إيڤو أندريتش هو مَن قرأتُ له أنَّ الخيالَ المُفرطَ والكسل متلازمان، فأصحاب الخيال الواسع يكونون كُسالى في الغالب، أمَّا الكادحونَ فيتَّسمون غالبًا بفقر الخيال، والعقلانية، والدقَّة. بعض الناس يكون دافعهم إلى الكدح هو الأنانية، والطموح، وحبُّ الظهور. ومع ذلك، فالكُسالى ليسوا مكروهين كما نتوقع؛ إذ إنَّ عدم اكتراثهم يكون مصحوبًا في الغالب بغيابٍ تامٍّ للطموح والحسابات الواقعية. وبهذا المنظور، هناك تناظر بين هذه الثنائية وثنائية من لا يتعاطون الخمر ومن يتعاطونها. فبينما نُثني في الأساس على عدم تعاطي الخمر ونستنكر السُكْرَ، فإننا لا نحمل المشاعرَ ذاتَها تجاه من لا يتعاطون الخمر ومن يتعاطونها. والشيءُ الوحيد الذي نحترمه عند بعض من لا

يتعاطون الخمر هو يقظتهم وصحوُهم، ولكنَّنا نتمنى أن يكونوا بعيدين عنَّا قدر الإمكان(*)

١٧٩٩ ليس التحرُّك إلى الأمام ممكنًا، ما لم يكن وراءٌ يُرجَع إليه.

١٨٠١ هل هناك ما هو أجملُ من قوس قُزح؟ لكنَّ مَن بداخله لا يراه.

١٨٠٢ أن تضر الناسَ شيءٌ، وأن تمنع عنهم خيرًا كان بيدك، بل من واجبك، إنفاذه، شيءٌ آخر، وإن كان الاختلاف ضئيلاً. تأمَّل حياتك من وقت إلى آخر، ولا تنس هذا.

١٨٠٤ نشأتْ الفلسفةُ ولا زالت موجودةً بسبب السعي الطبيعي للإنسان لأن يستوعب العالم أو على الأقل أن يفهمه. وبقدر ما يبقى هذا السعي الإنساني، ستبقى الفلسفة حيَّةً.

١٨٢٦ لقد تقطَّعتْ بي الأسباب، كما لو أنَّني أمام جدار أو أُصبتُ بنوع من الجنون، فالجنون لا يعرف الأسبابَ المنطقيةَ. وحتى المقارنة مع الآخرين أو مع الأحداث الأخرى أصبحت عديمة الجدوى؛ ذلك أنَّ هذه المقارنة تقوم على الحالات الطبيعية والعادية، وكلُّ شيءٍ هنا غير طبيعي وغير عادي.

١٨٣٣ الحياة مليئة بالمفارقات. فعلى سبيل المثال، نجد الشخصَ المخلصَ، الذي يحبُّ الآخرين ويحترمهم من حيث المبدأ، يمضي مُهتديًا بضميره، ونادرًا ما يلتفتُ إلى انتقادات الآخرين له أو ثنائهم عليه. بينما نجد، في المقابل، الشخص المغرور عادة ما يحتقر الآخرين ولكنَّه في الخفاء يُقدِّر رأيهم، ومن ثمَّ فهو يهتمُّ برأي من يحتقرهم. عادة ما نجد هذا الأمرَ في الشخصيات الديكتاتورية والطغاة، ويُقال إنَّ ستالين كان يحتقر المحيطين به بشكل لاذع، وكان يستخفُّ بالشعراء والمثقفين بشكل خاص (فَقَدَ الشاعرُ أوسيب ماندلشتام(**) رأسَه بسبب قصيدة عن ستالين كتبها بشيء من التحرر). والسؤال المنطقي هو لماذا يتأثرون بآراء من يعدُّونهم أدنى منهم ومن يحتقرونهم؟

(*) لا يُقصد بهذه العبارة أن الممتنعين عن شرب الخمر مُنفّرون، بل المقصود الميل إلى الوعظ والشدة والتزام الصرامة في كل شيء كما يوحي سياق المفردات الدالة على حالتي السكر واليقظة. (المراجع)

(**) أوسيب ماندلشتام Osip Mandstam (١٨٩١ - ١٩٣٨م)، شاعر روسي وكاتب مقالات، عاش فترة الثورة الروسية ونشأة الاتحاد السوفيتي، اعتُقل في عهد ستالين بتهمة معاداة الثورة، وحُكم عليه بالسجن خمس=

١٨٥١ يُقال إنَّ الكراهيةَ عمياء، غير أنَّ الحبَّ أيضًا أعمى، ولكن بطريقته الخاصة. لا أذكر أنَّني كرهتُ أحدًا حقًّا، ولكنّني على يقين من أنَّني عرفتُ بشكل أفضل مَن لا أحبهم أو لا أطيق رؤيتهم. وقد ساعدتني المسافة التي شعرتُ بها تجاههم على أن أرى كلَّ ما فيهم من ضعف وافتقار إلى الموهبة والذكاء، أن أرى بشكل أساسي كلَّ عيوبهم التي كانت ستبقى مجهولةً بالنسبة لي لو كنتُ أحبهم. أمَّا السؤال عمَّا إذا كانت «معرفتي» هذه بعيوبهم شيئًا حسنًا، وهل ينبغي أن نعرف كلَّ الحقائق السيئة عن القريبين منَّا، فهذه قضية أخرى.

١٨٥٢ واحدة من الفتن التي تتربَّصُ بنا هي أنَّنا نشعر أحيانًا باشمئزاز (أو حتى كراهية) تجاه شخص ليس لدينا شيءٌ سيئٌ نصفه به وهو ليس أسوأ منَّا أو ممَّن نُحبُّهم ونحترمهم. هذا النفورُ من الناس، الذي لا مُبرِّرَ له، أمر بغيض وشائع. إنَّه فتنة من بين الفتن التي تحيق بنا.

١٨٥٥ القراءة عملٌ إبداعيٌّ بدرجات متفاوتة تتوقَّف على القاريء؛ ذلك أنَّ القاريءَ يُقدِّم تأويلَهُ الخاص لما يقرأه. فإنَّ عشرةَ قُرَّاء لرواية دوستويفسكي «الأخوة كرامازوف» يعني عشر شخصيات مختلفة لفيودور كرامازوف، كما يعني الكثير من الآراء والخواطر غير المتوقَّعة، والذاتية تمامًا، والتي تختلف من قاريء إلى آخر. والأحرى أنَّ هذا هو الفرق بين قراءة رواية ومشاهدة فيلم. فنحن أثناء القراءة نعيد بناءَ الشخصية (أو المشهد)، في حين أنَّه يُقدَّم إلينا جاهزًا في الفيلم ويتلقَّاه المشاهد بشكل سلبي. أثناءَ القراءة تكون الصورةُ في عقل القاريء، وأثناءَ مشاهدة الفيلم تكون الصورة على الشاشة. لذا، ينبغي علينا أن نقرأ، لأنَّ الفيلم لا يمكن أن يكون بديلاً عن القراءة.

١٨٦١ كنتُ دائمًا أرى أنَّ فنَّ الرسم الحديث يصعبُ فهمُه إلى حدٍّ ما، لكنَّه كان يستهويني دائمًا، كأنَّه سرٌّ. قرأتُ بفضول كلَّ شيء عن لوحات من هذا النوع لَعلِّي أفهمها. وهنا في السجن، كانت تمرُّ أيامٌ تجتاحني فيها رغبةٌ في أن أفهم سرًّا ما أو أُمْسكَ

= سنوات، لكنَّه مات في معسكر الاعتقال في ظروف غامضة بعد شهور قليلة من اعتقاله. من أشهر أقواله: «في روسيا فقط يحظى الشعر بالتقدير والاهتمام، ويكون سببًا في قتل الناس، هل هناك أيُّ مكان آخر حيث يكون الشعر سببًا عاديًا لقتل من يقوله؟»، وهي النبوءة التي تحقَّقتْ فيه وانطبقت عليه. (المترجم)

بتلابيب حقيقة ما تراوغني، ومع ذلك أشعر أنَّها قريبةٌ للغاية. لو كنتُ رسَّامًا، ومع الشعور بعجز اللّغة وقصورها، فأنا على يقين من أنَّني كنت سأرسمُ هذه الصور المبهمة التي اعتدتُ أن أحدِّق فيها في رهبة وذهول. وأظنُّ أنَّني في مثل تلك الأوقات فهمتُ فن الرسم الحديث بطريقة لا يفهمها إلا المبدعون.

١٨٦٣ فيما يتعلَّقُ بالأسئلة الصعبة، الأسئلة الكبرى، تلك التي تدور حول الحياة والموت، خصوصًا الموت، نجد أنَّ البعضَ لا يتوقَّفُ عن طرحها، والبعضَ الآخر يتجنَّبُها، ولكن لم يجد كلا الفريقين أيةَ إجابات لتلك الأسئلة؛ أمَّا الفريق الأول فلم يجد إجابات لأنَّه لا توجد إجابة، والفريق الثاني لم يجد إجابات لأنَّهم لا يبحثون عن إجابات. للوهلةً الأولى، تبدو النتيجةُ واحدةً، إلا أنَّ الفرقَ بين هذين الفريقيْن من الناس فرقٌ هائلٌ، تمامًا كالفرق بين الحكمة والرعونة.

١٨٦٤ هل يمكن تخيُّلُ الحياة من دون رغبات؟ أليست الحياة والرغبات شيئًا واحدًا؟ وحتى لو كنتَ تريد (أو تسعى إلى) أن تتغلَّبَ على رغبة ما، فهذه رغبة. لا يمكن التوقُّفُ عن التفكير والرغبات.

١٨٦٦ قرأتُ لتولستوي، وهوجو، ودوستويفسكي، وروسُّو، ووصلتُ إلى النتيجة التالية: لم يَسْلَمْ أحدٌ من نقص أو ضعف، ولا حتى من نؤمن بأنَّهم عباقرة، والفارق الوحيد هو إلى أيِّ مدى يكون النَّاس على استعداد للاعتراف بهذا الأمر أمام أنفسهم وأمام الآخرين. فأن يُواجهَ المرءُ بشجاعة كلَّ الأخطاء والإخفاقات عبر حياته، في مواجهة تُسمِّمُ الروح وتُطهِّرُها في الوقت ذاته، فهذا أمرٌ لا يقدر عليه إلا رجلٌ عظيم وشجاع حقًا. لا يوجد إنسانٌ كاملٌ، وإنَّما مجرَّدُ منافق يتظاهر بأنَّه إنسانٌ كامل.

١٨٦٩ يُخبرنا تولستوي، وهو يَصفُ طفولتَه، بأنَّ ذكرى تلك الفترة تملؤه بإحساس شاعري غامض، وأنَّه بمرور السنين فَقَدَ هذا الشعورَ الحقيقيَّ بعمق الحياة. نحن جميعًا نشعر بشيء كهذا. ألا يَحدثُ للإنسانية الشيءُ ذاتُه؟ ألم تفقد الإنسانيةُ، وهي تغادر طفولتَها، ذلك الشعورَ (أو تلك الذكرى) بكلِّ ما هو غامض وما هو خارج نطاق الحواس؟ أليست الدراما (أو عملية التطور كلها) التي اجتازتها الإنسانية تتكرر في الحياة الإنسانية؟

غير أنَّ عمليةَ التطوّر في هذه المرة لا تنطوي على التقدم فحسب، ولكن أيضًا على التراجع والانتكاس والخسارة.

١٨٧٠ لا أعرفُ الكثير عن الكمبيوتر، ولكن يمكنني أن أقولَ بكلِّ تأكيد إنَّ ذكاءَ الكمبيوتر غباء، وهو في أحسن الأحوال محاكاةٌ للذكاء، ويمكن تطويرُ هذه المحاكاة إلى ما لا نهاية ولكنَّها لن تجتازَ أبدًا ذلك الخطَّ السحريَّ لتصبح ذكاءً طبيعيًا أصيلاً هذه هي، بالضبط، الحقيقة التي تُمثِّل الفرقَ الهائلَ غيرَ المحدود (أو الفرق الطفيف، إذا كنتَ تفضِّل هذا) بين ما هو حيٌّ وما لا حياةَ فيه، ولا يمكن لأيِّ مُنتَجٍ إنسانيٍّ أن يَعبُرَ تلك العتبة الفاصلة، والله وحده هو القادر على ذلك. ﴿**إنَّ اللَّهَ لا يَستحْيِي أَن يضْرِب مثلاً مَّا بَعُوضَةً**﴾ (القرآن الكريم، سورة البقرة: ٢٦). ومهما تكن معرفتنا عظيمة، ألسنا نبالغ في تقديرها أحيانًا؟ ولنفترض أنَّ جميعَ المعارف الموجودة في جميع مكتبات العالم جُمعتْ داخل جهاز كمبيوتر افتراضي واحد، وأنَّ أعظمَ علماء العالم جميعًا تجمَّعوا في معهد أو مختبر افتراضي، ومُنحوا كلَّ الوقت الكافي وكلَّ الموارد التي قد يطلبونها، فإنَّهم لن يستطيعوا أن يخلقوا بعوضةً واحدةً أو (ذبابة)، وهذه هي رسالة الآية القرآنية حول الذبابة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاس ضرِب مَثَلٌ فَاستَمعُوا لَهُ إِنَّ الَّذين تدْعُون من دُون اللَّه لَن يخْلُقُوا ذبَابًا وَلَوِ اجْتمعُوا لَهُ وَإِن يسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شيئا لا يستنقذوهُ منْهُ ضعُف الطَّالبُ وَالْمطْلُوبُ**﴾ (القرآن الكريم، سورة الحج ٧٣).

١٨٧٢ عندما نحاول أن نتخيَّلَ كاتبًا جيدًا، فإنَّنا نفكِّر عادة في الصفات التي ينبغي أن تتوافر لديه: الخيال، والخبرة، والموهبة، وقوة الملاحظة والإدراك، والذكاء. ولكنَّني قرأتُ في مكان ما أنَّ الروائي الروسي إيڤان تورجنيڤ قد وضع قائمة بالعيوب التي ينبغي أن تتوافر لدى الإنسان لكي يصبح كاتبًا. وبالتفكير في هذه الطريقة غير المتوقعة أو «المعكوسة» في النظر إلى الأمور، فإنَّني أعتقد أنَّ هناك عيبًا واحدًا ينبغي أن يكون على رأس تلك القائمة: الغرور. فلماذا يعتقد الكاتب في المقام الأول بأنَّه في موضع مَن يُفهِّمَنا ويُعلِّمَنا أو بأنَّه ينبغي علينا أن نعرف ما يفكِّر فيه؟ أليس هذا نوعًا من الغرور؟

١٨٧٥ بخصوص العلاقة بين هذين النوعين من التاريخ؛ البرّاني والجوّاني (انظر الفقرة رقم ١٦١٣)، قد يحتوي التاريخُ الجوّانيُّ على الحقيقة الفعلية للأحداث التاريخية، هذا في حال ما لم يتّخذ منه الكاتبُ مجالاً مُواتيًا لتعسُّفه وذاتيّته وانحيازه وأوهامه. فما الذي يضمنَ لنا أنَّ الناسَ كانوا بالفعل كما يصفهم الكاتبُ في روَاياته؟ وعلى سبيل المثال، دائمًا ما يُؤخَذُ على إيڤو أندريتش انحيازه ضد الإسلام والمسلمين، وينسحب هذا الانحياز على جميع شخصياته التي تحمل أسماء إسلامية. ففي رواياته يظهر المسلمون دائمًا باعتبارهم بدائيين، مُخادعين، ضعفاء وكُسالى، يميلون إلى المكر والبلادة. أمَّا التاريخُ البرّانيُّ فهو، رغم كلِّ شيء، لا ينحرف إلى هذا النوع من عمليات الإرباك والتعمية والتعسُّف، وهو، على أية حَال، أكثرُ قابلية للتحقق والتثبُّت. ذلك أنَّ الكُتَّاب عندما يكتبون ما يُسمَّى بالتاريخ الجوّاني، فإنَّهم ليسوا جميعًا ذوي ضمائرَ حيَّة مثل ليو تولستوي؛ فعلى سبيل المثال، من المعروف عن تولستوي أنَّه حين كان يكتبُ قصَّتَه ذات الثلاثين صفحة والتي تحمل عنوان «لماذا؟» أنَّه قرأ عددًا كبيرًا من الكتب عن تاريخ الثورة البولندية التي وقعت أحداثُها خلال عامي ١٨٣٠-١٨٣١م لكي يكون صادقًا قدر الإمكان. وقد كتب في مذكراته: «أحتاج أن أقرأ كثيرًا حتى أكتب خمسة سطور مبعثرة على طول القصة». والنموذجُ المضادُّ لهذا هو أندريتش الذي ذكرناه قبل قليل، إذ يُقال إنَّه قد شوَّه الحقائقَ تمامًا حول عملية مصادرة الأرض التي سبقت بناءَ الجسر على نهر درينا. وبحسب ما ذكره أندريتش في روايته «جسر على نهر درينا» كانت مصادرةُ الأرض عمليةَ انتزاعٍ للأرض بلا رحمة مصحوبة بالعنف، ودون أيِّ تعويض أو أي حقٍّ في الشكوى أو الاحتجاج. إلا أنَّ المؤرِّخ عثمان سوكولوڤيتش اكتشف وثائقَ في أرشيف إحدى المحاكم ونشرها، تُبيِّنُ هذه الوثائقُ أنَّ مُلاكَ الأراضي ذهبوا فردًا فردًا إلى الديوان التركي، وتُبيِّنُ كيف تحدَّد سعر الشراء لكلِّ قطعة أرض تطلَّبها بناءُ الجسر. كما أورد سوكولوڤيتش ترجمات حرفيةً للصكوك تُظهر أنَّها لا تختلف عن الصكوك الحديثة التي تُكتب في مواقفَ مشابهةٍ. إذا كان أندريتش لم يتتبَّع الحقائقَ التاريخيَّةَ، أو إذا كان لم يتحقَّق منها، وإذا كان قد استنتج كلَّ ما كتبه عن الناس وطباعهم ومعتقداتهم ومشاعرهم وعلاقاتهم من خياله (وقد كان واسع الخيال بلا شك)، فليس هناك في أعماله (جسر على نهر درينا، وقائع

مدينة ترافنيك، الفناء الملعون، رحلة علي إلياس) شيءٌ مِمَّا قد يعرفه المرءُ أو يفهمه عن الزمن والناس الذين عاشوا بالفعل خلال تلك الفترة. وما يُمكن معرفته من روايات أندريتش قد يكون شيئًا عن الناس بشكل عام، أي عن احتمال كيف كانوا وليس ما كانوا عليه بالفعل، ولكن في هذه الحالة فإنَّ أعمالَه لها قيمةٌ فلسفيةٌ، وليس لها أهمية فيما يتعلَّق بما نُسمِّيه التاريخ الجوَّاني لعصر ما.

١٩٠٣ معظم الأشياء تبلى بالاستعمال ومرور الزمن، لكن هناك أشياء ليست كذلك، مثل الأغاني الشعبية، فهي تنتقل من فم إلى فم، وتتشكَّل وتزداد ثراءً بمرور الزمن، فتصبح بالتالي أوجز وأبلغ.

١٩١٥ هناك شيءٌ واحد نطلبه ونكرهه في الوقت ذاته: الشيخوخة.

١٩٥١ لا حكمة بغير تجربة، تجربة ذاتية بالطبع. ولكن إذا كان صحيحًا أنَّ الإنسانَ الذكي يستفيد من تجارب الآخرين، يترتَّب على ذلك أنَّ التهوُّرَ في مرحلة الشباب يكون شرطًا للحكمة في الشيخوخة. وأنَّ الشباب الأذكياء الذين لا يخوضون تجاربهم الخاصة لن يكتسبوا حكمةً حقيقيةً أبدًا، وأنَّ مثلَ هذه الحكمة لا يكتسبُها إلا مَن لم يتَّسموا في شبابهم لا بالحكمة ولا بالفكر.

٢٠١٨ الماء الذي يجري لتشغيل المحرِّكات التوربينية في أحد المصانع ماءٌ مُفيدٌ، أمَّا الماء الذي يبقى حرًا وينساب بحرية فليس مُفيدًا، ولكنَّه جميل.

٢٠١٩ هل يمكن أن يُقالَ شيءٌ عن «العدم»؟

٢٠٧٦ إحدى مقولات الحركة النسوية هي أنَّ المرأة ظلَّتْ تُعبِّرُ عن نفسها كأُمٍّ، وأنَّه قد حان الوقتُ لها كي تُعبِّرَ عن نفسها كوجود شخصي فردي، وفي نقاشات الحركة النسوية يُطرح مفهوم الأمومة ومفهوم الشخصية الفردية المستقلة كنقيضين. إنَّني بحاجة إلى من يشرح لي هذا الأمر. كنتُ أعتقد دائمًا أنَّه ما من شيءٍ أكثر فردية وأكثر ثراءً في وجوده الشخصي من الأمومة، فالأمومة وجودٌ شخصي بامتياز. حقًا، إنَّ الجدلية النسويَّة أمرٌ مُربكٌ ومُحير.

٢٠٧٨ لماذا نُقدِّر الأشياءَ والذكرياتِ التي مضى عليها زمنٌ طويلٌ، إلا لأنها تُمثِّلُ رموزًا للتواصل الإنساني والتراث الإنساني؟

٢٠٧٩ الندم من أرفع الدرجات الأخلاقية إنْ كان صادقًا. فالإنسانُ الذي أذنبَ وتابَ أفضلُ -في رأيي- ممَّن لم يُذنبوا قَطُّ (وهم موجودون). دائمًا ما كنتُ أبغض من يُطلَق عليهم أنهم رجال بلا خطيئة، ولم أستطع أن أُحرِّرَ نفسي من هذا الارتياب تجاههم رغم رغبتي الكبيرة في أن أفعل هذا. قد يكون هذا لأنَّني لستُ بلا خطيئة ولستُ إنسانًا كاملاً.

٢٠٨٠ لا عجب أن يرسمَ الرسَّامون، فالعالَم مليءٌ بالأشكال، والألوان، والنور، والظلال، فهو قد خُلقَ، إذن، ليُرسم، والإنسانُ ذو العين والروح خُلقَ ليَرسُمَ، ومن ثمَّ، فالرسَّامُ وعالَمُه خُلق كلٌ منهما للآخر.

٢١٠٩ الرجال الحقيقيّون ليسوا قُساةً غلاظًا، بل لديهم مشاعر ولا يخجلون منها. كان أبطال هوميروس المشاهير، الذين وصف هوميروس أعمالهم البطوليَّةَ بكل حيويَّة، كانوا لا يُخفون دموعَهم، فعندما رأى باتروكلوس إخوانَه الآخيين قتلى أمام طروادة «فاضت دموعه على خَدَّيْه كالماء المنحدر من جبلٍ صخري»، فقال له أخيليس: «لماذا تبكي يا باتروكلوس كطفلة صغيرة تجري خلف أُمِّها وتبكي حتى تأخذها أُمُّها بين ذراعيها؟»، وعندما قُتل باتروكلوس «سقط أخيليس على الأرض. وصرخ بكلِّ ألمٍ حتى إنَّ أُمَّه تيهيدا سمعته في أعماق البحر»، وبكى أنتيوخ «وهو يذرف دموعًا مريرة». إنَّ دموع هوميروس وأبطاله لا تجعلهم أقلَّ رجولة.

٢١٣٥ إنَّ عبارة «حياة أفضل» (كشعار أو هدف) هي شيءٌ يمكن أن يعملَ الإنسانُ من أجله لا أن يموتَ من أجله. ويمكن للمرء أن يُكابدَ من أجل الارتفاع «بمستوى المعيشة»، رغم أنَّ هذا «الارتفاع» يكون أحيانًا وهمًا، أو حتى ضلالاً في الحقيقة، ما هو «أعلى» هو شيءٌ ينتمي إلى المستوى الذي تنتمي إليه أشياء مثل الموت ذاته: الحب، الشرف، الحريَّة، الكرامة، الفكرة، الوطن، إلخ. فالتضحيةُ بالحياة عملٌ غيرُ عقلاني، وشيءٌ كهذا يمكن أن يحدث فقط بدافعٍ من المشاعر والعاطفة لا بدافعٍ من العقل.

٢١٤٣ التأدُّب (الاحتشام) ليس مجرَّدَ مسألة أخلاق حميدة، ولكنَّه أيضًا مسألة ذائقة راقية، كما أنَّ الأشياء التي تتَّسم بالانحلال الأخلاقي تصدر عادة عن ذائقة رديئة.

٢١٤٤ إذا فُهِمَ الإسلامُ بشكلٍ صحيح، سيتبيَّن أنَّه يُقرُّ بأنَّ الإنسانَ الحقيقيَّ أسمى من قدِّيسٍ، فالقدِّيسُ إنسانٌ حاول أن يكون إنسانًا كاملاً ولكنَّه أخفق في هذا. ومن يقرأ سيرةَ تولستوي، وهي قصة مؤثِّرة عن «نضال استمرَّ لمدة ثمانين سنة، واشتركت في هذا النضال كلُّ الفضائل والرذائل، كلُّ الرذائلِ عداً واحدة: الكذب» (هكذا يقول رومان رولان)[*]، من يقرأ هذه السيرة الذاتية سيدرك كيف أنَّ أيَّةَ سيرة لقدِّيس «بلا خطيئة» (لو وُجد مثل هذا الشخص) ستكون سيرةً باهتةً، ومُملَّةً، بل وزائفةً، بالمقارنة مع حياة هذا الإنسان الحقيقي. يمكن للمرء أن يدرك إدراكًا كاملاً أنَّ الحياة المثيرة لهذا الكاتب العظيم كانت بالضبط كما أرادها الله، وأنَّ هذا هو السبب لأن يأمرَ اللهُ الملائكةَ المعصومين أن يسجدوا للإنسان المذنب.

٢١٥٣ من المثير أنَّ بعض الناس يطالبون باستمرار بالحقِّ في التعبير، وعندما يحصلون على هذا الحقِّ فإنَّهم لا يستخدمونه.

٢١٦٧ يمكن للنار أن تُدفئنا، ولكنَّها يمكن أن تحرقنا أيضًا.

٢١٧٨ كيف لي أن أحكمَ على الناس؟ فها هو إدجار آلان بو[**]، أحدُ أعظم الأدباء في المائة والخمسين عامًا الماضية، والذي كتب قصصًا وقصائدَ ومقالات لا تُنسى، مات في عُمْرِ الأربعين، بسبب الخمر، وربما أشياء أخرى، من يدري! ومات مُشَرَّدًا تقريبًا. إنَّ اللهَ وحده هو الذي يحكم على الناس.

٢١٩٨ لا يُعرَّف الإنسانُ بآرائه وإنَّما بمشاعره. قد يُغيِّر الإنسانُ رأيَه تمامًا ويظلُّ كما هو. يمكننا أن نتكلَّمَ عن تغيرٍ حدث لشخصٍ ما بمجرَّد أن تتغير مشاعرُه. ويمكن القول إنَّنا

(*) رومان رولان (١٨٦٦-١٩٤٤م) أديب فرنسي ومؤرخ فنِّي، حصل على جائزة نوبل للأدب عام ١٩١٥م، كتب سيرة حياة تولستوي وبيتهوفين وغاندي وغيرهم. (المترجم)

(**) إدجار آلان بو (١٨٠٩-١٨٤٩م) شاعر وكاتب قصص قصيرة وناقد أمريكي، اشتُهر بقصص الرعب، ويُعتبر من أول من كتب القصة القصيرة والأدب البوليسي. (المترجم)

نتبنَّى بعض الآراء معتقدين أنَّها سوف تُسهم بشكلٍ أفضل في تحقيق ما انحازت إليه مشاعرنا أو ارتبطت به .

٢٢٠٠ بقدر قيمة حياة المرء، يكون موته .

٢٢٠٤ جاء في نعي بوريڤوي نكشتش : «شُيِّعتْ يوم السبت ١٨ أكتوبر جنازة بوريڤوي بورا نكشتش إلى المقابر الجديدة في بلغراد، كان بوريڤوي نكشتش قاضي المحكمة الفدرالية، وشارك في حرب التحرير الوطنية منذ بدايتها، وكان عضواً في الحزب الشيوعي اليوغسلافي منذ ١٩٣٩ اضطُهدَ لقيامه بنشر الأفكار الشيوعية، لكنَّه ظلَّ ثابتًا ولم يتزعزع عن موقفه . كان ابنًا شجاعًا لَبلده «سريم» ومدافعًا عنها ومحاربًا من أجلها، وقد حارب بشرف حتى تحقَّق النصر . مُنِحَ العديد من أوسمة الحرب والسلام، وظلَّ يحمل المثل العليا الشيوعية بكل تواضع . وهو معروفٌ على نطاق واسع في المجتمع القانوني اليوغسلافي، فقد عمل قاضيًا لفترة طويلة في المحاكم المتنقِّلة والعليا والفيدرالية، وقد أسهم بشكلٍ كامل في تطوير التشريع الجنائي والنظريات والتطبيقات القانونية . وحين اشتدَّ عليه المرضُ وأدرك أنَّ نهايته قد اقتربت ترك رسالة لعائلته وأصدقائه بأن يُدفَنَ بلا خُطَب وداع وبلا أكاليل وبلا نعي، وبحضور أقاربه من العائلة وأصدقائه المقرَّبين فقط . رحيلٌ هادئٌ لهذا القاضي الذي عمل لفترة طويلة قاضيًا في المحكمة الفيدرالية، المحارب، والإنسان الصالح قبل كلِّ شيء، تاركًا فراغًا هائلاً بين رفاقه وزملائه وأصدقائه المقرَّبين» (صحيفة بوليتيكا، بلغراد، ٢٨ أكتوبر ١٩٨٦م) .

وتعليقي : كان بوريڤوي نكشتش نائبَ رئيس الهيئة القضائية في المحكمة الفيدرالية التي أصدرت الحكمَ النهائيَّ في قضيتي، وكانت الحيثيَّات القانونية في القضية قد تغيَّرت (من الانضمام لتنظيم ثوري مضاد يهدف إلى قلب النظام الدستوري إلى ما يُسمَّى بجريمة التعدِّي اللفظي - المادة ١٣٣ من القانون الجنائي) وخُفِّضَتْ مدة السجن من اثنتي عشرة سنة إلى تسع سنوات، وجدير بالذكر أنَّ أقصى عقوبة طبقًا للقانون الجنائي الساري هي عشر سنوات .

٢٢١٥ يظلُّ عقلي مُذبذبًا ومتسائلاً باستمرار، لكنَّ قلبي كان دائمًا في جانب الإيمان

وراسخًا فيه. وكانت لحظات سعادتي الحقيقية هي تلك اللحظات التي كان عقلي وقلبي خلالها في توافقٍ وانسجام.

اليوم هو الأول من يناير، لقد دخلنا للتوِّ في عام ١٩٨٧م، ما الذي ينتظرنا؟

٢٢٦٨-١ ربما يكون الحزنُ هو الحالة الطبيعية للروح، هنا، في هذا العالم.

٢٢٦٨-٢ ماذا يُميِّزُ الروحَ الإنسانيةَ أيضًا؟ إنَّها تُحبُّ الحكايات الخرافية، فلماذا؟

٢٢٧٥ يقول ميشا سليموڤيتش(*) في روايته (الموت والدرويش): «إنَّ الإنسان ليس بما يُفكِّر ولكن بما يفعل». وتعليقي: لستُ كما أفكِّر، وأيضًا، وبدرجة أقلَّ، لستُ كما أفعل، فكلا الأمرين، التفكير والفعل، مشروطٌ ومُتوقِّفٌ على أشياء أخرى. إنَّني كما أريد وكما أشعر؛ فالتفكيرُ أمرٌ «برَّاني»، وحتى أفعالي «غريبة» عنِّي بدرجة أكبر بل أكثر «برَّانية»، أمَّا المشاعر فهي الأقرب للروح، إن لم تكن هي الروح ذاتها.

٢٣٢٤ حين تكون قد عشتَ وتحمَّلتَ كلَّ شيء، وتعثَّرتَ مئات المرَّات ثم نهضتَ من جديد، وتخلَّيتَ عن كلِّ الآمال الكاذبة والمواساة الزَّائفة، وأطبقتَ على أسنانك لتُحدِّق في عين الحقيقة، حينها فقط ستدرك أنَّ الغايةَ الوحيدة للحياة هي النضال ضد الشر. وفي هذا النضال لا نستطيع أن نُقدِّم إلا القليل، إلا أنَّ هذا هو الشيءُ الوحيد الذي تبقَّى لنا، وغير ذلك ليس هناك إلا الفتنة والسقوط إلى الأبد.

٢٣٣٠ لم يَتَغَنَّ الناسُ بالحكمة، ولكنَّهم تغنوا بالشجاعة. وقد خصَّص الناس أجملَ قصائدهم لفضيلة يُقدِّرونها أكثر من أي شيء آخر، ربما لأنَّها الأكثر نُدرةً من غيرها: فضيلة الشجاعة، أي عدم الرهبة من الخطر والموت. يتحقَّق هذا الأمر في القصائد الشعبية عبر كلِّ العصور، من اليابان إلى إنجلترا وأمريكا، مروراً بالهند وبلاد فارس.

٢٣٤١ في السجن، لا بدَّ للإنسان من اجتياز اختبار صعب للغاية. فبعد سنوات من العزلة والحرمان، وحده الإنسان ذو الروح القويةَ يمكنه أن يخرجَ من دون علامات الوَهَن

(*) ميشا (مُحمَّد) سليموڤيتش (١٩١٠-١٩٨٢م) أديب وروائي من البوسنة، اهتمَّ في كتاباته بالعلاقة بين الفرد والسلطة، والموت والحياة، والمعضلات الوجودية في حياة الإنسان. من أشهر وأهم أعماله رواية «الموت والدرويش» ورواية «القلعة». (المترجم)

وفقدان العزيمة، وهذه إشارة إلى أنَّ حياته الجوانيَّة، لم تكن مُملَّةً، رغم كل الشدائد والمحَن، وأنَّه قد سلَّى نفسه حتى في العزلة بالأفكار وألعاب الخيالَ. فبينما كان جسدُه خلفَ القضبان، كانت روحه قادرةً على أن تُحلِّقَ وتكون مع أحبابه، ومن خلال أفكاره يمكنه أن «يشاهد» عرضًا في المسرح، بل أن يكون في بلد بعيد.

٢٣٤٣ هل لاحظتَ أنَّ بعض الناس عند مشاهدة الكوميديا لا يرونها مُضحكةً على الإطلاق؟ فالسَّاسةُ عادةً ينزعجون منها وبعض ذوي البصيرة يرونها حزينة.

٢٣٥٤ تتألَّمُ الروحُ تمامًا كما يتألَّمُ الجسدُ، هناك أيامٌ تبرقُ فيها آثارُ الجراح، تشتعل كلُّ الآلام القديمة التي نُسيَتْ منذ زمن، تمامًا كما تستيقظُ جراحُك القديمةُ فجأةً قبل أيامٍ عاصفة أو كما تتألَّمُ عظامك بسبب الضربات التي تلقَّيتَها خلال حياة مديدة وكانت قد نُسيتْ لفترة وجيزة. في هذه الأيام، تكون في مزاج سيئ، مستغرقًا في ذاتك، مستغرقًا في روحك التي انفتحت جراحها من جديد، فقط لتُذكِّرك بأنَّه لا شيءَ يضيع، لا شيءَ يختفي، حتى أقلِّ الآلام والذكريات المريرة، إنَّها فقط تتراجع لبعض الوقت، تنسحبُ إلى عمق مجهول، تمامًا كما ستتراجع وتنسحب هذه المرة، وسوف تنساها، إلى أن تعود في وقتٍ آخر.

٢٣٥٥ ثمَّةَ طريقةٌ واحدةٌ فقط لتجنب الهزيمة عندما تواجه العالمَ، ومع أنَّ هذه الطريقةَ ليست آمنةً تمامًا، إلا أنَّها الطريقة الوحيدة الممكنة، وهي أن تُحوِّلَ نسبةَ القوة بينك وبين العالم لتكون في صالحك؛ فبدلاً من تحريك آلاف الأشياء وتغييرها، وكلٌّ منها أقوى منك وأثقلُ، فإنَّك تُقوِّي نفسَك لتكون «فوق» العالم. ويمكنك أن تقوم بهذا الأمر، إنَّه في استطاعتك ولو بقدر ضئيل، فالعالم ضخمٌ لا يُقهَر. لا يمكنك أن تغطِّي كلَّ الطُّرُق التي تسلكها بالجلد، ولكن يمكنك أن تصنع حذاءً لنفسك، أي أن تُغطِّي قدميك بالجَلْد، وستكون النتيجةُ هي ذاتها. هذه هي الطريقة الوحيدة للتعامل مع العالم ومع الظروفَ التي نجد أنفسَنا فيها. هل فكَّرتَ من قبلُ لماذا يشعر المُسنِّون بالبرد حتى عندما يرتدون ما يُدفئهم؟ إنَّهم يفتقرون إلى دفئهم الذاتي. إنَّ أفضلَ طريقة لمقاومة البرد الخارجي هي أن تتحرَّك دماؤك، ومن ثمَّ تشعر بالدفء من داخلك. هذا هو الحلُّ الحقيقي الوحيد.

٢٣٥٧ لا يمكنُ للزخرفة الشكلية أن تحلَّ محلَّ المضمون، تمامًا كما أنَّ التوابلَ لا يمكن أن تكون بديلاً عن الطعام. وعندما يتحول المضمونُ في ثقافة ما إلى مجرد شكلٍ خارجي، فمن المؤكَّد أنَّنا نصبح شهودَ عيان على انحطاط تلك الثقافة وزوالها.

٢٣٧٤ الذكي يُحسن الكلامَ، والحكيم يُحسن الكلامَ كما يُحسن الصمتَ.

٢٣٧٦ يمكن للمرء أن يتكلَّمَ عن معنى (أو لا معنى) المكابدة، عن دورها في حياة الإنسان وفي التاريخ، إلا أنَّ هناك شيئًا واحدًا مؤكَّدًا ونشعر به جميعًا، وهو أنَّ المكابدة شيءٌ نبيل، وتنشأ عن أمرٍ نبيل.

٢٣٩٣ اليوم هو ٢٦ فبراير ١٩٨٧م، وقد شهد هذا اليومُ بعضَ الإثارة. استدعتني إدارةُ السجن هذا الصباح، وفي غرفة الزوَّار وجدتُ ليلى وسابينا بوجهين تبدو عليهما السعادة، أظنُّ أنَّهما أرادتا بهذا أن تطمئناني على الفور أنَّه ليس هناك أيُّ مكروه، ثم قالتا لي إنَّ نيقولا ستويانوڤيتش، رئيس لجنة العفو في رئاسة جمهورية البوسنة والهرسك، قد اقترح أن أُقدِّمَ طلبًا للعفو حتى يُطلَق سراحي، وكان الوسيط هو زدراڤكو چيوريشتش، سكرتير اللجنة آنذاك، وكان رفيقَ ليلى في الدراسة، وهو الذي أعدَّ صيغةَ الطلب، قرأتُ الطلبَ، لم أُوقِّع، واستمرَّ السجنُ.

٢٤٠١ المعرفة المفرطة تخنقُ التفكير الإبداعي أحيانًا، وقد يكون لدى الإنسان معرفة في مجالات عديدة، ولكن بدون تنظيم، بدون رؤية. هناك الكثير من المتعلِّمين عاشوا وماتوا بدون معرفةٍ حقيقية، فالمعرفة لا تحيا إلا بفكرة أصيلة. ومن المُسلَّم به بشكل عام أنَّ البحثَ مع فرضيَّة خاطئة هو أمرٌ واعدٌ ومُبشِّر أكثر من البحث بلا أية فرضية. كما أنَّ كَوْمةً من المادة العلمية من دون خطة وهدف تبقى مجرَّدَ كَوْمة. كذلك قد تكون الفرضيَةُ الأولية تحيُّزًا سنتحرَّرُ منه بمجرَّدِ أن ننتهي من البحث، تمامًا كما نُحرِّرُ أنفسنا من السقَّالة بمجرَّدِ أن يكتمل البناءُ.

٢٤٠٥ لا تقتل البعوض، ولكن جفِّف المستنقعات.

٢٤٢٩ الحرية هي الشيء الوحيد الذي لا يَبْلَى بكثرة الاستعمال.

٢٥١٨ لا تكمن «إنسانية» الإنسان في المقام الأول في أنَّه صالح وخير، ولكن تكمن بالأحرى في احتمال أنَّه قد يكون كذلك أو قد لا يكون. ومن ثمَّ، ليس لأنَّه لا يقترف الجريمة، بل لأنَّه ليس مُجبرا أو «مُكرَهًا» على ذلك، فالإنسان دائمًا لديه مَخرج وقدرة على تجاوز الظروف المحيطة، وهنا تكمن عظمته.

٢٥٢٩ بالنسبة لي، كان الصيامُ في السجن إثباتًا لكرامتي الإنسانية في الأيام والمواقف التي كان فيها كلُّ شيءٍ حولي ينتهك كرامتي.

٢٥٤٧ تُغيِّرُ حقيقةُ الموت كلَّ مقاييسنا، ذلك لأنَّه ما من مستوى عقلاني من الأفكار والقيم يمكنه أن يُجاري حقيقةَ الموت عندما يُواجَه بها. العواطف القوية -مثل الحب والإيمان والكراهية والغرور والانتقام- وهي أشياء يرفضها العقل، هي فقط التي يمكنها أن تجاري حقيقةَ الموت، وهذا ما يجعل الكثيرين يقبلونها.

٢٥٥٧ أعتقدُ أنَّ أعمق سؤال يمكن للإنسان أن يسأله لنفسه في أي وقت هو سؤال لماذا كان وجودٌ، لماذا كان وجودٌ ولم يكُن عدمٌ. وإنَّني أتساءلُ: كيف للإنسان، وهو يعيش في الواقع باعتباره جزءًا من هذا الواقع، كيف له أن يهتدي إلى سؤالٍ كهذا؟ كيف يفكِّرُ فيه؟ لقد ذُهلتُ عندما سمعتُ هذا السؤال لأول مرة.

٢٥٧٢ لا يستحقُّ الفنُّ اسمَهُ إذا اقتصر على مجرَّدِ الوصف، والتعقُّب، والمحاكاة، أو حتى الكشف، ما لم يكن يتطلَّع إلى الارتقاء إلى حدود ما هو محجوب، ما هو مُعجزٌ ومُدهش.

٢٥٨١ يُجسِّد الوعيُ الخالصُ وحدةَ الوجود والماهية، وهو في الوقت ذاته وجودٌ حقيقي واقعي، وهذه السمة المميِّزة للوجود الحقيقي الواقعي متأصِّلةٌ في ماهية الوعي ذاته، وهذا يعني أنَّ الوعي وجودٌ مُطلَقٌ لا يرقى إليه شكٌّ. ويمكن مقارنة الوعي بالضوء الذي ينتشر إلى ما لا نهاية ويفيضُ نورُه على كل شيءٍ يمرُّ به (هذا رأي هوسرل(*)، كما جاء في كتابه «أفكار»).

(*) إدموند هوسّرل (١٨٥٩-١٩٣٨م) فيلسوف ألماني وضع أسس الفلسفة الظاهراتية (الفينومينولوجيا)، ومن عباءته خرجت تيارات فلسفية عديدة أبرزها الفلسفة الوجودية حيث تأثَّر به كبار الفلاسفة الوجوديين، مثل =

٢٧٠٣ الإنسانُ في صراعٍ مع قوى التاريخ، وهذه القوى عمياء عن حياة الفرد. فحياة الفرد ومشاعره ضحايا لتلك القوى. يقول إميل سيوران(*): «إنَّ ما يجعل حياة الإنسان مُعتمةً ومظلمةً هو خُلُوُّ التاريخ من المعنى ووعودُه التي لم تتحقَّق» (إميل سيوران، التاريخ واليوتوبيا). يتحدَّث سيوران عن الشر، والعنف، والهمجية، باعتبارها القوى الأساسيَّةَ المحرِّكة للتاريخ. ويرى أنَّ الفضيلةَ والخيرَ والمثلَ العليا الإنسانية كانت دائمًا أقرب إلى الهزيمة في صراعها مع قوى الطغيان والشر.

٢٧٣٥ لا تحظى النحافة والشحوب بالتقدير والقبول بين الشعوب الفقيرة، فهذه أمورٌ تُذكِّرهم بالجوع والفقر.

٢٨٦٢ يبدو التفاؤلُ أحيانًا مُثيرًا للسخرية.

٢١٢٧ خلقنا الله نسير منتصبي القامة، بخلاف الحيوانات. بيد أنَّ كثيرًا من الناس لا ينتفعون بهذه الهبة؛ فيقضون معظم حياتهم مُنْحَنِينَ، بل زاحفين. كيف يقدر المرءُ على ذلك؟ أليس من الكُفْر أن ننكر هذه النعمةَ العظيمةَ من الله: نعمة السير منتصبي القامة؟

٢١٥٢ الإنسان ليس «حيوانًا اجتماعيًا»، بل كلَّما زادت إنسانيتُه زادت فرديته وسعيه نحو العزلة. الإنسان العادي «المتوسط» اجتماعيٌّ ليس بسبب حبِّه للآخرين، ولكن لأنَّه غيرُ مُكتفٍ بذاته، إنَّه هروبٌ من الخواء والرتابة والحياة الخاصة. الإنسان السطحي لا يحبُّ أن يكَون وحيدًا، والعكس صحيح، فالإنسان الروحاني حقًا، الناسك الزاهد، يمكن أن يقضي حياتَه كلَّها وحيدًا.

٢١٥٦ في إيطاليا، بدلاً من ضرب الحمار حتى يتحرَّك إلى الأمام، وهو الأمر الذي قد لا يُفيد أحيانًا بسبب تصلُّب الحمار وعناده، فكَّر الفلاحون في حيلة: قاموا بتثبيت عصا

= هيدجر الذي تتلمذ عليه مباشرة وطوَّر أفكاره، وماكس شيلر وجان بول سارتر ورومان إنجاردن وغابرييل مارسل، وغيرهم. من أهم أعماله: «أفكار» و«بحوث منطقية» و«أزمة العلوم الأوروبية». (المترجم)

(*) إميل سيوران (١٩١١-١٩٩٥م) كاتب وفيلسوف روماني، تسود في كتاباته النزعة التشاؤمية والعدمية وجوٌّ الألم والعذاب واليأس والحيرة. من أعماله: «غواية الوجود» و«التاريخ واليوتوبيا» و«تاريخ موجز للانحلال» و«مقايسات المرارة» الذي تُرجم إلى اللغة العربية بعنوان «المياه كلُّها بلون الغرق». (المترجم)

مُعَلَّقٌ بها حزمة من البرسيم على رأس الحمار بحيث يراها الحمار ويُحدِّق فيها ويتحرَّكُ مُتوَهِّمًا أنه سيصل إليها. ألا يُشبه الكثيرُ من الناس هذه الحمير؟ أليس هناك بعضُ الناس ممَّن يجعلون من الآخرين حميراً مثل تلك التي في إيطاليا؟

٢١٦١ الحسد محنة تصيب التعساء، وهم يَحسدون غيرَهم لأنَّهم يشعرون بالتعاسة وسوء الحظ. والحسد لا يُخفِّف من مصيبتهم، بل يزيدها سوءاً.

٢١٧٣ يَعتبر بعضُ الناس غطرستهم نوعًا من الوعي بالذات، إلا أنَّ الغطرسةَ والوعي بالذات شيئان مختلفان تمامًا.

٢١٧٨ المعرفة الحقيقية يمتلكها مَن ينتمون إلى سواد الناس، وهم الأقرب إلى الطبيعة الأدنى غير المصقولة. أمَّا الفئة الأفضل من الناس فهم إلى السذاجة والجهل أقرب. وكثيراً ما كانت تواجهني هذه المعضلة: هل أحترمُهم لطيبتهم أم أسخط عليهم لسذاجتهم وجهلهم؟ فالجهلُ ليس فضيلة. وبالعكس: هل أسخط على ذوي التجربة والخبرة لتشابههم مع الأكثرية؟ (فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾)، أم أُقدِّرُهم لمعرفتهم وواقعيتهم؟ بالطبع، لم يُمثِّل هذا الأمر معضلة كبيرة لي: فالاستقامة أسمى من المعرفة، ولكن لا بدَّ لي أن أعترف بأنَّني لم أستطع قطُّ أن أتسامح مع سذاجة الطيبين المخلصين وقِلَّة خبرتهم. كنتُ أحلم دائمًا بمَثَلٍ يُحتذى: إنسان صالح ومخلص، ومع ذلك فهو صاحِب تجربة وخبرة وواقعي. هل يمكن أن يجتمع ذلك في شخص واحد أم أنَّ حدوثه لا يعدو أن يكون صدفة سعيدة؟

٢١٨٢ كما أنَّنا نحمل أعباء أولادنا دون أن نشعر بها، فإنَّنا لا نشعر بعيوبنا ونقائصنا، ولكنَّنا نشعر بالأحرى بعيوب الآخرين ونقائصهم.

٢١٨٤ الآراء التي تنشأ عن رغبة وإرادة نُعبِّرُ عنها بصوت عالٍ وبانفعال، أمَّا تلك التي تنشأ عن معرفةٍ واقتناعٍ فإنَّنا نُعبِّرُ عنها بهدوء وبرود. ولهذا، فإنَّنا نثقُ دائمًا في الأحكام المُعبَّر عنها بهدوء وبرود؛ لأنَّنا نشعر أنَّها تنشأ عن فهمٍ لا عن هوى وانفعال.

٢١٨٥ هناك علاقة عكسية بين الانشغال بالحقائق العامة والانشغال بالحقائق الخاصة؛ فإذا التقينا بشخص لديه فضولٌ شديد تجاه الشئون الخاصة لمن تربطه بهم علاقة أو قرابة أو لا تربطه بهم هذه العلاقة (وهو أمر شائع، وليس قاصراً على النساء فقط) فسوف نجد هذا الشخص أقلَّ اهتمامًا بالحقائق العامة للعالم، وهي موضوعات العلم والفلسفة. ويلاحظ شوبنهاور(*)، بسخريته المعروفة، أنَّ الناسَ العاديين والذين لا تبدو عليهم حدة ذكاء مميزة «هم خبراء في علم الجبر والحساب فيما يتعلَّق بشئون الآخرين الخاصة، حيث يمكنهم حلُّ أعقد المعادلات من خلال قيمة مُعطاة واحدة».

٢١٩٣ كان نيتشه إنسانًا حسَّاسًا ورقيقَ الشعور للغاية، ولم يكن على الإطلاق مثلَ «إنسانه الأعلى» (السوبرمان). فَقَدَ نيتشه عقلَه وهو في الرابعة والأربعين من عمره، ووفقًا لما ذكره كُتَّاب سيرة حياته، فإنَّ السبب المباشر لهذا الأمر كان مشهداً وقع في ميدان تورين، فبعد أن غادر الفيلسوف شقته رأى سائقَ عربة يضربُ حصانَه بالسوط بلا رحمة، فاقترب الفيلسوف من الحصان وعانقه بلطف وانخرط في البكاء، ثم سقط على الأرض. عاش نيتشه بعدها لمدة اثني عشرة عامًا، إلا أنَّه لم يستعد عقلَه بعدها أبداً. نحن ما نكونه بالفعل، وليس ما نتوهَّم أو نتمنَّى أن نكونه.

٢٢٢٨ لا يمكننا أن نبلغ الكمالَ، إلا أنَّ هناك شيئًا واحدًا يمكننا القيام به: أن نحاول باستمرار أن نكون أكثر إنسانية، أن يحاول كلُّ إنسانٍ أن يكون إنسانًا أكثرَ بقدر الإمكان.

٣٠٥٤. يُضفي حضورُ الموت الظلالَ المعتمةَ الضرورية على صورة الحياة، وبدون تلك الظلال ستكون الصورةُ باهتةً وتافهة. الرواية والمسرحية التي تخلو من حضور الموت تبدو ناقصة.

٣٠٦٦. أودُّ أن أقولَ لَمن يُقدِّم لي آراءه: لستُ مهتمًا بأفكارك، ولا بقناعاتك المزعومة، ولا برؤيتك للعالم، ولا بأي شيءٍ مما يخطر ببالك. الشيءُ الوحيد الذي

(*) آرثر شوبنهاور (١٧٨٨-١٨٦٠م) فيلسوف ألماني، تهيمن على فلسفته النزعة التشاؤمية حيث يرى أن الحياة آلام وشقاء والوجود شر ومعاناة. وضع خلاصة فلسفته في كتابه الأكبر والأهم «العالم إرادةً وتمثّلاً». (المترجم)

يهمُّني، وهو الشيء الوحيد المهم على الإطلاق: أيُّ رجلٍ أنت؟ هل أنت شخص خيِّر أم شرير؟ في الحقيقة، إنَّ كلَّ ما تقوله، بل كلّ تصرفاتك، لا تهمني في شيءٍ إلا بقدر ما تساعدني على أن أجد إجابةَ هذا السؤال: من أنت؟

٣٠٦٩. حتى الظلمة يمكن أن تكونَ نوراً؛ ففي أثناء النهار تكون النجومُ غيرَ مرئية، مع أنَّها تكون أشدَّ توهجًا في الظلمة الشديدة. لولا الليالي المظلمة، لما عرفنا سحرَ السماء المرصَّعة بالنجوم، ولما رأينا هذا المشهد الذي لا يُصدَّق، حتى لو كنَّا على علمٍ بوجوده.

٣٠٧٨. ما الذي يُميِّزُ الكاتبَ الحقيقي؟ في المقام الأول: يُميِّزُه حدَّةُ الإدراك. هناك أُناسٌ عاشوا حياتهم كما لو أنَّهم مرُّوا بالعالم وعيونُهم مُغلقة. الكاتب الحقيقي هو على النقيض من ذلك تمامًا: إنَّه حساسٌ كفيلم الكاميرا.

٣٠٨٥. لا يمكن الانتصار على العالم من خلال إنكاره، بل من خلال قبوله. إنَّ قبولَ العالم هو الشرط الأولي لتغيير العالم أو الانتصار عليه.

٣١٠٣. الصورة الكتابية اليابانية للفعل «يُفكر» تعني «يكون حزينًا». هل هذه صدفةٌ أم منطقٌ خفيّ؟

٣١٣٤. مشكلة العزلة. يعتقد البعضُ أنَّ العزلةَ هي الطريقة الوحيدة لكي يؤكِّد الإنسان إنسانيتَه أو يثبتها، ويعتقد آخرون العكس: لا يمكن للإنسان أن يصبح إنسانًا ويبقى كذلك إلا عندما يكون محوطًا بالآخرين. كتب باتريك زوسكيند(*)، وهو كاتب ألماني من الجيل الجديد، قصتَّه «الحمامة» ليوضِّح فقط أنَّ الإنسان يفقد إنسانيَّتَه في العزلة، وأنَّ الوجود الإنساني يكون إنسانيًا فقط عندما يكون مع بشرٍ آخرين.

٣١٣٧. لكلِّ ما يقوم به المرءُ في الحياة ما يُسمَّى بقواعد اللعبة. اتبع القواعد، ولكي تتبع القواعد، إمَّا أن تتعلَّمَها أو أن تضعها بنفسك.

(*) باتريك زوسكيند (١٩٤٩-) روائي ألماني معاصر، من أعماله: «العطر» وهي أشهر أعماله، و«الحمامة» و«عن الحب والموت» وهو مجموعة من المقالات. (المترجم)

٣١٤٠ لماذا نُقدِّر دائمًا السلوكَ الأخلاقيَّ وغالبًا ما نحتقر الوعظَ الأخلاقيَّ؟ ذلك لأنَّ السلوكَ الأخلاقي فعلٌ، أمَّا الوعظ الأخلاقي فمجرَّد كلام. السلوكُ الأخلاقي الذي تقوم به طلبٌ إلى نفسك، أمَّا الوعظُ الأخلاقي فهو طلبٌ إلى الآخرين. ولهذا، فالسلوك الأخلاقي شيءٌ أخلاقي دائمًا، أمَّا الوعظ الأخلاقي فهو غالبًا زيفٌ ورياء، وبالتالي فهو شيءٌ لا أخلاقي.

٣١٧٩ يبدو أنَّ الصراعَ هو دَيْدن الحياة، ولا يمكن تخيُّلُ حياة من دون صراع. قد يكون الصراعُ بنَّاءً، أو هدَّامًا، أو عقيمًا (فارغًا) وهو الصراع الذي لَا يؤدي إلى أي حلٍّ، ولا يُحقِّق أي غاية، وكثير من الناس لا يحتفون إلا بهذا الصراع الأجوف.

٣١٨٠ عند مرحلة مُعيَّنة من حياتها، تُبحر أسماكُ السَّلمون ضد التيار، عائدةً إلى مسقط رأسها، مُتغلِّبةً على المنحدرات والشلالات، بل أحيانًا تموت خلال محاولتها هذه للعودة. لماذا تفعل كلَّ ذلك؟ لأنَّها تعرف أنَّها يجب أن تفعلَ ذلك. هذا هو كلُّ ما في الأمر.

٣٢٦٠ خلال رحلة استكشافية علمية في المحيط الهادئ على متن مركب خشبي يُدعى «كون تيكي» Kon-Tiki، يُقال إنَّ ثلاثةً من طاقم الرحلة اصطادوا ذات ليلةٍ سمكةً تشبه الثعبان لها ألوان خلابة، فأخذوها على الفور إلى العضو الرابع من الطاقم، وكان عالم أحياء، أيقظوه من النوم وعرضوا عليه السمكةَ، فنظر إليها وقال: «هذه السمكة لا وجود لها» وعاد إلى نومه. الكثير من الناس يسلكون في الحياة مثل هذا الخبير.

٣٣٣٣ كثيرًا ما يرى الناسُ الحدثَ الواحدَ ذاتَهُ الذي اشتركوا فيه أو شهدوه معًا ويصفونه بشكل مُختلف، وكلٌّ واحد يكون مقتنعًا تمامًا بوجهة نظره (تدور قصة الفيلم راشومون Rashomon حول هذه الفكّرة). كيف نُفسر هذا الأمر؟ أعتقد أن التفسير الوحيد هو أنَّ ملاحظاتنا ومشاهداتنا ليست آلية وموضوعية، بل تمتزج بأفكارنا ومشاعرنا ورغباتنا وأهوائنا، وينطبق هذا أيضًا على رؤيتنا لحدث ما، وهو ما يؤدي إلى الكثير من وجهات النظر المختلفة، والعديد من حالات سوء الفهم.

٣٣٣٤ أيُّهما المشكلة الأكبر: الحياة أم الموت؟ ربما كان الكاتب الأمريكي توماس بيلي ألدريتش يقصد هذا السؤال عندما قال: «إنَّنا نبكي عندما نولد، لا عندما نموت».

٣٣٤٠ ما المعنى الحقيقي لكلمة عقلاني وكلمة لا عقلاني؟ من الصعب أن نجيب عن هذا السؤال لأسباب عديدة، من بينها أنَّ مفهوم العقل ليس متطابقًا في الثقافات المختلفة واللغات المختلفة. فكلمات Ratio في اللاتينية، و Reason في الإنجليزية، وVernunft في الألمانية، لا تحمل المعنى نفسه.

٣٣٤١ ما كان أو ما وقع كان حتمًا واقعًا، ولا يمكن محوُه، إذ إنَّ هذا ضد قانون الزمن.

اليوم هو ٢٣ مارس ١٩٨٨م، مرَّت خمسُ سنواتٍ من السجن، ويتبقَّى أربع سنوات.

٣٣٧٥ كيف نفهم لوحات بيكاسّو التي يقف معظمُنا حائرين أمامها؟ من المثير أن نستمع إلى ما يفكِّرُ فيه الفنَّان نفسه فيما يتعلَّق بفنِّه. كتب بيكاسّو في رسالة إلى جيوفاني بابيني عام ١٩٥٢م يقول: «إنَّ أصحاب الذوق الرفيع والأثرياء والعاطلين والمفكِّرين يبحثون جميعهم في الفنِّ عن شيءٍ جديد وباذخ وصادم. أمَّا أنا نفسي، بدءًا من المرحلة التكعيبية وما بعدها، فقد أمتعتُ هؤلاء الخبراء الذوَّاقة والنُقَّاد بكلِّ الغرابة التلقائية التي خطرت على بالي، أمَّا هم، فكلَّما قلَّ فهمُهم، زاد إعجابهم. ولكن عندما أواجه نفسي، فليس لدي الشجاعة لأن أعتبر نفسي فنَّانًا بالمعنى الأصيل للكلمة. فالفنَّانون هم أمثال غيوتّو، وتيتيان، ورامبرانت، وغويا. وأنا مجرَّدُ فنَّان شعبي فَهِمَ عصرَه واستغلَّ بقدر الإمكان غباءَ معاصريه وغرورَهم ورُعُونتهم». وتعليقي: لا أعرف مدى صدق هذا الاعتراف، وكيف لي أن أضعه إلى جانب حقيقة أنَّ بيكاسّو أعدَّ أكثر من سبعمائة مسودَّة ورسمٍ تخطيطي لكي يرسم لوحتَه «سيدات من أڤيغنون» Ladies from Avignon والتي كانت، كما هو معروف، ثورةً حقيقيَّةً في فنِّ الرسم في الغرب؟ ربما كان بيكاسّو يمزح معنا بكلامه هذا.

٣٣٧٧ يمكن للكاتب أن يناضل ضد الشر الكامن في البشر إن كان هذا هو هدفه. فشكسبير، من خلال وصفه لشخصية مكبث، تكلَّم عن الخير والشر أكثر ممَّا قاله مائة من فلاسفة الأخلاق.

٣٣٩١ معظم الناس يفعلون الشرَّ بدافع المصلحة (السلطة، الثروة، الشهرة، الحب، إلخ). ولكن هناك أيضًا الشرُّ لأجل الشرِّ، الشرُّ الذي يكون غايةً في حدِّ ذاته، إنَّه جحيمٌ حقيقي. وللأسف أُتيحت لي الفرصةُ لأن أعرفَ مثلَ هذا النوع من الشرِّ ومَن يقومون به.

٣٤٣٩ تلعبُ المكابدةُ والألمُ دورًا أخلاقيًا هائلاً في الحياة الإنسانيَّة، وهو أمرٌ يصعب تفسيره، غير أنَّنا جميعًا نشعر به. بالطبع، فإنَّ هذه الحالة من الألم والمكابدة لا تتعلَّق بالعالَم، ولكنَّها بالأحرى حالة تخصُّ الإنسان؛ فبدون الألم والمكابدة، سنفتقد ذلك الشيءَ المهمَّ الذي نُسميِّه المصداقيَّةَ.

٣٤٦٤ كنتُ على حقٍّ في الزمن الخطأ.

٣٥٠١ أقولُ لهم: قد تستطيعون إخفاءَ الماضي، أما الحاضر فلا.

٣٥١٤ مات رجلٌ أعرفه، وأثناء قراءة نعيه، فكَّرتُ: هناك أُناسٌ كنَّا نخشاهم لقوَّتهم وقسوتهم، وأُناسٌ احترمناهم لحكمتهم ولسموِّهم المختلف عمَّا عهدناه، وهناك أُناسٌ أُعجبنا بهم لما يتمتَّعون به من فضائلَ، وأخيرًا، هناك أُناسٌ أحببناهم لسماحتهم. عندما يموت كلُّ هؤلاء فإنَّنا نتذكَّر فقط هؤلاء الذين أحببناهم لسماحتهم، نتذكَّرهم بحزن حقيقي ونشعر بخسارة لا تُعوَّض. بالنسبة لي، كان هذا دائمًا هو الدليل على أنَّ الحبَّ والسماحة فقط هما القيمتان اللتان تتحدَّيان الزمن والنسيان أكثر من أيِّ شيء آخر، وأنَّه لا يمكن لأي شيء أن يُشكِّكَ فيهما، ولا حتى الموت ذاته. لذلك، لنا أن نقول إنَّ الحبَّ والسماحة دليلٌ على الخلود الإنساني.

٣٥١٩. إنَّني على وعيٍ بعيوبي، لكنِّي أتعايشُ معها. ومع ذلك، عندما أرى هذه العيوبَ في شخصٍ آخر، فإنَّني أبغضه وأبغض العيبَ. وهذا هو مقياس «العدل» والموضوعية لديَّ.

٣٥٢٧ يُحوِّلُ كُتّابُ التراچيديا والشعراءُ التجاربَ القاسيةَ التي مرُّوا بها في حياتهم إلى قصة مُثيرة، مثل دودة القزِّ التي تُحوِّلُ أوراقَ التوت إلى حرير. كلاهما مُدهشٌ على حدٍّ سواء.

٣٥٢٨ كلَّما اقتربتَ من النجوم، اقتربتَ من قَدَرِها: الوحدة، والبُعد، واللا مبالاة.

٣٥٤٠ الشخص العادي من أهل إفريقيا الأصليين يعرف النجومَ في السماء أفضل من نظيره في مدينة أوروبية أو أمريكية. فبينما يُدرك ذلك الإنسانُ البسيطُ الوقتَ من خلال حركة الشمس، ويهتدي بالنجوم في السفر بالليل، فإنَّ معرفة الشخص العادي منَّا بهذا الأمر هي صفر. فقد تركنا معرفتنا بالسماء لعلماء الفلك والفيزياء. إنَّ المشكلةَ الأساسيةَ ليست في المعرفة أو الجهل، المشكلة هي أنَّ الخسارة هنا ذات طابع أخلاقي إلى حد كبير؛ فالإنسان الذي لم يرفع بصرَه قطُّ إلى السماء، أو نادرًا ما يفعل ذلك، يفقد حسَّ الاتجاه، وبغير صورة السماء هذه يكون محرومًا من المشهد الذي تنبع منه حكمةُ الدنيا بأسرها. من خلال هذا المشهد السماوي فقط، يستطيع الإنسانُ أن يُقدِّرَ عظمتَه وتفاهته، بشرط ألا ينسى أيًا من الأمرين.

٣٥٤٨ يشكو البعضُ من الجحود الإنساني، وهم يخافون ألا يُقابَلَ حُبُّهم بالمثل، وألا تُكافَأ سماحتُهم أو تُقدَّر. وهذا سوء فهمٍ واضح؛ فما من عملٍ صالح حقًا يمكن أن يبقى دون جزاء، ذلك أنَّ جزاءه فوري. ويُدركُ ذلك من آثر غيرَه علىٰ نفسه، إذ إنَّ الإيثار خير العمل. فالعمل الصالح وجزاؤه لا ينفصلان، كالشيء وظلِّه. والجزاءُ الذي تُفكِّر فيه قد يُقلِّلُ من قيمة العمل. انظر إلى طفلٍ يعتني بطائر جريح أو يُطعم كلبًا صغيرًا يتبعه في الشارع، هل يبحث الطفل عن جزاء بعينه أم هل يشعر أنَّه قد نال جزاءه بالفعل؟ انظر إلى الفرحة في عينيه.

٣٥٥٩ روميو وچولييت، تريستان وإيفولده، عمر ومريم، ليلى والمجنون، كان كلٌّ منهم يُحبُّ الآخر، ونحن نحبُّهم، نحبُّهم لأنَّ كلًا منهم كان يُحبُّ الآخر، ونحبُّهم رغم أنَّنا لا نعرفهم. إذن، نحن في الحقيقة لا نحبُّهم شخصيًا، بل نحبُّ الحبَّ.

٣٥٧٤ الإنسان عُرضةٌ للخطأ، أما الإنسان الآلي (الروبوت) فليس كذلك. في هذه الحال، تكون قابلية الإنسان للخطأ ميزة، ويكون عدم قابلية الإنسان الآلي (الروبوت) للخطأ نقيصة أو «فضيلة تفادينا الوقوع فيها».

٣٥٧٥ العلم لا يُمدَح أو يُلعَن، بل يُستعمَل. وليس العلم بأي حال حقيقة خالصة، كما يراه البعض أو يزعم، بل هو أحد السبل إلى الحقيقة.

٣٥٩٩ كلُّ الناس، ولو لم يَعرفوا، يُحبُّون الشجاعةَ والإيثارَ والكرمَ من أعماق روحهم. وإلا فلمَ نواصل دون كللٍ اختراعَ شخصيات تتحدَّى القدر والموتَ بكلِّ شجاعة؟ وكلُّ إنسان داخلَه شاعر وناسك وحالم، ولو بدرجة قليلة. وإلا من أين يأتي هذا الارتباط بالرايات والرموز والترانيم والبطل الرومانتيكي الذي يموت بلا ندم من أجل وطنه أو من أجل محبوبته؟ ومن يكون هؤلاء الخلق الذين يملأون قاعات السينما حيث يمكنهم أن يشاهدوا أبطالاً، ما يربطهم بهم من قواسم لا يقل عمَّا يُفرِّقهم من اختلافات؟ إذا كان صحيحًا أنَّ هؤلاء غير موجودين في الحياة الحقيقية (وأنَّهم موجودن في الأدب فقط)، فإنَّ السؤال يبقى مطروحًا: لماذا واصل خيالُ الشعوب خلقَ هؤلاء منذ زمن سحيق؟ إنَّنا لا نُعجب بما نحن عليه، ولكنَّنا نُعجب بما لسنا عليه، وبما نودُّ أو ينبغي أن نكون عليه.

٣٦٦١ يُقال إنَّ اللغةَ هي موطن الكاتب. وهناك أشياء غريبة تحدث للكُتَّاب المهاجرين، فحتى بعد أن أتقنوا لغة موطنهم الجديد، يكتبون الشعر بلغتهم الأم. وعلى سبيل المثال، نجد أنَّ چوزيف برودسكي(*) بعد أن انتقل إلى الغرب واصل كتابةَ النثر باللغة الإنجليزية وكتابةَ الشعر باللغة الروسية فقط. نحن جميعًا نفهم هذا الأمر من أعماقنا، بيد أنَّه من الصعب تفسيره.

٣٦٧٦ إنَّ عصرَنا هذا عصرٌ صعبٌ، لكنَّه مُثيرٌ للغاية، قد نشكو من أنَّه كان قاسيًا، ولكنَّنا لن نشكو من أنَّه كان مُملاً. ربما أشعر بالأسف فقط لأنَّني لن أعيش حتى أرى نتيجة

(*) چوزيف برودسكي (١٩٤٠-١٩٩٦م) شاعر وكاتب مقالات روسي، حصل على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٨٧م، اتُّهم في الاتحاد السوڤيتي بالتطفل الاجتماعي بحجة أنَّه لا يعمل ولا يساهم في خدمة المجتمع السوڤيتي، وخرج من المعتقل بعد سنتين ثم انتقل إلى النمسا ومنها إلى أمريكا. (المترجم)

هذا كُلِّه. إنَّني أتحدَّث عن الموت، ولكن قد لا تكون هناك نتيجة ولا موت. فربما يكون الأمر مجرَّد أن تُغمض العيون التي طالما كانت ترى العالمَ، وتستمر الحياة؛ ولادات ٌ جديدة، عيونٌ جديدة تتفتَّح كالورود، قصصٌ جديدة، وهكذا بلا نهاية. إلهي. ما أعظمك! وما أعظمَ الكونَ الذي خلقتَه!

٣٦٧٧ كان هناك ألمٌ وكَبَدٌ من قبلُ، وكان شيئًا رهيبًا وبشعًا، إلا أن سيفَ القمع لم يكن من قبل مُسلطًا على الإنسان الذي في داخلنا كما هو الآن، ولم يكن العزم على إهانة الإنسان وتدميره بمثل هذه المهارة والمثابرة الشيطانية. إنَّه «ردة عن المشية المعتدلة التي تميَّز بها الإنسان» كما يقول بلوخ.

عن الدين
والأخلاق

الفصل الثاني

عن الدين والأخلاق

٢٠ لكلّ دينٍ، بوصفه ظاهرةً تاريخيةً، جانبان؛ فهو علمٌ من حيث كونه وحيًا، وتطبيقٌ من حيث كونه فعل البشر. يُوحي اللهُ الدينَ ويطبِّقه النَاس. كلُّ ما يتَّصف بالعظمة والسُّمُوِّ فهو من عند الله، وكلُّ ما هو خطأ وغير لائق فهو من صنع البشر. وتتعرَّض التعاليم الدينية للونين من الإساءة البشرية: فالإنسان، من ناحية، يُفرِّط في تعاليم الدين النقيَّة ولا يُطبِّقها أو يُطبِّقها بشكل خاطئ، ومن ناحية أخرى، يُحرِّف ويُغير في هذه التعاليم. ويقدِّم لنا التاريخُ نماذجَ عديدةً لكلا الحالتين.

يقول هيجل: «إنَّ الإمبراطورية الرومانية الشرقية ذات الثقافة الرفيعة، التي يُفتَرَضُ فيها فهم روح المسيحية في حقيقتها ونقائها، يُقدِّمها لنا التاريخ وكأنَّها عصر من الجرائم والنقائص والخديعة والفُحش امتدَّ لألف عام. فباسم العقيدة المسيحية تنتشر مشاهد القتل والحرق والنهب في كلِّ مكان. فالجدل حول طبيعة المسيح، أهو إله أو مثل الإله، بسبب حرف واحد [يُميِّز بين كلمتي «مثل» و«نفس» في اليونانية(*)] دفع ثمنه آلاف الأرواح البشرية» (هيجل، فلسفة التاريخ).

وبدراسة ظاهرة مماثلة في تاريخ الهند، فلن نحتفظ بهدوئنا أبدًا: ففي لحظة يأخذنا الإعجاب بعمق الأفكار وسُمُوِّها، وفي اللحظة التالية يستولي علينا الاشمئزاز من النماذج التي لا تُصدَّق للتفاهة وغياب العقل. كلُّ هذا مختلطٌ في لفيف معقَّد يزعم أنَّه شيءٌ واحد. إنَّه في الحقيقة انحرافٌ مأساوي عن التعاليم الإلهية، حيث يمكن تمييز بذور الوحي بوضوح وهي تتوهَّج في خلفية العتمة الإنسانية ببريق أبدي لم يُصبه دَنَسٌ قط.

ورغم ذلك، ليست القضية الحقيقية للتاريخ هي الشرور التي وقعت باسم الدين، ولكن القضية الحقيقية هي كيف كان سيبدو العالم لو لم توجد الهندوسية واليهودية

(*) هذه ملاحظة بيجوڤيتش. (المراجع)

والمسيحية والإسلام؟ وما كانت ستؤول إليه الإنسانية لو لم تعرف هذه المدارس، رغم أنَّ سدنتها لم يكونوا مثاليين، ورغم أنَّها مع ما تحويه من حقائق سامية تضمُّ هُراء وسخفًا؟ سيكون أمرًا مفيدًا لو حاول مؤرِّخٌ منصفٌ غيرُ متحيِّزٍ أن يكتب هذا «التاريخ» لأجلنا جميعًا، هذا بالطبع إن أمكن تصوُّر تاريخ كهذا وكتابته.

٩٠ ليس الإنسان المستقيم الملتزم بالقانون بالضرورة صاحب خُلُق. فاستقامة السلوك الشكليَّة قد تكون نتيجة للعادة أو الخوف، والعادة ليست شيئًا أخلاقيًا، وكذلك الخوف، بل هو أقلُّ أخلاقية. وحدها السلوكيَّات التي تكون وفقًا لما يُمليه الضمير هي السلوكيَّات الأخلاقية حقًا. فكما ينبع قراري بالصوم والصلاة من ضميري ينبغي كذلك أن ينبع قراري بالسلوك القويم. ولكي أتَّخذَ مثل هذا القرار فلا بدَّ أن يكون الخيارُ الآخر مُتاحًا أمامي كذلك. فالشخصُ المخصِيُّ ليس مثالاً للعفَّة، كما أنَّ الضعف ليس فضيلة.

٩١-١ الدراما والتراچيديا، وحتى الكوميديا، تُبرز المعضلات الأخلاقيةَ واضحةً للمشاهدين، وذلك من خلال عرض قضية الخير والشر أمام الوعي بشكل كامل. وحيث إنَّ الوعي شيءٌ مهم، تبقى فكرة هزيمة الخير في التراچيديا مسألة هامشية، والنتيجة هنا غير مُهِمَّة لأنَّ مَن يُمثِّل الأخلاق لا يمكن أن يخسر أساسًا.

في الكوميديا، يضحك الناس أو يسخرون من أنفسهم، فالكوميديا وسيلة قوية لشحذ الوعي تجاه قضية الخير والشر، الفضيلة والرذيلة. ولهذا، نجد الوعيَ الأخلاقي مُتدنِّيًا عند الشعوب التي لا تعرف الدراما (أو الكوميديا)، ومن ثمَّ فإنَّ الكثير من الانحرافات والتشوّهات في العلاقات الإنسانية يتم التعامل معها والدفاع عنها باعتبارها أمرًا عاديًا وطبيعيًا. ذلك أنَّه لكي يُنبَذَ الشرُّ ويُقصى، فالشرط الأول هو أن يُفهم ويُدرك على أنَّه شرٌّ وليس شيئًا آخر.

٩١-٢ الأفكار التي تدور حول ماهية الحدث التراچيدي المأساوي هي ميتافيزيقا خالصة؛ ذلك أنَّه لا توجد تراچيديا إلا بوجود الله، فمن دون وجود الله يكون الأمر مجرَّد أحداث مؤسفة عارضة.

٩٩ الوثنية وكلُّ الأديان الزائفة هي أديان مصالح، أمَّا الدين السماوي وكلُّ الأديان الحقَّة فهي أديان تضحية.

٢٠٣ كيف يمكن حلُّ التناقض المنطقي بين قدرة الله المطلقة وعلمه الشامل من جهة، ومسئولية الإنسان من جهة أخرى؟ كيف تكون القوة لله جميعًا وتكون المسئولية كلُّها على الإنسان؟ الإجابة: يمكن أن يكون الأمر هكذا، تمامًا كما أنَّ العالم يمكن أن يكون محدودًا ولا نهائيًا في الوقت ذاته. إنَّه أمر غير منطقيّ، ولكنَّه هكذا.

٢٥٧-١ الدين بطبيعته مسألة شخصية.

٣٦٧ الدين هو دعوة الإنسان إلى أن يحيا بطريقة تتناغم مع سلام السماء وعمقها، ولكن كما جاء في القرآن ﴿ **وَكَانَ الإِنسانُ عجُولاً** ﴾ فهو ضيِّقُ الأفق، ومذعور، وجشِع، وأناني. وهذه كلُّها أمور تتنافي مع كلِّ ما تنطق به السماء بوضوح.

٤٩٢ لا يمكن قبول رأي شلنج(*) الذي يقول إنَّ هناك ارتباطًا بين فنِّ عصر النهضة والمسيحية، وارتباطًا بين الفنِّ التشكيلي اليوناني والأساطير اليونانية. فاليوناني الذي يقول بتعدُّد الآلهة رأى الألوهيةَ مُجسَّدةً في تمثال، أي في شيء، وهذه وثنيَّةٌ خالصة. وأيُّ مسيحي مؤمن نال حظًا من التعليم العقلاني لا يرى الألوهية في أيقونة مريم العذراء، ولكن يرى الأيقونة باعتبارها شيئًا حلَّت فيه الروح. وهنا، تكون الأيقونة تعبيرًا حسيًا عمَّا هو خارج نطاق الحواس (اللامحدود مُقدَّم من خلال المحدود). ورغم هذا الانحراف المسيحي الخطير، فلا يمكن للمرء أن يتكلَّم عن وثنية مسيحية (وقد بيَّن القرآن هذا الفارق، ومن ثمَّ لا يمكن تجاهله). في الحقيقة، هناك اختلاف في الدافع الجوَّاني عند من قاموا بنحت الأوثان اليونانية والرومانية وعند الفنَّانين الذين زيَّنوا الكنائس في كلِّ أنحاء العالم بعدد هائل من أيقونات القديسين ورجال الدين، فالدافع في حالة هؤلاء الفنَّانين المسيحيين هو سعيٌ ديني أصيل نحو المثال والشخصية الفردية. يُبرهن الدين مرارًا وتكرارًا على وجود عالَم يحيا ويفكِّر ويشعر ويرى بشكل مناقض للعالَم الموضوعي المتماثل الأحادي

(*) فريدريك شلنج (١٧٧٥-١٨٤٥م) فيلسوف ألماني، أحد أهم ثلاثة فلاسفة في المثالية الألمانية، إلى جانب هيجل وفيشتة. (المترجم)

المتجانس دائمًا، كما يراه العلم (أو لا يرى غيره أصلاً). ومن خلال الرسم الذي لا ينقطع لأيقونات جديدة، ومن خلال هذا الفيض من الشخصيات التي تتدفَّق من كل زاوية في الكنيسة يرفض الدينُ العالَمَ الماديَّ الموضوعيَّ الميّتَ المجهولَ ويضع حدًا له. ترى الروح (وليس العقل) هذا الملكوتَ الجوَّاني للأيقونات وتأبى إلا أن تكشف أسراره. هكذا أفهم فنَّ الرسم المسيحي في العصور الوسطى. ومع ذلك، يجب التأكيد على أنَّ عاقبة هذا الأمر قد تكون أحطَّ درجات الوثنية لدى المشاهد، بصرف النظر عن شعور الفنَّان ذاته حين كان يرسم.

٤٩٥ . وصف أحدُهم مقطوعةَ باخ الموسيقية «توكاتا وفوجًّا في مقام فا الصغير» Toccata and Fugue in D minor بأنَّها أعظمُ مقطوعة موسيقية دينية عبر كلِّ العصور، وفي الوقت ذاته وصفها بأنَّها المقطوعة الأكثر إلحادًا. ولا أعرف لماذا وصفها بهذا الوصف الأخير. التوكاتا هنا هي تمهيد لتجربة دينية، حيث تُزيل الحواجز بين الإنسان والإله، أمَّا الفوجًّا فهي إدراكُ العلاقة مع الإله، لحظةُ وصلٍ ولقاء.

٤٩٧ يبدو النظام الآلي بلا معنى، تمامًا كالساعة. ولا يحمل معنى حقيقيًا إلا المفاهيم الأخلاقية، مثل: الخير والشر والصبر والطاعة والتمرد والحياء والغرور والكرامة والندم والعقاب والثواب والخوف والإخلاص والخيانة. العالم الذي توجد فيه هذه المفاهيم هو العالم الوحيد الذي له معنى. الفضاء مُثير للإعجاب ومُدهش ورهيب، ولكنَّه بفراغه اللانهائي ودقَّته المطلقة يبدو بلا معنى عند مقارنته مع إحدى المسرحيات. هذه هي مشكلة النظام والمعنَى. فدليلُ التليفون أو مُعجمٌ لإحدى اللغات الأجنبية هو نموذج جيد للنظام وليس للمعنى. قارن ما فيهما من «معنى» برواية لدوستويفسكي أو مسرحية لشكسبير.

ليس لغير الحياة الإنسانية معنى حقيقي ودلالات خاصة بها. ولهذا، قد يَدرس الإنسانُ الكونَ (الطبيعة) ويظلُّ مُلحدًا، ولكن بدون وجود الله يستحيل فهم الإنسان ومغزى حياته. وتبقى الدراما الأثرَ الأقوى والأكثر وضوحًا لما هو إلهي في العالم.

٥٣٥ . إذا كانت الأخلاق نافعة، فإنَّ فكرة الألوهية ليست ضرورية لفهم معنى الحياة. وإذا كانت الأخلاق غير نافعة، فما جدواها؟ الإجابة واحدة من اثنتين: (١) الأخلاق لا

جدوى لها، (٢) الله هو الضامن لجدوى السلوك الأخلاقي. فلا بدَّ ن يكون للأخلاق جدوى تتجاوز تحقيق النفع، لأنَّ مفهوم الأخلاق يتنافى مع النفعية، وهذا المفهوم يفترض وجودَ إله حي.

٥٥٢ . في عالم الطبيعة هناك القوة والزمان والمكان والتفاعل والسرعة والتصادم والنور والظلمة والبرد والدفء والثوابت والتجاذب والتنافر والحركة والكتلة، إلخ. وفي عالم الروح هناك الذنب والرحمة والشرف والعدل والطاعة والندم والخوف والقلق والعفو والحياء والكرامة والذلُّ والغرور والتمرُّد. هذا العالم الثاني يقع خارج العالم الطبيعي وهو أسمى منه. ولهذا، أولاً وأخيراً هناك الله واليوم الآخر، وليس الطبيعة والإنتروبيا.

٥٨٣ . ترتبط الأخلاق دائمًا بالتضحية والمكابدة، هذا إذا كانت حقيقية، وإلا فإنَّها مجرَّدُ بلاهة ونفاق.

٥٨٦ . جاء في قصة لكاتب بولندي أنَّ الألمان عذَّبوا رجلاً، وعندما أدرك الرجل أنَّه سيُعدَم أفشى سرَّ صديقه لأنَّه خاف أن يموت وحيدًا. التقى الرجلان أمام فرقة الإعدام، وعفا الرجلُ الثاني عن صديقه الذي أفشى سرَّه. يُعلِّق تشيسلاف ميلوش(*) Czestaw Mitosz قائلاً: «لا يمكن تفسير هذا العفو من خلال أي أخلاق نفعية» (تشيسلاف ميلوش، العقل الأسير).

٥٩٦ . كلُّ الوصايا الجوَّانية التي تجعلنا بشرًا في حقيقتها لا عقلانية.

٦٠٩ إنَّ ما يُطلق عليه وصايا نوح السبع هي في حقيقتها قوانين أخلاقية مُعطاة لآدم ونوح، وهي (كما جاءت في الكتاب المقدس): التعاون المتبادل، إقامة العدل، تحريم الشرك والكفر بالله، تحريم السرقة، تحريم القتل، تحريم السفاح والزنا، تحريم أكل لحم الحيوان وهو حي.

٧٦٩ تكمن كرامة الإنسان في أنَّ الله خلقه مُستحقًا لأوامره ونواهيه، أي خلقه مسئولاً

(*) تشيسلاف ميلوش (١٩١١-٢٠٠٤م) شاعر بولندي، وله أيضًا كتاباتٌ نثريَّة مُتميِّزة، أشهرها كتاب «العقلُ الأسير»، حصل على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٨٠م. (المترجم)

٨٤٣ . تشرَّبت أوروبًا التراثَ الفنِّي والديني للعصور الوسطى إلى درجة تمنعها من تقبُّل الحكايات الإلحادية .

٨٦٤ . هل لا بدَّ من أن يقوم ديني ، مثل كلِّ دين ، على مُسلَّمة رفض أي شكٍّ في مصداقيته؟ من خلال الطريقة التي يؤكِّد عليها القرآن ، ومن خلال إشاراته المتواصلة إلى الآيات (الدلائل والبراهين) يمكنني أن أقول إنَّ ديني لا يقوم على هذه الفكرة ولا حاجة له بها . فالقرآن يتحدَّث من منطلق أنَّه يجد التفسير النهائي لي (ولك) في شيء قريب من القلب والعقل . وإلا ، فما دلالة الآيات التي تشير باستمرار إلى تأمُّلِ العالم الخارجي؟

١٠٠٤ يقول مُنظِّرُ الإلحاد فيورباخ(*) ، إنَّ القبر هو مهد الدين . أراد فيورباخ أن يقول إنَّ الدين تغذَّى على خوف الإنسان من الموت . غير أنَّ سير حياة الناس الأكثر تدينًا والتجارب الشخصية لأكثر الناس تقوى وورعًا لا تُثبت هذا القولَ .

١٠٢٦ ينبغي أن يحبَّ الإنسانُ إنسانًا ما بعينه ، لا أن يحبَّ الإنسانية ، فهذا التعبير (حبُّ الإنسانية) هو مُبرِّر لعدم وجود حبِّ إنسانٍ ما («أحبِّوا جيرانكم») .

١٠٤٠ فلتسامحني يارب إذا كنتُ مخطئًا ، فأنا أحترم المسيحيَّ الصالحَ أكثر من المسلم الطالح . ولا يمكنني أن أدافع عن شيء ما لمجرَّد أنَّه صدر عن المسلمين (وليس الإسلام) ، وكذلك لا يمكنني أن أتجاهل شيئًا ما صالحًا لمجرَّد أنَّه صدر عن غير المسلمين .

١٠٤٧ لكلِّ شيء وجهان : فالرجلُ الذي يبدو في الظاهر أنَّه على خُلُق قد يبدو مُخلصًا حقًا أو قد يكون دنيئًا بشكل مخيف وليس لديه مانع من خرق أعرافٍ وقوانين كثيرة ، لكنَّه لا يفعل هذا إمَّا لأنه خائف أو ضعيف . يستنكر البعضُ الحياةَ الصاخبةَ للآخرين بدافعٍ من حقد دفين ، لأنَّهم غير قادرين على أن يحيوا بتلك الطريقة التي يحيا بها الآخرون . والشخص الضعيف عادة ما يكون غير واعٍ بهذا الحقد ويعتبره أمرًا أخلاقيًا ، وهو ليس كذلك بالتأكيد . لنفترض أنَّ رجلين أحدهما ضعيف والثاني قوي ، وكلاهما

(*) لودفيغ فيورباخ (١٨٠٤-١٨٧٢م) فيلسوف ألماني ، كان مُدافعًا عن الليبرالية والمادية والإلحاد وقدَّم في كثير من كتاباته نقدًا للدين وللمسيحية ، وكان لأفكاره تأثير كبير في تطور المادية الجدلية حيث يُعتبر حلقة وصل بين هيجل وماركس . أهمُّ أعماله كتاب «جوهر المسيحية» . (المترجم)

على خُلُق ويبدو في الظاهر أنَّ سلوكهما واحد، دعنا نَقُلْ مثلاً إنَّهما لا يسكران ولا يرتكبان الفَواحش، إلا أنَّ الأوَّلَ يتصرَّف هكذا إمَّا لأنَّه لا يستطيع أو خوفًا من العواقب، والثاني يتصرَّف هكذا وفقًا لمبدأ وبفضل كبح جماح رغبته. من الصعب التفريقُ بين الحالتين، إلا أنَّ المرءَ على يقين من أنَّ الحالةَ الثانيةَ هي الحالة الأخلاقيَّة، أمَّا الأولى فهي حالةُ ضعفٍ، والضَّعفُ ليس فضيلةً.

١٠٥٣ يزعم ابن سينا أنَّه لا يمكن الوصول إلى الحقيقة عن طريق الفكر النظري، أي عن طريق قوانين المنطق، وأنَّه لا وصول لها إلا من خلال أحوالٍ روحيّة.

١٠٨٦ الفنُّ البدائيُّ: كلُّ ما هو غريب ووحشي، فنُّ النحت لدى السود، المنقوشات والمنسوجات اليدوية في أستراليا، الأقنعة والأوثان عند السود، والانتشار الكاسح لهذا الفنِّ في الغرب، أوثان الشعوب البدائية تشبه الشياطين (بعكس الأوثان الرومانية واليونانية القديمة، والتي هي نماذج للجمال)، فهي مزيج من الخير والشر؛ ذلك أنَّ الخيرَ والشرَّ لم ينفصلا بشكلٍ كامل حتى الآن في عقول تلك الشعوب. والفرق غير الواضح بين الإله والشيطان هو سببُ (أو نتيجةُ) الأفكار الأخلاقية المبهمة عن الخير والشر، ولو أنَّ الصلة موجودة على أي حال.

١١١٦ شاهدتُ فيلمًا في سينما السجن منذ أيام قلائل، وفي نهاية الفيلم رفض البطلُ أن يرتكبَ جريمةً جديدة ويأخذ المال ويرحل، فشُنق. كان أكثر المشاهدين من المجرمين، لكنَّني على يقين من أنَّهم كانوا يهتفون للبطل لرفضه الخيانة، مع أنَّ الرفض يعني الموت، ورغم ذلك فإنَّهم جميعًا رأوا مَوْتَه انتصارًا له. لو تراجع البطل واختار الحياة، لتركوا المكان وطعمُ المرارة في حلوقهم جميعًا. وعلى أي حال، فقد تركنا المكان وطعم المرارة في حلوقنا، لكنَّها كانت مرارة من نوع مختلف، ذلك النوع الذي ينطوي على الفخر لرؤية إنسان (ولو في فيلم) قادر على فعل ما نرغب فيه ونعجز عن فعله. إذا فكَّرنا في «انتصار المهزومٍ» هذا وخلُصنا منه إلى النتيجة الصحيحة (والنتيجة نوع من المفارقة) فربما نكون قد توصَّلنا إلى إجابة لأصعب سؤال في حياة الإنسان، بل إلى حلٍّ لغز الوجود ذاته. في الحقيقة، يُبيِّنُ هذا أنَّ ما نسعى نحوه، ما نعجب به، ما نحترمه أو نعتبره أسمى صور

الاستقامة -مهما يكن ما يعنيه الناس بهذا- ليس هو الحياة ذاتها، ولكنَّه شيءٌ أسمى من الحياة، إنَّه مبدأٌ ينطوي على نبذ المصلحة والأنانية والزمن. وما الإيمان إلا الوعي الكامل بهذا، أو هو محاولة الوقوف على هذه المعرفة الاستثنائية.

١١٢٠ لعلَّه من المُثير أن نقارن بين مفهوم الألوهية في القرآن ومفهوم الألوهية في كتابات هيرمان هيسه. إنَّ الله في القرآن وفي أعمال هيسه هو خالقٌ في المقام الأول، إنَّه ليس مجرَّدَ تعبير عن مبدأ الخيرية، فلكي يكون إلهًا -كما يعتقد هيسه- يجب أن يكون محيطًا بالواقع كلِّه، وبالتالي يكون محيطًا بالخير والشر كذلك. كيف؟ هذا هو السر.

١١٢١ يرى التصوُّر الإسلامي للعلاقة بين الله والإنسان أنَّ رفع المسيحية للإنسان إلى مستوى الألوهية ينطوي على نوع من الكِبْر الإنساني، وهو ما يرفضه الإسلام بوضوح تام.

١١٦٧ يحرص الناس من أعماق أرواحهم على كرامتهم الإنسانية أكثر من حرصهم على الصحة والحياة. يقول برونو بيتلهيم(*) Bruno Bettelheim، الذي أمضى عامًا في معسكرات الاعتقال النازية في داتشاو وبوخنفالد والذي وصف لاحقًا سلوكَ المعتقلين في تلك الظروف الاستثنائية، يقول إنَّ المعتقلين كانوا يكرهون الحُرَّاسَ الذين يُذلُّونهم أو يُوجِّهون إليهم إهانات لفظية أكثر بكثير من الحرَّاس الذين كانوا يضربون المعتقلين أو حتى يقتلوهم. ويُقدِّم المؤلِّفُ نفسُه ملاحظةً مهمة (وربما) غير متوقَّعة فيما يتعلَّق بآراء المعتقلين: «لم يُنظر إلى المعتقلين الذين ماتوا تحت التعذيب باعتبارهم شهداء، رغم أنَّهم عُذِّبوا بسبب آرائهم السياسية. أمَّا من ماتوا وهم يحاولون إنقاذ الآخرين فقد اعتُبروا شهداء». ويضيف ملاحظات أخرى: «يهتمُّ المعتقلون الجُدد (أي الذين لم يكملوا عامًا بعد في المعسكر) يهتمُّون بشَخصيتهم في المقام الأول، أي كيف تبقى مصونة وغير مُهانة، أمَّا المعتقلون القدامى فقد تجاوزوا هذا الأمر بالفعل وأصبح اهتمامهم الأساسي هو كيف يعيشون في المعسكر في أقلِّ الأحوال سوءًا. فقد بدأ أكثرهم يشكُّون في أنَّهم سيعودون يومًا إلى العالم

(*) برونو بيتلهيم (١٩٠٣-١٩٩٠م) كاتب وطبيب متخصص في علم نفس الأطفال، له كتابات عن فرويد والتحليل النفسي والاضطرابات العاطفية لدى الأطفال، قضى أحد عشر شهرًا في معسكرات الاعتقال النازية، واستلهم الكثير من أعماله من تجربة الاعتقال هذه. (المترجم)

الخارجي» (برونو بيتلهيم، *السلوك الفردي والجماعي في المواقف المتطرفة*). وتعليقي: طالما أنّني أشتاق إلى رسالة جميلة أكثر من اشتياقي إلى طرد به طعام، فكلُّ شيء على ما يُرام، وهو ما عليه الحال حتى الآن (هذا هو الشهر الثامن والثلاثون لي في السجن).

١٣٢٦ أراد كانط بنقده لسلطة العقل الإنساني أن يُبيِّن أنّه لا يمكن وجود معرفة يقينية حول خلود الروح، وحرية الإرادة، ووجود الله. إلا أنَّ كانط لم يعتقد أنّه بهذا يكون قد فنَّد هذه المبادئ الثلاثة، لكنَّه أثبت فقط أنَّها لا يمكن أن تخضع للبحث العلمي والعقل النظري، ولهذا وضعها كانط في العقل العملي. يقول كانط: «ولهذا، اضطُرِرتُ إلى استبعاد المعرفة لكي أُفسح مجالاً للإيمان؛ لأنَّ المبدأ الميتافيزيقي، أي الرأي المُسبَق الذي يقول إنَّه يمكن تحقيق تقدم ونجاح في الميتافيزيقا من دون نقد مُسبَق للعقل النظري هو المصدر الحقيقي للإلحاد الذي يتعارض مع الأخلاق ودائمًا ما يتَّسم بالتعصُّب» (كانط، نقد العقل الخالص).

١٣٣١ في أعمال كانط النقدية(*)، يتولَّى العقلُ القيام بأصعب مهامِّه على الإطلاق، أعني معرفة نفسَه، أي معرفة قدرات العقل وحدوده.

١٣٨٩ أنت مرتاب، وتجد أنَّه من الصعب أن تؤمن، ولكنَّك تبحث عن الله. انظر إلى زهرة وتأمَّل فيها، أليست آيةً من آيات الله، بل أثرًا عابرًا من الجنة على الأرض؟ هل تجد تفسيرًا آخر لجمالها الذي لا يُقارن والذي ليس له سبب عقلي؟ وحتى بذرتها: هل تتخيَّل أنَّ هناك عقلاً يمكنه أن ينتجها، حتى لو أمهلتَه مائة سنة، أو ألفًا، أو مليونًا، وقدَّمتَ له كلَّ ما يحتاجه من إمكانيات؟

١٣٩٨ هناك بعض الآراء حول الدين أو الأخلاق حين يُعبر عنها بوضوح تبدو مثل المُسلَّمة الهندسية. لا توجد إلا أخلاق واحدة، تمامًا كما أنَّه لا توجد إلا هندسة واحدة.

١٤١٢ كيف يمكن للمرء أن يُحقِّقَ كرامتَه الإنسانية من دون أن يصبح متكبِّرًا في الوقت ذاته؟ الإجابة: في الإخلاص لله، فهو مثال العدل والخير الأسمى. فالإخلاص

(*) أعمال كانط النقدية: نقد العقل الخالص، نقد العقل العملي، نقد مَلَكَة الحكم. (المترجم)

شعور بالكرامة لم يتحوَّل إلى كبْر، حيث يكون الخضوع لله وحده، لا لأحد غيره ﴿ **فَلا تخْشوُا النَّاس وَاخْشوْنِ** ﴾(القرآن الكريم، سورة المائدة: ٤٤). إنَّ الإخلاصَ لله أمرٌ ينسجم مع الكرامة الإنسانية، وبغير هذه العبودية ستتحوَّل الكرامة الإنسانية إلى كبْر مُحرَّم لا تُحمد عقباه.

١٤٣٢ أحيانًا تبدو لي الحقائق الأزلية الكبرى عن الله كالجبال الشامخات. وبرسوخها وخلودها وسكونها لا تأبه هذه الجبال كثيرًا لما يحدث من اضطرابات ومنازعات، ولا تُلقي بالاً لمفكِّر غرَّه الأمل يرميها بالحجارة. تمرُّ السُّحُبُ من وقت إلى آخر وتحجبها، فتبرق السماء وترعد ثم تصفو، وتصبح تلك الجبال بقممها المغطَّاة بالثلج الأبيض أكثرَ إشراقًا قبالةَ صفحة السماء الزرقاء.

١٤٤٤ ثمَّةَ طريقان إلى الله مختلفان تمامًا: طريق المنطق، وطريق التصوُّف. الأوَّلُ غير مباشر، والثاني مباشر. المتكلِّمُ عاش وآمن بعقله، والصوفيُّ عاش وآمن بوجدانه.

١٤٧٢ جاء في كتاب ليسنج(*) «ناثان الحكيم» أنَّ السلطان صلاح الدين سأل ناثان اليهودي: أيُّ دينٍ من الأديان الثلاثة -اليهودية، والمسيحية، والإسلام- هو الدين الحقُّ؟ وبدلاً من أن يجيبه ناثان، أخبره بقصة خاتم سحري يجعل حاملَه محبوبًا من الله ومن الناس. ظلَّ هذا الخاتم ينتقل من أب إلى ابن حتى وصل إلى أب له ثلاثة أبناء، فاستنسخ الأبُ خاتمين مماثلين تمامًا، إلا أنَّ خاتَمًا واحدًا فقط هو الخاتم الحقيقي. نشب خلافٌ بين الأخوة حول مَن يحوز الخاتم الحقيقي، فلجأوا إلى أحد الحكماء. أخبرهم الحكيم أنَّه لا يستطيع أن يفصل في هذا الأمر، وأنَّ الخاتم الحقيقي موجود مع الشخص الذي يكون محبوبًا أكثر من الله ومن الناس، وعلى كلٍّ منهم أن يُثبت ذلك. كان هذا هو الدليل الوحيد على الخاتم الحقيقي، ومن ثمَّ كان عليهم أن يُثبتوا هذا فقط من خلال طاعة الله والعمل الصالح. كانت رسالة ناثان هي أنَّ الدين الحق هو الذي يدفع المؤمنَ إلى طاعة الله وإلى معاملة الناس معاملة حسنة، مهما يكن اسم هذا الدين.

(*) غوتهولد إفرايم ليسنج (١٧٢٩-١٧٨١م)، فيلسوف وكاتب مسرحي ألماني، أحد فلاسفة عصر التنوير في القرن الثامن عشر. (المترجم)

١٥١٢ كان ڤولتير من أشدِّ المناهضين للدين الرسمي (الكنيسة الكاثوليكية تحديدًا) ولكنَّه لم يكن مُلحدًا. فقد أعلن أنَّ الله يوجد كبداية لكل الأشياء، إلا أنَّ المرء لا يمكنه أن يعرف الله من خلال البصيرة الروحية ولكن من خلال العقل. ولذلك، فإنَّ معرفة الله وفقًا لرأي ڤولتير ليست مُهمَّةَ الكهنة، ولكنَّها مُهمَّةُ رجال العقل، أي الفلاسفة. ورغم أنَّ ڤولتير توسَّع في الكلام عن ثلاثة أنماط من أدلَّة وجود الله: الدليل الكوني (الكوزمولوجي)، والدليل اللاهوتي، والدليل الأخلاقي، إلا أنَّ ما بشَّر به ڤولتير كان ما يُسمَّى بمذهب التأليه الطبيعي أو ربوبية الطبيعة(*) وليس دينًا، وكانت الربوبية الطبيعية تتَّسم بتفاؤل مفرط يُخرجها من حيز الممكن. ويشير كاتب معاصر، وهو مُحقٌّ في هذا، إلى أنَّ أفكار ڤولتير عن الدين لا تُقنع إلا مَن عاشوا في رفاهية وأمان ماديّ، يقول هذا الكاتب: «أمَّا من قضوا حياتهم في جحور الفقر فلم يكونوا ليسمعوا تعاليم التأليه الطبيعي».

١٥٥٦ يحاول العلمُ أن يجيب على الأسئلة الأبدية «والنهائية»، وهي التي تدور حول: الله، والخلود، والحرية. والنتيجة: إمَّا (١) إجابات خاطئة وضلالات نتداولها فيما بيننا، أو (٢) خيبة أمل بسبب عجز العقل الإنساني عن تقديم إجابة مُقنعة. إنَّ العلم يستبعد الدينَ ولكنَّه يعجز عن أن يحلَّ محلَّه، والمثال التاريخي على هذا هو الحالة الروحية في أوربا في بدايات القرن التاسع عشر، حيث شاعت نزعة الشكِّ، ونزعة التشاؤم، وانتشرت المعضلات الإنسانية، بل والشعور بـ «الشقاء الكوني»(**) وكان هناك مَخرَجان ممكنان: العودة إلى الدين، وهو أمر مستحيل تمامًا بالنسبة للبعض، أو رفض ما يُسمَّى بالأسئلة الأبدية «النهائية» التي تدور حول: الله، والخلود، والروح الإنسانية، والحرية. وقدَّمت الفلسفةُ المادية الجديدة هذا المخرجَ الثاني، حيث ترى أنَّ العقل ليس عاجزًا، وأنَّه لا يطرح هذه الأسئلة، ومن ثمَّ لا توجد إجابات، ولا يمكن للعقل أن يُقدِّم

(*) الربوبية الطبيعية Deism مذهب فكري لا ديني يقول بإمكانية إدراك وجود الله من خلال العقل وملاحظة العالم الطبيعي، ويُنكر الوحيَ والتدخُّلَ الإلهي في العالم، ظهر هذا المذهب في أوربا في عصر التنوير في القرنين السابع عشر والثامن عشر. (المترجم)

(**) حول تعبير «الشقاء الكوني، انظر هامش الفقرة رقم ٧٠٨ في الفصل الرابع. (المترجم)

إجابة عقلانية على أسئلة خاطئة أو غير عقلانية، وكذلك لا يستطيع العلم أن يُلبِّي مطالب غير علمية. ووفقًا للفلاسفة الماديين، فبدلاً من أن نخسر الإيمان بالعقل ينبغي علينا أن نقدِّم تعريفًا جديدًا لحقيقة العالم، أن نضع حدًا بين الحقيقة والوهم.

١٧٥٦ يقول هامسون(*) Knot Hamson عن أبطاله العاثرين المكابدين ذوي الأخلاق النبيلة: «إنَّهم لم يُخلقوا لهذا العالم، وهذا العالم لم يُخلق لهم. ولا يمكن للثروات ولا لتحسُّن أحوالهم المفاجئ أن ينقذهم، لأنَّهم يحملون قدرهم داخلهم، يحملون قدرهم في التنافر الجوَّاني الحادِّ بينهم وبين العالم». وتعليقي: ما من شيءٍ يُثبت وجودَ الله مثل هذا «التنافر». فلو كان هناك عالم واحد فقط، ما وُجِدَ أيُّ تنافر.

١٧٥٧ يعجز جميع الرعب الموجود على الأرض عن انتزاع السماء من هؤلاء الذين وجدوها يومًا ما، بشرط أن يجدوها.

١٧٦٤ ينطوي الإيمان، بالإضافة إلى أي شيء آخر، على قدر من عدم إدراك المعنى بشكل كامل (قدر من اللا عقلانية)، وهو الشيء الضروري لحياة الإنسان لتكون حياة إنسانية حقًا.

١٧٩١ (من حوار مع مُلحد). يقول إنَّه لا يقبل بفكرة وجود عقل مُدبِّر للكَوْن، لا سيما إن كان هذا المُدبِّر سابقًا على الكَوْن. فسألته: وهل ترى أنَّ وجود كَوْن أزلي أبدي عشوائي أقلَّ إعجازًا وإدهاشًا من كَوْن له مُدبِّر؟ من الواضح أنَّه يوجد كلٌّ من الطبيعة والعقل المُدبِّر، وهذا هو ما يشهد به وجودنا نحن البشر. ومُجمَلُ الاختلاف بين المؤمنين والملحدين يكمن في قضية مَنْ يضع ماذا في البداية، فالمؤمنون يقولون: «في البدء كانت الكلمة»، أي هناك خالق مُدبِّر، ومن هذا الاختلاف تنشأ كلُّ الاختلافات الأخرى.

١٧٩٢ يتمرَّد العقل الإنساني على فكرة الإيمان بالمعجزات، وهو مُضطَرٌّ أن ينظر كلَّ يومٍ إلى معجزة المعجزات: السماوات اللانهائية المُرصَّعة بالنجوم. سيظلُّ العقلُ حائرًا: هناك نهاية - ليست هناك نهاية. هذه المعجزة كانت وستظلُّ غير مفهومة على الإطلاق

(*) كنوت هامسون (١٨٥٩-١٩٥٢م) أديب وروائي نرويجي، حصل على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٢٠م، أشهر أعماله رواية «الجوع»، ورواية «واخضرّت الأرض». (المترجم)

بالنسبة للعقل الإنساني، والسؤال حول التناهي واللاتناهي سيبقى بلا إجابة. إنَّ أوَّلَ ما ينكره عقلنا هو السماء اللانهائية المرصَّعة بالنجوم، لكنَّ هذا الإنكار غير معقول لأنَّ السماء واضحة ماثلة للعيان.

١٧٩٦ العالم معجزةٌ حقيقية، غير أنَّنا اعتدنا عليه. انظر إلى زهرة هندباء بريَّة، بشغف وليس بسطحية كما اعتدنا أن ننظر إلى كلِّ ما يحيط بنا وبالتالي لا نلاحظ أيَّ شيء. أحضر أوَّلُ وفد من الحكومة الدنمركية إلى جرينلاند باقةً من الزهور الناضرة، بفضلِ النقل الجوِّي السريع، وكانت مفاجأةً مُدهشةً. تجمَّع الناسُ ونظروا إلى الزهور كما لو أنَّها معجزة، ورقصوا حولها وصاحوا بانفعال وإثارة. إنَّ العالم بأسره معجزة، غير أنَّنا لا نكترثُ له، فقد أصبحنا فاقدي الإحساس.

١٨٠٣ ثمَّة ملمح مميِّز للوجودية: فهناك الوجودية المسيحية عند غابرييل مارسيل والوجودية الإلحادية عند جان بول سارتر. وهذه التمايزات موجودة بين مفكِّرين آخرين من هذه المدرسة مثل كيركجارد وهيدجر وكارل ياسبرز. ومع هذا، فالوجوديون المؤمنون أقوى كثيراً. وإذا تجاهلنا الاعتقادات الشخصية للمؤلفين، فإنَّ الوجودية في حقيقتها معرفة دينية.

١٨٣٢ ماذا قدّم الفلاحون لطبقة النبلاء؟ كلَّ ثمار كدحهم. وماذا قدَّم النبلاء للفلاحين؟ لا شيءَ سوى نموذج للخواء والحياة اللا أخلاقية. ولحسن الحظِّ، لم يكن الفلاحون قادرين على مجاراة هذا النموذج وتقليده. ولو فعلوا هذا، في تعاطي الخمر مثلاً، لكان الأمر كارثة شاملة. وكثيراً ما يُقلِّد ابنُ رجل فلاحٍ طبقة النبلاء، ولا يُقلِّدهم إلا في الأمور السيئة.

١٨٤٥ بصرف النظر عن التحفُّظات التي يبديها الدين عند تعامله مع العالم، فليس اليأس والتشاؤم من الدين في شيء. فما الكتاب المُقدَّس إلا «بشارة». والبشارة تُبدِّد التشاؤمَ تمامًا كما يُبدِّد شروقُ الشمس الظلمةَ والضبابَ.

١٨٧٤ أوضح ليو تولستوي المبدأ المسيحي القائل بعدم تحدِّي الشر كالتالي: «ألا تواجه الشرَّ هو أمر مهمٌّ ليس فقط لأنَّ الإنسان ينبغي عليه أن يسلك هكذا لمصلحته

الخاصة، أي ليبلغ الكمال، ولكن أيضًا لأنَّ عدم مواجهة الشر بالمثل هو فقط ما يمكنه أن يمنع الشر، أن يمتصَّه داخله ولا يسمح له أن ينتشر أكثر من ذلك»(*) (هكذا كتب تولستوي في يومياته بتاريخ ١٢ يونيو ١٨٩٨م). في توضيح تولستوي هذا، يلفت الانتباهَ بشكل خاص أنَّ عدم مواجهة الشر بالمثل يستوعب الشر. يالها من فكرة مثيرة!

١٩٣٩ لديَّ احترام لا حدود له للإيمان الذي لا يبحث عن برهان، ولكن إذا كان صاحبه مُصرًا على استخدام الحجج فلا بدَّ أن تكون حججه قويةً. فأنا أيضًا أنتقد بشدة، بل وبسخرية، الحججَ الضعيفة.

١٩٦٢ يتضمَّن المبدأ الأول ممَّا يُطلق عليه (راجا يوغا) خمسةَ قواعد للسلوك الصحيح:

١ أهمسا: نبذ العنف.

٢ ساتيا: الصدق.

٣ أستيا: عدم الاعتداء على ممتلكات الآخرين.

٤. براهماتشاريا: التحكُّم في الشهوات.

٥. أبريغراها: الزهد والتخلِّي عن المتاع.

لا يمكن للمرء أن ينكر سموَّ هذه القواعد كما أنَّ أصلها الإلهي بادٍ للعيان.

١٩٦٣ إنَّ مبدأ الزهد هو مبدأ إنساني يمكننا أن نجده في ثقافات كثيرة مختلفة: الرواقيون في اليونان القديمة، والكلبيُّون في الحضارة الرومانية، والرهبان في المسيحية. وفي الهند نجد أنَّ الزهد أو «تاباس» هو القاعدة الثالثة ممَّا يُطلق عليه (نياما يوغا).

١٩٧١ هناك تواز جوَّاني بين المسيحية والهندوسية؛ إذ تُروى حكايات عن زيارة مزعومة للمسيح إلى الهند في فترة ما من حياته، وحكايات أخرى عن رحلة سرية إلى الهند بعد قيامته.

(*) ليس المعنى هنا مقابلة الشر بالشر، بل عدم التعرُّض له أو السعي لحرب معه، وذلك من باب تحييده وتجنب معركة تُلهي عن كون الخير هو المسعى الوحيد (المراجع)

١٩٧٩ زهرة اللوتس هي أحد رموز الفكر الديني الهندي، وهذا الرمز معناه كالتالي: كما أنَّ زهرة اللوتس تنمو من الطين وتصل إلى سطح الماء لا تشوبها شائبة من الطين أو الماء، فهكذا الروح، تُولد داخل الجسد الإنساني، وتُنمِّي ملامحها الحقيقية بعد أن تسمو فوق أمواج الشهوة والجهل. تتحوَّلُ الجوانب المظلمة في الأعماق إلى الرحيق الخالص لزهرة اللوتس.

١٩٨٣ كلُّ دينٍ يبدأ نقيًا، ثم يُفسده الناس. أنصتْ إلى نقاء الإيمان في هذا الدعاء عند هنود سيوكس الحمرٍ (توحيد أصيل):

اللهمَّ
اسمح ليدي الضارعتين
أن تلمس خلقَك في حبٍّ؛
أرهف سمعي
حتى أسمع صوتَك.
امنحني الحكمةَ
حتى أدرك وديعةَ علمك
في الورق وفي الحَجَر.
إنّي أطلب مددك
ليس لأقهر إخواني
بل أعدى أعدائي؛ نفسي.
اللهمَّ قوةً من عندك
أحتمل بها ما أعجز عن تغييره،
وشجاعةً
أُغيِّر بها ما أملك تغييره،

وحكمةً

أميِّز بها بين الاثنين.

يا له من سموٍّ تنطوي عليه هذه القصيدة! وذلك برغم المعتقدات والطقوس التي لا معنى لها، وهو الشيء الغريب. ألا يتشابه هذا مع ما في المسيحية من تجاور التعاليم السامية مع التماثيل المقدسة في الكنائس؟(*) إنَّ هذا يُثبت أنَّه عند تشويه دين ما فإنَّ التعاليم الأخلاقية هي الجانب الأكثر مرونة فيه، بينما يخضع اللاهوت والمعتقدات للفساد والانحطاط السريع. كيف يمكن تفسير هذا الأمر إن لم يكن لأنَّ الجانب الشعائري في الدين كان في أيدي الكهنة. فقد كان لديهم ما يقومون به هناك في هذا الجانب لمصلحتهم، في حين أنَّهم لم يكونوا مهتمِّين بشكل خاص بالجانب الأخلاقي. بالإضافة إلى ذلك، فإنَّ الأوامر الأخلاقية (الحب، العدل، توقير الكبير، أو الوصايا العشر) واضحةٌ في ذاتها، بينما كان الجانب الشعائري دائمًا لا عقلانيًا بدرجة أو بأخرى، وهذا ما كانت تقتضيه تفسيرات الكهنة، بل كانوا دائمًا يجعلون هذه التفسيرات أكثر إلغازًا وتعقيدًا. بل إنَّ الكهنة كانوا يجدون متعة في جعل الجانب الشعائري غيرَ مفهوم قدر الإمكان لأنَّهم بهذه الطريقة يزيدون من خصوصيّتهم وتبعية الجماهير لهم. وعلى أي حال، فمن الواضح أنَّ الكهنةَ وعوامَّ المؤمنين على السواء كانوا عادة ما يُولُون اهتمامًا كبيرًا للجانب الشعائري من التعاليم الدينية، بينما كانوا يُهملون الجانب الأخلاقي عادة. إنَّ تعدُّدَ الأديان لا يكون إلا فيما يتعلَّق بالشعائر واللاهوت، أمَّا الجانب الأخلاقي، وهو لُبُّها المنطقي، فكان متماثلاً عادة، بل ومتطابقًا أحيانًا. أخيرًا، يوضِّح كلُّ هذا أنَّ الأديان، مثل الثقافة بأسرها، لا تعرف تطوّرًا حقيقيًا. إنَّ «تطوّر» الأديان و«تاريخيتها» يعني موتها.

٢٠٠٦ يقول عاموس عوز(**): «إنَّ أيَّ محاولة لفرض المُثُل العليا على الإنسان تنتهي بتمرُّده عليها». وكذلك، لا يستطيع الإنسان أن يحيا بدون مُثُلٍ عليا، على الأقل لن

(*) وجه الشبه هنا لا بد أن يكون التناقض بين سمو التعاليم وفساد الطقوس. فالتعاليم السامية يفسدها وجود تماثيل توحي بالوثنية وإن أُسقطت عليها الدلالات الرمزية. (المراجع)

(**) عاموس عوز (١٩٣٩-) كاتب وروائي إسرائيلي، وأستاذ الأدب في جامعة بن غوريون. (المترجم)

يستطيع أن يحيا كإنسان. وفيما يتعلَّق بالحب والإيمان، فإنَّ الإكراه لا جدوى منه. ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ (القرآن الكريم، البقرة ٢٥٦).

٢٠٣٥ هبّت الرياح، وسقط بين يديَّ قليلٌ من أوراق زهرة الهندباء الجافَّة. هذه هي الزهور الصفراء التي تُغطّي الحقولَ خلال الربيع، وحين تجفُّ فإنَّها تصبح مثل كُرات جافَّة خفيفة. هذه الكُرات تتكوَّن من عشرات (أو مئات) من بذور زهور قادمة. إنَّني أنظُر إلى واحدة من من تلك الزهور التي ألقتها الرِّياح بين يديَّ، وهي تُشبه مظلَّة هبوط بالغةَ الصغر مصنوعة من مادَّة رقيقة خفيفة تنتهي عند نقطة تُشبه كُرة صغيرة للغاية، مفرغة الهواء. البذرة هي الغايةُ من النبات ووجوده، وفيها يوجد نبات كامل جديد كامن، وفيها أيضًا توجد البذرة نفسها تمامًا مع عدد لا نَهائي من الأجيال الجديدة من النبات نفسه، وهكذا بلا نهاية. كلُّ شيء في انسجام وتناغم مع الغاية منه، بلا زيادة أو نقصان. وعلى هذا أقول: لو اجتمعت كلِّ معرفة العالم في مكان واحد، كلُّ المعرفة الموجودة في كلِّ العقول الحكيمة وكلِّ الكتب الموجودة في كلِّ مكتبات العالم، أي حكمة الماضي والحاضر، ولو تشكَّل فريقٌ من جميع العلماء الأحياء ومُنحوا كلَّ ما يحتاجونه من الموارد التقنية، وكذلك المال اللازم والوقت المطلوب، لو حدث هذه كلُّه فإنَّ حكمةَ العالم وقوَّته مجتمعتين لن يكون بإمكانهما إنتاج بذرة كهذه. إنَّ الصاروخ الذي أرسله الإنسان إلى القمر هو آلة فظَّة بربرية عند مقارنته مع هذه البذرة الصغيرة.

٢٠٩٣ يُخضع دوستويفسكي فلسفةَ إيڤان كرامازوف التي تقول «إذا لم يكن الله موجودًا، فكلُّ شيء مُباح» يُخضعها للاختبار من خلال جريمة القتل، وفي هذه التجربة المروِّعة يَثبُت خطأ هذه الفلسفة، وبإدخال الشيطان إلى المشهد يُبيِّن دوستويفسكي أنَّها فلسفة شيطانيَّة.

٢٠٩٤ فيما يتعلَّق بكون الحرية شرطًا للمسئولية الأخلاقية، وللجزاء بالجنة أو النار، إلخ، فلا يهمُّ إطلاقًا ما إذا كنَّا أحرارًا بشكل مطلق أم بشكل جزئي، ما إذا كنَّا أحرارًا دائمًا أم أحيانًا أو نادرًا أو من حين إلى آخر، أو حتى أحرارًا في الأفكار فقط وليس في الأفعال. فالسؤال الأساسي هو: هل الحرية موجودة كمبدأ أم لا؟ وحتى لو حدث أن كنَّا أحرارًا لمرَّة

واحدة في حياتنا كلِّها، في قرار جوَّاني واحد، فهذا كاف تمامًا للحكم علينا فيما يتعلَّق بمصيرنا في الحياة الخالدة، الجنَّة أو النار. إنَّنا مسئولون فقط عن ذلك القرار الذي صدر عنَّا حين كُنَّا أحرارًا. إنَّ الاختلاف بين الإنسان الصالح والإنسان الطالح هو أنَّ الصالح يحبُّ الخير ويتمنّاه حتى وهو لا يفعله، أو عندما يؤكِّد على الخير، لا من خلال الأفعال والأقوال، بل من خلال طموح أو رغبة في أقصى أعماق روحه، في مكان ما بعيد هناك، في نهاية النهايات جميعًا، في صميم الروح. وما من إنسان، بصرف النظر عن مستواه الاجتماعي، أو تعليمه، أو نشأته، أو ما فُرض عليه من فلسفة أو دين، ما من إنسان إلا ومرَّ بهذا الاختبار وصنَّف نفسه، رغم كلِّ شيء، إمَّا بين مَن نجوا أو بين مَن سقطوا. وما من إنسان إلا قد امتلك هذا الحدَّ الأدنى من الحريَّة، وهذا الحدُّ الأدنى هو حريَّةٌ كاملة، فالحريَّة لا تزيد عن ذلك ولا تَقل.

٢٠٩٨ يوجد في فلسفة كانط ما يُعرف بتناقضات كانط(*) Kant's antinomies ،

(*) تناقضات كانط Kant's antinomies واحدة من أهمِّ وأشهر الأفكار في فلسفة كانط وفي الفلسفة بشكل عام؛ يرى كانط أنَّه إذا كانت الإلهيات تدور حول معرفة الكائن الأسمى أو الله وطبيعته، فإنَّ هذه المعرفة إمَّا أن تكون بالعقل أو بالوحي. وينكر كانط قدرةَ العقل فقط على معرفة طبيعة الله، ويقول بأنَّ كلَّ محاولات العقل التأمُّلية النظريَّة بخصوص الإلهيات إنَّما هي محاولات غير مُجدية ولا فائدة من ورائها، لأنَّ كلَّ مباديء الفهم (العقل) لا تعمل إلا في الطبيعة، أي في الزمان والمكان وعالم التجربة، أي إنَّ العقل يُستعمَل بشكل شرعي في الاستعمال الطبيعي فقط من خلال مبدأ السببية، أمَّا الاستعمال التأمُّلي للعقل في الغيبيات والأمور المفارقة وكلِّ ما هو خارج عالم الطبيعة والتجربة فهو خطأ ويؤدي بالعقل إلى الوقوع في التناقضات، أي القول بالشيء ونقيضه. إذن، الخطأ الذي تقع فيه أيُّ معرفة نظرية إلهيَّة هو أنَّها تريد أن تُطبِّقَ مبدأ المعرفة الطبيعية (مبدأ السببية) على الإلهيات وما وراء الطبيعة. كما أنَّ معرفة الكائن الأسمى تقتضي استخدام العقل استخدامًا مفارقًا مجاوزًا لعالم الطبيعة، وواقع الحال أنَّ عقلنا النظري ليس قادرًا على هذا ولا مُعدًّا له، ولا يمكن لمبدأ السببية الذي يَصدق تجريبيًا فقط أن يؤدي بنا إلى معرفة طبيعة الكائن الأسمى، لأنَّ هذا الكائن الأسمى (الله) لا ينتمي إلى موضوعات عالم التجربة، ولكن في الوقت ذاته يؤكِّد كانط أنَّ عدم معرفة طبيعة الله لا تعني بالضرورة إنكارَ وجوده. إذن، ما الذي تؤدي إليه مجاوزة العقل للعالم المادِّي والاكتفاء بالفكر فقط في معرفة الإلهيات؟ في رأي كانط يؤدي هذا إلى وقوع العقل في التناقضات، ويقول كانط إنَّ هذه التناقضات ليست من نسج الخيال، وإنَّما هي قائمة أساسًا في طبيعة العقل الإنساني، ومن ثمَّ لا مفرَّ منها ولا يمكن وضع حدٍّ لها، وحدَّد كانط هذه التناقضات بأنَّها أربعة تناقضات أساسيَّة تتكوَّن من أربع قضايا ونقائضها، يمكن للعقل النظري أن يبرهن على كلِّ قضية ونقيضها، لأنَّها قضايا نظرية لا تنتمي إلى عالم التجربة، وقد أورد كانط هذه التناقضات الأربعة (القضايا ونقائضها) في كتابه «نقد العقل الخالص»، حيث أورد القضية ونقيض القضية والبرهان على كليهما. والتناقضات الأربعة هي: =

هذه التناقضات تتكوَّن من أربع قضايا ونقائضها، وتقع القضايا في أصول الدين والأخلاق، تمامًا كما تقع نقائضها في أصول العلم التجريبي. فالعلم يقوم على التسليم بسرمدية العالم (ليس له بداية ولا نهاية)، وقابليته للقسمة، والعلِّيَّة، والموضوعية. ولا وجود للعلم التجريبي من دون هذه المسلَّمات، وبالمقابل لا وجود للأخلاق من دون التسليم بوجود الحريَّة. والقضايا ونقائضها في تناقضات كانط تُمثِّل الثقافةَ والحضارةَ مُختَزَلَتَيْن في مُقدِّماتهما الأعم والأكثر تجريدًا، ولا يمكن تجريدهما أكثر من ذلك.

بالإضافة إلى ذلك، نستنتج أنَّ القضايا الأربع (ونقائضها) في تناقضات كانط تستلزم كلٌّ منها الأخرى. فوجود الحريَّة يستلزم وجود الله، تمامًا كما أنَّ وجود الله شرطٌ لوجود الحرية. وفي عالمٍ لا يمكننا فهمه إلا باعتباره قائمًا على مبدأ العلِّيَّة (ولا يمكننا فهمه بطريقة أخرى)، فإنَّ اللهَ وحده يمكن أن يخلق كائنًا حرًا. بالمقابل، فإنَّ عالـمًا سرمديًا (لا بداية ولا نهاية له في الزمان والمكان) هو أيضًا عالم قابلٌ للقسمة إلى ما لا نهاية، عالم أصمٌّ بلا

= التناقض الأول، ويتكوَّن من القضية التالية ونقيضها:
القضية: العالم له بداية ونهاية من حيث الزمان والمكان. (العالم حادث ومخلوق)
نقيض القضية: العالم ليس له بداية ولا نهاية من حيث الزمان والمكان. (العالم قديم وغير مخلوق)
التناقض الثاني، ويتكوَّن من القضية التالية ونقيضها:
القضية: يتركَّب كلٌّ جوهر من أجزاء بسيطة، ولا يوجد في العالم سوى البسيط والمركَّب.
نقيض القضية: لا يوجد شيء بسيط في العالم، إنَّما الكلٌّ مركَّب.
التناقض الثالث، ويتكون من القضية التالية ونقيضها:
القضية: السببية ليست كافية لاشتقاق كلِّ ظواهر العالم، ولا بدَّ من التسليم بوجود علَّة حرَّة من أجل تفسير ظواهر العالم.
نقيض القضية: لا توجد حريَّة، وكلُّ ما يحدث في العالم إنَّما يحدث طبقًا لقوانين الطبيعة القائمة على الحتمية.
التناقض الرابع، ويتكوَّن من القضية التالية ونقيضها:
القضية: يستلزم العالم وجود كائن ضروري بشكل مطلق، باعتباره جزءًا من العالم أو باعتباره علَّة أي مجاوزًا ومفارقًا له.
نقيض القضية: لا يوجد أي كائن ضروري بشكل مطلق، سواء في العالم أو خارج العالم كعلَّة له.
وقد برهن كانط على كل قضية ونقيضها عن طريق برهان الخُلف، ويمكن مراجعة هذه البراهيَن في كتاب «نقد العقل الخالص»؛ الكتاب الثاني: الفصل الثاني، أو انظر كتاب «المعقول واللامعقول في الأديان؛ بين العقلانية النقدية والعقلانية المنحازة» للدكتور محمد عثمان الخشت، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٦، الفصل الثالث ص ٦٧ (المترجم)

ماهية بالضرورة، ولا يمكن أن يكون غير ذلك. بعض الناس لا يرون العالم إلا بطريقة تناقضية (بالمعنى الكانطي) أي باستدعاء النقيض؛ إي إنَّ كلَّ رؤى العالم المخالفة لرؤاهم غريبة وغير مقبولة. وبالنسبة لهم، فالفكرة الأصلية محجوبة، ولا ندري لماذا هي محجوبة (ويشير القرآن إلى مثل هذا الحجاب في سورة البقرة، الآية ٧١). وهؤلاء الناس يشعرون براحة تامَّة مع رؤيتهم هذه للعالم. وتبدو هذه الرؤية لنا عَمًى، ولكنَّها ليست كذلك بالنسبة لهم، لأنَّه عمى من نوع خاص. فلا يمكن لشخص مُصاب بعمى الألوان أن يدرك حالته، ولا أن يشعر أنَّه محرومٌ من رؤية عالم مُلوَّن مُتألِّقٍ، لو لم نُخبره نحن (الذين نرى بشكل طبيعي) بذلك. كما أنَّنا (نحن الذين نرى بشكل طبيعي) لدينا عمى (أو صَمَمٌ) عن جوانب كثيرة من الواقع، مثل أجزاء كبيرة من الطيف، والأصوات التي تكون فوق حدٍّ معين أو تحته، وبعض الروائح التي تستطيع الكلاب أن تشمَّها، والإشارات والموجات التي يلتقطها جهاز الراديو. إنَّ الملحدين لا يعانون ولا ينتحرون ولا يملأون مستشفيات الطب النفسي، وكذلك الأمر بالنسبة لنقيضهم، أي المؤمنين. إلا أنَّ هناك نوعًا ثالثًا هم التعساء حقًا، هؤلاء الذين يحاولون ولا يَصلون، هؤلاء الذين تكون أرواحهم وعقولهم في صراع دائم غير قابل للحلِّ. فالعالم بالنسبة لهم ليس منطقيًا ولا مفهومًا، وهو بلا معنى لأنَّه سرمديٌّ وخاضع لقوانين الحركة والتغير الأبدية. وحيث إنَّهم يحاولون أن «ينظروا» بأرواحهم وليس بعقولهم فإنَّهم لا يرون إلا «رُعبًا كونيًا»، وأرضًا خرابًا وفراغًا لا معنى له. هؤلاء هم الذين يخرج منهم أصحاب الفلسفات العبثية والتشاؤمية والعدمية. المؤمنون يحاولون ويَصلون، والملحدون لا يحاولون ولا يَصلون، أمَّا أصحاب النوع الثالث فيحاولون ولكن لا يَصلون. والحالات الثلاث جميعًا تدور حول العلاقة بين الروح والعقل، فكلُّ روحٍ ترى العالم من خلال القضايا الكانطية الأربع، وكلُّ عقلٍ يرى العالم من خلال النقائضِ الأربع لتلك القضايا. وعند بعض الناس تكون السيادة للروح، وعند البعض الآخر تكون السيادة للعقل، أمَّا عند النوع الثالث فالروح والعقل في صراعٍ دائم بلا نهاية أو نتيجة.

٢١٣٩ إذا لم يكن الله موجودًا، فالإنسان غير موجود. وإذا لم يكن الإنسان موجودًا، فلا وجودَ للمسئولية. وإذا لم تكن المسئولية موجودةً، فلا وجود للجريمة. ومن

ثمَّ، إذا لم يكن الله موجودًا، فلا وجود للجريمة. إذن، إذا لم يكن الله موجودًا، فكلُّ شيءٍ مُباح.

٢١٥٢ يظنُّ البعض أنَّ انتماءهم الديني يُعفيهم من فريضة التفكير.

٢١٧١ الحياة ليست نظامًا آليًا، ولا حتى في أكثر صور الآلية تعقيدًا. إنَّها دراما، تراچيديا، كوميديا، عبث، خرافة أو أسطورة. إنَّها كلُّ هذا لأنَّ الله موجود. فمن دون وجود الله، تتحوّل الحياة إلى مجرد آلة، تصبح لا حياة.

٢١٩٧ إن لم يوجد دليلٌ عقلي على وجود الله، فهناك حاجة إنسانية لله، حاجة غير قابلة للتفسير وكليّة الوجود (أي موجودة في كلِّ زمان ومكان). يقول الملحدون إنَّ الإنسانَ هو الذي خلق الله، وليس العكس. ولكن هنا يظهر السؤال: لماذا؟ لماذا خلقه، ليس مرَّة واحدة ولكن آلاف المرَّات، وليس في مكان واحد ولكن في كلِّ مكان على الأرض؟

٢٢١٦ هناك تعبير قرآني يلفت انتباهي دائمًا، وعلى حدٍّ علمي فقد فُسر بطرق مختلفة، هذا التعبير مفاده أنَّ كلَّ شيء يوجد أو «يحدث» لأنَّ معضلة الوجود لا تزال قائمة. فلو أنَّ الله فَصَلَ في الأمر، لو أنَّ كلَّ شيء أصبح واضحًا، ومكشوفًا، «لَقُضِيَ الأَمْرُ» إذن. وأعتقد أنَّه يمكن العثور على فكرة مماثلة في رواية دوستويفسكي «الأخوة كرامازوف» حيث نجد أنَّ الشرَّ والشيطانَ والشكَّ هي الشروط المُسبَقة لحدوث كلِّ شيء، وهذه الفكرة مُقدَّمة من خلال حكاية المفتش الكبير(*) إنَّ الشرَّ أمرٌ ضروري، فبدون الشر سيكون هذا التناقض المُسمَّى بالحياة محسومًا وواضحًا، وسيتوقَّف كلُّ شيءٍ، بل سيتلاشى.

(*) المفتش الكبير هي قصة جاءت في رواية «الأخوة كرامازوف» يحكيها إيڤان كرامازوف لأخيه أليوشا عن نزول المسيح عليه السلام إلى الأرض في مدينة إشبيلية بإسبانيا خلال أحلك عهود محاكم التفتيش، حيث عرف الناسُ المسيحَ وأحبُّوه والتفُّوا حوله، لكنَّ الكاردينال «المفتش الكبير» أمر باعتقاله، ثم حُبس في زنزانة ضيقة حيث يزوره المفتش الكبير ويجري معه تحقيقًا مُطوَّلاً ويخبره أنَّ الكنيسة لم تعد بحاجة إليه. انظر رواية «الأخوة كرامازوف»، الجزء الثاني، الباب الخامس، الفصل الخامس بعنوان «المفتش الكبير». (المترجم)

٢٢٣٣ لماذا تصبح الشعارات السياسية مُبتَذَلَةً مع كثرة الاستعمال، بينما تبقى أصوات الأذان التي تنبعث من المآذن ورنين أجراس الكنائس مثيرة كما لو أنَّنا نسمعها لأوَّل مرَّة، مع أنَّها الأصوات التي نسمعها منذ قرون؟ هل هذه الأصوات لديها شيءٌ من خصائص «الظواهر الطبيعية»، مثل شروق الشمس، والتي لا ينقضي جمالها أبدًا؟

٢١٤٨ كتبتُ ذات مرَّة عن التضحية بوصفها الفكرة المركزية للدين. فالتضحية شيءٌ لا عقلاني، بل تبدو أحيانًا بلا معنى، ومع ذلك تبقى هي السبيل الوحيد للإنسان لإثبات ذاته. وما من سبيل آخر لأن «نلمس» الروح و«نشعر» بها، والتي هي غير معقولة كذلك، وبعيدة المنال، وغير موجودة من وجهة نظر العلم التجريبي. منذ فترة كنتُ أقرأ ما كتبه المخرج الروسي أندريه تاركوفسكي، الذي رحل مؤخَّرًا، حول فيلمه «القُربان». أعتقد أنَّه كان يقصد الفكرة ذاتها وأنَّه تناول المعضلات ذاتها. كتب تاركوفسكي: «أعرف أنَّ هذه الأفكار غير مقبولة بشكل كبير، فما من إنسان لديه رغبة في أن يُضحِّي بنفسه، ولكن إذا كان الإنسان يتوق إلى الخلاص الروحي فلا يوجَد سبيل آخر. وهؤلاء الذين لا يعرفون هذا الشعور هم، في رأيي، لم يصبحوا بشرًا بعدُ. إنَّهم أشياء في قبضة المجتمع والسُّلْطة. وقد يبدو فعل التضحية فكرة عبثيَّة على المستوى المادِّي، إلا أنَّه على المستوى الروحي فكرة عظيمة وسامية، حيث يُمهِّد الطريق للحياة من جديد» إلخ. وللأسف، لم تُتَح لي فرصةٌ لمشاهدة فيلم «القُربان»، إلا أنَّني أعرف أنَّه لا هذا الفيلم ولا أي فيلم آخر لتاركوفسكي عُرض في الاتحاد السوفييتي، فقد كانت أفلامه ممنوعة هناك. عاش تاركوفسكي في الغرب وأخرج أفلامه هناك، ومات في باريس عام ١٩٨٦م.

٢٤٩٨ تحتال النباتاتُ لتنشر بذورها بعيدًا قدر الإمكان لتضمن بذلك بقاءها وانتشارها. فزهرة الهندباء لديها شيءٌ ما يشبه المظلَّة يساعدها على أن تطير مع الرياح بعيدًا لعدَّة مئات من الأمتار. ونبات الكرمية وهو نوع من اللبلاب يربط عقدةً حقيقيَّة كالتي يعقدها البحَّار، وعندما تجفُّ تتمدَّد بشدَّة لدرجة لا يتحمَّلها النبات فتنفجر العقدة وتُطلق البذورَ بعيدًا جدًا عن النبات الأمِّ. كيف تعرف النباتاتُ هذه الحِيَل كالمظلَّة والعقدة؟ يقول الملحدون إنَّ الأمر لا يعدو كونَه لعبةَ مصادفات.

٢٥١٩ يبدو لي أحيانًا أنَّه من بين جميع أشكال الكتابة فإنَّ التراچيديا هي الأكثر تناغمًا مع حقيقة وجود الله. ففي التراچيديا يستطيع اللئام أن يجدوا مخرجًا ويُفلتوا، أمَّا النفوس العظيمة المخلصة فينالها الألم والأذى. وحيث إنَّه لا يمكن لأي عملية «عقلية» أن تقول بأنَّ هؤلاء الخاسرين دائمًا حمقى ومجانين (لأنَّ أُناسًا مثل أنتيجون، وهاملت، وسامسون، أو چان ڤالجان ليسوا كذلك بالتأكيد)، فيتَّضح فجأة أنَّ الحكاية كلَّها ولا سيما نهايتها المأساوية ما هي إلا فصلٌ أوَّل من دراما أكبر لا مُنشئَ لها ولا كاتب إلا الله. ذلك لأنَّه في هذه الحال يكون الألم والموت، وهما نهايةُ كلِّ شيء كما يعرف كلُّ عاقل، مجرَّدَ فترة استراحة بين مشهدين من دراما مستمرّة. إنَّ إعجابنا وتعاطفنا مع بطلٍ مهزوم حماقةٌ تامَّةٌ من وجهة نظر الموقف العقلي، إلا أنَّهما مشاعر دينية بامتياز، سواء كنَّا على وعي بهذا أم لا ذلك لأنَّه في تجربة كهذه -وفقط في مثل هذه التجربة- يكون للموت والخسارة معانٍ مختلفةٌ تمامًا. إنَّ التراچيديا في حقيقتها أمثولةٌ دينيَّة.

٢٥٢٣ معضلة (العقل-الوجود-العقل)، ماذا كان أولاً، ماذا كانت البداية، إذا كانت هناك معضلة، هذه المعضلة حُلَّت في الإنجيل باسم كلِّ الأديان في العبارة الشهيرة: «في البدء كانت الكلمة». الإجابة واضحة وغير مُبهمة، وأيُّ توضيح سيكون زائدًا عن الحاجة.

٢٥٣٢ يزعم العلماء الملحدون أنَّه لا يمكن إثبات أنَّ للطبيعة الماديَّة وجهةً مقصودةً. وطالما أنَّه لا يمكن إثباتها، فهي إذن غير موجودة. فهل يمكن إثبات تناهي السماء أو لا تناهيها؟

٢٥٨٨ الدين طفرةٌ تعني خروجَ الإنسان من الحالة غير الإنسانية. ولكن، بعكس التطور الدوري التدريجي والذي هو تطور موضوعي برَّاني، يكون الدين دائمًا طفرة إنسانيَّة جوَّانيَّة، أي إمكانية ذاتية.

٢١٧٧ لقد ثبت أنَّ التعاليم الأخلاقية عصيَّةٌ على التحريف إلى حد بعيد مقارنة بالدين. فقد استطاع الإنسان، الذي يُفسد كلَّ ما تصل إليه يده، أن يُلحقَ تشويهًا بالدين أكثر من الأخلاق، وخير مثال لهذا هو البوذية والمسيحية (ويبدو الأمر أكثر وضوحًا في

البوذية). ففي حين احتفظت التعاليم الأخلاقية لكلتا الديانتين بسموِّها، التي من الواضح أنَّها تعاليم ذات أصل إلهي، فقد خضع مضمونهما الديني لتحريفات مؤسفة بفعل التدخُّل البشري الواضح. ففي المسيحية اخترع الإنسانُ الإلهَ الثالوثَ (الآب والابن والروح القدس) وأعداداً غفيرة من القدِّيسين، وفي البوذية توهَّم الإنسانُ وجود حشد من الآلهة، رسمها على صورته الخاصة.

٢٢٢٥ التضحية هي الفكرة المركزية في الدين، تمامًا كما أنَّ القوة (أو الحجم) هي الفكرة المركزية في الفيزياء. ولهذا تحوَّلت آلام المسيح إلى رمز أسمى، وأصبح تاريخه (بصرف النظر عمَّا إذا كان تاريخًا حقيقيًا أم لا) هو الجوهر الحقيقيّ للدين. ذلك لأنَّه بغض النظر عن حقيقة نهاية حياة المسيح، فإنَّ تاريخ الآلام، تاريخ التضحية، لا يزال حقيقة بدهية في عالم ديني حقيقي. فمن وجهة نظر الدين، لن تكون حياةُ الإنسان حياةً إنسانيةً حقًا بدون تضحية. وتنطوي فكرة التضحية على عدد من عمليات النفي، والنفي الجذري الأساسي في الحقيقة هو نفي عالم الحسابات والمصلحة، وبغير نفي مثل هذا العالم لن يكون للدين وجود.

٢٢٢٧ نحاول على مدار حياتنا الحفاظ على ما لا يمكن الحفاظ عليه وما هو حتمًا إلى زوال: الحياة، الصحة، المال. وخلال هذا الصراع الذي لا جدوى منه، والخاسر سلفًا، ننسى القيم الحقيقية التي يمكن الفوز بها والحفاظ عليها، إذا ناضلنا من أجلها. على مدار حياتنا نستبدل القيم الزائفة بالقيم الحقيقية، وهو ما نصَّ عليه القرآن بوضوح.

٢٢٢٩ كلُّ ما هو ذو قيمة في حياة الإنسان، كلُّ مشاعره الفاضلة، كلُّ مآثره التي نُعجب بها أو نفخر بها، جميعها أمور غير عقلانية. وما هو عقلاني هو أنانية الإنسان ومصلحته فقط.

٣٠٩٠ تتوق النفس الإنسانية إلى اللاتناهي، والخلود، والكمال، والخير، والسلام، وإلى الله. ألا يُعدُّ هذا التوق نوعًا من الذاكرة؟ ألا يكشف عن ذكرى عالم مفقود (مؤقتًا)؟

٣١٢٢ لا يوجد أعمق وأسمى من الإيمان، ولا يوجد أغبى وأغلظ من بعض المؤمنين.

٣١٢٧. قد يكون النظر في خلق العالم هو الخبرة الدينية الأعمق (وقد جاء في القرآن: أفرأيتم. أفلا ينظرون، كما في سورة الواقعة الآيات ٦٣-٧٨، وسورة الغاشية الآيات ١٧-٢١، إلخ). الطبيعة مليئة بالعجائب، غير أنَّ بذور الزهرة تُدهشني دائمًا أكثر من أي شيء آخر، وقد اعتدتُ أن أفتح الزهرة وأتأمَّل في إعجاب مرارًا وتكرارًا نظمَ البذور الصغيرة داخلها. هل تأمَّلتَ يومًا زهرةَ هندباء جافة بدقة؟ إنَّ كلَّ بذرة صغيرة -وهناك على الأقلِّ مائة منها على كل زهرة- نظامٌ معقَّد للغاية في حدِّ ذاتها. والبذرة الأولى مجرَّد جزء صغير من هذا النظام المعقَّد، وهناك غذاء احتياطي ومظلَّة صغيرة أو أجنحة مصنوعة من أرقِّ مادة في الطبيعة، وفي الحقيقة هي المادة الأكثر فعالية. إنَّ كلَّ معرفة العالم التي جمعها الناس منذ الأزمان السحيقة حتى اليوم، مجموعة في مكان واحد من أجل مهمة واحدة فقط، لا يمكنها إنتاج بذرة واحدة من تلك البذور. ذلك لأنَّه داخل هذه البذرة الصغيرة للغاية يوجد ما هو أكثر من مجرَّد الينبوع الصغير الغامض المسمَّى حياة (قوة الحياة) فهي تحمل أيضًا شفرة النبات القادم وشكله ولونه ورائحته وقدرته على التكاثر، وبالتالي فهي تنتج في النهاية مزيدًا من البذور لدورة الحياة هذه، وهكذا مرارًا وتكرارًا. ينتفض قلبي دائمًا من جديد كلَّما فكرتُ في هذا، وقد كان هذا الأمر بالنسبة لي خبرة دينية قوية. وإذا كان صحيحًا أنَّ حقيقة الصلاة تكمن في الجانب الجوَّاني لا الجانب البرَّاني، أي في روحها وليس في الكلمات والحركات الظاهرة، فبالنسبة لي يكون هذا التأمُّلُ في زهرة هندباء صلاةً حقيقية أكثرَ إخلاصًا وصدقًا من أي صلاة أخرى قمتُ بها في حياتي. وعندما كنتُ أُسأل عن الشيء الذي يجمع بين العلم والدين، كنتُ دائمًا أعطي هذا المثال، فهو مساحة لا نهائية للبحث الإنساني، وسيظلُّ إلى النهاية سرًا. تمامًا كالسماء، لا نهاية لها.

٣١٣٩ ثمَّة معجزاتٌ في كلِّ ما حولنا، إلا أنَّ الإنسانَ لا يزال أعظم معجزةٍ في الكون.

٣١٥٦ يُقدِّس الناسُ دائمًا شيئًا ما، ولا يمكنهم إلا أن يفعلوا ذلك. إذا لم يعبد الناس الصانع فسوف يعبدون الصنعة. إذا لم يخضعوا للخالق، فسوف يخضعون للمخلوق. هذا هو الاختلاف كلُّه، إلا أنَّه اختلاف جوهري.

٣٢٥٣ الشرُّ شرطُ الحياة. ولولا الشرُّ لسادت حالة من الإنتروبيا الأخلاقية، أي حالة من اللا وجود.

٣٣٠٩ عندما سُئل چان دوسيه(*) عن الفيروسات، قدَّم إجابة مثيرة؛ قال دوسيه: «إنَّها ماكرة للغاية، وفيروس الإيدز بشكل خاص هو الأكثر مكرًا من أي فيروس آخر معروف حتى الآن. فهو، أولاً، يهاجم الخلايا التي يُفتَرَض أن تقضي عليه، أي يهاجم مناعةَ الإنسان. وهو، ثانيًا، يتغيَّر باستمرار وبالتالي لا يستطيع الجهاز المناعي أن يقاومه». وسؤالي: من الذي ركَّب فيروس الإيدز بهذه الطريقة؟ ولماذا؟

٣٣٤٦ كان اللاهوت المسيحي في العصور الوسطى عقلانيًا تمامًا في منهجه، فقد حاول أن يُثبت وجود الله من خلال الاستدلال المنطقي. أعتقد أنَّه بهذا قد مهَّد الطريق للإلحاد الأوربي.

٣٣٥٢ الوجود «الدازين» Dasein كما هو عند هيدجر هو أن «يُلقَى» بالإنسان في العالم. وعلى هذا، فهذه الفكرة فكرة دينيَّة أساسًا، بالتأكيد بالمعنى الأوسع لكلمة الدين.

٣٣٧٥ إنَّ صيغة «إذا لم يكن الله موجودًا، فالإنسان غير موجود» هي نقطة انطلاق بالنسبة لي. وهي واضحة لي وضوحًا هندسيًا إقليديًا، ربما لا تحتاج إلى برهان، ولكنَّها أيضًا فوق كلِّ اعتراض، تمامًا مثل مُسلَّمة إقليدس.

٣٤٨٢ ليس السحر من الدين. فالسحر إيمان الإنسان بقوى يمكنه أن يقهرها وأن يُخضعها، أي أن يجعلها خادمة له. أمَّا الدين فهو إيمان الإنسان بقوة يخضع هو لها ويُطيعها. وللسحر دائمًا هدف أو مصلحة أرضية دنيوية، مثل: الحصاد والمطر والحماية من مرض أو عدو أو خطر ما، إلخ. أمَّا الدين فيُريد ملكوتًا سماويًا أخرويًا. وباستغراق السحر في العالم الأرضي، فإنه لا يشير على الإطلاق إلى قيمة الإنسان ولا إلى خلوده في عالم آخر، فكلُّ شيء هنا (هنا والآن) على الأرض. ولهذا، فالسحر هو «آلية مُوهمة» لأنَّ هدفه «نفعي» بينما أسلوبه غير مُجد ومُوهِم. أمَّا الدين، مأخوذًا بخلود الرَوح

(*) چان دوسيه (١٩١٦-٢٠٠٩م) عالم فرنسي متخصص في علم المناعة، حصل على جائزة نوبل في الطب عام ١٩٨٠م. (المترجم)

وخلاصها، فهو بَعديٌّ، أي ينظر إلى ما بعد هذا العالم. السحر موصوم بالتناقض بين الهدف والوسيلة: فالهدف عقلاني، والوسيلة غير عقلانية. ولهذا فإنَّ إحلال العمل أو المعرفة أو الصراع محلَّ الدين أو السحر أمر وهمي لا جدوى منه. كما أنَّ هناك اختلافًا آخر بين السحر والدين وهو أنَّ السحر بوصفه دينًا زائفًا منتشر على نطاق واسع أكثر مما نتصوَّر، أمَّا الدين الحقيقي فهو خاصية لعدد قليل نسبيًا من الناس، أقلَّ بكثير من تقديراتنا. ومع هذا، فإنَّ عملية إحلال الدين الزائف محلَّ الدين الحقيقي هي أمر شائع وظاهرة مستمرّة.

٣٤٩٧ إنَّه منتصف شهر مايو، وكلُّ شيء مُغطًّى بزهور الهندباء، تلك الزهرة الصفراء التي تغمر الحقول والمراعي في الربيع. هذه الزهور هي تلك الكُرات الصفراء التي يُحب الأطفالُ أن يلعبوا بها ويطلقون عليها الزهور المتطايرة. قطفتُ زهرة منها وكان النسيم قد نزع بالفعل أكثر من نصف بذورها. هل نظرتَ يومًا أو فحصتَ بدقَّة بذرةً من تلك البذور؟ إذا كنتَ لم تفعل هذا، فجرِّب أن تقوم به وسوف تلتقي بإحدي المعجزات وجهًا لوجه. إذا وضعتَ نُصب عينيك الغايةَ من هذه البذرة، وهي استمرار توالد حياة هذا النبات وميلاد جيل جديد قادم، يكون أمامك نموذج للكمال المطلق. وما هو أمامك ليس مجرَّدَ بذرة بالمعنى الضيق لكلمة بذرة، أي تلك النهاية السميكة ذات اللون الأسود في أحد أطراف الزهرة. فهناك ساق ومظلَّة مصنوعة من عدد من الأوراق الرقيقة على شكل نجمة متعددة الأطراف، مُصمَّمة بهذه الطريقة حتى يمكن للرياح أن تحملها بعيدًا قدر الإمكان وأن تنثرها في أرجاء العالم. بل إنَّ النهاية السميكة التي ذكرتُها ليست هي البذرة، فالبذرة هي مجرَّد الجزء الأصغر فيها، والباقي هو غذاء احتياطي مُفيد للبذرة خلال فترة تكوينها الأولى حتى تأخذ شكلها النهائي. ومن الواضح أنَّ كلَّ ما في هذه البذرة مقصود ومُبتكَر، فلا شيءَ جاء مصادفة أو عَرَضًا. ستسقط البذرة، وسوف تساعدها الأمطار على أن تنغرس في التربة، وستتحمَّل الشتاء، وفي الربيع سوف تتذكَّر نفسها وتنبت وتنمو سريعًا وتطلع منها زهرة هندباء صفراء، وكلُّ بتلة في هذه الزهرة ستتحوَّل إلى بذرة كهذه، وهكذا إلى الأبد. عندما أفكِّر في أن كلَّ علومنا وعلمائنا وتقنياتنا لا يمكنهم إنتاج بذرة واحدة كهذه، حتى ولو اجتمعوا في مكان واحد ولو كانوا قادرين على العمل معًا بانسجام

ولو لمائة سنة، وعندما أفكِّر أنَّهم لن يستطيعوا هذا أبدًا، فلا بدَّ لي أن أتساءل كيف يتجاهل الناس هذه القدرة الجلية التي تقف وراء الطبيعة؟ أيُّ نوعٍ من العمى هذا؟! كيف يمكن للمرء أن يُفسر لا مبالاة الإنسان تجاه مثل هذه الآية من آياتِ الله؟ وهي مجرَّدُ آية واحدة من بين آيات كثيرة أشد غرابة وأكثر استعصاءً على التفسير، بل وأكثر جدارة بالإعجاب والدهشة.

٣٥٣٣ إذا كان صحيحًا أنَّ الصلاة الحقيقية هي صلاة جوَّانية وليست برَّانية، أي تكمن حقيقتها في الروح وليس في المراسم والطقوس الخارجية، فإنَّني أكون قد قمتُ بأقوى توجُّه إلى الله في ملاحظة الطبيعة الحيَّة. إنَّني أتذكَّر أحد الأفلام الوثائقية الذي كان يعرض للحياة المدهشة للطيور الاستوائية، ولتعايشها مع الزهور، وللعالم الحي النابض بالحياة بلا حدود. كانت الكاميرا تنتقل من زهرة إلى أخرى، توقَّفَتْ لبُرهة عند أكمام الزهور، ثم تتبَّعت طيرانَ البذور التي تحملها الرياح ببطء. لقد شعرت في ذلك الوقت بأنَّني أقرب إلى الله أكثر من أي وقت خلال الصلاة -فالصلاة تكون أحيانًا روتينية وآليَّة- واندهشت أمام صنع الله وهذا الدليل الحي على إبداعه. كتب تورجنيف ذات مرَّة كيف أنَّ «الزهور تنظر إلينا بعيونها البريئة»، وربما كان أكثر ما أثارني هو هذه الشهادة الصامتة للزهور بلا أي كلمة، فهناك شيءٌ ما بريءٌ للغاية ومؤثر في «نظرة» الزهرة هذه. إذا كانت حقيقة الصلاة في الروح وليس في الكلمات والحركات، فإنَّني أكون قد قمتُ بأفضل صلاة لي خلال مشاهدة هذه الفيلم الوثائقي.

٣٥٧٩ دُعيَ أحد المصوِّرين من مدينة تولا Tula لالتقاط صور في مقر إقامة ليو تولستوي بمدينة ياسنايا بوليانا Yasnaya Polyana، سأل المصوِّرُ تولستوي قائلاً: «يا ليو نيقولافيتش، هل الله موجود؟» فسأله تولستوي إن كان قد رأى يومًا الميكروبات تحت الميكروسكوب، وأضاف «لو سألنا أحد الميكروبات هل يوجد مُصوِّر من مدينة تولا يُدعى رايفسكي، بمَ تعتقد أنَّه سيجيب؟»

٣٦٢٥ الأديان الكبرى، خاصة اليهودية والمسيحية والإسلام، لها مكانة خاصة ودور حاسم في التاريخ. فبعد ظهور كلٍّ منها، لم يعد العالم كما كان من قبل، بل كان يغدو

دائمًا عالمًا جديدًا مختلفًا. يكشف ظهور هذه الأديان الكبرى عن أثر التدخُّل الإلهي المباشر والصريح في مجرى التاريخ الإنساني. لقد كانت هذه الأديان بمثابة تحوُّل في قوانين استمرارية التاريخ؛ إذ ليس هناك تفسير «تاريخي» لظهور موسى وعيسى ومحمد. وفي كلٍّ من هذه الأديان كانت رسالة كلِّ رسولٍ تعني بدايةً جديدةً تمامًا، عهدًا جديدًا، ثورةً روحيَّةً، وليس تطوُّرًا.

٣٦٣٥ السمة التي تجعل الكتابَ المقدَّس مختلفًا للغاية عن كلِّ الكتب السابقة عليه أو الكتب التي كانت موجودة وقت ظهوره (وبالطبع أنا أشير إلى النص الأصلي) هي أصالته المطلقة. إنَّه شيءٌ جديد تمامًا، كأنَّه «نزل من السماء»، وهو كذلك في الحقيقة. وهناك شبه إجماع بشأن هذه السمة.

خواطر
سياسية

الفصل الثالث

خواطر سياسية

١٩ في أمريكا الجنوبية يسود المذهب الكاثوليكي، وفي أمريكا الشمالية يسود المذهب البروتستانتي، ولدينا في أوروبا القسمة ذاتها (جنوب-شمال)، وما يمكن ملاحظته في كلٍّ مكان هو أنَّ الدول التي يغلب عليها المذهب البروتستانتي أكثر انفتاحًا على التقدُّم من البلاد التي يغلب عليها المذهب الكاثوليكي. فالبروتستانتية، بشكل عام، مُحرِّكٌ للتاريخ أقوى كثيرًا من الكاثوليكية.

٢٤ المطالبة بإلغاء عقوبة الإعدام هي جزءٌ أساسي من اتجاه القانون الجنائي نحو الاهتمام بالمجرم أكثر من ضحية الجريمة. تنطوي الحجج التي يسوقها أصحاب هذه المطالبة على إشكاليات عديدة. فهم، على سبيل المثال، يصفون لك تفاصيل تنفيذ عقوبة الإعدام ويسألونك: هل تؤيد هذا الأمر؟ وكان من الممكن أيضًا أن يصفوا تفاصيل ارتكاب الجريمة والحالة المرعبة التي ألحقتْها بالضحية وأسرة الضحية، ويسألوا السؤال ذاته. ولكن ما يحدث هو تنحية هذا الأمر جانبًا، كما لو أنَّه لا توجد عمليتا قتل وإنَّما يجري التركيز على عملية قتل واحدة وهي تنفيذ عقوبة الإعدام بحق القاتل.

٣٤ لا شكَّ أن العقوبة الجسدية تتعارض مع معاني الشرف والكرامة الإنسانية، وهذا ما يوافق عليه الجميع بسهولة. ولكن، من ناحية أخرى، تُبيِّن التجربة، مع الأسف، أنَّ هناك أُناسًا لا يوجد لديهم أدنى قدر من الشرف والكرامة الإنسانية. ويصف القرآن هؤلاء بأنَّهم ﴿ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾. ويمكن لمن قضى بعض الوقت في السجن مع صغار المجرمين أن يتأكَّد من هذا. ومن الغريب أنَّ هؤلاء الذين يقبعون في مكاتبهم ويكتبون موادَّ القانون الجنائي لا يعرفون شيئًا عن هذه «الطينة» الإنسانية. فلا يُعقَل، مثلاً، أن نتخيَّل وجود أطبَّاء لم يدخلوا المستشفيات ولم يتعاملوا مع المرضى. وهذا هو بالضبط ما يحدث مع المتخصصين في علم الإجرام والقانون الجنائي؛ فأغلبهم، في أحسن الأحوال، لم يلتقِ بالمجرمين إلا من خلال جلسة استجواب وإدلاء بالشهادات أو جلسة محاكمة، وما يجب

أن يُؤخذ في الاعتبار هو أنَّ المجرمين، بخلاف الناس العاديين، لديهم قدرة أكبر على التحوُّل. إنَّ المجرمين ليسوا سُذَّجًا على الإطلاق؛ فهم أُناسٌ ذوو خبرة وتجربة، بدرجات متفاوتة. قد يكون فهمهم للحياة خاطئًا، إلا أنَّ هذا ليس نتيجة للسذاجة، وإنَّما بسبب ارتباطهم بالشرِّ، وهو أمر محسوم لدى أغلبهم وغير قابل للإصلاح أو التقويم. وقد رأيتُ في السجن عددًا كبيرًا من الناس سُجنوا بسبب النشل والسطو، ولم ألاحظ لدى أيٍّ منهم استعدادًا للبدء في أي عمل شريف بعد الخروج من السجن. بل على العكس، كانوا يُشجِّعون ويُرشدون بعضهم البعض ويتبادلون الخبرات. لاحظتُ شيئًا من الندم فقط عند من ارتكبوا جرائم القتل، ولكن حتى هؤلاء النادمين كانوا قلَّة قليلة. في مشهد من أحد الأفلام التي شاهدتُها في السجن، كان هناك رجلٌ يهاجم فتاة بقصد اغتصابها، وبينما كانت الفتاة تصارع كفريسة بين فكِّي حيوان مفترس، كان أكثر المشاهدين -السجناء- يُشجِّعون المعتدي بصوتٍ عالٍ.

إنَّ صغار اللصوص والنشَّالين هم أنماط واضحة من المجرمين عديمي الضمير المجرَّدين من المباديء الأخلاقية، فهم يُسلُّون أنفسهم بتبادل الحديث فيما بينهم عن كيف تمكَّنوا، شهرًا بعد شهر، من سرقة كلِّ مُدَّخرات عُمَّال المناجم. وذكروا حالة أحد عُمَّال المناجم الذي انتحر بعد أن اكتشف أنَّه فقد كلَّ مُدَّخراته.

قال لي أحدهم، وهو يُريني يديه: «ألا تلاحظ أنَّ هاتين اليدين لم تُخلَقا للعمل، وأنَّهما قد خُلقتا لشيءٍ آخر؟». وفي الحقيقة، كان للرجل يدان جميلتان بأصابع طويلة. قلتُ له إنَّ هناك من يزعم أنَّ نوع العمل هو الذي يخلق اليدين ويُشكِّلهما، فأجابني بأنَّه بالتأكيد ليس العمل هو الذي خلق يديه وشكَّلهما. ثمَّ قلتُ في نفسي إنَّه لا يستحقُّ هاتين اليدين الجميلتين، وإنَّه سيكون من العدل لو لم يكن يمتلكهما، حتى تذكَّرتُ فيما بعد أنَّ هذا هو بالضبط حدُّ السرقة في الشرع.

بطبيعة الحال، على المرء أن يكون حذرًا للغاية في العقاب، ولكن لو كنتُ سأكتب القانون الجنائي في السجن، آخذًا في الاعتبار كلَّ خبرتي في السجن، فأعتقد أنَّه سيكون أقربَ ما يكون للحدود التي جاء بها الشرع. وقد ذكرتُ قبل قليل أنَّ لديَّ تحفُّظاتٍ بعينها

تجاه العقوبة الجسدية، ولكن يبدو لي أحيانًا أنَّ الله قد جاء بي إلى هنا لأقارن بين حكمته سبحانه وحكمتي الضئيلة.

٤٨. عندما ندرس تاريخ إحدى الأمم أو حقبة من التاريخ، يبدو لنا أحيانًا أنَّ بعض الأحداث الخاصة بإحدى الأمم، سواءً الانتصارات أو الهزائم، النهايات المشؤومة أو السعيدة، كانت نتيجة إمَّا لظروف سعيدة أو بائسة، أي نتيجة الصدفة. ولكن إذا ما درسنا الأمر عن كثب وبدقة أكثر سنصل عادة إلى استنتاج أنَّ تلك «الصدفة» لم تكن صدفة كما كنَّا نعتقد في البداية.

٤٩. لا أعرف ماضي أُمَّتي، أو لا أعرفه كما ينبغي. ولكنِّي أعرف حاضرها، أي أعرف النتيجة. ومن هذا الحاضر يمكنني أن أستنتج الكثير عمَّا سبقه.

٥٠. إنَّ قراءة كتب التاريخ لا تكفي لمعرفة أُمَّة ما أو حقبة تاريخية ما. فبدون روايات بلزاك، لا يمكن لكتاب عن تاريخ فرنسا أن يُقدِّم صورة واضحة لحياة المجتمع الفرنسي، ولو كان هذا الكتاب من عشرة مُجلَّدات. فمن خلال هذه الروايات فقط يمكننا أن نقول إنَّنا نعرف حياة المجتمع الفرنسي خلال القرن التاسع عشر.

تُحدِّثنا كتب التاريخ عن الأحداث والوقائع، بينما تُحدِّثنا الروايات والقصائد والملاحم والقصص والأساطير والحكايات الخرافية عن حياة إنسان ما، أي عن فرد، عن ما هو موجود في الواقع. الأول تاريخٌ برَّاني، والثاني تاريخٌ جوَّاني. التاريخ البرَّاني تاريخ ناقص إلى حدٍّ كبير، لأنَّه يتحدَّث دائمًا عن الأباطرة والملوك والوقائع التي تخصُّ جماعة محدودة من الناس في القصر وحوله. ولا يمكنني القول إنَّني أعرف تاريخ إحدى الأمم لأنِّي أعرف ملوكها والحروب التي خاضتها وأين انتصرت وأين هُزمت. أضف إلى ذلك، إنَّني لا أستطيع حتى القول إنَّني أعرف تلك الأمة لأنِّي أعرف تشريعاتها وثقافتها. بل لا بدَّ لي أن أعرف كيف عاش الفرد في بيته، كيف تعامل مع زوجته وأولاده والموظَّفين والسلطة الحاكمة. وليس بغير الجمع بين هاتين الصورتين، البرَّانية والجوَّانية، يمكنني أن أقول إنَّني أعرف، بدرجة ما، تلك الأمة وماضيها. طبعًا، مع الأخذ في الاعتبار بكلِّ القيود والتحفُّظات التي على المرء التمسُّك بها تجاه المؤلِّفين ونصوصهم المكتوبة.

٥٢ . في التاريخ، كما في الطبيعة، كلُّ شيء في تنوُّع وتغيُّر مستمر. لا أستطيع أن ألتمس أو أتوقَّع موقفًا واحدًا أو حالة واحدة ثابتة في التاريخ، أو حالة توقُّف التاريخ عندها، تمامًا كما لا يمكنني أن أطلب أن يتوقَّف أحد فصول السنة الأربعة ويظلَّ ثابتًا إلى الأبد. في التاريخ، كما في الطبيعة، سيكون هناك دائمًا قوى تدفع في اتجاه التغيير. وما أنا، برغباتي وأفعالي، إلا مجرد عنصر ضئيل في أحد هذه التغييرات المتواصلة.

٥٣ قبل أكثر من مائة عام اشترت الولايات المتحدة الأمريكية قطعة أرض على الساحل الغربي لأفريقيا وأسَّستْ دولة ليبيريا، أول دولة سوداء مستقلة. كانت هذه محاولة من الولايات المتحدة لغسل عار «البضاعة السوداء» (تجارة الرقيق الأسود سيئة السمعة). وأُعيد إلى ليبيريا عدد من الأحفاد المنحدرين من الزنوج الذين وقع اصطيادهم بالقرب من تلك المنطقة واقتيدوا قهرًا عبر المحيط كعبيد. فماذا حدث؟ أصبح هؤلاء العبيد أسيادًا في ليبيريا، وفي سابقة لا مثيل لها قاموا باستعباد السكَّان السود الأصليين الذين انحدروا هم من سلالتهم. عُرِفَ حُكمُ هذه الطبقة السوداء بأنَّه «دولة إرهاب المائة عائلة» والذي استمرَّ حوالي مائة سنة، ولم ينته إلا بانقلاب عسكري في ١٩٨٠م. بعد هذا كلِّه، يمكننا أن نخلص إلى أنَّ الحياة أحيانًا تجعل من الأفكار النبيلة أضحوكة فجَّة، أو أنَّ النوايا، سواء كانت طيِّبة أو خبيثة، لا دور لها في الحياة التاريخية. وهكذا يحدث أنَّه قد تنشأ نتائج إيجابية من دوافع أنانية، أو أنَّ نتائج سلبية قد تنشأ عن الدوافع الأكثر نُبلاً. ومن ناحية أخرى، تُبيِّن هذه الحالة المذكورة كيف يقبع داخل العبيد والكادحين طغاةٌ محجوبون، وكيف يتوقَّف ظهور هؤلاء الطغاة على الظروف الخارجية إلى حدٍّ كبير. كثيرًا ما يُردِّد الناس: الله أعلم بما يفعل. في الواقع، ينقسم الناس من المنظور البرَّاني فقط إلى سادة وعبيد، طغاة وضحايا. أمَّا من وجهة النظر الأخلاقية، فيوجد داخل كلِّ إنسان كلٌّ من السيد والعبد، وأحيانًا تكون الظروف فقط هي التي تُحدِّد ما سيكونه المرء في الواقع، أي ما هو الاحتمال الذي سيتحقق في الحياة التاريخية.

٦٨ خلال قراءة تاريخ مرحلة الازدهار لمجتمع ما أو حضارة ما، سنجد بعض المؤرِّخين يُحدِّثوننا عن الانحطاط الروحي والأخلاقي، مُعلنين في استسلام أنَّ الإنسان

يكون في أدنى مستويات الإنسانية وأحطِّها عندما يعيش في بيئة الوفرة والرفاهية. في مثل هذه البيئة لا يبقى سوى الأقزام من الناحية الأخلاقية منتظرين النهاية الوشيكة التي لا ترحم. قد تظهر شخصيات عظيمة هنا وهناك، وهؤلاء ليسوا إلا القلّة التي تبدو عاجزة وسط ضعف شامل، لكنَّ عظمتهم تبدو أكبر كلَّما كانت أكثر اختلافًا عن الحالة الروحية العامة.

٦٩ تدخل الأممُ التاريخَ عندما تكون في حالة ثراء أخلاقي وفقر مادي، وعندما تخرج منه يكون الحال عادة عكس ذلك تمامًا. هذا الأمر ثابت في تاريخ جميع الشعوب الكبرى تقريبًا: قدماء الفرس والرومان والإغريق والعرب، بل والأمم الغربية الحديثة. نَخلُص من هذا إلى أنَّ الحضارة (وهي مجرَّد المعرفة الموضوعية المادية) يمكن تفسيرها من خلال التطور التاريخي، بينما لا ينطبق هذا الأمر على الأخلاق. فالأخلاق، على وجه التحديد، ليست نتيجة للقوة التاريخية البرَّانية، وإنَّما هي شرطها الأساسي المُسبَق، بل قد يقول المرء إنَّ الناس، وهم يُحققون ذواتهم تاريخيًا، يعيشون على حساب هذا الزاد الأخلاقي ويستهلكونه، تمامًا كما ينمو النبات البازغ على حساب المخزون الغذائي الكامن في البذرة. في البداية، نلتقي دائمًا بالإنسان ولديه نماذج في غاية النقاء والسُّمُوِّ للوعي الديني والأخلاقي، ومع التطور التاريخي، نجد أنَّ الدين إمَّا أن يصبح مهجورًا أو يفسد وينحسر ليصير في آخر الآمر، أي في مرحلة ما قبل الزوال النهائي، إلى حالة من الإلحاد والانحطاط الأخلاقي الكامل. ومن ثمَّ، فالأخلاق، في أي مكان، ليست نتاجًا لشيءٍ، وإنَّما نجدها في وعي الشعوب وحياتها، نجدها في حالتها الأصلية بدون القدرة على تفسيرها في الغالب، نجدها كجزءٍ لا يتجزأ من «الطينة الإنسانية» التي تُعلن عن دخولها إلى مسرح التاريخ.

ما الذي أنتج هذه الأخلاق الأصلية؟ لا شيء، هذا إذا أخذنا هذه الكلمة بمعناها الحرفي. فالأخلاق ليست نتيجة للحياة، بل هي الحياة ذاتها، أو هي مصدر لحياة على وشك أن تبدأ. وما يظهر في النهاية من فجور وفسق ما هو إلا تعبير عن ضياع المُثُل العليا وفقدانها، هو الشيب الذي يُعلن عن اقتراب نهاية الحياة. الفجور علامةُ الضعف لا القوة،

وإلا فلماذا تكون كلُّ الأمم القوية صاحبة أخلاق (متطهِّرة)، بينما تكون الأمم المتدهورة لا أخلاقية؟ «تحدث الثورة الجنسية عندما يصبح من غير الممكن القيام بأي ثورة إيجابية. تُعلن الثورة الجنسية عن نفسها في الوقت الذي لا يوجد فيه أي قوة أو رغبة في أي من المثل العليا. إنَّها علامة على فقدان الإرادة الحقيقية وعدم وجود هدف أو غاية واضحة؛ ذلك لأنَّ كلَّ ما هو خير وصالح يكون شاقًا ومُجهداً، كما جاء في القرآن الكريم ﴿ **فَلا اقْتَحم الْعَقَبَةَ** ﴾».

٨٨. الديكتاتورية شيء لا أخلاقي حتى عندما تمنع الشر، والديمقراطية شيء أخلاقي حتى عندما تسمح بحدوث الشر. فالسلوك الحر وحده هو السلوك الأخلاقي. أمَّا الديكتاتورية فبنفيها للحرية، وبالتالي نفيها لإمكانية الاختيار، فإنَّها تنطوي في أصلها على نفي الأخلاق. ومن ثمَّ، وبصرف النظر عن كلِّ الاستثناءات التاريخية، فالديكتاتورية والدين يُلغي أحدهما الآخر. وكما هو الحال في معضلة الجسم-الروح، ينحاز الدين دائمًا إلى الروح، ولذلك في حالة الاختيار بين الإرادة والسلوك، بين النية والفعل، ينحاز الدين دائمًا إلى الإرادة والنية بصرف النظر عن النتائج والعواقب. في الدين، لا قيمة للفعل بدون النية، أي بدون القصد والعزم، أي بدون توفُّر الفرصة والحرية للاختيار بين الفعل أو عدم الفعل. وكما أنَّ الجوع الإجباري لا يُعدُّ صيامًا فالخير الإجباري ليس خيرًا ولا قيمة له من وجهة النظر الدينية. ولهذا نجد أنَّ حرية الاختيار، أي حرية الفعل أو عدم الفعل، حرية الاستقامة أو الانحراف، هي الشرط الأساسي الذي تقوم عليه جميع الشروط الأساسية الأخرى في كلِّ الأديان والمذاهب الأخلاقية. ولهذا أيضًا فإنَّ إلغاء حرية الاختيار، سواء بالقوة المادية كما هو الحال في الديكتاتورية أو بالتدريب على الطاعة والامتثال كما هو الحال في الطوبيا، يشير إلى نفي الدين والأخلاق. ومن هنا تنبثق فكرة أنَّ كلَّ مجتمع إنساني حقًا لا بدَّ أن يكون مجتمعًا من أفراد أحرار، ولا بدَّ أن يَحُدَّ من عدد قوانينه ومن تدخُّلاته (درجة القهر الخارجي) إلى ذلك الحدِّ الضروري الذي يمكن من خلاله الحفاظ على حرية الاختيار بين الخير والشر، حيث يمكن للناس أن يفعلوا الخير، ليس لأنهم مُجبرون عليه ولكن لأنَّهم يُريدونه ويرغبون فيه. فبغير هذه النية للخير نكون في حالة من الديكتاتورية أو الطوبيا.

٩٤ عندما يفقد العالَمُ القدرة على ممارسة سياسة عظيمة، تبدأ التفاهات الدبلوماسية («الحالة الدبلوماسية» كما يُسمِّيها هيجل).

١٠٠ هناك فارق بين الشعب والحشد (حشد من الناس)، ويُدرك الديماغوغيون (المُهيجون وزعماء الدهماء) هذا الفارقَ جيدًا، ومن ثمَّ يستغلّونه كثيرًا لمصالحهم وأهدافهم. عندما يفقد الشعبُ المبدأ الجوّاني للوعي والأخلاق والمُثل العليا فإنَّه ينحطّ إلى مجرَّد حشد. الشعب بدون وعي هو مجرَّد غوغاء (حشد)، والغوغاء هم حشد من الناس بلا هوية واضحة وبدون مُثُل عليا، مجموعة من الأفراد يعيش كلٌّ منهم لنفسه ولديه مصالحه ومطالبه الخاصة من غير وعي بشيء أسمى أو شيء جماعي ومُشتَرَك، بل بغير اسم مُمَيَّز. الشعب لديه مُثُلٌ عليا، بينما الغوغاء لديهم حاجات ومطالب. ونجد هذه الحالة في نهاية المسار التاريخي، في مرحلة ما قبل الزوال والموت. وخير مثال لهذا هو البروليتاريا الرثَّة(*) Lumpen-proletariat في الإمبراطورية الرومانية قبل سقوطها وزوالها.

١٠٣ عندما تفقد الحياة الاجتماعية معناها الحقيقي، أو لا تجد هذا المعنى، يهرب الأفراد إلى عالم الفكر والتصوُّف أو يُسلمون أنفسَهم للملذَّات الحسية، وذلك حسب شخصياتهم وميولهم الخاصة. وعندما يوجد في المجتمع نمطان فقط من الناس -الزُّهَّاد والمنغمسين في الملذَّات الحسية- فهذه إشارة مؤكَّدة إلى أنَّ هذا المجتمع مجتمع مريض.

١٠٤ فيما يتعلَّق بالأفكار، ثمَّة نوعان من حظرها. **الأول**: مقاومة مَنْ في السُّلطة للأفكار المتقدمة التي تحتلُّ الصدارةَ والتي حان وقتُها. **والثاني**: حظر شيء ما يتراجع ويحتضر، مثل المرسوم الذي أصدره الإمبراطور ثيودوسيوس ضد الوثنيين. في الواقع، كانت الوثنية قد ماتت بالفعل، وهذا الحظر ما هو إلا شهادة الوفاة، أي الإعلان عن الموت الطبيعي الذي حدث بالفعل. كلا النوعين من الحظر لا معنى له؛ فالأول لا جدوى منه لأنَّه لا يستطيع تغيير أي شيء، والثاني غير ضروري لأنَّ التغيير قد حدث بالفعل.

(*) Lumpen-proletariat البروليتاريا الرثَّة أو ما دون الطبقة العاملة، مصطلح استخدمه ماركس في كتاب «الأيديولوجيا الألمانية» ليشير إلى الفئات الهامشية الدنيا في المجتمع والغوغاء والمتشردين والعاطلين والمجرمين وكل الفئات المهمشة التي لم تنخرط في الكيان الاجتماعي للمنتجين. (المترجم)

١١٠ فيما يتعلَّق بالقوانين، من المهم للغاية أن تُستَمَدَّ مبادئُ الدولة أو النظام من روح الناس، أن تحيا هذه المباديء داخل الناس حتى ولو على شكل أفكار مُبهمة غير واضحة يقوم النظام لاحقًا بتوضيحها وتحديدها ودفعها إلى الوعي الكامل وتحويلها إلى حقيقة واقعة. وسيواجه المُشَرِّع النبيل موقفًا صعبًا إذا كان بعض القيم الأساسية لا يُدركها الناس ولا يستشعرونها، لأنَّ القوانين التي يضعها قد تبقى مجرَّد بيانات فارغة. فأن يؤمن الناس بمبدأ المساواة بين الناس، هذا شيءٌ، وأن تكون لديهم تحيُّزات عنصرية متأصلة فيهم، هذا شيءٌ آخر. ففي هذه الحالة الثانية سيكون من الصعب استيعاب الدستور الذي يُقدِّر المساواة، وستكون فرصة تطبيقه ضئيلة للغاية.

٢٥٤ الديمقراطية والاستقرار يعتمد كلٌّ منهما على الآخر. فنحن نحتاج إلى الديمقراطية لأجل الاستقرار، ونحتاج إلى الاستقرار لأجل الديمقراطية.

٢٧١ مَنْ نحتاج: من يؤمنون أم من يُفكِّرون؟ وهل يستبعد أحدهما الآخر؟

٢٧٤ إذا قرأتَ بعض الكتب التي نُشرَتْ في الفترة ما بين الحربين العالميتين -حيث شاع في ذلك الحين محاولة تفسير كلِّ الأحداث من خلال مايُعرف بالتفسيرات الاجتماعية- ستجد، على سبيل المثال، ذلك التأكيد على أنَّ زيادة جرائم الاغتصاب ترجع إلى الكبت الجنسي والأخلاق المحافظة، إلخ، إلا أنَّ انتشار تلك الجريمة في الولايات المتحدة والبلاد الغربية، خاصة بعد ما يُسمَّى بالثورة الجنسية، يُظهر أنَّ التفسير الاجتماعي لم يكن صحيحًا.

٢٨٥ يزعم هنري لوفيڤر(*) أنَّ الحزب الشيوعي الفرنسي تجاهل طوال عشرين عامًا وجود التقرير السري لخروتشوف عن المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوڤييتي.

٢٩٣ بما أنَّ الناسَ، في الأحداث التاريخية، لا يتحرَّكون بدافع من المصلحة فحسب، وإنَّما تُحرِّكهم المبادئ أيضًا، فالتاريخ، إذن، لا يمكن التنبُّؤ به. بل على العكس، قد يكون

(*) هنري لوفيڤر Henri Lefebvre (١٩٠١- ١٩٩١م) فيلسوف ماركسي وعالم اجتماع فرنسي، عُرف بتأصيله لنقد الحياة اليومية في العالم الحديث، من أعماله: «نقد الحياة اليومية» و«إنتاج الفضاء» و«الثورة الحضرية». (المترجم)

هذا نوعًا من السببية يختلف عن السببية الطبيعية حتى ولو ظاهريًا فقط. وإذا كانت الروح تتدخَّل في الأحداث التاريخية (على شكل الأخلاق والمبادئ، أو بواعث العدل والظلم)، وبمعنى آخر، إذا كان الفاعل في تلك الأحداث، وهو الإنسان، يُحرِّكه الألم والمنفعة (المصلحة)، لكنَّه ليس عبدًا لهما، فالتاريخ لا يمكن التنبُّؤ به، وعلى الدوام يجعل من المتنبِّئين به مجرَّد كذَّابين. آخر مثال هو فشل ماركس في التنبُّؤ بالتاريخ. بالطبع، ما أقصده هو عدم وقوع الثورة الاشتراكية العالمية.

٢٩٧ يعيش أكثر من نصف البشرية اليوم (نهاية عام ١٩٨٤م) في حوالي عشرين دولة اتحادية. يختلف النظام من دولة إلى أخرى، وتكمن الاختلافات بشكل أساسي في درجة استقلال أعضاء الدول الاتحادية بالنسبة للمجالس والهيئات المركزية في السلطة.

٢٩٨ أثبت التاريخ مرارًا وتكرارًا أنَّ الصعوبات الخطيرة في أي مشروع عظيم لا تظهر إلا في المراحل الأخيرة من إنجازه. هذا الأمر ظاهر عبر تاريخ المسيحية والإسلام والاشتراكية على السواء.

٣٠١ خلال الاستعدادات للدخول في الحقبة ما بعد الصناعية الجديدة، خاصة بعد أزمة النفط في ١٩٧٤م، سُرِّح مليونان من الموظَّفين في دول المجموعة الاقتصادية الأوروبية، ممَّا تسبب في زيادة عدد العاطلين عن العمل إلى اثني عشر مليونًا في ١٩٨٤م. إذن، السؤال هو كيف يمكننا مواجهة هذا العصر الجديد الذي لا مفرَّ منه؟ تُقدِّم التنمية، خاصة الأنشطة من الدرجة الثالثة، فُرَصًا للشركات الصغيرة سريعة الحركة على وجه الحصر. وخلال الفترة المُحدَّدة منذ ١٩٧٧م حتى الآن، تقول التقديرات إنَّه قد تأسَّست ٦٠٠,٠٠٠ شركة وأفلست ٤٠,٠٠٠ شركة سنويًا في الولايات المتحدة الأمريكية. وحاليًا هناك صراع يفرض نفسه بقسوة على السوق، وتسود في هذا الصراع القوانين الصارمة للانتخاب الدارويني. وعادة ما تكون الشركات المؤسَّسة حديثًا شركات صغيرة بها أقلُّ من عشرين موظَّفًا.

٣١٥ تخلَّى الحزب الديمقراطي الاشتراكي الألماني، في مؤتمره المنعقد في باد جوديسبيرج عام ١٩٥٩م، عن الماركسية «كمنهج لتحليل الظواهر الاجتماعية». فاختار مفهومَ «دولة الرفاه» على مفهوم الصراع القائم بين الطبقات. كان الحزب الديمقراطي الاشتراكي السويدي قد حقَّق هذا التحوُّل قبل ذلك بحوالي ثلاثين عامًا.

٣١٧ تجري حاليًا عمليةُ تناقص مستمر في عدد الوظائف المتعلِّقة بمجال الصناعة البحتة في اقتصاد الدول المتقدمة جدًا. وعلى هذا الأساس، يبني ألان تورين(*) قولَه إنَّ الطبقة العاملة القديمة ستختفي تدريجيًا. إنَّ عدد العُمَّال الذين يلتحقون بالنقابات العمَّالية في تراجع مستمر. وعلى سبيل المثال، ففي فرنسا في عام ١٩٨٤م، كان ٣٠٪ فقط من العُمَّال أعضاءً في أحد الاتحادات العُمَّالية الأربعة الكبرى.

٣١٨ في أمريكا، كان اللصُّ يُعدم بسبب سرقة حصان خلال القرن الماضي وكان هذا يُعتَبَر شيئًا طبيعيًا تمامًا.

٣١٩ في عام ١٩٨٤م في سجن سان كوينتين(**) فقط، كان هناك ١٥٥ سجينًا ينتظرون تنفيذ حكم الإعدام.

٣٢٩ عندما نتحدَّث عن الاختلافات بين الجنسين، فإنَّنا نُفكِّر في الرجال والنساء، ولا يخطر ببالنا النسويات. فبخلاف النساء اللاتي هن عنصر أساسي في هذا العالم، فإنَّ النسويات لا يعنين شيئًا. فهنَّ يُشبهن النباتات التي اقتُلعت من جذورها، ومن ثمَّ أصبحن خارج أي مقارنة أو اعتبار.

٣٣١ من الطبيعي أن نتوقَّع وجود اختلافات هائلة بين الأجيال القديمة والأجيال الجديدة في زمننا هذا. فالطفل الذي نشأ في عصر الراديو والتلفيزيون يكتشف منذ طفولته المبكرة أنَّ هناك، في الطرف الآخر من العالم، شعوبًا تُفكِّر وتحيا وتشعر بشكل مختلف. وينبغي أن يترتَّب على هذا درجة أكبر من التسامح ودرجة أقلّ من الشوفينية (التعصب للوطن) من أي نوع. وذلك لأنَّ الطفل يرى الآخرين الذين يؤمنون بأشياء مختلفة، ولكنَّها متكافئة من جهة الخير والشر، تمامًا مثل البيئة التي ينتمي هو إليها. من المفتَرَض أن تكون النتيجة المنطقية لهذه التجربة درجةً أكبر من التسامح. ولكن، هل الحياة تسير بشكل منطقي؟

(*) ألان تورين Alain Touraine (١٩٢٥–) عالم اجتماع فرنسي، عُرف بتطويره لمفهوم «المجتمع ما بعد الصناعي»، من أعماله «نقد الحداثة» و«الحركات الاجتماعية» و» ماهي الديمقراطية». (المترجم)

(**) سجن سان كوينتين San Quentin Prison أحد أقدم وأكبر السجون في الولايات المتحدة الأمريكية، إذ افتُتح عام ١٨٥٢م، ويقع على الشاطئ الشمالي لخليج سان فرانسيسكو في ولاية كاليفورنيا. (المترجم)

٣٣٢ بالرغم من كلِّ شيء، أصبحت العلاقات بين الناس في قرننا هذا ذات طبيعة ديمقراطية. ومن يشكُّ في هذا عليه أن يقرأ الإهداء اللطيف الذي كتبه كانط (في تصديره لكتاب نقد العقل الخالص) إلى موظَّف حكومي مجهول (أو أحد الوزراء) في كونيغسبرغ. أهدى «الخادم المطيع» كانط إلى ذلك الشخص «كلَّ ثمرة حياته الفكرية»(*) وفي الوقت ذاته، كان التعبير عن الخضوع، أي الانحناء الشديد «إلى الأرض»، كان في ذلك الوقت أمرًا يمكن رؤيته عند كلِّ خطوة.

٣٣٣ لا يتوقف التليفزيون عن إدخال الرسائل والصور النمطية إلى وعي الناس قسرًا، وهي الرسائل والصور التي تتوافق مع الفلسفة والأيديولوجيا الرسمية. ولهذا، نجد أنَّ التلفيزيون سلاح خطير في يد الأنظمة الشمولية. غير أنَّ التطوُّرات التكنولوجية الجديدة في هذا المجال (تلفيزيون الكبْل، القنوات الإضافية، القنوات الفضائية، القنوات الخاصة، أجهزة تسجيل الفيديو، أشرطة الفيديو، إلخ) تكسر هذا الاحتكار الأيديولوجي والسياسي. وممَّا يستحقُّ المتابعة أن نرى كيف ستقاوم الدول الشمولية تقديم هذه الاختراعات، وهي ذاتها الدول التي هرولت إلى تقديم التليفيزيون وإدخاله. بل إنَّهم يفعلون هذا الآن بالفعل، لأنَّهم مضطرُّون إمَّا أن يتجاهلوا هذه التطورات أو يتجنبوها، فهي لا تناسبهم.

٣٣٤ يميل المجتمع الشمولي إلى التماثل والتجانس في تربية الناس وتعليمهم، ممَّا يجعل التلاعب بهم أسهل بكثير. فسلوك الناس المتماثلين يمكن التحكُّم فيه وتوقُّعه بسهولة شديدة، كما أنَّه يتكيَّف بشكل أفضل مع القوالب الموجودة بالفعل.

٣٣٩ كلُّ حقائق الحياة وكلُّ ما يتعلَّق بالإنسان مُعقَّد ولا يمكن تفسيره ولا حلُّه بنظرية بسيطة. ومع هذا، فقد آمن الناس في هذا القرن بالنظريات. آمن الشيوعيون بقوة العُمَّال، وآمن الألمان بالعرق الأسمى، وآمن المتخصصون في علم الإجرام بعدم جدوى العقوبة

---

(١) في الطبعة الأولى من كتاب «نقد العقل الخالص» التي صدرت في ١٧٨١م كتب كانط إهداءً إلى وزير التعليم والشئون الكنسية في عهد فريدرك الأكبر، وكان يُدعى البارون ڤون تسدلتس. وبعد أن يُشيد كانط بالوزير ورعايته للعلوم، يقول: «أهدي إليكم هذا الكتاب الآن، وأضع بين أيديكم سائر اهتماماتي في حياتي الفكرية وثمارها، وأقدم أعمق احترامي. خادمكم المطيع؛ كانط». ثم رُفع هذا الإهداء بعد ذلك في الطبعات اللاحقة، بعد موت فريدريك الأكبر، وترك البارون تسدلتس لمنصبه. (المترجم).

(حيث يرون أنَّ سلوك المجرم خاضع بشكل مُطلق للظروف البيولوچية والاجتماعية). بل إنَّ الناس في إيطاليا ذهبوا إلى أبعد من ذلك عندما ألغوا مستشفيات الطب النفسي وتركوا المرضى في الشارع. فقد آمنوا بالنظرية التي تقول إنَّ المرض له جذور اجتماعية وإنَّ مستشفيات الطب النفسي لا فائدة منها. ومع وجود بعض الحقيقة في التأكيد على أنَّ المرض له أسبابٌ اجتماعية، إلا أنَّ إلغاء مستشفيات الطب النفسي لم يكن في صالح المجتمع ولا في صالح المرضى.

٣٤٣ كما هو واضح، فكلُّ تقدُّم تكنولوجي يكون أولاً في مجال التجسُّس والمجال العسكري، ثم تأتي المجالات الأخرى لاحقًا. هكذا كان الأمر دائمًا، واليوم أصبح أكثر وضوحًا.

٣٤٦ في أوائل الخمسينيات من هذا القرن، كان رئيس محكمة العدل الدولية في لاهاي بريطانيًا، وكان يفصل في نزاع بين بريطانيا وإيران. وفي هذا النزاع صوَّت الرجلُ ضدَّ بلده. غضب الشعبُ البريطاني لهذا الأمر، إلا أنّهم لم يقولوا إنَّ الرجل خائن لوطنه.

٣٥٠ ليس بالضرورة أن تؤدي التكنولوجيا المتقدمة إلى البطالة كما يُعتقَد عادة. يقول ألڤين توفلر(*) إنَّ اليابان كان لديها في الفترة ما بين ١٩٦٣م و١٩٧٣م أعلى نسبة استثمار في التكنولوجيا الجديدة، وكان لديها في الوقت ذاته أكبر زيادة في عدد الوظائف. وعلى العكس، سجَّلت بريطانيا أكبر نقص في عدد الوظائف، وكان لديها أقلُّ نسبة استثمار في مجال التكنولوجيا.

٣٥١ هذا مثال على التغيرات في الحياة الاقتصادية في إحدى بلدان عصر ما بعد الصناعة: من بين خمسة وثمانين مليونًا من الموظَّفين في الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٨٠م، كان هناك عشرون مليونًا فقط يُنتجون سلَعًا مادية لجميع سكَّان الولايات المتحدة

(*) ألڤين توفلر Alvin Toffler (١٩٢٨–) كاتب ومُفكِّر أمريكي متخصّص في مجال دراسات المستقبل، عُرف بأعماله التي تبحث في الثورة الرقمية وثورة الاتصالات والمعلومات وردود الأفعال على التغيرات التي تحدث في المجتمع. من أهمِّ أعماله: «الموجة الثالثة» و«صدمة المستقبل» و«تحوُّل السلطة». (المترجم)

البالغ عددهم مائتين وعشرين مليونًا. وكان الخمسة والستون مليونًا الباقون يعملون في الرموز، كما يقول توفلر، أي يعملون في مجال الإنتاج غير المادي.

٣٥٢ تُحقق بعض الشركات الأمريكية الكبرى أرباحًا هائلة -أو خسائر هائلة- من خلال التعاملات المالية بدلاً من الإنتاج نفسه. ولهذا، غالبًا ما يجد المرء في معظم هذه الشركات وظيفة «مدير التعاملات المالية الدولية»، في الواقع هو رجل يشارك في أندية المقامرة الإلكترونية العالمية، ومهمته هي البحث عن الصفقات المالية الأقل في معدل فائدة والأكثر ملائمة للسوق والأسرع عائدًا.

٣٦٩ لا يناسبنا إسقاط مركاتور(*) لرسم الكرة الأرضية إلى حدٍّ كبير، فهو يثير نزعة المركزية الأوروبية. فقد جعل الأجزاءَ الشماليةَ المتقدمةَ من العالم تبدو أكبر بشكل غير متكافيء، وذلك من خلال تشويهه للنِّسَب الحقيقية بين الأبعاد، وهو بهذا يثير الإحساس بعظمة القوى الاستعمارية بالنسبة للمُستعمَرات (فمثلاً، تبدو منطقة الدول الاسكندناڤية أكبر من الكونغو، في حين أنَّ العكس هو الحقيقي).

٣٨٢ الضغط المتواصل من أجل عمل المرأة خارج البيت وإدخالها في عملية الإنتاج، له أيضًا صيغته السيكولوجية الخاصة: فهو يقوم على عدم الاعتراف بأي قيمة اقتصادية لما تفعله وتُبدعه المرأة في البيت، كالولادة وتربية الأطفال والحفاظ على الأسرة. تُقدِّم إحصاءاتنا ربَّةَ البيت، التي تعمل من ١٠ إلى ١٢ ساعة يوميًا، تُقدِّمها باعتبارها عاطلة

(*) سبَّب الشكلُ الكروي للأرض بعض المتاعب والمشكلات عند تحويلها إلى خريطة منبسطة مسطحة، فعند تحويل الدائرة إلى شكل مسطح مربع أو مستطيل تتغير المساحة المرسومة وتتشوَّه الأبعاد الحقيقية. فجاء الجغرافي الفلمنكي جيراردوس مركاتور وقدَّم في القرن السادس عشر الميلادي، تحديدًا في ١٥٦٩م، طريقة لرسم الخرائط عن طريق الإسقاط الأسطواني، وعُرفت هذه الطريقة باسم إسقاط مركاتور Mercator Projection، محاولاً فيها تفادي هذه المشكلة بأن جعل خطوط الطول متوازية عموديًا بدلاً من أن تلتقي عند القطبين، وأصبحت الخرائط المرسومة بهذه الطريقة هي الخرائط الشائعة اليوم والمستخدمة في الملاحة البحرية. ولكن المشكلة في هذا الإسقاط هي أنَّ المقاييس تكون مضبوطة وصحيحة عند خط الاستواء، ولكنَّ المسافات تتمدَّد كلما ابتعدنا عن خط الاستواء حتى تتشوَّه وتتغيَّر الأبعاد والمسافات عند القطبين، ولذلك تبدو المناطق الشمالية من العالم على الخرائط المرسومة بهذا الإسقاط أكبر من حجمها الحقيقي. لأنَّه في الشكل الكروي الحقيقي للأرض يُفترض أن تقترب خطوط الطول من بعضها البعض كلما ابتعدنا عن خط الاستواء حتى تلتقي عن القطبين، ولكنَّها في الإسقاط تظل متوازية ومتباعدة ومتمددة على الخريطة المسطحة المستطيلة. (المترجم)

وتُصنِّفها تحت عنوان «العناصر العاطلة عن العمل». كلُّنا نعرف قدر انشغال المرأة، ولكنَّنا في الوقت ذاته نتعامى عنه. هذا التجاهل لوظيفة المرأة هو صورة أخرى، ولكنَّها صورة أخلاقية هذه المرة، للضغط على المرأة لتترك البيت وتعطي ظهرها للأسرة. ويجب على الثقافة الإسلامية أن تسلك الطريق الآخر. وقد تكون البداية هي الاعتراف بوظيفة الأم وربَّة البيت.

٣٨٣. يُقدِّر ألفين توفلر أنَّ إدمان المواد الكحولية يُكلِّف الصناعة الأمريكية ٢٠ مليار دولار سنويًا، بينما تزداد هذه الأرقام عن هذا في بولندا والاتحاد السوفييتي. يقترح فيودور أوغلوف، عضو الأكاديمية السوفييتية للعلوم، إصدار قانون يمنع المواد الكحولية تمامًا في الاتحاد السوفييتي، «وإلا ستختفي الأمة السوفييتية» كما يقول أوغلوف نفسه. ويقول أيضًا إنَّ هناك أكثر من ٤٠ مليون مدمن للمواد الكحولية في الاتحاد السوفييتي، ويموت أكثر من مليون شخص سنويًا نتيجة لتعاطي المواد الكحولية، ومن بين كلِّ ستة أطفال يُولد طفل معاق لأنَّ أحد والديه كان مدمنًا للمواد الكحولية. (صحيفة أوسميتسا، ١٤ مارس ١٩٨٣م).

٣٨٦ حتى المسيحية الأمريكية تلوثَّت بالتمييز العنصري، حيث كان يُعلَّق على الكثير من الكنائس، حتى منتصف هذا القرن، لافتة تشير إلى أنَّ الكنيسة للبيض فقط.

٤٠٣. لو أمكن الوصول إلى السلطة بالوعود، فلن يمكن الاحتفاظ بها إلا بالنتائج.

٤٢٠. أصبح إدمان المواد الكحولية مشكلة خطيرة في الاتحاد السوفييتي. وقد تأكَّدت الأرقام التالية: خلال السنوات العشرين من ١٩٦٠ إلى ١٩٨٠م زاد معدل إنتاج واستهلاك الكحول ثمانية أضعاف. في ١٩٨٠م كان معدل الاستهلاك هو ٣٠ لترًا لكل فرد، وكان هناك ٤٠ مليون مدمن للمواد الكحولية. ووفقًا لأحد تحليلات الأكاديمية السوفييتية للعلوم فإنَّ الكحول سببٌ مباشر أو غير مباشر في وفاة أكثر كم ١,٥ مليون شخص سنويًا، وهو ما يعادل تأثير ١٣ قنبلة ذرية مثل تلك التي أُلقيت على هيروشيما. كما تسبَّب الكحول في انخفاض مُعدَّل الولادة بنسبة ٢٥٪ وزيادة مُعدَّل الوفيات بنسبة ٤٠٪. يزعم البعض أنَّ هناك فوائد للكحول. هذه أيضًا حُسِبَت ودُرِست. فالمكسب (الذي يدخل في ميزانية الدولة) هو ٤٩ مليار روبل، والخسارة أكثر من ١٥٠ مليار روبل

﴿ فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للنّاسِ وإثمُهما أكبرُ من نفعهما ﴾ . كما أنَّ ٩٠٪ من الموارد المُخصَّصة للصحة تُنفق على علاج المدمنين فقط . والكحول هو المتهم الرئيس في ٩٠٪ من الجرائم التي تقع في الدولة سنويًا . بل إنَّ الأكاديمي فيودور أوغلوف اقترح المنع الكامل للمواد الكحولية في الدولة، «وإلا ستختفي الأمة السوفييتية تمامًا» كما يقول . (صحيفة بوليتيكا، بلغراد، ١٥ أو ١٦ مايو ١٩٨٥م) .

٤٢١ . قال أندريه بريتون(*) في مكان ما إنَّه يُفضِّل أن يعيش في «بيت زجاجي» حيث لا يوجد به أي أسرار، وكلُّ شيءٍ شفَّاف وواضح . أنا أظنُّ أنَّه كان اشتراكيًا مُتعصبًا .

٤٢٥ . أعتقد أنَّ العالم مُكوَّن من أفراد، أعني أنَّ العالم يتألَّف من أُناس أفراد وأشياء فردية . وذلك لأنَّ كلَّ ما هو موجود يوجد بشكل فردي ؛ لا يوجد شيء كُلِّي ، وإنَّما هذه هي بنية تفكيرنا ومنطقنا، وليس الواقع .

٤٣٤ . عرَّف إريك فروم(**) «الخلل المُقَنَّن اجتماعيًا» بأنَّه حالة يُصبح فيها انحرافٌ ما أو عملٌ همجيٌّ واضحٌ أمرًا طبيعيًا، بل يُصبح جذَّابًا ومرغوبًا فيه ؛ إذ يكون المجتمع الذي يُقنِّنه منحرفًا وهمجيًا في الوقت ذاته . المثال الجيد على هذا هو الفرد العدواني عديم الضمير في مجتمع ذي طبيعة عسكرية واضحة (هذا الفرد «مُكيَّف جيدًا» ولن يُصاب باضطرابات عصبية أو نفسية)، أو وجود الإباحية والخيانة الزوجية في مجتمع يؤيد «الثورة الجنسية» حيث تُعَدُّ الخيانة الزوجية فيه شيئًا عاديًا مثيرًا للضحك، إلخ . أي إنَّ ما هو مُقزِّزٌ وبشع وشنيع يُصبح أمرًا عاديًا وطبيعيًا .

(*) أندريه بريتون André Breton (١٨٩٦- ١٩٦٦م) كاتب وشاعر فرنسي، يُعرف بأنَّه مؤسس السريالية ومُنظِّرها الأول، كتب «البيان السريالي» الأول في ١٩٢٤م. انضمَّ إلى الحزب الشيوعي الفرنسي في ١٩٢٧م وفُصل منه في ١٩٣٣م. من أشهر أعماله «ناديا» و«حبٌّ مجنون» و«السريالية وفن الرسم». (المترجم)

(**) إريك فروم Erich Fromm (١٩٠٠- ١٩٨٠م) عالم نفس ألماني (متخصص في علم النفس الاجتماعي) وعالم اجتماع وفيلسوف ذو نزعة إنسانية، انضمَّ إلى مدرسة فرانكفورت، وهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد وصول النازيين إلى السلطة، كتب عن اغتراب الإنسان ونزعة الاستهلاك في المجتمعات الصناعية الحديثة وعن الدين والأخلاق والأنظمة الشمولية وتحليل الأفكار الماركسية واليهودية. من أعماله: «الهروب من الحرية»، «التحليل النفسي والدين»، «اللغة المنسية»، «ثورة الأمل»، «أزمة التحليل النفسي»، «تشريح النزعة التدميرية لدى الإنسان». (المترجم)

٤٣٥ . اعتاد التُجَّار البيض في القرن التاسع عشر أن يرسلوا أطنانًا من الأفيون إلى الصين . وحوالي عام ١٨٤٠م أصبح هناك عدد كبير من المدمنين بين الصينيين لدرجة أنَّ الحكومة الصينية قرَّرت إتلاف ٢٠,٠٠٠ صندوق من الأفيون، فتبع ذلك إعلانُ الحرب على الصين (حرب الأفيون الأولى). وبعد اتفاقية السلام في نان كينج، أُجبرت الصين على تعويض بريطانيا عن الأفيون التالف وفتْح موانئها أمام التُجَّار البريطانيين والتنازل عن هونج كونج. كذلك أُجبرت الصين، بالتزامها بالاتفاقية، على تخفيض الضرائب والجمارك على الصادرات البريطانية، ومن ثمَّ أغرقت البضائعُ البريطانيةُ الرخيصةُ السوقَ الصينيةَ وأوقفت بذلك التنميةَ الصناعيةَ في الصين بشكل كامل تقريبًا.

٤٣٧ . هناك تماثلٌ واضح بين التحذير السوڤييتي من «الفن الهابط» (يُنسب التفصيل المفهومي حول هذا الأمر إلى بليخانوف) والرفض الفاشي لما يُسمَّى «الفن المُنحَل»، وتحت هذا العنوان أدرج الفاشيون ضمنيًا الفنَّ الحديثَ كلَّه. وعلى أي حال، هذه النظرة المتطابقة تقريبًا بين الشيوعيين والفاشيين تجاه الفن الحديث ليست شيئًا عارضًا، بل تُشير إلى تماثل وتطابق أعمق.

٤٤٢ تُخبرنا الإحصاءات بأنَّ كل إنسان حي اليوم له حوالي ٢٠ مليون جَدٍّ. أُجري هذا الحساب وفقًا لتقدير مُسبق لعمر البشرية.

٤٥٠ . الكوارث هي التي ترسم حدودَ الزمن التاريخي، وبذلك يبدو التاريخ على أنَّه حروب صغيرة كثيرة بين حربين كُبريين.

٤٥١ إحدى السمات المميِّزة للواقعية الاشتراكية هي العمارة الكلاسيكية الزائفة والمباني الضخمة التي تفتقر إلى الذوق والعاطلة عن الجمال وذات الرمزية الفجَّة.

٤٥٥ . في النهاية، توجد تلك الحقيقة الوحشية القاسية التي لا مفرَّ منها، حقيقة قوة القنبلة الذرية، ونحن نُفكِّر في أي شيء يجب أن نأخذ في اعتبارنا هذه الحقيقة، يجب أن يتكيَّف كلُّ شيءٍ مع هذه الحقيقة القاسية.

٤٥٦ . يتحدَّث ألدوس هكسلي(*) عن شعب من العبيد يمكن تشكيل وعيهم حتى يُحبوا عبوديتهم. إنَّ هذه المُهمَّة في الدول الاستبدادية المعاصرة موكولة إلى وزارات الإعلام وناشري الصحف والمُعلِّمين.

٤٦٢ . تَحلُّ الحريات الجنسية في ما يُسمَّى بالدول الاشتراكية محلَّ الحريات السياسية. والسلطات على وعي تام بهذه العلاقة.

٤٦٧ عندما أعلن الاتحاد السوڤييتي أنَّ يوم السبت عطلة رسمية، زاد استهلاك المواد الكحولية بشكل سريع.

٤٧٦ لا تُصوِّر الواقعيةُ الاشتراكيةُ الحياةَ الحقيقيةَ، وإنَّما تُصوِّر حياةً مُتخيَّلةً في عالم طوباوي. ودائمًا ما تكون الصورة متفائلة، إلا أنَّها زائفة. وفي حين تأسرنا الواقعية بصدقها، رغم الجوانب المظلمة التي تُقدِّمها (بلزاك، على سبيل المثال)، فإنَّ الواقعية الاشتراكية تَصدُّنا بكذبها. ويمكن أن يُسمَّى هذا الأمر «طوبيا لا تُحتَمل خفَّتها»(**)

٤٨٣ . بعض الحقائق: يتمثَّل أعظم تطوُّر في الفن اليوناني الكلاسيكي في النحت والمسرح، بينما لا نجد أثرًا للموسيقى. وخلال عصر النهضة، شهد الشعر ثورة قوية، وكذلك الموسيقى والعمارة ولكن بعد ذلك بقليل. وخلال عصر الرومانتيكية احتلَّ الشعرُ الغنائيُّ الصدارةَ، وفي القرن التاسع عشر، قرن العقلانية، كانت الرواية تتصدَّر المشهدَ. كما يبدو أنَّ بعض الأمم لديها فنون بعينها تتوافق معها: الموسيقى عند الألمان، الشعر عند الفرنسيين، النثر الفنِّي عند الإنجليز والروس، فنُّ الرسم عند الإيطاليين. بالطبع، هذا كلُّه ليس بشكل حصري، ولكن بالتأكيد يمكن ملاحظة بعض التقسيمات التقريبية.

٥١٠ . ما بين عامي ١٩٦٨ و١٩٨٠م سُجِّلت ٦٧٠٠ حادثة إرهابية في العالم، من بينها ٢٢٠٦ حادثة وقعت في أوروبا الغربية و٦٢ حادثة فقط في دول الكتلة الشرقية (مجلة إنترڤيو، ٥ يوليو ١٩٨٥م). من الواضح أنَّ الإرهابيين يُسيئون استعمال الحرية.

(*) ألدوس هكسلي Aldous Huxley (١٨٩٤- ١٩٦٣م) كاتب إنجليزي، كتب الشعر والرواية والقصة القصيرة وسيناريوهات الأفلام، عمله الأشهر هو رواية «عالم جديد شجاع». (المترجم)

(**) يُشير بيجوڤيتش بهذا الوصف إلى الرواية الشهيرة للكاتب التشيكي ميلان كونديرا «خفَّة الوجود التي لا تُحتمَل». (المراجع)

٥١١ . في كتاب «البحث عن الامتياز: دروس من الشركات الأمريكية الأكثر نجاحًا» (تأليف توماس بيترز وروبرت ووترمان، ١٩٨٤م)، توصَّل المؤلِّفان إلى نتيجة على أساس تحليل ٦٢ شركة من أكثر الشركات الأمريكية نجاحًا، هذه النتيجة هي أنَّ أهمَّ عوامل النجاح ليست الاستثمارات ولا الإنتاج الآلي، وإنَّما العاملُ البشري نفسه. كما يؤكِّد الكتاب على أنَّ «الإدارة الناجحة هي الإدارة القادرة على خلق جوِّ عمل يهتمُّ فيه كلُّ فرد بحُبٍّ بالشركة والمجتمع ككل». إنَّ هذه النتيجة التي تتعارض تمامًا مع رؤية ماركس للتطور تُثبت بشكل أكبر صحةَ موقف الشركات اليابانية وتُفسر نموها الاقتصادي.

٥١٢ . ها هي العبارة «الشهيرة» التي قالها ماكس رافائيل(*) عن العلاقة بين الفن والتطوُّر: «يعتقد الرسَّام أنَّه حرٌّ تمامًا في اختياره للمادة والشكل، بينما هذا الاختيار في الحقيقة مشروطٌ بحالة الإنتاج المادي والروحي، والطبقة التي ينتمي إليها الفنان، وبشكل خاص بتاريخ فن الرسم ذاته». لقد ظلَّ الماديون يُثبتون لنا بكل حماس أنَّنا لسنا أحرارًا. وحتى عندما تكون الحرية في غاية الوضوح، كما في المثال المشؤوم الذي اخترناه لماكس رافائيل، فإنَّهم يُقنعوننا بأنَّنا مُقيَّدون بثلاث سلاسل ثقيلة: (١) حالة الإنتاج الروحي والمادي، (٢) الانتماء الطبقي، (٣) التاريخ بأسره. وكأنَّ رؤيتهم للعالم بوصفه مُستعبَدًا محصنة ضد أي مظهر من مظاهر الحرية.

٥١٣ . هناك بعض الأعراض المميزة لأحدث التطوُّرات في العالم: (١) في الدول الاسكندناقية، ظهرت حركة مناهضة للنسوية والإباحية، (٢) في الولايات المتحدة الأمريكية، هناك أندية ديسكو لا تُقدِّم الخمور، وجيل جديد من الشباب يقبل العمل والانضباط بكلِّ فخر، (٣) صحوة دينية بين الشباب، (٤) السقوط المُدوِّي لتأثير الأحزاب الشيوعية في الغرب والشرق على السواء، (٥) المراجعة النقدية للداروينية، وللفرويدية بشكل خاص، (٦) إقرار إجراءات قانونية ضد تعاطي المواد الكحولية (في الاتحاد السوڤييتي، الدول الاسكندناقية، إنجلترا، ألمانيا الغربية، إلخ).

(*) ماكس رافائيل Max Rafael (١٨٨٩ - ١٩٥٢م) مؤرِّخ فني ألماني ماركسي، كان مُهتمًا بعلم الجمال وفلسفة الفن وتاريخه، أسَّس ما يُعرف بـ«الدراسة التجريبية للفن» في كتابه الذي يحمل هذا العنوان، وكتابه الأشهر هو «برودون وماركس وبيكاسو: ثلاث دراسات في علم اجتماع الفن». (المترجم)

٥٣١ . تأسست في النرويج عام ١٩٨١م «مجموعة العمل ضد الإباحية والدعارة» (أطلقت المعارضة عليها فوراً اسم «ائتلاف المنافقين»)؛ وبناءً على تأثيرها والدعم الذي تحظى به، فهي تُمثِّل نوعًا من الحزب القومي. ضمَّت الحركة ٤٠٠,٠٠٠ عضو تقريبًا (من بين حوالي أربعة ملايين مقيم في النرويج). يقول منظِّرو هذه الحركة إنَّ «أعظم خطر على البشرية بعد خطر القنبلة الذرية هو الإباحية»، ويُطالبون بالحظر الكامل للدعارة. وتُعَدُّ النسويات من أشدِّ مؤيدي الحركة والداعين لها، حيث يؤكِّدن أنَّ الإباحية (والدعارة) اعتداء مباشر على حقوق الإنسان وكرامة المرأة. كما أنَّ الأحزاب المحافظة والاشتراكية الديمقراطية تتنافس أكثر وأكثر في تقديم بيانات شديدة اللهجة ضد الإباحية. كما بادر حزب العُمَّال الاشتراكيين الديمقراطيين إلى إدخال تعديلات على مواد القانون الجنائي التي كانت تُجيز بيع المجلات والصور والأفلام وأشرطة الفيديو الإباحية، إلخ. (نقلاً عن «الصحيفة الإعلامية الأسبوعية»، بلغراد، ٣٠ يونيو ١٩٨٥م).

٥٧٤ . علَّمنا هكسلي شيئين: (١) أنَّ الطوبيا ممكنة، وهذا مكمن خطورتها، (٢) أنَّه ليس كلُّ الناس يُفضِّلون الحرية، وأنَّه ينبغي دعوتهم إلى الحرية أو تعليمهم إياها، تمامًا كأي شيء سامٍ ونبيل. إنَّ الحرية ليست حالة طبيعية، وإنَّما حالة تُغرَس وتُتعهَّد بالرعاية، وقد يتنازل عنها أكثر الناس بسهولة من أجل الأمن والمتعة، وهذا ما يؤكِّده تاريخ القرن العشرين.

٥٧٥ . أحيانًا تبدو أحكام الأمريكيين وآراؤهم في غاية السذاجة بالنسبة للأوروبّيين. سمع الأمريكيون من خلال الصحف عن هتلر والنازية والحرب وغُرف الغاز وما قام به ستالين من حملات إبادة، إلخ، في حين أنَّها كانت بالنسبة للأوروبيين أحداثًا مباشرة ودموية. ومن هنا تأتي المثالية الواضحة عند الأمريكيين، والسخرية والشك عند الأوروبيين. المقصود هنا هو الاختلاف الهائل في معيار ما نُسمِّيه بالتجربة التاريخية.

٥٩٥ . عندما نتحدَّث عن الحضارة الأوروبية، إذا ذهب بنا الحماسُ المُبالَغُ فيه بعيدًا فلنتذكَّر أنَّ هذه الحضارة أنتجت أيضًا النازيةَ والشيوعيةَ. هذه الذكرى لا مفرَّ منها.

٥٩٧ . عندما مات الآلاف جوعًا في إثيوبيا، مُعظمهم من الأطفال، (بين عامي ١٩٨٤ و١٩٨٦م) أنفق الجيش أكثر من مليار دولار لشراء الأسلحة، ولم يشعر الجيش بالمجاعة بالطبع (مجلة دوجا، العدد ٢٩٩، ١٩٨٥م).

٥٩٩ . تسأل الأيديولوجيا كيف يعيش الناس ومِمَّ يعيشون؟ أمَّا الدين فيسأل مَن هؤلاء الذين يعيشون؟ ولماذا يعيشون؟ ومن هنا يأتي الاختلاف بين الأيديولوجيا والدين. فحيثما ترى الأيديولوجيا تقدُّمًا، يرى الدينُ انتكاسًا مُطلقًا، لأنَّ الأيديولوجيا لا ترى بشرًا على الإطلاق، بل ترى مخلوقات تعمل وتَستهلك.

٦٠٦ الثورة لا تخضع لأية قوانين؛ هذا هو الموقف في الأدبيات الماركسية الكلاسيكية.

٦٠٨ بعض العبارات في العهد الجديد تبدو معادية لليهود.

٦١٨ اعتقد مكسيم غوركي أنَّ الفنَّ سيحلُّ محلَّ الدين «الذي يتلاشى»، وأنَّ «الجماليات هي أخلاق المستقبل». أي إنَّ الفنَّان أو الكاتب سيحلُّ مكان الكاهن. وعندما سأله أحد مسئولي الحزب عمَّا سيحلُّ محلَّ الكنائس، أجاب لينين: المسارح.

٦٢٤ يقول تشيسلاف ميلوش في أحد التحليلات النفسية (حول حلم بيتر) في روايته «الاستيلاء على السلطة" «قال بيتر إنَّه كان حلمًا عن الحماية الكاملة. كما قال إنَّ الإنسان عندما يُسلِّم إلى قوة قاهرة فإنَّه يصل إلى درجة أن يُعجب بما يكره. وهو لا يريد أن يعترف بهذا أمام نفسه، فهذا أمر بشع للغاية. ولكن في الواقع، ليس هناك طريقة أخرى للخلاص سوى أن تكون أقرب إلى مركز هذه القوة، حيث الرحمة والسعادة». في الحقيقة، يحاول ميلوش أن يكشف العوامل الشخصية التي تجعل الناس متوافقين مع قبول نظام شمولي. ويقول نيقولا ميلوشوفيتش في تقديمه لكتاب «العقل الأسير»: «يصبح بطل ميلوش متحيِّزًا للستالينية تحت التأثير الحاسم للخوف وهو في مواجهة قوة أكبر منه، ولكي يستعطف هذه القوة ويُروِّضها فإنَّه يقبل منطقها الاستبدادي».

٦٢٥ شهوة التدمير، هذه هي النزعة السائدة لدى اليسار الراديكالي.

٦٢٦ دفعت أمريكا اللاتينية في ١٩٨٤م ما يعادل حوالي ٤٠٪ من عوائد الصادرات كفوائد على ديونها (بل هناك بعض الدول دفعت أكثر: الأرجنيتين ٥٢٪). والمعروف أنَّ التنمية تتضررَّ إذا تجاوزت النسبة المخصومة من دخل العملة الأجنبية ١٠٪.

٦٢٨ بخصوص نظرية الانعكاس(*)، يَحقُّ للمرء أن يسأل هذا السؤال: إذا كان صحيحًا أنَّ الفنَّ والأدب هما مجرَّد انعكاس سلبي للظروف الاجتماعية الاقتصادية، فلماذا، إذن، يكون التزامُ الكُتّاب والفنّانين في الدول الاشتراكية مطلوبًا بقوة؟ بناءً على هذا السؤال، يمكن للمرء أن يَخلُص إلى أنَّ الأفكار تخلق الواقع، وليس العكس. فالتناقض واضح هنا.

٦٣٠ تقول تيريزا في رواية تشيسلاڤ ميلوش «الاستيلاء على السلطة»: «لقد قتلوا أباك، ولهذا فأنت تراهم أقوى منك». عندما وجد بيتر نفسه في مواجهة قوة عمياء لا ترحم، حاول أن يُحبَّ ما يكره. هناك كذلك شعور مماثل في جذور معظم الأديان البدائية الوثنية؛ فالإنسان البدائي لم يُوقِّر آلهتَه بدافع من الحبِّ أو التقدير، فقد كانت تتجسَّد في هذه الآلهة القوى التي تُرِك تحت رحمتها. وتحت وطأة الخوف، حاول الإنسان البدائي أن يستعطف هذه القوى ويسترضيها؛ فكان يُظهر خضوعَه وإعجابَه وتوقيره. وهو الأمر ذاته الذي يَصدر اليوم من بعض الناس أمام السلطات القاهرة، فالناس يُخضعون أنفسهم لها ليس بدافع من التقدير أو النوايا الحسنة وإنَّما نتيجة العجز التام أمامها. وقد بيَّن تشيسلاڤ ميلوش من خلال تحليله النفسي الرائع كيف يصل المرء إلى نتيجة متناقضة؛ أن يُحوِّل كراهيته إلى إعجاب عندما لا يجد أمامه أية خيارات أخرى. أي إنَّ أكبر مصلحة وفائدة هي أن يرضى عنك هؤلاء الذين لا تتوقَّع منهم إلا الأكدار فحسب. ألم ينته الأمر بوينستون بطل رواية أورويل «١٩٨٤» بأن أحبَّ الأخ الأكبر؟

(*) نظرية الانعكاس في الأدب والفن هي نظرية ماركسية تقول بأن العمل الأدبي أو الفني يعكس حقائق الواقع الاقتصادي والعلاقات الاجتماعية في الواقع الخارجي، تمامًا كما تعكس المرآة صور الأشياء، ومن ثمَّ يُقيَّم النصُّ أو العمل نقديًا على هذا الأساس. (المترجم)

٦٣٢ يعترف هيربرت ماركيوز(*)، أكبر ناقد للرأسمالية خارج الاتحاد السوفييتي، بأنَّ الديمقراطية الرأسمالية الجماهيرية لا تقوم على الإرهاب والفقر، وإنَّما على الفعالية الإنتاجية والثروة وإرادة الأغلبية من المحكومين (هيربرت ماركيوز، محاضرة نهاية الطوبيا). وانطلاقًا من هذه النقطة، يستنتج ماركيوز أنَّه لا يمكن الإطاحة بنظام حكم رأسمالي إلا من خلال وسائل غير برلمانية، أي عن طريق الإرهاب والعنف، وهو المسار الذي يدعو إليه.

٦٤٣ طبقًا للدراسة التي أعدَّتها الاقتصادية روث سيڤار Ruth sivard (خلال عامي ١٩٨٤-١٩٨٥م) فإنَّ قيمة العمل غير مدفوع الأجر الذي تقوم به المرأة، أي العمل المنزلي، تصل إلى أربعة تريليون دولار سنويًا، وهو ما يُعادل ثُلُثَ الإنتاج العالمي.

تُقرُّ أكثر دول العالم الآن بالمساواة بين الرجل والمرأة بشكل رسمي، كما أنَّ المرأة تعادل ثُلُثَ القوة العاملة في العالم وتحصل على عُشر إجمالي الدخل العالمي فقط. وكقاعدة عامة، فالمرأة العاملة لديها يوم من العمل المُضاعف، أحدهما في مكان العمل والثاني في البيت. وتُبيِّن بعض الإحصائيات أنَّ المرأة الأوروبية العاملة لديها وقت بدون عمل أقل من نصف الوقت الذي لدى الزوج. وكذلك الأمر مع المرأة العاملة في بلاد أخرى.

٦٥٦ لا توجد هزيمة إلا وتحمل الأمةُ المهزومةُ قدرًا من المسئولية عنها. ولا يوجد أبرياء في «مزبلة التاريخ». فالضعف خطأ، والضعفاء خارجون عن الأخلاق من وجهة نظر التاريخ.

٦٦٠ هل صحيح أنَّ «الأمعاء الخاوية هي وحدها ما يُحرِّك التاريخ»؟

٦٦٤ في الماضي، كان الناس يَقتلون باسم الدين، واليوم يَقتلون باسم الأيديولوجيا. ففي هذا القرن، قُتل الملايين من الناس باسم الأيديولوجيا.

٦٧٣ هناك قناعة لدى الناس العاديين بأنَّ مرض الإيدز هو الثمن الذي تدفعه الحضارة

(*)هيربرت ماركيوز Herbert Marcuse (١٨٩٨- ١٩٧٩م) فيلسوف ومفكر وعالم اجتماع ألماني أمريكي، أحد مُنظِّري اليسار الراديكالي وحركات اليسار الجديد وأحد أبرز أعضاء مدرسة فرانكفورت، هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد وصول النازيين إلى السلطة، من أهمِّ أعماله «الإنسان ذو البعد الواحد» و«العقل والثورة». (المترجم)

الغربية الحديثة للحرية الجنسية. نشأت هذه القناعة من خلال التذكير بأنَّ سادوم وعمورة قد أُهلكتا بصاعقة من السماء كعقاب على شيوع الزنا والشذوذ فيهما.

٦٧٤ حول الاستثمارات في برامج البحث والتطوير في العالم: عُقد اجتماع في مدينة ميلانو في ١٩٨٥م، وكان من المفترض أن يجيب عن السؤال: كيف ستتعامل أوروبا والصناعة الأوروبية مع التحدي التكنولوجي الذي فُرض على العالم من قِبل الولايات المتحدة الأمريكية واليابان؟ في الحقيقة، كان السؤال هو كيف ستتعامل دولٌ بعينها مع التكنولوجيا وما مدى استعدادها للعبة التكنولوجية القادمة؟ قدَّر كولين نورمان، وهو أحد الخبراء في هذا المجال، قدَّر أنَّه في نهاية السبعينيات كان قد أُنفق أكثر من ١٥٠ مليار دولار على البحث والتطوير على مستوى العالم. وبالطبع، فإنَّ الدافع الأساسي لهذا السباق هو الصدام الحالي. والمجالات الأساسية للاستثمار هي الإلكترونيات (الإلكترونيات الدقيقة بشكل خاص)، والصناعة الكيميائية والدوائية، والفضاء. تبلغ قيمة الاستثمارات في برامج البحث والتطوير في الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من ٤ , ٢٪ من إجمالي الناتج القومي، ولكن إذا أُضيفت إليها الموارد التي تستثمرها الصناعة في هذه المجالات فترتفع النسبة إلى ٤٪. ثم تأتي اليابان بعدها بنسبة ١ , ٢٪، أو ٦٪ من إجمالي الناتج القومي إذا أضيفت الأسهم التي يشارك بها القطاع الاقتصادي. أنفقت اليابان في ١٩٨٠م حوالي مليار دولار لاستكشاف الفضاء، وجدير بالذكر أنَّ الاعتماد على التكنولوجيا هو الفرصة الوحيدة المتاحة أمام اليابان، وبالمعنى الحرفي هو الشرط الأساسي للبقاء على قيد الحياة. وتُخصِّص ألمانيا الغربية حوالي ٢٪ من إجمالي إنتاجها القومي، وبريطانيا العظمى ٢ , ٢٪. وفي الاتحاد السوفييتي يُنسَّق هذا العمل من خلال لجنة تخطيط الدولة ولجنة الاختراعات والاكتشاف والأكاديمية الروسية للعلوم (التي تأسَّست في ١٧٢٤م، وتضمُّ الآن ٨٠٠ عضوًا). ويُقَدَّر عدد العاملين في المجال العلمي في الاتحاد السوفييتي بحوالي ١ . ٥ مليون عامل (في ١٩٨٠م، يكون هذا العدد خمسة أضعاف العدد في ١٩٥٨م)، وفي ١٩٨٠م أُنفق ٨ , ٢٣ مليار روبل على برامج البحث والتطوير. وفي دول العالم الثالث، لا توجد سياسات علمية وتنموية متطورة سوى في الصين والهند. ويُقَدَّر عدد العاملين في المجال العلمي في الصين بحوالي ٢ مليون، ويُخصَّص ١٪ من إجمالي الناتج

القومي لبرامج البحث والتطوير . وفي الهند يُقَدَّر عدد العاملين في المجال العلمي والهندسي بحوالي ٢,٥ مليون عامل، ومنذ ١٩٤٧م سُجِّل ارتفاع مستمر في الإنفاق على برامج البحث والتطوير .

٦٧٧ التاريخ ليس رياضيات، ولا توجد حتميةٌ رياضيةٌ في التاريخ . يؤكِّد فريدريك إنجلز في الكثير من المقالات واللقاءات والرسائل بين عامي ١٨٩١ و١٨٩٥م أنَّ الاستيلاء الوشيك على السلطة بواسطة الحزب الاشتراكي الديمقراطي هو «حتمية رياضية» . إلا أنَّ هذا لم يحدث، وعندما حدث لم يكن بواسطة اشتراكية إنجلز الديمقراطية، وإنما بواسطة الشيوعية، وهي في واقع الأمر السلطة الاستبدادية للعُمَّال السابقين .

٦٧٩ عندما تحصل إسبانيا والبرتغال على عضوية كاملة في الاتحاد الأوروبي (عام ١٩٨٦م)، سيكون عدد سكَّان دول الاتحاد الاثنتي عشرة ٣١٨ مليون نسمة، وهو ما يعني أكثر من الولايات المتحدة الأمريكية (٢٣٢ مليون) والاتحاد السوڤيتي (٢٧٥ مليون) . وبالإضافة إلى هذا، هناك تراث ثقافي وعلمي هائل وكذلك هناك الكثير من موارد التنمية . وإذا جمعنا ما يُنفَق على الاستثمارات في البحث العلمي في ثلاث دول فقط -ألمانيا وفرنسا وإنجلترا- فسنحصل على مبلغ يُعادل ما تستثمره الولايات المتحدة الأمريكية في هذا المجال، ويعادل ضعف ما تستثمره اليابان . إلا أن تأثير هذه الاستثمارات ضعيف بشكل لافت، وذلك بسبب حالة التشظِّي الراهنة، ومن ثمَّ ينبغي أن تُذلِّل وكالة البحث والتعاون الأوروبي هذه العقبات .

٦٨٣ يقول ماركس في المخطوطات التي وُجِدَتْ ونُشِرَت مؤخّراً إنَّه بنى منهجه التاريخي على وجه التحديد خلال قراءة كتاب ميكياڤيلي «تاريخ فلورنسا»، حيث يُعرَض فيه تاريخ الصراعات الطبقية في هذه المدينة . فصل ميكياڤيلي السياسة عن الأخلاق، وقسَّم الأخلاق إلى أخلاق فردية خاصة وأخلاق عامة، وجعل الأولى تابعة للثانية . كما أكَّد ميكياڤيلي على «المصلحة العامة» باعتبارها هدف المجتمع، إلا أنَّ نظريته يمكن الاستفادة منها لتوضيح إلى أي درجة يمكن أن يكون ما يُسمَّى بالمصلحة العامة غير أخلاقي أو لا علاقة له بالأخلاق أصلاً . كما أنَّ كتابه «الأمير» هو دليل ساخر لكلِّ الحُكَّام المستبدِّين، و«الميكياڤيلية» هي المرادف لمنهجية الاستيلاء على السلطة والاحتفاظ بها .

٦٨٦ ما «النموذج السويدي لدولة الرفاه» الذي يُطبِّقه الاشتراكيون الديمقراطيون منذ خمسين عامًا تقريبًا؟ في هذا النموذج يحاول المجتمع تقديم ظروف الحياة الإنسانية لكلِّ عضو في المجتمع على أساس التكافل المتبادل. لكلِّ طفل أكبر من ١٨ شهرًا مكانٌ في إحدى مؤسسات رعاية الأطفال، وعندما يذهب إلى المدرسة يحصل مجانًا على الكتب والمستلزمات المدرسية ووجبة غذائية. وعندما ينتهي من الدراسة سيحصل على وظيفة، وإذا لم توجد أية وظائف ستوفِّر له الدولة وظيفة من خلال العمل العام أو من خلال الدعم المالي الحكومي لأصحاب الأعمال في القطاع الخاص. ولهذا نجد أنَّ نسبة البطالة في السويد أقلَّ من ٣٪ (١٩٨٥م). وعندما يتزوج سيحصل على شقة أو سيشتريها، حسب إمكانياته. وعندما يُنجب أطفالاً يحصل على امتيازات أخرى. وإذا مرض سيحصل منذ اليوم الأول لمرضه على ٩٠٪ من راتبه. وحتى إذا رفض العمل، سيُقدِّم له المجتمع الحدَّ الأدنى من الدعم. وعندما يبلغ سنَّ التقاعد يحصل على راتب تقاعدي بصرف النظر عن عدد سنوات العمل. وإذا أصبح عجوزًا ضعيفًا فيمكنه الحصول على مكان في إحدى دور المسنِّين.

الجانب السلبي في هذا النظام هو أنَّه نظام بيروقراطي إلى حدٍّ كبير، وبالتالي فهو باهظ الثمن. فالصحة والتعليم والتكافل الاجتماعي هي أكبر بنود في ميزانية الدولة؛ ومن ثمَّ فالضرائب في السويد هي من أعلى الضرائب في العالم. وكما هو معروف، أنشأ الاشتراكيون الديمقراطيون السويديون خلال انتخابات ١٩٨٥م برنامج «صندوق العُمَّال»، وفكرته أن يدفع العُمَّالُ الفائضَ من رواتبهم للصندوق ويشترون الأسهم من خلاله، وبهذا يصبحون مشاركين في ملكية الشركات والمصانع (نقلاً عن مجلة «اليوم» سبتمبر ١٩٨٥م، و«الصحيفة الإعلامية الأسبوعية» ٦ مايو ١٩٨٥م).

٦٨٧ هل نريد أن يحكمنا الناس أم الأحداث؟ العقل أم الصدفة؟ إذا كنَّا نريد الناس، فمن هم؟ ومن أي نوع هم؟

٦٨٨ وزارة مستقلة للعلوم (أو للبحث والتطوير)، لمَ لا؟

٦٩٢ تُبيِّن انتخابات ١٩٨٤-١٩٨٥م في الدول الاسكندناڤية (السويد والنرويج والدنمارك) انتقالَ الكتلة التصويتية تجاه الديمقراطية الاشتراكية. وقد سُجِّل هذا الاتجاه قبل ذلك في إسبانيا وفرنسا واليونان وأخيرًا وبشكل واضح جدًا في البرتغال (خريف ١٩٨٥م).

بالتأكيد هناك فارق بين الاشتراكيين الأوروبيين والديمقراطيين الاشتراكيين. وفي توضيحه لهذا الفارق، قال ليونيل چوسبان، السكرتير الأول للحزب الاشتراكي الفرنسي، قال في أحد التحليلات (١٩٨٥م) إنَّ المهمة الأساسية الوحيدة للديمقراطيات الاشتراكية هي «إعادة توزيع الثروة الاجتماعية (الدخل) بطريقة أفضل وأكثر عدالة. وهم عادة لا يهتمُّون بتغيير نمط الملكية وإعادة تنظيم علاقة الإنتاج في المجتمع. أمَّا نحن، الاشتراكيين، فنضع في حسباننا كلا العنصرين من عناصر التحول الاشتراكي». وتعليقي: كلُّ هذه المفاهيم والتصورات في تراجع واضح منذ مطلع الثمانينيات (بالطبع أنا أقصد الاشتراكية).

٦٩٨ وفقًا للبيانات الإحصائية، فقد انخفض عدد النساء في الوظائف العليا في الدول الغربية. فعدد الوزيرات والسفيرات وعضوات البرلمان اليوم أقل مما كان عليه منذ ٣٠ أو ٤٠ عامًا. والاستثناء الوحيد هو السويد، حيث ارتفع عدد النساء العاملات في الوظائف العليا.

٧١٧ هناك أحداث (أو وقائع) تجمع في ذاتها السمات المتناثرةَ لظاهرة واحدة، ومن ثمَّ تصبح رمزًا.

٧٣٠ الحرية والفوضى؛ مفهومان قُدِّر لهما أن يحدث بينهما الخلط واللبس. ولا يقتصر الأمر عليهما فقط، فهناك (الأذى-الإثم، النافع-الخيِّر، الله-الطبيعة، إلخ).

٧٤٤ يقول يورغن هابرماس(*) في أحد الحوارات معه: «لا بدَّ من الحفاظ على مكاسب التحرر البورجوازي، فالاشتراكية بدون حقوق دستورية هراء مُطلق» (نقلاً عن «الصحيفة الإعلامية الأسبوعية» ٢٤ نوفمبر ١٩٨٥م). يُعَدُّ هابرماس أهم كاتب ماركسي في العصر الحديث، ولم يَحُلْ هذا دون تعيينه في السبعينيات في منصب مدير معهد ماكس بلانك لدراسة أوضاع الحياة في المجال العلمي التكنولوجي (في ألمانيا الغربية) (وقد كتب

(*) يورغن هابرماس Jürgen Habermas (١٩٢٩م) فيلسوف وعالم اجتماع ألماني، من الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت ومن أهم منظِّريها المعاصرين، معروف بأفكاره حول العقلانية التواصلية والمجال العام وإعادة بناء العلوم ونقد فلسفة ما بعد الحداثة، من أهم أعماله «نظرية الفعل التواصلي» و«الخطاب الفلسفي للحداثة» و«المعرفة والمصالح البشرية» و«مستقبل الطبيعة البشرية». (المترجم)

خلال تولِّيه هذه الوظيفة كتابه «مشكلة شرعية الرأسمالية المتأخرة»). لو كان الموقف معكوسًا (أي لو كتب شيئًا ضد الشيوعية في بلد شيوعي) لحصل، مثلي، على حكم بالسجن أربعة عشر عامًا. هذا هو الفارق «المؤكَّد».

٧٥٤ أهم مورد اقتصادي هو القوة العاملة البشرية ذات الكفاء العالية، أي الأشخاص الذين تشكَّلت وتكوَّنت معرفتهم وقدراتهم من خلال الجهد العلمي والثقافة العلمية. دولار واحد يُستثمر في البحث العلمي يعود بعد عشر سنوات اثني عشر دولارًا، بل وضعف ذلك في حالة استثماره في مجال تكنولوجيا المعلومات. وفي اليابان، ارتفع دخل الفرد في الفترة ما بين ١٩٧٠ و١٩٨٠م من ١٨٠٦ دولار إلى ١٢٠٠٠ دولار سنويًا، إلا أنَّ تكلفة تطوير تكنولوجيا المعلومات كانت ٣٥٠ دولار للفرد سنويًا (مجلة «اليوم»، زاغرب، ٢٦ نوفمبر ١٩٨٦م).

٧٧٧ يقول علماء الاجتماع الفرنسيون إنَّ إدمان المواد الكحولية هو «إبادة جماعية للسكَّان الأقل قيمة والزائدين عن الحاجة»، لأن متوسط العُمر المتوقَّع لمدمني الكحول أقلَّ عشرين عامًا منه لدى غير المدمنين. فالمواد الكحولية هي إحدى الكوارث التي تعمل بدقة وفقًا «لمبدأ المساواة»، وذلك لأنَّها تهاجم، على السواء، المثقفين والعُمَّال، الصغار والكبار، الأغنياء والفقراء، الفلاحين والفنانين، الرجال والنساء. كما أنَّ أبناء مدمني الكحول يصبحون هم أنفسهم مدمنين. وفي عام ١٩٥١م منحت منظمة الصحة العالمية المواد الكحولية درجة «فيروس»، واعتبرت أنَّها مرض صعب العلاج يصيب المجتمع والأسرة. وأكبر نسبة من الذين عولجوا من مدمني الكحول في يوغوسلافيا توجد بين العُمَّال، حوالي ٩٠٪. وفي يوغوسلافيا هناك ثلاثة ملايين يشربون كثيرًا وكميات كبيرة، ومن بينهم مليون من المدمنين المزمنين، بينما يوجد من ٣ إلى ٤٪ فقط غير مدمنين. وفي استطلاع رأي لألف طالب، وُجد أنَّ واحدًا من كلِّ ثلاثة بدأ يتعاطى من سنِّ ١١ إلى ١٥ عامًا، وأنَّ واحدًا من كلِّ عشرة تعاطى المواد الكحولية قبل أن يبلغ الخامسة من عمره، إلخ (نقلاً عن «الصحيفة الإعلامية الأسبوعية»، ١٥ ديسمبر ١٩٨٥م).

٧٧٨ يقول دنيس دي روجمون(*) : «حيثما يوجد إنسان يريد أن يكون كاملاً، لن تكون الدولة استبدادية أبدًا».

٧٨٠ عندما دعا دنيس دي روجمون أوروبا أن تتوحَّد مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية، استُقبلت دعوته بالسخرية. ولكن بعد أربعين سنة، تصبح هذه الوحدة أمرًا واقعًا على نطاق واسع متزايد، وما يحدث في هذا الاتجاه هو، بلا ريب، أحد أهم حقائق هذا القرن.

٧٩١ لا تكمن الفوارق الحقيقية بين الناس والمجتمعات والأنظمة السياسية في الأهداف، وإنَما في الوسائل. ومن ثمّ، لا تسأل كثيراً عن الأهداف، لأنَّ الأهداف المُعلَنة ستكون دائمًا نبيلة وصالحة، ولكن اسأل عن الوسائل أو راقبها. لن تخدعك هذه الطريقة أبدًا.

٨١٤. يعيش في الاتحاد السوفييتي أكثر من ١٠٠ جماعة قومية وعرقية، ورسميًا لديهم جمهورياتهم الوطنية الخاصة أو يتمتعون بالحكم الذاتي. يتكوَّن الاتحاد السوفييتي من ١٥ جمهورية اتحادية، و٢٠ جمهورية تتمتع بالحكم الذاتي، وثماني مقاطعات مستقلة إداريًا، وعشر مناطق قومية (مجلة «اليوم»، ١٧ ديسمبر ١٩٨٥م). رغم هذا، فالهيمنة الروسية ملموسة في الاتحاد السوفييتي من أقصاه إلى أقصاه.

٨١٥. عندما سُئل الأمريكيون في آخر إحصاء سكَّاني في الولايات المتحدة الأمريكية عن الخلفية العرقية، ذكر ٨٣٪ من الأمريكيين بعض الهويات العرقية، وذكر ٦٪ فقط أنَّهم أمريكيون. وبصرف النظر عن نظرية «البوتقة»، فقد تبيَّن أن الهوية العرقية راسخة بصورة ملحوظة، وأن التجانس العرقي لم يحدث، وبهذا ظلَّت أمريكا مجتمعًا تعدُّديًا بالمعنى العرقي.

٨٢٨. يحاول الوضعيون إثبات أنَّ الفروق بين دور الرجل ودور المرأة في المجتمع ليست فطرية طبيعية، بل تكوَّنت عبر الممارسة الطويلة والتربية. وبدون هذه الظروف المصطنعة، فمن الممكن -كما يزعمون- المساواة بين دور الرجل والمرأة. وبالإضافة إلى

(*) دينيس دي روجمون Denis de Rougemont (١٩٠٦ - ١٩٨٥م) كاتب ومفكر سويسري، أحد أوائل الداعين والمنظِّرين لفكرة الوحدة الأوروبية، أهم أعماله «الحب في العالم الغربي». (المترجم)

هذا، ثمة زعمٌ بأنَّه حتى الاختلاف في اختيار الدُّمَى والألعاب التي يمارسها الأولاد والفتيات، حيث يُقلِّد الأولاد أصحاب الحرف والجنود ويصنعون الأسلحة والمركبات بينما تبني الفتيات البيوت ويلعبن بالدُّمَى ويتبادلن الزيارات الاجتماعية، ما هو إلا ضغط مجتمعي يُقيِّد حريةَ الاختيار والأنشطةَ والألعاب المتاحةَ أمام الأطفال (كما تقول المتخصصة في علم النفس ڤيسنا يانجيڤيتش). ويزعم أنصار هذه النظرية أنَّ الأطفال لا يقومون بهذه الاختيارات بطريقة عفوية، ولكنَّ الآباء والمعلِّمين والمدرِّسين يُعوِّدونهم على هذه الاختيارات، إلخ. وهو ما لا يبدو مُقنعًا.

٨٣١. كتب الشاعر الفرنسي لويس أراغون(*) قصيدة للشرطة السرية السوڤييتية، وهو صاحب البيت الشعري: «عاشت الإدارة السياسية للدولة، المظهر الجدلي للبطولة». وهو أيضًا صاحب العبارة «الشهيرة»: «نحن نضع ستالين فوق شكسبير ورامبو وجوته وبوشكين». وقد غيَّر رأيه لاحقًا. إنَّ المسافة التاريخية ضرورية للجميع (حتى يُعيدوا النظر في أفكارهم)، لا سيما الشعراء والكُتَّاب.

٨٣٦. هذه هي تقديرات العدد الكُلِّي لسُكَّان الأرض (نقلاً عن «الصحيفة الإعلامية الأسبوعية»):

١٩٨٥م: ٤.٨ مليار نسمة

٢٠٠٠م: ٦ مليار نسمة

٢٠٢٥م: ٨ مليار نسمة

٢٠٥٠م: ١١ مليار نسمة

يتناقص عدد السكَّان من الجنس الأبيض بالنسبة لغيرهم من الأعراق. في ١٩٨٥م شكَّلت الشعوب البيضاء ٣٤٪ من عدد سكَّان العالم، وفي ٢٠٠٠م سيُشكِّلون ٢٥٪،

(*) لويس أراغون (١٨٩٧-١٩٨٢م) شاعر وروائي وصحافي فرنسي، كان من المؤيدين للحزب الشيوعي وسياساته وظلَّ عضواً فيه لفترة طويلة. من أهمِّ أعماله رواية «فلاح باريس» ورواية «أوريليان» وديوان «عيون إلزا». (المترجم)

وفي ٢٠٢٥م سيُشكِّلون ١٨٪. هل يَدُلُّ هذا على أفول الجنس الذي سيطر على العالم لعدة قرون؟

كما ينمو عدد السكَّان السود في الولايات المتحدة الأمريكية ضعف نمو السكَّان البيض. ويوجد اليوم ٣٢٠ مليون نسمة في المجموعة الأوروبية، إلا أنَّ معدل النمو السكاني ٥, ٠ فقط، ولذلك يُتوَقَّع أن ينخفض عدد سكان دول الاتحاد الاقتصادي الأوروبي مع نهاية هذا القرن إلى ٢٨٠ مليون نسمة. ويوجد في الاتحاد السوفييتي اليوم (١٩٨٥م) ٢٧٦ مليون نسمة، ولكن يُتوَقَّع أن يكون الرقم بين ٣١٠ إلى ٣٢٠ مليون نسمة مع نهاية القرن، وستكون الزيادة السكَّانية لصالح الشعوب غير الروسية فقط.

تُنجب المرأة في الجزائر سبعة أطفال في المتوسط. ويوجد في أفريقيا ٢٣ دولة من بين أفقر ٣٥ دولة في العالم. تتناقص نسبة المواليد في المجتمعات البيضاء في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي، والأسباب: الزواج المتأخر، الأنانية (أريد أن أعيش لنفسي وليس للطفل)، الوظيفة، الطلاق، عمل الوالدين، نقص الخصوبة، المخدرات، الأمراض التناسلية، حالات الإجهاض الكثيرة. من الواضح أنَّ معظم أسباب الأزمات السكَّانية ذو طبيعة أخلاقية.

٨٣٩. لا يوجد أساسٌ علمي للعنصرية؛ ٩٩٪ من الچينات التي تُمثِّل العواملَ الوراثيةَ للفرد مشتركة بين جميع البشر، ١٪ فقط من الجينات هو الذي يُحدِّد المظهر البدني للإنسان، أي هُويَّته العرقية. وهكذا دحضت الهندسة الوراثية الحديثة التفسيرَ القديم للاختلافات بين الأعراق.

٨٤٤. ما القوى الدافعة للتنمية التكنولوجية؟ هل هي الآليات الاقتصادية أم الأشخاص الذين يبحثون دائمًا عن شيء جديد أم السباق من أجل ربح إضافي أم الصراع العسكري من أجل الهيمنة أم إدارة الدولةٍ؟

هناك في الشرق الأقصى مجموعة من الدول الصغيرة (تايوان، كوريا الجنوبية، ماليزيا، سنغافورة، هونج كونج) تتقدَّم بكل قوة. وهذا تقليد للنموذج الياباني، ولكن ما القوى التي كانت فاعلة ومؤثِّرة في اليابان ذاتها؟ في بعض الحالات يظهر أنَّ القوة الدافعة

هي محاولة مُستميتة للهيمنة العسكرية (والمثال الجيد على هذا هو الولايات المتحدة الأمريكية من خلال مبادرة الدفاع الاستراتيجي التي أطلقها رونالد ريغان، والمعروفة باسم «حرب النجوم»). فنصف ميزانية البحث والتطوير في الولايات المتحدة الأمريكية يُنفَق على الدفاع. كذلك الأمر في الاتحاد السوفييتي. ولكن في الولايات المتحدة تنتقل نتائج الأبحاث في القطاع العسكري إلى القطاع المدني سريعًا، وهو ما لا يحدث في دول أخرى. هل يمكن تحقيق التقدم بمُعدَّل أسرع من ذلك؟ يُشير نموذج تلك الدول إلى أنَّ هذا ممكن، فقد حقَّقت تلك الدول درجةَ نُمُوٍّ في نصف الوقت الذي استغرقته اليابان، واستغرقت المرحلة الأولى من النُمُوِّ في كلِّ دولة من هذه الدول أقلَّ من خمس سنوات، وكانت الملامح المميِّزة لهذه المرحلة هي: الاعتماد على السوق العالمية، المبادرات الخاصة، رفع القيود الحكومية، الانفتاح على الاستثمارات الأجنبية، رسوم جمركية مخفضة، ضرائب رمزية، إلغاء الكثير من الضرائب والتصاريح. وبهذه الطريقة، أصبحت سنغافورة أكبر مُصدِّر لوحدات الكمبيوتر الممغنطة في ١٩٨٥م، وأصبحت ماليزيا أكبر مُصدِّر للأقراص الإلكترونية. وقد تأسَّس النموذج الياباني على ما يُسمَّى بالحكومة الناعمة، أي عملية الاستشارة المتواصلة بين قطاع الأعمال وإدارة الدولة. وفي الهند كانت القوة الدافعة هي السياسة، وذلك على خلاف دول أخرى. فقطاع الإلكترونيات كان يرأسه رئيس الحكومة نفسه. وهذا يختلف عن باقي دول العالم، إذ ليس من المعتاد أن يكون موظَّفو الحكومة هم من يحثُّ ويدفع إلى التنمية التكنولوجية، بل عادة ما يكونون القوة التي تدعم بقاء الوضع كما هو.

٨٤٥. خطوة واحدة تفصل بين عدم الفهم والعدوانية.

٨٥١. واجهت البشرية لأول مرة في تاريخها إمكانية إبادتها، الإبادة الذاتية في الواقع. هذا الشعور له تأثير مُنبِّه وسوف يؤثِّر على سلوك الأجيال المُقبلة كلِّها. نأمل ذلك!.

٨٦٨. الشعراء الجزائريون غير راضين عن عملية التعريب البطيئة في الجزائر، فهم يدركون مدى أهمية هذه الخطوة لاستعادة بلدهم لغةً انتُزعت بشكل وحشي عبر سياسات الاستعمار الفرنسي.

٩١٣ كان نظام التعليم في اليابان متطوِّرًا جدًا حتى منذ القرن السابع عشر، لدرجة أنَّ نسبة الأمية في اليابان كانت هي الأقل على مستوى العالم، وذلك رغم أنَّ الكتابة اليابانية معقَّدة للغاية. إذن، الأمر لا يعتمد على الكتابة، وإنَّما على البشر.

٩١٥ يقول الرسَّام الياباني ياسي تابوتشي: «عندما انفتحت اليابان على الغرب، استثمرت كلَّ جهودها لتعليم الشعب، وبطريقة أكثر تحرُّرًا. لقد صُدمتُ عندما رأيتُ هنا، في قرية تبعد حوالي ٣٠ كيلومترًا عن باريس حيث يدرس ابني في مدرسة ابتدائية، أنَّه لا يوجد بيانو ولا دروس في الرسم بل ولا تُدرَّس العلوم الطبيعية. إنَّ هذا كلَّه موجود منذ فترة طويلة حتى في أصغر قرية في اليابان. ثم يندهش الفرنسيون كيف لليابان أن تنهض بهذه السرعة» (نقلاً عن «الصحيفة الإعلامية الأسبوعية»، ١٩ يناير ١٩٨٦م).

٩٢٧ إذا تخلَّف أحد المجتمعات في مجال المعرفة (العلم) عن قدر معين مقبول تاريخيًا، فهذا المجتمع يُقصِي نفسه من دائرة العالم المتحضِّر. ما الذي نستنتجه عن مستقبلنا في ضوء هذه الحقيقة؟

٩٣١ في الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٨٥م، أُدرجت الأسر المُكوَّنة من أربعة أفراد والتي يقلُّ دخلها السنوي عن ١٠,٦٠٩ دولارًا ضمن شريحة «الفقراء». شكَّلت هذه الشريحة ١٤,٤٪ من مجموع سكَّان الولايات المتحدة الأمريكية، أي حوالي ٣٣,٧ مليون نسمة. معظم هؤلاء من الزنوج.

٩٣٧ الثقافة، بالدرجة الأولى، هي علامة أو دليل على وجود شعب معين.

٩٣٩ عندما ترتكس المجتمعات المتحضِّرة، فإنَّها لا تعود إلى الأشكال التقليدية من الحياة (المجتمع التقليدي)، وإنَّما تصبح مجتمعات وحشية. هذه هي الحالة المألوفة عندما لا يمكن متابعة تيار الحضارة، بسبب عدم كفاية النمو المادي. فما يحدث هو فقر مادي وروحي كامل.

٩٤١ أحد قوانين البيروقراطية: من الأفضل ألا تفعل شيئًا، لأنَّ الذي لا يفعل شيئًا لا يرتكب أية أخطاء، ولا يمكن محاسبة المرء على ما لم يفعل. ولذلك، فالبيروقراطية هي سبب بقاء الوضع كما هو، حيث تقف مناهضة لكلِّ إبداع وابتكار.

٩٤٢ لن تكون الحرية ممكنة أو حقيقية إذا جاءت عبر «مرسوم» فوقي. الحرية لا تُمنح، وإنَّما تُنتزَع.

٩٤٧ شعار جميع البحَّارة (رغم كلِّ حوادث غرق السفن وكلِّ الخسائر) هو: «لا بدَّ للمرء أن يُبحر».

٩٤٩ تتزايد الجريمة سنويًا في العالم بمعدَّل ٢٪ في المتوسِّط. ترتفع هذه الأرقام باستمرار رغم أنَّ كفاءة الشرطة قد زادت في العقد الماضي بنسبة ٥٠٪، ورغم أنَّ الموارد المالية المخصَّصة لمكافة الجريمة قد تضاعفت تقريبًا. وهذا ما يمكن استخلاصه من تقرير الأمين العام للأمم المتحدة في المؤتمر المُخصَّص لمشكلة الجريمة في العالم (دلهي، ١٩٨٥م). خلال ذلك الاجتماع تقرَّر أنَّ «الجريمة اليوم تتجاوز القدرات المحلية والدولية، مما يؤدي إلى تعطيل التنمية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وإعاقة تحقيق كلٍّ من حقوق الإنسان والحريات الأساسية».

٩٥٠ تنطوي الديمقراطية، بطبيعتها، على إمكانية إساءة استعمال الديمقراطية. ومن يحاول «علاج» الديمقراطية من هذا الخطر، فإنَّه يقتل الديمقراطية ذاتها بهذا العلاج. ينبغي أن تُقبَل الحرية كما هي، بجميع مخاطرها. لا مجال هنا للاختيار.

٩٥١ إذا كان الكتاب أو الأسطوانة أو الفيلم مجرَّد سلعة، فإنَّ المستهلكين غير المثقَّفين لهم تأثير حاسم على السياسات الثقافية، لأنَّهم لديهم قوة شرائية تحت تصرُّفهم، ممَّا يفتح الأبواب للهراء والتفاهات.

٩٥٩ كلُّ قطعة موسيقية تُؤلَّف، يولد معها وعي جديد لدى الناس.

٩٧٢ ظهرت المافيا الإيطالية خلال القتال ضد حكم البوربونيين في «مملكة الصقلِّيتين» (كانت قيادتها العامة تتمركز في باليرمو ونابولي)، مما ساعد على إكساب المافيا هالة وطنية واضحة وصورة رومانتيكية لدى الشعب. ولكن في وقت لاحق، انفصلت طبقة من الأثرياء داخل المافيا (كما يحدث مع أي قوة بلا قيادة تُوجِّهها)، وتركَّزت السلطة بشكل متزايد في يد هذه الطبقة تحت شعار الكفاح ضد الأجانب. ومنذ نشأتها وحتى اليوم،

ظلَّت قوانين المافيا هي ذاتها، وهي: معاداة السلطات، التآمر (الدسائس)، فصل اجتماعي واضح بين الأقوياء والتابعين، تداول السلطة بشكل دوري بين العائلات (العشائر)، ممَّا يؤدي إلى مواجهات (ثأرية) شرسة بين العائلات بعضها البعض. بخلاف ذلك، فالمافيا اليوم تنظيم إجرامي نمطي. وفي ١٩٨٠م بلغت أرباح المافيا من تجارة المخدرات فقط خارج البلاد أكثر من أربعة أضعاف الميزانية العامة لصقلِّية.

٩٧٥ هذان تعبيران متعارضان حول حرية الفكر: يقول ريشيليو: «أعطني جملتين مكتوبتين حتى ولو بيد أكثر الناس أمانة وصدقًا، وسأجد فيهما مُبرِّرًا لشنقه» (كما تقول السيدة دي موتقي في مذكراتها). ويقول ڤولتير في رسالة إلى هلڤتيوس: «سيدي العزيز، لا أتَّفق معك في رأيك، بل إنَّه يبدو مُقزِّزًا بالنسبة لي، ولكنَّي سأدافع حتى الموت عن حقِّك في التعبير عنه».

٩٨٦ هناك أُناسٌ صالحون ليس بسبب الصلاح في ذاته، وإنَّما بسبب الحماقة أو الضعف. إنَّهم صالحون موضوعيًا وليس ذاتيًا، إذا جاز التعبير. ولكن، برغم أنَّ هذا الصلاح ناتج عن ضيق الأفق (أو الجُبْن) وهو لذلك بلا قيمة أخلاقية حقيقية، فإنَّنا لا نستطيع أن نتجاهل قيمته الموضوعية، أي قيمته بالنسبة للآخرين. هؤلاء الناس ليسوا ضارِّين على الأقل. وإذا لم يكونوا نافعين أخلاقيًا، فهم نافعون اجتماعيًا، ولذلك لن يتجاهلهم أيُّ سياسي يفهم الواقع. أمَّا في عالم يُقدِّم النوايا والدوافع على النتائج والعواقب، فلا قيمة لحياة هؤلاء. فهذان عالمان مختلفان: عالم الأخلاق والعالم الاجتماعي.

٩٩٢ هناك مفارقة غريبة تحدث: بينما يصبح التردد على الكنائس في الغرب أقلَّ فأقلَّ، فإنَّها تمتلئ بالناس بشكل متزايد في الشرق الاشتراكي. يرى علماء الاجتماع أنَّ السبب في الحالتين هو وجود أزمة في المؤسَّسات: في المؤسَّسات الدينية في الغرب، وفي مؤسَّسات الدولة في الشرق.

١٠٢٣ كانت «الثورة الثقافية»(*) الصينية هي المحاولة الأكثر راديكالية والأبعد مدى

(*) «الثورة الثقافية» الصينية تعبير يُطلق على الحركة الاجتماعية السياسية التي أطلقها ماو تسي تونغ، زعيم الحزب الشيوعي الصيني حينذاك، بدعوى اجتثاث ممثلي البورجوازية والرأسمالية في الحزب الشيوعي وترسيخ=

عبر تاريخ الإنسانية ليس فقط لإزالة تأثير الماضي المتنوِّع من الأجيال الحاضرة والمقبلة ولكن أيضًا لمحو ذكرى هذا الماضي نفسه من وعي هذه الأجيال. ولا نعرف هل وضع أي شخص آخر نصب عينيه مثل هذا الطموح أم لا قد يكون كمال أتاتورك خلال العشرينيات في تركيا شبيهًا بهذا.

١٠٢٤ يقول يونيچي ماسودا Yoneji Masuda، أحد أفضل الخبراء اليابانيين في مجال المعلومات، إنَّ مستقبلنا الذي يتَّسم بالثراء المعرفي سيفرض علينا الاهتمام بالقيم الروحية بدلاً من الاهتمام بالأشياء المادية. وبهذا المنظور، فهو يرى صحوة دينية عالمية مقبلة. وكما هو معروف، فقد قدَّم آدم سميث فكرة مشابهة في كتابه «ثروة الأمم» قبل مائة عام. ونحن نعرف حتى الآن أنَّ تنبُّؤات آدم سميث المتفائلة حول نزوع الإنسان إلى الحياة الروحية خلال الرخاء الاقتصادي لم تتحقَّق.

١٠٢٨ أصبح القرآن، وما يفيض منه من روح الرحمة والعدل، يسري في مشاعر الناس وفي الحكمة اليومية للناس العاديين. كان هذا النبع حيًا وفاعلاً حتى عندما بدا أنَّه جفَّ أو نضب. ففي مثل تلك الأوقات، أوقات الانحطاط والتدهور، مع أنَّه لم يؤثِّر بشكل مباشر في الحياة الاجتماعية والسياسية، لكنَّه أثَّر في تشكيل مشاعر الناس التي كانت وستكون (اليوم أو غدًا) مصدر القوانين. وإذا كانت هذه القوانين تُعبِّر عن روح الناس ووجدانهم، ستكون قوانين للعدل والمساواة.

= الشيوعية في البلاد. أطلق ماو في مايو ١٩٦٦م دعوة إلى انتفاضة بعرض الصين ضد البوروجوازيين ومن يسلكون الطريق الرأسمالي، وكان الأمر في حقيقته صراعًا على السلطة وتقسيمها بين الطبقة الحاكمة، وبعدما أزاح أعداءه من السلطة في بكين أراد أن يتكرر ذلك في كل أنحاء الصين فنقل المعركة إلى الشوارع، حيث استجاب لدعوته ملايين الطلبة في المدارس والجامعات حيث كونوا مجموعات عُرفت باسم «الحرس الأحمر»، وتحرَّك الطلبة سريعًا وهاجموا مدرسيهم ومسئوليهم في المدارس والجامعات والشوارع. إلا أنَّ الفوضى انتشرت سريعًا لتمتد إلى الجيش والعمال بل والحزب الشيوعي ذاته، وبدأ تحطيم وتخريب ومهاجمة كلِّ شيء يمكن اعتباره بورجوازيًا أو إقطاعيًا، وحُرقت المكتبات والمؤسسات ونُهبت المتاحف وتوقَّف التعليم تمامًا، فنتج عن ذلك صراعات وعمليات تعذيب للملايين ومعارك دموية عمَّت أرجاء الصين كلِّها، وفي مقدمة ذلك كلِّه عمليات إعدام جماعية قام بها ماو ضد معارضيه في الحزب والسلطة. استمرَّت هذه الأحداث عشر سنوات كاملة من مايو ١٩٦٦م إلى أكتوبر ١٩٧٦م، أي لم تنته إلا بعد موت ماو في سبتمبر ١٩٧٦م. (المترجم)

١٠٣٢ في أبريل ١٩٨٦م، زار البابا يوحنا بولس الثاني أحدَ المعابد اليهودية في روما. كانت هذه هي المرَّة الأولى في التاريخ التي يعبر فيها رأسُ الكنيسة الكاثوليكية عتبةَ معبدٍ يهودي. وأُعلن في الفاتيكان أنَّ هذه الخطوة بمثابة مدّ يد لشعب ظلَّ يُتَّهم على مدى ألفيْ عام بقتل السيد المسيح. وقبل ذلك بسنوات، في ١٩٦٥م، أُعلن رسميًا خلال مجمع الفاتيكان الثاني في البيان المعروف باسم «في عصرنا» Nostra Aetate عن تبرئة اليهود من هذا الاتِّهام. وفي ١٩٨٥م زار البابا يوحنا بولس الثاني المغرب وألقى كلمة أمام ٨٠,٠٠٠ من الشباب المسلم عن «إلهنا الواحد ربِّ إبراهيم»، ولعلَّ هذه كانت حُجَّة قُدِّمت كتذكرة إلى اليهود أنفسهم. (أُنشئ ما يُعرف بالجيتو اليهودي الروماني في روما في القرن السادس عشر، تنفيذاً لأمر البابا بولس الرابع، ثم أُلغي لاحقًا بعد أكثر من ثلاثة قرون، في ١٨٧٠م).

١٠٣٩ من المهم لأي أُمَّة أن تسعى دائمًا في «طلب شيء ما». فلنأخذ الهند على سبيل المثال: أكَّد نهرو في الخمسينيات على شعار التصنيع، وفي منتصف الستينيات رُفِع شعار «الثورة الخضراء» (التنمية الزراعية)، وفي أوائل السبعينيات ظهر شعار «استئصال الفقر»، وفي منتصف الثمانينيات تبنَّى راجيف غاندي شعار التكنولوجيا (الحوسبة). صحيح أنَّك لن تُحقِّق كلَّ ما تريد، ولكن من ناحية ثانية، إذا لم تكن تريد أي شيء فلن تفعل أي شيء، وللأسف نجد هذا النوع من اللا مبالاة والكسل في بلاد كثيرة.

١٠٤٥ كتب القيصر الألماني ڤيلهلم الثاني، وكان رجلاً عاديًا جدًا ولا يملك مواهب خاصة، كتب هذا التعليق أسفل إحدى اللوحات: «هذا تذكير لشعوب أوروبا أن تنتبه إلى «ممتلكاتها المقدسة» قبل أن يداهمها الخطر من الشرق». حدث هذا قبل الثورة الروسية بوقت طويل. يكتب هرمان هيسه عن هذا في ١٩١٩م (في مقال عن دوستويڤسكي) ويقول إنَّ الإمبراطور شعر بخوف غامض من جماهير الشرق، والتي قد تتحرَّك ضد أوروبا. هذا «الخوف الغامض» تحقَّق بعد عدة سنوات.

١٠٥٢ طبقًا للبيانات التي أوردتها مجلة «يوميات البرازيل»، فإنَّ ثلث الديون الخارجية للبرازيل البالغة ١٠٠ مليار دولار، أي ٣٥ مليار دولار، هو فقط الذي استُخدم

بشكل فعَّال، بينما «الْتُهم» باقي الديون عبر آلية «خدمة القروض الأصلية» (نقلاً عن صحيفة «فيسنك» بتاريخ ١٤ أبريل ١٩٨٦م).

١١٠٧ من أكبر صور الإرهاب في القرن العشرين: النازية ومعسكرات الاعتقال السوفييتية (الجولاج).

١١١٣ ما نراه أحيانًا على أنَّه مرضٌ فردي هو في الحقيقة مرضٌ لعصرٍ أو مجتمعٍ.

١١١٥ حتى أسمى المؤسسات بنية وأهدافًا تهرَم بعد زمن معين وتتحجَّر وتفقد حياتها الجوَّانية، بل ومعناها الحقيقي والأصيل.

١١٢٧ العقل (أو الروح الإنسانية): هل هو الحاكم والمشرِّع للحياة أم مجرَّد مُفسرٍ لها؟

١١٢٨ هل القوانين تتعارض مع الحرية؟ وهل الأخلاق والقوانين تُقيِّد الحريةَ؟ وإذا أصبحت الحياة بلا قوانين، فهل ستبدأ العمل ضد ذاتها وتُدمِّر نفسها؟ هل لدينا خبرة بهذا الحال؟ وما الذي يقوله لنا هذا الحال؟

١١٤٦ ثمَّة دلالتان للتوجُّه الإسلامي نحو تحطيم الأصنام، وكلٌّ من الدلالتين وثيقة الصلة بالأخرى. الدلالة الأولى دلالةٌ حرفية؛ رفْض تجسيد الإله، ضد إنزاله إلى مجرَّد لوحة أو تمثال. والدلالة الأخرى هي رفض الكثير من الآلهة الصغيرة، كل من يدَّعي أنَّه معصوم، عليم، كبير، قائد فوق الجميع، فوق النقد، أبناء الله أو أبناء الزعماء، الزعماء، العظماء، إلخ. أبطل الإسلامُ هذا الحشدَ من «الآلهة الصغيرة» وأعلن: لا إله إلا الله. هاتان الدلالتان لتحطيم الأصنام من صلب العقيدة وفي علاقة مشتركة وتُكمِّل إحداهما الأخرى.

١١٦٦ هناك تشابهات كثيرة بين الستالينية والنازية، إلا أنَّ بينهما تشابهًا أكثر وضوحًا وأكثر أهمية من أوجه الشبه الأخرى: الفرد في كلا النظامين غير موجود ولا قيمة له. ومن هذا التماثل الجوهري انبثقت كلُّ التشابهات الأخرى.

١١٨٢ يُوضِّح الجدول التالي النزاع والسخط الاجتماعي في الدول التسع الأكثر تقدُّمًا في العالم في الفترة من ١٩٧٣م إلى ١٩٨٢م:

الدولة	مؤشر النزاع	التضخُّم	البطالة	السخط الاجتماعي
النمسا	١	٦,٣	٢	٨,٣
ألمانيا الغربية	٣	٩,٤	٤,٢	٩,١
اليابان	٦	٨,١	٢	١٠,١
السويد	٣	١٠,٩	١,٦	١٢,٥
فرنسا	١٦	١١,٣	٥,١	١٦,٤
الولايات المتحدة	٣٥	٩	٧,٧	١٦,٧
بريطانيا	٣٩	١٤,٩	٦,١	٢١
إسبانيا	٦٨	١٧,١	٦,٢	٢٣,٣
إيطاليا	١٠٠	١٧,٢	٧,٢	٢٤,٤

ملاحظات: مؤشِّر النزاع = العلاقة بين عدد أيام الإضراب وعدد الموظَّفين المشاركين في الإضراب (إيطاليا = ١٠٠)؛ السخط الاجتماعي = مجموع نسبة التضخُّم ونسبة البطالة.

المصدر: هذا الجدول وضعه عالم الاقتصاد الإيطالي باولو سيليس لابيني، نقلاً عن «الصحيفة الإعلامية الأسبوعية»، ١١ مايو ١٩٨٦م.

١١٨٣ باولو سيليس لابيني (انظر الجدول المذكور في الفقرة السابقة) هو عالم اقتصاد إيطالي ومؤلِّف كتاب «الطبقات الاجتماعية في الثمانينيات» أحد أكثر الكتب مبيعًا في إيطاليا في ١٩٨٦م. الأفكار الأساسية في هذا الكتاب:

(١) تقلَّصت نسب التفاوت الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تدريجيًا خلال القرنين الماضيين؛ ومن ثَمَّ لا يوجد استقطاب اجتماعي حتمي في المجتمع كما أعلن ماركس. وكذلك لم تحدث عملية إفقار للمجتمع (تحوُّله إلى طبقة عاملة)، بل العكس هو الذي حدث؛ فقد تقلَّصت الفروق الطبقية.

(٢) مشكلة الطبقية هي سمة مميِّزة للمجتمعات الأوروبية التي مرَّت بالنظام الإقطاعي. وفي الولايات المتحدة الأمريكية التي لم تمر بالنظام الإقطاعي («بل والتي لم يكن الدم فيها ذا لون واحد») لم تكن الانقسامات الطبقية لها ما للطبقية الأوروبية من دلالة. وفي الهند وبعضٍ الدول الآسيوية نشأ الانقسام الطبقي من نظام الطوائف الجماعية المنغلقة.

(٣) من السمات المميِّزة للتنمية التقلُّص الشديد في الطبقة الزراعية وصعود الطبقة المدنية، وكذلك زيادة عدد الموظَّفين والتناقص المستمر في عدد العُمَّال.

(٤) هناك ثورة دائمة، ولكنَّها ثورة في التعليم. يقول لابيني: «إن احتكار التعليم العالي كان العامل الأول في السيطرة على كافة فئات المجتمع».

(٥) يُلاحظ أنَّ الفارق بين أجر الموظَّفين وأجر العُمَّال يتقلَّص باستمرار؛ ففي بداية هذا القرن كانت النسبة في إيطاليا ٤ ١، وكانت في الولايات المتحدة الأمريكية ٣,٢ ١، واليوم (١٩٨٦م) النسبة هي ٢,١ ١ في إيطاليا، و٣,١ ١ في الولايات المتحدة الأمريكية [لصالح الموظف]. ويعتقد لابيني أنَّ التقديرات تقول إنَّ أجر العامل سيتجاوز أجر الموظَّف.

(٦) لم يعد هناك وجود لـ «مسألة الفلاحين» Peasant Question الخطيرة التي شغلت الأحزاب السياسية طويلاً قبل الحرب العالمية الثانية. وذلك ليس لأنَّ الظروف تحسَّنت بشكل ملحوظ، ولكن لأنَّ الفلاحين قد تلاشوا تقريبًا باعتبارهم طبقة. فمثلاً، في الولايات المتحدة اليوم تبلغ نسبة المزارعين المستقلين ٥,١٪ فقط من مجموع السكَّان (في ١٨٩٠م كانت النسبة ٧,٢٢٪)، وفي إيطاليا ٧.٦٪، وفي فرنسا ٦ ٢٪، وفي بريطانيا ٣,١٪، وفي اليونان لا تزال النسبة ٢٩٪، وفي الهند ٥٠٪، وفي مصر ٣٤٪. فهل سيحدث الشيء ذاته مع الطبقة العاملة (و«مسألة العُمَّال»)؟

(٧) الفروق الطبقية في المجتمعات المتقدمة جدًا والتي دخلت حقبة ما بعد الصناعة يُعبَّر عنها كفروق ثقافية. ويعتقد لابيني، بشكل عام، أنَّه حتى الصراع الطبقي كان وثيق الصلة بالسياسة لأنَّه كان وثيق الصلة بالثقافة. فهؤلاء الذين ألحُّوا إلى أبعد حدٍّ وعملوا في دفع الأمور في اتجاه التحوُّل الجذري كانوا مثقفين وليسوا عُمَّالاً

(٨) الطبقة العاملة تتغيَّر كميًا وكيفيًا، والتغيُّر الكيفي يحدث بشكل خاص تحت تأثير دخول عصر المعلومات وسيطرة النظام الآلي.

(٩) الفروق الأساسية في الولايات المتحدة الأمريكية ليست طبقية وإنَّما فروق عنصرية وعرقية. وهذه هي الصورة العرقية للولايات المتحدة في الثمانينيات: الأنجلو ساكسون الثلث، الهسبان [الناطقون بالإسبانية القادمون من أمريكا اللاتينية] الربع، السود ١٢٪، وثلث من فئات صغيرة مختلفة بدءًا من السلوفاكيين إلى القوميات الشرقية الكثيرة. بل إنَّ هناك أنواعًا بعينها من الجرائم يُحدَّد مرتكبُها على أساس عرقي.

(١٠) المبادئ الثلاثة للثورة الفرنسية، المساواة والحرية والإخاء، لا تزال واسعة الانتشار اليوم، فالمساواة والحرية موجودان في أساس كلِّ الطموحات والحركات السياسية الراهنة في العالم، بينما مبدأ الإخاء «يبدو مثيرًا للشفقة، وفي تعارض شديد مع المبدأين السابقين، ولا يمكن صياغته في شكل مؤسَّسي بسهولة». كما أنَّ التعايش بين مبدأي المساواة والحرية صعب لكنَّه ضروري، لأنَّه سرعان ما تترسَّخ في المجتمعات التي يوجد بها مساواة بدون حرية أشكالٌ مختلفة من الامتيازات والتفاوت لصالح أفراد بعينهم، كما أنَّ المشاهد الفجَّة للتفاوت وعدم المساواة الاقتصادية تؤدي إلى الديكتاتورية السياسية.

(١١) الصورة الاجتماعية في روسيا قبل الثورة كالتالي: ٨٠٪ فلاحون (بما في ذلك المزارعون الذين يملكون أراضيهم) Kulaks، ١٤٪ عُمَّال وحرفيون، ٦٪ بورجوازيون (تُجَّار ومُلاك أراضي وكبار الموظَّفين). وفي وضعٍ كهذا كانت المساواة، لا الحرية، هي الهدف الأول. ومع ذلك، فإنَّ قمع الحرية في الاتحاد السوڤييتي اليوم أصبح مشكلة، ليس فقط من الناحية السياسية وإنَّما أيضًا من الناحية الاقتصادية: فالتنمية قد توقَّفت، كما أنَّ «العجز في مجال الإبداع التكنولوجي هو نقطة الضعف الكارثية في الاتحاد السوڤييتي». وتقريبًا لا يوجد أي اختراع تقني صدَّره الاتحاد السوڤييتي إلى الغرب، والعكس هو القاعدة العامة. وخلال العقدين الماضيين يمكن ملاحظة ركود التنمية الاقتصادية في الاتحاد السوڤييتي. كما أنَّ المشكلة الأساسية هي طبقة «النومنكلاتورا» Nomenklatura الحاكمة، وهي النخبة الحاكمة في جهاز الدولة والحزب ورؤساء الشركات الكبرى

والأكاديميون. كما أنَّهم يتمتَّعون، جنبًا إلى جنب مع السلطة، بامتيازات مادية هائلة ولا يُبدون أي استعداد للتخلّي عنها. هذه الامتيازات المادية صمدت أمام كلِّ التغييرات السياسية والاقتصادية (ما يُطلق عليها الإصلاحات) في الاتحاد السوفييتي. ويُقدَّر عدد أعضاء هذه الطبقة الحاكمة بحوالي ٧٠٠,٠٠٠ عضواً. هذه هي أكبر قوة محافظة (قوة الحفاظ على الوضع كما هو).

(١٢) حقيقة صادمة: متوسّط الأعمار المتوقَّعة في الاتحاد السوفييتي في انخفاض، كما ارتفع معدل وفيات الأطفال حديثي الولادة في الفترة ما بين ١٩٦٥ و١٩٨١م من ٢٣ إلى ٢٨ لكلِّ ألف مولود.

(١٣) في الغرب، من بين مُلاك الشركات المساهمة هناك عدد كبير من المؤسَّسات العُمَّالية والنقابية. وبالإضافة إلى ذلك، هناك نموٌّ هائل ومتزايد في الشركات الصغيرة، والتي أثبتت نجاحها وكفاءتها وجذبت الاهتمام الذي كانت تتمتَّع به الشركات الكبرى المؤمَّمة التي كانت منتشرة بكثرة بعد الحرب مباشرة.

١١٨٩ أوضح إريك فروم في كتابه «الهروب من الحرية» أنَّ الديكتاتورية والاستبداد وحالة غياب الحرية عمومًا ليس لها أساس في المؤسسات الاجتماعية والسياسية فحسب، وإنَّما في الإنسان ذاته أيضًا، في بنية شخصيته. وبيَّن أنَّ الحرية ليست شيئًا مفهومًا بذاته أو يُدرك بسهولة على أنَّه ذو قيمة وأهمية، بل يحتاج الناس إلى من يأخذ بأيديهم أو يدعوهم إلى الحرية باعتبارها عقيدة حقيقية. فالحرية عند بعض الناس عبءٌ زائد، ولذلك يهربون من الحرية. ويُذكِّرنا فروم بألمانيا خلال فترة الثلاثينيات عندما «كان الملايين متحمسين للتنازل عن حريتهم بقدر ما كان آباؤهم يناضلون من أجلها» (الهروب من الحرية، ص ١٩).

١٢٠٣ هناك، في أساس تقدُّم الغرب وبنيته وقوته خلال القرون الخمسة الأخيرة، هناك ثقافة العمل، التي ظهرت في بداية هذه الحقبة التاريخية وظلَّت قيمة أساسية في نظر السواد الأعظم من الناس حتى الآن. وقد ظهرت مقترنة بتصور معين للزمن باعتباره شيئًا ذا قيمة لا يمكن إهداره وتبديده. منذ القرن السادس عشر، كانت الساعات في نورنبرغ تدقُّ كلّ ربع ساعة، وهو ما كان يعكس إحساسًا جديدًا بالزمن الذي يمرُّ ويحتاج إلى

استغلاله. وأصبحت القاعدة الأخلاقية الأولى هي العمل الكادح والأمين، والخطيئة الأولى هي الكسل والعمل غير المنتج الذي لا فائدة منه. وكان الاعتراض الأساسي على رجال الدين والرهبان هو أنَّهم غير منتجين. فما أصول هذه الروح الجديدة التي هيمنت فجأة على ملايين الناس؟ على الأرجح، ترجع هذه الأصول إلى الأخلاق البروتستانتية. ومع ذلك، وبصرف النظر عن مصدرها، هناك شيءٌ واحد مؤكَّد: إنَّها تنطوي على العامل الأساسي لتفوُّق الحضارة الغربية.

١٢١٤ يزعم الشيوعيون أنَّ الحريات التقليدية ذات طبيعة صورية فقط ولا قيمة لها. فهم يقولون: ما قيمة حرية العقيدة، أي الحق في الإيمان وفقًا لاختيارك الشخصي، عندما يتحرَّر الفرد من النزوع إلى الإيمان بشيء لا يمكن إثباته؟ أو يقولون: ما حرية التعبير هذه التي يُشاد بها كثيرًا إذا كان أكثر ما يُفكِّر فيه الإنسان ويقوله هو في الحقيقة ما يُفكِّر فيه الآخرون ويقولونه؟ أو يقولون: ماذا يعني لك أن تكون مُحرَّرًا من أنماط السلطة البرَّانية (الملوك والديكتاتورية والكنيسة) إذا كنتَ خاضعًا بشكل أكبر لأنماط مجهولة من السلطة مثل الرأي العام والصحافة؟ فهذه السلطات الجوَّانية لها نفوذ على الإنسان أكبر من السلطات البرَّانية، إلخ. وردِّي على هذا الكلام: أعطونا الكثير من هذه الحريات «الصورية» ولا تخافوا على صحتنا. فقد ثبت أنَّ هذا الاعتراض على صورية الحرية هو في الحقيقة تبرير لنظام حكم شمولي مستبد. لأنَّ هؤلاء الذين ثرثروا عن الحريات الصورية لم يُقدِّموا بدلاً منها حريات حقيقية، وإنَّما ألغوا هذه وتلك. لا زالت هذه اللعبة الكاذبة مستمرَّة وتُكرِّر نفسها -ويَاللدهشة!- بنجاح.

١٢١٦ جوهر الرأسمالية الحقيقية ليس الإنفاق، ومن ثمَّ ليس الرفاهية أو البذخ، وإنَّما هو التراكم، وبناءً على ذلك، الإنتاج الجديد المتزايد.

١٢٢١ في الأنظمة الاستبدادية التي تبقى وتستمر وحيث تتقلَّص احتمالات المقاومة وتغيير الأوضاع القائمة إلى الحدِّ الأدنى، يظهر الاستسلام، وبمرور الوقت يظهر قبول مثل هذه الحالة من الأمور والرضا بها. في بولندا في عام ١٩٨٥م لوحظ تحوُّل الناس عن «حركة تضامن» Solidarity (نقابة العُمَّال البولندية)، ليس لرفض الحركة بهذا الشكل،

ولكن بسبب فقدان الأمل، بعد عشر سنوات من المقاومة، في أن يتغيَّر أي شيء والخوف من أنَّ أي محاولة عنيفة لتغيير الأوضاع ستنتهي إلى تفاقم الأوضاع بشكل أكبر (الاحتلال السوفييتي المباشر على سبيل المثال، كما حدث في التشيك). فالطغاة لا يقنعون بغياب المقاومة، بل يسعون إلى التمجيد والتسبيح بحمدهم، وعادة ما ينجحون في هذا. ويُقدِّم التحليل النفسي التفسير التالي: تتحوَّل مشاعر الكراهية المكبوتة إلى استحسان وقبول، بل إلى عبادة عمياء. هذا المنطق المقلوب (المَرَضي) أوضحه أورويل في روايته «١٩٨٤»، كما كتب عنه إريك فروم في كتابه «الهروب من الحرية» بشكل مقنع للغاية.

١٢٢٤ يُثبت التنويم المغناطيسي والتقنيات المشابهة له كيف يمكننا أن نعايش أفكارًا ومشاعر وكأنَّها أفكارنا ومشاعرنا نحن، مع أنَّها مُوحَى بها وليس لها أساس موضوعي (مثلاً، يوحي المنوِّم للشخص الخاضع لعملية التنويم أن ثمرة البطاطا التي يمسكها بيده هي ثمرة أناناس، ثم يبدأ في أكلها مستمتعًا بمذاقها كما لو أنَّه يأكل أناناسة بالفعل). ويصبح التلفيزيون، من خلال التكرار المتواصل، شيئًا شبيهًا بهذا. فملايين المشاهدين يَقبلون بعض الآراء وكأنَّها آراؤهم هم، وكثيرًا ما تكون هذه الآراء ليس لها أساس من الصحة وغريبة عليهم تمامًا. وهذا هو التنويم الجماعي الذي يتحقَّق من خلال التكرار المتواصل لبعض الآراء والمواقف.

١٢٣٠ يقول إريك فروم في كتابه «الهروب من الحرية»: «يكون لحق التعبير عن الرأي قيمةٌ فقط إذا كنَّا قادرين على أن يكون لنا رأينا الخاص». فكرة جميلة، ولكن هل هي صحيحة؟

هل يمكن المساواة بين حرية التعبير عن رأي «مفروض» في الديمقراطيات الغربية وحظر التعبير عن أي رأي مُخالف في دول الكتلة الاشتراكية؟ وحتى لو كان يبدو أنَّه لا يوجد فارق بين الحالتين من الناحية النظرية، فالفارق العملي كبير، لا سيّما وأنَّ الرأي المفروض لا يكون مفروضًا بشكل كامل. وحتى في حالة قبول رأي ما، فإنَّ الشخص نفسه يكون قد أسهم بعض الشيء في هذا الرأي، أي صبغه بشخصيته، حتى ولو بدرجة معينة. إذن، من الخطأ المساواة بين موقف المواطن في مجتمع ديمقراطي، حيث يتعرَّض لتأثير الإعلانات

التجارية والتليفيزيون وآلة الدعاية المنحازة والصحافة ممَّا يدفعه إلى أن يقبل (في الحقيقة هي تفرض) نمطًا محدَّدًا من التفكير، وموقف مواطن في دولة شمولية استبدادية، حيث يُقدَّم رأيٌ واحد وتُضطَّهد كلُّ الآراء الأخرى ولا يمكن تحمُّلها. كما أنَّ التعدُّدية ذاتها، والتي هي سمة مميِّزة للديمقراطية، وحريةَ التفكير بشكل مختلف (وهو المفروض نظريًا، ولكنَّه يُعاق بالكثير من القيود الحقيقية)، يضعان حدًا بين هذين الموقفين المختلفين اللذيْن يمكن للمرء أن يجد نفسه في أحدهما.

إنَّ جميع أنماط الثقافة والتربية هي بمعنى ما تقييد للعفوية والحرية: هي طلب أن تفعل شيئًا ما (لأنَّه خير وجميل) أو ألا تفعله (لأنَّه شر وقبيح). وبنظرة من الخارج، تبدو الثقافة أحد أشكال القمع وفي تعارض مع الحرية، وهل تتوافق عملية فرض سلوك معين مع الحرية؟ وهل كلُّ رأي (أو سلوك) مفروض من خارج الإنسان هو تقييد للحرية؟ على سبيل المثال، هل إلحاح الوالدين على الطفل بأن يغسل أسنانه أو أن يُوقِّر الكبار هو اعتداء على حرية الطفل؟

إنَّ إعاقة التعبير عن الرأي في حياة الفرد أو المجتمع لفترة طويلة يؤدِّي إلى تلاشي الرأي الخاص. كما أنَّ الناس سيتجنَّبون تطوير الأفكار والمشاعر التي لن يستطيعوا التعبير عنها، أو التي ستمثِّل عبئًا عليهم، بل وخطرًا.

أخيرًا، من الممكن تصوُّر وجود بشر ليس لهم رأي، أمَّا إلى أي درجة لا يزالون بشرًا فهذه مسألة أخرى.

١٢٣٧ عملية التكيُّف هي أكبر سلب لـ «ذات» الإنسان. إنَّها بمثابة إكراه المرء على أن يريد ما يجب عليه أن يريده، أو أن يقبل شيئًا على أنَّه خير وجميل لأنَّه لا بدَّ له أن يعتبره كذلك، وأخيرًا، أو أن يقبل رأى الآخرين وذوقهم على أنَّه رأيه وذوقه هو. وطالما أنَّك تُعبِّر عن رأي ما وأنت على وعي أنَّه رأي شخص آخر وأنَّه مفروض عليك، فما يزال فيك أمل. إنَّ الهيمنة تكون في أكمل صورها عندما لا تلاحظ أنَّ هذه آراء الآخرين وأذواقهم، أو عندما تبدأ في خداع نفسك بأنَّها آراؤك وأذواقك أنت.

١٢٦٦ كتبتُ في موضع ما: «لا يمكن ترجمة (هاملت) إلى لغة العلم، أو. (*)» إلا أنَّه كانت هناك محاولات للقيام بذلك. فقد حاول هيجل عمل تحليل فلسفي لهاملت وأنتيجون، وكان يريد عبر هذا التأويل أن يُبيِّن كيف أنَّ الأفكار في هذه الأعمال الشعرية متطابقة مع الأفكار الموجودة في فلسفته هو. أمّا ما مدى نجاح هذا التحليل فهذه مسألة أخرى. بالإضافة إلى ذلك، فليس من الصعب إثبات أنَّ اختزال عمل أدبي في مجرَّد فكرة أو تصور عقلي يؤدي إلى القضاء على الأدب (والفن عمومًا)، وبالتالي يؤدي إلى هيمنة العقل والفكر. وهذا كلُّه، في النهاية، جزءٌ لا يتجزأ من الروح السلطوية.

١٢٦٩ ليس كلُّ ما يكتبه الماركسي ينتمي إلى الفكر الماركسي، ولا كلُّ من يعتقد أنَّه ماركسي هو ماركسي بالفعل. وإذا قارنَّا بين ما كتبه وقاله الماركسيون في هذا القرن حول بعض القضايا المهمة سنجد أنَّ الاختلافات بينهم أكثر من التشابهات. عمومًا، نحن في الغالب ضحايا الفكرة الخاطئة التي تقول إنَّ المواقف الذاتية تتطابق وتتفق مع المواقف الموضوعية، فهذا يحدث أقل بكثير ممَّا نعتقد.

١٢٧٩ أربكت قراءةُ الروايات عقلَ دون كيشوت، فأصبح لا يستطيع أن يُفرِّق بين الخيال والواقع، الحقيقة والقصة، الحلم واليقظة، الماضي والحاضر، وأخيرًا، ما هو مكتوب في صفحات الكتب وما هو حقيقي. إلا أنَّه كان وهمًا من نوع نبيل.

١٣٢٧ في إنجلترا: ثورة صناعية، في فرنسا: ثورة سياسية، في ألمانيا: ثورة فلسفية. ما قام به الإنجليز والفرنسيون في ساحة الاقتصاد والسياسة، قام به الألمان في ساحة الفكر.

١٣٨٢ هيأ موليير للمواجهة والصدام مع الطبقة الحاكمة في فرنسا من خلال تهكُّمه الحاد على عيوبهم قبل الثورة الفرنسية. لم تكن الثورة هي التي خلقت موليير، وإنَّما موليير هو الذي خلق الثورة («في البدء كانت الكلمة»).

١٤٢٢ يُعبِّر هيرمان هيسه بوضوح عن رؤيته للتاريخ عندما يضع هذا الرأي على لسان تيجولاريوس في رواية «لعبة الكريَّات الزجاجية»، فالتاريخ في رأيه «يتَّصف في الوقت

---

(١) وردت هذه العبارة في كتاب «الإسلام بين الشرق الغرب»، ترجمة محمد يوسف عدس، دار الشروق، ٢٠١٠، ص١٤٧ (المترجم).

ذاته بالابتذال والشيطانية، بالفظاعة والملل، حتى إنَّه لا يمكن فهم كيف يمكن لإنسان أن يشتغل به. ولم يكن موضوع التاريخ إلا الأنانية البشرية والصراع الأزلي الدائم من أجل السلطة، السلطة المادية الوحشية البهيمية. التاريخ قصة لا نهاية لها لبطش الأقوياء بالضعفاء. سباقٌ مع الزمن، سباقٌ من أجل المكسب والسلطة والثروة. أمَّا العمل الفكري، والعمل الثقافي، والعمل الفني، فهي أعمالٌ على العكس من ذلك تمامًا، إنَّها تُمثِّل تحرُّر الإنسان من عبوديته للزمن إلى مستوى آخر، إلى ما هو أبدي وخالد وإلهي، إلى ما هو لا تاريخي تمامًا، بل ما هو ضد التاريخ».

١٤٢٨ ما التاريخ الإنساني؟ هل هو انتقال دائم لمركز الجاذبية؟ ألسنا الآن على أعتاب انتقال من هذا النوع؟

١٤٣٤ «في البدء كانت الكلمة»، وقد كان الأمر هكذا دائمًا: فالثورة الفرنسية (١٧٨٩م) كانت قد سبقتها «الثورة الفلسفية». فقد رحل داڤيد هيوم في ١٧٧٦م، ورحل چان چاك روسّو في ١٧٧٨م، واكتملت طباعة «الموسوعة» (التي شارك فيها ديدرو ودالامبير، وغيرهم) في ١٧٨٠م، وظهر كتاب كانط «نقد العقل الخالص» في ١٧٨١م. فالأحداث السياسية الكبرى التي غيَّرت العالم والتي بدأت مع الثورة الفرنسية، هذه الأحداث سبقها الفكر الإنساني.

١٤٥١ كان الموقف في إيطاليا (خصوصًا فلورنسا) عند نهاية القرن الثالث عشر كالتالي: «نسي البابوات والأباطرة منذ زمن طويل الأهداف العظمى التي كانت تُحرِّك أسلافَهم. وأصبحت الدوافع الوحيدة لكلٍّ تصرفاتهم هي الخيلاء والتعطُّش للسلطة والثروة. توقَّفت الكنيسة عن الدفاع عن المظلومين منذ عهد بعيد بل أصبحت هي من يظلم الناس. كما سيطرت على المحاكم الرشاوى وقوانين الأقوياء، وانغمس رجال الدين في الشهوات والفسق، بل كان الكهنة يعودون من العربدة الليلية إلى الكنيسة مباشرة ليؤدُّوا الطقوس الدينية» (چون كوهين، تاريخ الأدب الغربي).

١٤٦١ كان ما اكتشفه كوبرنيكوس بمثابة حدث ثقافي تاريخي بقدر ما كان حدثًا فلكيًا. فلم يكن نقطةَ تحوُّل في مجال علم الفلك فحسب، وإنَّما في الثقافة كذلك. فقد أثبت كوبرنيكوس للإنسان أنَّ الأرض ليست هي مركز الكون، وحتى هو نفسه (الإنسان)

ليس مركز الكون. ترك هذا الإدراك أثرًا على كرامة الإنسان، وعلى غطرسته كذلك. وعلى هذا الأساس، وُلد إحساسٌ جديد بالعالم، ومن ثمَّ نشأت ثقافة جديدة كذلك، ممَّا أدى إلى ميلاد حياة مختَلفة وتصوُّرات أخلاقية مختلفة وآراء سياسية مختلفة.

١٤٦٥ تاريخ معاداة اليهود في ألمانيا قديمٌ للغاية. فمنذ بدايات القرن السادس عشر الميلادي كتب الألمانيان يوحنا ريوشلين (١٤٥٥-١٥٢٢م) وأولريش ڤون هوتن (١٤٨٨-١٥٢٣م)، وهما من أشهر رواد النزعة الإنسانية، كتبا أبحاثًا وكُتيِّبات لاذعة مناهضة لليهود ودافعوا عن المرسوم الإمبراطوري القاضي بمصادرة كل الكتب اليهوديَّة وإعدامها. وفي هذا الصراع، انقسمت الحركة الفكرية في ألمانيا إلى معسكرين، فقد ساندت جامعة كولونيا الحملة ضد المخطوطات اليهودية، أمَّا جامعة إرفورت فقد اتخَّذت موقف الدفاع عن الحرية ومناهضة أي شكل من أشكال الاضطهاد. حدث هذا قبل ظهور هتلر بأكثر من أربعة قرون.

١٤٧١ كان اليهود خلال العصور الوسطى كلِّها موضع كراهية قاسية من المجتمع المسيحي، وكانوا ممنوعين من حق المشاركة في الحياة العامة، ولم يبقَ لهم شيءٌ آخر إلا أن يُكرِّسوا كلَّ اهتمامهم تجاه كسب أكبر قدر ممكن من الأموال. وبهذه الطريقة، أصبحت التجارة والأعمال المالية هي المهنة الأساسية لليهود.

١٤٧٤ تناول شكسبير في مسرحية «تاجر البندقية» القضية القائمة منذ قرون في الغرب، قضية معاداة اليهود. ومن خلال شخصية شيلوك القوية، يُصوِّر شكسبير اليهودي كما كان يراه في ذلك الوقت: عالمٌ بالكتاب المقدَّس، حريصٌ على جمع الثروة والمال، لا أمان له، سريع التقلُّب، لديه تقدير صوري للأعراف والتقاليد، يفهم القانون بشكل صوري (أي يتبع القانون بحروفه لا بروحه)، ولكنَّه في الوقت ذاته: متفان ومثابر ومجتهد. يُوجِّه شيلوك كلمة إلى المسيحيين قائلاً: «اللؤم الذي تعلَّمتُه منكم سوفَ أوقعه بكم، بل ليس لي إلا التفوُّق فيه» (الفصل الثالث، المشهد الأول).

١٤٨٢ في مسرحية شكسبير التراجيدية «يوليوس قيصر»، نجد أنَّ القيصر شخصية لا قيمة لها سوى أنَّها تحمل مبدأ مكتوبٌ له النصر. والعكس بالعكس، حيث نجد أنَّ بروتوس رجلٌ عظيم، وهو «الروماني الأكثر نُبلاً»، ولكنَّه يُمثِّل تصوُّرًا قُدِّر له أن يُهزم في

هذه المرحلة التاريخية. لأنَّه في ذلك الوقت، كان الفكر الجمهوري المُمثِّل للشعب قد انتهى بالفعل، وكان الناس مستعدِّين للعبودية ولم يكونوا يتخيَّلون روما بدون أباطرة، بصرف النظر عن اسم القيصر (فقد طلب الناس من بروتوس أن يكون القيصر).

١٤٨٩ الورقة الشهيرة التي كتبها چون ميلتون عن حرية الصحافة(*)، والتي ظهرت عام ١٦٤٤م، ما تزال مهمة حتى اليوم. فهو صاحب فكرة أنَّ الرقابة تعني أنَّ الرقيب أذكي من الكاتب، وهو أمر غير معقول ومُثير للضحك. فالرقابة بمثابة إهانة للكاتب والقُرَّاء، وللرقيب نفسه أيضًا.

١٤٩٦ وقعت الثورة الإنجليزية تحت تأثير فكرتين متناقضتين، وهذا أمر عادي في إنجلترا. فقد أثبتت قداسةَ الحكم المَلَكي، وأثبتت في الوقت ذاته سلطةَ الشعب المطلقة، وللوهلة الأولى يبدو أنَّ الفكرتين متعارضتان. إلا أنَّنا نجد أوضح تفسير للفكرة الأولى في كتاب توماس هوبز «اللڤياثان»، ونجد أوضح تفسير للفكرة الثانية في مناقشات داڤيد هيوم حول العقل والحكومة المدنية.

١٥٠٤ اقرأ مسرحيات موليير الكوميدية وستحصل على صورة للحالة الروحية والأخلاقية للمجتمع الفرنسي خلال القرن السابع عشر. في كتاب «تاريخ الأدب الغربي» يصف چون كوهين الوضع في فرنسا بعد موت لويس الرابع عشر (في أوائل القرن السابع عشر) كالتالي: «أصبح البحث عن اللذة هو المُحرِّك الوحيد في حياة الطبقات العليا. أصبح الدين موضع سخرية وتهكُّم، ولم يعد للأسرة وجود، كما أصبح الحب والإخلاص بين الزوجين فضائل دونية. وبالإضافة إلى هذا كلِّه، ظلَّت الطبقة الأرستقراطية الساقطة تتمتَّع بامتيازات وحقوق استثنائية، وكانت السلطة السياسية

(*) كتب الشاعر الإنجليزي چون ميلتون (١٦٠٨-١٦٧٤م)، مؤلِّف ملحمة «الفردوس المفقود»، كتب في ٢٣ نوفمبر ١٦٤٤م، في ذروة الحرب الأهلية في إنجلترا، ورقة بعنوان «أيروباجيتيكا: من أجل حرية النشر بدون رقابة» مُوجَّهة إلى البرلمان الإنجليزي من أجل الدفاع عن حرية التعبير والرأي والنشر، وبسبب تأثيرها الواسع أصبحت هذه الورقة بمثابة مانيفستو الدفاع عن الحق في التعبير وحرية الرأي وإلغاء الرقابة عن الصحافة. العنوان الأصلي للورقة هو: Areopagitica; A speech of Mr. John Milton for the Liberty of Unlicenc'd Printing, to the Parlament of England. (المترجم).

والدينية للبلاد في أيديهم، وظلُّوا ينظرون باحتقار إلى بقية السكَّان، رافعين من شأن ميزتهم الوحيدة: نَسَبُهم. كما أنَّ السلطة التشريعية وسلطة الدولة كانتا تعملان على خدمتهم ودعم وضعهم المتميِّز. وليس من الضروري الإشارة إلى أنَّ الطبقة الأرستقراطية لم تفكِّر قط في استخدام هذه الامتيازات في تحقيق مصالح الدولة. ونادراً ما كان يذهب كبار الضباط إلى مواقعهم العسكرية، بل كانوا يقضون معظم أوقاتهم في باريس. كما أنَّ مُلاك الأراضي كانوا يُعربدون في باريس متجاهلين ممتلكاتهم في المقاطعات. وكذلك لم يكن الأساقفة بعيدين عن هذه الحال، فقد كانوا يقضون الجزء الأكبر من العام خارج أبرشياتهم. وهكذا كانت الدولة بدون كبار موظَّفيها، فقد كانوا يستمتعون بالتبذير والعربدة في باريس».

١٥٠٥ لا تعتمد نتائج أفعالنا كثيراً على نوايانا. فمثلاً، كان چان چاك روسّو ضد الثورة والعنف بكلِّ وضوح، إلا أنَّ كتابه «العقد الاجتماعي» أصبح إنجيل الحركة الثورية، «وخلُص الزعماء الثوريون أنفسُهم من أفكار روسّو إلى نهاية مرعبة» كما يقول جراهام جراي.

١٥٠٦ صاغ چان چاك روسّو شكلاً من الدين النظري «الرسمي» بناءً على نظريته في «العقد الاجتماعي»، وتضمَّن هذا الدين مبدأين أساسيين: الإيمان بالله، والإيمان بالآخرة حيث يوجد ثواب للأخيار وعقاب للأشرار. الفكر الاجتماعي لروسّو غيَّر العالم، أمَّا دينُه فسرعان ما طواه النسيان، لأنَّه دينٌ مُصطنع.

١٥١٧ السمة الأساسية للنظام الرأسمالي هي المنافسة الحرة في الموهبة والقدرات الشخصية. ومن هذه السمة تنشأ جميع الجوانب الإنسانية الحسنة والسيئة للرأسمالية. يُعبِّر بومارشيه(*) عن هذا بشكل طريف من خلال شخصية فيجارو، حيث يقول: «يُزعجني الناس في عملي، وأنا أنتقم منهم بأن أزعجهم في أعمالهم. وهذا هو ما يفعله الجميع. حسنًا، وهل يمكن أن يكون الأمر غير ذلك؟ أمامك حشد من الناس، كلٌّ واحد يريد أن

(*) بيير بومارشيه Pierre Beaumarchais (١٧٣٢ - ١٧٩٩م) كاتب مسرحي فرنسي، كتب المسرحيتين الشهيرتين «حلاق إشبيلية» و«زواج فيجارو»، اللتين استلهمهما الكثير من الموسيقيين في أعمال أوبرالية، أشهرهم موزار في أوبرا «زواج فيجارو»، وچيوڤاني باسيليو في أوبرا «حلاق إشبيلية». (المترجم)

يلحق بالآخر، يندفعون ويتدافعون ويُعطِّلون بعضهم البعض ويلعن كلٌّ منهم الآخر، من يفعل ذلك ينجح، ويبقى الآخرون يتصارعون. وهكذا الأمر دائمًا» (مسرحية «زواج فيجارو»).

١٥١٨ أعاقت حربُ الثلاثين عامًا(*) نهضةَ ألمانيا. كتب معاصرو تلك الحرب عن الفوضى وحالة الانحطاط الروحي الشاملة التي صبغت النصف الثاني من القرن السابع عشر في هذا البلد. ولم يبدأ الإصلاح والتعافي إلا في أوائل القرن الثامن عشر مع يقظة الوعي الشعبي وإحياء التراث الألماني ومقاومة التأثيرات الأجنبية. كلُّ نهضة تبدأ مع الشعور بتقدير الذات، وإذا كان هذا الشعور حقيقيًا فإنّه لا ينطوي ضمنيًا على القطيعة مع بقية العالم ورفض أي شكل من أشكال التواصل. إنَّه يعني اختيار الطريق الخاص وفي الوقت ذاته عملية تواصل متبادل مع بقية العالم. هذه هي النهضة الحقيقية.

١٥٢٢ يوجد في العالم نموذجان أساسيان لمكافحة المخدرات: نموذج إعادة التأهيل والنموذج الجنائي. في نموذج إعادة التأهيل، تحدث عملية تعليم وتهذيب من جديد للمجرم (الذي قد يكون الزارع أو المنتج أو الموزِّع أو المستهلك للمخدرات)، وفي النموذج الجنائي يُعاقَب المجرم (وبقسوة شديدة في بعض الدول). ساد النموذج الأول نظريًا وعمليًا لمدة طويلة، ولكن كانت النتائج ضعيفة جدًا. مؤخّرًا، يمكن ملاحظة انتشار المسلك العقابي في كلِّ مكان في العالم. والآن يؤيد مجموعة من المؤلِّفين الأمريكيين المعروف عنهم أنَّهم ليبراليون تجريمَ حتى مجرد الاشتباه في تعاطي المخدرات. ويعتبر البعضُ أنَّ هذا التغيُّر بمثابة اعتراف المجتمع بالهزيمة في هذه المعركة. وبشكل عام، فالدول المتخلِّفة هي الدول المنتجة في المقام الأول، والدول المتقدمة هي الدول المستهلكة، ومن هنا ينشأ الاختلاف في النظر إلى للمشكلة.

(*) «حرب الثلاثين عامًا» هي سلسلة من الحروب والصراعات الدامية التي مزَّقت أوروبا خلال الفترة من ١٦١٨م إلى ١٦٤٨م، وقد انتشرت في وسط أوروبا، خاصة أراضي ألمانيا الحالية، ولكن اشتركت فيها معظم القوى الأوروبية الموجودة حينذاك عدا إنجلترا وروسيا. بدأت الحرب في البداية كصراع بين الكاثوليك والبروتستانت ثم تحوَّلت إلى صراع سياسي بين فرنسا والنمسا من أجل السيطرة على الدول الأخرى، وهو ما يراه البعض أنَّه الدافع الحقيقي لهذه الحرب. (المترجم)

١٥٣٢ من الجدير بالملاحظة أنَّ كلمات كارل مور (في مسرحية «اللصوص» لفريدريك شيلر) كانت أكثر إقناعًا وقوة عندما كان يتحدَّث عن الإطاحة بالنظام القديم من كلماته عندما كان يتحدّث عن إقامة النظام الجديد. عندما ظهر كارل مور في دور الواعظ المبشِّر بالمُثُل العليا، تحوَّلت كلماته إلى أحلام مُبهمة.

١٥٣٣ لننتبهْ إلى الحقائق التالية: انتهت الأفكار الحرة التي كان ينادي بها «مُفكِّرو الموسوعة»(*) encyclopedists إلى ثورة في فرنسا، وإلى أعمال فلسفية وفنية عظمى في ألمانيا. أي انتهت في حالة فرنسا إلى التطبيق، وفي حالة ألمانيا انتهت إلى النظرية.

١٥٣٥ لم يكن جوته مؤيدًا للانقلابات العنيفة، وقد كتب في مكان ما أنَّه ينبغي على الشعب أن يلجأ إلى «الضغط» وليس «التعسُّف».

١٥٣٧ أدَّت الثورة الفرنسية وأفكار الموسوعة إلى خيبة أمل مزدوجة في مجتمعِ بداية القرن التاسع عشر: أولاً، خيبة أمل في قدرة العقل الإنساني، وثانيًا، خيبة أمل في النتائج العملية للثورة الاجتماعية. فقد اقتنع الناس أنَّه لا الثورة ولا العقل قد حقَّقا وعودهما: فالعقل لم يفتح مسارًا لظهور المجتمع المثالي، والثورة لم تُرسِّخ مبادئ الحرية والمساواة والإخاء في العالم. وكان رد الفعل على هذا هو ظهور الحركة الرومانتيكية.

١٥٣٨ رسَّخت النزعة العقلانية لنزعة دوغماطيقية خاصة بها بشكل غير متوقَّع على الإطلاق، لأنَّها كانت تحارب ضد كافة أشكال التعصُّب العقدي الدوغماطيقية Dogma-tism، ولم تكن أقلَّ من دوغماطيقية الكنيسة. كتب شخصٌ ما مازحًا أنَّه كما كان لويس الرابع عشر يأمر بتقليم الأشجار وتهذيبها في حديقة ڤيرساي، وبهذا يكون قد أخضع الطبيعة للقوانين والنظام، كذلك فإنَّ فلاسفة الموسوعة الفرنسيين قلَّموا وهذَّبوا الحقائق التاريخية لتتلاءم مع بنية نظرياتهم وحدودها.

(*) مُفكِّرو الموسوعة encyclopedists هم مجموعة من المفكِّرين والفلاسفة الذين قاموا في القرن الثامن عشر في فرنسا بكتابة ما عُرف باسم «الموسوعة، أو القاموس المنهجي للعلوم والفنون والحِرَف» تحت إشراف ديدرو ودالامبير، وشارك فيها أكثر من مائة مفكِّر وفيلسوف، مثل: ڤولتير وچان چاكَ روسو وهولباخ وديدرو ودالامبير، حيث دعوا إلى العقلانية والتنوير والفكر العلماني والتسامح وتقدم العلم، إلخ. (المترجم)

١٥٤٠ النوايا والمشاعر الخاصة ليس لها أي تأثير على عالم السياسة. كان الطاغية مترنيخ وبعض الأعضاء الآخرين في التحالف المقدس المعروفين بسياساتهم الوحشية، كانوا ينتمون للنزعة الرومانتيكية. أيقظ الرومانتيكيون الاهتمامَ بالماضي والتاريخ، ومن ثمَّ فقد أثاروا -دون أن يقصدوا- تطور الواقعية، أي وضعوا مقدِّمات التحول نحو الواقعية.

١٥٤٢ مع مطلع القرن التاسع عشر، سادت في إنجلترا حالة من الفقر العام بسبب الاضطرابات الاقتصادية الناتجة عن حروب نابليون. ذكر أحد المعاصرين لتلك الفترة أنَّ معظم سُكَّان مانشستر عاشوا في ملاجئ طينية، ولكي يَدخل المرء الملجأ كان عليه أن يهبط عدَّة درجات في الأرض. في هذه الحُفَر كانت هناك بركٌ صغيرة دائمة، وكانت الأرضية الموحلة تنضح دائمًا بالرطوبة، وكانت تملأ الجوَّ رائحةٌ نتنة. ورغم ذلك، عاشت عائلات بأكملها في هذه الجحور البائسة داخل الأرض؛ وكانوا ينامون أحدهم بجوار الآخر على الأرضية المبلَّلة القذرة (چون كوهين، تاريخ الأدب الغربي، ص ٣٤١).

١٥٤٥ تُوضِّح حالة اللورد بايرون إلى أي درجة كانت رؤية الرومانتيكيين للواقع بائسة وهزيلة. فقد نظر بايرون إلى اليونان في ذلك الوقت باعتبارها «الزعيم الروحي للبشر». وقد ثبُت أنَّ هذا لم يكن له أي علاقة بالواقع. كان بايرون شاعرًا عظيمًا، ولكنَّه لم يكن سياسيًا بأي درجة. الخيال شيءٌ ضروري للشعر، لكنَّه يكون وبالاً في السياسة.

١٥٤٦ رؤيتان مختلفتان للحرية: بالنسبة للعقلانيين «الحرية هي الحق في أن تفعل ما يسمح به القانون» حسب قول مونتسيكيو، وبالنسبة للرومانتيكيين هي التحرر من جميع القوانين والقيود (مثلاً، الحرية التي تسود في قبيلة تحيا في البرية، أو حرية راهب يحيا تحت جناح الطبيعة). هذا الشكل الأخير من الحرية عبّر عنه چان چاك روسّو -ومَن غيره؟- في رواية «چولي أو هيلواز الجديدة».

١٥٤٩ يعيش الذئب في قطيع، ويعيش الأسد منفردًا، فماذا عن الإنسان؟

١٥٥٧ رغم أنَّ الحضارة الصناعية كانت ذات صلة وثيقة بالفلسفات الجديدة العقلانية والمادية وبالتقدم العلمي، إلا أنَّها أكَّدت على الروح الإنسانية وعززت من وجود الإنسان

باعتباره كائنًا روحيًا. إنَّ سيطرة الآلات، التي هي منتجاتٌ للعقل، ترمز بشكل مثير إلى سيطرة الوعي الإنساني على المادة.

١٥٥٨ تُنتج الرأسماليةُ ثروةً هائلة، بفضل الإنتاج الآلي (أو الثورة التكنولوجية المستمرة)، ولكنَّها في الوقت ذاته تطرح أيضًا مشكلة توزيع هذه الثروة التي شارك في إنتاجها كلٌّ من الرأسماليين والعُمَّال. كيف يمكن تقسيم هذه الثروة بينهم؟ في الأصل، كانت هاتان الفئتان في تعارض مع بعضهما البعض. وكان على الرأسمالي أن يعتمد على زيادة الأرباح، ولم يكن يستطيع أن يفعل هذا، كما يقول ماركس، إلا عبر تقليص الأجور، ومن ثمَّ عبر الاستغلال. بعد ذلك بفترة طويلة، تبيَّن أنَّ هذه العلاقة أعقد من ذلك بكثير، وأنَّ إفقار الطبقة العاملة ليس أمرًا حتميًا وليس الطريق الوحيد لنمو الرأسمالية.

١٥٦٣ أحيانًا يكون لديَّ انطباع بأنَّ الأفكار الجديدة كلَّها تقريبًا التي اشتُهر بها القرن الجديد قد وُلدت في إنجلترا، وقَبِلَتْ فرنسا هذه الأفكار وحوَّلتها إلى برنامج تطبيقي، ثمَّ سلَّمتها إلى أوروبا.

١٥٦٦ كانت إنجلترا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر مثالاً للاستغلال الاقتصادي والطغيان السياسي، وقد «سجَّل» الشعر الإنجليزي حينذاك هذه الحالة. يرسم الشاعر إبنزر إليوت(*) صورًا مُروِّعة مثل: تردِّي أحوال الأسر الفقيرة وبيع ممتلكاتها الهزيلة بالمزاد العلني، إدمان ربِّ الأسرة للخمور وسقوطه في حالة من اليأس، الأم التي تقتل طفلها الجائع حين أُصيبت باضطراب نفسي، الفتاة التي تُسلِّم نفسها لممارسة البغاء بسبب الفقر المُدقع. وتنتهي هذه الصور الكئيبة إلى صبِّ اللعنات على الأثرياء، وفي قصيدة الشاعر توماس هود(**) «أغنية القميص» التي كتبها في ١٨٤٤م تقول سيدةٌ تعمل

(*) إبنزر إليوت Ebenezer Elliott (١٧٨١ - ١٨٤٩م) شاعر إنجليزي اشتُهر بدفاعه عن الفقراء وهجومه على ضريبة القمح التي فرضتها الحكومة الإنجليزية، وأشهر ما كتب ديوان «قصائد قانون القمح» (١٨٣١م). (المراجع)

(**) توماس هود (١٧٩٩-١٨٤٥م) شاعر إنجليزي وصحفي مشهور بالسخرية، وكتب القصيدة المذكورة عام ١٨٤٣م دون توقيع ونشرها في مجلة «بنش» (اللكمة). (المراجع)

في الخياطة بعد أن هدَّها العمل والفقر: «يا إلهي! ذلك الخبزُ باهظ الثمن. ومَن هو من لحمٍ ودمٍ بخسُ الثمن! اعملي! اعملي! اعملي منذ أن يصيح الديك غيرَ مكترث. واعملي واعملي حتى تلمع النجومُ وتظهر عبر السقف المتصدِّع! هذا الذي سيرتدي هذا القميص لن يعرف الثمنَ المدفوعَ فيه». هذه الحالة صوَّرتها بدقّة وشمول الرواياتُ الواقعيةُ في إنجلترا وأوروبا خلال القرن التاسع عشر (تشارلز ديكنز ووليم ثاكري في إنجلترا، بلزاك وإميل زولا فر فرنسا).

١٥٧٨ في دنيا الفقراء الذين يقصر دخلهم عن الوفاء بحاجاتهم الأساسية، خاصة ربَّات البيوت اللاتي يكسب أزواجهن القليل، تتحوَّل حياة المرء بأسرها إلى «مُهمّة حسابية أبدية» عبر الحساب المتواصل لكيفية الموازنة بين الدخل والمصروف.

١٥٨٠ السؤال: هل ينبغي تغيير المؤسَّسات الاجتماعية أم القلوب الإنسانية؟ الإجابة الصحيحة الوحيدة: كلاهما. ولكن بأيِّهما نبدأ؟ القلب بالطبع، إن أمكن، وإذا وجدتَ إلى هذا سبيًلا.

١٥٨٩ مؤشِّر علمي يُوضِّح الفرق بين الشمال والجنوب: تستثمر سويسرا ٣٦١ دولار سنويًا لكلِّ مواطن في مجال البحث والتطوير، وتستثمر باكستان ٤٩, ٠ دولار فقط. هذه الحقيقة تقول كلَّ شيء وتُفسر كلَّ شيء. (المصدر: صحيفة بولوتيكا، بلغراد، ٢٢ يوليو ١٩٨٦م).

١٥٩٣ الفرنسي شارل فورييه (١٧٧٢-١٨٣٧م) ذو الأفكار الطوباوية هو صاحب تعبير «الإنتاج السلبي» ويقصد به إنتاج السلع أو الخدمات التي لا تُستخدم في إشباع الحاجات الطبيعية والمباحة أو المقبولة. ليس كلُّ إنتاجٍ مفيدًا.

١٥٩٨ المنافسة بين الشركات هي شكل جديد من «حرب الجميع ضد الجميع»، بكلِّ ما تعنيه كلمة حرب.

١٦٠١ . مهما تكن الزاوية التي ينظر منها المرء إلى العمل، فلن يستطيع اختزال العمل في بُعد واحد. ففي نهاية التحليل، سيجد المرء دائمًا عنصرين متغايرين: (١) العمل كوسيلة للبقاء، (٢) العمل كمُهمَّة إنسانية خالصة. الغاية في الحالة الأولى غاية برَّانية، في

نتائج العمل، أمّا في الحالة الثانية فالعمل غاية في ذاته. فالقيمة الأخلاقية للعمل لا تقلُّ عن قيمته المادية.

١٦١٤ لم تكن المعاركُ في فرنسا القرن التاسع عشر تدور بين الجمهوريين والملكيين، البروليتاريا والبورجوازية، الفقراء والأثرياء فحسب، وإنَّما نشبت أيضًا معركة قاسية بين مؤيدي النزعة الكلاسيكية ومؤيدي الرومانتيكية. فعندما عُرِضَت مسرحية «هرناني» لڤيكتور هوجو على خشبة المسرح (حوالي ١٨٣٠م)، مُحطِّمةً كل التقاليد الكلاسيكية، ظهر معسكران متعارضان، ولم يكن الخلاف بينهما أقلَّ تعصُّبًا وقسوة من الصراع بين الجمهوريين والملكيين. هذا الصراع الروحي الذي تمثَّل في الواقع في الاهتمام المتَّقد لدى الشعب بقضية تتعلَّق بالروح والفن، هذا الصراع أظهر أنَّ هناك أيامًا عظيمة تنتظر فرنسا.

١٦١٧ مفارقات: في الحضارة المعاصرة (الرأسمالية)، لا تؤدي الجهود البشرية الهائلة والمنافسات القاسية بين العقول والمواهب إلى التقدُّم المُذهل في العلم والتكنولوجيا والفن فحسب، ولكنَّها أيضًا تُثير في الوقت نفسه الأنانيةَ والغرورَ وإبادة الأطراف المتصارعة لبعضها البعض والقضاء على الضعفاء، وهذا كلُّه لا يحدث باعتباره عرَضًا جانبيًا وإنَّما باعتباره الوضع أو النتيجة الحتمية لما سبق.

١٦٣١ ليس الوطني الحقيقي هو من يرفع وطنه فوق الأوطان الأخرى، وإنَّما هو من يعمل حتى يكون وطنه أهلاً لهذا التمجيد، كما أنَّه يحرص على كرامة وطنه أكثر من حرصه على تمجيده.

١٦٣٤ كان إميل زولا (١٨٤٠-١٩٠٢م) مثالاً للشخصية البورجوازية سواء من ناحية النسب أو أسلوب الحياة، فقد كسب ثروة كبيرة في وقت مبكِّر وملأ غرف قصره بوسائل الترف المبهرجة لمحدث النعمة، إلا أنَّ هذا لم يمنعه من أن يكون ناقدًا حادًّا للمجتمع البورجوازي. وهو ليس المثال الوحيد للموقف الفكري الذي لا يتوقَّف كثيرًا على انتمائه الطبقي.

١٦٤٧. وجهة نظر أخرى مختلفة حول الديمقراطية، يقول برزيبيزويسكي Przybys-zewski في رواية «الإنسان العاقل»: «تُسطِّح الديمقراطيةُ الإنسانيةَ وتبتذلها، تجعلها فظَّة،

وتُغرقها في الاهتمامات الاقتصادية. إنَّ انتصار الديمقراطية سيأتي بحكم صانعي الأدوات المعدنية والدبّاغين والفلاحين الذين يكرهون كلَّ ما هو جميل وكلَّ ما هو أعلى منهم».

١٦٥٨ الديمقراطية في المجتمع والواقعية في الأدب سار كلٌّ منهما جنبًا إلى جنب مع الآخر وساند كلٌّ منهما الآخر. وأعتقد أنَّه يمكن استخلاص تناظر مماثل بين الأفكار الاشتراكية والمذهب الطبيعي في الأدب. فالديمقراطية بالنسبة للواقعية كالاشتراكية بالنسبة للمذهب الطبيعي. ، والاشتراكية هي تطبيق المذهب الطبيعي في السياسة. هذه العلاقات ليست قاصرة على المستوى النظري فحسب، لأنَّه من الواضح أنَّ الاشتراكية ثمرةٌ للديمقراطية، تمامًا كما أنَّ المذهب الطبيعي ثمرةٌ للواقعية.

١٦٧٧ كان ماركس تلميذًا لداروين بأكثر ممَّا كان يعيه. أكَّد داروين على الصراع الشرس بين الأنواع في عالم الأحياء، وأكَّد ماركس على الصراع الشرس بين الطبقات في الحياة الاجتماعية. وفي كلتا الحالتين، لا مكان للاعتبارات الأخلاقية، لا في المعركة ولا في نتيجتها: فالبقاء للأقوى وليس للأفضل، كما أنَّ المنتصر هو من يُحدِّد القيم الأخلاقية. ويقول ماركس إنَّ الاشتراكية لا تنتصر بسبب بعض الاعتبارات الأخلاقية، ولكن لأنَّها تُمثِّل شكلاً من الحياة الاجتماعية أكثر تقدُّمًا، وهذا تفسير دارويني تمامًا.

١٦٨٦ الكذب في الحياة الشخصية شيءٌ لا أخلاقي. ولكن تبيَّن أنَّ الكذب في أحيانٍ كثيرة يكون فاعلاً أساسيًا في الحياة الاجتماعية أو حالة الاستقرار والسلام في المجتمع. للأسف!

١٦٩٩ الحركة التي تستهدف دفع الدولة بعيدًا عن ساحة الاقتصاد والمِلْكية الخاصة هي على أشدِّها الآن، في منتصف الثمانينيات من هذا القرن. كذلك فإنَّ هَذه الحركة تجري بطريقتها الخاصة في الشرق الاشتراكي والمجر والصين، بل وفي الاتحاد السوفييتي نفسه. وهذا بمثابة يقظة حقيقية لريادة الأعمال الخاصة. فالدولة مُتَّهمة بأنَّها العقبة الأساسية في طريق الإبداع والتنمية التكنولوجية السريعة، وأنَّها السبب الأساسي في تفاقم الإنفاق من الميزانية، ومن ثمَّ في ارتفاع الضرائب. بل وصل الأمر إلى أنَّهم في بريطانيا يريدون

خصخصة الشبكة الوطنية لإمداد المياه، وفي أمريكا يتحدَّثون عن خصخصة السجون. وهناك حديث عن بيع كلِّ شيء لدى الدولة. وبريطانيا التي ذهبت إلى أبعد حدٍّ في مرحلة تبنِّي فكرة الملكية العامة هي الآن الأسرع حركة في الاتجاه المضاد. فالحكومة تُخطِّط للتخلِّي عن كلِّ ممتلكات الدولة تقريبًا عبر مزادات خاصة. كما أنَّ عشرين شركة عملاقة وجدت نفسها في ملكيات خاصة، من بين هذه الشركات شركة تيليكوم (أي نظام الاتصالات كاملاً) وكذلك الكثير من الشركات الكبرى كشركات السيارات والغاز والطيران وموانئ السفن، إلخ. وصرَّح وزير المالية بأنَّ برنامج الخصخصة الذي بدأ قد يستمر حتى تعود الصناعة كلُّها التي تملكها الدولة إلى أصحابها، أي إلى القطاع الخاص. كما أنَّ هناك عملية مماثلة تجري في الكثير من الدول المتقدمة الرأسمالية. في اليابان هناك تخطيط لخصخصة السكك الحديدية، بينما تُخطِّط الحكومة الفرنسية منذ انتخابات ١٩٨٦م لخصخصة أكبر ٦٥ شركة وبنك، كخطوة أولى، تُقدَّر قيمتها بحوالي ٤٠ مليار دولار. (هذه المواقف كلُّها تخصُّ نهاية عام ١٩٨٦م). في الولايات المتحدة الأمريكية، كان الدور المتزايد للدولة في الاقتصاد الأمريكي سمة مميِّزة لعقود ماضية، ثم فاز رونالد ريغان لفترتين رئاسيتين متعهِّدًا بأن «يرفع عبء الدولة عن كاهل الشعب». وفي إسبانيا لدينا مفارقة: حيث قام الجنرال فرانكو ذو الاتجاه المحافظ بتأميم سلسلة كاملة من الشركات وتقوم الحكومة الاشتراكية الآن بإعادتها إلى القطاع الخاص. وقد أثبتت التجربة في الدول الاشتراكية أنَّ تأميم الاقتصاد يسير جنبًا إلى جنب مع «تأميم» الحريات السياسية والشخصية.

١٧٤٩ «لكي يستطيع المرء أن يحكمهم، فلا بدَّ أن يكون واحدًا منهم» هكذا يقول الملك في خيبة أمل في رواية برزيبيزويسكي «الخرافة الأبدية» بعد أن أدرك عدم جدوى جهوده في النهوض بالناس وحثِّهم على الدوافع النبيلة. ويُفكِّر الملك في أنَّ «النصر الحقيقي ليس أن تُجبر العبيد على الطاعة بالقوة، لأنَّهم سيبقون عبيدًا على كلِّ حال، وإنَّما النصر الحقيقي أن تخرج من عالم العبيد هذا إلى حالة من التأمُّل الخالص».

١٧٥٣ كان عدد حالات الطلاق في تشيكوسلوفاكيا يتزايد خلال حقبة ما بعد الحرب بكاملها. ووفقًا لبعض البيانات، فإن نصف حالات الزواج في براغ تتفسَّخ في النهاية. كما

أنَّ حالات الطلاق في القسم التشيكي البروتستانتي من الدولة أكثر منها في القسم السلوفاكي الكاثوليكي، رغم أنَّ القوانين واحدة في كلا القسمين. ولعلَّ هذا أحد سباب الانخفاض اللافت في معدل المواليد في القسم التشيكي، ونتيجة لذلك تتناقص حصة التشيك في المجموع الكلِّي لسكَّان الدولة. ومن بين أشياء أخرى، يُعتَقَد أنَّ السبب الأساسي لتفسُّخ الأسر هو الاستقلال الاقتصادي للنساء. كما أنَّ ثُلُثَ أطفال تشيكوسلوفاكيا هم أطفال لآباء مُطلَّقين (صحيفة بولوتيكا، بلغراد، ٣١ أغسطس ١٩٨٦م).

١٨٣٩ أكَّدت الاشتراكية على اضمحلال الدولة. ولكن ما الذي يحدث في الحقيقة؟ اضمحلال الاقتصاد وليس الدولة، فالدولة، على النقيض، تنمو وتقوى.

١٨٤٢ أصبحت بولندا، وهي إحدى الدول المنتصرة في الحرب العالمية الثانية، أصبحت بعد «الانتصار» أصغر بمساحة قدرها ٧٩,٠٠٠ كم٢ ففي نهاية الحرب استولى الاتحاد السوفييتي على مساحة ١٨٠,٠٠٠كم٢ من أرض بولندا (جهة الشرق) يسكنها ١٢ مليون نسمة، وأعطى بولندا «المقاطعات الغربية» كتعويض بمساحة ١٠١,٠٠٠ كم٢ ويُعتقد أنَّه في أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها (الفترة من ١٩٣٩-١٩٥٦م) قد نزح ٢٢ مليون نسمة عن بيوتهم (نقلاً عن أرسو ميلاتوڤيتش، «خمس مُهمّات دبلوماسية»).

١٨٥٨ في تاريخ العلم والفن والسياسة، إلخ، هناك أُناسٌ يُفضِّلون استمرار الأمور كما هي، ولكن هناك أيضًا مَن يسعون إلى تحطيم النسق كلِّه والثورة عليه.

١٨٦٢ دعا الأديب غونتر غراس(*) الكُتّابَ أن يتعاملوا مع المشكلات المعاصرة، لا أن يحبسوا أنفسهم في أبراج عاجية، أن يُضيئوا خلفيةَ الأحداث والجانبَ الإنسانيَ الخفي منها، وأن «يلحقوا بالأحداث السياسية قبل أن تتخفَّى في التاريخ» (من كلمته في معرض مؤتمر نادي القلم الدولي في هامبورج، ١٩٨٦م). من الواضح أنَّ هناك الكثير من الجوانب المهمة في الحياة لم تعد واضحة حيث تخفَّت في زِيِّ التاريخ، فلم يعد بإمكان المرء

(*) غونتر غراس Günter Grass (١٩٢٧- م) روائي وشاعر وكاتب مسرحي ألماني، حصل على جائز نوبل للأدب عام ١٩٩٩م. من أهم أعماله ثلاثية دانتسيغ التي تضم «طبل الصفيح» و«القط والفأر» و«سنوات الكلاب». (المترجم)

أن يرى البشر الأحياء؛ أن يرى عاداتهم، عيوبهم، أفكارهم الخاطئة، لحظات الحيرة والتردد، لحظات الحماسة والاندفاع، لحظات التعصُّب، إلخ. ما يظهر لنا هو المظهر الخارجي السطحي فقط، الأحداث والظواهر والنتائج. لعلَّ الإسكندر الأكبر لم يكن كبيرًا ولا عظيمًا على الإطلاق، وربَّما كان إيڤان الرهيب يتمتَّع ببعض الصفات الإنسانية. لعلَّ الكثير من الناس البسطاء العاديين (الذين لم يذكرهم التاريخ إطلاقًا لأنَّهم كانوا من العامَّة المغمورين الذين كافحوا وماتوا) كانوا أبطالاً حقيقيين، في حين أنَّ الأبطال المكلَّلين بالمجد، الذين يَدرس الأطفالُ حياتَهم في المدارس، ربَّما كانوا جبناء، وهكذا. هذا الجانب الثاني في حياة الناس يكشفه لنا الأدب، وليس التاريخ.

١٨٧٨ تُنسب إلى دوستويفسكي هذه العبارة: «فلتحفظني يارب من المتعصبين!»

١٨٨٣ نعم، مع أنَّ البوسنة «فقيرة وعارية، تشعر بالبرد والجوع، إلا أنَّها تملك الجرأة على الحلم» (ماك ديزدار)(*)

١٨٨٨ ظهرت معاداة اليهود في البداية في صورة عداء ديني ضد اليهود، وفيما بعد بدأت تكتسب صفة الكراهية العنصرية. في العصور الوسطى ظهرت مناطق الجيتو لليهود فقط. وأُطلق على اليهود «قتلة المسيح»، «المتعبِّدون بالقتل»، «أبناء الشيطان»، إلخ. طُرِد اليهود من إَنجلترا في ١٢٩٠م، ومن فرنسا في ١٣٠٦م، ومن مُدُن ألمانية ونمساوية وإسبانية خلال القرنين الرابع عشر الميلادي والخامس عشر الميلادي. وكَما هو معروف، عاش اليهود بحرية في بلاد الأندلس الإسلامية، ولقوا بعد محاكم التفتيش المصيرَ ذاتَه الذي لقيه العرب: النفي. ثم وجد عدد كبير من اليهود ملاذًا في البلقان، في الأجزاء الواقعة تحت الحكم العثماني. وسُجِّلت مذابح دموية ضد اليهود قام بها القوزاق في بولندا في القرن السابع عشر الميلادي. وحيث لم يقع النفي الفعلي، كانت جميع أشكال التضييق والتقييد تجاه اليهود تحدث بشكل يومي. وأخذت معاداة اليهود شكلاً قاسيًا للغاية في القرن

(*) ماك ديزدار (١٩١٧-١٩٧١م) هو محمد علي ديزدار، شاعر من البوسنة والهرسك، شكَّل شعرُه حجر الأساس للأدب الحديث في البوسنة بعد تفكُّك يوغوسلافيا، كما أنَّه كان مناهضًا بشدة لهيمنة وتأثير اللغة اليوغوسلافية على البوسنة والهرسك، من أشهر وأطول أعماله قصيدة «النهر الأزرق» وقصيدة «الحَجَر النائم». (المترجم)

العشرين: الإبادة الجسدية لستة ملايين يهودي على يد هتلر. وحسب الضرورات السياسية للطغاة، أُعلن أنَّ اليهود رأسماليون، خطر شيوعي، أو كلاهما أحيانًا (في ألمانيا النازية مثلاً). واعتُبروا مسئولين عن الحروب الخاسرة، إحياء الليبرالية، الثورات، النزعة العقلانية (تقديس العقل)، الانحلال الأخلاقي، المادية المبتذلة، نزعة السلمية الروحية، الماسونية الحرة، وما إلى ذلك.

١٨٩٣ غريبةٌ هي أوروبا؛ فقد اعتبرت نفسَها مهدَ الديمقراطية ومُعلِّمتها، وفي الوقت ذاته أظهرت «براعة» استثنائية في الديكتاتورية والأفكار الاستبدادية.

١٨٩٤ ظلَّ معيار الأغلبية هو المعيار الأقوى في الديمقراطية إن لم يكن هو المعيار الوحيد. فما تقول الأغلبية إنَّه حقيقي وأخلاقي وجميل فهو حقيقي وأخلاقي وجميل، مع أنَّ الأغلبية لا تملك المعايير الموثوقة للحقيقة والخير. فالأغلبية محكومة بالهوى والرغبة. الديمقراطية هي العملية التي لا يمكن إيقافها، فما الثمرة النهائية للديمقراطية ذاتها؟

١٩٠٦ يُظهر تحليل الأنشطة التجارية في الدول الأكثر تقدُّمًا في العالم أنَّ الشركات الصغيرة تُقدِّم ابتكارات جديدة أكثر من الشركات الكبيرة بخمسة وعشرين ضعفًا، وعبر إدخال تكنولوجيا المعلومات الحديثة فإنَّها تُقلِّص نفقات العمل بنسبة تصل إلى ٨٠٪، وهذا يجعلها أكثر قدرة على المنافسة. في الولايات المتحدة، هذه الشركات الصغيرة تطرح في الأسواق أكثر من ثلاثة أرباع المنتجات الجديدة.

١٩٠٨ كتب چوليان هكسلي في مكان ما أنَّ القومية تقوم على وهم الأصل المشترك لمجموعة من الناس، وعلى الشعور بالكراهية تجاه الآخرين، ومن ثمَّ فهي تقوم على شيئين سلبيين: وهم وكراهية.

١٩١٢ يُحوِّل الناسُ صدقَ الفكرةِ ونورَها إلى زيف الأيديولوجيا وظلامها.

١٩١٤ انضمَّ معظم أتباع فرويد إلى الماركسية (مثل الماركسية الفرويدية عند كلٍّ من ويلهلم رايخ Wilhelm Reich وأوتو فينخل Otto Fenichel).

١٩٤٠ أودُّ أن أُدخل في مدارس الشرق الإسلامي كلِّها دروسًا عن «التفكير النقدي». فالشرق، علَى خلاف الغرب، لم يُجرِّب هذه المدرسةَ القاسيةَ، وهذا منشأ الكثير من مواطن ضعفه.

١٩٩٣ عند النظر إلى أوروبا الغربية أو «دول الرفاه»، سيصل المرء إلى نتيجة تنطوي على شيء من المفارقة: فالطموحات الاشتراكية المختلفة في مجالات الصحة والتعليم والترفيه والثقافة، كمقياس عام، قد تحقَّقت في النظام الرأسمالي. ويبدو أنَّ الاقتصاد الرأسمالي كان غزير الإنتاج بما يكفي لدعم هذه النفقات الهائلة وأن يبقى مع ذلك قادرًا على الاستمرار في الإنتاج المتزايد، وهو ما عجز الاقتصاد الاشتراكي عن تحقيقه.

١٩٩٧ معاداة اليهود ظاهرة موجودة في الدول المسيحية. والصراع الحالي بين العرب واليهود لا ينتمي إلى هذا النوع. ويُفسر الكاتب الإسرائيلي إفرايم كيشون Ephraim Kishon هذا الأمر بشكل مثير، فيقول: «جرت العادة أن يعتقد المسيحيون أنَّ اليهود هم الشعب الذي قتل المسيح، متجاهلين أن المسيح نفسه كان واحدًا من بني إسرائيل. وعلى مدى ألفي عام ظلَّت الكنيسة المسيحية تحكي هذه القصة، وأنا أسمِّي ما تقوم به الكنيسة معاداة اليهود. عندما كنتُ في اليابان وتحدَّثت عن هذا الأمر، أُصيب الجميع بالدهشة ولم يفهم أحد ما أتحدَّث عنه. فلم تكن لديهم أي عُقَد تجاه اليهود لأنَّهم لا ينتمون إلى الكنيسة المسيحية» (من مقابلة له مع إحدى الصحف الصادرة في بلغراد، أكتوبر ١٩٨٦م).

٢٠١٥ قدَّمت المجتمعات الاشتراكية حريات جنسيةً غيرَ محدودة، في بعض المجتمعات بشكل صريح أحيانًا وفي أخرى بشكلٍ ضمني، كتعويض عن الحريات السياسية الممنوعة. وكان من المثير أنَّ بعض المجتمعات التقليدية الخاضعة للحكم الاشتراكي قد اجتازت سريعًا الفجوة بين الانضباط الجنسي وإلغاء كلِّ القيود عليه. فقد تبيَّن أنَّ هذه «الحريات» الجنسية لا تُمثِّل خطرًا على النُّخَب الحاكمة، بل، على العكس، تعمل كمَنْفَذ جيد لتفريغ الضغوط الاجتماعية والسياسية. وحدها السلطة التي تثق في نفسها وفي نهجها هي التي تستطيع أن تخاطر بمنع «المُسكِّنات الاجتماعية» مثل المخدِّرات والخمور والحريات الجنسية وغيرها من المُسكِّنات.

٢٠١٧ من لا يُدرك قيمةَ الفردية والحرية عليه أن يقرأ رواية ألدوس هكسلي «عالم جديد شجاع». غير أنَّ هناك البعض سيأسرهم تصوير حالة الجماعية والتماثل والاستقرار، هؤلاء لن يجدي معهم أيُّ شيء. فمن العبث أن تتحدَّث عن جمال قوس قزح أو غروب الشمس لشخص وُلد أعمى. لذلك، لا تَرُدّ على من يسأل أين المشكلة في «عالم جديد شجاع»، فسؤاله يُظهر أنَّ أي جهد منك لا طائل من ورائه.

٢٠٢١ تقوم الدعاية، أي التلقين، على ما يُعرف في علم النفس بالانعكاسات المشروطة conditioned reflexes، ومن ثمَّ فهي تقوم على علم نفس الحيوان. فهي تسعى إلى خلق «أزواج متلازمة» في الوعي. ولهذا، على سبيل المثال، نجد في الدعاية الإلحادية أنَّ مفهوم الدين مُرتبط باستمرار بمفهوم التخلُّف والخرافة. يحدث هذا منذ أول يوم في المدرسة ويستمر هكذا. وبالنسبة للشخص الذي «أُعدَّ» بهذه الطريقة، فإنَّ ذكر كلمة «دين» سيستدعي حتمًا (بطريقة آلية) اللفظة التوأم المتلازمةَ معها، وبالطبع هي لفظة سلبية دائمًا. هذه الأنماط من التعصُّب والانحياز مترسِّخة بشدة في الوعي لدرجة أنَّها تبقى في الوعي رغم خطئها الواضح تمامًا في بعض الأحيان. كان أحد معارفي قد خضع لغسيل دماغ ليقتنع بأنَّ الدين هُراء، وقد صدَّق هذا. إلا أنَّه في الوقت ذاته كان يُحبُّ ليو تولستوي كثيرًا، وقال إنَّه كاتبه المفضَّل. ولم أفهم على الإطلاق كيف استطاع التوفيق بين هذين الأمرين المتناقضين بوضوح، ويبدو لي أنَّه حتى لم يلاحظ هذا التناقض. في الحقيقة، كان هذا الشخص ضحية «الانعكاس المشروط»، أي الكلمتين المتلازمتين: الدين-التخلُّف.

٢٠٣٣ انبذ الأصنام، وتمسَّك بالمُثُل.

٢٠٥٧ من أجل نمو سكَّاني عادي، من الضروري أن يكون معدَّل الولادة لكلِّ سيدة تعيش سنوات خصوبتها أكثر من طفلين بقليل (١٥ ,٢ طفل بالتحديد).

٢٠٥٨ حان الوقتُ لأن نتوقَّف عن الحديث بشكل سيء عن الألمان، فهناك أيضًا ألمان على شاكلة جوته، وهؤلاء الألمان الأفاضل هم الأكثرية الغالبة.

٢٠٧٧ في الاقتصاد، هناك ظاهرة واضحة: كلَّما زاد عنف الدولة كانت عملتها أضعف، إلى أن ينهار كلاهما في النهاية.

٢٠٨١ تصل التنمية أحيانًا إلى طريق مسدود لا يتفرَّع منه أي مسار آخر. والمثال على ذلك هو الدول الاشتراكية، حيث يشعر المرء بغياب الروح والمعنى، وبشيءٍ من تضخُّم الحجم البشع. ألا تُمثِّل هذه المجتمعات خطأً تاريخيًا في مسار تقدم المجتمع، كما كانت الديناصورات في مجال علم الأحياء، أو كما كان منطاد زيبلين في مجال التكنولوجيا؟ المشكلة الأساسية في هذه «الأخطاء» أنَّه عندما تصل التنمية إلى الطريق المسدود، فلا بدَّ من العودة إلى مفترق الطرق الذي بدأ منه الانحراف.

٢١١٧ تمضي عملية اتحاد دول المجموعة الاقتصادية الأوروبية قُدُمًا إلى الأمام، وفي ١٩٩٢م ستُفتَح الحدود الداخلية بين ١٢ دولة كانت في الماضي تحارب بعضها البعض.

٢١١٨ يرى البعض أن الإباحية هي إحدى صور الحرية والمظاهر الديمقراطية في المجتمع. الإباحية هي الاستهانة بالكرامة الأخلاقية لشخص آخر، لا سيما المرأة، إلخ. هناك اتفاقيتان دوليتان لمكافحة الإباحية؛ واللافت للنظر أنَّهما موجودتان منذ وقت مبكر في هذا القرن: اتفاقية ١٩١٠م في باريس، واتفاقية ١٩٢٣م في جنيف. وعلى حد علمي لا توجد أي اتفاقيات أخرى بعد ذلك. إلا أنَّ «التحول الديمقراطي» لا يتحمَّل هاتين الاتفاقيتين ولا يطيقهما.

٢١٢٥ قدَّر أحد الاقتصاديين الهنود أنَّ الإنفاق في بلده على المُنجِّمين والعرَّافين أكثر من الإنفاق على المدارس. ويُقنعنا البعض أنَّ الوضع في دول أخرى ليس بأفضل من ذلك، بما في ذلك بعض الدول المتقدمة. يبدو هذا أمرًا لا يُصدَّق.

٢١٢٩ لا أريد مظاهر ديمقراطية، أريد ديمقراطية.

٢١٤٠ ما الذي قضى على النظام الإقطاعي؟ أشياء كثيرة، ولكن على رأسها جميعًا: البارود.

٢١٤١ أعتقد أنَّ زمن الثورات المُسلَّحة قد ولَّى إلى الأبد، على الأقل في الجزء المتقدم من العالم. فنظرًا لتعقُّد الأسلحة الموجودة تحت تصرُّف الدولة الحديثة، فإنَّ احتمالات النجاح تقف إلى جانب القوى الحاكمة، ولا يوجد أي احتمال تقريبًا لصالح الشعب

الثائر. خلال الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية، كان الفارق بين الأسلحة الموجودة تحت تصرُّف الشعب (أو التي يمكن أن توجد تحت تصرِّفه) والأسلحة التي كانت تدافع بها الجماعات الحاكمة عن مواقعها فارقًا طفيفًا للغاية. دعنا نقارن هذا بالوضع الآن: دبَّابات وصواريخ وطائرات ومروحيَّات، فكيف تصمد الثورة أمام هذا كلِّه؟ لا بدَّ للتكتيكات والأساليب المستقبلية لإسقاط أنظمة الحكم أن تكون مختلفة تمامًا: المقاومة السلبية، الإضرابات العامة، العصيان المدني بنسب وأعداد كبيرة، إلخ، وبوضوح؛ كل ما هو ليس على صورة سلاح. فالثورة المُسلَّحة الآن تأتي على هوى القابضين على السلطة حيث تُوفِّر لهم احتمال الفوز بنسبة ١٠٠٪.

٢١٤٢ في كتاب السيرة الذاتية لغاندي، في الصفحة الداخلية المواجهة للعنوان هناك صورة لكلِّ ما كان يمتلكه غاندي لحظةَ وفاته، ويُعتقَد أنَّ قيمة هذه الأشياء كلِّها كانت حوالي خمسة جنيهات (چورچ أورويل، في مقال له عن المهاتما غاندي).

٢١٤٥ فيما يتعلَّق بكلمة «ساتياغراها» التي تُتَرجم عادة في الغرب إلى «المقاومة السلبية»، اعترض غاندي على هذه الترجمة. فالكلمة تعني في اللغة الغوچاراتية «الثبات على الحق».

٢١٥٨ التاريخ قاضٍ عادلٌ إلى حدٍّ بعيد، ولا توجد هزائم غير مُستحَقَّة. فالناس يغادرون مسرحَ التاريخ معَ المصير الذي يستحقُّونه. والأمر نفسه ينطبق على الحضارات، فهي لا تخضع لموت مُفاجئ غير طبيعي، وإنَّما تموت بسبب أمراضها الخاصة. لم يكن اجتياح البرابرة إلا مجرَّد رصاصة الرحمة لحضارة فقدت القدرة على الحياة وعلى حماية نفسها والدفاع عنها.

٢١٦٢ الرجال (كجنس) غالبًا أكثر إخفاقًا وإحباطًا وعدم انسجام من النساء. أحد التفسيرات لهذا هو أنَّ الرجل «آلة أكثر تعقيدًا» وأنَّ دوره الاجتماعي أكثر صعوبة وتعقيدًا.

٢١٨٢ المجموعة الاقتصادية الأوروبية، لماذا هي في غاية الأهمية؟ ليس فقط لأنَّها بمثابة اتحاد سياسي مهم، ولكن أيضًا لأنَّها مركزٌ قوي لتركيز وحشد القوى الاقتصادية والذهنية (التكنولوجية).

٢٢٣٦ جاء في التقرير السري الذي أرسله الحاكم الإداري لموسكو للسلطات في ذلك الوقت، جاء فيه، إلى جانب أشياء أخرى، أنَّ «الكونت تولستوي يشخبط شيئًا ما». كانت السلطات حينئذ ترى أنَّ روايتي «الحرب والسلام» و«البعث» مجرَّد شخبطة.

٢٢٤٤ يولد في الاتحاد السوفييتي فقط حوالي نصف مليون طفل غير شرعي سنويًا. تعاني الأسرة في روسيا من أزمة، والسبب في الأساس هو تغيُّر المركز الاجتماعي للمرأة. فالمرأة تسيطر في الأسرة، بل وفي بعض المجالات في المجتمع. ومقابل كلِّ ستة رجال حصلوا على تعليم جامعي هناك عشر نساء حصلن على تعليم جامعي. كما يأتي الطلاق ضمن قائمة الأسباب. وهناك مشكلةِ جديدة منتشرة بشدة: انزواء المرأة أو نزوعها لحياة الوحدة. فشعار المرأة في شبابها: أريد أن أكون أُمًا، ولا أريد أن أكون زوجة. وبعد انقضاء الشباب تتغَيَّر الأمنيات (صحيفة بولوتيكا، بلغراد، ٤ يناير ١٩٨٧م).

٢٢٦٣ يؤدِّي التأكيد المفرط على الصفة الاجتماعية للإنسان باعتباره كائنًا اجتماعيًا إلى نفي الفردية، ومنه إلى تجريده من الصفة الإنسانية. ثمَّة خطوة واحدة فقط تفصل بين الزعم بأنَّنا «حيوانات اجتماعية»، أي أنَّنا أعضاء في قطيع، وبين «منطق القطيع». إنَّ الإعداد الحقيقي للإنسان للحياة في مجتمع تكون عبر مسار معاكس: الارتقاء بفرديته. فالحيوان الاجتماعي لن يكون أبدًا إنسانًا اجتماعيًا، والتجربة البشرية بأسرها تُثبت هذا وتؤكِّده.

٢٢٦٦ في عام ١٩٥٢م كان نصيب المواطن في اليابان ١٦٢ دولار من الدخل القومي، وفي عام ١٩٨٦م كان ١٢,٠٠٠ دولار (مجلة «اليوم»، ١٣ يناير ١٩٨٧م، ص ٥٣). يُعتقَد أنَّ الفضل في هذه «المعجزة» اليابانية يرجع بالدرجة الأولى إلى المستوى المرتفع للتعليم وإلى سمتين تقليديتين في اليابانيين؛ الدأب والتوفير. وحتى اليوم، فاليابانيون لديهم أكبر عدد من أيام العمل في تقويمهم وأكبر قدر من المدَّخرات لكل مواطن. وبالإضافة إلى ذلك، كان الإنفاق العسكري خلال حقبة ما بعد الحرب كلِّها منخفضًا جدًا (فقط ١٪ من الدخل القومي).

٢٢٨١ يقول أندريه جورتس(*) André Gorz (وهو كاتب ماركسي أو ما بعد ماركسي) في كتابه «وداعًا للطبقة العاملة» إنَّ الطبقة العاملة في الغرب أصبحت مندمجة في نظام إعادة إنتاج رأس المال، أي إنَّها تشارك في «لعبة نمو قوى الإنتاج الرأسمالية». لا يمكن توقُّع نزعة ثورية من طبقة عاملة كهذه. ويرى جورتس أنَّ هذا ليس عيبًا ذاتيًا في الطبقة العاملة ولكنَّه أمر يتعلَّق بالتطور التكنولوجي، خصوصًا عملية الإنتاج الآلي والميكانيكي، وهو ما يُغيِّر مضمون مفهوم «الطبقة العاملة» ذاته. فالعمل بالمعنى الكلاسيكي آخذٌ في التلاشي على نحو متزايد.

٢٣٠٤ صورة الاقتصاد السويدي طبقًا لمفهوم «دولة الرفاه»: حوالي ٨٥٪ من الاقتصاد في يد القطاع الخاص. عند مقارنة السويد بدول غربية أخرى، نجد أنَّ نسبة البطالة أقل (حوالي ٥, ٢٪) ولكنَّ التضخُّم ونفقات العمل أعلى، ممَّا يُقلِّص القدرة التنافسية للاقتصاد في السوق العالمية. يُحلِّل بير مارتين ميرسون Per-Martin Meyerson في كتابه «الشلل الأوروبي: السويد نموذجًا» النموذجَ السويدي ويشير إلى مواطن الخلل فيه، كما يقترح إعادة صياغة النموذج السويدي عبر تغيير جهاز الدولة غير العملي وإلغاء بعض صور الرعاية الاجتماعية المفروضة ذات التكلفة الباهظة والمُثبِّطة عن العمل. في السويد، ٨٥٪ من العُمَّال أعضاء منتظمون في اتحاد العُمَّال الذي ليس في موقع المعارضة، وإنَّما هو شريك بالمثل في المثلَّث: رأس المال-العمل-الدولة (أصحاب الأعمال-اتحاد العُمَّال-الدولة). فهل يعني التغييرُ «تفكيكَ» دولة الرفاه؟ لم تدخل السويد في أي حرب منذ حروب نابليون، ونصيب كلِّ مواطن من إجمالي الدخل القومي ٤٠٠, ١١ دولار (١٩٨٦م). وفي بعض الشركات والبنوك يحصل الموظَّفون على نسبة من الأرباح، لكنَّهم يأخذونها في صورة أسهم حيث لا يمكنهم صرفها نقديًا إلا بعد التقاعد. وقد ثبت أنَّ نموذج العامل المُشارك في الملكية يُنتج ويُوفِّر بشكل أفضل.

٢٣٠٨ كلمة «هولوكوست» جاءت من الكتاب المقدس أولاً، وكانت مُشتَقَّة من الكلمتين اليونانيتين «holos» وتعني «الجميع، الكل» و«kaustol» وتعني «حرق».

(*) أندريه جورتس André Gorz (١٩٢٣-٢٠٠٧م) مفكر وفيلسوف وصحافي ماركسي نمسوي وأحد منظِّري اليسار الجديد، من أهم أعماله «وداعًا للطبقة العاملة» و«نقد العقل الاقتصادي». (المترجم)

٢٣٢٣ الخلاص الاجتماعي يكون دائمًا عامًا ومشتركًا، أمَّا الخلاص الأخلاقي فهو بطبيعته شخصي وفردي. وذلك لأنَّ الخلاص الأخلاقي يتوقَّف على الإنسان نفسه، لأنَّه هو فقط الذي يستحقُّه، ولا أحد غيره، حتى وإن لم يستطع أن يُحقِّقَه. والخلاص الاجتماعي، مثل الدمار الاجتماعي، لا يتوقَّف على الإنسان الفرد الواقع في دائرته، فكلاهما يحدث حتى وإن كان هذا الإنسان لا ذنب له ولا يستحقُّ ذلك.

٢٣٧١ يَعتبر كثيرٌ من المحلِّلين أنَّ ظاهرةَ اختفاء العامل التقليدي مرتبطةٌ بانحسار مفاجئ في نفوذ الحزب الشيوعي الفرنسي. فالحزب الشيوعي الفرنسي، على عكس الحزبين الشيوعيين في إيطاليا وإسبانيا، تمسَّك بعقيدته وواصل التأكيدَ على شخصيته «العُمَّالية» في حين أنَّ العُمَّال الذين كان الحزب يقصدهم ويُشير إليهم كان عددهم آخذًا في النقصان بمرور الأيام (هناك المزيد حول هذه القضية في صحيفة ڤيسنك، ٨ فبراير ١٩٨٧م).

٢٣٩٣ بدأ إلغاء تأميم الشركات الحكومية في فرنسا عقب وصول اليمين إلى السلطة. ومن بين شركات أخرى، فإنَّ شركة سان غوبان، عملاق صناعة الزجاج وإحدى أكبر عشر شركات في فرنسا ويعمل بها ١٥٠,٠٠٠ موظَّفًا في ١٦ دولة، انتقلت ملكيتها إلى القطاع الخاص أيضًا. وقد أُنجزت خصخصة هذه الشركة عبر بيع ٣٠ مليون سهم، اشتراها ١,٥ مليون فرنسي، معظمهم من صغار المُودعين، وكان الطلب على الأسهم أكثر من الأسهم المطروحة في السوق بأربعة عشر ضعفًا. كما حدث شيءٌ مشابه مع أسهم بنك باريبا الفرنسي التي اشتراها أكثر من ثلاثة ملايين فرنسي. وقد صرَّح المدير العام لشركة سان غوبان بهذه المناسبة قائلاً: «أعتقد أنَّ الفرنسيين يؤسِّسون الآن نظامًا جديدًا لرأسمالية عوام الناس». كان سعر السهم الواحد في شركة سان غوبان ٣١٠ فرنك.

٢٤٠٤ دقَّة الفكر ووضوحه هما من ثمار الحضارة الغربية، وهما المحَكُّ الذي رسَّخته هذه الحضارة للتفكير. وهنا يكمن أحد مصادر قوة الغرب.

٢٤٢٣ أطلق لورانس داريل(*) على حوض البحر الأبيض المتوسط «رحم الحضارة»

(*) لورانس داريل Lawrence Durrell (١٩١٢- ١٩٩٠م) روائي وشاعر وكاتب لأدب الرحلات، وهو بريطاني من أصل هندي، أشهر أعماله رباعية الإسكندرية. (المترجم)

بسبب العدد الكبير من الثقافات والثورات الروحية التي كان مهدها هنا أو في مكان مجاور.

٢٤٢٨ عقد نادي القلم الدولي حلقة نقاشية تحت عنوان «كُتَّاب من أجل السلام» في ٣ مارس ١٩٨٧م (اليوم العالمي للقلم). كان موضوع هذه الحلقة هو «تزييف التاريخ وإساءة استغلاله: مصدر الصراعات والأزمات». ينبغي على الكُتَّاب حول العالم أن يناضلوا من أجل الصدق في كتابة التاريخ، من أجل التصوير الصادق للماضي.

٢٤٣١ يتناقص الشعور بالطبقية في المجتمع الحديث على نحو متزايد. فالطبقات تختفي من الأطراف الاجتماعية المتناقضة لصالح ما يمكن تسميته بالطبقة المتوسطة.

٢٤٣٤ سأل أحد الصحفيين لينين ما إذا كانت الثورة ستندلع في سويسرا أم لا، فأجاب لينين، وقد كان لاجئًا في سويسرا لفترة زمنية: «من الصعب توقُّع شيءٍ كهذا في بلد فيه ٣,٥ مليون نسمة و٣٨٠٠,٠٠٠ حساب توفير».

٢٤٣٧ يَعتبر مارفين مينسكي Marvin Minsky، وهو رياضي وعالم نفس وأحد أفضل الخبراء المعاصرين في الذكاء الاصطناعي، يَعتبر أنَّ علم النفس والذكاء الاصطناعي «شيءٌ واحد». ولأنَّه مهووس بفكرة بناء إنسان آلي/ روبوت يُفكِّر ويتكلَّم ويفهم، فقد قدَّم ذات مرَّة أطروحة مفادها أنَّ مئات الآلات الصغيرة والعمليات الآلية تعمل في رأسنا بدون مركز معين. ويقول مينسكي: «في الواقع، الإنسان ما هو إلا تعاون وتضافر كلٍّ هذه العمليات الآلية وكلٍّ هذه الآلات» (من كتابه مجتمع العقل). وتعليقي هو: هذا هو الموقف الوضعي نفسه الذي يتجاهل بكل بساطة بعضَ الأسئلة من قبيل: كيف تتعلَّم الآلة؟ يمكن للآلة أن تكون مُعقَّدة بشكل مُدهش، إلا أنَّ حقيقتها هي أنَّها لا تتعلَّم. وبغضِّ النظر عن تعقيدها وتطوُّرها، فهي لا تزال عاجزة عن التعلُّم.

٢٤٤٥ الشعب الذي لا سيادة له، سيَضمُر سياسيًا.

٢٤٤٧ هناك مُعاملان بينهما علاقة عكسية؛ عمل المرأة وعدد المواليد. وقد تدفع بعض الدول ثمنًا باهظًا لهذا السباق من أجل زيادة الثروة الاجتماعية، وربَّما تتحقَّق النبوءة

المشؤومة بأنَّ كلَّ شيء سيكون موجودًا ما عدا البشر. والسؤال المطروح في هذا السياق هو: كم من الثروة المادِّية -الصلب، السيارات، الصواريخ- يُعادل الطفولة السعيدة؟ هل يمكن تقدير الطفولة السعيدة مع الأم بأي ثمن؟ وهل يمكن تعويضُها بأي شيء آخر؟

٢٤٥٣ أدركت الأنظمة الاستبدادية أنَّ الأغبياء والعاجزين والجبناء لا يُشكِّلون أيَّ تهديد، ومن ثمَّ فهي تدعمهم وتُشجِّعهم.

٢٤٨٠ علامَ يدلُّ هذا التمجيد المبالغ فيه لتعبير «من شئون الدولة» في عصرنا إلا أنَّه تعبير عن الرغبة الأزلية المستعصية على العلاج في التمسُّك بالسلطة، والمُعَبَّر عنها قديمًا بعبارة «كلُّ ما يأمر به الحاكم له قوة القانون». إنَّه جوهر السلطة الاستبدادية ذاته، ولكن تختلف التسمية حسب كل عصر.

٢٤٨٩ كان مارسيليوس (١٢٨٠- ١٣٤٢م) Marsilius of Padua، وهو مُنظِّر قانوني من بادوفا، ينظر إلى «الناس» في عصره بالطريقة التالية: يُقسم الناس إلى فريقين؛ فريق سمين وفريق نحيف. الفريق الأول هو الطبقة الأرستقراطية، وبقية الناس هم الفريق الثاني؛ الفقراء.

٢٤٩٢ عندما تمتلك الحماقةُ السلاحَ والسلطةَ لا تبدو حمقاء، فنحن نراها آنئذٍ على أنَّها حزم أو خطر. وعندما تفقد الحماقةُ هذه السلطةَ، فإنَّها تعود كما كانت؛ حماقة.

٢٥١٢ يرجع أصل كلمتي «اليمين» و«اليسار» إلى الجدل حول الدستور في مجلس النواب الفرنسي عام ١٧٨٩م، حيث جلس المؤيدون لسلطات أوسع للملك على يمين رئيس المجلس، وجلس المؤيدون لسلطات أوسع للبرلمان على يَسَاره. اكتسبت هذه القسمة فيما بعد معنى عامًّا، فالذين يجلسون جهة اليسار هم المطالبون بالتغيير، ومَن يجلسون جهة اليمين هم المطالبون ببقاء الوضع القائم. وبالطبع، فقسمة اليسار-اليمين لها معانٍ أخرى، وهذا مجرَّد واحد منها.

٢٥١٧ مكانة الحاكم، أو السلطة، هي مقياس واضح لمدى تحضُّر أي شعب من الشعوب. فلا يمكن وجود حكم استبدادي فوق شعب متحضِّر، فهذا الشعب قد اجتاز هذه المراحل المعقدة من التطوُّر الجوَّاني والبرَّاني الضرورية لأن تكون الحكومة خاضعة

للقانون. أمَّا في حالة الشعوب البدائية، فالحكومة دائمًا فوق القانون. وطبقًا لهذا المعيار، فإنَّ جميع الدول التي يُطلق عليها دول اشتراكية لا تزال في طور الهمجية.

٢٥٢٦ قُبيْل نهاية الإمبراطورية الرومانية، كان الجيش الروماني يتكوَّن من سلاح الفرسان فقط. «لقد غزوا العالم مُشاةً، وخسروه فرسانًا».

٢٥٣٣ لم يكن هوجو جروتيوس (١٥٨٣- ٩٦٤٥م) Hugo Grotius، وهو أعظم رجل قانون في العالم الغربي، لم يكن يَعتبر الرقَّ شيئًا غير طبيعي ولا شيئًا غير شرعي. فقد كان يرى أنَّ الحرية سلعة قابلة للبيع ونقلَ ملكيتها إلى شخص آخر.

٢٥٥٣ على عكس الماديِّين، نحن نرى أنَّ الإنسان دائمًا هو علَّة للأشياء وليس نتيجة لها. يقول ماركس: «إنَّ وعي الإنسان ليس هو الذي يُحدِّد وجودَه وإنَّما العكس؛ وجوده هو الذي يُحدِّد وعيه». فالإنسان مجرَّد مُنتَج ونتيجة. وفي العالم الذي تكون فيه المُسلَّمة الأولى في الفلسفة هي أنَّ الإنسان مجرَّد نتيجة، تكون النتيجة الحتمية المنطقية هي «التطهير العرقي» و«معسكرات الاعتقال (الجولاج)».

٢٥٥٩ أقرَّ هيجل بدور الحروب في تماسك الدولة، وهي الحقيقة التي عرفها الغُزاة من قبلُ. «فالحروب الناجحة، عكس زمن السلام الرائع، تَحُوُل دون النزاع الداخلي وتساعد على تعزيز قوة الدولة، رغم أنَّها تضع وجود الدولة على حافة الخطر» (هيجل، أصول فلسفة الحق).

٢٥٦٠ «تاريخ العالم هو محكمة العالم» هذه هي المقولة الشهيرة لهيجل التي تفيد أنَّ قوة الأفكار والدول والحركات تُقيَّم على أساس مصيرها في تاريخ العالم، أي تجربتها في التاريخ.

٢٥٧٣ النمو الأُسِّي exponential سمةٌ مميِّزة للمعرفة الإنسانية. يُعتَقَد أنَّ كلَّ المعرفة التي قدَّمها الإنسان حتى عام ١٩٠٠م قد تضاعفت بحلول عام ١٩٥٠م، ثمَّ تضاعفت هذه المعرفة بحلول عام ١٩٦٠م. الأمر نفسه يحدث الآن كلَّ سبع أو ثماني سنوات. ويمكن تجاوز عقود بل وقرون من التنمية العادية في زمن قصير عبر التغيير الكيفي في النظام التعليمي، وهذا ما تؤكِّده حالة اليابان وكوريا الجنوبية. ففي نهاية القرن الماضي، بعد ثورة

ميجي Meiji الشهيرة، حدث توسُّع مفاجئ في التعليم في اليابان. وفي ذلك الوقت كان دستور اليابان يتكوَّن من خمس مواد فقط (!) وكانت المادَّة الأخيرة تنتهي بهذه العبارة «يجب اكتساب المعرفة أينما كانت». هذه العبارة لعبت دوراً حاسمًا في ما يُعرف بالمعجزة الاقتصادية اليابانية.

٢٧١٠ في السياسة ليس المهم ما هو كائن بالفعل، ما هو موجود، وإنَّما المهم هو ما يعتقد الناس أنَّه كائن، ما يعتقدون أنَّه موجود.

٢٧١١ يعتقد البريطانيون أنَّه ينبغي أحيانًا تغيير الحكومات الناجحة وليس فقط الحكومات الفاشلة، لأنَّ هذه الحكومات الناجحة ستصبح إمَّا عاجزة أو استبدادية. ليس من الخير أن تبقى أي حكومة طويلاً في الحكم، هكذا يعتقد البريطانيون.

٢٧٣٢ ثمَّة معجزةٌ تحدث في الشرق الأقصى، وبدأ البعضُ يتذكَّر بعضَ التكهُّنات القديمة. فالشرق الأقصى هو المنطقة الصناعية الأكثر إنتاجًا في العالم الآن. يقول الاقتصادي الأمريكي چورچ جودمان يبدو أنَّ سُكَّان هذه الدول يستطيعون إنتاج أي شيء ننتجه ولكن أرخص وأفضل. يُطلقون على سكَّان هذه البلاد «الأمريكيون الصُّفْر». هذه الدول هي اليابان وتايوان وكوريا الجنوبية وهونج كونج. أحد تفسيرات تلك المعجزة هو الطبيعة الخاصة لثقافة الشرق الأقصى التي يبلغ عمرها ألفين وخمسمائة سنة والتي تُمثِّل لهؤلاء الناس ميراثًا من تقاليد العمل والتربية والتواضع والتوفير والولاء الفطري. وبلغة المال هناك تعبير «الرأسمالية الكونفوشية» الذي يجمع كلَّ هذه المميِّزات.

٢٧٣٧ لم تتحقَّق نبوءة چون كينيث جالبرايت John Kenneth Galbraith بأنَّنا نقترب من السيطرة الشاملة للشركات الكبرى. على العكس من ذلك، فقد تكيَّفت الشركات الصغيرة المرنة بشكل أفضل وأسرع مع متطلَّبات التكنولوجيا الجديدة وفي طريقها لكسب المعركة في المنافسة مع الشركات الكبرى.

٢٨٤٢ عندما تولَّت مارجريت تاتشر رئاسة وزراء بريطانيا في ١٩٧٩م، كان من المتوقَّع أن يكون هناك عدد أكبر من النساء في مناصب سياسية مهمة، إلا أنَّ هذا لم يحدث، حيث وصلت امرأة واحدة فقط إلى منصب مساعد وزير.

٢٨٤٨ رفعت مارجريت تاتشر في حملتها الانتخابية عام ١٩٨٧م شعار ما يُعرف برأسمالية الشعب أو الجمهور. وقالت إنَّ الرأسمالية نظام ممتاز لأنَّه يُوفِّر الفرصة لعدد أكبر ومتزايد من الناس لإنتاج السلع، وهو ما كان مُتاحًا للبعض فقط قبل ذلك، وأضافت أنّه بالمُضِيِّ قُدُمًا في هذا الطريق سيأتي يوم تكون فيه الملكية عامَّة. وقد بيعت الشركات المؤمَّمة لصغار المساهمين، والذين يبلغ عددهم اليوم ١٠ مليون في بريطانيا.

٢٨٥٨ علمتُ أنَّ الإعلانات التجارية التي تُعرَض في التلفيزيون في أمريكا تقطع حتى كونشرتو البيانو لتشايكوفسكي. ولكنَّ اعتراضي لا يصلح في الحالة الأمريكية، لأنَّك تستطيع أن تختار بين ٣٠ إلى ٤٠ قناة.

٢٨٦٠ يتضاعف عدد أجهزة الكمبيوتر المستخدمة كلَّ ثلاث سنوات وتنخفض تكلفة إنتاجها إلى النصف. وتتحدَّث خطة اليونسكو الثالثة متوسطة الأجل (١٩٩٠-١٩٩٥م) عن فرض الدول المتقدمة هيمنةً شاملةً على الدول الأقل تقدُّمًا من خلال التعليم. كما أنَّ العلاقات الاجتماعية الدولية ستعتمد في المقام الأول على قوة الدول المتميزة في مجال التعليم والعلوم والاتصالات. وهذا نوع من النهوض العالمي بالعقل والفكر كقوة. كما أنَّ الخطر لن يكون قاصراً على النظام التعليمي ذي الأعداد الغفيرة فحسب، ولكن أيضًا سيتعدَّى إلى أي نظام تعليمي ذي جودة متدنية. كما تجري على قدمٍ وساقٍ عمليةُ إضفاء الطابع المعلوماتي على النظام التعليمي عبر تقديم الأجهزة الإلكترونية الدَّقيقة. وهناك تركيز على العلوم الطبيعية واللغات الأجنبية. كما أنَّ التوجُّهات الحالية في عملية الإنتاج، أي الإدخال المتواصل لأنماط أحدث من التكنولوجيا، تُجبر الناسَ على التكيُّف معها خلال سنوات العمل أو حتى تغيير تخصُّصاتهم، ويكون هذا دائمًا مصحوبًا بمعايير للمعرفة أكثر دقة وصرامة. بل إنَّ الأمريكيين غير راضين عن نظامهم التعليمي. ففي عام ١٩٨٣م ظهر تقرير بعنوان يُوحي بالذعر والهلع «أُمَّةٌ في خطر»، أعدَّته اللجنة الوطنية للتميُّز في التعليم، وقد اقترح سلسلة من التغييرات الجذرية في النظام التعليمي بهدف إعداد الأمة الأمريكية للحرب الاقتصادية العالمية المرتقبة. كما تحدث الآن إصلاحات هائلة في الاتحاد السوفييتي وألمانيا الغربية واليابان وإنجلترا. ولا زال استنزاف العقول من الدول

غير المتقدمة إلى الدول المتقدمة مستمراً، وهو ما يزيد من الفجوة الموجودة بينهما بالفعل. أين نحن من هذا كلِّه؟

٢٨٧٠ يتناسب حجم القهر في الدولة عكسيًا مع سلطتها الحقيقية.

٢٨٧١ أحد الأهداف المعلنة للحركة النسوية هو «الكفاح ضد تعظيم الأمومة».

٢٨٧٣ هذه نسب مشاركة المرأة في المجالس النيابية لبعض الدول الغربية: إيطاليا ٧٪، ألمانيا الغربيَة ١٥٪، أيرلندا ٨٪، النرويج ٣٠٪، برلمان أوروبا الغربية ٢٠٪ (خلال ١٩٨٦-١٩٨٧م). في إيطاليا نسبة النساء من إجمالي عدد السُكَّان ٥٢٪ ونسبة الرجال ٤٨٪، ويوجد عدد كبير من النساء في الجامعات ومؤسَّسات التعليم العالي. إلا أنَّ الموقف ليس كذلك في مواقع صناعة القرار، وأحد الأسباب هو أنَّ المرأة عندما تُصوِّت في الانتخابات فإنَّها لا تعطي صوتها للمرشحات من النساء، وإنَّما للرجال.

٢٨٧٥ في القرن التاسع عشر، كانت الكتب التي يتجاوز عدد أوراقها ٢٠ ورقة (بوجهين) تُستثنى من الرقابة، حيث كان يفترَض أنَّ قلَّةً قليلة من الناس هي التي تقرأها، ومن ثمَّ فهذه الكتب لا تُمثِّل خطراً.

٢٨٩٨ أحد التفسيرات المثيرة لحالة الجمود في المجتمعات الشرقية هو غياب ما يُعرَف بالطبقة الوسطى. ومن المثير أنَّ هذا التفسير نفسه -غياب الطبقة الوسطى- يُفسر كذلك ظاهرة أخرى وهي اندلاع «الثورات الاشتراكية» في روسيا والصين وإثيوبيا وكوبا، إلخ.

٢٨٩٩ التقدُّم عملية متناقضة. ففكرة المساواة الاجتماعية قديمة قدَمَ الإنسان، كما أنَّها ذات قوة دافعة كبيرة، رغم أنَّها بالمعنى الحرفي محضُ وهمٍ. فكلُّ تقدُّم يُعبَّر عنه من خلال عملية التمايز التي يفوز فيها الأقدر والأقوى.

٢٩٢١ الثقافة الشعبية في العصور الوسطى عبارة عن مزيج من الموروث الشعبي والعقيدة الرسمية للكنيسة.

٢١٣٣ في عهد كارتر، صدر في الولايات المتحدة قانون حول الأخلاق يتعلَّق بسلوك الحكومة. كان الهدف الأساسي من القانون هو استعادة ثقة الشعب المهتزَّة في القائمين على

مواقع المسئولية بعد فضيحة ووترجيت. ومع ذلك، خضع أكثر من مائة مُوظَّف للتحقيق خلال السنوات الأربع الأولى من حكم رونالد ريغان طبقًا لاتهامات مؤكَّدة بأنَّهم انتهكوا معايير قانون الأخلاق. إمَّا أنَّ السلطة تُفسد الناسَ على نحو خطير أو أنَّها توفِّر الفرصة للفاسدين.

٢١٣٥ في البداية كان لدينا استعمار عسكري سياسي، ثم استعمار اقتصادي، وأخيراً الآن لدينا ما يُسمَّى بالاستعمار التكنولوجي؛ أي اعتماد الدول الأقل تقدُّمًا على الدول الأكثر تقدُّمًا في مجال التكنولوجيا بشكل شبه كامل. والفجوة تتسع باستمرار. كما أنَّ التقدُّم يحدث بشكل سريع للغاية لدرجة أنَّ بعض الحلول التكنولوجية تصبح عتيقة ومهجورة خلال ثلاث إلى خمس سنوات. أين نحن من هذا؟

٢٢٠٣ لا توجد نزعة إنسانية مجرَّدة أو جماعية، ولا توجد حرية مجرَّدة أو جماعية. فأي شكل من النزعة الإنسانية هو في المقام الأول نزعة إنسانية لدى فرد حر، شخص حر، وأي شكل من الحرية هو في المقام الأول حرية فرد حر، شخص حر.

٢٢٣٧ ثمَّة حديث الآن عن النزعة المحافظة لدى الطبقة العاملة والنزعة الراديكالية لدى ما يُسمَّى بالطبقة المتوسطة، في الوقت الذي يقول فيه المفكر الماركسي هابرماس إنَّ «طوبيا العمل فقدت القدرة على الإقناع».

٢٢٣٨ بدأ يتَّضح أنَّ وضع المرأة في ما يُطلق عليها الدول المتحضِّرة قد تغيَّر ولكن لم يتحسَّن. فالنساء يأتين على رأس القائمة الطويلة التي تضمُّ الفئات المُعرَّضة للخطر، إلى جانب قاطني المناطق التي لا مستقبل لها والشباب ذوي القدرات والمهارات الضعيفة. وهذا لأنَّ تحريرهن تبعه ارتفاع متفاوت في المسئوليات والالتزامات المهنية والاجتماعية.

٢٢٣٩ يرتبط ظهور وتطوُّر حاجات وضرورات اجتماعية جديدة بأزمة النفط الكبرى في الفترة بين ١٩٧٢-١٩٧٤م. لا شكَّ أنَّ هذه الأزمة كانت نقطةَ تحوُّل في الحركة المتسارعة نحو أنماط جديدة من التكنولوجيا.

٣٠٥٩ قرأتُ في مكانٍ ما أنَّه يعيش في كليڤلاند بولاية أوهايو (الولايات المتحدة)

عدد كبير من القوميات يصل إلى ثمانين قومية مختلفة، وكلٌّ منها فخور برموزه ويعتزُّ بها ويحترم رموز الآخرين. ولا يوجد أحدٌ في كليفلاند ضاق به المكان.

٣٠٦٠ عندما يصل الماء إلى الحلق، فليس من الحكمة أن تُثير الماء.

٣٠٧٠ ما الفرق بين رجل الدولة والسياسي؟ يقول تشرشل مُجيبًا عن هذا السؤال: «رجل الدولة يُفكِّر في الدولة، أمَّا السياسي فيفكِّر في الانتخابات القادمة».

٣٠٧٦ القانون والعدالة ليسا دائمًا في انسجام. غير ذلك، فالإنسان الحقُّ يرى أنَّ القانون هو العدالة.

٣٠٩٥ تقول القصة إنَّه لكي يُخرج موسى قومَه من مصر فإنَّ الأمر استغرق أربعين سنة. لماذا هذا الوقت الطويل جدًا لأمر يمكن القيام به في أسبوع أو شهر؟ لأنَّ هذا «الخروج» الشهير لم يكن مجرَّد رحلة، وإنَّما كان ميلادَ شعب. ومصر هنا ليست مجرَّد بلد، وإنَّما كناية عن العبودية، تمامًا كما أنَّ «أرض الميعاد» كنايةٌ عن الحرية. والطريق من مصر إلى فلسطين هو طريقٌ من العبودية إلى الحرية. هناك شعبٌ بدأ سيرَه من مصر، وبعد التيه والكبَد وصل شعبٌ آخر إلى «أرض الميعاد».

٣٠٩٦. يكتب دراجا ماركوفيتش Draga Markovit، أحد المسئولين الكبار في يوغوسلافيا، يكتب في إحدى الفقرات في مذكِّراته: «ويصل المرء إلى السؤال القديم هل يوغوسلافيا بلد الشعب اليوغوسلافي أم هي بلد السلوفينيين والمقدونيين ومَن في الجبل الأسود، وكذلك الألبان والإيطاليين والبلغار والمجريين والسلوفاكيين، إلخ». (مُذكِّرات يومية، بلغراد، نُشرت في «الصحيفة الإعلامية الأسبوعية»، ٦ سبتمبر ١٩٨٧م). أين المسلمون هنا؟ يذكَر دراجا الإيطاليين والسلوفاكيين ولكنَّه «يتعامى» عن شعب يبلغ أكثر من ٢ مليون نسمة، لماذا؟

٣١٠٢. لماذا يكون مصير الطوبيا هو أن تنتج استبدادًا وطغيانًا؟ العلاقة بين الطوبيا والطغيان لا شكَّ فيها، ولكن ما الأسباب الحقيقية؟ لعلَّنا نجدها في الإجابة على السؤال التالي: هل يمكن تصوُّر «مملكة أرضية» بدون وجود الله وضد وجود الله؟ كلُّ طوبيا تدعو، ضمنيًا أو صراحة، إلى هذا فقط: مملكة بدون وجود الله.

٣١٠٥ في الستالينية، التقت الماركسية، وهي الفلسفة المناهضة للفرد، التقت «بسعادة» مع التراث الإمبريالي الاستبدادي الطغياني لروسيا القيصرية. الستالينية هي مُركَّبٌ من العقيدة الأوروبية والأفكار الروسية حول علاقة الإنسان بالسلطة. أو ببساطة أكثر: الستالينية = الماركسية + روسيا. الستالينية هي نتيجة لهذين العنصرين.

٣١٠٧ يُقدَّر عدد الحروب التي نشبت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية في الفترة من ١٩٤٥م إلى ١٩٨٧م بأكثر من مائة حرب محلية، أكثرها بين دول أقل تقدُّمًا وعلى أراضيها. وفي هذه الحروب فقد حوالي ٢٢ مليون إنسان حياتهم.

٣١٠٩ تؤكِّد سميليا أڤراموڤ Smilja Avramov في كتاب «إدارة السياسة الخارجية» أنَّ وحشية الحربين العالميتين والأساليب الهمجية للدول الاستبدادية قد أثارت كراهية وبغض الناس العاديين للدولة، حيث دفعت الناس للمطابقة بين الدولة والعنف وسحق حقوق وحرِّيات الإنسان الأساسية.

٣١١٤ بعد صناعتي النفط والسيارات، أصبحت السياحة ثالث أقوى رافد اقتصادي في العالم. ومع ذلك، يُشير العديد من المُحلِّلين إلى آثارها السلبية على الدول المُضيفة. يُعبِّر أحدهم عن وجهة النظر هذه فيقول إنَّ «السياحة تفترس الأرض والطبيعة والمقتنيات الثقافية وكأنَّها شكلٌ جديد من الاستعمار و تدمير البيئة» (يوست كريبندروف Jost Krip-pendorf، «المسافرون»).

٣١٣٣ كتب آدم سميث منذ مائتي عام أنَّ الإنسان الذي لا يستطيع إحراز ملْكية خاصة لا همَّ له إلا أن يأكل كثيرًا ويعمل قليلاً.

٣١٤٥ في خريطة العالم لسنة ١٩٧٧م، تُشكِّل الصحراء ٢٪ من أوروبا، و١٩٪ من أمريكا، و٣١٪ من آسيا، و٣٤٪ من أفريقيا، و٧٥٪ من أستراليا. وهناك حوالي عشر دول مُعرَّضة بدرجة كبيرة لخطر التصحُّر، من بينها العراق وباكستان وتركيا. ومن خلال مقارنة الصور التي التقطتها الأقمار الصناعية للسودان في ١٩٥٨م وصور ١٩٧٥م تبيَّن أنَّ حدود الصحراء اتَّسعت بمقدار ١٠٠ كم كاملة. هذا التمدُّد الصحراوي ليس عملية طبيعية، بل يرجع في الغالب إلى العامل البشري (الرعي بشكل مُفرط، قطع الأشجار

بصورة غير معقولة، تخفيض منسوب المياه الجوفية عبر السحب الشديد من التيارات المائية تحت الأرض، إلخ).

٣١٤٧ أوضح چورج أورويل في رواية «مزرعة الحيوان» ماذا يحدث لفكرة المساواة عندما تكون الخنازير هي التي تفصل في شأنها.

٣١٤٩ الحروب مُدمِّرة، ولكنَّها تُبدع أيضًا. أوضح كلٌّ من بيتر كالڤوكريزي وجاي ڤنت في كتاب «الحرب الشاملة» (نشر راد، بلغراد، ١٩٨٧م) كيف أنَّ السباق غير المسبوق بين الأطراف المتصارعة في الحرب العالمية الثانية قد سرَّع التطور التكنولوجي وحقَّق تقدُّمًا جديدًا في مجالات الطيران وبناء السفن. كما أدَّت هذه الجهود إلى إيجاد تخصُّصات صناعية جديدة وانتعاش التنمية الاقتصادية في العديد من المجالات الراكدة. وفي الفصول الختامية قدَّم المؤلِّفان وصفًا للتغييرات الجذرية التي أثارتها الحرب في مجالات التكنولوجيا والإحصاءات السُّكَّانية والعلاقات الدولية وأساليب الحياة والفلسفة السياسية لدى الناس.

٣١٥١ أعلن البروفيسور راڤي باترا Ravi Batra في كتاب «الكساد العظيم ١٩٩٠» أنَّ العالم سيشهد في غضون ثلاث سنوات أزمة اقتصادية أخطر بكثير من أزمة ١٩٢٩م. سوف نرى مدى واقعية (أو عدم واقعية) هذه التنبُّؤات. المؤلِّف من أصل هندي وهو أستاذ مساعد في الجامعة الميثودية الجنوبية في الولايات المتحدة.

٣١٥٤ «جاء دورنا، صعدنا إلى الأوتوبيس ومعنا أمتعتنا. كان خلفنا شابَّان، وأثناء انتظارهما في الصف كان يبدو أنَّهما في حالة غير طبيعية، ويهذيان بشكل مزعج عن شيء ما، ثمَّ جلسا ووضعا سمَّاعات الكاسيت في أذنيهما، ثم احتجبا عن الأنظار. قال لي صديقي: اسمع، في هذا البلد، وحدهم الزنوج يعرفون كيف يستمتعون بالحياة، وحدهم يعرفون كيف يكونون سعداء، كيف يُظهرون غضبهم وغيظهم بصدق، كيف يُعبرون عن سعادتهم بأنَّهم على قيد الحياة. هذا البلد صحراء بشرية، ونيويورك تبدو فيها وكأنَّها معجزة، كأنَّها سراب، كأنَّها نباتُ الصبَّار الضخم في صحراء سونورا. وما تراه هنا في نيويورك ليس طريقة حياة، وإنَّما محاولة مصطنعة مسعورة للحياة، للبقاء على قيد الحياة. بينما يحاول الزنوج من خلال الجريمة، من خلال ما معهم من نقود، من خلال تدينُّهم، أن

يُثبتوا لأنفسهم أنَّهم أحياء، وكلُّ محاولة من محاولات الإثبات هذه تتحقَّق بأسلوب فيه مبالغة ومغالاة» (من محاضرة مُصوَّرة عن نيويورك لتفرتكو كولينوفيتش). وتعليقي: بالتأكيد هناك شيء من الحقيقة في هذا الوصف، إلا أنَّه ليس الحقيقة كلَّها. لا أعرف لماذا يرى كلُّ الأجانب أمريكا من خلال نيويورك. فمَن يكون هؤلاء الملايين من البشر في المدن الصغيرة خارج نيويورك وشيكاغو وديترويت؟ وكيف يعيشون؟ أعتقد أنَّهم يعيشون في الغالب حياة عادية، وأنَّ قوة أمريكا ترتكز عليهم.

٣١٥٥ لماذا لا يستطيع المرء أن يهجر وطنه؟ لا يمكن لهذا أن يحدث لأنَّنا لا نستطيع أن نأخذ معنا المقابر، فمقابر آبائنا وأجدادنا هي جذورنا، والنبات الذي يُجتَثُّ من جذوره لا يمكن أن يعيش. ولذلك، علينا أن نبقى.

٣١٥٧. تُصحِّح التقاليدُ التأثيرات السلبيةَ للحضارة، ولهذا علينا أن نُقدِّرها. طبقًا لبعض البيانات، لم يرتفع معدَّل الجريمَة في اليابان لأربعة عقود على التوالي. فقد سُجِّل في ١٩٨٦م عدد الجرائم نفسه تقريبًا الذي سُجِّل قبل ثلاثين عامًا. وحوادث النشل غير معروفة تقريبًا، فهذه العادة غير معروفة في اليابان. وإذا وقعت جريمة سطو أو سرقة لمحفظة جيب، فعادة ما يكون مرتكبو الجريمة من الأجانب. وعدد حوادث السرقة في اليابان أقل ٢٧٠ مرَّة من عددها في الولايات المتحدة. ومع ذلك، فاليابانيون ليسوا مُحصنين تمامًا ضدَّ بعض أنواع الجرائم، فهناك التهرُّب من الضرائب والرشوة والاحتيال التجاري والمكائد (هذه المعلومات مُستقاة من مقال: «اليابان: البلد الأكثر أمنًا في العالم»، صحيفة نوفوستي (الأخبار)، ١٢ نوفمبر ١٩٨٧م).

٣١٥٨. طبقًا لبعض البيانات، هناك ٥٠,٠٠٠ حالة اغتصاب يُبلَّغ عنها سنويًا في ألمانيا الغربية، وحوالي ٢٥٠,٠٠٠ حالة في الولايات المتحدة. ومن المثير أنَّ ما يُعرف ببلاد الحريات الجنسية تأتي على رأس القائمة في أعداد حالات الاغتصاب. وعلى الأرجح، فالرقم الحقيقي لهذه الجرائم أكبر من ذلك، لأنَّ الكثير من النساء المُعتَدَى عليهن، خصوصًا من الأوساط المحافظة، لا يُبلِّغن عن الاعتداء عليهن. وتُظهر البيانات أنَّ حالات الاغتصاب أكثر انتشارًا في بلاد الحريات الجنسية بحوالي مائة ضعف من تلك التي نُسمِّيها بالبلاد المحافظة.

٣١٨٧ تقرَّر منح سويسرا صفة دولة حيادية دائمة في مؤتمر ڤيينا عام ١٨١٥م بناءً على قرار الاتحاد الكونفدرالي السويسري والاتفاقية الدولية التي وقَّعت عليها القوى العظمى في ذلك الوقت. وحازت النمسا صفة مماثلة بعد الحرب العالمية الثانية، أيضًا من خلال اتفاقية دولية عام ١٩٥٥م.

٣١٩٠ فيما يتعلَّق بالهراء الذي تسمعه أحيانًا من أفواه السياسيين، لا يمكنك أن تُلقي اللومَ دائمًا عليهم وحدهم، فغالبًا يكون جمهورهم مُستحقًا لأكثر من هذا. أحيانًا يقول السياسي أشياء ضد قناعاته لأنَّ مستمعيه يتوقَّعونها. فغالبًا ما تكون الرسائل الصادقة الذكية غير مرغوبة ولا يقبلها الجمهور. ومن هنا يمكن فهم الحكمة التي تقول «كما تكونوا يُولَّى عليكم». ولهذا يكون لدينا إطلالة السياسيين الأذكياء المنافقين، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لدينا الأذكياء الشرفاء الذين يُحجمون تمامًا عن المشاركة في هذا الأمر. والنفاق السياسي في الأنظمة الديكتاتورية أقلّ منه في غيرها، إلا أنَّ هذا لا يتعلَّق إطلاقًا بالاستقامة والأخلاق، وإنَّما الأمر يتعلَّق بتجاهل الجمهور. فنحن لا نتملَّق مَن لا تهمُّنا آراؤهم.

٣١٩٢ كتبت حنَّا أرنت(*) Hannah Arendt في مكان ما أنَّ الاستبداد -سواء استبداد اليسار أو اليمين- يقوم على أشياء كثيرة منها تعبئة الشباب، أي حشد الشباب بدعوى الإطاحة «بالعالم القديم».

٣٢١٢. إنَّهم ينتخبون أنفسَهم (يُعيِّنون أنفسهم) ثم يُغدقون على أنفسهم أوسمةَ الشرف والتكريم.

٣٢١٤ قد نجد أنا وأنت صعوبة في إقناع الناس بأنَّ الشيوعية لا خير فيها. وحدهم الشيوعيون أقنعوا الناس بهذا بنجاح تام وكامل.

(*) حنَّا أرنت (١٩٠٦-١٩٧٥م) مُنظِّرة سياسية ألمانية من أصل يهودي، رفضت أن يُطلَق عليها لقب «فيلسوفة» لأنَّها ترى أن الفلسفة تهتم بالإنسان الفرد أما هي فتكتب عن جميع البشر الموجودين على الأرض. هاجرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد وصول النازيين إلى السلطة. تُركِّز أعمالها على قضايا السلطة والقوة والديمقراطية والاستبداد والعنف والثورة. من أعمالها «أصول الشمولية» و«في العنف» و«في الثورة». (المترجم)

٣٢٣٧ تؤدي التكنولوجيا إلى إنتاج القوى المُثمرة والمُدمِّرة على حدٍّ سواء، لكنَّها أكثر نجاحًا في تقديم القوى المُدمِّرة؛ وذلك لأنَّ التكنولوجيا المعاصرة لا يمكنها أن تخلق العالم، ولكنَّها قادرة على تدمير العالم. وعندما نكون بصدد القوة المُدمرة لموارد العالم وثرواته اليوم فعادة ما يتبادر إلى أذهاننا مشهد أسلحة الدمار الشامل الفتَّاكة وننسى تلك الأسلحة الأكثر مكرًا ودهاءً؛ على سبيل المثال، التلفيزيون الذي يُدمر بانتظام أسلوبَ الحياة التقليدي ويجلب إلى بيوتنا الجريمة والعنف ويُربِّي أولادنا.

٣٢٥٦ من الطبيعي أن يَضعُف النشاط العقلي لدى كل شخص دوغماطيقي. ففيم أفكِّر إذا كان كلُّ شيء تمّ التفكير فيه بالفعل؟ فالتفكير، في هذه الحالة، يبدو بالضرورة كأنَّه انتكاس وتراجع، كأنَّه إدخالٌ حتمي للارتباك والحيرة إلى ما هو واضح ومُؤكَّد.

٣٢٦٩ الإبادة الجماعية، وفقًا للتعريف الذي أقرَّته الجمعية العامة للأمم المتحدة بشكل نهائي في ١٩٤٦م، هي: «ارتكاب أي عمل بنيَّة الإبادة الكلية أو الجزئية لجماعة ما قومية أو دينية أو عرقية»؛ هذا العمل يمكن ارتكابة بشكل مباشر أو غير مباشر، ومن ثمَّ فالإبادة ليست قاصرة على الإبادة الجسدية، ولكن أيضًا قد تكون بشكل غير مباشر من خلال «وضع جماعة ما في ظروف معيشية تؤدي إلى اضمحلال مؤسساتها السياسية والاجتماعية والثقافية». تُعتبَر الإبادة الجماعية جريمة دولية ضد الإنسانية.

٣٢٧١ رغم أنَّنا نتمنى أن تكون الحقائق المزعجة المتعلِّقة ببعض الأخبار من إنتاج خيال مريض أو قصة رعب، إلا أنَّ الأمر ليس كذلك دائمًا. والمثال على ذلك هو البغاء في البرازيل. جاء في أحد تقارير «الاتحاد الدولي لحقوق الإنسان»، الذي أعدَّته مجموعة من الباحثين لصالح الأمم المتحدة، جاء فيه أنَّه يوجد في البرازيل حوالي سبعة ملايين فتاة قاصر (أعمارهن من ٨ إلى ١٢ سنة) يعشن من البغاء. ويوجد في منطقة دورادوس (ولاية ماتو غروسو) أكثر من ١٢٠٠ بيت دعارة، أغلقت الشرطة منها ٤٠٠ فقط حيث كانت تعمل بها فتيات قاصرات تحت سن العاشرة. ويُقدَّر عدد من يعملن في البغاء في مدينة ريسيفي (بها حوالي ٢ مليون نسمة) بأكثر من ٩٠,٠٠٠ امرأة (هذا هو الرقم الرسمي؛ ويُعتَقَد أنَّ الرقم الحقيقي أكبر من ذلك)، يعانين كلُّهن تقريبًا من أمراض تناسلية. وطبقًا لتقرير صادر عن

وزارة الصحة البرازيلية، يعاني حوالي ستة ملايين من البرازيليين من أمراض منتقلة جنسيًا، منهم ٢٠٠,٠٠٠ مصابون بمرض الزهري المزمن. والآن ينتشر المرض على شكل متوالية هندسية. ويكتب المخرج السينيمائي جلوبير روشا: «تدخل فتيات العائلات الفقيرة إلى عالم البغاء سريعًا. يبيعهن الآباء، ويغتصبهن السادة، ويستغلّهن القوّادون لجمع المال. وبعد هذا، فهن يلقين حتفهن تحت وطأة مرض السُّلِّ والجوع وطعنات السكّين وطلقات الرصاص والأمراض التناسلية. ويضعن أول طفل لهن عندما يبلغن الحادية عشرة أو الثانية عشرة من العمر، ثم يتركنه على عتبات الكنائس أو دور الأيتام، في الشوارع أو في مقالب الزبالة. وهناك أخريات يقتلن اطفالهن، ويدّعين أنّهم ماتوا نتيجة حادث مُؤسف ليجمعن بعض النقود التي تُوزَّع كصدقات في الجنازة طبقًا للعادة الشعبية» (نقلاً عن مجلة «قوس قزح»، بلغراد، ٩ يناير ١٩٨٨م). هل يمكن أن توجد قصة رعب تُعادل هذه القصة الواقعية؟

٣٢٧٣ زعم النازيون خلال تدميرهم لجمهورية ڤايمار عام ١٩٣٣م أنَّ برلمان ڤايمار كان مجرَّد مكان للثرثرة واللغو (إي إنَّ البرلمان دار للكلام الفارغ) وأنَّ المناقشات التي كانت تدور فيه ثرثرة فارغة.

٣٢٧٦ خلال السنوات الأخيرة من حكم أوليڤر كرومويل(*) Oliver Cromwell، دُعي عدد من الإنجليز الأكثر حكمة لتولِّي مقاليد السلطة. هذا المجلس الذي كان يُسميه الإنجليز «مجلس القدِّيسين» أو «مجلس الحكماء» سرعان ما تفسَّخ وفقد سلطته، ممَّا يُظهر أنَّه قد لا يكون الحكماء هم الأنسب لحلِّ المشكلات المعقَّدة التي تُقدِّمها الحياة.

٣٢٧٨ دائمًا ما كان منتحلو أعمال الفنَّانين الكبار يعيشون حياة أفضل من الفنَّانين أنفسهم. هذه هي القاعدة.

٣٢٨٢ قبل حوالي مائة عام كان الفحم هو المادَّة الخام للطاقة، وبعد خمسين عامًا حلَّ النفط مكانه، والآن احتلَّ الغاز هذه المكانة المهمة. البلد الذي يوجد به أكبر احتياطي من

(*) أوليڤر كرومويل (١٥٩٩-١٦٥٨م) قائد عسكري وسياسي إنجليزي، أصبح «اللورد الحامي» على الكومنولث الإنجليزي بعد أن هزم الملكيين في الحرب الأهلية. (المترجم)

الغاز (طبقًا للمعلومات الحالية) هو الاتحاد السوفييتي، ثم تأتي بعده إيران والولايات المتحدة والجزائر والمملكة العربية السعودية وكندا والمكسيك وهولندا وقطر والنرويج، إلا أنَّ احتياطي الاتحاد السوفييتي وإيران يُشكِّل حوالي ٦٠٪ من الاحتياطي العالمي. سيُستخدَم الغاز في المستقبل كمادة بتروكيميائية بدلاً من كونه مادة خام مُنتجة للطاقة (نقلاً عن صحيفة ڤيسنك، زاغرب، ١٦ يناير ١٩٨٨م).

٣٢٨٧ هذا الشكل من الفجاجة أو السذاجة الأمريكية المُشار إليه هنا قد يكون نتيجة لحقيقة أنَّ أمريكا لم يكن لها عصور وسطى. فهي لم تمر بهذه المدرسة القاسية التي مرَّت بها أوروبا، وهو ما يمكن استشعاره في آراء الأمريكيين وأسلوب حياتهم. ومن ثمَّ، فإنَّ أمريكا لا تمتلك هذين الألفي عام من المسيحية اللذين تمتلكهما أوروبا، ولهذا، على الأرجح، يبدو تديُّن الأمريكيين غريبًا ومُحيِّرًا إلى حدٍّ ما بالنسبة للأوروبيين. وقد أشار إلى هذا الكاتب الألماني مارتن والزر Martin Walser في أحد الحوارات معه (في ١٩٨٧م) قائلاً: «أسوأ ما رأيت في أمريكا هو علاقتهم بالدين. إنَّ وُعَّاظَ التلفيزيون هم شيء أسوأ بكثير مما يمكن تخيُّله، ورغم هذا فلهم تأثير هائل. بالنسبة لي، هذا أحد الأمراض الخاصة بالمقاولين الرأسماليين؛ الذين يُعامَلون باعتبارهم مقاولين دينيين أو شركات دينية كبرى تبيع الدين بالمعنى الحرفي بطريقة لا يمكن أن يتصوَّرها الأوروبيون».

٣٢٨٨. الأسئلة الخمسة -القوانين الخمسة- أو القواعد الذهبية الخمس للصحافة: مَن، ماذا، متى، أين، لماذا. في الحقيقة هي خمس قواعد للمعلومات الصادقة الكاملة التي تأتي في وقتها. وكما يحدث في حالات أخرى، فالقوانين موجودة لكي تُخالَف.

٣٣١٦. جاء في تقرير المجموعة الاقتصادية الأوروبية، وهو ما يُوضِّح الموقف الحالي في يوغوسلاڤيا: «هذه الاتفاقية الموقَّعة في بلغراد عام ١٩٨٠م [الإشارة هنا إلى الاتفاقية بين يوغوسلاڤيا والمجموعة الاقتصادية الأوروبية، هذا تعليق من عندي] هي اتفاقية فريدة من نوعها، ذلك أنَّ الدوافع السياسية التي تقف وراءها أكبر أثرًا من الدوافع الاقتصادية، أولاً بسبب التوترات المتصاعدة في يوغوسلاڤيا، ثم بسبب الدور المتزايد لدول الكتلة الشرقية ومجلس التعاون الاقتصادي في التجارة الخارجية ليوغوسلاڤيا، وكذلك بمقتضى

الموقف السياسي الحسَّاس الذي أعقب رحيل الرئيس تيتو. واعتمادًا على دوافع ذات طبيعة سياسية، هناك غياب تام لأي التزامات من جانب يوغوسلاڤيا بخصوص التنازلات المُتَّفَق عليها بينها وبين الأطراف الأخرى» (ورد هذا في البند الثاني، النقطة السابعة عشرة، في تقرير چورچيو روسيتي موفَد البرلمان الأوروبي، وهو التقرير المُقدَّم باسم لجنة العلاقات الخارجية). تمَّ التصديق على التقرير في جلسة البرلمان الأوروبي في يناير ١٩٨٨م (نُشر النصُّ الكامل للتقرير في مجلة ستار عدد ٦ فبراير ١٩٨٨م، ص ٦١-٦٣). هذا مثالٌ واضح على الأسلوب النفعي بدلاً من الأسلوب الذي يراعي المبادئ. لقد توقَّفت أوروبا عن النضال من أجل الفكرة منذ زمن طويل، وتحوَّل كلُّ شيءٍ إلى حسابات.

٣٣٣٦. يرى أورتيجا إي جاسيت(*) أنَّ الأقلِّية الرائدة في أي شعب لا بُدَّ ألا تقلَّ عن حدٍّ معين أو تزيد عن حدٍّ معين. فهي إن قلَّتْ ستعجز عن توجيه الأكثرية إلى الاتجاه المرغوب، وإن تضخَّمت ستنقسم وتبدأ الانشغال بنفسها، وتستهلكها المنافسات والصراعات.

٣٣٤٢. غالبًا هناك علاقة عكسية بين جودة القوانين واحترامها وبين عددها ودرجة إسهابها. وهذا ما تُوضِّحه الحقائق التالية: تتكوَّن الوصايا العشر التي غيَّرت العالم من أقلَّ من مائة كلمة. أطول دستور في العالم هو دستور يوغوسلاڤيا (٤٠٦ مادة)، وأقصر دستور هو الدستور الأمريكي الذي يتضمَّن ٧ مواد فقط (مع ٣٦ تعديلاً أُضيفت على مدى مائتي عام من وجود هذا الدستور). بل إنَّ الدولة التي تُعتَبَر مثالاً لدولة القانون -إنجلترا- لا يوجد بها دستور بالمعنى الاصطلاحي للكلمة. نيكاراجوا يوجد بها دستور ضخم (٣٣٦ مادة). وأنا أفترض أنَّ درجة القانونية ليست شيئًا يتناسب مع عدد السكَّان. فدستور جمهورية الجبل الأسود الفيدرالية، وهي مجرَّد وحدة فيدرالية من يوغوسلاڤيا ويسكنها نصف مليون نسمة، أكبر من دستور الهند التي يسكنها ٧٠٠ مليون نسمة ويوجد بها حوالي ٣٠ وحدة فيدرالية وعدد كبير من الجماعات العرقية والدينية. إنَّ الدستور الموجَز يكون غالبًا دليلاً على استمرارية النظام واستقراره.

(*) أورتيجا إي جاسيت Ortega Y Gasset (١٨٨٣ - ١٩٥٥م) فيلسوف إسباني ليبرالي، عمله الأشهر هو «ثورة الجماهير». (المترجم)

٣٣٤٣. كان جوبلز يُسمي الراديو «السلاح الروحي للدولة»، الدولة الاستبدادية بالطبع. ولا يوجد أيُّ سبب لعدم تصديقه (في هذه النقطة). بل إنَّه اقترح في عام ١٩٢٥م أن يكون كلُّ بيتٍ في ألمانيا لديه جهاز راديو.

٣٣٤٤ كان قدماء الإغريق يعتبرون أنَّ البرابرة هم من لا يزالون عاجزين عن الكلام، وهو ما يُفهَم من أصل كلمة «بربري»؛ الذي يتلعثم.

٣٣٥٩. طبقًا لتقديرات إيڤور بيستوزيفIgor Bestuzhev، مدير معهد التنبُّؤات الاجتماعية والتخطيط الاجتماعي في الاتحاد السوڤييتي، فإنَّ عدد سُكَّان المناطق الآسيوية من الاتحاد السوڤييتي، والتي تسكنها في الغالب شعوب مسلمة، قد زاد ثلاثة أضعاف منذ نهاية الحرب (أي خلال الأربعين سنة الماضية)، وسوف يتضاعف بحسب الرقم الحالي خلال الخمسة عشر عامًا القادمة. وفي باقي مناطق الاتحاد السوڤييتي يحدث العكس: تناقص عدد السكَّان، أُسَر لم تنجب سوى طفل واحد، عدد كبير من غير المتزوجين، زواج غير مستقر وسهل التمزُّق، ويرى أنَّ ٦٠٪ من حالات الزواج تنهار بسبب إدمان أحد الوالدين للخمور (نقلاً عن مجلة «اليوم»، زاغرب، ١٥ مارس ١٩٨٨م، ص ٧٤-٧٥).

٣٣٦٦. «الإباحية هي النظرية، والاغتصاب هو التطبيق» هذه الكلمات من أحد البيانات النسائية المناهضة للإباحية.

٣٣٦٧. يجري إنشاء ما يُطلَق عليه رأسمالية الشعب في الدول الغربية طبقًا للتوسُّع المستمر في عدد صغار حاملي الأسهم. وقد أثبت النظام الذي نشأ بهذه الطريقة نجاحًا اقتصاديًا كبيرًا. فقد ارتفع عدد حاملي الأسهم في بريطانيا خلال السنوات القليلة الماضية (١٩٨٠-١٩٨٨م) من ٢ مليون إلى ٩ مليون. وفي ١٩٨٢م باعت الحكومة البريطانية شركةَ النقل المملوكة للدولة، شركة الشحن القومية، للعاملين في الشركة فقط. هذه الشركة التي كانت تعمل عند مستوى ربح هزيل، ارتفعت قيمة الأسهم فيها اليوم إلى ٥٠ ضعفًا، بفضل الاهتمام المباشر للعامل-المالك. وسُجِّلت نتائج اقتصادية ممتازة في ١٦ شركة حكومية كبرى باعتها الحكومة البريطانية للقطاع الخاص (من بين هذه الشركات الشهيرة چاغوار والخطوط الجوية البريطانية وشركة الاتصالات البريطانية والمطارات،

إلخ). السمة الأساسية في هذه العملية هي أنَّ الأسهم قد بيعت للملايين من صغار المستثمرين. وفي فرنسا، بدأ تنفيذ عملية مماثلة بعد وصول چاك شيراك إلى السلطة. وفي غضون ثلاث سنوات ارتفع عدد حاملي الأسهم من مليون إلى ٥.٥ مليون شخص. ومن المثير أنَّه لا حكومة حزب العُمَّال في بريطانيا ولا المعارضة الاشتراكية في الدول الأوروبية الأخرى تدَّعي أنّها إذا انتُخبت سوف تؤمِّم ما وضعته حكومة اليمين في يد القطاع الخاص. ففكرة التأميم وملكية الدولة، والتي كانت يومًا ما فكرة «ثورية» وذات شعبية واسعة، يبدو أنَّها قد فقدت جاذبيتها تمامًا بعد تجربة كان من الواضح أنَّها حافلة بالأخطاء.

٣٣٦٩. لا تكمن الديمقراطية (والحرية) في أن نفعل كلَّ ما نريده، وإنَّما في أن نريد كلَّ ما نفعله (هذا ما يراه تولستوي).

٣٣٧٠. لماذا تبقى أحداث ١٩٦٨ مجرَّد ذكرى، وهي التي اجتاحت العالم كأنَّها حُمَّى؟ كان لا بدَّ لها أن تبقى مجرَّد ذكرى. فقد كانت تحاول مرَّة أخرى أن تحقِّق ما لا يمكن تحقيقه، ما تجاوزه التاريخ بالفعل. كانت تحاول بعثَ الحياة في مبادئ الماضي، هذه المبادئ التي لم تعد ذات صلة بالواقع. وكلُّ ما حدث بعد ذلك -الحركة المحافظة في الغرب والصحوة الدينية حول العالم- يُثبت أنَّ مبادئ ١٩٦٨ كانت خارج زمانها وخارج المسار التاريخي عمومًا. فمبادئ ذلك الجيل لم تكن بالبراءة التي كانت عليها في مطلع القرن العشرين، لأنَّها كانت قد أُثقلَت بالفعل بأخطاء محاولات تطبيقها.

٣٣٨٤. كان هيجل يعتقد أنَّنا نعيش في زمن أفول الفن، وأنَّ إدراك الفن أصبح أكثر أهمية من الفن ذاته؛ حيث يحلُّ التفكير العقلي مكان الإبداع التلقائي. ذكر هيجل هذا منذ أكثر من ١٥٠ عامًا. مرَّةً أخرى تفشل التنبُّؤات، فالأحداث لم تُثبت ما قاله هيجل. لا يمكن التنبُّؤ بالتاريخ.

٣٣٨٦. كان هناك شخص ما قال: «لدينا اختلافات مشتركة فقط».

٣٣٨٨. لا يمكن أن يكون الإنسانَ مجرَّد وسيلة. كلُّ استعمال للإنسان هو امتهانٌ له.

٣٣٩٢. دعت الثورة الفرنسية إلى العقل، وباسم العقل قامت بإعدام الآلاف من العقلاء بالمقصلة.

٣٤٠٤ من يذهب ليُعلِّم الناس، ولا يتعلّم منهم شيئًا، فهو مغرور أحمق. وهذا اللقاء بينه وبين الناس لن يعود عليه ولا على الناس بخير.

٣٤٠٩. قرأتُ للتوِّ أنَّ مراكز الجلوس والحركة والاتزان تقع في المخيخ/ الجزء الخلفي من الدماغ، وأنَّ مركز الإبداع الإنساني يقع في المخ/ الجزء الأمامي من الدماغ. من الواضح أنَّ بعض الناس لديهم مخيخ أكثر نموًا من المخ.

٣٤٤٠. الديمقراطية لا تعني فقط حكم الأكثرية. فكما أنَّ كلَّ قانون هو دفاع عن الأضعف، فكذلك تكون الديمقراطية دفاعًا عن الأقلية. ومن دون هذا البعد الثاني، سيتحوَّل حكم الأغلبية إلى استبداد مثل أي شكلٍ آخر من الاستبداد.

٣٤٤٦. نال العمل مكانته الرفيعة في العالم الغربي لأول مرة في إحدى وصايا مارتن لوثر الخمس والتسعين الشهيرة. تقول هذه الوصية: «صَلِّ واعمل». هذه الوصية تُمثِّل أساس أخلاق العمل البروتستانتية الشهيرة. قبل ذلك، كان العمل حتى ذلك الوقت مُساويًا للمعاناة والعبودية، والعمل البدني لا يليق بالأحرار. ومن خلال «صلِّ واعمل» وضع لوثر العمل في المستوى نفسه مع الصلاة باعتباره أيضًا أحد وسائل عبادة الله، وبهذا يكون قد رسَّخ الأُسسَ العملية للأخلاق البروتستانتية، بل ولقوة الشعوب التي اعتنقتها.

٣٤٤٧ دمَّر جنكيز خان -الذي وصفه أحد المؤرِّخين بأنَّه بمثابة «القنبلة الذرية في زمانه»- دمَّر دولة أفغانستان والحضارة التي جاء الإسلام بها إليها في القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري. أحرق المدن، ودمَّر المباني الجميلة والسدود وأنظمة الري، وحوَّل الأراضي المزدهرة إلى صحراء. ولم تتعافَ أفغانستان حتى اليوم من تلك الكارثة، فأجزاء كبيرة منها لا تزال اليوم صحراء بسبب هذا الدمار الذي لم يسبق له مثيل.

٣٤٤٩. البوسنة «وجمالها الخفي» (التعبير لإيفو أندريتش)، «أرض الانقطاعات التاريخية الحضارية».

٣٤٥٦. منذ ١٩٦١م وحتى الآن، تخرَّج حوالي ٧٠٠٠ أفغاني من المدارس العسكرية في الاتحاد السوفييتي ودول الكتلة الشرقية، وهو ما يُعادل تقريبًا كلَّ قيادات الجيش

الأفغاني. وهل هناك حاجة للتذكير بأنَّ التدريبَ العسكري يُلازمه تلقينٌ سياسي؟ النتيجة معروفة.

٣٤٦٣. تُخصِّص الدول المتقدمة موارد هائلة لبرامج مختلفة لحماية الفقراء والطبقات المعدمة من السكّان. في الولايات المتحدة، خُصِّص ٤٩١ مليار دولار لهذه الأغراض، ويُتوقَّع أن يرتفع المبلغ إلى ٥١١ مليار دولار في ١٩٨٨م، وهو ما يُعادل ١١٪ من إجمالي الناتج القومي. ستُنفَق هذه الموارد على الوقاية الصحية للفقراء والعاطلين عن العمل، ومساعدات للإسكان، والتدريب المِهَني، والتعليم التكميلي، والإعانة المباشرة أيضًا في صورة طعام من خلال تقديم «كوبونات غذائية»، والتوزيع المجّاني للفائض من الحاصلات الزراعية التي اشترتها الدولة من المزارعين. ولا يزال الجزء الأكبر من هذا المبلغ يذهب إلى الضمان الاجتماعي والتأمين الصحي والمعاشات. وحدُّ الفقر في الولايات المتحدة للأسرة المكوَّنة من أربعة أفراد هو ١١,٠٠٠ دولار كدخل سنوي. ويُعتَقَد أن خُمْسَ الإيطاليين يعيشون في مستوى يستلزم مساعدات من الدولة. وتُوضِّح البيانات الإحصائية في فرنسا أنَّ ١٥٪ من السكّان يعيشون تحت خطِّ الفَقر أو عند خطِّ الفقر (طبقًا لمعاييرهم). وطبقًا لمعايير الاتحاد الأوروبي، فمن لا يكون تحت تصرِّفه ٥٠ فرنك يوميًا يُعتبر فقيراً. ويُعتَقَد أنَّه يوجد في ألمانيا حوالي ثلاثة ملايين فقير، وهو العدد نفسه لمن يعيشون على المساعدات الاجتماعية وحدها. وهناك عدد إضافي يبلغ ٢.٢ مليون من السكّان يحصلون على مساعدات لتغطية نفقات الإسكان والغذاء والملابس. النظام الأكثر أهمية المُتَّبع في هذا النوع من المساعدات في ألمانيا هو الإسهام الإجباري بنسبة ٢,٣٪ من دخل كلِّ الموظَّفين وأصحاب الأعمال، ممَّا يُوفِّر ٥٠ مليار مارك ألماني سنويًا، وكان الغرض الأولي منه هو مساعدة العاطلين عن العمل. ومن بين ٥٦ مليون بريطاني، هناك أكثر من ثمانية ملايين يحصلون على نوعٍ ما من المساعدات أو لديهم بعض الامتيازات الاجتماعية، وقد خُصِّص لهذا الغرض ٩٠ مليار دولار سنويًا (جاء هذا في مقال «الفقر الجديد» في مجلة «اليوم»، ٣ مايو ١٩٨٨م، ص ٨).

٣٤٦٦. (معاداة اليهود، هذه بعض الحقائق التاريخية التي تتعلَّق بمنطقة يوغوسلافيا الحالية): خلال الفترة ما بين القرنين الخامس والثامن الميلاديين أصدر البيزنطيون قوانين

أدَّت إلى إكراه الكثير من اليهود في مقدونيا على التحوُّل إلى المسيحية. وفي دوبروڤنك، في ١٥٠٢م، حُوكم أحد عشر يهوديًا بتهمة «القتل الطقوسي» Ritual Killing، ونَجَم عن المحاكمة أنَّ أحدهم مات خنقًا في السجن، وأربعة أحرِقوا أحياءً، وثلاثة ماتوا تحت التعذيب، ونُفِيَ الباقون. وفي ١٧٩٧م أصدر «مجلس الحكماء» قانونًا يحظر على اليهود دخول المقاهي. وفي مدينة سبليت، في ١٥٥٣م، أُحرقَت جميع الكتب المقدَّسة اليهودية وصدر أمر لليهود بأن يرتدوا شارة صفراء، وهي التي ظهرت أول مرة في ڤينيسيا في ١٣١٤م. وفي منطقة سلوڤينيا، نُفِي جميع اليهود من كوروسكا وشتايرسكا وليوبليانا طبقًا للمرسوم الذي أصدره الإمبراطور ماكسيميليان. وفي مقاطعة ڤويڤودينا مُنِع اليهود من الإقامة في المدن، وحدث العكس في صربيا؛ حيث منعهم الأمير ميهايلو، ابن الأمير ميلوش، من مغادرة المدن والتوغّل داخل البلاد. وفي البوسنة والهرسك، حظر عليهم العثمانيون ارتداء زي المسلمين: ارتداء العمامة وملابس خضراء اللون، ولم يُسمَح لهم كذلك بركوب الخيل في المدينة وتقلُّد السلاح. وفي مؤتمر برلين مُنِح اليهود رسميًا كامل الحقوق المدنية.

٣٤٨٣. في كتاب «مسلمو مقدونيا: الماضي والحاضر» يتصدَّى المؤلِّف ياكم سينادينوڤسكي Jakim Sinadinovski، أستاذ علم الاجتماع في جامعة سكوبيه، يتصدَّى للقضية المتعلِّقة باعتناق المقدونيين الإسلام ويزعم أنَّ المسلمين في مقدونيا هم جماعة عرقية مستقلة نمَت بشكل لافت تحت تأثير العامل الديني، وأنَّ المسلمين يختلفون عن المقدونيين في أسلوب التعبير اللغوي والزي والمعايير الأخلاقية والعادات وثقافة البيت والطعام بل وفي نمط الحياة الاقتصادية، ممَّا يُضفي على هذه الجماعة هوية مستقلَّة. أحدث الكتابُ ردَّ فعل قوي بين من يقولون إنَّ المسلمين في مقدونيا هم مقدونيون ذوو عقيدة إسلامية، أي إنَّهم مقدونيون اعتنقوا الإسلام ومن ثمَّ فهم جزء من الشعب المقدوني. طُبِع الكتاب في مطلع عام ١٩٨٨م في سكوبيه.

٣٤٨٦. يريد البعض أن يُساوي بين الرجل والمرأة حرفيًا، ليس في الحقوق والكرامة الإنسانية؛ وإنَّما في طريقة الحياة ونوع العمل والزي والسلوك، أي في كلِّ شيءٍ يختلف

فيه هذان الجنسان بطبيعتهما. ولكن من ناحية أخرى، يقول علماء النفس إنَّه يوجد طريقة كتابة «ذكورية» وطريقة كتابة «أنثوية»، وأدب ذكوري وأدب أنثوي، بل وطريقة قراءة «ذكورية» وطريقة قراءة «أنثوية». كما كتب ميلوراد باڤيتش Milorad Pavit نسختين من روايته «معجم الخزر» واحدة ذكورية وأخرى أنثوية. عندما تُسافر بالقطار في الاتحاد السوڤييتي يمكنك أن ترى على طول خطِّ السكك الحديدية، أثناء عاصفة شتوية عند درجة حرارة عشرين درجة تحت الصفر، يمكنك أن ترى نساء يعملن في القضبان الحديدية، ليس كاستثناء أو حالات فردية، وإنَّما المئات منهن. هذه هي «المساواة» التي يقصدونها.

٣٥٠١. كثيرًا ما تتعارض خطة العمل مع مَن سيطبِّقها، فصفوة الناس كثيرًا ما يُقدِّمون خطة غير واقعية ومُعوِّقة، والعكس صحيح، أي خطة جيدة ومُنفِّذون غير أكفَّاء.

٣٥٠٤ يقول رالف إيمرسون Ralph Emerson: «فلنعتمد على التجارة، وسيشهد التاريخ أنَّ التجارة كانت مبدأ الحرية وأنَّها رسَّخت وجود أمريكا وقضت على الإقطاع، وأنَّها تصنع السلام وتحافظ عليه، وأنَّها ستقضي على العبودية» (إيمرسون، اليوميات). قارن هذا بما جاء في القرآن الكريم: ﴿ **وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وحَرَّمَ الرِّبَا** ﴾.

٣٥٠٥. يقول إيمرسون: «إذا بقي المحصول في المخازن الخاصة، أي في مخازن الحبوب لدى كلِّ مُزارع وسلَّة كلِّ امرأة، فإنَّه سيظلُّ محفوظًا بشكل أفضل ولمدَّة أطول ممَّا لو حُفظ في صوامع الدولة. وبالمثل، فكلُّ مبلغ من المال إذا أنفقه كلُّ رجل وكلُّ امرأة على حاجاتهم الخاصة مع الشعور بأنَّ المال ملكٌ لهم، فإنَّه سيدوم لوقت أطول وسوف يُستَغَلُّ بشكل أفضل ممَّا لو أنفقه مدير كبير أو مندوب وزارة المالية. إذا سلبتَني الشعور بأنَّني يجب عليَّ أن أعتمد على نفسي، وإذا أعطيتني أقلَّ إشارة بأنَّني لدي أصدقاء ومساعدون طيبون سوف يساعدونني بكلِّ سرور، فإنَّني سأفقد على الفور ما لديَّ من دأب ومثابرة. وسوف يتسلَّل التراخي والكسل إلى إدراتي لكلِّ شئوني. هذه ورقة من فئة المائة دولار، دعها تقع في يد رجل مُسرف لا يكسب ما يُنفقه وسوف ترى أنَّها لم تُغيِّر في شئون حياته إلا قليلاً. وفي نهاية العام ستجد أنَّه لا يزال مدينًا ومتأخِّرًا كما هو وأنَّه لم ينتفع إطلاقًا بهذه المائة دولار. ولكن دعها تقع في يد امرأة فقيرة حكيمة، وستجد أنَّ كلَّ سنت منها سيذهب إمَّا

لتخفيض دَيْنٍ أو لإضافة قدر من الراحة الراهنة أو الدائمة أو لإصلاح نافذة أو لشراء بطّانية أو معطف أو لشراء موقد بدلاً من المدفأة القديمة». كتب إيمرسون هذا في يومياته في ديسمبر ١٨٤٢م. وقد نقلتُ هذا الاقتباسَ الطويل لأنَّ الأمر كلَّف ١٥٠ عامًا وحيرة ١٠٠ مليون إنسان وخسارة آلاف المليارات من الدخل القومي من أجل إدراك هذه الحقيقة البسيطة.

٣٥٠٦. الضعفاء هم الذين يؤيدون ويدعون إلى السلطة الاستبدادية. إنَّهم يفتقدون شعور الاعتداد بالنفس الذي تنبثق منه الرغبة في الحرية والاستقلال. الإنسان الضعيف يهرب من الحرية والمسئولية، والسلطة الاستبدادية تُمثِّل له ملاذًا من هذا العبء الذي يمكن للمرء أن يحيا مستريحًا بدونه. الشرط المُسبَق لهذا الأمر معروف، فلماذا نُكرِّره؟

٣٥١٥. إنَّ الطموح الشديد والعفوي للمعرفة كما تُمثِّله حالة معاهد الليسيوم الأمريكية Lyceums في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي هو ما يُعبِّر بصدق عن مستقبل عظيم لأي أمة. الليسيوم، وهو نموذج للجامعة الشعبية، هي حركة أمريكية مميَّزة ازدهرت ما بين ١٨٣٠م و١٨٦٠م، حيث يتَّحد مجموعة من المواطنين ويجمعون المال ويوجِّهون الدعوات للمحاضرين ليحلُّوا ضيوفًا في بيوتهم خلال فصل الشتاء. كان هناك أكثر من ألفي معهد ليسيوم في أمريكا حين كانت هذه الحركة في أوج نشاطها.

٣٥١٦. يُحبُّون الحديث عن استقلال الدولة، ولكن يتحدَّثون على مضض عن استقلال المواطنين. هذا الاستقلال، الذي لا توجد حرية بدونه، يمكن قمعُه (تدميرُه، سَلْبُه، سحقُه) عبر الإرهاب أو عبر الإقناع المستمر و«غسيل الدماغ» على حدٍّ سواء. وبصرف النظر عن الطريقة المُستخدَمة، فالنتيجة واحدة: إنسان عالة مقهور، قد يكون أيَّ شيءٍ إلا أن يكون مواطنًا.

٣٥١٧. تنبَّأ نابليون بمستقبل عظيم لأمريكا في وقت مبكِّر في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، حيث قال: «ستقود أمريكا النظام السياسي العالمي في غضون خمسة وعشرين عامًا». من الواضح أنَّه لم يكن مجرَّد عسكري عظيم فحسب؛ إذ كان لديه وعيٌ بالتاريخ لا يمكن إنكاره. ومن المعروف عنه أنَّ له تنبُّؤًا مماثلاً قبل معركة ڤالمي، حيث قال: «هذه بداية حقبة جديدة في تاريخ الإنسانية، ويمكنك أن تقول إنَّك قد عشتها» (كما ذكر جوته).

٣٥٢٠. ما دلالة ذكر قصة خلق أول إنسان في القرآن الكريم (سورة البقرة، الآيات ٣٠-٣٤)؟ إنَّها تتضمَّن شيئين، على الأقل، على قدر بالغ من الأهمية: (١) أنَّ الناس جميعًا، إن لم يكونوا أخوة، فهم أبناء عمومة في الأصل، ومن ثمَّ فهم متساوون، (٢) في البدء كان هناك رجلٌ وامرأة، ثم أفراد وشعب. يترتَّب على هذا أنَّ «حقوق الإنسان» أقدم (وأهم) من حقوق الشعوب والقبائل والمجتمعات والدول. حقوق الإنسان هي الأصل، والبقية فرع عنه.

٣٥٢٣. خصَّصت مارجريت دوراس(*) Marguerite Duras أكبر فصلٍ في كتابها «الحياة الحقيقية» للبيت باعتباره عالمَ المرأة.

٣٥٢٤. جاء في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان: «لكلِّ شخصٍ الحقُّ في حرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحقُّ حريةَ اعتناق الآراء دون أي تدخُّل، واستقاء الأنباء والأفكار وتلقِّيها وإذاعتها بأية وسيلة كانت دون تقيُّدٍ بالحدود الجغرافية» (المادة التاسعة عشر من الإعلان).

٣٥٢٥. أكثر أشكال العنف شيوعًا في العالم هو العنف العائلي. ورغم ذلك، فإنَّ هذا العنف يظلُّ غير مُكتَشَف ودون عقاب، لأنَّه يحدث وراء جدران البيت «الذي لا تُنتَهك حرمته» وفي الحياة الخاصةَ.

٣٥٢٦. يبدو مثيرًا ما جاء في دراسة أوضحت كيف أنَّ سكَّان الولايات المتحدة الأوروبية المُقبلة (الاتحاد الأوروبي حاليًا) وضعوا قائمة تتضمَّن القيم العشر التي رأوا أنَّها تستحقُّ الأولوية في اهتماماتهم. فقد وضعوا على رأس القائمة المساواة بين الجنسين، ثم جاء بعد ذلك: حماية البيئة، السلام العالمي، الكفاح ضد الفقر، الدفاع القومي، حرية العقيدة، توحيد أوروبا، الحرية الشخصية، حقوق الإنسان، و(في المرتبة العاشرة) الثورة. أُجريت هذه الدراسة في مطلع عام ١٩٨٨م (نقلاً عن صحيفة ڤيسنك، زاغرب، ٢٨ مايو ١٩٨٨م، ص ٥).

(*) مارجريت دوراس (١٩١٤-١٩٩٦م) كاتبة وشاعرة ومخرجة فرنسية. أشهر أعمالها رواية «العاشق» التي نالت عنها جائزة الغونكور في فرنسا، وهي التي كتبت سيناريو الفيلم الفرنسي الشهير "هيروشيما حبيبتي". (المترجم)

٣٥٦٨ السياسة مليئة بالتناقضات (مثل الحياة نفسها). فمثلاً، لا يملك عقدَ اتفاقات مع الشيوعيين وتقديم تنازلات لهم إلا المعروفون بعدائهم للشيوعية، مثل نيكسون وريغان، وأي شخصٍ آخر يفعل هذا قد يُتَّهم بالعمالة للشيوعيين أو بأنَّه ساذج سياسيًا.

٣٥٧٢ قدَّم الأمريكيون ٩٣ مليار دولار كمساعدات خيرية في عام ١٩٨٧م (كما جاء في صحيفة التحرير، ٣٨ يونيو ١٩٨٨م). إنَّ إعطاء الآخرين، أي التكافل، هو شيءٌ طبيعي بين البشر، ويظهر في كلِّ مكان في العالم كجانب أساسي من الحياة المتحضِّرة.

٣٥٧٧ قالت ماري إبنر إيشنباخ(*) Marie Ebner-Eschenbach إنَّ أعدى أعداء الحرية، إلى جانب الطغاة ورجال السلطة، هم العبيد السعداء. علَّق دانكو بليڤنك Danko Plevnik على هذه الفكرة قائلاً: «إنَّهم هؤلاء الناس البسطاء التافهون الذي يؤجِّجون محرقة السلطة قصيرة النظر بأن يُلقوا فيها أغصان إيمانهم الأعمى بتفاهات السلطة».

٣٦٢٤ الإنسان الواعي بذاته ذو الروح الأصيلة إمَّا أن يكون ناسكًا أو داعية، كما يقول ليو بيك Leo baeck. أمَّا الناسك فيرتبط بما حوله بطريقة سلبية (انطوائية)، وأمَّا الداعية فيرتبط بالعالم بطريقة حيوية حركية. الأول يُغيِّر نفسه فقط، أمَّا الثاني فيحاول تغيير العالم، أي تغيير المحيطين به. هذا النوع الثاني الحركي لا يمكن أن يسود إلا في جماعة واحدة أو شعب واحد. ووفقًا لرأي ليو بيك، فالشعب اليهودي هو مثال مميَّز - وربَّما المثال الأوضح- لهذه الشخصية الحركية. بالإضافة إلى ذلك، لا يمكن لمثل هذه الروح أن توجد إلا في مجتمع صغير أو عشيرة.

٣٦٢٧ (عامل الزمن): سأل رجل أمريكي رجلاً إنجليزيًا كيف يمكنه زراعة مثل هذا العشب الرائع، فأجاب الإنجليزي: «لا شيء أسهل من هذا، نرويه بانتظام ونُقلِّمه كلَّ صباح ومساء». فقال الأمريكي: «وهذا هو ما أفعله، إلا أن عُشبي هزيل مثير للشفقة». فقال الإنجليزي: «نعم، ولكنَّنا نفعل هذا منذ أربعمائة سنة».

(*) ماري إبنر إيشنباخ (١٨٣٠-١٩١٦م) كاتبة وروائية نمسوية، عُرفت برواياتها ذات البعد النفسي، وتُعتَبر من أهم من كتبوا بالألمانية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. (المترجم)

اليوم بلغت حفيدتي الصغيرة ياسمينة الخامسةَ من عمرها، فقد وُلِدَت في ١٠ أغسطس ١٩٨٣م أثناء محاكمتي. حبيبتي ياسمينة.

٣٦٤١ تطوَّرت الصناعة اليابانية بشكل سريع. فمثلاً، بدأت صناعة المركبات ذات المُحرِّك عام ١٩٣٠م، وأُنتِج في ذلك العام ٤٥٨ شاحنة وحافلة. وفي ١٩٦٥م أُنتِج حوالي ١,٩ مليون مركبة، وفي ١٩٨٦م حوالي ١٢,٣ مليون مركبة. واليابان اليوم (١٩٨٨م) هي أكبر مُنتِج للسيارات في العالم (تتبعها الولايات المتحدة وألمانيا الغربية).

٣٦٤٨ المُشاركة سمة مميِّزة للإنسان. بعض الحيوانات، على سبيل المثال، تصطاد في جماعات، إلا أنَّها تأكل الصيد فُرادى. وبينما تُوفِّر جميع الحيوانات الطعام لنفسها ولصغارها فقط، فإنَّ الاقتسام الجماعي للطعام سمة مميِّزة للإنسان فقط. تقول عالمة الأنثروبولوجيا غلينا إيزاك Glinas Isaac: «لو كان بإمكان الشيمبانزي أن يصف ما يُميِّز الإنسان لأشار أولاً إلى أنَّه الكائن الذي يقتسم الطعام مع أفراد الجماعة الآخرين».

٣٦٥٤ يُقدِّم عالم النفس الأمريكي كارل روجرز Carl Rogers في كتاب «أن تصير إنسانًا» قاعدة فعَّالة للحوار، وهي، حسب رأيه، كالتالي: يمكن للمرء أن يُبدي رأيه بعد أن يستطيع أن يُكرِّر بشكل صحيح أفكار من يُحاوره، وبطريقة تُرضي من تكلَّم في البداية. يقول روجرز: «ولكن إذا حاولتَ أن تفعل هذا، ستجد أنَّه أحد أصعب الأشياء التي حاولتَ القيام بها. ومع هذا، بمجرَّد أن تكون قادراً على إدراك وجهة نظر الشخص الآخر، فإنَّ آراءك ستختلف تمامًا. وستجد كذلك أنَّ الانفعالات تختفي من الحوارات، وأنَّ الاختلافات قد تضاءلت، وما بقي منها فهو قدر معقول ويمكن تفهُّمه». ومن ثمَّ، فأن تكون إنسانًا يعني، من بين أشياء أخرى، أن تكون قادراً على فهم إنسان آخر بأفضل ما يمكن، أي أن تكون قادراً على أن تضع نفسك مكان الآخر، أن تعيش للحظات في جلد شخص آخر. هذه إحدى العلامات المؤكَّدة للشخص الناضج.

٣٦٥٦ دفعت ألمانيا الغربية ٩٠٠٠ مارك ألماني سنويًا لرومانيا مقابل كلِّ فرد من الأقلية الألمانية يُسمَح له بمغادرة رومانيا إلى ألمانيا. وبهذا تكون ألمانيا الغربية قد «أعادت شراء» مائة ألف لاجئ، كما جاء في أحد تقارير هيئة الإذاعة البريطانية BBC. وعندما كُشف

هذا الأمر، كان ردُّ فعل الكثيرين يفيض بالمرارة، خصوصًا المفكِّرين المجريين الذين كان مواطنوهم يتعرَّضون للخطر في رومانيا. وجاء في بيان المنتدى الديمقراطي المجري في أغسطس ١٩٨٨م: «نحن قلقون للغاية على هؤلاء البشر الذين يتحوَّلون إلى سِلَعٍ لا قيمة لها. إن الثمن ليس فقط مجرَّد مبلغ من المال، ولكنَّه أيضًا دعمٌ أخلاقي وسياسي لواحدة من أكثر ديكتاتوريات العالم انحطاطًا في هذا القرن» (صحيفة ڤيسنك، ٢٥ أغسطس ١٩٨٨م). وبخصوص هذا الأمر، يمكن للمرء أن يستشهد بعبارة للبروفيسور إيڤو باناتش Ivo Banac، وهو مؤرِّخٌ أمريكي من أصل يوغوسلاڤي ومؤلِّف كتاب «المسألة القومية في يوغوسلاڤيا»، حيث يتحدَّث عن مفارقة غير متوقَّعة بخصوص مشكلة القومية التي لا تجد لها حلًا في جميع الدول الاشتراكية تقريبًا، قال: «سأتحدَّث بسخرية: يمكن للمرء اليوم أن يتكلَّم عن «القومية البروليتارية» و«الدولية البورجوازية». حاول فقط أن تراقب ما يحدث في الاتحاد السوڤييتي، وكيف هي العلاقات بين المجريين والرومانيين، ولا داعي لذكر ما يحدث في كوسوڤو» (مجلة «اليوم»، ٢٥ أغسطس ١٩٨٨م).

٣٦٥٨. يقول أوسكار وايلد: «الثقافة بحاجة إلى العبيد، وإذا لم يوجد العبيد للقيام بالأعمال القبيحة والرهيبة والمُملَّة فسوف تصبح الثقافة أمرًا مستحيلاً. إنَّ استعباد الإنسان أمر خاطئ ومُفسد للأخلاق. ولذلك، سيعتمد مستقبل العالم على الاستعباد الآلي، استعباد الآلة».

٣٦٦٢. كان تطوُّر القانون الجنائي والعلوم المتعلِّقة به (علم الإجرام، علم العقاب، إعادة التأهيل) كان موسومًا خلال المائة سنة الأخيرة بما يُطلق عليه عادة «الأنسنة» humanization، مثل تخفيف العقوبة وتلطيف ظروف تنفيذها وإلغاء العقوبة الجسدية، خصوصًا عقوبة الإعدام. ولكن ما الذي كان يعرفه منظِّرو القانون الجنائي، الذين أيَّدوا هذه الأفكار، عن البشر الذين ارتكبوا الأفعال الإجرامية؟ على الأرجح، فإنَّ أغلب هؤلاء المنظِّرين، حتى النُوَّاب العموم والقضاة، لم يعرفوا حياة هؤلاء الناس الذين يتكلَّمون عنهم ولا من أي طراز هم. إنَّهم يكتبون الكتب دون حتى محاولة معرفة هؤلاء المجرمين، من يكونون، من هم في الحقيقة، من أي «طينة إنسانية» خُلقوا. وهذا وجهٌ واحد

للمشكلة. ولهذا السبب، فهذه «الأنسنة» في معاملة المجرم يراها الضحية لا مبالاة تامَّة أو عفوًا كاملاً. ومن الواضح أنَّ إلغاء عقوبة الإعدام كان بمثابة راحة كبيرة للقاتل، إلا أنَّه بالتأكيد كان يعني أيضًا تقليل الشعور بالأمن لدى الأبرياء، أي الضحايا المحتملين لهذه الجرائم. هذه النزعة الإنسانية في معاملة المجرم كانت تعني وحشية تجاه إنسان برئ، تجاه ضحية محتملة. وكردٍّ فعل على هذا، تطوَّر مؤخَّرًا حقل معرفي جديد يُعرف باسم علم دراسة سلوك الضحية victimology، والذي يحاول إيجاد نوع من التوازن ويسعى إلى دراسة الجريمة من موقع الضحية أيضًا. ومن المتوقَّع أن يُقدِّم هذا الحقل المعرفي الجديد المزيد من العدالة إلى القانون الجنائي وأن يكون بمثابة تعويض عن الميل المستمر لتقديم التعاطف والرحمة في ظروف تقتضي عدم جدوى مراعاة المشاعر أو الرحمة.

٣٦٦٣ لسنا منقسمين إلى أُناس أخيار وأُناسٍ أشرار فحسب، ولكنَّنا منقسمون إلى أخيار وأشرار في داخلنا. فالانقسام ليس بين الناسِ، وإنَّما داخلهم. وهناك كذلك انقسام بين الناس إلى أخيار وأشرار، ولكنَّه انقسام ثانوي ناشئ عن قدر معين من التوازن بين الخير والشر داخل الإنسان. الانقسام الأساسي هو المتعلِّق بالخير والشر الموجود داخل الناس. ومن ثمَّ، فالصراع صراع ذاتي جوَّاني درامي، وليس صراعًا اجتماعيًا برَّانيًا. الصراع الحقيقي موجود داخل الروح.

٣٦٦٧. بالنسبة للروح، وحتى الثقافة، فمبدأ التراتبية متأصِّل وراسخ فيها. ولكنَّه شيءٌ دخيل وغريب على الديمقراطية. ولذلك ينبغي أن يكون السؤال هكذا: ما العلاقة بين الثقافة والديمقراطية؟

٣٦٧١. عبَّر إرنست غيلنر Ernest Gellner في كتابه «الأمم والقومية» عن رأي يقول إنَّ مظاهر العمل القومي ليست سمة ثابتة لدى الناس، ولكنَّها تصبح رائجة في وقت الأزمة.

على هامش كتاب
الإسلام بين الشرق والغرب

الفصل الرابع

على هامش كتاب الإسلام بين الشرق والغرب

إلى القارئ الذي لم يقرأ شيئًا من كتاب الإسلام بين الشرق والغرب، ومن أجل توجيه وفهم أفضل للملاحظات التالية، سأقدِّم مضمونَ الكتاب باختصار. الأفكار الأساسية في الكتاب كالتالي: هناك فقط ثلاث رؤى للعالم، ولا يمكن وجود غيرها: الرؤية الدينية والرؤية المادية والرؤية الإسلامية. كلُّ شيءٍ خُلقَ زوجين، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ومِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجينِ﴾. الإنسان مخلوق ذو طبيعة ازدواجية: جسد وروح، والجسد ما هو إلا «حاملٌ للروح». هذا الحامل مرَّ بمراحل من النموِّ، ومن ثمَّ، فله تاريخه، بينما الروح لا تاريخ لها، فهي نفخة من روح الله. الجسد يخضع للعلم، أمَّا الروح فتخضع للفنِّ والأخلاق. ومن ثمَّ، هناك روايتان وحقيقتان حول الإنسان، يُمثِّلهما في العالم الغربي داروين ومايكل أنجلو. فلا داروين يتحدَّث عن إنسان مايكل أنجلو، ولا إنسان مايكل أنجلو هو إنسان داروين. فحقيقةُ كلٍّ منهما مختلفة عن الأخرى، ولكن لا تُلغي إحداهما الأخرى. وقد تجلَّت هاتان الحقيقتان عبر التاريخ في صورتين متعارضتين؛ الحضارة والثقافة، بالترتيب. ينتمي العلم والتكنولوجيا إلى الحضارة، بينما ينتمي الدين والفنُّ إلى الثقافة. الحضارة تعبير عن الحاجات الإنسانية (كيف أعيش؟)، أمَّا الثقافة فهي تعبير عن الطموحات والتطلُّعات الروحية الإنسانية (لماذا أعيش؟). وهذا هو الاختلاف بين الطوبيا والدراما. فالطوبيا ليس موضوعها الفرد ولا الدراما ولا الأخلاق. المنهج العلمي في مجموعه يؤدِّي إلى إنكار وجود الله والإنسان، بينما الفنُّ عمومًا فذو صبغة دينية في جوهره. إذا لم يكن الله موجودًا فلا وجود للإنسان. وإذا لم يوجد الإنسان، فالإنسانية والكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان تصبح مجرَّد كلمات فارغة بلا جوهر. لا تعرف الحضارةُ فكرةَ الواجب، بينما الثقافة بأسرها هي تأكيد على فكْرة التضحية. تسعى الحضارة إلى إقامة «مملكة الأرض»؛ المساواة الطوباوية، بينما يُحلِّق الدين نحو «مملكة السماء». وهذا هو وجه التقابل بين «مدينة الشمس» عند توماسو كامبانيلا و«مدينة الله»

عند القديس أغسطين. لا يمكن وجود نظام أخلاقي بدون وجود الله. والأخلاق ما هي إلا صورة من صور الدين. الحضارة هي التطور والتاريخ، ولا يوجد تطور حقيقي للدين والفنِّ. كلُّ دين كان نقيًا في الأصل (التوحيد الأصلي). وتاريخ الدين، كما هو الحال بالنسبة للفنِّ والأخلاق، هو تاريخ الاضمحلال. ومن هنا وجه التعارض بين المسيح والكنيسة. كلُّ قانون حقيقي ذو طبيعة ازدواجية، ولم يكن الطبُّ مجرَّد علم تجريبي قط. رسومات إنسان الكهوف وأقنعة السكَّان الأصليين لجُزُر بولينيزيا هي أعمال فنية لا تَقلُّ أهمية عن إبداعات فنون «الحداثة». حياة الإنسان بأسرها مطبوعة بتلك الازدواجية الأصلية، ويمكن رؤية «تجلِّياتها» في كلِّ ما يتعلَّق بالإنسان. وهذا هو الفارق بين روح العهد القديم والعهد الجديد، بين موسى وعيسى. أحدهما قائد لشعبه، والآخر مُصلح أخلاقي. وهناك نمطان مختلفان من العدالة والغايات التي يسعى كلٌّ منهما إليها: أرض الميعاد ومملكة السماء. يحدث التوافق بين هذه التعارضات في الإنسان والإسلام. فالإسلام مُركَّبٌ من هذين القطبين، «طريقٌ ثالثٌ» بين هذين القطبين اللذيْن يطبعان كلَّ ما هو إنساني.

٣. «يمكن إدراك طبيعة الروح من خلال نقيضها المطلق. وكما أنَّ جوهر المادة هو الثقل، فجوهر أو ماهية الروح هو الحرية» (هيجل، فلسفة التاريخ).

٧ «لأنَّ ما يوجد هو الفرد وليس الإنسان بشكل عام، لأنَّه ليس الإنسان هو ما يوجد، وإنَّما فرد بعينه» (هيجل، فلسفة التاريخ).

١٠ يرى هيجل أنَّ الدور الأعظم للفن هو أنَّه «يُظهر ما هو إلهي وروحي بشكل عام» (هيجل، فلسفة التاريخ).

١٣ لاحظ هيجل أنَّ «الهند لا تاريخ لها، رغم إنجازاتها الروحية العظيمة» (هيجل، فلسفة التاريخ).

١٥ «وهكذا، فالتاريخ هو تطوُّر الروح في الزمان، كما تتطوَّر الفكرة في المكان» (هيجل، فلسفة التاريخ).

٢٥ الخلافات التي تدور حول قضية الإجهاض تُثْبتُ أنَّها قضيةٌ أخلاقية ميتافيزيقية، قضية تتعلَّق بفهمنا للإنسان. لا يعترض الداروينيون على الإجهاض للأسباب ذاتها التي تجعلهم لا يعترضون على القتل الرحيم. الفلسفة الكامنة هنا هي الفلسفة المادية. إنَّها قضيةُ قداسة الحياة الإنسانية التي يؤكِّد عليها الدين وتُلغيها الداروينية. فالإجهاض ينطوي على إنكار حقوق الإنسان في مقدِّماتها الأولى؛ إنَّه رفضٌ لحقِّ الإنسان في الحياة.

٢٩ التعليم والتأمُّل نشاطان روحيَّان مختلفان يستهدفان اتجاهين متعارضين. يتجه التعليم إلى الخارج؛ إلى الطبيعة، بينما يتجه التأمُّل إلى الداخل؛ إلى الروح أو الذات. وهنا، تخطر الهند على بالي. أحيانًا يبدو لي أنَّ محاولة عادية من التفكير، حتى ولو كانت فكرة واحدة واضحة، قد تُحطِّم البناء الروحي الهندي الخارق بأسره. ومع هذا، فإنَّ أعمق التأمُّلات التي عرفتها تلك الروح لم تمسّ ذلك البناء. يتَّجه الفكر إلى التاريخ، بينما تبتعد التأمُّلات.

٣٦. ثمَّة شيءٌ ما مشترك بين الرؤية الشاعرية والرؤية البدائية للعالم، فالطبيعة والموجودات الجامدة تصبح في كليهما ذات طابع إنساني شخصي. أمَّا العلمُ فيختزل ما هو شخصي في صورة موضوعية مجرَّدة، ويختزل ما هو حي إلى شيء لا حياة فيه، مُبرهنًا على أنَّ الشخصية والحياة لا وجود لهما، إنَّ الشاعر والإنسان البدائي، على حدٍّ سواء، يثابر كلٌّ منهما على بعث الحياة في الموجودات الجامدة ونسبة الإرادة والرغبة إلى أشياء لا واعية. فبالنسبة للوعي البدائي، قد تُمثِّل الصخرة إلهًا أو تجسيدًا للإله؛ وغالبًا ما تكون النار أو الشمس أو أحد النجوم مسكونة بالأرواح، خيِّرة أو شريرة، وبالنسبة للشاعر، كلُّ شيء في الطبيعة الجامدة هو كائن حي، يحب أو يكره، يجلب السلوى أو يُقدِّر الذكريات، يتألَّم ويتعاطف مع الشاعر. هذه الصلة مع الوعي البدائي تُثْبِتُ أنَّ هناك علاقة غريبة بين الرؤية الشاعرية وطفولة البشرية.

وإليك كيف يرى أحد الشعراء (هيرمان هيسه) الشخصيات في الطبيعة:

كانت أيام الصيف الحارة تحترق مثل رايات تشتعل. وبدا الجبل وكأنَّه
يصرخ ويُمزِّقه الألم. وعلى جانب الطريق كانت تغفو البيوت الصفراء

المُشرقة وقد خدّرتها أيام الصيف الحارة، بينما كانت أشجار الصفصاف البيضاء اللامعة، المنحنية شبه الميتة، تنشر أجنحتها الثقيلة فوق المروج الذهبية إلى جانب غدير جاف. كانت أغصان الأشجار العتيقة الضخمة تتدلّى فوق غدير شديد الاخضرار، كما لو أنَّها في حالة عشق مع صورتها المنعكسة في المرآة، مُسدلة عليه طبقة من العتمة. نباتات كثيرة، نباتات مُتسلِّقة، أشجار السنديان الفلّيني، ونباتات أخرى غريبة، كلُّها وقفت مُتحدية أو خجولة أو حزينة وسط المرج الذي غطَّته الزهور، بينما كانت تنبعث الأضواء البيضاء والوردية من بيوت القرية الطافية على الضفة البعيدة على الجانب الآخر من البحيرة. كان كلُّ شيءٍ ساحرًا وحميميًا، مُبهجًا وودودًا، يفوح بالصحة والثقة. وهناك قرية كارينو القديمة، الضيقة، المعتمة، البدوية، بكهوفها الحجرية الموحشة تحت الطوب القاتم الشاحب، شوارعها ضيقة مثل الكابوس، وطُرُقها مسدودة غارقة في الظلام، ثم هناك ساحة صغيرة بدت كصرخة مفاجأة تحت الشمس الساطعة(*)

٦٤ يؤكِّد هيجل أنَّ الهند لا تعرف شيئًا عن علم التاريخ. ويقول إنَّ الهنود برعوا في الهندسة والفلك والجبر والفلسفة وقواعد اللغة، ويستنتج أنَّ «التاريخ مُهملٌ تمامًا، بل إنَّه غير موجود. وما هو موجود من التاريخ لا قيمة له على الإطلاق لأنَّه مختلط بالخيال. فمثلاً، جاء فيه أنَّ بعض الملوك حكموا لمدَّة سبعين ألف سنة أو أكثر، وبعض الملوك تحوَّلوا إلى شخصيات في حكايات خرافية ثم ظهروا من جديد بعد أن قضوا عشرة آلاف سنة في العزلة».

٧٦. ألحَّتْ على ذهني فكرة أنَّ مُبدِع أبي الهول ربما كانت لديه الفكرة التالية: جسم حيوان نُفختْ فيه الروح، وهو ما تُجسِّده الرأس. وذلك لأنَّ أبا الهول مثل الإنسان «كائن غامض» (كما يقول هيجل في فلسفة التاريخ، ص ١٨٦)، روح دخلت في الطبيعة، في الحيوان. وإذا كان لهذه الفكرة؛ فكرة الطبيعة الازدواجية للإنسان وأصله المزدوج، إذا كان لها أن تُوضَّح من خلال رمز ما، لكان أبو الهول أو شيء شبيه به.

(*) هذه الاقتباسات التي أوردها بيجوفيتش جاءت في رواية هيرمان هيسه «صيف كليسنجر الأخير». (المترجم)

٩٢ الروح اليونانية القديمة والروح الرومانية القديمة تُمثّلان ثنائية الروح والفكر، أو الثقافة والحضارة.

٩٦ الثقافة والحضارة، أثينا وروما: يصل هيجل إلى استنتاج أنَّ «أول مجتمع روماني نشأ كدولة من قُطَّاع الطرق. الفضيلة الرومانية هي الشجاعة، ليست الشجاعة الفردية فحسب، وإنَّما الشجاعة كما تظهر في الجماعة، الشجاعة التي ترتبط بكافة أشكال العنف. وطبقًا للروايات المنقولة، فقد كان مؤسِّسا روما، رومولوس وريموس، من قُطَّاع الطرق حيث هجرتهما عائلتاهما وحُرما من العاطفة الأسرية». «ونحن ندين للجانب القهري القاسي الكئيب للعالم الروماني في ظهور القانون الوضعي وتطوُّره. لقد أدرك الرومان، إلى حدٍّ ما، الخطَّ الفاصل، واكتشفوا المبدأ القانوني، وهو مبدأ برَّاني مجرَّد من الإيمان والعاطفة.. أما الجانب الجوَّاني الديني لديهم فلم يصل إلى الجوهر الروحي والأخلاقي في الإنسان لذاته، بل يمكن القول إنَّ العبادة لديهم لم ترتقِ إلى درجة الدين. ولهذا يبدو الدين عند الرومان دينًا مبتذلاً يقوم على تحديد الممنوعات ويبحث عن المنفعة والمصلحة... كما يمكن العثور على فروق مماثلة بين الرومان واليونان من خلال طريقة تنظيم الألعاب. كان الرومان مجرَّد متفرِّجين. فبدلاً من أن يعيشوا المعاناة الإنسانية حتى أقصى أعماق القلب والروح، كان الرومان يكتفون بمشاهدة الواقع الوحشي للمعاناة الجسدية. ودعني أذكر لك العرَّافين والكهنة ونبؤات سيبيل كي أُذكِّرك كيف كان الرومان غارقين في جميع أنواع الخرافات وكيف كانوا لا يهتمُّون إلا بمصالحهم» (هيجل، فلسفة التاريخ). وتعليقي: هذا الكلام عن القانون مثير للجدل. القانون ليس مجرَّد شيء برَّاني فقط، بل هو، في جوهره، فكرة السعي نحو العدالة (وهذه هي الطبيعة الإسلامية للقانون).

٩٨ ظهرت مهارة الكتابة في وقت مبكِّر للغاية عند الرومان (على الأرجح في القرن السابع قبل الميلاد). ومن الواضح أنَّ الرومان كان لديهم أبجدية منذ البداية، وليس تقليدًا شفهيًا. من الممكن وجود ثقافة بدون أبجدية، أمَّا الحضارة فلا.

١٠٥ (في «قائمة المفاهيم المتضادة»)(*) : أرض الميعاد في العهد القديم ومملكة السماء في العهد الجديد؛ عهدان (القديم والجديد) ورمزان مختلفان، ولا يمكن إلا أن يكون كذلك.

١٠٦ يربط داروين (وإنجلز) ارتقاءَ الإنسان وأنسنَتَه بالحقائق المادية.

١٠٧ ذهبت المسيحيةُ بعيدًا في تعظيم الإنسان، ورَفَعَتْه إلى مقام الله، بل وطابقت بينهما («الإنسان الإله» في المسيحية). وكانت مُهمَّة الإسلام هي إبطال هذا الإثم وهذا الاتِّحاد الكاذب، مع التأكيد على القيمة النسبية للإنسان ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ** ﴾ وإثباتَ التنزيه المطلق لله ﴿ **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ** ﴾ ويمكننا أن نقول: إنَّ الفكرة النهائية للمسيحية هي تمجيد الإنسان، بينما الفكرة النهائية للإسلام هي تمجيد الله.

١٠٨ أكَّدت الأديان جميعًا على تمجيد الله والإنسان، وهاتان الفكرتان مترابطتان، لأنَّه «إذا لم يكن الله موجودًا، فالإنسان غير موجود»، إلا أنَّه كان لا بدَّ من التأكيد مرة أخرى، وللمرَّة الأخيرة، على تمجيد كلٍّ منهما. وكان لا بد للترتيب الذي جاء به أن يكون كما كان: كان لا بد لفكرة تعظيم الله أن تكون هي الفكرة النهائية. وهنا تكمن العلاقة بين الإسلام والمسيحية ومعناهما النهائي.

١١٣ «واصل الملك ليو الإيساوري ملاحقة الأوثان، وبحلول نهاية عام ٧٥٤م أعلن أنَّ عبادة الأوثان من أعمال الشيطان. ومع هذا، قامت الإمبراطورة إيرين في عام ٧٨٧م بإعادتها في مجمع نيقية، بينما قامت الامبراطورة ثيودورا بترسيخ هذه العبادة بشكل نهائي في عام ٨٤٢م، حيث عملت بكلِّ همة ونشاط لمواجهة أعداء الأيقونات. ولم يُنكر الغربُ عبادةَ الأوثان إلا في مجمع فرانكفورت في عام ٧٩٤م، ورغم الإبقاء على وجود الأيقونات، إلا أنَّه قد وجَّه انتقادات شديدة للخرافات اليونانية. ولم تحظَ الأيقونات بقبول عام إلا في أواخر العصور الوسطى بعد عملية تقدم هادئة وبطيئة» (هيجل، فلسفة التاريخ). وتعليقي: بالنظر إلى الطبيعة الشخصية للمسيحية، فإنَّ انتصار الأوثان والأيقونات كان الطبيعية لهذا الصراع.

(*) هي القائمة التي وضعها بيجوڤيتش في نهاية كتاب الإسلام بين الشرق والغرب. (المترجم)

١١٥ أسهمت الثقافة اليونانية، والفلسفة اليونانية والرومانية بشكل خاص، في ظهور الكنيسة. فقد أصبحت المسيحية نسقًا دوغماطيقيًا تمامًا من خلال المجامع وآباء الكنيسة الذين كانوا مُشبَّعين تمامًا بالفلسفة اليونانية والرومانية، كما أنَّ الكنيسة كان بها نظام تراتبي متطور للغاية (هيجل، فلسفة التاريخ).

١١٦ يُقدِّم تاسيتوس(*) صورة إيجابية عن أخلاق الشعب الجرماني المتوحِّش.

١٢٥ كان لا بدَّ للمسيحية، حسب منطقها الجوَّاني، أن تؤكِّد على مبدأ التضحية لأقصى درجة ممكنة. وقد بلغ مبدأ التضحية ذروته في قصة آلام المسيح.

١٢٨ في مقابل الكنيسة كمؤسَّسة للحياة الروحية، كان هناك (كحتمية) النظام الإقطاعي الفاسد كمؤسَّسة للحياة الدنيوية الواقعية، كنوع من «النفي» المسيحي للتاريخ.

١٣١ أصبحت القيم المسيحية مقلوبة في مؤسَّسة الكنيسة. ففي نهاية الأمر، نجد في الحروب الصليبية أنَّ البابا يتصرَّف باعتباره الإمبراطور، رأس السلطة الدنيوية (هيجل، فلسفة التاريخ).

١٣٢ لم تُولد الأخويات أو الطرق الرهبانية من رحم الكنيسة، وإنَّما ظهرت كردِّ فعلٍ مناهضٍ للوجه العلماني للكنيسة (هيجل، فلسفة التاريخ، ص ٣٦٠). ورغم مناهضتها للكنيسة، فإنَّها تطابقت مع روح التعاليم المسيحية. وهذا يُفسر انتشارها بلا توقُّف في العالم المسيحي. بل إنَّ مقاومة الكنيسة لها عجزت عن القضاء عليها.

١٣٣ أصبحت الكنيسة ذات طبيعة عقلانية. يقول الفيلسوف الاسكولائي (المدرسي) أنْسلْم: «إذا توصَّل الإنسان إلى الإيمان، فسيكون مُقصِّرًا ومهملاً إذا لم يستخدم التفكير ليكون مقتنعًا بمضمون الإيمان». هذا الكلام ينسجم تمامًا مع روح الكنيسة، ولكنَّه يتعارض تمامًا مع روح المسيحية.

(*) تاسيتوس Tacitus (٥٦ – ١١٧م) مؤرِّخ وقاضٍ روماني، فُقدت مُعظم كتاباته التاريخية، وما تبقَّى منها يؤرِّخ للإمبراطورية الرومانية منذ موت الإمبراطور أغسطس (١٤م) حتى ما يُعرف باسم الثورة اليهودية الأولى (٧٠م). (المترجم)

١٤١ لم تصل حركة الإصلاح الديني إلى كلٍّ ركن في العالم الكاثوليكي، فقد ظهرت أولاً في ألمانيا وكانت الشعوب الجرمانية أكثر مَن اعتنقتها.

١٥٢ «بقدر ما يكون الأمر متعلِّقًا بالشعور الأخلاقي، كان يقع التصالح بين الدين والقانون عن طريق الكنيسة البروتستانتية. ففي الكنيسة البروتستانتية لا يوجد شيء مُقدَّس أو وعي ديني في حالة انفصال عن القانون العلماني، أو حتى في حالة تعارض معه» (هيجل، فلسفة التاريخ). وتعليقي: والعكس أيضًا صحيح.

١٥٥ الإسلام وحدة تجمع بين الدين والدنيا، إلا أنَّه «مُركَّب غير مستقر». وقد بدأ الانفصام بين الإسلام والدولة في وقت مبكِّر نسبيًا. فالدولة الأموية كانت تقريبًا دولة مدنية تمامًا، إلا أنَّ ما كان يُميِّزها هو أنَّ ضعف السلطة السياسية حدث بالتوازي مع عملية أخرى: ظهور التصوف وتطوُّره. ومن ثمَّ انقسم الإسلام إلى عنصرين: الدين والدولة. كما كان جميع السلاطين العثمانيين يُقدِّرون التصوف، ولم يكن هذا مصادفة، فمن الواضح أنَّه كان مناسبًا لهم إلى حدٍّ بعيد. فهو أقرب إلى الصيغة المسيحية: دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله. إنَّ انتشار التصوف كدين للجماهير هو بالضبط ردُّ الفعل العكسي لهذا الانفصام الأساسي.

١٥٦ دعنا نسترجع السمات الأساسية للتصوف: الإنسان مجرَّد روح وليس جسدًا، توحيد حلولي، محبة الله بدلاً من الخوف من الله، وأخيرًا، المطابقة بين الله والإنسان (ألا يُذكِّرك هذا بشيءٍ ما؟). أدخلت بعض الطرق الصوفية الموسيقى والرقص في طقوسها، وأيدت العزوف عن الزواج وبالغت في تقدير ما كان عليه النبي محمد، صلى الله عليه وسلَّم، من قصد واعتدال، واصفة إيَّاه بأنَّه كان ناسكًا. وقد انتقد الصوفي السهروردي فكرةَ ابن سينا عن التمييز بين الله والإنسان، بينما أفاض ابن عربي (٥٥٨-٦٣٨هـ/ ١١٦٥-١٢٤٠م) في الحديث عن فكرة الكون باعتباره «الإنسان الأصغر» وفكرة الإنسان باعتباره «الإنسان الأكبر». إنَّ الخلافات بين النسق السُّنِّي الأصولي والتصوف باعتباره دينًا للجماهير هي أبرز سمات التاريخ الفكري الإسلامي.

١٧٤ تنبع وحدة الإنسانية من توحيد الله.

١٧٥ لم يكن هناك بدٌّ من أن ينجح نبيُّ الإسلام محمد، ﷺ، وما كان له أن يُخفق، وإلا ما كان نبيًا للإسلام. وقد كان فضل الرحمن(*) مُحقًا في قوله إنَّ كُتَّاب السيرة الغربيين كانوا ينفرون من الجانب الجهادي القتالي لدى رسول الله؛ إذ كانوا مهووسين بالقصص الحزينة المثيرة للشفقة عن آلام المسيح وصَلْبه، حتى إنَّ فكرة النجاح ذاتها كانت تبدو لهم مُستهجَنَة مذمومة.

١٧٧ يكمن الفارق الأساسي بين عيسى ومحمد في أنَّ الإسلام كان لا بدَّ له أن يتحقَّق على أرض الواقع، أي إنَّ الفاعلية والنجاح من العناصر الأساسية في رسالة الإسلام. وينبع هذا الفارق من الاختلاف بين طبيعة تعاليم كلٍّ من الديانتين، ورسالة كلٍّ منهما كذلك. فالمسيحية تتحقَّق من خلال الألم والمعاناة، أمَّا الإسلام فيتحقَّق من خلال الانتصار. ولهذا أصبحت آلام المسيح (إلى جانب الصليب) أعظم رمز في المسيحية. وعلى العكس، فقد جهَّز محمد جيشًا متوجِّهًا نحو الشمال قبل وفاته بشهر واحد.

١٨١ كان لا بُدَّ للإسلام أن يكون واقعيًا، لأنَّه عقد العزم على النجاح. وما كان له أن يُعلن عن أي رؤى رنَّانة غير واقعية، بل كان عليه أن يلتحم بالمستوى الجاري من التطور التاريخي ليتمكَّن من اللحاق به ومتابعته. فمثلاً، لم يكن من الصواب أن يُعلن الإسلامُ إبطالَ الرقِّ، لأنَّ الوقت لم يكن مناسبًا. وكما نعرف، كان الأمر بحاجة إلى اثني عشر قرنًا أخرى ليتحقّق. كان على الإسلام أن يجد نقطةَ ارتكاز في العالم الواقعي. فكيف حقَّق الإسلام هذا الأمر؟ حقَّقه بأن أدخل تغييراتٍ جذريةً في أسلوب الحياة القائم، موافقًا على الأمور الأخرى بشكل ضمني.

١٨٢ . رفض القرآنُ في إحدى السور المكية المبكرة القولَ بالطبيعة الإلهية للمسيح.

٢٦٥ حول الطبيعة الازدواجية للإسلام: نجد أنَّ التصوّف قد نتج عن تراث الإسلام، هذا من ناحية، بينما نجد من ناحية أخرى أنَّ الكثير من الكُتَّاب ينظرون إلى الإسلام على أنَّه لاهوت في غاية العقلانية والتجرُّد الوجداني الشعوري.

(*) فضل الرحمن (١٩١٩-١٩٨٨م) مفكِّر باكستاني، درَّس الفلسفة الإسلامية في إنجلترا خلال الخمسينيَّات، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في ١٩٦٨م ليعمل محاضراً في جامعة شيكاغو حتى وفاته. من مؤلَّفاته: الإسلام، الإسلام والحداثة، الإحياء والتجديد في الإسلام. (المترجم)

٢٧٠ يتفوَّق الحيوان على الإنسان في بعض المهارات. فغالبًا سيضلُّ صاحب الكلب طريقَه في الغابة أكثر من الكلب، كما أنَّ الكثير من الحيوانات أكثر مهارة من الإنسان في الصيد، وبعض الحيوانات أكثر خبرة في الترتيب والانضباط والتنظيم وتقسيم العمل (النمل والنحل مثلاً)، إلخ، إلا أنَّ هذا لا ينطبق على الأخلاق لأنَّ الأخلاق تتطلَّب الاختيار الحر الواعي للخير ورفض الشر. أمَّا الحيوانات فلا يمكنها القيام بهذا الاختيار وهي ليست حرَّة كذلك؛ فهي بريئة تمامًا، وهذا لا علاقة له بالأخلاق. الأخلاق أمرٌ قاصر على الإنسان، وكذلك الانحراف الأخلاقي بطبيعة الحال.

٢٨٩. ، لم يكن العالم الغربي ليبدأ «المغامرة الإنسانية الغربية»، كما يُسميها دينيس دي روجمون، إلا بعد تجربة العصور الوسطى القاسية.

٢٩٠ الفنُّ لا تاريخ له، فهو لا يعرف سوى «الآن». ولا وجود للزمان والمكان في الفن. يقول بيكاسّو إنَّه أدرك دلالة فنِّ الرسم ومغزاه من خلال تعرُّفه على الأقنعة القديمة التي صنعها نحَّاتو الخشب الأفارقة. كما أنَّ جميع الفنَّانين المعاصرين له تقريبًا استلهموا الأعمال الفنية التي أبدعتها الثقافات التي وُجدت في إفريقيا وأمريكا وأستراليا والجُزُر القريبة منها. ولا يمكن فهم الفنّ المعاصر، كما هو الآن، بدون هذا الإلهام. وفي معرض «البدائية في القرن العشرين» (متحف الفن الحديث بنيويورك، ١٩٥٨م) كانت الأعمال الفنية الأوروبية الحديثة معروضة جنبًا إلى جنب مع أعمال لفنانين مجهولين من المناطق الأقل تقدُّمًا في العالم. كان هذا «الإسقاط» للزمان والمكان -وهما في غاية الأهمية بالنسبة للعلم والحضارة- كان بمثابة إظهار للطابع الإنساني العام للفن.

٣٠٣. لاحظ الباحثون منذ زمن بعيد التأثيرَ القويَّ للموسيقى على القبائل البدائية خلال أداء الطقوس الدينية. كما أنَّ الطقوس المصحوبة بالموسيقى تُستَخدَم في بعض الأساليب الحديثة لعلاج المشكلات الصحية، ويُطلَق عليها الموسيقى الطقوسية.

٣٠٥. أوردت منظمة الصحة العالمية في برنامجها «الصحة للجميع بحلول عام ٢٠٠٠» الصادر في ١٩٧٦م، أوردت تقريرًا خاصًا بعنوان «الطب التقليدي وتوسيع نطاق الرعاية الصحية». وانطلاقًا من حقيقة أنَّ الدول الأقل تقدُّمًا تعاني من نقص شديد في عدد

الأطباء، فقد وافقت المنظمة على مشاركة المُعالجين الشعبيين في برنامجها إلى جانب الأطباء المتخصصين. وطبقًا لبعض البيانات، فهناك طبيب لكلٍّ ٤٠,٠٠٠ مواطن في أفريقيا، ومُعالِج شعبي لكلٍّ ٥٠٠ مواطن. معظم طُرُق العلاج في الطب التقليدي عبارة عن مزيج يجمع بين الدين وأساليب عقلية. ومن بين طُرُق العلاج هذه: الطب اليوناني (وهو طريقة علاج نشأت في الجزيرة العربية، ولكن غالبًا ما تستخدم في الهند وباكستان)، والأيورڤيدا Ayurveda (توجد في الهند وبعض الدول الآسيوية)، والطب الصيني التقليدي (وأشهر طريقة علاجية فيه هي الوخز بالإبَر Acupuncture). ويمكننا القول إنَّ الطب التقليدي لديه الكثير ليُقدِّمه في مجال العلاج النفسجسدي psychosomatic treatment كما في حالة (البول السكَّري والقُرحة والربو الشُّعَبي)، والعكس صحيح؛ إي إنَّ هذا هو المجال الذي أثبت فيه الطب العلمي أنَّه لا يملك إلا القليل ليقدِّمه فيه.

ظهر الوخز بالإبر في الصين منذ ٢٥٠٠ سنة، فهل سيكشف العلمُ يومًا ما جميعَ أسراره؟ هل هو أسلوب علمي بأي حال من الأحوال؟ وهل يمكن تفسيره عقليًا؟ ويمكن طرح السؤال بطريقة أخرى: هل المرض مجرَّد حالة تصيب الجسد؟ أي هل هو مجرَّد خلل في الهورمونات والعناصر المادية ووظائف الأعضاء، أم أنَّه حالة تصيب الروح في الوقت ذاته؟

٣١١. إنَّ علم النفس ليس علمًا للروح. وما حدث مؤخَّرًا من توظيف ناجح للكمبيوتر في مجال علم النفس هو بمثابة دعم للنظرية السلوكية في علم النفس باعتباره علمًا خالصًا؛ إذ إنَّ الكمبيوتر يتعامل فقط مع الأرقام والإحصائيات ويُقدِّم نموذجًا للمنهج الكمي الخالص مع نتائج تتطابق مع هذه الأرقام والإحصائيات.

٣١٢. (الثقافة والحضارة). على سبيل المثال، ما الذي يجمع بين الثقافة والمبادئ الستة التي حدَّدها توفلر للحضارة الصناعية؟(*) أعتقد أنَّ مبادئ الثقافة يمكن اشتقاقها بعكس الحجج التي أوردها توفلر. والفارق هنا يُشبه الفارق بين الجسد والروح.

(*) يقول ألفين توفلر في كتابه «الموجة الثالثة» إنَّ الحضارة تنقسم إلى ثلاث مراحل أو موجات كبرى؛ الموجة الأولى: الثورة الزراعية، الموجة الثانية: الثورة الصناعية، الموجة الثالثة: عصر المعلومات. ثم يُحدِّد توفلر خصائصَ كلٍّ موجة والقواعدَ والمبادئَ الكامنةَ الساريةَ في بنيتها وجميع أنشطتها وممارساتها. وبخصوص المرحلة أو الموجة الصناعية في الحضارة يقول توفلر إنَّ هناك ستة مبادئ مترابطة تطبع سلوك الملايين وتؤثر في جميع أنشطة الحضارة الصناعية بدءاً من الرياضة وانتهاءً بالعمل والحرب؛ هذه المبادئ الستة هي: =

٣٢٢. في ملحمة جلجامش، والتي يبلغ عُمرها أكثر من أربعة آلاف عام، هناك أفكار عن مصير الإنسان والحياة والموت، وهي أفكار مؤثِّرة وعميقة مثل التي نجدها لدى شكسبير وجوته. وهكذا تبقى الثقافة فوق التاريخ.

٣٢٣. الزمن الدائري والزمن الخطي: ينتمي الزمن الدائري إلى الثقافة، أمَّا الزمن الخطي فينتمي إلى الحضارة. الزمن الدائري هو دوران مستمر، عَوْدٌ أبدي، تكرار، توهُّم الزمن، بل هو غياب الزمن. الزمن الخطي فقط هو المسار الواقعي، تُمثِّله الساعة. إنَّه زمن فَلَكي وفيزيائي، نوع من الزمن الخاص، أي الزمن الذي لا يمكننا إدراكه إلا كحركة فقط، أي كمكان.

٣٢٤. أفاض الشاعر لوكريتيوس(*)، المعروف بإلحاده، في الحديث عن نوع من الفلسفة الذرية، وهو ما يتوافق مع إلحاده.

٣٢٧. أشار ديكارت إلى أنَّ أي قضية تخضع للبحث ينبغي «تقسيمها إلى أجزاء كثيرة قدر الإمكان». وبهذا يكون ديكارت قد حدَّد جوهر المنهج العلمي. أمَّا في الفن، فكلُّ شيءٍ عل العكس من ذلك تمامًا.

٣٣٨. في مشهد الحج، ينعكس الأمل الإنساني الحقيقي في المساواة. صحيح أنَّ هذه المساواة لن تتحقَّق أبدًا بشكل كامل، إلا أنَّها ستظلُّ دومًا جزءًا من الحلم الإنساني بعالم أفضل. إنَّ الحج ضربٌ من الطوبيا، لحظة من الأخوة والمساواة العالمية.

٣٤٥. تؤدِّي الرعاية الاجتماعية المُؤسَّسية الكاملة إلى تقويض السلوك (الإنساني) الاجتماعي لدى الأفراد تدريجيًا، وذلك لأنَّها تُقلِّص (أو تُشوِّه) الاهتمام الفردي

= ١- التنميط ٢- التخصُّص الدقيق ٣- المزامنة، أي التزامن بين العمليات المختلفة وضبط الوقت حيث تَحوّلَ الوقت إلى قيمة مادية ٤- التركيز، أي تجميع وتكديس البشر والطاقة والثروة والسلطة ٥- الولع بالأشياء والأرقام الضخمة والكبيرة ٦- المركزية، مثل مركزية القرار السياسي والاقتصاد، إلخ.
انظر: Alvin Toffler, The Third Wave, Bantam Books, 1989, pp. 46-59. (المترجم)

(*) لوكريتيوس Lucretius (٦٦- قبل الميلاد) شاعر وفيلسوف روماني، عمله الوحيد المعروف هو قصيدته «حول طبيعة الأشياء»، ويستلهم فيها الفلسفة الأبيقورية، خاصة فلسفة ديموقريطس الذرية، أي إنَّ الأشياء تتكوَّن من ذرات، والإنسان كذلك، أي إن الجسم والروح نشآ من الذرة، ومن ثم فإذا انتهى أحدهما سينتهي الآخر، أي لا خلود للروح، ولا دخل للآلهة في العالم. (المترجم)

الشخصي بالآخرين. فالمجتمع «يرعى» الجميع، ومن ثمَّ، فبدلاً من اهتمام إنسان بإنسان آخر نجد لا مبالاة تامة وغيابًا كاملاً للاهتمام بالآخرين. وهذه إحدى الأفكار التي جاءت في رواية بولغاكوف «المُعلِّم ومارجريتا» وكذلك روايات ميلان كونديرا. فرواية «خفَّة الوجود التي لا تُحتَمل» تدور حول انعدام المسئولية تمامًا لدى الفرد داخل مشروع دولة الرفاه ممَّا يؤثِّر عكسيًا على المجتمع و«اهتمامه بالإنسان».

٣٥٣. تُعلِّمنا النظرية الإدراكية أنَّ هناك ارتباطًا بين الذات والموضوع وأنَّ العملية الإدراكية بأسرها تحدث عبر هذا الارتباط وأنَّه لا يوجد إدراك بدون هذا الارتباط. بيْد أنَّ هذا لا ينطبق على الفن. يقول ڤاسيلي كاندينسكي(*) Vassily Kandinsky «من يطرح أسئلة مادية حول الفن عليه أن يُراجع نفسه». فهل الموضوع (موضوع الفنّ) هو مجرَّد سبب لإمداد الخيال بالألوان والأصوات والأشكال؟ يقول ڤاجنر إنَّ للموسيقى منطقها الخاص «منطق الموسيقى»، ويقول: «إنَّ الصراع بين الوحدات اللحنية في الموسيقى يُشبه الصراع بين المبادئ في حياة الدراما».

٣٥٤. يقول فيروتشيو بوسوني(**) Ferruccio Busoni إنَّ الموسيقى لا تتطوَّر بمرور المراحل التاريخية. إنَّها دائمًا شيءٌ واحد كما هو، «وحدة لا تاريخية».

٣٥٧. كانت النتيجة الأساسية للحضارة هي تحويل العالم إلى سوق. كانت هذه هي «رسالة» الحضارة، ومن الواضح أنَّ هذه الرسالة لا علاقة لها بالثقافة.

٣٥٨. لا يمكن شرح الفن. كتب هيكتور بيرليوز(***) Hector Berlioz دليلاً لسيمفونيته المعروفة باسم «السيمفونية الخيالية» Symphonie fantastique لمساعدة جمهوره على «فهمها»، وكانت فكرة فاشلة، تمامًا مثل المقدمات الأولى التي كتبها بلزاك لرواياته العظيمة.

(*) ڤاسيلي كاندينسكي (١٨٦٦-١٩٤٤م) فنَّان روسي، وأحد أهم المبتكرين والمجددين في الفن التجريدي في القرن العشرين، سواء من حيث رسوماته ولوحاته أو من حيث البحث والتنظير. (المترجم)

(**) فيروتشيو بوسوني (١٨٦٦-١٩٢٤م) موسيقي إيطالي وعازف بيانو وأستاذ للبيانو. (المترجم)

(***) هيكتور بيرليوز (١٨٠٣-١٨٦٩م) مؤلف موسيقي فرنسي رومانتيكي، من أهم أعماله: «السيمفونية الخيالية» و«قُدَّاس الموتى الكبير». (المترجم)

٣٥٩. في العلاقة التالية: المسيحية-الإسلام-الاشتراكية؛ يَفصل الإسلامُ بين هذين الكيانين المتطرِّفين كما يصل بينهما.

٣٦١ لا يمكن للإنسان أن يرفض جسدَه، ولو أراد ذلك. فمن يرفض جسده يُصبح ضحية له. هذا هو قدر الإنسان، أو هذا هو «ما قُدِّر له أن يكون».

٣٦٣. تُبيِّن المقارنة بين الحرفة والفنِّ أنَّ الحرفة تستهدف المُستهلكَ، أمَّا الفنُّ فيستهدف المُشاهد أو المُستمِع. كما أنَّ مُنتَجَ الحرفي ذو قيمة استعمالية، أمَّا الفنُّ «فغرضه نفي الغرض». تستهدف الحرفةُ الجسدَ وتُلبِّي حاجة ما، بينما يستهدف الفنُّ الروح ويُلبِّي نوعًا من الأشواق الروحية. الفنُّ والحرفة، معًا، يعكسان ويؤكِّدان الطبيعةَ الازدواجية للإنسان.

٣٦٤ حول الطبيعة «المعكوسة» للحياة: خضع الافتراض القائل إنَّ الكائنات الحية المُعقَّدة تنشأ من الكائنات البسيطة، وهو الافتراض المُسلَّم بصحته فيما مضى والمنطقي إلى حدٍّ كبير -وعلى المرء أن يعترف بهذا- خضع مؤخَّرًا للتشكيك، حيث يطرح علماء البيولوجيا الآن فرضية مضادة تمامًا تقول إنَّ الأشكال البسيطة من الحياة (مثل البكتيريا والطحالب) تنشأ من الأشكال الأكثر تعقيدًا، وهي تُمثِّل شهود عيان على منطق «معكوس»، على تطوُّر معكوس «سلبي». قارن هذا بما يشبه ذلك من تطور «سلبي» للفنِّ: «يشهد فنُّ الرسم عمليةَ تراجع وتقهقر منذ عصر «إنسان الكهف»» كما يقول الفنَّان الإسباني خوان ميرو، وهو من معاصري بيكاسّو وسيلڤادور دالي.

٣٧٤. عملت نصوص الكتاب المقدَّس كأساس أو مصدر إلهام للكثير من الأعمال الكورالية والترانيم والموشَّحات في مجال الموسيقى، وللكثير من اللوحات التصويرية والأعمال الأدبية التي لا حصر لها.

٣٧٦. ثنائية الجسد والروح (ووحدتهما) هي أهم وأعظم وأقدم خبرة إنسانية. ولا يمكن لأي فلسفة إنسانية أن تتجاهل هذه القضية. ومنذ ما قبل التاريخ وحتى الآن، ما من فكرٍ إنساني إلا وتناول هذه العلاقة ولم يُفلت منها.

٣٨٠ الفرد في المجتمع الطوباوي ليس إنسانًا، وإنَّما هو مسخٌ إنساني كما يظهر في أعمال أورويل وهكسلي.

٣٩٠ يتناول ما يُعرف بالطب البديل «الصحةَ ككُلٍّ» (مثل مدرسة العلاج الشمولي Ges-talt medicine في علم النفس، أي العلاج المتكامل)، وهو نشاط يقوم على تصور أنَّ الصحة تعتمد على تكامل الجانبين الجسدي والروحي. كما أنَّ هذا النشاط لا يُلغي الممارسةَ الطبِّيةَ الشعبية الطقوسية. وقد جاء في مجلة العلوم: «منذ سنوات عديدة كان من المستحيل أن تدعم أيُّ حكومة مؤتمرًا طبِّيًا يتناول موضوعات مثل العلاج بالإيمان، أو تشخيص الأمراض من خلال العين، أو الوخز بالإبر، أو التأمل البوذي». أمَّا الآن، فقد أصبح هذا ممكنًا.

٣٩١ ظهر مفهوم جديد، وهو «الكُلِّيَّة» Holism وتعني النظرة الكُلِّية والتركيب والتكامل في مقابل التحليل والنظرة أحادية الجانب والتفكيك. ويمكن فهم الكُلِّيَّة باعتبارها نقدًا مُوجَّهًا للنزعة أحادية الجانب في المسيحية والاشتراكية، أو للفلسفات التي تندرج ضمنيًا تحت كلٍّ منهما.

٣٩٦. كلُّ ثقافة هي ثقافة شفاهية في طبيعتها الخالصة. والأبجدية المكتوبة شرٌّ لا بدَّ منه في أي ثقافة. وعلى العكس، لا يمكن تصوُّر وجود حضارة بدون أبجدية مكتوبة. وإذا توغَّلنا في تعقُّب هذه السمة «الشفاهية» لثقافة ما، سنجد أنَّها تتجنَّب الكلمة أيضًا بقدر الإمكان، حيث تحلُّ الصورة محلَّ الكلمة. ويمكن إدراك هذا التوجُّه بشكل واضح في المسيحية، حيث تُمثِّل المسيحيةُ النموذجَ الأولي الروحي لأي ثقافة. لقد بقيت الصين لا تكتب تراثها الفلسفي والشعري والدرامي لمدة تقارب الثلاثة آلاف عام. فقد اخترع الصينيون مسحوق البارود، إلا أنَّهم استخدموه في الألعاب النارية خلال الاحتفالات (الأحداث الثقافية). أمَّا الأوروبيون فهم الذين استخدموه لأغراض «متحضِّرة».

٤٠٠. يمكن لصورة جدَّتك أن تُثير الانفعالات في نفسك فقط لأنَّك تبعث الحياة فيها بمشاعرك وذكرياتك، وقد يبقى الآخرون غير مُكترثين أو قد يتظاهرون بالاهتمام. ولكنَّ لوحةً رسمها فنَّانٌ لجدَّتك ستثير الانفعالات في كلِّ مَن ينظر إليها؛ وذلك لأنَّ اللوحة تُصوِّر الشخصية، الروح، وهي الجانب الذي يثير اهتمام الجميع.

٤٠١ . يقول أحد علماء النفس من المعهد الوطني للصحة النفسية في الولايات المتحدة، يقول إنَّه ما من أسرة في الولايات المتحدة إلا وتعاني من أحد أشكال الاضطرابات النفسية . ويقول توفلر : «إنَّ الاضطرابات النفسية تعصف بالمجتمع الأمريكي الذي يعاني من الاضطراب والانقسام والخوف من المستقبل» . وسارع الشيوعيون إلى تقرير أنَّ هذه هي التكلفة الإنسانية للأزمة الشاملة للرأسمالية ، أي إنَّه أحد أعراض انهيار النظام الرأسمالي، إلخ . وبطبيعة الحال، سيكون من المناسب في هذا السياق أن نسأل الشيوعيين : لماذا يوجد ٤٠ مليون من مدمني المواد الكحولية في الاتحاد السوفييتي؟ في الواقع ، لا يتعلَّق الأمر بالرأسمالية أو الشيوعية ، وإنَّما يتعلَّق الأمر بشيءٍ مشترك بينهما : الحضارة، أو آثارها الجانبية .

٤٠٢ . كتب هيرمان روشيننغ(*) Hermann Rauschning أنَّ النازية «كانت رغبة في خلق الإنسان الأعلى/ السوبرمان» . ويقول إنَّ هتلر أسرَّ إليه قائلاً : «لقد رأيت إنسانًا جديدًا وحشًا لا يُقهر ؛ فوقفت أمامه مذعورًا» . تبدو العنصرية النازية وكأنَّها خرجت من عباءة داروين ونيتشه . هذه الرؤى تتعارض مع وجود الله ، ومن ثمَّ كان حتمًا أن تكون ضد التاريخ .

٤٠٤ . يكمن المعنى الآخر للحياة ، المعنى الثقافي وليس الحضاري ، في الحياة الجوَّانية ، في نوع من تنمية الوعي وتطهيره .

٤٠٧ . بدأت «الثورة الثقافية» في الصين بهجوم على الدراما التاريخية التي تحمل عنوان «هاي ري يُستبعَد من منصبه» Hai Rui Dismissed from Office . إنَّ الدراما وثورة من هذا النوع لا يتحمَّل أحدهما الآخر .

٤٠٨ . لا شكَّ أن الهدف من الرسوم على الوجه والجسد (الوشم) التي نجدها لدى كلِّ الشعوب البدائية هو التأكيد على التفرُّد الشخصي ، سواء بقصد أو بغير قصد . وتقوم الموضة بهذا الدور لدى الشعوب المتحضِّرة . إنَّ السعي نحو الاختلاف -ضد النمطية-

(*) هيرمان روشيننغ (١٨٨٧-١٩٨٢م) كاتب ألماني انضم لفترة وجيزة إلى النازية، ثم انفصل عنها وهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليتحوَّل إلى مهاجمة النازية والتنديد بممارساتها . من أعماله : «حوارات مع هتلر» و«ثورة العدمية» . (المترجم)

متأصِّل في طبيعة الإنسان، إنَّه تعبير عن تطلُّع إنساني طبيعي نحو التفرُّد. وللأسف، فإنَّ التطلُّع نحو التماثل والتشابه يُولَد كذلك مع الإنسان. إنَّ الإنسان ابنٌ للسماء والأرض على حدٍّ سواء.

٤١٠ . الفنُّ ذو طبيعة دينية ولو لم يكن الفنَّان كذلك. ولعلَّ بيكاسّو هو أوضح مثال على هذا. وكذلك نجد أنَّ شاجال Marc Chagall الذي رسم بعض الرسومات الأكثر «تديُّنًا»، عندما سأله أحد المعجبين عن الله بأسلوب يفتقر إلى اللباقة أجاب إجابة غامضة غير واضحة. وإذا انتقلنا إلى المجال العلمي، سنجد بعض الأمثلة المضادة، حيث سنلتقي بشخصيات شديدة التديُّن مثل كبلر ونيوتن اللذيْن قدَّما توصيفًا موضوعيًا لكَوْنٍ يُنكر وجود الله.

٤١١ . ليست الوسطية دونية، فنقطة الذروة نقطة بين طرفين، وذلك لأنَّ «الحالات المتطرِّفة هي الحدود التي تتوقَّف الحياة بعدها. ولأنَّ كلَّ انفعال متطرِّف في الفنِّ، وكذلك في السياسة، ما هو إلا رغبة مُقنَّعة في الموت» (ميلان كونديرا، خفة الوجود التي لا تُحتَمل)، كما أنَّ أكثر صور الحياة التاريخية توهُّجًا وتأثيرًا قد وقعت في ما يُسمَّى بالمنطقة المعتدلة.

٤١٢ . لا يوجد في الفنِّ «تقدُّم» أو «تأخُّر» بالمعنى التاريخي للكلمة. ومَن يتجادلون حول ما إذا كان الأمريكيون أو الألمان أو الإيطاليون تقدَّموا في الفنِّ الحديث أكثر من الفرنسيين يُثبتون أنَّهم ليس لديهم فكرة عن الموضوع الذي يتحدَّثون عنه. ولم يصل إلى علمي قط أنَّ هناك من فسَّر ماذا تعني كلمة مثل «تقدُّم» أو «تخلُّف» في مجال الفنِّ. أضف إلى ذلك أنَّ الفنَّان الإسباني الشهير خوان ميرو (أهم رسَّام معاصر، إلى جانب بيكاسّو وسيلڤادور دالي) أكَّد على العكس تمامًا، حيث يرى أنَّ هناك تاريخًا للفنِّ، غير أنَّه تاريخ سلبي، ليس تاريخًا للتطوُّر، وإنَّما تاريخ للارتكاس والتقهقر. يقول ميرو في مكان ما: «يشهد فنُّ الرسم عمليةَ تراجع وتقهقر منذ عصر «إنسان الكهف»». إحدى نتائج وجهة النظر هذه أنَّ الرسم (الفنَّ) لا تربطه علاقة حقيقية بالحضارة وبما يُطلَق عليه «التقدُّم». وينطبق الأمر ذاته على الدين والإنسان. ومن ثمَّ، يمكن تعريف التطور التاريخي باعتباره ارتكاسًا للإنسانية.

٤١٤ . يصف البعضُ حضارتَنا بأنَّها «نظيفة» («هذه الحضارة الموضوعية التقنية النظيفة»). وقد كان اختيار صفة «نظيفة» اختيارًا مناسبًا لوصف الحضارة، أمَّا الثقافة فلا هي قذرة ولا هي «نظيفة». وهنا نتذكَّر كيف أنَّ المسيح، نبيُّ الثقافة العظيم، كان نافرًا ممَّا قام به المنافقون من «غسلِ الأيدي والأواني الخشبية» وكيف اعترض بسخرية على هذه النظافة الظاهرية. وعلى العكس، نجد أنَّ لينينا في رواية ألدوس هكسلي «عالم جديد شجاع» تقول بفخر إنَّ «الحضارة هي عملية تعقيم». هذه النظافة المُعقَّمة تُهيمن وتسود في رواية «عالم جديد شجاع».

٤٣١ . لم يَعِش الحيوان في الجنَّة ولم يُطرَد منها، ومن هنا تأتي براءته.

٤٣٣ . يُقال إنَّ الإنجيل والقرآن والبيان الشيوعي «أهم ثلاثة كتب في تاريخ البشرية»، ألا تتطابق هذه الكتب الثلاثة مع رؤى العالم الثلاث الأساسية؟

٤٣٦ . في سفْر أيوب (الإصحاح السابع والإصحاح الرابع عشر) يقول أيوب إنَّه لا توجد حياة بعد الموت، وقال داوود الشيءَ ذاتَه عندما مات ابنه. لكنَّ الحقيقة أنَّ أيوب لم يَقُلْ بهذا ولا داوود. هذا الإنكار للحياة بعد الموت كان تجليًا لاحقًا لتوجُّه الروح اليهودية نحو هذا العالم (العدل «هنا والآن»).

٤٦٠ . اليونان وروما في العالم القديم، أوروبا وأمريكا في العالم الحديث؛ يعكسان التعارض بين الثقافة والحضارة. هذه الحقيقة يُعبَّر عنها بوضوح الآن في السينما، فالسينما فنٌّ وصناعة في الوقت ذاته. «أوروبا هي مهد فنِّ السينما، وأمريكا هي قلعة صناعة السينما» على حدِّ تعبير المخرج السينمائي البولندي أندريه زولافسكي Andrzej zulawski.

٤٦٣ . يقول ريتشارد غريغوري Richard Gregory، مدير مختبر أبحاث الإلكترونيات الحيوية في جامعة بريستول، والماديّ المتعصب، يقول إنَّ العقل البشري نتاجٌ للعمليات الفيزيائية للمخ، ويؤكِّد على التماثل بين العقل البشري والكمبيوتر. وبالمثل يقول توماسو بوغيو Tomaso Poggio: «إنَّني على قناعة بأنَّه من الضروري أن نفهم الإنسان حتى نستطيع فهم الكمبيوتر، والعكس صحيح، أي أن نفهم الكمبيوتر حتى نستطيع فهم الإنسان». وتعليقي: مرَّة أخرى، إنَّها رؤية الإنسان باعتباره «الإنسان الآلة».

هل يستطيع العلم، رغم القصور الواضح في هذه المقاربة، أن ينظر إلى المشكلة بطريقة مختلفة تمامًا؟ يَزِنُ المخُّ البشري حوالي ١٤٠٠ جم ويوجد به حوالي مائة مليار خلية عصبية. كلُّ خلية عصبية يوجد بها عدد من التفرُّعات تربطها بالخلايا العصبية الأخرى، ممَّا يُكوِّن شبكة معقَّدة «لا نظير لها من ناحية التعقيد في الكون المعروف بأسره» على حدِّ تعبير دايفيد هابل David Hubel الحاصل على جائزة نوبل. ويقول لويجي أغناتي Luigi Agnati (من جامعة مودينا): «إنَّ الخلية العصبية ذاتها على درجة من التعقيد تُشبه تمامًا الدوائر العصبية في أعلى مستوياتها، إنَّها عالَمٌ مُصغَّر قائم بذاته». كما يقول توماسو بوغيو: «إنَّ الخلية العصبية ليست نوعًا من الترانزيستور، كما كان يُعتَقَد حتى وقتٍ قريب، وإنَّما هي مُعالِجٌ دقيق حقيقي».

لا توجد إجابة للسؤال الذي يقول كيف اكتسب المخُّ تلك المَلَكَة التي يصعب وصفها: أن يُدرك ذاتَه، أي أن يكتسب الوعي بالذات. إنَّ المزيد من التعقيد لن يُفسر هذا الأمر. نعم، هناك نوعٌ من التماثل بين المخ والكمبيوتر من ناحية بعض الخصائص والقدرات، بَيْدَ أنَّ الكمبيوتر لن يستطيع أبدًا أن يُدرك ذاته، أن يُصبح واعيًا بذاته.

٤٦٩. يَعتبر ليبنتز(*) Leibniz أنَّ «الشيء الجميل هو ما يجمع بين الكمال والانسجام بطريقة غير مفهومة»، بينما يعتقد هيجل أنَّ «العمل الفنِّي يقع في مكان ما بين الموجودات الحسيةِ والفكر الخالص». ولهذا يَعتبر هيجل العملَ الفني صورة متدنية من الإدراك؛ وهذه الفكرة غير مقبولة على الإطلاق. وهذا نتيجة للفهم السطحي (أو الأحادي) للإنسان والعالم، حيث تقع المحسوسات في أدنى درجة، بينما يقع الفكر الخالص، الفكرة المطلقة، في أعلى قمة.

٤٧٣. تقول لينينا في رواية «عالم جديد شجاع»: «عندما يشعر الفرد بشيء ما داخل روحه، تبدأ بنية المجتمع كلِّه في الانهيار» هكذا تقول لينينا، إحدى سُكَّان العالَم الجديد

(*) غوتفريد ليبنتز (١٦٤٦-١٧١٦م) فيلسوف وعالم رياضيات ألماني، يحظى بمكانة مميزة في تاريخ الفلسفة وتاريخ الرياضيات، حيث أسَّس لعلم التفاضل والتكامل بشكل مستقل عن نيوتن، وتُعرف فلسفته بأنَّها فلسفة «تفاؤلية» حيث يرى أنَّ هذا الكون هو أفضل وأكمل خلق ممكن. (المترجم)

الشجاع. ألا تُمثِّل هذه العبارة إجابة على السؤال الذي يقول لماذا لا يوجد الحبُّ بين الرجل والمرأة كقضية في بعض نماذج الطوبيا «الفعلية» في عصرنا (مثلاً، في الصين خلال ما يُسمَّى بـ «الثورة الثقافية»)؟ في الطوبيا، هناك العقل والنظام، ولكن ليس هناك حبٌّ.

٤٧٤ . يُعقَد الزواج عند الهنود الأمريكيين الحُمْر مرَّة واحدة بصورة نهائية (أي لا يمكن أن ينفصل الزوج والزوجة). الكلمة الهندية التي تُعبِّر عن هذه العلاقة تعني «إلى الأبد». هذه السمة الأبدية للزواج تُمثِّل أحد عناصر الثقافة (والدين). بينما نجد أنَّ الحضارة دائمًا ولا بدَّ آخذة بالرؤية المضادة. أمَّا الإسلام فيقف في «الوسط»: قال رسول الله، ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق».

٤٨٠ . التعميم ليس أمرًا واقعيًا، أمَّا التخصيص فهو واقعي. يبذل الفنُّ قصارى جهده لتوضيح أنَّ أية قصة عامة عن الإنسان هي زائفة لا قيمة لها. وحدها القصة التي تدور حول فرد واحد، شخص بعينه، أو حول موضوع بعينه أو ظاهرة ما مُحدَّدة أو موقف ما بعينه، هي القصة الحقيقية الأُصيلة بالفعل.

٤٨٤ . قال شخصٌ ما ذات مرَّة إنَّ الفارق بين العلم والفنِّ يكمن في أنَّ العلم يبحث عن الحقيقة بينما يحاول الفنُّ التأثير من خلال الحقيقة. هذا الاستنتاج خاطئ. إنَّ نطاق كلٍّ من العلم والفنِّ مختلف عن الآخر، ومن ثمَّ تختلف حقيقة كلٍّ منهما، وكذلك صحيح أنَّ الفنَّ له تأثير، إلا أنَّ هذا ليس هدفه. الأمر هنا شبيه بالاعتراف، فالاعتراف في حقيقته لا يحفل بغير المعترِف وسامعه.

٤٨٦ . التكعيبية ليست نوعًا من «انتقال الفنِّ إلى دائرة العلم» كما يظنُّ البعض؛ فليس هناك مثل هذه العلاقة بين الفنِّ والعلم.

٤٨٩ . في كتاب «فينومينولوجيا الروح»، لا ينظر هيجل إلى الفنِّ باعتباره حقلاً مستقلًا. وبالمثل، نجد في كتابه «موسوعة العلوم الفلسفية» أنَّ فكرة الفنِّ ذاتها لا توجد إلا في كلمة مركَّبة «ديانة الفن» Kunstreligion. إنَّ الفنَّ لا يمكنه أن يقبل بأي صلة مع شيءٍ آخر سوى الدين. إنَّه «اللا محدود مُقدَّم من خلال المحدود».

٥٠١ . يقول ليونيلو ڤينتوري Lionello Venturi في كتابه «من غيوتو إلى شاجال»: «كانت النزعة الإنسانية، في المقام الأول، قضيةً أخلاقيةً انشغلت بإصلاح الفكر الديني. ومنذ عهد القديس فرنسيس، أي منذ القرن الثاني عشر الميلادي، كان الإيطاليون منشغلين باللاهوت كما هو دأبهم؛ فقد حلموا بأخوية إنسانية وأحبُّوا الأشياء الدنيوية بعاطفة متجدِّدة عبر ربط المسيح وأعماله بالحياة الإنسانية. ومن ثمَّ، تولَّد عن هذا الأمر ثقةٌ جديدةٌ في الإنسان في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي، حيث جرى تمجيد الإنسان باعتباره مركز الكون، بل وتأليهه». وتعليقي: النزعة الإنسانية، بهذه الصورة، هي استئناف مباشر للمسيحية. فالعالم اللا إنساني، المُجرَّد من وجود الله والإنسان، لا يظهر إلا في الطوبيا. كما أنَّ الطوبيا تتناقض مع مسيحية القديس أغسطين (مدينة الله) ومع روح النزعة الإنسانية ومقاصدها.

٥٠٢ . الأشياء، من الناحية الموضوعية، ليست جميلة ولا قبيحة، ولا يوجد جمال طبيعي. تُصبح الأشياء جميلة أو قبيحة، منسجمة أو مُشوَّهة، فقط عندما تلمسها روحنا. فاللحن الموسيقي لا يُؤثِّر في روحنا إلا لأنَّه ينسجم معها. تتعرَّف الروح على نفسها في اللحن، أو تكتشف فيه شيئًا ما موجودًا داخلها.

٥٠٥ . من الخطأ الحديث عن نظرية الفنِّ، بل ليس صحيحًا أنَّ نظرية كهذه تقوم على تاريخ الفنِّ، كما يظنُّ المفكِّرون الماديون (على سبيل المثال، ماكس رافائيل في كتابه «نحو نظرية معرفية للمادية الجدلية»). وعلى وجه الدقة، لا يوجد نظرية أو تاريخ للفنِّ. يوجد فقط فنَّانون وأعمالهم في تيار متدفِّق متواصل يُظهر بعض الاختلافات، ولكن لا يُظهر أيَّ تطورٌ.

٥٠٦ . ما قاله ماركس (في كتاب «نظرية فائض القيمة») عن أنَّ الإنتاج الرأسمالي مُعاد بشكل أساسي للشعر وفنِّ الرسم ليس صحيحًا، وذلك لسببين: أولاً، لأنَّ كلامه هذا يجعل الإنتاج الروحي متوقِّفًا على الإنتاج المادي، ثانيًا، لأنَّه يتناقض مع حقائق الواقع، فقد دحض تطوُّرُ الرأسمالية هذا الكلامَ. ويكفي أن نلقي نظرة على القائمة الطويلة لكبار الشعراء والرسَّامين في القرن العشرين.

٥١٤ (عن سيجموند فرويد). دائمًا ما كان يُشبَّه أثر التحليل النفسي عند فرويد بأثر الاكتشافات الثورية التي قام بها كوبرنيكوس وداروين. ويُطلق النقَّاد المعاصرون على التحليل النفسي عند فرويد «التعليم الديني المتخفِّي في ثياب العلم». في عام ١٩٠٥م، عالج فرويد إبنَ أحد أصدقائه، وهو ولد صغير اسمه هانس غراف. كان هانس يُعاني من خوف عُصابي من الخيول ويرفض الخروج من البيت. وبعد جلسات علاج التحليل النفسي، قدَّم فرويد تشخيصًا غريبًا لا يخطر على بال؛ وهو أنَّ الخوف العُصابي من الخيول كان بسبب شعور الولد بالذنب الناتج عن رغبته الدفينة في ممارسة الجنس مع أمه! ويواصل فرويد تفسيره قائلاً إنَّ الولد كَبَتَ رغبةَ السفاح هذه خوفًا من عقوبة أبيه الغيور، إلخ. قدَّم فرويد نتائج تحليل هذه الحالة في كتاب بعنوان «تحليل فوبيا لدى صبي ذي خمسة أعوام»، والذي يعتقد تلاميذه أنَّ بوادر براهين نظرية فرويد حول عقدة أوديب قد ظهرت فيه. وقال كورت آيسلر، تلميذ فرويد الذي عاش في نيويورك، قال بكلِّ حماس: «اللحظة التي اعترف فيها هانس لوالده برغبته الأوديبية كانت لحظة فارقة للبشرية كلِّها». ولا أفهم كيف يكون القضاء على الحبِّ الأسطوري المرتبط بالأم «لحظة فارقة للبشرية كلِّها». وحتى لو كان هذا صحيحًا، فسيكون حقيقة بشعة. ومع هذا، فهناك لدى المُلحدين والماديين رغبةٌ ما غير قابلة للتفسير في القضاء على كلِّ ما هو مُقدَّس وكلِّ ما يُعيننا على النظر إلى الإنسان باحترام. وفيما بعد، جرى تفنيد هذا التحليل الذي قدَّمه فرويد؛ حيث قدَّم عالم النفس كريستوف إيشينرودر Christof Eschenroder في كتابه «هنا أخطأ فرويد» تحليلاً مختلفًا تمامًا لخوف الولد من الخيول. ما حدث في الحقيقة هو أنَّ الولد قبل أن يُصاب بهذه الحالة العصابية مباشرة كان قد رأى حصانًا يسقط من إعياء العمل وهو عاجز مُقيَّد في لجامه وعُدَّته، ممَّا تسبب في حدوث صدمة لدى الولد. وانتهى إيشينرودر إلى أنَّ نظريات فرويد كانت مجرَّد «ثرثرة فارغة وأوهام» وأنَّها لم تُقدِّم أيَّ دليل مقبول علميًا يُثبت افتراضات التحليل النفسي. ويعتقد عالم البيولوجيا البريطاني الحائز على جائزة نوبل بيتر مدوّر Peter Medawar أنَّ التحليل النفسي غير العلمي هو «الخدعة الأكثر بشاعة في القرن العشرين». وكما نعلم، فقد تراجع فرويد نفسه عن هذه النظرية (نظرية السفاح). ويستخلص الرسَّام السيريالي أندريه ماسون André Masson أنَّ «التحليل النفسي كلّه يعتمد على الأساطير اليونانية».

٥١٦ . ثمّة دليلٌ آخر على أنّ الإنسان ذو روح، هذا الدليل هو عدم القدرة على توقُّع نتائج التربية (أو عجز التربية). فالظروف (الأسباب) المتشابهة لا تؤدي إلى النتائج (العواقب) نفسها. سيُثبت البعض، بنجاح، أنّ الطفولة البائسة تُنتج شخصيات غير مستقرّة ومضطربة نفسيًا، وهذا الكلام يلقى قبولاً عامًا. ولكن أجرى علماءُ اجتماع من بريطانيا وأمريكا والسويد بحثًا جديدًا وتوصَّلوا إلى النتائج التالية: أدَّت الخبرات البغيضة في مرحلة الطفولة -مثل العلاقات الأسرية المضطربة، والآباء ذوي الطبيعة العُصابية الفظَّة، وحالات التبنِّي، إلخ- أدَّت إلى نتائج معاكسة لما هو مُتوقَّع. فالكثير من الأطفال الذين نشأوا في ظروف كهذه أصبحوا فيما بعد شخصيات قوية مستقرَّة نفسيًّا، في حين أنَّ هناك أطفالاً تمتَّعوا بالرعاية والاهتمام ولكن كبروا وأصبحوا شخصيات مضطربة غير مستقرَّة. لو كان الإنسان حيوانًا لكانت نتيجة التربية مُتوقَّعة وفعَّالة، وكانت الظروف المتشابهة ستؤدِّي إلى النتيجة ذاتها أو نتيجة مشابهة. وبالقدر الذي لا يكون فيه الإنسان حيوانًا، يكون شخصية مستقلة، يكون روحًا، وفي كلمة واحدة: يكون إنسانًا ومخلوقًا حُرًا، ولن يمكن أبدًا التأكُّد من استجابته للمثيرات الخارجية(أو توقُّعها). إنَّ قانون الانعكاس المشروط لا ينطبق على الإنسان.

٥١٨ . النتيجة الوحيدة للمنهج البيولوچي الذي يتعامل به فرويد مع الروح هي إنكار وجودها.

٥١٩ . انطلاقًا من إدراك هيجل للفنِّ إدراكًا تاريخيًا، أي باعتباره طريقة حسية لمعرفة العالم، كان لا بدَّ له أن ينتهي إلى الاستنتاج الخاطئ عن «نهاية الفنِّ». يرى هيجل أنَّ الفنَّ الحقيقي لم يوجد إلا في الماضي، وأنَّ زمن هذا الفنِّ قد ولَّى إلى الأبد. إلا أنَّ التطوُّرات التي حدثت في مجال الفنِّ بعد هيجل أثبتت أنَّه كان مُخطئًا في تنبُّؤاته، وكذلك في مقاربته التاريخية للفنِّ.

٥٢٤ . يقول ماكس بنز Max Bense في كتابه «علم الجمال» إنَّ «أي نَصٍّ أدبي يمكن تحويله إلى معادلة/ صيغة منطقية». يرجع هذا الرأي إلى النظرة المادية لماكس بنز.

٥٢٦ . من الخطأ كذلك القول إنَّ «الفنَّ الكلاسيكي يُقيم حقيقته الفنِّية على المشاعر، بينما يُقيم الفنُّ الحديث حقيقته الفنِّية على الأفكار» (كما يقول كثير من المفكِّرين الماديين). لا يمكن وجود الفنِّ بدون تجربة مباشرة، بينما يحتاج الفكر إلى وسيط يُعبر عنه. إنَّ العمل الفنِّي الذي يبدأ من فكرة (وليس من شعور) يكون بناءً مُشيَّدًا، إنَّه ليس قطعة فنِّية، وإنَّما محاكاة لها.

٥٣٦ . أحد الأسئلة الأكثر إثارة لدى المؤرِّخين ورجال الدين وفلاسفة الأخلاق والكثيرين غيرهم هو لماذا ظلَّ اليهود باستمرار يُنتجون الفلسفة المادية والإلحاد بشكل موضوعي عبر التاريخ، وهم حاملو رسالة الدين ودعوته. يمكن التماس تفسير هذا الأمر في التوجُّه اليهودي الاستثنائي نحو هذا العالم، نحو «أرض الميعاد» (هنا والآن) بدلاً من أسطورة «مملكة الله» التي لا وجود للدين والفكر الأخلاقي بدونها. لقد حلَّت أسطورة «أرض الميعاد» محلَّ أسطورة «مملكة السماء». يقف هذان الرمزان العظيمان -أرض الميعاد ومملكة السماء- في تعارض، ويُشيران إلى عالمين مختلفين واتجاهين مختلفين ومصيرين مختلفين للإنسان على الأرض. وفي الوقت ذاته، كانت معاناة اليهود عبر التاريخ مصدراً دائمًا لخيبة أملهم في الله وفي القوانين الأخلاقية. ومن خيبة الأمل هذه، وُلدت روح الشك والتمرُّد. ظلَّت هذه الروح ملازمة لليهود عبر التاريخ وكانت نتيجةً للآمال والطموحات (غير الواقعية) التي لم تتحوَّل إلى واقع حول «مملكة السماء»، كجزاء لعبادة الله وطاعته. وهكذا، نجد أنَّ المُعتَقَد الأساسي لدى اليهود القائل بأنَّ العدالة لا بُدَّ أن تسود في هذا العالم -وهو مُعتَقَد خاطئ وظلَّ غير مُتحقِّق- نشأت عنه روح التمرُّد والشك، والتي لا تبعد عن الإلحاد سوى خطوة واحدة. إنَّ فرانز كافكا وكتابه «تأمُّلات حول الخطيئة والمعاناة والأمل والطريق الحق» هما بمثابة تعبير عن هذه الروح. من الممكن أن تدرس كافكا لسنوات طوال، إلا أنَّك ستظلُّ في حيرة هل هو مؤمن أم مُلحد. ورغم هذا، فقد قدَّم كافكا نفسه أفضل إجابة في مقولته الشهيرة: «الله موجود، لكنَّه شرير». من الواضح أنَّ هذا ليس إلحادًا، لكنَّه ليس دينًا كذلك. وصف الفيلسوف النمسوي الماركسي جونتر أندرس Günther Anders كافكا بأنَّه «مُلحد على استحياء»، (وذلك في كتابه

«كافكا؛ مع وضد»، ميونيخ، ١٩٥١م). قام كافكا بقلب كلمات المسيح: «من يقرع يُفتَح له» إلى: «من يطلب لن يجد». ويقول أندرس أيضًا في وصف عام للمعضلة الجوَّانية لدى اليهود جميعًا: «لم يعرف كافكا إلى أيِّ أرض أو إلى أيِّ سماء ينتمي». إنَّ الإلحاد لدى اليهود غريبٌ حقًا؛ فهو لا يُنكر وجود الله، ولكنَّه يرفض التعرُّف إليه وتمجيده. ينظر المُلحدون والمتنسِّكة والوجوديون، على السواء، إلى كافكا باعتباره واحدًا منهم. جميع الأديان تؤمن بأنَّ هذا العالم ليس عالم الجزاء والحساب، بل هو فتنة واختبار. غير أنَّ اليهود لا يرون الأمر كذلك، وهنا يكمن إلحادهم. كما أنَّ اليهود خاب أملهم في المسيح للسبب ذاته، فتاريخ آلام المسيح يتعارض تمامًا مع الآمال والطموحات اليهودية ويُمثِّل إنكارًا حادًا لما يعتقدونه من أنَّ الإنسان المستقيم سينال السعادة في هذا العالم.

وهنا يمكننا أن نلحظ أنَّ الإسلام هو كذلك دينٌ «يتوجَّه نحو هذا العالم»، وهذا أمر حقيقي، ولكن في الوقت ذاته، ومع اهتمامه بهذا العالم، لم يضل الإسلامُ الطريقَ ولم ينسَ أنَّ رسالته الأعظم والأهم هي عبادة الله. كما أنَّ الإسلام أكَّد بقوَّة على فكرة مملكة الله وحافظ عليها.

٥٤٤. الثقافة الكلاسيكية الصينية كلُّها، طوال ألفي عام تقريبًا، بإنجازاتها البارزة في مجالات الفلسفة والدين والأدب والأناشيد الدينية والدراما والنثر السردي، كلُّها كان يُعبَّر عنها شفاهيًا. كان للصين ثقافةٌ في غاية الرُّقي منذ زمن موغل في القدم، في حين كان جميع سُكَّانها تقريبًا أُمِّيين. لم يكن يُجيد القراءة والكتابة سوى أعداد قليلة في الطبقات الموسرة: الأباطرة، الأعيان من ساكني القصور، كبار الموظَّفين والمسئولين في دائرة السلطة. وهؤلاء كانوا يُشكِّلون أقلَّ من ١٪ من مجموع سكَّان الصين. تتكوَّن الأبجدية الصينية من حوالي ٤٤,٠٠٠ صورة كتابية، لا يُستَخدَم منها بانتظام سوى حوالي ٤٠٠٠ صورة كتابية، ومع هذا لا تزال الأبجدية الصينية في غاية التعقيد. والأبجدية في الثقافة شرٌّ لا بدَّ منه، أمَّا في الحضارة؛ فالكتابة شرط أساسي لأي حضارة. ولكن، ثمَّة حقيقة غريبة جديرة بالذكر: تتكوَّن الموسوعة الصينية الضخمة Gujin Tushu Jicheng من أكثر من ألفي مُجلَّد. وهي عبارة عن تجميع مُرتَّب للتراث الذي انتقل من جيل إلى جيل منذ

العصور القديمة. ويُمثِّل الكتابُ الصيني Shijing، والذي يعني «ديوان الشعر»، واحدًا من أقيم المختارات الشعرية في الأدب العالمي، وهو يتكوَّن من ٣٠٥ من القصائد المنظومة خلال الفترة من ١٥٠٠ إلى ١٦٠٠ قبل الميلاد. كان كونفوشيوس مُعاصرًا للاو تسي. وبينما كان كونفوشيوس شخصًا عمليًا وناشطًا اجتماعيًا، فضَّل لاو تسي العُزلةَ والتأمُّل. وكلاهما يُمثِّل جانبين متعارضين من الروح الصينية. كما كان لاو تسي أحد أنبياء الثقافة وهو يقول:

نستطيع أن نعرف العالم كلَّه

من غير أن نُسافر بعيدًا.

نستطيع أن نرى طريق السماء

من غير أن ننظر من النافذة.

كلَّما ذهب الإنسان بعيدًا، قلَّ علمه.

هذه الأبيات مثال جيد للنظرة الجوَّانية، النظر إلى الروح، بدلاً من النظرة البرَّانية، النظر إلى العالم الخارجي.

ثمَّة ظاهرة في الشعر الصيني تُعرف باسم عدم اكتمال القصائد الصينية. فمثلاً، يقوم شاعر صيني (شعبي) مجهول بعمل مسوَّدة شعرية أو يرسم صورة عامة، ويتعمَّد عدم إتمامها بهدف إشراك الجمهور في العمل. يترك الشاعر الفرصة للجمهور ليستخدموا خيالهم لإتمام الصورة، ومن ثمَّ تُصبح التجربة شيئًا يخصُّهم بشكل حميم؛ فهو يدفعهم إلى الإبداع بدلاً من الا ستماع أو التلقي بشكل سلبي، ومن ثمَّ يصبحون هم أنفسهم شعراء.

كان سموُّ هذه الثقافة الأمية أمرًا مُذهلاً. وكان كلُّ من يغزو هذه المنطقة يكاد ينسى تقاليده وأفكاره ويتبنَّى التقاليد والأفكار الصينية. لم تتأثَّر الثقافة الصينية بأي ثقافة أخرى، وإنَّما كانت هي التي مارست تأثيرًا قويًّا على الثقافات الأخرى. هذا التأثير واضح بشكل لافت في اليابان، والتي طوَّرت حضارتها الخاصة، بخلاف الصين. لم يكن لليابانيين

فلسفة خاصة أو دين خاص بهم، والديانة الشنتوية ترجع في أصلها إلى الصين. إنَّ العلاقة بين الصين واليابان تُذكِّر المرءَ بالعلاقة بين أثينا وروما في العصور القديمة، أو العلاقة بين أوروبا وأمريكا في العصر الحديث. اليابان هي أمريكا الأسيوية، وأحيانًا يكون التماثل بينهما كاملاً.

٥٥٠ . ينظر الكثيرون إلى الشاعر الياباني باشو Basho (الذي عاش خلال القرن السابع عشر الميلادي) على أنَّه أعظم شاعر ياباني عبر كلِّ العصور. كان باشو منتميًا إلى طائفة الزن التي احتفظت بالروح الحقيقية الأصيلة للبوذية أطول فترة ممكنة. أصرَّ باشو على التعبير الصريح الصادق عن المشاعر، وكان يرى أنَّ الشاعر يجب ألا يُفكِّر في تأثير أو وقْع قصائده على الآخرين. كتب باشو في يوميات أسفاره المعروفة باسم «يوميات الملحمة» قائلاً: «أعيش وحيدًا، وأكتب لمتعتي الخاصة».

٥٥١ . «يُشارك» المُستمِع أو المُشاهِد في إبداع العمل الفنِّي دون أن يكون واعيًا بهذا. إنَّ استمتاعنا بالموسيقى هو في الحقيقة نوع من المشاركة. نحن «نُغنِّي» بصوتنا الداخلي، و«نستمع» بأذننا الداخلية إلى المقطوعة الموسيقية التي لم نؤدِّها. بدون هذا السلوك الحي، يبقى العمل الفنِّي مُهمَلاً، غير موجود.

٥٦٠ . ثمَّة نقطة تماس مهمَّة بين الفنِّ والفلسفة الوجودية. تتعامل الوجودية، مثل الفنِّ، مع الوجود الإنساني العيني الفردي الخاص، مع شيء مُحدَّد أو موقف بعينه. والإشكاليات الفلسفية الوجودية تبحث عن الحلول عبر وسائل فنِّية. الوجودية هي محاولة لفهم العالم بأسلوب فنِّي، إنَّها معارضة أبدية في وجه المجتمع، وهذه نقطة تماس أخرى مع الفن.

٥٦٦ . خلافات حول الموسيقى: كان هيرمان هيلمهولتز Hermann Helmholtz يعتقد أنَّ التأثير السمعي للموسيقى يرجع إلى فسيولوجيا عضو السمع والأجهزة السمعية، وهو اعتقاد خاطئ. وبالمثل، يقدِّم شيتمان Sietman تفسيره للأمر بأنَّه يرجع إلى «التماثل بين حركة النغمة وحركة العضو الجسدي» (وهذا تفسير مادِّي)، بينما يقول هوجو ريمان Hugo Riemann العكس: «ينشأ هذا التأثير كشعور حي داخل روح المؤلِّف ويتحوَّل مباشرة إلى

شعور حي وخبرة روحية لدى المستمع». كتب بيتهوفن مقطوعة القدّاس العظيم Missa solemnis وسيمفونيات أخرى وهو أصمّ تمامًا؛ كما يستطيع الموسيقيون المحترفون إدراك الأعمال الموسيقية والاستمتاع بها عبر قراءتها، أي مستخدمين عيونهم بدلاً من آذانهم، وهذا نتيجة لاستخدام الروح.

يقول إيفان فوشت Ivan Focht: «إذا كان كلٌّ من المستمع ومؤلِّف المقطوعة الموسيقية من الطبقة الاجتماعية نفسها، فمن الطبيعي أن يساهم هذا في الإعجاب بالعمل»، وهو بهذا يُعبِّر عن رؤيته الماركسية للقضية، وتبدو رؤية مُفتَعلة إلى حدٍّ بعيد. ومن حيث المبدأ، يرفض جميع الموسيقيين أيَّ إمكانية لتقديم تفسير أو تحليل علمي للموسيقى.

٥٨١ . إذا كان للفنِّ أن يُفسِّر العالَمَ فهو يفعل ذلك من خلال التفاصيل. ويُفسر العلمُ العالَمَ بطريقة مختلفة تمامًا: من خلال التعميم واختزال كلِّ ما هو موجود إلى وحدة واحدة. وتُمثِّل نظرية هيزنبرج عن المجال الموحَّد الحقيقةَ العلميةَ النهائية، الفكرةَ النهائية للعلم: كلُّ شيءٍ يمكن اختزاله إلى وحدة واحدة. وهكذا يضع العلمُ نزعتَه التجريدية المُطلَقة التي تستوعب العالم بأسره، يضعها في مواجهة الطبيعة العينية المحدَّدة لعالم الفن.

٦١٣ يوجد لدى الإنسان رفضٌ فطري لتفسير العالم بطريقة عقلانية خالصة، وكذلك لديه ميْلٌ فطري لما هو مُلغزٌ وغير عقلاني.

٦١٤ حول عدم اتِّساق العلماء مع أنفسهم: كان باڤلوف، صاحب نظرية الانعكاس المشروط (أو الاستجابة الشرطية)، يذهب إلى الكنيسة كلَّ يوم أحد. وما من شيءٍ يتعارض مع الدين كما تتعارض مُقدِّمات نظرية الانعكاس المشروط.

٦١٩ شعار نيتشه «لقد مات الإله» كان لا بدَّ أن يتبعه -وبمنطق قاسٍ- شعار ميشيل فوكو «لقد مات الإنسان». وهكذا، إذا لم يكن الله موجودًا، فالإنسان غيرُ موجود؛ فكلٌّ منهما مرتبط بالآخر.

٦٣٤ حول انتشار الديمقراطية الاشتراكية في أوروبا وأمريكا الجنوبية (بشكل خاص): وصل الديمقراطيون الاشتراكيون إلى السلطة في اليونان وإسبانيا وفرنسا. وفي

أمريكا اللاتينية وصل الاشتراكيون إلى السلطة في جمهورية الدومينيكان وفينزويلا وكوستاريكا وبيرو. وهناك ميول قوية تجاه الديمقراطية الاشتراكية في البرازيل والأرجنتين وبنما والمكسيك. في الحقيقة، هناك تقدُّم نحو الحالة الوسط، مع بعض التحوُّلات المتعاقبة نحو اليمين أو اليسار، ولكنَّها ليست تحوُّلات خطيرة. في المجتمعات الناضجة سياسيًا، تَظلُّ المواقف المتطرِّفة (سياسيًا) على الهامش.

٦٦٩ حول النظافة: لم يستحم القدّيس أمبروز طوال حياته قط، حتى لا يستسلم «للذة لمس جسده»، في حين كانت «رائحة» قدمي لويس الرابع عشر تصل لمسافة عدة أمتار. كان ليوناردو دافينشي ينام مرتديًا حذاءه، وبما أنَّه لم يكن يُحب أن يخلع حذاءه فكان يعتبره «جلده الثاني». وكانت إيزابيلا ملكة أراغون تعتقد أنَّه «على المرء أن يستحم مرَّة عند الميلاد ومرَّة قبل الزواج». ومن خلال هذه المعلومات خلُصت مجلة «الأوروبي» (١٩٨٥م) إلى أنَّه: «من الواضح أنَّه لم يكن هناك تقليد راسخ للنظافة الشخصية في وسط وجنوب أوروبا. إنَّ الوعظ الأخلاقي الكاثوليكي حول الحياء والخطيئة الجسدية كان أكثر قبولاً لدى أهل أوروبا منه لدى مَن شيَّدوا الحمَّامات الرومانية خلال عصور الوثنية». كذلك وجد المؤرِّخون الذين يبحثون في تاريخ الطب أنَّ الانخفاض الشديد في مُعدَّل الوفيَّات لم يكن بسبب إنتاج أدوية جديدة، وإنَّما كان في الأساس بسبب تحقيق مستويات أفضل من النظافة. كما أمكن كبح جماح مرض التيفود في مطلع القرن العشرين قبل اكتشاف علاجه الطبي بوقت طويل. كذلك الأمر مع مرض السُّلِّ، حيث انخفض مُعدَّل الوفيات بشكل كبير قبل اكتشاف المصل المضاد، وذلك بفضل التحسُّن في مستوى النظافة.

٦٧١ لم تُقَرَّ العزوبة (الرهبنة) إلا بقرار مجمع لاتيران Lateran Council الذي انعقد في ١١٣٩م. ليست العزوبة عقيدة دينية، وإنَّما إجراءٌ انضباطي، ومع ذلك فهي تتوافق تمامًا مع روح المسيحية. جاء في التبرير الذي قدَّمه مجمع لاتيران أنَّ الزواج كان مُحرَّمًا على الكُهَّان والقساوسة «حتى ينتشر الطهر، وهو إرادة الرب، بين درجات القساوسة والرهبان».

٦٨٠ من خلال الفحص الدقيق لطبيعة مذهب العُري والمذهب الطبيعي قد نكتشف أنَّ لهما أصولاً دينية بشكل ما. فبعض الطوائف تدعو إلى العُري وتُمارسه بدعوى «العودة إلى براءة أبينا آدم» أو يربطونها بالحياة في الجنَّة قبل «الهبوط» الشهير. إلا أنَّ كلَّ شيءٍ تغير بعد هذا «الهبوط»، ومن ثمَّ فالمقارنة هنا لا معنى لها.

٦٩٣ في أوروبا، وفي الغرب عمومًا، كان الاتجاه اليميني هو من يُدافع عن «حق الضحية»، بينما كان اليسار، كقاعدة عامة، يُحاول تبرير فعل الجاني. وعلى مدى قرنين تقريبًا، منذ ظهور النزعة العقلانية وحتى الآن، كان ضحية الجريمة منسيًا بدرجة أو بأخرى. ومن ثمَّ ظهر موقف لا معقول: كان المواطنون السلميون يقعون تحت طائلة التهديد والخطر، وكان الجميع يُدافع عن المجرمين. وشاع اختراع النظريات التي تُفسر الجريمة وتُبرِّر ما قام به المُجرمون. كان هذا ردَّ فعل للقوانين الجنائية في ذلك الوقت التي ظلَّت في غاية القسوة على مدى عدة قرون. كانت المعضلة تتعلَّق بالقضية الأصلية، بل والميتافيزيقية، حول مسئولية الإنسان (أو عدم مسئوليته) عن أفعاله. وكان نسيان الضحية مرتبطًا بالنظريات المتعلِّقة بطبيعة الإنسان التي قامت على الداروينية أو نشأت عنها. فالإنسان الدارويني ليس حُرًا وهو نتيجة للظروف وضحية لها. أمَّا الدين، والذي أكَّد على أنَّ الإنسان له روح، ومن ثمَّ فهو حُر، فكان أكثر صرامة وأكَّد على مسئولية الإنسان. وهكذا انقسم الإلحاد والدين حول هذه القضية: فقد وقف الإلحاد في صفِّ المجرم، ووقف الدين في صفِّ الضحية.

٧٠٥ قام البرلمان الإنجليزي بتقييد سُلطة الملك، ولكنَّه لم يُلغِ المَلكية. أمَّا البرلمان الفرنسي فقد آمن بأنَّه لا يمكن أن يؤمِّن نفسه ضد المَلكية إلا بالقضاء عليها. كان هذا تعبيراً عن روحين مختلفتين.

٧٠٦ كلُّ ما نعرفه عن المصريين القدماء يُظهر أنَّهم كانوا مهمومين بالأفكار حول الغاية من الحياة ومعنى الموت. لم يتغيَّر شيءٌ في الخمسة آلاف سنة الماضية.

٧٠٧ يبلغ وزن الغُدَّة النخامية، والتي تُعتَبَر أهمَّ غُدَّة في جسم الإنسان، نصف جرام فقط، وأبعادها حوالي ٥ ملم x ١٣ ملم. تعمل هذه الغُدَّة، إلى جانب الوطاء/ تحت المهاد

Hypothalamus، كوحدة تحكُّم -أو مفتاح تحكُّم مركزي- لتنظيم عملية النموّ وضبط عمل الغُدَّة الدرقية والغُدَّتين الكظريتين والغُدَد الجنسية، وكذلك تنظيم إفراز لبن الأم وكمية الماء في خلايا الجسم. ثمَّة شيءٌ واحد مؤكَّد: مثلُ هذا «الجهاز» المُعقَّد والمُتقَن لم يظهر عن طريق الصدفة.

٧٠٨ يَنتمي تعبير «الشقاء الكوني»(*) إلى الثقافة وليس الحضارة، فالحضارة لا تعرف مثلَ هذا «الشقاء».

٧٠٩ يَخضع العلمُ للتطوُّر، وله تاريخ من التطوُّر. إنَّ طبيعيات أرسطو تبدو لنا الآن ساذجة للغاية، إلا أنَّ الأمر على نقيض ذلك بالنسبة لميتافيزيقا أرسطو. فعلى عكس طبيعياته، ما تزال ميتافيزيقا أرسطو مُثيرة للاهتمام اليوم كما كانت من قبل؛ فالمفاهيم الأساسية المُتداوَلة الآن في دائرة الميتافيزيقا وُصفت وشُرِحت لأول مرَّة في كتاب أرسطو «الميتافيزيقا» (ما بعد الطبيعة).

٧١١ في كتاب «الجريمة والطبيعة البشرية»، الذي كتبه أستاذان من جامعة هارڤارد هما چيمس ويلسون وريتشارد هيرنشتين، في هذا الكتاب يُفسِّر السلوك الإجرامي من خلال عوامل البنية الجسدية (وهو ما يُذكِّرنا إلى حدٍّ كبير بنظريات لومبروزو). يرى المؤلِّفان أنَّ المجرمين يكونون في الغالب شبابًا ذوي بنية عضلية قوية وعلى قدر من الذكاء أقل من المتوسط وذوي طبيعة مُتهوِّرة ويُركِّزون على «اللحظة الحاضرة» ممَّا يجعل من الصعب بالنسبة لهم أن يُفكِّروا في المستقبل وفي العواقب. ويؤكِّد المؤلِّفان أنَّ البحث الذي قاما به لا يدع مجالاً للشك أنَّ عوامل البنية الجسدية لها علاقة مباشرة بالسلوك الإجرامي.

٧٢٥ تتكوَّن قصيدة مالارميه Mallarmé «سوناتا عن شخص مجهول» Sonnet en X من أربعة عشر بيتًا، وقد ظلَّت مُبهَمة تمامًا لمعاصريه وكذلك للقُرَّاء المعاصرين.

(*) الشقاء الكوني، بالألمانية Weltschmerz، وبالإنجليزية World-Pain، هو تعبير صاغه الكاتب الألماني چان باول ريشتر (١٧٦٣-١٨٢٥م) للإشارة إلى ما يشعر به الإنسان الذي يُدرك أنَّ الواقع المادي لا يكفي أبدًا لتلبية الأشواق والطموحات الروحية الإنسانية، وكذلك للإشارة إلى الحزن والأسى عند التفكير في شرور العالم. انتشرت هذه الرؤية لدى كثير من الكتَّاب الرومانتيكيين مثل لورد بايرون ودي موسيه وشاتوبريان وهيرمان هيسه وهينريش هينه وغيرهم. (المترجم)

القصيدة ذاخرة بالعناصر المُلغزة المحيرة وتُمثِّل ذروة «المرحلة الهرمسية» عند مالارميه .

٧٥١ يمكن للكمبيوتر أن يعرف الكثير وأن يكون بارعًا في مهارات عديدة ، ومع ذلك فالكمبيوتر جهاز غبي . فأجهزة الكمبيوتر التي يُطلَق عليها الجيل الخامس هي تجسيد للذكاء الاصطناعي الشهير ، وهناك واحد من هذه الأجهزة سينتهي تصنيعه في مختبرات الذكاء الاصطناعي بمعهد ماساتشوستش للتكنولوجيا في ١٩٨٧م . ومع هذا ، وحتى لو كان من الممكن محاكاة العقل الإنساني (وهذا الأمر موضع شكٍّ من قبل الخبراء) فثمَّة شيءٌ واحد مؤكَّد هو أنَّ الكمبيوتر لن يستطيع أبدًا أن يكتب شعرًا ، حتى ولو من الناحية النظرية .

٧٨٤ يرى كيركغارد أنَّ الموت هو ثمرة الحرية ، وأنَّه نتج عن تمرُّد الشيطان . وفي قصيدة اللورد بايرون «قابيل» يتساءل قابيل عن خطيئة أبويه وهبوطهما من الجنَّة ، هذا الهبوط الذي تسبَّب في فقدان حياة الخلود . إنَّ البراءة هي الحالة التي وُجِدَتْ قبل معرفة إمكانية الاختيار ، أي قبل الحرية . مع ميلاد الحرية ، وُلِد التمرُّد والخطيئة والمَوت .

٧٨٧ الطوبيا شموليةٌ بطبيعتها . فإلى جانب تنظيمها للعلاقات البرَّانية ، تنطوي الطوبيا دائمًا على محاولة تشكيل النفس الإنسانية .

٨٠١ . الطبيعة الذاتية للفنِّ لا تعني «نوعًا من الرفض لمجتمع بعينه» كما يقول أدورنو (*) في كتابه «الجانب الاجتماعي في الفن» . كلُّ شكل من الفنِّ في أي مجتمع يكون ذاتيًا بشكلٍ ما .

٨٢١ . سعى قدماء اليونانيين إلى شيئين : المعرفة والمهارة . وقد عبَّروا عن هذا بشكل مُعبِّر للغاية في تأكيدهم على أنَّ الإنسان لا بدَّ أن يكون قادرًا على «الكتابة والسباحة» .

(*) تيودور أدورنو (١٩٠٣-١٩٦٩م) فيلسوف وعالم اجتماع ألماني من أهم رواد مدرسة فرانكفورت ، تركَّز اهتمامه حول الفن والموسيقى والمجتمع الرأسمالي ، واشتُهر بنقده للفاشية وصناعة الثقافة ، وتركت أفكاره تأثيرًا كبيرًا على حركة اليسار الجديد في أوروبا . من أهم أعماله : «جدل التنوير» بالاشتراك مع هوركهايمر ، و«صناعة الثقافة» و«الجدل السلبي» . (المترجم)

٨٢٣ . يُبدع الفنَّانون الفنَّ عندما «ينتجون» أعمالهم الفنِّية، وليس عندما يُنظِّرون لها أو يتفلسفون حولها. إنَّ «تفسيرهم» المُحتمَل لفنِّهم الخاص يزيد من صعوبة فهم أعمالهم. وخير مثال على هذا هو المقدمة التي كتبها بلزاك لعمله الكبير «الكوميديا الإنسانية». ولعلَّ دورر Albrecht Dürer مثال آخر على هذا، فقد عرَّف الفنَّ، في كتابه عن فنِّ الرسم، بأنَّه مجموع الأشياء التي تدور حول «القياس والعدد والوزن». كان هذا تعريفًا للفيزياء وليس للفن. كان من الأفضل ألا يقول شيئًا.

٨٤٨ . المهابهاراتا Mahabharata، هذه الملحمة الهندية القديمة التي ظهرت منذ ثلاثة آلاف عام وتتكوَّن من مائة ألف بيت تجتمع فيها الحكمة الكاملة لحضارة كاملة، هي أعظم إبداع شعري قام به الإنسان. تصف الملحمةُ الحلم العظيم لڤياسا Vyasa حول مصير العالم. يصحب ڤياسا صبيٌّ يسأل أسئلة حول الحياة والعالم. تبدو هذه الأسئلة الطفولية في غاية «الحكمة» تمامًا مثل إجابات الناسك الحكيم ڤياسا؛ المؤلِّف المُفتَرَض للمهاربهاراتا.

٨٥٢ . وصف أرسطو مُهمة الفلسفة كالتالي: «هي السؤال الذي كان يُسأل دائمًا، وسيظلُّ يُسأل دائمًا، وسيبقى موضع خلاف ونزاع، أعني: ما الوجود؟ أو ما الموجود؟»، ويُحدِّد أرسطو طبيعة هذا السؤال في كتابه «الميتافيزيقا»، وهو الكتاب الذي يعتبره البعضُ حجر الزاوية في الفلسفة. ويعتقد هيدجر أنَّ ما توصَّل إليه أفلاطون وأرسطو «قد استمرَّ وبقي في صور مختلفة من الفلسفة». ويصف البعضُ كتاب أرسطو «الميتافيزيقا» بأنَّه «كتاب الكتب»، و«اللحظة الحاسمة في تاريخ الغرب الأوروبي بأسره» (توميسلاف لادان، مُترجِم كتاب «الميتافيزيقا» إلى اللغة الصربو-كرواتية).

٨٥٦ . المجاز في جوهره عملية مقارنة. السؤال هو هل يستطيع الكمبيوتر يومًا ما، حتى في أقصى درجات إتقانه، أن يُفكِّر بصورة مجازية؟ كيف يمكنه التمييز بين المعنى الحرفي والمعنى المجازي للكلمة؟

٨٩٦ . يتناول توماس مان في قصة «تونيو كروجر» Tonio Kroger القضية التي تتخلَّل جميع أعماله: موقف الفنِّ (والفنَّانين) من الحياة العادية، أو موقف الجمال من القوانين ومُتطلَّبات (مجتمع مدني عادي). إنَّ الفنَّان لا يحيا، لأنَّه مهموم بالحياة. كما أنَّ

الفنُّ هو مغامرةٌ للروح التي لا تتوافق مع الوجود، والفنَّان هو إنسان تعيس مُغترب أصابته لعنة المعرفة.

٩٠٨ لا نستطيع أن نتحدَّث عن إنسان دارويني. فإنسان داروين ليس إلا مجرَّد حيوان ذكي. بل يمكننا أن نُقـرِّر أنَّ داروين لا يتـحـدَّث عن الإنسـان، وذلك لأنَّ الكائن الذي يتحدَّث عنه لا تُؤرِّقه ولا تُمزِّقه الطموحات أو الشكوك، فهو مصنوع كشيءٍ كامل سليم، وسوف يُحقِّق الطوبيا ويعيش فيها كما تعيش السمكة في الماء، بالطبع إن كانَ هذا ممكنًا.

٩١١ في الكنيسة الكاثوليكية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي، كانت هناك نوايا لتسمية أفلاطون قدِّيسًا.

٩٣٢ قـال إريك فروم في مكان مـا إنَّه يمكن اعـتبـار إنسـان العـصـور الوسطى إنسـانًا سعيدًا.

٩٣٨ لم يُقنَّن «القتل الرحيم» حتى الآن في أي دولة في العالم. إلاّ أنَّ هذا حدث مرَّة واحدة فقط بموجب قوانين هتلر لقتل العاجزين وكبار السنِّ المُقعَدين والأطفال الضعفاء. ووفقًا للشهادات المُقدَّمة في محاكمات نورمبرج (١٩٤٦-١٩٤٧م) فقد قُتل ٢٧٥٠٠٠ إنسان طبقًا لهذه القوانين (مجلة إنترڤيو، ٣١ يناير ١٩٨٦م).

٩٤٥ وضعت المسيحيةُ الشخصيةَ الأخلاقيةَ للسيد المسيح مقابل المعايير الأخلاقية لليهودية، أي الأخلاق الحية مقابل الأخلاق الميتة، الحياة مقابل القوانين، الشخصية مقابل القواعد.

٩٦٧ يمكننا أن نحكم على تصوُّر ما عن الإنسان بمقارنته بالتصور الإسلامي للإنسان. وإليك هذا المثال لنظرة ألبير كامو إلى الإنسان المخالفة للإسلام، يقول كامو: «لم يحدث قط أن ظهر عـملٌ إبداعي نتيجة للكراهية والازدراء. ولهذا نجد أنَّ الفنَّان، في نهاية مسيرته، يُسامح الآخرين ولا يُدين أحدًا. فهو المُناصر الأبدي للإنسان الحي، لمجرَّد أنَّه حي. وهو يدعو إلى حُبِّ جاره، إلا أنَّه ليس ذاك الحبَّ الكائن عن بُعد والذي يختزل إنسانية الإنسان اليوم في حزمة تعاليم أو أسئلة تُشبه أسئلة التحقيق القضائي. على

العكس، فالعمل (العمل الفنِّي) العظيم يُربك جميع القُضاة. فمن خلال هذا العمل، يُعلي الفنَّانُ من شأن الشخصية الإنسانية النبيلة وفي الوقت ذاته ينحني أمام أسوأ المجرمين». هكذا يُبرِّر كامو الأمر ويُقدِّمه بصورة مثالية. وهذا هو جوهر النهج المسيحي، ولا يهمُّ إن كان كامو واعيًا به أم لا: حبُّ الجار، رفْض المحكمة والقضاء («التحقيق القضائي»)، وخصوصًا «الانحناء أمام أسوأ المجرمين». لو كان كامو قد عرف بالفعل حقيقة «أسوأ المجرمين» -كما يعلمها الله- لما كتب هذا الكلام. إنَّ تقدير الإسلام للإنسان وللكرامة الإنسانية لا يُعبَّر عنه من خلال الحبِّ والتسامح بالدرجة الأولى، وإنَّما من خلال مبدأ المسئولية الإنسانية. إنَّ الإنسان مسئول عن أفعاله، والعقاب على الجريمة يجمع بين كلٍّ من حقوق الإنسان والكرامة الإنسانية لكلِّ إنسان، بما في ذلك المجرم نفسه.

٩٧٠ اعترف أدورنو أيضًا بعلاقة الفنِّ بالدين (بالمعتقدات الخرافية، بتعبيره هو). وقد أشار إلى هذه العلاقة باعتبارها «من نقائص الفنِّ»، وذلك لأنَّ الفنَّ بارتباطه بهذه المعتقدات الخرافية يظلُّ يتطلَّع إلى العودة إلى الخرافة التي جاء منها.

٩٧١ ما زلنا حتى الآن ننفعل بقراءة ملحمة جلجامش التي ظلَّت «مُعاصرة» بعد مُضيٍّ أربعة آلاف عام على ظهورها.

٩٨١ سيكون كمبيوتر ما يُسمَّى بالجيل الخامس (الذي يعمل اليابانيون على تصنيعه) قادرًا على الكلام وفهم اللغة والصورة والتعلُّم والمشاركة واستخلاص النتائج وإصدار القرارات والتصرُّف بالطريقة ذاتها التي نعتقد أنَّ الإنسان فقط يمكنه أن يقوم بها. هذا ما يُؤكِّده المُطوِّرون، أي سيكون هذا الجهاز «آلة ذكية». ومع هذا، يُصرُّ البعض على أنَّ هذا مستحيل، ويسوقون الحجج التالية: يتطلَّب التفكيرُ الإبداع، ولا يَمكن لأي آلة أن تكون مُبدعة. ويتطلَّب الذكاءُ نمطًا مُعيَّنًا من الخبرة لا يمكن اكتسابه إلا من خلال التفاعل مع العالم الواقعي مع أُناسٍ مماثلين. ويتطلَّب الذكاءُ الاستقلاليةَ، ولا يمكن لأي آلة أن تكون مُستقلَّة. وحتى عندما تؤدِّي الآلةُ مُهمَّةً ما، فلن تكون واعية بها، والوعي أحد المُكوِّنات المهمة اللازمة للذكاء. ويعتقد البعضُ أنَّه من الممكن تقديم برهان رياضي على أنَّ الآلة لا يمكن أن تكون ذكية. ورغم كلِّ هذا، فالذكاء ليس هو الصفة «الأكثر إنسانية» لدى

الإنسان. فالذكاء مجرَّد جانب واحد من نفس الإنسان، من طبيعته الإنسانية. لم يكن الذكاء هو ما منحته اللمسة الإلهية للإنسان (على حدِّ تعبير مايكل أنجلو). ليس الذكاء هو الروح، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾. إنَّنا نشهد محاولةَ الإنسان إبداع الذكاء الاصطناعي؛ أي الآلات الذكية، الآلات المُفكِّرة. ويقول الخبراء إنَّ مثل هذا الشيء الذي لا يُصدَّق من الممكن تحقيقه. على أي حال، لا يوجد فرق جوهري بين الآلة الكلاسيكية وجهاز الكمبيوتر.

١٠١١ إنَّ الإيمان البسيط بالمسئولية بعد الموت -أي إنَّ الإنسان سيُحاسب على أعماله وماذا فعل بحرِّيته- هذه الفكرة البسيطة تبدو لي اليوم الفكرة الحقيقية الوحيدة، الفكرة الوحيدة التي تُضفي على هذا العالم معنى وقيمة. من الممكن أن نبقى غير مكترثين بالعالم بعد تحصيل جميع حقائق الفيزياء -سواء فيزياء نيوتن أو أينشتين- وسائر المعرفة في علم الفلك والبيولوچيا وعلم النفس. وحدها فكرة الحساب هي الفكرة المثيرة الأصيلة. هناك مستويان منفصلان من الأشياء: قوانين كبلر من ناحية، والحقيقة الموجودة في تراچيديا شكسبير من ناحية أخرى.

١٠٢١ الفرق بين بورتريه مرسوم وصورة ضوئية: يُظهر البورتريه المرسوم إلى أي درجة يختلف شخص عن آخر، أمَّا الصور الضوئية فتُظهر مدى تماثلنا. الصورة الضوئية هي بورتريه بلا روح.

١٠٣٣ تصف الكاتبة الإنجليزية دوريس ليسينغ(*) في روايتها «يوميات چين سومرز»، (والتي نُشرت تحت اسم مُستعار)، تصف الوحدة والعزلة لدى كبار السنِّ في الدول المُتحضِّرة، خاصة في أوروبا وأمريكا. وذكرت في مقابلة معها: «أصبح من الطبيعي في المجتمعات الغربية الثرية أن يُترك كبار السنِّ ويُهمَلوا. نعم، يُبذَل الكثير للحفاظ على حياتهم، إلا أنَّها ليست حياة». وتعتقد ليسينغ أنَّ هذا السلوك مُلازم للمجتمع الغربي، حيث تقول: «في إفريقيا، حيث نشأتُ، لا يمكن أن يهجر كبارُ السنِّ بيوتَهم، كما أنَّهم لا يقبلون بأن يُودَعوا مراكز الرعاية حيث لا يفعلون شيئًا سوى انتظار

(*) دوريس ليسينغ (١٩١٩-٢٠١٣م) كاتبة وروائية بريطانية، حصلت على جائزة نوبل للأدب عام ٢٠٠٧م. من أهم أعمالها الروائية: «المفكرة الذهبية» و«الطفل الخامس» و«العشب يغني». (المترجم)

الموت. لقد التقيتُ بالكثير من الهنود والصينيين الذين كانوا في غاية الاستياء من الطريقة التي يُعامَل بها كبارُ السنِّ في أوروبا».

١٠٣٦ هل يمكن القول إنَّ الثقافة الصينية «بقيت حيَّة» على مدى أربعة آلاف عام بلا انقطاع؟

١٠٤٦ ما الثقافة إن لم تكن محاولةَ ترويض هذا الحيوان الذي يُسمَّى بالإنسان؟

١٠٥٥ أكَّد قدماء العرب كذلك أنَّ الفلسفة هي أرسطية مُمتَدَّة. هذا صحيح وينطبق على أي نمط من الفلسفة.

١٠٥٧ يقول أحد شعراء الأندلس (أبو الوليد الوقشي الطليطلي، ٤٠٨-٤٨٩هـ/ ١١٠٧-١١٩٥م) يقول في قصيدة له إنَّ للناس علمين فقط: أحدهما علم حقيقي لا يمكن الإحاطة به، والثاني علم باطل لا قيمة له(*) يعتقد البعضُ أنَّ الوقشي كان يقصد بهذين العلمين الميتافيزيقا والمنطق.

١٠٦١ قدَّم جالينوس اليوناني (١٢٩-١٩٩م) النظرية الشهيرة عن الأخلاط العضوية الأربعة الموجودة في جميع الكائنات الحية: الدم والبلغم والمرَّة الصفراء والمرَّة السوداء، بينما توجد أربعة عناصر أساسية في الكائنات غير الحية: الهواء والماء والنار والتراب. يرى أرسطو أنَّ هناك ارتباطًا متبادلاً بين العناصر الأربعة العضوية (الأخلاط) والعناصر الأربعة غير العضوية. كم هي عميقة ميتافيزيقا أرسطو، وكم هي ساذجة طبيعياته!

١٠٦٢ منذ زمن بعيد خلال القرن السادس قبل الميلاد، كان القمايون Alcmaeon وأفلاطون من بعده ثم جالينوس من بعدهما، كانوا يعتقدون أنَّ الدماغ هو مركز الفكر والحياة الروحية. إلا أنَّ هناك رأيًا أقدم من هذا يمنح القلبَ هذا الدور؛ فقد دوَّن الأطباءُ

(*) يتحدَّث بيجوفيتش هنا عن قول الوقشي:

برح بي أنَّ علومَ الورى اثنان ما أن فيهما من مزيد
حقيقةٌ يعجز تحصيلها وباطلٌ تحصيله لا يفيد (المترجم)

المصريون هذا الرأي في بردية إيبر Ebers Papyrus (١٥٥٠ قبل الميلاد)، ثم أخذ به أرسطو وابن سينا وابن طفيل.

١٠٧٥ يتقدَّم العلمُ إذا كان مدعومًا من المجتمع، ويحدث العكس مع الفنِّ، فدعم المجتمع يخنق الفنَّ ويُقيِّده. يشتكي الفنَّان الهولندي چان ديبتس Jan Dibbets من حالة الدعم الشديد التي يحظى بها الفنُّ في هولندا. يقول ديبتس: «إذا كنتَ تريد أن تصبح فنَّانًا، فسوف تدعمك الدولة بشكل كامل. من السهل للغاية أن تبقى على الساحة، خاصة في السنوات الأولى التي عادة ما تكون السنوات الأصعب في حياة الفنَّان الحقيقي. نعم، يبدو هذا موقفًا رائعًا للغاية، إلا أنَّه يجلب الكثير من المشاكل. حيث لا يرغب الفنَّانون الحقيقيون في قبول مثل هذا الدعم، وغالبًا ما يرحلون عن البلد، بينما تجتذب هذه الامتيازات التي تُقدِّمها الحكومة الكثير من أصحاب الفنِّ المنحط المُبتَذَل. يُعاني الفنَّانون الحقيقيون إلى أبعد حد لأنَّ الحكومة لا تُميِّز بينهم وبين الفنَّانين الفاسدين. النجاح في هولندا أصعب بكثير منه في دول أخرى، ففيها لا بُدَّ أن يكون المرء شديد التميز حتى يضمن مجرَّد البقاء على الساحة.» (من مقابلة معه في «الصحيفة الإعلامية الأسبوعية» ٢٠ أبريل ١٩٨٦م).

١٠٧٩ دائمًا ما كان يُرمَز للطبيعة الازدواجية للإنسان في الوعي الشعبي بعضوين: القلب والدماغ. سيصبح القلب رمز الحياة الروحية (وحاملها)، وسيصبح الدماغ رمز الحياة النفسية. لا تنتمي الروح والنفس إلى العالم ذاته، تمامًا كما لم يكن القلب والعقل ينتميان إلى العالم ذاته في الوعي الإنساني البدائي. عندما كان الإنسان البدائي يريد أن يُعبِّر عن شعوره الجوَّاني العميق وإيمانه وإخلاص وحُبِّه وحياته الجوَّانية ونيَّته وروحه، كان يُشير إلى صدره، وليس دماغه. يقول القرآن الكريم: ﴿**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾.

١٠٩١ كيف يمكن للأرض أن تصطلح مع السماء؟

١١١٠ هناك أيضًا التباين بين «الإنسان العاقل» Homo sapiens و«الإنسان اللاعب» Homo Ludens، إذ إنَّ الإنسان هو كلاهما، وهذا ما يجعله إنسانًا.

١١٥٤ لاحظتُ أثناء قراءتي لهيرمان هيسه أنَّه كان مُستغرقًا في الأفكار ذاتها التي كانت تشغلني، عدا أنَّه كان أفضل منِّي في التعبير عنها. إنَّ مشكلة الاستقطاب أو «منتصف الطريق» هي موضوع ثابت لدى هيسه، ويُعبر عنها بطرائق وصور عديدة. إليك أحد هذه المواقف المُعبِّرة (بلينيو يُخاطب كنشت، محاولاً تعريف علاقتهما ببعضهما): «أنت تقف إلى جانب الثقافة الرفيعة، وأنا أقف إلى جانب الحياة الطبيعية. وأثناء سجالنا، تعلَّمتَ أنت كيف تستشعر أخطار الحياة الطبيعية وتجعل منها هدفًا لهجومك. كانت مُهمَّتك هي الإشارة إلى أنَّ الحياة الطبيعية البسيطة بدون التربية الفكرية الرفيعة ستنتهي إلى أن تُصبح مستنقعًا وتنحط إلى مستوى البهيمية أو ما هو أسوأ. وأنا بدوري عليَّ أن أذكرك دائمًا كيف تُصبح الحياة عقيمًا وخطيرة إذا اقتصرت على الجانب الروحي فقط. حسنًا، كلٌّ منَّا عليه أن يُدافع عمَّا يرى أنَّ له الأولوية: أنت تُدافع عن الروح، وأنا أدافع عن الطبيعة». فأجابه كنشت: «علينا ألا نهرب من الحياة الواقعية إلى الحياة التأمُّلية، ولا أن نفعل العكس، وإنَّما علينا أن نتعاقب عليهما معًا، أن ننخرط فيهما معًا وأن نشعر بالراحة فيهما».

لاحظ أحد النقَّاد أنَّ الأساس أو البنية النفسية لشخصية كنشت تمَّ إبداعها ووضعها باعتبارها «استقطابًا نابضًا على الدوام» (زوران غلوشيفيتش، خاتمة لمقالات هيرمان هيسه). هذه القضية الأساسية في الإسلام (استقطاب كلِّ شيء وضرورة الجمع بين الطرفين) كانت هي الموضوع الرئيس لدى هيسه في أعماله الأدبية. وفي عمله الأخير العظيم، لعبة الكُريَّات الزجاجية، الذي عمل عليه عشر سنوات (١٩٣٣-١٩٤٣م)، يُبرز هذه القضية إلى أقصى حدٍّ ممكن. فالشخصية الأساسية في الرواية، كنشت، يرتقي تدريجيًا من شخص سطحي إلى شخصية مُركَّبة (ومتناقضة) تتعلَّم من خصومها وتأخذ منهم ما يتلاءم مع حالة الاستقطاب الشاملة. يوجد في الرواية عدد من الآراء الواضحة تمامًا التي تبدو وكأنَّها توصيف لما نحن بصدده، مثل قوله: «ولكن عليك ألا تنسى أبدًا ما قلتُه لك مرارًا: مُهمَّتنا هي التعرُّف على الأضداد بكلِّ وضوح، أي أن نعرف أنَّها أضداد أولاً، وأنَّها عبارة عن قطبين في وحدة واحدة»، أو «تذكَّر، يستطيع الإنسان أن يكون

منطقيًا أو نحويًا دقيقًا ويكون في الوقت ذاته ممتلئًا بالخيال والموسيقى، يستطيع أن يكون موسيقيًا أو أحد لاعبي الكُريَّات الزجاجية ويكون في الوقت ذاته مُتمسكًا تمامًا بالقانون والنظام». ما يسعى إليه كنشت في عملية التوفيق بين الأضداد هو أسمى صورة من الحياة التي تجمع بين السموِّ الروحي من ناحية والخبرة والتجربة من ناحية أخرى. وضع هيسه في شخصية كنشت اتجاهين متعارضين، وقد عبَّر هيسه نفسه عن هذين الاتجاهين بقوله: «كان الاتجاهان الأساسيان أو القطبان، أو الـ«ين» والـ«يانج»، اللذان يقتسمان حياته بأسرها هما: اتجاه الحفظ والإخلاص واحترام التراتبية دون انتظار مصلحة خاصة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى اتجاه «اليقظة»، والتقدُّم، والإمساك بالواقع وفهمه. كان يخدم جماعة روحية أُعجب بقوَّتها وعزمها، إلا أنَّه رأى الخطر في ميلها إلى رؤية هدفها وغايتها الخالصة في ذاتها ووجودها، ميلها إلى نسيان مُهمّتها ومشاركتها لبلدها والعالم بأسره، إلى أن تفنى في نهاية الأمر بعد أن تنفصل نهائيًا عن الحياة بأسرها وتُصبح تدريجيًا شيئًا عقيمًا منفصلاً عن الحياة». وفي لقاء جديد يجمع بين كنشت وبلينيو ديزنيوري بعد زمن طويل من الفراق، يُجدِّد كنشت وبلينيو صداقتهما وخلال حديثهما يتخلَّصان من بعض سوء الفهم القديم. إلا أنَّ شيئًا غريبًا يحدث: ثمَّة تحوَّل وتغيُّر في الأفكار. بلينيو، الذي كان مُقبلاً على الحياة وشغوفًا بها، يجد نفسه في أزمة ويشعر بالحاجة إلى شيءٍ ما يفتقده؛ إلى كاستاليا، وعلى العكس، كان كنشت على وشك الخروج من العالم «الآخر» الذي يطلب منه بلينيو العون والمدد الروحي، من كاستاليا. وفي هذا الصدام بين هاتين الرؤتين المتعارضتين، بل والعالمين المتعارضين، يُبيِّن هيسه جدوى التأليف والتركيب بين الأطراف المتضادة وما يتضمَّنه ذلك من إمكانيات وتأثيرات هائلة. إنَّ أي رؤية منفردة بذاتها لا قيمة ولا معنى لها بدون رؤية مُضادة ومُكمِّلة لها. تمامًا كما جاء في القرآن الكريم. ويرى هيسه أيضًا أنَّ الاستقطاب الثقافي بين الشرق والغرب هو تعبير آخر عن هذه الثنائية، «ورغم تساوي كلٍّ من الشرق والغرب، فهناك سُمُوٌّ واضح للشرق على الغرب» (كما يقول زوران غلوشيفيتش). ألا يُعتبر هذا الذي يقوم به هيسه طريقةً للتغلُّب على مرض المركزية الأوروبية ودافعًا نحو أسمى صور التسامح؟

١١٥٠ كلُّ شخصية من شخصيات رواية هيرمان هيسه «ذئب السهوب : سيرة الروح» تُمثِّل صراعًا من صراعات المؤلِّف مع ذاته . تُعتَبَر أعمال هيسه الأدبية بأسرها نوعًا من السيرة الذاتية ، فهذا هيسه نفسه يصف أعماله بأنَّها «سيرة روحية» .

١١٩٩ (عصر النهضة ثقافة بلا حضارة) . يمكن استخلاص هذه النتيجة من خلال كتابات المنتمين إلى النزعة الإنسانية في ذلك العصر ، وهي الكتابات التي تنضح بمشاعر القوة والكرامة ، وكذلك اليأس وعدم الأمان .

١٢٠١ حاول مرتشيا إلياده(*) Mircea Eliade اكتشاف المُقدَّس في المُدنَّس ، بينما يقوم العلم بالعكس : إنَّه يبحث عن المُدنَّس في المُقدَّس . جميع أعمال إلياده تتخلَّلها فكرة العود الأبدي إلى الأصل ، والأصل مُقدَّس . في قصة «مع الغجر» ، يُدرك جارسيليشكو (الشخصية الأساسية في القصة) أنَّه لم يقضِ بضع ساعات قليلة فقط مع الغجر كما كان يظُن ، وإنَّما قضى معهم اثنتي عشرة سنة كاملة . وفي مسرحية «آديو» هناك مساران منفصلان للزمن ، أحدهما خاص بالجمهور والآخر خاص بالمُمثِّلين الذين يُؤدُّون العمل خلف ستارة مُسدلة .

١٢٠٧ الفكرة الأساسية في حركة الإصلاح الديني (وفي تعاليم مارتن لوثر) هي أنَّ الإنسان قد حقَّق الاستقلالية في القضايا الدينية . جرَّد مارتن لوثر الكنيسةَ من سلطتها ونقل هذه السلطة إلى الفرد ، ممَّا أسهم بدرجة كبيرة في ارتقاء الحريات السياسية والفكرية . ومع هذا ، فما يبدو متعارضًا إلى حدٍّ كبير مع هذا الأمر هو أنَّ مارتن لوثر أكَّد في كتاباته على أنَّ الإنسان ذو طبيعة شريرة وخبيثة ولن يُنقذه سوى رحمة الله . يمكن الوقوف على تقابل مماثل وواضح في القرآن الكريم . إنَّ مسئولية الإنسان ورحمة الله ، كلاهما حقيقي وموجود .

(*) مرتشيا إلياده (١٩٠٧-١٩٨٦م) كاتب ومؤرِّخ أديان وفيلسوف روماني ، كتب في فلسفة الأديان وتاريخ الأديان وأدب الرحلات والسيرة الذاتية وأدب الخيال . من أعماله : «المقدس والمدنس» و«ليالي البنغال» و«البحث عن التاريخ والمعنى في الدين» و«تاريخ الأفكار الدينية» و«الأسطورة والأسطورة والحقيقة» . (المترجم)

١٢١٠ تُقدِّم الكالڤينية Calvinism أيضًا نموذجًا لبعض المذاهب «المتناقضة» ولكنَّها كانت فعَّالة للغاية وبنَّاءة في الحياة الواقعية. فثمَّة تناقض واضح بين المبدأ الكالڤيني حول القدَرية المُطلقة (الجبرية) والمطلب شديد الوضوح بضرورة السعي الإنساني الدءوب في العالم الخارجي. يضع ماكس فيبر يده، في هذا السعي الإنساني الصريح، على رابط مهم بين الكالڤينية وروح الرأسمالية، وهو حركيَّتها المدهشة في بداياتها الأولى. وفيما يتعلَّق بذلك التناقض المذكور، فلم ينتبه إليه سوى المُنظِّرين والمُحلِّلين، أمَّا هؤلاء الذين اعتنقوا الكالڤينية في الحياة العملية وعاشوا بها فلم يجدوا أي مُشكلة في هذين المطلبين المتناقضين. كيف يمكن تفسير هذا الأمر؟ إنَّه لا يمكن تفسيره إلا من خلال حقيقة أنَّ الحياة ذاتها تتكشَّف عن تناقض مماثل يفصلها عن المثال، عن الفكرة، أي عمَّا لا حياة فيه. يعجز جميع المُحلِّلين عن تقديم تفسير للحركة التي لا تعرف الكلل عند هؤلاء الذين آمنوا بأنَّ كلَّ شيءٍ قُدِّر مُسبقًا حتى قبل الولادة، ومن ثمَّ، فلا قيمة لأي حركة في تغيير أي شيء. انتشرت العقيدة الكالڤينية كمذهب مُهيمن في المرحلة المبكِّرة من الرأسمالية، والتي كانت واحدة من أكثر المراحل حيوية في تاريخ البشرية.

١٢١٣ يرى إريك فروم أنَّ المذاهب الدينية الجديدة (مثل البروتستانتية والكالڤينية) ظهرت «كاستجابة للحاجات النفسية الناتجة عن انهيار النظام الاجتماعي الذي ساد خلال العصور الوسطى وكذلك كنتيجة لبدايات ظهور الرأسمالية. أي إنَّها كانت تُعدُّ الإنسان للدور الذي سيلعبه في النظام الصناعي الجديد» (إريك فروم، الهروب من الحرية، ص ١٠٥). بينما يرى آخرون أنَّ هذه المذاهب ظهرت كردِّ فعلٍ على الانحراف الأخلاقي داخل الكنيسة الرسمية. وجهة النظر الأولى هي مثال جيد للتفسير المادي لظهور الأفكار والمعتقدات، ووجهة النظر الثانية هي مثال جيد للتفسير المثالي لهذا الأمر.

١٢١٩ التاوية: أقدم ديانة صينية أصيلة. المبدأ الأساسي: هناك قوتان متكاملتان، الين واليانج، يعمل تفاعلُهما وتوازنهما الأبدي على الحفاظ على انسجام العالم وتناغمه. يُعتَبَر تشانج لينج Zhang Ling الذي عاش في القرن الثاني الميلادي هو مؤسِّس التاوية (التاو = الطريق)، وكان يشتغل بالكيمياء (يُشبه بشكل ما العلماء المسلمين الذي جاءوا بعد

قرون عديدة). بينما وضع لاو تسي المُقدِّمات الأساسية للديانة التاوية (في القرن السادس قبل الميلاد). ومن المثير أنَّ الرهبان التاويين هم من وضع أسس الطب الصيني التقليدي والعلوم الدقيقة وعلم الفلك (كما حدث في الحضارة الإسلامية)، وحتى الآن ما تزال المعابد التاوية مدارس للمهارات القتالية الصينية التي تطوَّرت عبرِ اليابان إلى الكاراتيه والجودو. يعكس الين واليانج فكرة التناقض في عالم مُوحَّد، كما أنَّ جميع الطقوس الدينية في التاوية موجَّهة نحو ترسيخ التناغم بين هذين المبدأين أو الحفاظ عليهما.

١٢٢٧ كما أنَّ الشعر أقدم من النثر، وهو أمر يبدو غير منطقي وغريبًا للغاية، فكذلك الميتافيزيقا سابقة على الفيزياء (الفيزيقا). ولو كان الإنسان قد «خُلِق» على النحو الذي قال به داروين، لكان هذا الأمر غير قابل للتفسير. فالإنسان الدَاروينى لا يعرف سوى الفيزياء، أمَّا الإنسان الحقيقي فيعرف الميتافيزيقا.

١٢٢٨ يظهر العنف باعتباره الوسيلة المطلقة في عدد من كتابات لينين (ويظهر هذا بصراحة مُدهشة في أعماله الكاملة). أمَّا العنف الصريح تمامًا فقد وقف بلا ريب ضد نقيضه، أي ضد الحب المسيحي والرحمة المسيحية. المسألة في حقيقتها مسألة مبادئ أولاً وأخيرًا.

١٢٢٩ تبدو بعض أفكار هتلر في كتابه «كفاحي» داروينية للغاية. يقول إريك فروم: «بينما كان هتلر وحكومته يستمتعون بسلطتهم على الجماهير الألمانية، كانت هذه الجماهير تُلقَّن كيف تستمتع بسلطتها على الشعوب الأخرى وكيف تستغل الرغبة في سيادة العالم باعتبارها القوة المُحرِّكة لها» (الهروب من الحرية، ص ٢٠٣). وقد برَّر هتلر توسُّعَه خارج حدود ألمانيا بأنَّ إرادة القوة متأصّلة في القوانين الأزلية للطبيعة، وما كان له إلا أن يُسلِّم بهذه القوانين ويخضع لها. وهنا نلمح بعضًا من الروافد القادمة من نيتشه إلى النازية، هذا بالإضافة إلى الروافد الداروينية. بل إنَّ هذا يزداد وضوحًا في خطبة هتلر عن سيادة ألمانيا للعالم التي ينبغي أن تؤدي إلى «سلام لا يأتي عبر سعف النخيل الذي يحمله النائحون المُسالمون الباكون، وإنَّما يأتي عبر سيف قاهر تُمسك به أُمَّة قائدة، سيف يعمل في خدمة ثقافة عليا» (كفاحي، ص ٥٩٨). يرى هتلر في غريزة البقاء «الدافع الأساسي لتربية

المجتمعات البشرية» (كفاحي، ص ١٩٧). ويُشيد هتلر بالطبيعة باعتبارها «ملكة الحكمة بأسرها، ملكة لا ترحم. والتي يرتبط قانون البقاء الخاص بها بقانون الحتمية الصارم وبحق الأفضل والأصلح في السيادة في هذا العالم» (كفاحي، ص ٣٩٦).

١٢٣٦ البشر متساوون، لكنَّهم ليسوا متطابقين. المساواة والتطابق في هذا السياق مقولتان مختلفتان. نحن متساوون أمام الله، ومتطابقون بالنسبة للطبيعة. نحن متساوون باعتبارنا مخلوقات لله، ممَّا يعني أنَّ لنا القيمة ذاتها كبشر وأنَّ كلَّ فرد له قيمة لا تُقدَّر بثمن. لو كان من الممكن أن نكون متطابقين، فلن يكون هذا إلا باعتبارنا نتاجًا للطبيعة، متطابقين فيما يجعلنا موجودات طبيعية، متطابقين فيما اكتسبناه من الطبيعة. نحن متساوون كأرواح (كأفراد)، ومتطابقون كأجساد (أو من الممكن أن نكون هكذا).

١٢٣٨ ليس القانون سلاحَ الأقوياء، بل الضعفاء. فالقوي ليس بحاجة إلى القانون؛ إذ إنَّ القوة بطبيعتها تميل إلى التحرر من كلِّ ما يُقيِّدها. ولنسترجع تعريف لينين لديكتاتورية البروليتاريا بأنَّها «قوة لا يُقيِّدها أيُّ شيء وتقوم على العنف. إلخ» (الأعمال الكاملة). ويؤكِّد إريك فروم على أنَّ التاريخ يشهد بأنَّ «العدالة والحقيقة هما أمضى سلاحين يستخدمهما المقهورون في صراعهم في سبيل الحرية والتقدم» (إريك فروم، الهروب من الحرية، ص ٢٥٦).

١٢٣٩ عندما قام فرويد باختزال الطبائع الإنسانية في السخط (أو الرضا) وربطها بالمناطق الأساسية شديدة الحساسية (الفم والشرج) فقد خلُص فرويد إلى استنتاج أنَّ الإنسان ذو طبيعة خبيثة وأنَّ كلَّ دوافع الإنسان «المثالية» هي في الحقيقة دوافع دنيئة ووضيعة للغاية. كذلك قام ماركس بتطبيق أفكار مماثلة على التاريخ، ومن ثمَّ فقد استنتج، مثلاً، أنَّ البروتستانتية ظهرت كاستجابة للحاجات الاقتصادية للرأسمالية الصاعدة وهكذا.

١٢٤٢ (الثقافة والتاريخ): لكي تُدرك مدى «تاريخية» العلم والفلسفة، فلتقارن مدى أهمية كتاب أرسطو «الطبيعيات» الآن بمدى أهمية كتابه «فن الشعر» أو كتاب «الميتافيزيقا»، أو قارن بين بعض آرائه في هاتين الدائرتين. إنَّ المفاهيم التي قدَّمها أرسطو في «فن الشعر»

ما تزال تحتفظ بطبيعتها «العصرية» حتى اليوم، بل وتُوظَّف في التحليل الحديث للأعمال الأدبية. ولا ينطبق هذا الأمر على «طبيعيات» أرسطو.

١٢٥٦ لا يُمكن فهم شخصيتي المسيح والمُفتِّش في حكاية «المُفتِّش الكبير»(*) (في رواية الأخوة كرامازوف) إلا باعتبارها نماذج أصلية archtypes.

١٢٦٥ يرى هيجل أنَّ الفنَّ أكثر حقيقية وأصالة من الحقيقة بمعناها المبتذل الدارج لأنَّ الفنَّ هو حقيقة مُجسَّدة ذات معنى. كما أنَّ «ارتقاء» وعي البشرية عبر التاريخ يتحقَّق من خلال الفن والدين والفلسفة.

١٢٦٨ يمكن ملاحظة قضية شبه «إسلامية» في الخلاف الدائر حول طبيعة الفنّ؛ هل هي عقلانية أو غير عقلانية، أو في الخلاف حول التقابل بين الأسطورة (النزعة الخيالية الرمزية الخرافية) والعقل (النزعة العقلية البرهانية) في الأدب. يؤدّي الأخذ بإحدى هاتين النزعتين، بالنظر إلى ما يترتَّب عليها آخر الأمر، إلى نتيجة عبثية. ففي الحالة الأولى، تضيع المكوِّنات الحسية المادية للفنِّ، ويُصبح وجودها اعتباطيًا تمامًا، تُصبح موجودة لذاتها ولمُبدعها فقط، أي تُصبح غامضة وغير مفهومة وغير موجودة بالنسبة للآخرين. وفي الحالة الثانية، يضيع الفنُّ لأنَّه يُختَزَل في معرفة علمية فلسفية. وحده الدمج بين الاتجاهين، الخيالي الرمزي والعقلي البرهاني، يمكنه تفسير طبيعة الفنِّ (كما في حالة العمارة؛ الدمج بين تقنيات البناء والأسلوب). ويمكن رؤية هذا الدمج في الأعمال الفنِّية الرفيعة. إنَّ الأمر يتعلَّق بالطريقة التي توجد بها الحياةُ ذاتُها وتستمر في البقاء. الجانب العقلي هو بمثابة الجسد للفن، والجانب الخيالي بمثابة الروح للفن (يقول أرسطو: «إنَّ الأسطورة هي عنصر التراچيديا الأساسي وروحها»).

١٢٧١ كذلك نجد أنَّ المفهومين المتلازمين الشهيرين -الشكل والمضمون- لهما صلة فيما نحن بصدده هنا. فالشكل يساعد المادة التي لا شكل لها على أن تكون «شيئًا ما»، أن تكون شيئًا واضحًا. هذا المبدأ الأساسي الذي جاءنا من أرسطو يجد مثاله الأبرز في فنِّ النحت. والسؤال هو: في ثنائية الشكل والمضمون، هل كلا العنصرين لهما الفعالية ذاتها؟ أم أنَّ أحدهما سلبي؟ («هل من عنصر سلبي في الثنائية»)؟

(*) حول حكاية المفتش الكبير راجع هامش الفقرة ٢٢١٦ في الفصل الثاني. (المترجم)

١٢٧٧ ليس من قبيل المُصادفة أن يكون ليونيد تيموفييڤ، وهو ناقد أدبي ذو توجُّه ماركسي، مؤمنًا بقوة وعالمية الكلمة والفكر، يقول: «كلُّ ما في متناول الفكر يمكن للكلمة أن تُعبِّر عنه؛ فالفكر يستوعب كافة مجالات الحياة ومناحيها، وهو ما يجعل الأدبَ فنًّا عالميًّا» (تيموفييڤ، نظرية الأدب).

١٢٨٤ ازدهرت الحكايات الخرافية في عصر الأُمِّية البشرية، والملاحم كذلك.

١٢٨٥ لا يسري قانون السببية في عالم الحكايات الخرافية. يقول ميليڤوي سولار Milivoj Solar: «لا فرق بين الحقيقي والخيالي في الحكاية الخرافية: فالمعجزات تحدث ولا أحد يندهش لذلك، يتحرَّك الناس بشكل طبيعي في مواقف غير طبيعية، ويقابلون الجنِّيات والساحرات، ويُقاتلون السحرة والشياطين؛ كما تعيش الحيوانات الضخمة والحيوانات الصغيرة مثل الإنسان. الحيوانات والنباتات والأشياء تتحدَّث مع البشر دون أي مشكلة» (ميليڤوي سولار، الفكرة والحكاية).

١٢٩٢ يقول أرنولد هاوزر Arnold Hauser في كتاب «التاريخ الاجتماعي للفن والأدب»: «أحيانًا يتحرَّك الفنُّ باتجاه العلم، وفي أحيان أخرى يتحرَّك العلم باتجاه الفنِّ» (التاريخ الاجتماعي للفنِّ والأدب، الجزء الأول، ص ٣٢٥). وهذا صحيح، إلا أنَّ هاتين الظاهرتين، الفن والأدب، لن تنسجما أبدًا أو تندمجا معًا، وإذا حدث هذا بأي شكل من الأشكال، فهذا يعني تلاشي أحدهما؛ الفن أو العلم، وعلى الأرجح سيكون الفن. وترجع الأزمة الأخيرة حول الرواية (التي يُطلق عليها «موت الرواية») ترجع أساسًا إلى أنَّ الرواية الحداثية أصبحت أقرب إلى العلم. ففي الرواية الحداثية يَقلُّ السرد والخيال، ويكثر التعليم والعلم والفلسفة. ليس هذا علامة مُبشِّرة. لذا تُمثِّل الروايةُ الحداثيةُ نوعًا من الانحسار والتراجع مقارَنَةً بالرواية الكلاسيكية التي كان يوجد بها التوازن بين العناصر التي تُكوِّن الرواية. وقد ظهر هذا التوجُّه العلمي في الروايات ذات النزعة الطبيعية منذ أواخر القرن التاسع عشر، والتي يُطلَق عليها الروايات التجريبية، وأشهر من كتب هذا النوع من الرواية هو إميل زولا

١٢٩٣ في صياغة مُبسَّطة للغاية، يمكننا القول إنَّ الأدب الرومانتيكي قد صوَّر الإنسان بشكل مثالي (جعل الإنسان أكثر من إنسان)، أمَّا الأدب الواقعي فقد رأى في الإنسان كلَّ الخير وكلَّ الشر الذي توحي به كلمة «إنسان»، بينما صوَّره الأدب الطبيعي باعتباره حيوانًا (عند زولا، الإنسان = حيوان)، وأضافت الحركة الحداثية الدرجة الأخيرة من امتهان الإنسان، وذلك بالحطِّ من قدره إلى مستوى الشيء. ففي الرواية الحداثية هبط الإنسان من اعتباره ملاكًا في الرواية الروماتيكية إلى اعتباره مجرَّد شيء. ولهذا كان ميليڤوي سولار مُحقًا في استنتاجه أنَّ شخصيات روايات موباسان وزولا تبدو أكثر إنسانية من شخصيات روايات چيمس چويس وصمويل بيكيت.

١٢٩٤ التاريخ بأسره هو جزء ممّا يُسمَّى مصيرنا. وانطلاقًا من حقيقة التاريخ هذه، بما في ذلك حضوره في وعينا، فإنَّ التاريخ يُحدِّد علاقتنا بكلِّ ما هو موجود ويُحدِّد بطريقة غير مباشرة وضعنا الشخصي والاجتماعي.

١٢٩٨ لا يمكن للعلم ذاته أن يُدرك معنى الحياة. فمن خلال استعماله لمنهج التحليل اللا نهائي، ذلك أنَّ كلَّ تحليل لا نهائي بطبيعته، يجد العلم في نهاية الأمر «لا شيء». وجميع الروايات ذات الصبغة العلمية وكذلك الروايات الحداثية التي تنطوي على أطروحة ما -أي «الروايات شبه العلمية» التي كتبها كامو أو سارتر أو هيرمان بروخ- تؤكِّد هذا الأمر بوضوح. فهي نتاج لوعي علمي أو مقاربة علمية ولا تُنتج في النهاية سوى الوعي بالعبث. وهذه هي النتيجة الوحيدة المُحتَمَلَة.

١٣٠١ لكي نستطيع التعبير عن حقائق الوعي كلِّها، وخصوصًا تفسير اللغة بوصفها وسيلة للتعبير، فنحن بحاجة إلى لغة شارحة (ميتا لغة) metalanguage.

1302. في الرواية الحداثية، وهي التي تُعرَف غالبًا باسم «رواية تيار الوعي»، لا يُقدَّم الإنسان أو الشخصية كما كان في الرواية الكلاسيكية. كما أنَّ الرواية الحداثية لا تعكس صورة الوعي ذاته، وإنَّما بالأحرى تعكس صورة ما انعكس في الوعي. ومن ثمَّ فالوعي هنا هو مرآة، إلا أنَّنا لا نصل إلى معرفة أي شيء عن هذه المرآة ذاتها.

١٣٠٣ الدوغماطيقية الماركسية تُسطِّح الكثير من الأمور. فمثلاً، ما يظهر في الرواية الحداثية من يأس وعدمية ووعي مُتَشَظٍّ، وجميعها ناتج عن وضع العلم في غير موضعه، هذه الأمور كلُّها يراها الماركسي چورچ لوكاش نتيجة للتوجُّه السياسي الخاطئ للكُتَّاب (هكذا يقول لوكاش في دراسته عن «دلالة الواقعية النقدية المعاصرة»). وهو تفسير خاطئ وسطحي للغاية.

١٣٠٧ الزمن الفيزيائي هو حاضر أبدي، إنَّه ليس زمنًا، لأنَّ الكون من وجهة نظر الفيزياء لا نهائي من حيث الزمان والمكان على السواء. ولا يمكن تصوُّر الكون المادي إلا باعتباره موجوداً في الأبدية، أي وراء الزمان.

١٣١١ حول مشكلة الزمن في الرواية الحداثية. نجد في روايات كافكا أنَّ الحدث ليس له بداية واقعية ولا نهاية واقعية، كلُّ شيء يحدث بشكل دائري. في رواية چيمس چويس(*) «يقظة فينيغان» Finnegans Wake نجد أنَّ كلَّ ما يحدث يكاد يكون مُكثَّفًا في لحظة واحدة، بينما في رواية وليم فوكنر(**) «الصخب والعنف» The Sound and the Fury نجد أنَّ الزمن في فوضى كاملة، حيث هناك سرد مُتواز حول ما يحدث الآن وما حدث في الماضي. ويبدو لي أحيانًا أنَّ الروايات الكلاسيكية تحدُث في عالم تحكمه فيزياء نيوتن، أمَّا الروايات الحداثية فتحدث في عالم تحكمه فيزياء أينشتين. وفي كلِّ الأحوال، فالأزمنة تتقاطع مع بعضها البعض.

وفيما يتعلَّق بتحوُّل الإنسان إلى مجرَّد شيء في الروايات الحداثية، فهذا يحدث في إطار العلاقة بين السبب والنتيجة. وفي الحقيقة، فالشرط اللازم لكي يكون الإنسان صالحًا

(*) چيمس چويس (١٨٨٢-١٩٤١م) روائي وشاعر أيرلندي، وأحد أكثر الكتَّاب تأثيرًا في القرن العشرين لترسيخه ما يُعرف بتيار الوعي في الأدب. روايته الأشهر والأهم هي «عوليس» التي يعتبرها بعض النقاد في الغرب أهم رواية في القرن العشرين بل أهم رواية على الإطلاق. من أعماله أيضًا «أهالي دبلن» و«يقظة فينيغان» و«صورة الفنان في شبابه». (المترجم)

(**) وليم فوكنر (١٨٩٧-١٩٦٢م) كاتب وروائي أمريكي، حصل على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٤٩م. يُعد أحد أهم الأدباء الأمريكيين على الإطلاق. روايته الأشهر هي «الصخب والعنف» التي تُعتبر من أهم الروايات في القرن العشرين. من أعماله الأخرى: «ضوء في أغسطس» و«في النزع الأخير» و«أبسالوم أبسالوم». (المترجم)

للتحليل العلمي الذي يخضع له في الرواية الحداثية هو ألا يكون شخصية مُستقلَّة، ولكن مجرَّد شيء. ولا يمكن أن يكون الإنسان موضوعًا للتحليل الذي يقع عليه في الروايات الحداثية إلا باعتباره مجرَّد شيءٍ (وليس باعتباره إنسانًا).

١٣١٥ يقول أرنولد هاوزر عن روايات دوستويفسكي: «تقع أحداث رواياته عشية يوم القيامة. كلُّ شيء ينتظر النهاية والسكون والخلاص عبر معجزة، كلُّ شيء ينتظر حلا لا يقوم على قوة الفكر وحدَّته ومنطق العقل، وإنَّما على رفض تلك القوة والتَّحرُّر من العقل» (هاوزر، التاريخ الاجتماعي للفنِّ والأدب، الجزء الثاني، ص ٣٥١). ما علاقة هذه الدراما الإنسانية بالأحداث الموصوفة في رواية علمية أو في رواية «الإنتاج» الواقعية الاشتراكية والتي تُصوِّر الجماهير المُتحمّسة وهي تبني مزرعة جماعية؟

١٣١٩ بالنظر إلى شعور الدهشة والإعجاب باعتباره الشعور الأصيل الوحيد تجاه العالم، فلا بدَّ أن نُلاحظ أنَّه لا يوجد أي أثر لمثل هذه المشاعر في الروايات الحداثية. فقد حلَّ محلَّها أسلوبٌ تحليلي يقوم بتفتيت الواقع إلى درجات وطبقات وأجزاء. وتُستَخدَم «تقنية الضوء الكاشف» في الرواية الحداثية لألقاء الضوء على تفصيلة بعينها، ومن ثم يجري شرحها وتحليلها بصورة لا نهائية، بينما يبقى العالم بأسره مجهولاً الله، الحب، الموت، الذنب، المسئولية، الجريمة والعقاب، كلُّ هذه الأمور تظلُّ مُهمَلة ومتروكة. إنَّه إلحاد الرواية الحداثية، إذا جاز التعبير.

١٣٣٦ كانت زوجة ڤيتولد غومبروڤيتش Witold Gombrowicz، وكان مُصابًا بمرض خطير، تقول دائمًا إنَّ آلامه لم يكن يُخفِّفها إلى حدٍّ ما سوى الحديث عن الفلسفة. فالفلسفة كانت بالنسبة له نوعًا من المداواة.

١٣٤١ الحرية هي الشرط الضروري اللازم لأي نوع من علم الأخلاق، والآلية هي الشرط الضروري اللازم لأي نوع من العلم الطبيعي. كيف يمكن لهذين العلمين، اللذيْن تُلغي مُقدِّماتُ أحدهما مُقدِّمات الآخر، أن يكونا موجودين في الوقت ذاته؟ الإجابة الوحيدة الممكنة هي أنَّه يوجد عالمان مختلفان ونحن نُقيم فيهما معًا في الوقت ذاته.

١٣٨٠ ذكر ميروسلاف كرليجا Miroslav Krlega في موضع ما أنَّ كلَّ ما لا يُصوَّر بشكل فردي في الفنِّ «يُساوي صفرًا» (في كتابه «الدوافع في المجتمع المسيحي»).

١٣٨٤ بخصوص مُقدّمة كتاب «الإسلام بين الشرق والغرب»: لستُ بصدد كتابة مقدمة طويلة، وإنَّما سأُقدِّم فقط بعضَ الملاحظات: ما أُفكِّر فيه هو الخبراء وقراءتهم للكتاب «سطرًا بسطر»، وأتوقَّع أنَّ القارئ الذي يتتبَّع الرؤيةَ العامة التي صوَّرها الكتاب بشكل تقريبي أو حتى ألمح لها فقط، هذا القارئ سيكون أقدر على اكتشاف الكتاب والاستفادة منه أكثر من المُحلِّل شديد التدقيق. والكتاب في الحقيقة مجرَّد محاولة لتقديم فلسفة جديدة للإسلام، وأنا أعي تمامًا أنَّ المحاولة لم تكتمل بعدُ واكتفتْ بالإشارة والتلميح فقط، بل كانت غير متماسكة في بعض المواضع. وفيما يتعلَّق بعدم التماسك هذا، فهو يرجع بشكل أساسي إلى عدم اتساق المقولات المتعلِّقة بتلك المواضع. ولا أعرف ما إذا كان القارئ سيجد هذا الأمر مُسوَّغًا إذا قلتُ إنَّني كنتُ واعيًا بعدم الاتساق هذا، بل كان مقصودًا ومُتعمَّدًا في بعض الأحيان.

وذلك لأنَّ هذه المحاولة ليست رسمًا هندسيًا، وإنَّما لوحة سريعة كانت ضربات الفرشاة فيها بعيدة عن أن تكون مضبوطة كاملة بشكل رياضي، ومع هذا فمن الممكن تمييز المشهد العام وإدراكه. وسأكون سعيدًا إذا ما أمكن، على الأقل، فهم أفكاري وإدراكها بوضوح. وأخيرًا، فهذا الكتاب مُجرَّد شهادة جاءت لصالح رؤية بعينها عن العالم.

١٣٨٥ التاريخ ليس «عملية أصبح الإنسان من خلالها إنسانًا» كما يُردِّد الماركسيون. إنَّ الإنسان لا تاريخ له، وقد كان في البدء كما هو الآن وكما سيكون في المستقبل. وهذا هو الفرق بين داروين ومايكل أنجلو، فإنسان داروين جاء كنتيجة لعملية التطوُّر، أمَّا إنسان مايكل أنجلو فقد خُلق بنفخة من روح الله.

١٣٨٦ إنَّ الصيام عمل قاصر على الإنسان فقط. فالإنسان والحيوان كلاهما يأكل (يُطعم نفسه)، إلا أنَّ الإنسان وحده هو القادر على الصيام. يرسم الصيامُ بوضوح الخطَّ الفاصلَ بين الإنسان والحيوان. إنَّ الأكل (الطعام) يكون تلبية لحاجة مُلحَّة، لقانون الطبيعة، أمَّا الصيام فهو التعبير الأسمى عن الإرادة، إنَّه عمل صادر عن الحرية. هذه الحرية هي الدلالة الأعظم للصيام، وليس أي سبب طبِّي.

١٣٨٧ الروح-النفس. إنَّ الاختلاف بينهما ليس في التسمية، وإنَّما ثمَّة اختلافٌ جوهري. «النفس هي المُحصِّلة العلمية للسمات والملامح الشخصية، ويسري عليها معايير الصحة والمرض، وليس معايير التزكية والخطيئة». أمَّا الروح فلا تعرف المرض، تمامًا كما لا تعرف النفس الخطيئة. لاحظ أحد النقَّاد خلال توضيحة لدلالة مسرحية تي. إس. إليوت «جريمة قتل في الكاتدرائية» أنَّ النفس باعتبارها أداة مُحرِّكة ودافعة قد غابت تمامًا، واستنتج أنَّ «النفس قد غابت تمامًا وحلَّت الروح محلَّها» (رادوڤان ماروسيتش، في مقاله «مشكلة الاستشهاد في المسيحية»).

١٣٩٤ إنَّ فكرة مسئولية الإنسان وحسابه هي أعظم وأهمُّ فكرة على الإطلاق من بين جميع الأفكار المقترنة باسم الإنسان. يرجع أصل هذه الفكرة إلى المقدمة التي بدأت في السماء، ومن ثمَّ إلى ما قبل التاريخ، ويمكن أن يُقال الشيءُ ذاته عن حقوق الإنسان.

١٤٢٥ هناك فرق بين ألا تملك العالم وبين ألا تريد أن تملكه، بين ألا تحكم العالم وألا تريد أن تحكمه، بين ألا تعرف العالم وألا تريد أن تعرفه. الموقف الثاني موقفٌ ديني، إلا أنَّ هذا الدين ليس الإسلام.

١٤٢٦ عن العالَمْين اللذيْن تحدَّث عنهما هيرمان هيسه (خلال لقاء بلينيو ديزنيوري مع يوزف كنشت): قال بلينيو في استسلام: «يبدو لي أنَّ الأمر لا يقتصر على أنَّ لنا طريقتين ولغتين مختلفتين في التعبير، وكلٌّ منهما لا تقبل الترجمة إلى الأخرى إلا بشكل غامض ملتبس، وإنَّما يتعدَّى ذلك إلى أنَّنا مخلوقان مختلفان تمامًا لا سبيل إلى التفاهم بينهما أبدًا. ودائمًا ما كان الشكُّ يُساورني في من منَّا الإنسان الحقيقي الأصيل المكتمل القيمة، أنتم أم نحن، بل كنتُ أشكُّ في أن يكون أيٌّ منَّا إنسانًا. لقد مرَّت عليَّ أوقاتٌ كنتُ أنظر خلالها إليكم. كأنَّكم شيءٌ غير عادي، نظرة التقدير والشعور بالدونية والحسد، كنتُ أراكم باعتباركم آلهة أو بشرًا متفوّقين يعيشون في مرح دائم ولعب دائم ويستمتعون بوجودهم الخاص بعيدًا عن أي ألم ومعاناة. أحيانًا كنتُ أراكم تستحقون الحسد أو الحبَّ، وأحيانًا أخرى كنتُ أراكم تستحقون الازدراء، أيها المخصيون، حبستم أنفسكم بشكل مُفتَعَل في حالة من الطفولة الزائفة، تعيشون حالة من الطفولة والبراءة في عالم اللعب،

عالم نظيف مُجرَّد من العواطف مُحاط بسياج قوي. عالم يجري فيه إسكاتُ كلِّ شعور غير مرغوب فيه وخنق كلِّ فكرة خطيرة، الجميع يلعب طوال حياته ألعابًا لطيفة غير مؤذية غير دامية، حيث كلّ شعور سامٍ وكلّ عاطفة صادقة وكلّ نشوة في القلب تجاه قلب آخر، كلٌّ هذا يجري ضبطه وكبته وتحييده على الفور من خلال التأمُّل. الحياة الغريزية جرى ترويضها بالتأمُّل. والأشياء الخطيرة الجسورة ذات المسئولية الثقيلة، كالاقتصاد والقانون والسياسة، تُركَت منذ أجيال عديدة لأناس آخرين. ولتجنُّب الملل، يقوم أهل هذا العالم بالانهماك في هذه التخصُّصات العلمية واسعة المعرفة ويَعُدُّون المقاطع اللفظية والحروف ويلعبون لعبة الكريَّات الزجاجية، بينما في الخارج، في عالم الوحل، يعيش الناس المساكين الحياةَ الحقيقيةَ ويقومون بالعمل الحقيقي».

وفي ردِّه على هذا النقد، وصف كنشت عالَمه بأنَّه «عالم واضح منظَّم جيدًا له تقاليده ومناهجه الواضحة، وذو أفكار نقية وأخلاق مُهذّبة». وتوجَّه كنشت بالكلام إلى بلينيو مُشيرًا إلى السماء في الليل، وقد غطَّتها السُّحُب جزئيًا، وقال: «أُنظر إلى منظر السُّحُب وخطوطها الليلية، لأول وهلة يظنُّ المرء أنَّ العمق هناك حيث المناطق الأشد ظُلمة، وفي اللحظة التالية يُدرك أنَّ تلك المناطق المُظلمة المنحنية ما هي إلا سُحُب، وأنَّ الكون بأعماقه لا يبدأ إلا عند حواف وخلجان جبال السُّحُب هذه ويغرق في الأبدية حيث النجوم التي تقف بمهابة كأسمى رموز للوضوح والنظام بالنسبة لنا نحن البشر. إنَّ عمق الكون وعمق أسراره ليس هناك حيث السُّحُب والظلمة، وإنَّما في الوضوح والصفاء. ولتسمح لي أن أطلب منك شيئًا: قبل أن تنام، أُنظر إلى هذه الخلجان والمضايق ذات النجوم الكثيرة ولا تطرد الأفكار والأحلام التي قد تخطر لك» (هيرمان هيسه، لعبة الكريَّات الزجاجية).

١٤٣٩ وصف القدِّيس چيروم (المتوفى عام ٤٢٠م) روما بأنَّها «بابل الجديدة» و«فاتنة في ثوب قرمزي».

١٤٤٠ لم يقع انفصال الإكليروس المسيحي كسلطة مستقلة إلا في القرن الثالث الميلادي، إلا أنَّه ظلَّ، منذ ذلك الحين وحتى اليوم، ينمو باستمرار ويزداد قوة. وهذا إشارة إلى أنَّها كانت عملية طبيعية تتَّفق مع طبيعة المسيحية وطبيعة مهمّتها في العالم. يقول

كوهين: «أصبحت هيئة الإكليروس الغربي سلطة عليا، أصبحت الوسيط بين الله والإنسان، وقدَّ تولَّت مسئولية تفسير الإرادة الإلهية ومعناها، وهي المسئولية التي تحوَّلت فيما بعد إلى حقٍّ حصري خاص بهم» ويُضيف: «وفي الأصل، كان ظهور جماعات الرهبنة مترافقًا مع ظهور المسيحية. ويمكن القول إنَّ حياة جميع المسيحيين في القرون الثلاثة الأولى كانت ذات طابع رهباني إلى حدٍّ ما» (چون كوهين، تاريخ الأدب الغربي، ص ١٨).

١٤٤٢ الأسلوب القوطي هو التعبير الكامل عن الرؤية المسيحية للعالم. فالقبة القوطية برشاقتها ورأسها المُدبَّب تسحب بناء الكنيسة بكامله إلى الأعلى، نحو السماء. يقول هاينرش هاينه: «عندما ندخل كنيسة قديمة، فنادرًا ما نشكُّ في الدلالة العجيبة لرمزيتها الصاعقة. نشعر بارتقاء الروح وخمود الجسد. ترتفع أرواحنا مع القباب الضخمة في الكنيسة نحو السماء، وهي تنتزع نفسها بشكل أليم مُفجع من الجسد الذي يبقى على الأرض كالثياب الثقيلة. عندما ننظر إلى تلك الكنائس القوطية من الخارج، هذه الصروح الضخمة الشاهقة الرشيقة للغاية الشفَّافة للغاية، فإنَّنا ندرك ما كانت تملكه تلك العصور من قوَّة روحية هائلة تمكَّنت من إخضاع الحجر ذاته وجعلته يبدو كما لو أنَّ به نفخة من العناية الإلهية، وبذلك تُصبح المادة الأكثر فظاظة وخشونة تعبيرًا عن الروحانية المسيحية».

١٤٤٥ فرسان العصور الوسطى؛ «القوة المسلَّحة في خدمة الحقيقة غير المسلَّحة» (الكنيسة). كان الفرسان جماعة دينية مُسلَّحة. ولكن بينما بقيت جماعات الرهبان وأصبحت أقوى، فقد انتهت الجماعة المُسلَّحة لأنَّها كانت مناقضة لروح المسيحية وطبيعتها. كانت ظاهرة عابرة وشاذَّة في إحدى مراحل تاريخ الكنيسة. لا يمكن تغيير هذه الحقيقة عبر أي مراسم طقوسية، فالتشكيلات المسلَّحة للكنيسة كان محكومًا عليها بالزوال.

١٤٥٧ لم يُدخل دانتي، أشدُّ شعراء المسيحية تديُّنًا في العصور الوسطى، لم يُدخل آباءَ الكنيسة الجنَّةَ. ففي الدرك الثامن من جحيم دانتي نجد البابا نيكولا الثالث والبابا

بونيفاس الثامن. يُعاقب دانتي آباء الكنيسة لأنَّهم كانوا مُجرَّدين من الضمير والمبادئ مع أنَّهم مُمثِّلون للمبادئ المسيحية.

١٤٥٩ من وجهة النظر الفنِّية، نجد أنَّ مستوى الجزأين الثاني والثالث من «الكوميديا الإلهية» لدانتي، «المطهر» و«الفردوس»، أقلّ بكثير من جزء «الجحيم». وكذلك نجد أنَّ مملكة الشيطان في ملحمة چون ميلتون «الفردوس المفقود» مُصوَّرة بأسلوب أقوى بكثير جدًا من تصوير الفردوس وساكنيه. وينطبق الأمر ذاته على الأدب بشكل عام. ألا يُخبرنا هذا بشيءٍ ما حول العلاقة بين الحياة والفنِّ والحقيقة؟

١٤٦٣ ظهر أدب النزعة الإنسانية وتطوَّر كنوع من الرفض والاحتجاج على الآراء المتطرِّفة للكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى، ولكنَّه ذهب إلى الجانب المتطرِّف المُقابل. حيث قدَّس الجسد وانتهى إلى سخرية متطرِّفة وفسوق مُفرط. وقد دافع الكاتب أنطونيو بيكاديللي (إيطاليا، القرن الخامس عشر) عن الفسوق بشكل صريح.

١٤٩٠ كتب چون ميلتون أطروحة يُدافع فيها عن الطلاق. ويظهر «الطريق الثالث» الإنجليزي، ثنائية روجر بيكون في الفكر والعمل، يظهر لدى ميلتون كالتالي: (١) يُشير ميلتون في أطروحته عن الطلاق إلى إرادة الرب والكتاب المقدِّس ويعتبر الزواج مؤسَّسة إنسانية. (٢) في الوقت ذاته يُدافع ميلتون عن مبدأ سلطة العقل الإنساني. (٣) خلال مناقشته للقضية يُشير تارة لبعض المُسلَّمات اللاهوتية، وتارة أخرى يرجع إلى الحجج العقلانية. كان ميلتون مُناهضًا للتعليم الاسكولائي ومؤيّدًا بشدة للتعليم الذي يُغطِّي موضوعات الطبيعة وظواهر الحياة الواقعية. إلا أنَّ مضمون ملحمته الشهيرة «الفردوس المفقود» يصف الصراع بين الشيطان والرب بأسلوب مُشبَّع بإلهام ديني عميق. في هذه الملحمة تمتزج النزعة المتزمِّتة الصارمة بالأفكار العلمانية لعصر النهضة، ورغم ما يبدو من تنافر في هذه الحالة، إلا أنَّها، بشكل عام، نموذج إنجليزي بامتياز.

١٤٩٧ كان لنظرية چون لوك في الإدراك تأثير قوي وحاسم على ڤولتير؛ إلا أنَّ ما حدث في النهاية هو أنَّ لوك الإنجليزي كان يؤمن بالوحي باعتباره مصدر الحقيقة ولم يكن يرى في ذلك أيَّ تناقض، بينما ظلَّ ڤولتير الفرنسي مُتمسِّكًا بموقفه الذي لا يعترف إلا بمبدأ

واحد فقط وهو العقل باعتباره المصدر الوحيد لمعرفتنا بأسرها. هذان هما الروحان أو الطريقتان المختلفتان، الإنجليزية والفرنسية.

١٥١٠ (التاريخ والثقافة). يحكي تاسيتوس كيف أنَّه استمتع بالعيش مع الجرمان البرابرة ويصف بأسلوب رقيق براءتهم ولطفهم وبساطتهم.

١٥١٣ تؤدِّي الفلسفة المادية إلى القول بالجبرية، بل هما شيءٌ واحد بمعنى ما. وفي ذلك يظلُّ ديدرو، المفكِّر الفرنسي المادي، مُتمسكًّا بماديِّته (وهو الأمر الذي لا ينطبق على الكثير من الماديين الآخرين). وإليك بعضًا من أفكاره: لا يوجد هذا الشيء الذي يُسمَّى حرية إنسانية. جميع أفعال الإنسان مُحدَّدة سلفًا. يجب استخدام كلمتي طبيعي وغير طبيعي بدلاً من أخلاقي وغير أخلاقي. لا تتوقَّف طبائع الإنسان الخيرة والشريرة على الإنسان نفسه. كلُّ إنسان يُولَد بطبائع خيرة أو شرِّيرة، كلُّ إنسان خاضع لا محالة للمسار العام للأحداث الذي يأخذ البعضَ إلى المجد والبعضَ الآخر إلى المهانة الحتمية. الاعتزاز بالنفس، الخجل، الندم، جميعها أشياء لا قيمة لها وتنبع من طمع وحماقة الإنسان الذي يمدح نفسه أو يُوبِّخها على ما لا يد له فيه، ونحو ذلك. بينما يتبنَّى فرنسيٌّ آخر، هو چان چاك روسّو، وجهة النظر المناقضة تمامًا ويُبشِّر بما يُطلق عليه «دين الفطرة». وفي أحد أجزاء كتابه إميل (الجزء الذي يحمل عنوان «عقيدة القس من جبل الساڤوا») يمكننا أن نقرأ السطور التالية: «إنَّني أرى الله في كلِّ أفعاله، أشعر به في نفسي، وأراه في كلِّ ما يُحيط بي» أو: «إنَّ حقيقة أنَّ الشر والظلم ينتصران في هذا العالم تُثبت خلودَ الروح». ويأخذ روسّو تلقائية المشاعر الإنسانية وعفويتها كدليل على الحرية. «لا يهم ما يقوله الفلاسفة، لن أتنازل أبدًا عن شرف التفكير. كلمة «الحتمية»، وليس كلمة «الحرية»، هي الكلمة التي لا معنى لها. إنَّ افتراض وجود فعل لا يصدر عن كامل إرادة الإنسان يعني البحث عن فعل لا سبب له، وهذا هُراء. ما حقيقة شعورنا الأخلاقي؟ ألسنا نشعر تلقائيًا بالإعجاب والتقدير تجاه الأعمال العظيمة والشخصيات النبيلة؟». روسّو وديدرو؛ يُمثِّلان اتجاهين متضادين للروح الفرنسية والروح الإنسانية بشكل عام، أو قطبين لا سبيل إلى التوفيق بينهما. إنَّهما متضادَّان في كلِّ شيء، كالفكرة ونقيضها.

١٥١٩ حدَّد أرسطو العناصر الثلاثة الشهيرة لوحدة الدراما: المكان والزمان والحدث. نظر الكثيرون إلى هذه المبادئ الأرسطية باعتبارها «القوانين الطبيعية للتراچيديا». لا وجود للتاريخ هنا.

١٥٢٧ لا ينبغي الخلط بين «كفاءة» الدين و«كفاءة» العلم. يُقدِّم الدينُ الإجابةَ عن سؤال الغاية من الحياة، أمَّا العلم فيدرس الحياة والطبيعة كظواهر. فليس بإمكان العلم الإجابة عن السؤال الخاص بالغاية من الحياة، وليس بإمكان الدين تحديد قوانين الطبيعة. والعلم الذي يدَّعي تقديم المعرفة المُطلقة ينتهي إلى الإنكار والعدمية. ولنتذكَّر الحوار الذاتي الاستهلالي في مسرحية «فاوست» لجوته.

١٥٢٨ تدور مسرحية «فاوست» لجوته حول ازدواجية الطبيعة البشرية. يصيح فاوست في البداية قائلاً: «أنا وَجْهُ إله»، ولكنَّه يُقرِّر فيما بعد: «أنا دودة تزحف على التراب». بوضوح، إنَّه كلا الأمرين معاً.

١٥٥٠ يقول مانفرد(*) Manfred (الكلام في الحقيقة للورد بايرون) وهو يتتبَّع طيرانَ نسر يتوارى في الفضاء الفسيح: «نحن وحدةٌ نصفها طيني ونصفها إلهي، لسنا مؤهلين للطيَران ولا للزحف، نُصارع طبيعتنا الازدواجية طوال حياتنا».

١٥٥٩ نموذجان للنقد الكانطي: بدلاً من أن يسعى العلم وراء اكتشاف العلَّة الأصلية للظواهر، فإنَّه يقتصر على تفسير ما يحدث أمام عينيه. إنَّه يتوقَّف عن التعرُّض لسؤال «لماذا» يحدث شيءٌ ما، ويقتصر على وصف «كيف» يحدث، وتفسيره إذا أمكن ذلك. هذه فيزياء وليست ميتافيزيقا.

١٥٦٢ يُثبت الشاعر الفرنسي الرومانتيكي شاتوبريان (١٧٦٨-١٨٤٨م) في كتابه «روح المسيحية» أنَّ المسيحية هي «الدين الأكثر شاعرية». ويؤكِّد على القوة الدافعة الهائلة التي منحتها المسيحيةُ للشعر والفنِّ عمومًا. وبالفعل كان الفنُّ وما يزال أحد دعائم المسيحية. فبينما شيَّدت الحضارةُ الملحدةُ عالمًا حركيًّا متنوِّعًا، فقد شيَّدت المسيحيةُ بالمثل عالمًا جوَّانيًا ثريًا. ومع ذلك، فهما عالمان وحياتان وثروتان مختلفتان تمامًا. ولا تُثبت إحداهما الأخرى.

(*) الإشارة هنا إلى شخصية مانفرد في قصيدة الشاعر الإنجليزي اللورد بايرون التي تحمل هذا الاسم. (المترجم)

١٥٩١ ظلَّ أعظم مُمثِّلَيْن للرواية الواقعية والاجتماعية في إنجلترا، تشارلز ديكنز ووليم ثاكري، وهما من هاجما الأثرياء بلا هوادة وقاما بفضح رذائل الأرستقراطية الإنجليزية والطبقات الرأسمالية العليا، ظلا مُصلحيْن أخلاقيين أكثر من كونهما ثوريين اجتماعيين. فلم يكن أيٌّ منهما يتطلَّع إلى تغيير النظام الاجتماعي، بل إلى تغيير الناس. واليوم، وبعد أكثر من مائة سنة منذ صدور أعمالهما الشهيرة، يجوز لنا أن نسأل أنفسنا هل كانا على حقٍّ في المنهج الذي أخذا به. وبالنظر إلى كلِّ ما حدث في هذه السنوات المائة، إلى كلِّ هذه المحاولات المثيرة ونتائجها، خصوصًا إذا أخذنا في الاعتبار الموقف الواقعي في إنجلترا الحديثة وروسيا، فيمكننا القول إنَّ التاريخ قد أثبت صحة ما يُطلق عليه الطريق الوسط.

١٦٠٣ يقول علماء التطوُّر إنَّ هناك أكثر من نوع من التطوُّر؛ تطوُّر كوني وتطوُّر جيولوجي وتطوُّر بيولوجي وتطوُّر اجتماعي. وعندما أفكِّر في الإنسان والدين والفنِّ لا أرى أيًا من أنواع التطوُّر هذه.

١٦٢٦-١ أخذ كانط الموقفَ الوسط بين التجريبيين والمثاليين. فقد اعتقد بأنَّ تفكيرنا لا يسري إلا على الظواهر التجريبية، بينما اعتبر في الوقت ذاته أنَّ من الخصائص المميِّزة لتفكيرنا وجود الأفكار القَبْلية a priori. هذه هي القدرات القَبْلية لوعينا، أي القدرة الاستثنائية المتأصلة في بنية وعينا على إدراك جميع الانطباعات الحسية في قوالب مُحدَّدة. إلا أنَّ اختصاص هذه القدرات يقتصر على الموضوعات التجريبية. ومع هذا، فالتفكير المنطقي، وهو الإطار الوحيد الذي يجب (ونستطيع) أن نُفكِّر من خلاله، قد وُجد قبل التجربة (أي إنَّه قَبْلي). وبهذا، لم يُنكر كانط وجودَ عالَمٍ فوق أو بعد الطبيعة، وإنَّما أنكر إمكانية إدراك هذا العالم بالعقل. وفيما بعد، تراجعت الفلسفة إلى ميتافيزيقا ما قبل كانط (فشته وشلنج وآخرون). يقول هيجل: «لكي يتعرَّف الروح المُطلق على ذاته فإنَّه يأخذ الطبيعة كشيءٍ آخر منفصل عن ذاته. وبهذه الطريقة تكون الطبيعة بمثابة «وجوده الآخر»، نقيضه الخاصّ. وما يوجد كموضوع للفكر هو ما يمكن تصوُّره، ولا يمكننا أن نعرف أي شيءٍ سوى ما يمكن تصوُّره. والإدراك لا يحدث إلا من خلال المساواة أو التزامن بين مَن

يُفكِّر وبين موضوع التفكير (الذات والموضوع). ومن ثمَّ، فالوجود والفكر هما الشيء ذاته».

١٦٢٦-٢ قال أحد الفنَّانين (التشكيليين): «ليس المهم ما يعتقد المبدع أنَّه يعرفه، وإنَّما ما لا يعرفه. وإذا حدث يومًا ما أن فهم المُبدع ما لم يكن يعرفه، فسوف يترك حاملَ اللوحات أو الإزميل، فقد يكون هذا نهاية الإبداع».

١٦٣٨ يرى زولا أنَّ الكاتب عليه أن يلتزم بالحقيقة. وبالطبع كان زولا يقصد الحقيقةَ العلمية. ويقول زولا مُوضِّحًا: «ماذا نقول عن شاعر يُصرٍّ على أنَّ الشمس تدور حول الأرض رغم أنَّ العلم اكتشف أنَّ الأرض هي التي تدور حول الشمس؟» (زولا، الرواية التجريبية، ص ١٤٢). وبدوري أسأل: ما الذي سيبقى من الشعر إذا حذفنا منه كلَّ ما يتعارض مع العلم؟ أيُّ قصيدة تلك التي تتحدَّث عن القمر باعتباره جسمًا تابعًا باردًا يسوده الجليد والأرض الخراب يدور باستمرار حول الأرض بلا سبب مفهوم؟

١٦٤٠ اعتاد النقَّاد الاعتراض على زولا قائلين إنَّه لم يكن يُحسن تصوير الشخصيات الإيجابية. وعندما حاول زولا أن يفعل هذا (في روايته «الحلم») أنتجت هذه المحاولة دراما مُفتَعَلة. كان زولا بارعًا في الكتابة عن (أو في تصوير) «الحيوان الأبدي» في الطبيعة البشرية.

١٦٤١ تاريخ الثقافة الغربية هو تاريخ الفكر الغربي الذي داوم على التأرجح، كالبندول، من طرف إلى آخر. فمثلاً، خلال القرن التاسع عشر فقط شهدنا أفول النزعة الكلاسيكية وازدهار الرومانتيكية، إلا أنَّه كان ازدهاراً مؤقَّتًا. فسرعان ما تحوَّلت الروح الأوروبية إلى الواقعية، ووصلت خلال بحثها عن النزعات المتطرِّفة إلى النزعة الطبيعية عند زولا وهويسمانس Huysmans. ولكن في ثمانينيات القرن التاسع عشر دخلت النزعة الطبيعية في أزمة، حيث تحوَّل الفكر الغربي إلى طرفين جديدين؛ إذ دخل كلٌّ من نيتشه والنزعة الرمزية إلى المشهد. وهكذا لم تستمر النزعة الطبيعية سوى وقت قصير: فقد شهد زولا، وهو أهم مُمثِّليها، شهد بدايتَها كما شهد نهايتها. كلَّما كانت الفكرة أكثر تطرُّفًا، كان «بريقها» أقوى وحياتها أقصر. لقد حلَّ تقديس النزعة الطبيعية للجماهير محلَّ

أرستقراطية الشخصية، بينما نُبذَ ما يُطلق عليه المنهج العلمي في الأدب لصالح الخيال و«الضرورة الشعرية» poetic license، إلخ. أحيانًا يبدو لي أنَّ هذا البندول هو قَدَرُ الغرب، ولعلَّه رسالته.

١٦٤٣ حول الدراما الجوَّانية في مسرحية ماترلينك(*) Maeterlinck «المُتطفِّل». ثمَّة نوع من الدراما يتصاعد خلف الحوار والأحداث غير المُهمَّة: فالجميع يشعرون بحضور الموت، الجميع يُفكِّرون فيه ويحتفظون بصَمْتهم إزاءه. الدراما الحقيقية غير مرئية، ولكنَّها موجودة في النظرات، في الصمت، في الخَوف الذي يشعر به الجميع ولكن لا يُظهره أحد. الموت هو الشخصية الرئيسة في المسرحية، ومع أنَّ هذه الشخصية الرئيسة تبقى محجوبة إلا أنَّها تحتلُّ سائر المكان على المسرح وتستولي على أرواح جميع المُمثِّلين. في الحقيقة، الأمر يتعلَّق بإظهار (أو التلميح إلى) ما لا يُمكن التعبير عنه في المُعبَّر عنه وغير المرئي في المرئي.

١٦٦٧ خلال وصفه للصراع الوحشي من أجل البقاء، أظهر لنا داروين الطبيعة في عظمتها عديمة الرحمة، يقول: «وهكذا، تنشأ أعلى ظاهرة يمكننا تخيُّلها، ظاهرة إبداع الأشكال الأرقى من الحياة، تنشأ مباشرة من ذلك الصراع الأبدي، من الجوع والموت». ما يُخبرنا به داروين وما يُخبرنا به المسيح هما رؤيتان متناقضتان تمامًا. أظهر داروين الترابط المتبادل بين الحياة والموت، وخصوصًا دور الموت في تقدُّم الحياة بشكل عام. يرى داروين أنَّ الموت، وهو الذي يُشيع أكثر الأفكار سوداوية في أي إنسان، شرطٌ أساسي لازم للتَّحسين المُستمر للعالم العضوي بأسره ولكلِّ ما في العالم من جمال يُثير إعجابنا. لو كان هناك مسيح دجَّال، لكان داروين. كما يرى أنَّ قانون الأنانية هو أسمى قانون في الطبيعة، هذا القانون ليس فقط حقًّا للفرد بل هو واجبٌ عليه كذلك. يقول كوهين: «أحدثت نظرية داروين في التطوُّر انقلابًا في رؤية الإنسان للعالم والحياة، ولا يمكن لأي اكتشاف عظيم سابق عليها أن يُقارَن بها» (چون كوهين، تاريخ الأدب الغربي، الجزء الثالث، ص ٣٨).

(*) موريس ماترلينك (١٨٦٢ - ١٩٤٩م) شاعر وكاتب مسرحي بلجيكي، كان يكتب باللغة الفرنسية، حصل على جائزة نوبل للأدب عام ١٩١١م. من أعماله المسرحية «المتطفِّل» و«العميان» و«الطائر الأزرق» و«الأميرة مالين». (المترجم)

١٦٩٤ إنَّ ما جاء في مواضع كثيرة في القرآن الكريم من حثٍّ متكرِّرٍ على التفكُّر والنظر وإعمال العقل (كما في. البقرة ١٦٤، الأنعام ٩٥-٩٩، الأنبياء ٣٣، الحج ٤٥-٤٦، الشعراء ٧، ق ٦-١١، الواقعة ٦٣-٧١، الغاشية ١٧-٢٠، وهكذا) لا يمكن تفسيره إلا بأنَّه إيمانٌ راسخ (وعهد) بأنَّ شهادة الحواس والعقل لن تنقض إيمانَ الروح، ومن ثمَّ، وعند نقطة ما، عند أُفُقٍ ما، لن يكون هناك صراع بين العلم القائم على الملاحظة والدين القائم على الوحي، بل ويمكن لكلٍّ منهما أن يُعزِّز الآخر. هذا الأفق هو ما أُسمِّيه أفق الإسلام.

١٦٩٦ يرى ماترلينك أنَّ مُهمَّة الشعر هي إدخالنا إلى عالم أسمى، عالم لا يصل إليه العقل، حيث «يمكننا أن نَسْتَرِقَ السمع إلى حديث الأرواح الصامت. إنَّ أسمى وسيلة للتواصل بين الناس، الطريقة الأكثر أمانًا لروح الإنسان، هي الصمت».

١٧٠٣ يرى ماترلينك أنَّ الحياة لا تكمن في الفعل، وإنَّما في الروح، أي إنَّ الحياة ليست شيئًا برَّانيًا، وإنَّما شيءٌ جوَّاني. ويوضِّح هذا الرأي بمثال غريب؛ إذ يؤكِّد أنَّ هاملت، كشخصية فنِّية، يتفوَّق على عُطيْل لأنَّه لا يقوم بأفعال كثيرة، و«لديه وقت ليحيا». إنَّ الغاية من المسرح هي الوصول إلى المعنى الجوَّاني لظاهرة ما. وقد قدَّم ماترلينك نظرية «الحوار الصامت» الذي يترافق في الوقت ذاته مع حوار آخر بصوت عالٍ. هذا الحوار الصامت هو شيءٌ أساسي باعتباره حديث الروح الذي يوضِّح الأحداث في الواقع.

وتتضمَّن مسرحيات ماترلينك (موت تنتاجيل، العميان، المتطفِّل، بيلا وميليساند) هذا المسارَ المزدوج؛ خطّان من الدراما يحدثان في وقت واحد ولا يوجد شيء كثير يربط بينهما. الأول هو الدراما الخارجية، وعادة ما تكون فقيرة من ناحية المضمون والحدث، أمَّا الخطُّ الثاني فهو دراما الروح، وهي دراما فقيرة في اللغة غير أنَّها مُفعمة بالصمت الكاشف والتأمُّل الموحي. في الدراما الخارجية عادة ما يكون كلُّ شيءٍ غير مستقر ومتردِّدًا ومتناقضًا، بينما في دراما الروح كلُّ شيءٍ ثابتٌ ومتناغم وموثوقٌ وصحيح. هذه هي رؤية ماترلينك.

١٧٠٧ لو أنَّ هناك رسالة كامنة في الشعر الرمزي، لكانت هي: إنَّ حواسَّنا وتفكيرنا الوضعي القائم على التجربة والملاحظة يُقدِّمان إدراكًا زائفًا وخادعًا للعالم. وعلى العكس، تُمثِّل الحركةُ اللا واعية للروح المصدرَ الأصيل الوحيد للمعرفة.

١٧٠٨ تبقى الأشياء الأهم في الحياة غير معبَّر عنها؛ إذ تعجز اللغة عن التعبير عنها. أعتقد أنَّ هذا هو فحوى «السر المقدَّس» في المسيحية.

١٧٠٩ إنَّ القول بأنَّ الأخلاق نافعة يُشبه إلى حدٍّ كبير القولَ بأنَّ الأخلاق مُشتقَّة من المصلحة (حتى ولو لم تكن مصلحة شخصية عابرة، وإنَّما مصلحة عامة دائمة)، وهذا القول نفيٌ للأخلاق. لا يمكن أن تتأسَّس الأخلاق، كقيمة مستقلَّة قائمة بذاتها، قيمة مستقلة عن المصالح والمنافع، إلا على مبدأ الواجب، وهو مبدأ ديني.

١٧١٣ حول المدن الكبرى: تشعر نانا (بطلة رواية إميل زولا «نانا») بشيءٍ من «السُّمِّ العذب في الهواء»، ويبدو لها أنَّ جسور باريس تُطلق «نهرًا من اللهب يجري على فخذيها».

١٧٣٧ يؤكِّد ستيفن چاي غولد Stephen Jay Gould، عالم الحفريات الأمريكي ومؤلِّف الكتاب الشهير «القراءة الخاطئة للإنسان» The Mismeasure of Man، يؤكِّد أنَّه يوجد سوء فهم خطير حول داروين، بالتحديد أنَّ داروين لم يقل قط بأنَّ التطوُّر يعني التقدُّمَ حتمًا، بل إنَّه تجنَّب كلمة تطوُّر. كلُّ ما قاله داروين هو أنَّ الكائن الحي يُكيِّف نفسه، أي إنَّ التغييرات التي تحدث في البيئة الطبيعية تتسبَّب في تغييرات في الكائن الحي. وهذا هو ما يُطلق عليه نظرية التكيُّف المحلِّي. ويقول غولد: «إنَّ الفكرة القائلة إنَّ التطوُّر يُمثِّل نوعًا من التقدُّم العام، أي الارتقاء من الأميبا إلى الإنسان، ما هي إلا تعصُّب ثقافي».

١٧٣٨ فيما يخصُّ التطوُّر، هناك أيضًا نظرية «الحلقة المفقودة» في التحوُّل المزعوم من القرد شبيه الإنسان إلى الإنسان.

١٧٣٩ يُنتج التطوُّر حيوانًا ذكيًا فقط، وليس إنسانًا. لا يمكن لغير الله أن يخلق الإنسانَ.

١٧٤١ فيما يتعلَّق بالإنسان؛ فالصدام بين الطبيعة والثقافة هو صدام بين الموروث والمكتَسب، بين الخصائص المُحدَّدة وراثيًا والخصائص المُكتَسَبة، أي بين الجبرية والحرية. وينبثق في هذا السياق سؤالٌ مثير: هل تحدَّدت المكانةُ الرفيعةُ التي يتمتَّع بها الذكر حاليًا (على الأنثى) بيولوجيًا أم ثقافيًا؟ أي هل هناك جين مسئول عن الهيمنة الذكورية؟ أم إنَّ التفاوت في مكانة كلٍّ من الجنسين في مجتمع ما يرجع إلى التطوُّرات الاجتماعية المختلفة؟

١٧٨٣ إنَّ الوعي بما يرتكبه الإنسان من إثم هو في الحقيقة وعيٌ بعظمته. فلكي يكون الإنسان آثمًا، لا بدَّ أن يكون مستعدًا لارتكاب الذنب، وهذا الاستعداد يستلزم تصوُّر الإنسان في أبعاده المتجاوزة للطبيعة. إنَّ إنكار الإثم، إنكار الخطيئة الأولى، مثل أي إنكار آخر، يقوم على تصوُّر الإنسان في أبعاده الطبيعية، أي أبعاده الداروينية. وإنسان داروين ليس مُذنبًا، لأنَّه غير مستعد لارتكاب الخطيئة، ليس لديه فكرة عن الخطيئة، إنَّه متجاوز للخير والشر.

١٧٩٤ المبنى بالنسبة للكاتب هو دراما مُعقَّدة تتشابك فيها الرغبات والحاجات الإنسانية مع الحلم الإنساني بالجمال في نسيج لا ينفصل. وإلا فلن يكون المبنى نموذجًا لفنِّ العمارة، وإنَّما بناء قبيح، مصنع للخمور، مزرعة دواجن، نبات صناعي.

١٨١٣ المشاعر الوجودية الأساسية: القلق، الاضطراب، الخوف، الإثم. ما علاقة هذه المشاعر بداروين والمادية؟

١٨١٨ هذه الثنائية، ثنائية العقل والجسد، والتي ترتبط عادة بديكارت في الثقافة الأوروبية («الثنائية الديكارتية»)، لم يُفلت منها أحد. بل من الممكن أن نجدها، وعلى نحو غير مُتوقَّع، لدى صمويل بيكيت في فصله الحادِّ بين الجسد والروح.

١٨٤٧ إنسان داروين، مثل مجتمع ماركس، منطقي وقابل للتنبُّؤ، فهذا عالم هندسي في نهاية الأمر. وحدها الروح -إذا كانت موجودة- هي التي تُربك هذه الهندسة الكونية وتُدخل منطقًا مختلفًا في هذا العالم. وهنا دعنا نتذكَّر المسيح وكُتَّاب التراچيديا اليونانيين والمتصوِّفة المسلمين، أو نيتشه ودوستويڤسكي وإبسن وستريندبرج في أوروبا.

١٨٥٦ (عن البورتريه): يعتقد الهنود أنَّهم بإمكانهم أن يسرقوا روحك من خلال رسم بورتريه لك.

١٨٧٩ يسعى العلم إلى تفسير أو إجراء عملية ما، بينما يتَّجه المسرح إلى خلق شخصية ما؛ إنَّهما نشاطان مختلفان يسعى كلٌّ منهما في اتجاه مختلف عن الآخر.

١٨٨٠ كتب أحد النقَّاد المسرحيين عن بريخت وأعماله: «برتولد بريخت هو كاتب مسرحي سيصبح لا محالة مهجوراً يومًا ما. لم يعد ما يُعرف بالمسرح الملحمي مُثيرًا لأي أحد؛ فهناك قضايا أخرى الآن. إنَّ أفكار بريخت ومقاصده، مشاعره البروليتارية ومبالغاته، أصبحت اليوم مجرَّد جهد فقد بريقه الجمالي». وتفسيري لهذا الكلام: لم تعد البروليتاريا التي كان يُخاطبها ماركس وبريخت موجودة. نعم، هناك طبقة عاملة، إلا أنَّ الأوضاع الاجتماعية وسيكولوجيا هذه الطبقة قد تغيَّرت تمامًا، ولهذا لا تستجيب هذه الطبقة للنداءات والشعارات القديمة.

١٨٨٧ لا يوجد تطوُّر في الفنِّ بالمعنى التاريخي. فالرسوم التخطيطية للوحة بيكاسّو «سيدات من أڤيغنون»، وهي اللوحة التي تُمثِّل إشارة لبداية فنِّ الرسم الحديث (يرجع تاريخ اللوحة إلى عام ١٩٠٧م)، تُظهر هذه الرسوم التخطيطية تأثُّرًا واضحًا بفنِّ النحت الإفريقي. وقد عُرضَت هذه الرسوم التخطيطية لأول مرة في أحد المعارض في لندن عام ١٩٨٦م.

١٨٩٠ كان ماركس مُعجَبًا بالفنِّ القديم (فنّ «مالكي العبيد» مثلاً)، والعجيب أنَّه لم ينتبه إلى مفارقة غريبة: عدم انسجام هذا مع فكرة «البناء الفوقي» و«البناء التحتي» في مذهبه. تساءل ماركس كيف للشعر اليوناني، رغم أنَّ الأوضاع الاجتماعية التي أُبدع فيها ترجع إلى زمن سحيق، كيف له أن يمنحنا المتعة الجمالية حتى اليوم؟ وعلى حدٍّ علمي، لم يجد ماركس إجابة هذا السؤال الأساسي الذي يتحدَّى مذهبه حول الارتباط المتبادل بين البناء الفوقي والبناء التحتي.

١٨٩١ قال أحد النقَّاد الفرنسيين إنَّ أعمال كافكا كانت مرتبطة للغاية بالوقائع والظروف المحلِّية التي لا يفهمها أحد، رغم أنَّها كانت تقع على بعد مائة كيلومتر فقط من

براغ. وهذا رأي خاطئ. فقد ثبت في النهاية أنَّ كافكا كان على الأرجح الكاتب الأكثر عالمية في القرن العشرين.

١٨٩٢ كان فنُّ «مالكي العبيد» في اليونان القديمة نموذجًا منقطع النظير بالنسبة للفنَّانين في العصور اللاحقة. وذلك لأنَّ القطعة الفنِّية الأصيلة تبقى، بصرف النظر عن مدى ارتباطها بزمان أو مكان معين، ذاتَ طابع إنساني وعالمي بشكل عام، في كلِّ زمان ومكان.

١٩١٦ ثمَّة مبدأ واحد مُهيمن في الثقافة الغربية، وهو مبدأ الكرامة الإنسانية. وإذا سألني أحد ما الذي يجعلنا قادرين على تمييز الجذور المسيحية للحضارة الغربية، فسوف أجيب: مبدأ الكرامة الإنسانية المُهيمن.

١٩١٧ هناك أيضًا الفيلسوف البولندي بوغدان سوخودولسكي Bogdan Suchodolski الذي قدَّم نظرية عن نوعين من التاريخ. فإلى جانب التاريخ السياسي، أي تاريخ الأشياء، هناك تاريخ آخر يُطلق عليه سوخودولسكي «تاريخ الإنسان». ويُوضِّح المقصود بهذا التاريخ بأنَّه «تاريخ المُثُل، تاريخ الدين والفلسفة، تاريخ العلم والفنِّ، تاريخ المَجتمع والأخلاق، إنَّه تاريخ الارتقاء الجوَّاني للإنسان». ويُسمِّيه أيضًا «التاريخ الإنساني للعالم» بخلاف «تاريخ الصراعات والحروب والسيطرة والانتصارات البطولية والتماثيل المُشيَّدة للملوك والزعماء الكبار، إلخ».

١٩٥٥ من المثير أنَّ الهنود يضعون بعض صور الحياة النفسية -وهي العقل والذكاء والشعور بالأنا- ضمن العناصر الثمانية للطبيعة الدنيا للإنسان («البراكريتي» Prakriti). العناصر الخمسة الأخرى هي التراب والماء والنار والهواء والأثير. ومن ثمَّ، ففكرة أنَّ الذكاء ينتمي إلى الطبيعة الدنيا للإنسان، إلى جانبه البيولوجي وليس جانبه الإنساني، هي فكرة قديمة للغاية وموجودة في حضارة سحيقة ومختلفة تمامًا.

١٩٥٦ ها هنا موقفان مختلفان تمامًا. موقف أفلاطون: «يكون العالم المادي حقيقيًّا بقدر ما يوجد به من أفكار»، وموقف ماركس: «لا يمكن للفكر أن ينفصل عن المادة المُفكِّرة».

١٩٦٧ «أعظم يوغي هو ذلك الذي تكون رؤيته دائمًا ثابتة: أي عندما تكون بهجة الآخرين هي بهجته هو، وعندما تكون معاناة الآخرين هي معاناته هو» (البهاغاڤاد غيتا Bhagavad Gita، المجلد الخامس، ص ٣٢). وتعليقي: نجد الأخلاق ذاتها واحدة منذ الڤيدا الهندية وصولاً إلى مبدأ «الواجب المُطلق» عند كانط.

١٩٧٠ (الأخلاق والدين فوق التاريخ). وجد الرومان لدى الغاليين والدرويد (Druids كهنة الشعوب الكلتية)، الذين كانوا يعتبرونهم برابرة، مذهبًا متقدِّمًا للغاية حول التناسخ، أي حول الخلود، ومبادئ أخلاقية سامية. وكان الغاليون يمنحون المحكوم عليه بالإعدام خمس سنوات من الحياة ليُعدِّ نفسه للحياة المُقبلة عن طريق التأمُّل.

١٩٨١ يُعتَقَد أنَّ تاريخ الوخز بالإبر يرجع إلى خمسة آلاف سنة. إنَّه مزيج من العلم والفلسفة والتصوُّف. وفي العصور الحديثة، أصبح الوخز بالإبر مقبولاً تمامًا في الغرب بشكل عام.

١٩٨٤ الوضع الازدواجي للإنسان في العالم هو فكرة ثابتة عبر العصور. هناك صورة كتابية صينية قديمة تُظهر ثلاث عناصر: الأرض-الإنسان-السماء. الإنسان مُمزَّقٌ ما بين القوى الأرضية والقوى الكونية، التي هو جزءٌ منها.

١٩٨٥ الموضوعي مقابل الذاتي: ما الذي يَخفُق، العَلَم أم الرياح؟ أم لعلَّه مجرَّد خفقان في روحنا؟ هل يوجد عبير الزهرة مُستقلاً عن الشخص الذي يشمُّها؟ هل مقطوعة «نشيد الفرح(*)» Ode to Joy موجودة بصرف النظر عن الأذن التي تستمع إليها؟ أم إنَّ المستمعين نوعان؛ أحدهما لا يسمعها حقًّا حيث إنَّها لا تتردَّد في روحه؟ هل تكون الموسيقى موجودة في هذه الحالة الثانية عندما لا تتردّد في روح المستمع؟ وإذا كانت موجودة، فماذا تكون؟ أو لنأخذ أحد معارض فنِّ الرسم، هناك زائر يأتي إلى المعرض نتيجة لدوافعه المتغطرسة، وفقط يتمشَّى بين اللوحات بلا اهتمام (أو باهتمام مُفتَعَل

(*) نشيد الفرح Ode to Joy هو الحركة الأخيرة من سيمفونية بيتهوڤن التاسعة، وهو في الأصل قصيدة كتبها الشاعر الألماني شيلر ثمَّ لحَّنها بيتهوڤن في الحركة الرابعة والأخيرة من سيمفونيته الأشهر؛ السيمفونية التاسعة، وهو من أروع ما كتب شيلر من شعر وأروع ما لحَّن بيتهوڤن من موسيقى. القصيدة تُعبر عن الرغبة الجارفة للنفس البشرية في التطلع للسعادة، وهي ترتيلة حب ودعوة إلى السلام والمحبة بين البشر. (المترجم)

زائف)، بينما هناك زائر آخر يكون مفتونًا ولا يستطيع أن يرفع عينيه من على اللوحات، فهل هذه اللوحات موجودة لكليهما بالطريقة ذاتها؟

١٩٨٧ موقفان مختلفان تجاه الطبيعة: الموقف الغربي؛ قهر الطبيعة، والموقف الشرقي؛ التناغم مع الطبيعة. الموقف الغربي ينشأ بوضوح من الكتاب المقدَّس، فقد ورد في سفر التكوين: «أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلَّطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كلِّ حيوان يدبُّ على الأرض». بينما تبعث الميتا سوتا البوذية Metta Sutta برسالة مختلفة تمامًا: «مثل الأمِّ التي تفدي بحياتها طفلَها من المصائب، هكذا ينبغي أن تُعانق أفكارُك جميعَ الأحياء». لا يعرف فنُّ الرسم الشرقي تصويرَ «الطبيعة الصامتة» Natura morta، الذي يُظهر زهرة أو حيوانًا ككائن حي مُنتَزَعًا من بيئته التي هو جزء منها. عندما يعتلي رجلٌ غربي قمَّةَ جبل، فإنَّه «يقهره». إنَّه يُصارع الجبل القاسي ويُخضعه، مُمتَثلاً للأمر الذي ورد في العهد القديم. في حين أنَّ الرجل الياباني أو الصيني يؤمن بأنَّ الجبلَ الذي نصعد إلى قمَّته يُصبح صديقًا لنا، وهكذا.

١٩٩٠ لا يمكن لفُرشاة الرسَّام أن تقوم بضربتين متطابقتين. لا يوجد تكرار في فنِّ الرسم، فكلُّ ضربة من الفرشاة هي ضربةٌ جديدة.

١٩٩١ هناك شيءُ ما في فنِّ الرسم الغربي يدين به الغرب للمسيحية، يمكن أن نُطلق عليه «الهَوَس بالبورتريه». فهذا هو المسعى الذي يرنو إلى السرِّ الأسمى في العالم، الوجه الإنساني. في فنِّ الرسم في عصر النهضة، نجد أنَّ المنظر الطبيعي (الطبيعة) مجرَّد خلفية يُهيمن عليها الإنسان ووجهه في عظمتهما المُطلَقة. أمَّا في فنِّ الرسم الشرقي، خصوصًا في الشرق الأقصى، يوجد العكس: حيث نجد في المنظر الطبيعي مجرَّد إشارة، هنا أو هناك، لشكل إنساني، وعادة ما يَصعب تمييزه. إنَّه ليس بورتريه، وإنَّما مجرَّد إشارة إلى أنَّه يوجد في الطبيعة إنسانٌ يعيش هناك، ليس باعتباره سيدًا لها أو باعتباره ذروة الخلق الإلهي، وإنَّما باعتباره جزءًا مُكمِّلاً لها.

٢٠٠٢ يقول رامانا العظيم Ramana Maharsh: «الحكيم هو ذلك الذي يسكن في أقصى أعماق روحه في كلِّ لحظة». يُمثِّل الغربُ والهندُ، عمومًا، قطبين متضادين أو

نموذجين مختلفين للتطلُّعات الإنسانية. ففي حين تحوَّل الإنسان الغربي نحو العالم البرَّاني، فقد تحوَّل الإنسان الهندي نحو العالم الجوَّاني واكتشف عالمًا لا نهائيًا في أعماقه (في ذاته). ويكفي أن يتبصَّر المرء في علم اليوجا وسيكتسب شيئًا من تلك التجربة الفريدة.

٢٠٠٥ الكيبوتس اليهودي Jewish Kibbutz، وهو نموذج للمجتمع المثالي الذي كان يحلم به الكُتَّاب الاشتراكيون في القرن التاسع عشر، ينسجم تمامًا مع الروح اليهودية ولذلك ليس مُفاجئًا أنَّه ظهر لدى اليهود. هذا الأمر ليس صدفة. يقول الكاتب اليهودي عاموس عوز: «الكيبوتس هو الإبداع اليهودي الأكثر أصالة خلال المائة سنة الأخيرة».

٢٠٠٨ النمسا هي مثال جيد للنظام وحياة الرفاهية والأمن القانوني. ورغم ذلك، نجد أنَّ أشهر كُتَّاب المسرح النمسويين، مثل ڤولفغانغ باور Wolfgang Bauer وتوماس برنهارد Thomas Bernhard، يتحدَّثون عن نمسا أخرى. ويضعون في بؤرة اهتمامهم ظاهرة ما يُعرف بالبلادة؛ أي خمول القلب وسُبات الروح والخواء وعدم إدراك مغزى وقيمة الوجود الإنساني. يحاول أبطال مسرحياتهم (مثل مسرحيات: ظهيرة فاتنة، التغيير، الأشباح، وغيرها) يحاولون ملء هذا الخواء بالجنس والمخدِّرات وغيرها من التوافه، رغم وعيهم تمامًا بأنَّ هذا كلَّه لن يُفيد إطلاقًا ولا جدوى من ورائه. إنَّ عبثية الحياة وعدم إدراك الغاية منها يؤدِّي إلى اندلاع العنف الوحشي لدى أبطال هذه الأعمال المسرحية. كتب مارتن إيسلن Martin Esslin (الذي كتب تعقيبًا على مسرحيات باور التي كُتبت بين عامي ١٩٧٥ و١٩٨٦م) كتب يقول إنَّ أفضل من عبَّر أدبيًا وبشكل واضح عن خصائص الحالة الروحية للأوروبيين جميعًا هم الكُتَّاب النمسويون (وهي ظاهرة حدثت لأول مرة في اسكندناڤيا في نهاية القرن التاسع عشر، كما هو الحال لدى إبسن وغيره).

٢٠٢٢ لا تنتمي النظافة والطهارة في الإسلام إلى الجانب الديني من الحضارة الإسلامية، وإنَّما إلى الجانب الدنيوي منها. فالنظافة المُطلقة تسود في الطوبيا فقط. «الحضارة هي التعقيم»؛ هذا أحد التعبيرات التي كانت تُلقَّن وتُعلَّم للناس في أثناء نومهم وهو جزء من عملية «برمجة» البشر في «العالم الجديد الشجاع». ليس حتمًا أن تكون

الثقافة قذرة، ولكن أيضًا ليس بالضرورة أن تكون نظيفة. من الممكن تصوُّر وجود ثقافة في القذارة، بل كان هذا هو الوضع السائد (كما كان في العصور الوسطى، و«القذارة المقدسة» لدى بعض طبقات الرهبان، ومنطقة حجز القذارة باعتبارها جزيرة الثقافة في مقابل حضارة العالم الاصطناعي في طوبيا ألدوس هكسلي). الأمر ذاته ينطبق على عدم السُّكْر، فمحاولات فرض حظر على تعاطي الخمور في بعض الدول الحديثة كانت من لوازم الحضارة، أمَّا الثقافة فينتشر فيها السُّكْر.

٢٠٣٠ تتعامل الثقافة مع الموضوعات الخالدة الأصيلة، كالحبِّ والميلاد والزواج والأمومة والتضحية والموت. كذلك هناك التعارض الواضح في ثنائية الذكر والأنثى. ففي الثقافة الرجل رجل والأنثى أنثى. وعلى خلاف ذلك، تسعى الحضارة إلى طمس الاختلاف، وهذا، من منظور الثقافة، بمثابة أكبر الكبائر ويتعارض تمامًا مع الصورة الأصلية للهبوط من الجنة.

٢٠٣٦ أحد التعبيرات التي كانت تُقحَم في عقول التوائم في رواية ألدوس هكسلي «عالم جديد شجاع» عبر تكرارها بشكل متواصل أثناء نومهم كان عن الحياة الجماعية، وذلك ضد حياة العزلة (الوحدة).

٢٠٤٢ يقول العالم والكاتب إسحق عظيموف: «إنَّني على قناعة بأنَّنا ستتمكَّن يومًا ما من إنتاج روبوتات حية، ولكن لن يحدث هذا خلال حياتي». فهل سيُنشئون حياة أم سيُنشئون محاكاة لها؟ إذا كانت حياة، وهو ما لا أعتقد أنَّه سيحدث على الإطلاق، فينبغي إحراق جميع كتب الدين والفلسفة والأخلاق وجميع الأعمال الفنِّية، باعتبار هذا كلِّه مجرَّد ركام من الهراء.

٢٠٥٩ عندما سُئل ألان بوسكيه(*) Alain Bosquet عن الفلسفة التي ينبغي على المرء اتِّباعها، أجاب قائلاً: «السلام الجوَّاني المُفعم بالشغف».

(*) ألان بوسكيه (١٩١٩-١٩٩٨م) شاعر وروائي فرنسي، من أعماله الشعرية «ملاحظات عن الحب» و«ملاحظات عن العزلة» و«سوناتات نهاية القرن»، ومن أعماله الروائية «الخسوف العظيم» و«الحياة القاسية» و«لا حرب ولا سلام». (المترجم)

٢٠٦٠ الفلسفة باعتبارها «هندسة الروح»؛ جاء هذا الشعار في كتاب برانيسلاف بيترونيڤيتش(*) Branislav Petronijevi´c «مبادئ الميتافيزيقا» ليُخبر القارئ بأنَّ الطريق إلى فهم منظومة أفكاره يمرُّ عبر الرياضيات، وعبر الهندسة تحديداً.

٢٠٦٦ تقول مارغريت يورسنار(**) Marguerite Yourcenar «أصبحت الرغبة في تغيير العالم غالبة على الرغبة في فهمه». فهل يمكننا القول إنَّ الثقافة هي طموح لفهم العالم، والحضارة هي ميلٌ لتغييره؟ ولم يكن مصادفة أنَّ ماركس كان هو من وصل إلى النتيجة التالية: «لقد انشغل الفلاسفة بتفسير العالم، إلا أنَّ المهم هو تغييره». حدَّدت الماركسية بهذه العبارة موقفها من الثقافة والحضارة واختارت طريقها وعرَّفت نفسها باعتبارها المحصلة الطبيعية للحضارة.

٢٠٦٨ إنَّ روايات دوستويڤسكي هي دراما في حقيقتها. إحداها «دراما للعقل البشري» يُجهد العقل البشري نفسَه فيها ليُدرك الحقيقة المطلقة، حقيقة الوجود، إلا أنَّه ينقلب مهزومًا.

بعد أن قرأ دوستويڤسكي كتابَ كانط «نقد العقل الخالص»، قام بنقل التناقضات التي ذكرها كانط إلى المستوى الأخلاقي الديني، وبهذا حوَّل النزاع الذي يُشكِّل لُبَّ «نقد» كانط إلى صراع درامي بين القلب والعقل. في رواية «الأخوة كرامازوف» يسخر دوستويڤسكي من دعاوى العقل وغروره، هذا العقل الذي ينظر إلى معرفته باعتبارها معرفة مطلقة. وهذا هو جوهر كابوس إيڤان كرامازوف الذي لا يؤمن (ولا يستطيع أن يؤمن) بأي شيء سوى العقل، وعندما يكون الصراع هكذا فلا يمكن حلُّه عن طريق العقل فقط (دون مشاركة القلب).

٢٠٧٤ فيما يتعلَّق بجريمة قتل فيودور كرامازوف، أدانت المحكمة البشرية ديمتري، بينما أدانت «محكمة الرب» إيڤان كرامازوف. ويعرف القارئ أنَّ كليهما ليس القاتل. هذان نوعان من العدالة.

(*) برانيسلاف بيترونيڤيتش (١٨٧٥-١٩٥٤م) فيلسوف صربي وعالم متخصص في دراسة الأحياء القديمة، أهم أعماله: «مبادئ الميتافيزيقا» و«حول قيمة الحياة» و«تاريخ لفلسفة جديدة». (المترجم)

(**) مارغريت يورسنار (١٩٠٣-١٩٨٧م) روائية وكاتبة فرنسية من أصل بلجيكي، وأول امرأة تُنتخب لعضوية الأكاديمية الفرنسية. من أعمالها: «مُذكرات هادريان» و«الهاوية» و«حكايات شرقية». (المترجم)

٢٠٨٠ في الأنظمة الاستبدادية نجد أنَّ الحبَّ والأغاني العاطفية من الموضوعات غير المرغوبة (والممنوعة أحيانًا). لماذا؟ التفسير الوحيد الممكن هو أنَّ هذه المشاعر تنتمي إلى الإنسان باعتباره شخصية فردية بدلاً من كونه عضواً في مجتمع. فالإنسان لا يُحبُّ محبوبته إلا باعتباره فرداً مستقلًا. والمجتمعات الطوباوية لا تعرف مثل هذه المشاعر ولا تتسامح معها.

٢٠٩٢ بتدقيق النظر نجد أنَّ الفنَّان لا سَلَفَ له ولا خَلَف. وإذا كان هناك أيُّ تعليم للفنَّان، فإنَّه يكون محصوراً في نطاق المهارة/ التكنيك وليس الفنِّ. وحيثما تتوقَّف المهارة يبدأ الفنُّ، ولا يكون هناك المزيد من التعلُّم. وبمجرَّد عبوره لهذا الخطِّ الفاصل، يواصل الفنَّان السير بنفسه.

٢٠٩٧ لا تنتمي الفلسفة التي تسري في أعمال دوستويفسكي إلى العلم، وإنَّما إلى الدين. وما تُعاني منه شخصية إيفان كرامازوف من نفاق وكوابيس ليس نتيجة لمشكلات نفسية، وإنَّما نتيجة لمعضلات أخلاقية؛ ومن ثمَّ فهي لا تدخل في إطار قضايا علم النفس، ولكن في إطار القضايا الأخلاقية، أي القضايا الدينية الأخلاقية.

٢٠٩٩ ثمَة مفارقة أخرى تتعلَّق بتناقضات كانط(*) فهناك التناقض الذي يتكوّن من: القضية: العالم مُتَناه (له بداية ونهاية من حيث الزمان والمكان)، والإنسان خالد، ونقيض القضية: العالم لا مُتَناه (ليس له بداية ولا نهاية من حيث الزمان والمكان)، والإنسان فانٍ. يبدو الأمر كما لو أنَّ تناهي العالم هو شرط الخلود الإنساني.

٢١٠٢ إذا قرأنا شرحًا للوحة ما أو مراجعة نقدية لها، سنلاحظ مفارقة غريبة: شرح مُعقَّد وعقلاني للغاية في مقابل بساطة اللوحة بل وسذاجتها أحيانًا. ولذلك من الأفضل أن تشاهد اللوحة وتحاول تفسيرها بنفسك، لأنَّ التفسيرات شديدة التعقيد لن تُفيد كثيراً. لا يمكن تفسير أي لوحة، والطريقة الوحيدة لفهم لوحة ما -هذا إذا كان من الممكن أن نفهمها- هي أن نُشاهدها.

(*) حول تناقضات كانط، انظر هامش الفقرة ٢٠٩٨ في الفصل الثاني. (المترجم)

٢١٠٣ إنَّ الرغبة الدائمة المُمتدَّة في نبذ كلِّ ما هو غير ضروري في اللوحة، وطموحنا للوصول إلى الروح ذاتها، إلى الخطِّ الضروري فقط، إلى الشكل الأساسي الذي بدونه لا تكون اللوحة، إنَّ هذا كلَّه من شأنه أن يُوصلنا إلى النقطة التي عندها لن يتبقَّى من اللوحة سوى القماشة البيضاء. هذا الطموح في «الرسم الخالص» ينتهي بنا إلى نفي العمل. يتلاشى العمل في نهاية الأمر، ولن يبقى سوى هذا الطموح. لن يكون هناك أيُّ حدث، بل التجربة فقط. تتلاشى الخطوط والألوان وحركة اليد، ولا يبقى سوى الحركة التي كانت في روح الفنَّان، وينتهي العمل الفنِّي إلى نقطة إلهام.

٢١١٢ لا تعرف الثقافةُ سوى طرح الأسئلة. يظلُّ عدد الأسئلة يتراكم حتى تتكوَّن منها المعضلة الكبرى؛ معضلة الحياة الإنسانية والتاريخ. وفي الوقت ذاته، يتناقص عدد الإجابات. وبقدر ما تتزايد الأسئلة، تقلّ الإجابات؛ وهذا هو «تقدُّم» الثقافة الإنسانية.

٢١١٩ ثمَّة تماثل بين الميتافيزيقا والرياضيات. أمَّا من ناحية المنهج، فتظلُّ الميتافيزيقا كالفيزياء، وهنا يكمن كلٌّ من موطن قوة الميتافيزيقا وموطن ضعفها. يقول شعار الجزء الأول من كتاب برانيسلاف بيترونيڤيتش «مبادئ الميتافيزيقا» (المنشور في هيدلبرج عام ١٩٠٤م): «إنَّ الأفكار الرياضية الدقيقة هي مفتاح حلِّ لغز العالم». هذه الميتافيزيقا من الممكن أن تكون علم اللاهوت أيضًا -فهذان العلمان مترابطان- إلا أنَّهما لن يكون بمقدورهما أبدًا تقديم أي إجابة نهائية لما يُطلق عليها «الأسئلة الكبرى».

٢١٢٠ يقف كلٌّ من توماس هوبز وچان چاك روسّو على طرفي نقيض بخصوص موقفهما من الطبيعة البشرية؛ يرى هوبز أنَّ الإنسان شرِّير بطبيعته، بينما يرى روسّو أنَّ الإنسان خير بطبيعته.

٢١٣٧ هتلر هو دليلٌ واضح على كيف يمكن توظيف أدوات الحضارة، مثل الإنجازات العلمية والانضباط والتخطيط والتنظيم وما إلى ذلك، كيف يمكن توظيفها بكفاءة ضد كلِّ ما له علاقة بالثقافة.

٢١٣٨ يعتقد أورويل أنَّ كتاب ألدوس هكسلي «عالم جديد شجاع» هو محاكاة

ساخرة لطوبيا هربرت چورج ويلز Wells . G . H إنَّه هجوم على الرؤية العقلانية الساعية وراء اللذة، وهي الرؤية التي طوَّرها ويلز في أعماله.

٢١٦٠ نقيض فنِّ العمارة هو مجرَّد التسقيف؛ أي بناء «آلة للسكن».

٢١٦٩ اكتشف نيوتن أنَّ الجاذبية هي القانون الأساسي (أو القوة الأساسية) الذي يحكم العالم المادي. فما القانون الأساسي الذي يحكم العالم الأخلاقي؟ أعتقد أنَّه قانون الحرية. فالحرية في العالم الأخلاقي كالجاذبية في العالم المادي.

٢١٧٧ هل من الممكن مناقشة أخلاقيات العلم بعيداً عن الدين؟ وجَّهت «اللجنة الفرنسية لأخلاقيات العلم» مؤخَّراً نداءً مُفاجئًا لعلم البيولوچيا بأن يتوقَّف عن التجارب غير المسئولة على الأجنَّة البشرية، لأنَّ العمل البحثي في هذا المجال «وصل إلى مفترق طُرُق حيث من الممكن أن ينحرف عن مساره ويُعرِّض الإرث الجيني البشري بأسره للخطر، بما في ذلك المستقبل البشري ذاته». هل يمكن أن يخضع العلم لحكم الأخلاق التي لا يعترف هو بصفتها العلمية؟ ومن ناحية أخرى، لن تستطيع الأخلاق القائمة على أسس علمية أن تحظر مثل هذه التجارب، وهكذا تنغلق الدائرة. إنَّ العالم بلا دين سيؤدِّي لا محالة دور الشيطان.

٢١٩٩ تُركِّز الأخلاق المسيحية على المحبة، بينما تُركِّز الأخلاق الإسلامية على العمل الصالح. يقول الإنجيل: «أحبّوا بعضكم بعضًا»، بينما يقول القرآن: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾. الحالة الأولى عاطفة، والحالة الثانية عمل. يذكر القرآن عمل الصالحات بقدر ما يتحدَّث الإنجيل عن المحبة.

٢٢١٤ يعرف كلٌّ من المسيحية والإسلام الطبيعةَ الثنائيةَ للعالم ويُدرك ذلك جيداً. ولكن إذا كانت المسيحية هي إدراك حاد للتناقض الموجود في العالم، فإنَّ الإسلام منهج لحلِّ هذا التناقض.

٢٢٢٩ كيف كانت أخلاق الإنسان غير المُتحضِّر كما وُصِفَتْ في شعر الشعوب غير المُتحضِّرة؟ نجد أنَّ شخصيات هوميروس، وكذلك شخصيات الشعر العربي الجاهلي،

كانوا يتَّصفون باللين مع أصدقائهم، والشدة مع أعدائهم، النُّبْل في حالة السلام، والبأس في الحرب، إكرام ابن السبيل، السخاء مع الفقراء والأيتام، برُّ الوالدين وتوقير الكبار، ومع ذلك كانوا يتَّسمون بالتمرُّد والجموح. وهذه هي السماَت التي نلتقيها في قصائد وحكايات الشعوب القديمة غير المتحضِّرة في العالم بأسره.

٢٢٣٠ كان عرب الجاهلية، والذين كانوا يميلون إلى التضحية وإلى الاستمتاع بالحياة على حدٍّ سواء كما يظهر من الشعر الجاهلي، كانوا مُعَدِّين سلفًا للإسلام من خلال هذا الإدراك والوعي الأخلاقي.

٢٢٣١ ينبغي أن تكون الصحوة الروحية في أمريكا اللاتينية، والتي تتَّضح من ظهور عدد من كبار الأسماء في الأدب، ينبغي أن تكون إشارة لدخول هذه القارَّة إلى المشهد الاجتماعي والسياسي. ومن الممكن أن تُقدِّم أمريكا اللاتينية مثالاً جيدًا لدراسة العلاقة بين الروح والقوة.

٢٢٥١ حول العلاقة بين الروح والجسد. سيحاول مجموعة من اليابانيين المُصابين بالسرطان الصعود إلى قمَّة جبل مون بلون Mont Blanc. سيقود المجموعةَ چيرو إيتام، وهو طبيب ياباني من أوساكا يريد أن يُثبت بهذه التجربة أنَّه يمكن قهر مرض السرطان من خلال إرادة الحياة ووضع أهداف جديدة للحياة. كانت المجموعة نفسها قد تسلَّقت قمَّة جبل توچي في ١٩٨٥م، وهي أعلى قمَّة جبل في اليابان. ظهرت هذه المجموعة في ١٩٨٤م، وتُعرف باسم «جمعية علاج السرطان بأهداف الحياة» (نقلاً عن صحيفة «الكفاح»، بلغراد، ٥ يناير ١٩٨٧م).

٢٢٦١ يُبدي أمبرتو إيكو في روايته «اسم الوردة» ملحوظة مُثيرة؛ وهي أنَّ المسيح لم يبتسم قط. فنحن لا نرى المسيح يبستم في أي شهادة وردت عنه أو في أيٍّ من التأويلات التي لا حصر لها لملامح وجهه.

٢٢٧٨ الطبيعة صيدلية كبرى.

٢٢٧٩ ثمَّة حقيقة لوحظت كثيرًا، ولكنَّها لم تُدرَس ولم تُفحَص إلا قليلاً: وهي أنَّ هناك نوعًا من الإيمان بأهمية جماليات الحياة اليومية القائمة على الاتجاه الحسي. فقد

اكتسبت النزعة الجمالية عبر هذا الاتجاه الحسي نوعًا من المصداقية والواقعية المميَّزة، وهو ما جعلها تختلف عن النزعة الجمالية الغربية. لا شكَّ أنَّ هذا النوع من الإدراك الجمالي يرتبط بمبادئ الإسلام، وخصوصًا بحقيقة أنَّ الإسلام لا ينبذ الجانب الحِّسي في الحياة.

٢٢٩٦ لا تخلو النزعة العدمية من بعض الروحانية. ففي رواية «اللا مُسَمَّى» The Unnamable لصمويل بيكيت(*)، لم يعد هناك وجود للعالم ولا للإنسان، ما يوجد هو روح الإنسان فقط، بشكل مُطلَق وبطريقة غير مفهومة. وكلُّ ما عداها فهو عدم.

٢٣٠٢ كانت الجزيرة العربية بين القرنين الخامس والسابع الميلاديين، بصحرائها وأوضاعها المعيشية القاسية، مُمَهَّدة سلفًا لأن تستقبل «علم السماء والأرض». وتؤكِّد دراسة الشعر الجاهلي هذا الأمر. حيث كان يسود فيها مُناخٌ روحي قريبٌ للغاية من الإسلام، وهو المُناخ الذي سيجد في الإسلام اكتماله وتأصيله العقدي. يُصوِّر الشعر الجاهلي لدى البدو أخلاقَ شعب حكيم، حيث يصف القوة والرجولة والكرم وحماية الضعيف والتكافل والنضال والشجاعة واحترام المرأة وأخلاق العشيرة والفروسية والشرف، إلخ. وقد كتب فرانشسكو غابرييلي(**)، وهو صاحب مؤلَّفات مهمَّة عن الأدب العربي، كتب يصف أخلاق عرب الجاهلية بأنَّها «ذات وجهين: الفروسية والقسوة». وبشكل عام، كان شعراء البدو مقاتلين كذلك. وفي البادية العربية، شيَّدت الطبيعةُ نموذجًا إنسانيًا كان مُؤهلاً، بشمائله الجسدية والروحية، لتلقِّي الرسالة الجديدة. وقد اكتشف في مبادئ القرآن كلَّ الأسباب والتفسيرات لما كان عليه بالفعل. ولذلك، فإنَّ كلَّ ما حدث بعد ظهور الإسلام مباشرة، هذا الانتشار الروحي السياسي العسكري منقطع

(*) صمويل بيكيت (١٩٠٦-١٩٨٩م) روائي وكاتب مسرحي وشاعر أيرلندي، حصل على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٦٩م. وهو أحد أشهر كُتَّاب الحركة التجريبية في الأدب في القرن العشرين، وأحد أشهر رموز مسرح العبث وحركة الحداثة. تغلب على أعماله النزعة السوداوية والكآبة والعدمية والتشاؤم حول وضع الإنسان ومصيره. عمله الأشهر هو مسرحية «في انتظار غودو»، وكذلك ثلاثيته الروائية: «مُولُوي»، «مالون يموت» و«اللا مُسَمَّى». (المترجم)

(**) فرانشسكو غابرييلي (١٩٠٤ - ١٩٩٦م) مستعرب ومستشرق إيطالي، عمل أستاذًا للغة العربية وآدابها بجامعة روما، له الكثير من الكتابات عن الأدب العربي وتاريخه، مثل: «تاريخ الأدب العربي» و«النهضة العربية» و«الإسلام في التاريخ». (المترجم)

النظير، يُثبت أنَّ من اعتنق الإسلام وحمل لواءه كان شعبًا رشيدًا بشكل استثنائي، وأنَّ الدين الجديد وجد «صورته» في هذا النموذج الإنساني الموجود بالفعل. وإذا حاولنا التعرُّف على الإنسان الذي ينبثق من بين أبيات الشعر الجاهلي، ينبثق بغموض تارة وبوضوح تارة أخرى، الإنسان الذي احتفى به هذا الشعر ورفع ذكره، سنكتشف أنَّه كان دائمًا نموذجًا إنسانيًا شبيهًا للغاية بالنموذج الذي ينبعث من بين آيات القرآن الكريم. إنَّه ليس صوفيًا هنديًا مستغرقًا في التفكير، ولا ناسكًا مسيحيًا نحيلاً، ولا جنديًا رومانيًا وحشيًا، وإنَّما كان فارسًا شجاعًا من هؤلاء الذين وصفهم القرآن بأنَّهم ﴿ **أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾.

٢٣٠٩ عاد الرسَّام الشهير ريناتو غوتوسو Renato Guttuso إلى المسيحيةَ قبل وفاته (رحل في ١٩٨٧م)، وكان معروفًا بأنَّه مُثقَّف يساري مناضل ومُلتزم وعضو في الحزب الشيوعي. وقد وصفت الصحافة هذا التحوُّل بأنَّه صادم. وإذا أخذنا في اعتبارنا كلَّ ما نعرفه عن الفنِّ والرسم، يُصبح السؤال هو ما إذا كان التحوُّل الديني لأحد الفنَّانين يأتي كصدمة أم أنَّ الرسَّام الشهير تمكَّن ببساطة من الوصول إلى سكنه بعد رحلة من الضياع.

٢٣٢٥ ينتمي التنسُّك بطبيعته إلى المسيحية حتى عندما يقوم به أحد المسلمين. وهذا الأمر ينطبق على ديوان الشاعر الشهير الناسك الوَرِع أبي العتاهية؛ حيث يتعرَّف المسيحيون في شعره على نموذجهم في التديُّن ورؤيتهم للإنسان ومصيره على الأرض.

٢٣٣٧ حتى في الجانب الروحي من الحياة يوجد تناقضات وتباينات كثيرة. فعلى سبيل المثال: هناك الحكمة الشعبية من ناحية، ومن ناحية أخرى هناك النزعة المدرسية المتعجرفة غير المفهومة، أي براءة البداية في مقابل انحطاط الثقافة. عالم الحب والكراهية والثأر، أي عالم الواقع الحي بأسره، في مقابل التكلُّف والأناقة. العظمة البطولية في مقابل الشفقة الهزيلة الباهتة. هذا الحشد من الشخصيات الواقعية للغاية والمُفعمة بالحياة والكاريكاتورية في الغالب والمنتشرة في الحياة اليومية، في مقابل الوجوه الباهتة الهزيلة ذات الملامح النبيلة والمألوفة. هذا الخليط من المظاهر الخلابة الثرية المُشعَثة إلى حدٍّ ما في مقابل المظاهر الكلاسيكية الباردة بعيدة المنال. ويدخل في هذا أيضًا شعر الأسواق والمهرجانات في مقابل شعر القصور الذي لا علاقة له بالحياة الواقعية، إلخ.

٢٣٤٤ لو كان الفنُّ مجرَّد انعكاس للظروف الاجتماعية الاقتصادية والتاريخية، كما يقول الماركسيون، لما وجدنا إجابة للسؤال عن السبب في أنَّنا لا نزال نرى الشعر اليوناني مُثيرًا تمامًا كما كان يراه عامَّة الناس في أثينا القديمة، رغم أنَّ الظروف الاجتماعية والحياتية قد تغيَّرت تمامًا. نعم، لقد تغيَّرت الظروف، إلا أنَّ الإنسان لا يزال هو هو؛ والفنُّ ينتمي إلى الإنسان، لا إلى التاريخ.

٢٣٧٥ يعتمد كون الفعل (السلوك) غريزيًا أم عقليًا على درجة وعي الفاعل بما يفعله. فالسلوك المباشر، الصادر دون غاية مرجوَّة منه، هو سلوك غريزي. وقد تكون نتيجة السلوك الغريزي أفضل من نتيجة السلوك الواعي (والأمر يكون هكذا في الغالب)، وحده السلوك الذي تسبقه فكرة الغاية (أو صورتها) هو السلوك العقلي. وبناءً على هذا المعيار، هل يمكن تصنيف بعض السلوكيات الصادرة عن الحيوانات على أنَّها سلوكيات عقلية؟ يؤكِّد عدد من علماء الاجتماع وعلماء الطيور والأنثروبولوجيين أنَّ مُعظم الحيوانات يُفكِّر. وهذا دونالد غريفن Donald Griffin، أحد علماء الحيوان والمُحاضر بجامعة روكفلر في نيويورك، جمع عددًا كبيرًا من الشواهد التي تدعم هذه الفرضية ونشرها في كتابه «الحيوان المُفكِّر». وكذلك نجد أنَّ كريستوف بويش Christophe Boesch (وهو أحد الخبراء في حقل دراسة الثدييات العليا)، والذي قضى سنوات عديدة بصحبة مجموعة من قردة الشمبانزي في ساحل العاج، خلُص في بحثه إلى استنتاج أنَّ قرَدَة الشمبانزي لديها ذكاء طفل عمره تسع سنوات. وكانت الحيوانات التي رصدها تنتقي صخورًا ذات أحجام مختلفة لتكسر ثمار الجوز التي تختلف في الحجم ودرجة الصلابة، وكذلك كانت تنقل هذه المعرفة التي اكتسبتها إلى الجيل التالي.

٢٣٧٧ جمع أسين بلاثيوس(*) مجموعة مختارة من كتابات أبي حامد الغزالي، أحد أعظم علماء الإسلام في الحقبة الكلاسيكية، وطبعها تحت عنوان «روحانية الغزالي ودلالتها

(*) أسين بلاثيوس (١٨٧١ - ١٩٤٤م) مستشرق ومستعرب إسباني، اهتمَّ بالغزالي وابن عربي وابن حزم، وكذلك بتأثير الإسلام على أوروبا والمسيحية. عُرف بكتابه عن ابن عربي الذي أسماه «الإسلام مُتنصِّرًا؛ دراسة للتصوف من خلال أعمال ابن عربي المرسي» El Islam cristianizado; Estudio del sufismo a través de las obras de Aben?rabi de Murcia وهو الكتاب الذي ترجمه عبدالرحمن بدوي إلى العربية تحت عنوان «ابن عربي؛ حياته ومذهبه»، وكذلك أصدر كتابًا ضخمًا من أربعة مُجلَّدات=

المسيحية» La Espiritualidad de Algazel y su sentido Cristiano . ويُشير بعض شُرَّاح الغزالي المعاصرين -ولأسباب وجيهة في رأيي- إلى نوع من الروحانية المسيحية في أعمال الغزالي (مثلاً، فرانشسكو غابرييلي، تاريخ الأدب العربي، ص ٢٢٥). عندما يُستبعَد من الإسلام كلُّ ما هو جديد ومُميَّز، أي اهتمامه بهذا العالم، عندما نصل إلى لُبِّه وأساسه، عندها لن يكون هناك سوى «دين المسيح». وهذا هو ما ورد في القرآن الكريم من ﴿ كَلمة سَوَاءٍ﴾. وبطبيعة الحال، ليس هناك تطابق في القضايا العقدية، وإنَّما الأمر يتعلَّق فقط بروح الدين. لقد أحرق المتعصبون كتاب الغزالي «إحياء علوم الدين» في أحد ميادين طليطلة، لأنَّهم كانوا يرون أنَّه ليس كتابًا إسلاميًا بدرجة كافية. يرى غابرييلي أنَّ المسلمين تربَّوا روحيًا على كُتُب الغزالي في القرون السبعة التالية عليه. وفي رأيي، هذه التربية صرفت المسلمين عن القَضايا الواقعية اليومية الاجتماعية، بما فيها العلم، وحوَّلت القرون السبعة التالية إلى «العصور الوسطى» للإسلام.

٢٣٨١ يُمكننا أن نُفكِّر في البشرية بالطريقة التي تحلو لنا، ولكنَّنا سنكون أقرب إلى الحقيقة إذا لم نرفعها إلى درجة المثالية. من المؤكَّد أن تصوُّرات ڤولتير عن الجنس البشري أكثر واقعية من تصوُّرات روسّو. ولكن من الصحيح أيضًا أنَّ الجنس البشري جنسٌ يُعجَب كثيرًا بما ليس فيه بالفعل، أي يُعجَب بما ينبغي أن يكون عليه. وهل يسعني إلا أن أُقدِّر أخلاقَ جنس رفعوا رجالاً منهم إلى مصافِّ العظماء رغم أنَّهم خسروا معاركهم؟ البطل ينتمي إلى عائلة فقيرة، شجاع ونبيل، يُقاتل بلا أمل ويموت في صراع غير متكافئ من أجل قضية عادلة؛ هذه حبكة مُبسَّطة لآلاف القصص والقصائد والملاحم التي أبدعها البشر في كلِّ مكان وفي كلِّ زمان وتناقلتها الأجيال، والتي ألهبت مشاعرهم وأثارتهم إلى حدٍّ كبير. هذه إحدى الخصائص النموذجية للطبيعة البشرية، وهي الحقيقة التي تنطوي على إجابة جزئية للسؤال عن الإنسان؛ من يكون وماذا يكون هذا الكائن الذي نُطلق عليه -بازدراء أو بفخر- إنسان؟

= عن الغزالي، وهو الكتاب الذي يُشير إليه بيجوڤيتش أعلاه، إلا أنَّه كان يُغالي كثيرًا في استنتاجاته وادّعاءاته. وللمزيد عن حياته وأعماله انظر. عبدالرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣م، ص ١٢١-١٢٦ (المترجم)

٢٤٠٧ وصف شخصٌ ما الوخز بالإبر الصينية بأنَّه «طعنة في قلب منطق الرجل الغربي».

٢٤١٨ كتب بندتّو كروتشه(*) Benedetto Croce عن الطبيعة «الكونية الشاملة» للحدس الجمالي.

٢٤٤٨ ما الغاية من التعليم: شخصية إنسانية راقية تمامًا أم حيوان صناعي عامل على درجة عالية من الاحتراف والتخصُّص؟

٢٤٥٠ (في «قائمة المفاهيم المتضادة»): كان لا بدَّ لمبدأ «محبة كلِّ ما هو حي» أن يجد نقيضه؛ الحقد الطبقي.

٢٤٦٤ كانت «دولة المدينة» في اليونان القديمة مجتمعًا تجمعه ديانة مشتركة بدلاً من أرض مشتركة. لقد كانت مُحدَّدة روحيًا منذ بدايتها.

٢٤٨١ إنَّ فكرة القانون، وكذلك «المملكة الأرضية» التي ينبغي أن يُنظِّمها القانون، فكرة غريبة على المسيحية. كما أنَّ محاولة تنظيم المملكة الأرضية، من وجهة نظر المسيحية، ليست محاولة عقيمًا فحسب، وإنَّما أيضًا تُمثِّل إحدى الخبائث التي ينبغي استئصالها.

٢٤٨٢ حاول لاكتانتيوس ٢٥٠- ٣٢٥م (Lactantius)، والذي يُطلَق عليه «شيشرون المسيحية»، حاول تفسير القانون الطبيعي للرواقيين من خلال الوصايا العشر.

٢٤٨٥ كان القديس أغسطين هو من عرض لموقف المسيحية من الدولة بشكل متَّسق إلى حد كبير. فهو يرى أنَّ «الدولة الزمنية» نشأت من الخطيئة، أي من الفعل والكلمة والرغبة الإنسانية، وهي الأشياء التي تتناقض مع «القوانين الخالدة». والدولة الزمنية هي تجمُّع كبير للمخطئين (magnum latrocinium)، كما أنَّها قامت على قتل الأخ لأخيه؛ أي فكرة أنَّ رومولوس كرَّر جريمة قتل قابيل لأخيه هابيل.

(*) بندتّو كروتشه (١٨٦٦-١٩٥٢م) فيلسوف إيطالي، ينتمي إلى المثالية المطلقة، كتب في الفلسفة والتاريخ ومناهج البحث التاريخي وعلم الجمال. (المترجم)

٢٥٠٣ في «قائمة المفاهيم المتضادة»: نجد «قَسم القذارة» كمقابل لتعبير «الحضارة المُعقَّمة» في رواية «عالم جديد شجاع». وفي المنتصف سيكون هناك الوضوء الإسلامي باعتباره نظافة ذات طبيعة روحية.

٢٥١٣ لا يمكن تأسيس القانون على العقيدة المسيحية فقط، فالقانون أضيق بكثير من أن يتّسع للمحبة المسيحية. فقد رفض المسيح أن يكون مُشرِّعًا أو قاضيًا.

٢٥١٤ لا تعترف الطبيعة بما ينبغي أن يكون، وإنَّما بما هو كائن. يقول مارتن لوثر: «إنَّ الأمر لا يعني أنَّ خمسة زائد ثلاثة ينبغي أن تكون ثمانية، لأنَّها هي بذاتها ثمانية».

٢٥٣١ عرَّف باومجارتن(*) العلمَ بأنَّه «استنباط اليقيني من اليقيني». ويقول تاديتش: «قامت الفلسفة الديكارتية بتطوير كامل لدعوة فرانسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦م) إلى ضرورة نبذ جميع «الأوهام»(**)، باعتبارها خداعًا يمنع عقلنا من الوصول إلى الحقيقة عن طريق العلم السببي» (تاديتش، فلسفة القانون، زاغرب، ١٩٨٣م، ص ٧٧).

٢٥٣٥ يؤكِّد هوبز أنَّ وجود القوانين لا يرجع لكونها عادلة ومعقولة، وإنَّما يرجع إلى قوة السلطات التي تفرض هذه القوانين. وهذا يُشبه كثيرًا تعريف لينين فيما بعد للقانون باعتباره «إرادة الطبقة الحاكمة». كما طالب هوبز بالتخلُّص من «سموم» الفلسفة القديمة من المدارس العليا. هذه «السموم» كانت تُقلق هوبز وتزعجه.

(*) ألكسندر باومجارتن (١٧١٤-١٧٦٢م) فيلسوف ألماني، تركَّزت فلسفته حول علم الجمال وفلسفة الفن، وهو أول من صاغ مصطلح علم الجمال (الاستطيقا aesthetics). (المترجم)

(**) يرى فرنسيس بيكون أنَّ هناك أوهامًا تتربَّص بالعقل وتمنعه من إدراك الحقيقة والصواب، وهذه الأوهام يتمسَّك العقل بها ويتشبَّث حتى تصبح بمثابة الأصنام والأوثان، ويُقسِّمها إلى أربعة أقسام:

١- أوهام الجنس والقبيلة؛ وهي التي تتعلَّق بالتسرُّع والتعميم والتعصُّب للرأي وعدم النزاهة.

٢- أوهام الكهف؛ وهي التي تتعلَّق بالنشأة والتربية والثقافة والبيئة وتأثيراتها فيتصوَّر الإنسان ما هو خاص ببيئته ومحيطه باعتباره حقائق مطلقة.

٣- أوهام المسرح؛ وهي التي تتعلَّق بتأثير كبار المفكرين والفلاسفة والأعلام في عقل الإنسان، فيصبح العقل بمثابة مسرح يعرض عليه السابقون آراءهم وأفكارهم المختلفة والمتضاربة.

٤- أوهام السوق؛ وهي التي تتعلَّق بالخلط اللغوي وسوء استعمال اللغة وتوظيفها والانبهار بالألفاظ، كما يحدث في الأسواق من ضجيج وخلط وتلبيس. (المترجم)

٢٥٤٥ دعا باسكال (بليز باسكال، ١٦٢٣-١٦٦٢م) إلى الجمع بين القوة والعدالة، لكي يكون القوي عادلاً، والعادل قويًا. وبالعودة إلى التاريخ (الواقع)، نجد أنَّ النتيجة تنطوي على مفارقة، يقول باسكال: «حيث إنَّه لم يستطع العادل أن يكون قويًا، فإنَّ ما حدث هو أنَّ ما كان قويًا أصبح عادلاً» (بليز باسكال، أفكار). وتعليقي: كما أنَّ العدالة لم تتمكَّن من حيازة القوة، فكذلك القوة لم ترغب في حيازة العدالة، وإنَّما أعلنت نفسها ببساطة بأنَّها هي العدالة.

٢٥٥٦ تسود الحركة الآلية المُطلقة في الطبيعة، ولكن تتلاشى هذه السببية الواضحة فيما يتعلَّق بالأحياء حتى يبدو أنَّ الكائن الحي يحمل في ذاته علَّةَ بقائه التي تُمثِّل قانون العلة والمعلول الخاص به. لا توجد في الحياة هذه العلاقة الواضِحة بين العلة والمعلول، وهي العلاقة الموجودة في الطبيعة غير العضوية، وكذلك لا يوجد نظام واضح، وذلك لأنَّ العلة والمعلول في الكائن الحي يمتزجان ويتداخلان.

٢٥٥٨ يَعتبر هيجل أنَّ حرية الفرد بدأت في النمو مع مجيء المسيحية، لأنَّه يرى أنَّ «الفرد في ذاته أصبح ذا قيمة مُطلقة» (موسوعة العلوم الفلسفية). ووفقًا لهيجل، فالقاعدة القانونية الأساسية تقول: «كن شخصية مستقلَّة، واحترم الآخرين كأشخاص مستقلِّين» (أصول فلسفة الحق).

٢٥٦١ يرى هيجل أنَّ «العقوبة حقٌّ إنساني للمجرم» (هيجل، أصول فلسفة الحق). وذلك لأنَّ العقوبة (كنوع من الجزاء) هي نتيجة للحرية؛ فمن خلال العقوبة يُصبح المجرم إنسانًا ويُرسِّخ وجوده كإنسان.

٢٥٧٩ يرى كانط أنَّ القاعدة الأخلاقية التي يُسميها «الواجب المطلق»(*) مستقلَّة بذاتها، أي إنَّها قاعدة أخلاقية قَبْلية. وهي مُلزمة في ذاتها، وليست مُشتَقَّة من أي مُسلَّمة أخرى أو أي تجربة، بل على العكس، تُشتَقُّ منها المواقف الأخلاقية الأخرى.

(*) تحدَّث كانط في كتابه «تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق» عن مبدأ الواجب المُطلق Categorical imperative، أي عن المبدأ الذي يمكن أن تتأسَّس عليه الأخلاق كلُّها، وهناك عدَّة صياغات لهذا المبدأ في الكتاب، منها الصياغة التي تقول: «افعل بحيث تُعامل الإنسانية دائمًا، سواء في شخصك أو في شخص أي إنسان آخر سواك، على أنَّها غاية في الوقت نفسه، وليس أبدًا على أنَّها مجرَّد وسيلة»، وكذلك الصياغة التي تقول: «افعل كما لو كان على مُسلَّمتك أن تصلح في الوقت نفسه لتكون قانونًا عامًّا». (المترجم)

٢٥٨٠ فيما يتعلَّق بالقانون، ثمَّة نقطتان واضحتان: (١) ينتفي وجود القانون عندما يُختَزَل في قوَّة مُجرَّدة. (٢) ينتفي وجود القانون عندما يُختَزَل في فكرة العدالة المُجرَّدة. صحيح أنَّه لا يوجد قانون بدون واقع القوة وفكرة العدالة، إلا أنَّ أيًّا من هذين الطرفين (القطبين) لا ينطوي على أي قانون، وكلٌّ ما يتبقَّى منهما هو مقدِّماتهما الأساسية. هناك تجربة مثيرة (ومُعلِّمة) بخصوص هذا الأمر، وهي تجربة المُنظِّر القانوني الألماني رادبروخ Radbruch الذي تبنَّى نظريته حول الوضعية القانونية والنسبية القانونية حتى الحرب العالمية الثانية فقط. فقد كتب رادبروخ قبل أي تجارب مع النازيين يقول: «هؤلاء القادرون على فرض تنفيذ القانون يُثبتون أنَّهم مؤهَّلون لفرضه بالقوة»؛ وكذلك يقول هانز كيلسن Hans Kelsen، الذي كان يُشارك رادبروخ الآراء ذاتها وكان أشهر مؤيِّد للنظرية الوضعية، يقول: «من الحماقة أن تقول إنَّ الحكم الاستبدادي لا ينطوي على أي درجة من الشرعية. فأن تُنكر صفته الشرعية ليس إلا نوعًا من السذاجة كما في القانون الطبيعي. فما يُفهَم باعتباره الحكم المُطلَق للفرد ليس إلا اختيارًا (إمكانًا) للحاكم الفرد بأن يُصدر القرارات وفقًا لإرادته الخاصة. وأن يُلغي أو يُعدِّل قوانينه، العام منها والخاص، في أي وقت يريد» (هانز كيلسن، النظرية العامة للدولة، ص ٣٣٥-٣٣٦). وبعد أن عايش رادبروخ التشريع النازي والتجربة النازية، عَدَلَ عن رأيه بشكل جذري، وكتب السطور التالية في إنكار كامل للنظرية الوضعية في التشريع: «ثمَّة مبادئ أقوى من أي مرسوم قانوني، ومن ثمَّ فإنَّ أي تشريع يتعارض مع هذه المبادئ ليس له أي صفة شرعية. تنتمي هذه المبادئ إلى دائرة القانون الطبيعي. من الممكن فرض الامتثال الدقيق (الإكراه) عن طريق القوة، إلا أنَّه لا يمكن فرض الأدب والاستقامة بالقوة» (رادبروخ، فلسفة القانون).

٢٥٨٢ يستعصي الجانب المثالي من القانون، أي فكرة العدالة، على كلِّ محاولة لتعريفه. وأعتقد أنَّ شرييه Schreir كان يقصد هذا عندما قال إنَّ تعريف القانون «أمر فوق القانون بكلِّ ما تحمله الكلمة من معنى».

٢٥٨٦ تحدَّث هيدجر أيضًا عن «الإنسان المُلقى به في العالم»، أي حقيقة أنَّ «الإلقاء»

هو الطريقة التي جاء بها الإنسان إلى الوجود (هيدجر، الوجود والزمان، ص ٨٨). فالإنسان مُلقى به إلى (الوجود في العالم).

٢٥٨٧ كيف يتأتّى أن يكون داروين ومايكل أنجلو (أي العلم والدين) كليهما «على حق»، رغم أنَّ أقوالهما حول أصل الإنسان متباعدة تمامًا؟ إنَّ هذا أمر وارد لأنَّ داروين ومايكل أنجلو يتحدَّثان عن شيئين مختلفين. وبتدقيق النظر نجد أنَّه لا داروين ولا مايكل أنجلو يتحدَّث عن الإنسان. يتحدَّث مايكل أنجلو عن روح الإنسان (فهو «يرسم» روح الإنسان)، بينما يتحدَّث داروين عن «حامل» تلك الروح. ومن الممكن أن نقول إنَّها رواية حول جانبين مختلفين من الإنسان. والإنسان هو المُركَّب الثالث، المُركَّب المتناقض. هذا «الخلق» المتناقض فوق إدراكنا، ولا يمكن لغير الله أن يخلق شيئًا كهذا. والتاريخ اللاحق كلُّه هو مجرَّد تجلٍّ لهذين الجانبين من الوجود الإنساني، صورتان هائلتان تتجلَّيان عبر الزمان على هيئة الثقافة والحضارة. ومن ثمَّ، فالثقافة بأسرها ذات طابع يُشبه مايكل أنجلو، بينما الحضارة بأسرها ذات طابع دارويني. وهكذا يستمر التناقض بلا نهاية أو أمل يلوح في الأفق في تسويته أو حلّه بشكل نهائي في أي وقت.

٢٦٩٠ الثنائية منهج لا مفرَّ منه في إدراكنا للعالم. ورغم أنَّ الفلسفة الوجودية تُخبرنا بأنَّ «الوجود الذاتي وعالمه» (هيدجر) كلٌّ لا يتجزأ، وكذلك الأمر بالنسبة لـ «الأنا وما سوى الأنا» (كارل ياسبرز)، أي لا ينفصل أحدهما عن الآخر، رغم هذا فالفلسفة الوجودية تتحدَّث عن مقولات الثنائية، أي تتحدَّث عن «الوجود الذاتي والواقع الموضوعي». والمقولات واحدة، وما يختلف هو فقط إدراك العلاقات المتبادلة بينها. فهل يمكن التفكير في الإنسان بعيدًا عن هذه المقولات بأي حال من الأحوال؟

٢٦٩١ لاحظ شخصٌ ما أنَّ مُجمَل ما قدَّمه هيدجر حول فلسفة الوجود «يُنذر بأن يتحوَّل إلى مذهب صوفي حول الوجود». وكما نعلم، فما حدث في النهاية كان شيئًا شبيهًا بهذا.

٢٦٩٣ ستظلُّ فكرة وجود نموذج أعلى في القانون تُعاود الظهور من جديد مرارًا وتكرارًا، إمَّا في صورة فكرة القانون الطبيعي أو في صورة واجب أخلاقي فوق أي قانون

أو في صورة التعارض بين القانونية والمشروعية (فما هو قانوني ليس بالضرورة أن يكون مشروعًا). وقد بُذلت جهود مهمَّة بعد الحرب العالمية الثانية لإحياء القانون الطبيعي. ويعتقد البعض أنَّ هذا الأمر وقع تحت تأثير أفكار ماكس شيلر وهارتمان حول القيَم، أي تحت تأثير المذاهب الأخلاقية. أمَّا أنا شخصيًا فأعتقد أنَّ هذا التغيير يرجع بشكلٍ أساسي إلى التجربة الرهيبة التي عاشت أوروبا أهوالها تحت النازية والستالينية. فبعد كلِّ هذه الجرائم التي ارتُكبَت باسم المحاكم والقوانين، كيف لأحد أن يقول بعد هذا إنَّ كلَّ سلطة واقعية (السلطة التي لديها قوة سَنِّ القوانين وفرضها) كانت في الوقت ذاته سلطة شرعية؟ كذلك كان «قانونيًا» تمامًا أن يصل مُنظِّرو القانون النازيون والشيوعيون في النهاية إلى نفي للقانون يكاد يتطابق تقريبًا في الحالتين (ودائمًا ما يكون نفيًا وضعيًا). وفي العقيدة التشريعية النازية يواجهنا هذا الشعار: «القانون هو كلُّ ما في صالح الأمة»، وهو الشعار الذي يتطابق مع مبدأ لينين عن القانون باعتباره «السياسة التي تُفيد في انتصار الطبقة العاملة». وكما نعلم، فقد ظهر كلا المبدأين في الواقع على شكل استبداد لا مثيل له من قبَل السلطات (العصابات الحاكمة) على حساب كلٍّ من الأمة والطبقة الحاكمة.

٢٧٠٦ كانت كلُّ صور الطوبيا ذات طابع وحشي لا إنساني، منذ أفلاطون حتى ماركس.

٢٧١٢ عالم الأخلاق، أي عالم «ما ينبغي» في مقابل «عالم ما هو كائن».

٢٧١٤ سأشير هنا إلى مذهب مايهوفر Maihofer حول «طبيعة الأشياء»، والذي تدور الفكرة الأولى فيه حول «المصدر غير القانوني للقانون». وقد استبعد الوضعيون هذا الشرط للقانون باعتباره يأتي في مرتبة ثانية، أي يصدر عن شيء آخر أسمى من القانون، واختزلوه إلى مجرَّد تشريع، أي إلى واقعة، إلى قوة، أي إلى لا قانون. ولم تستطع جميع الدعاوى الرنَّانة حول القانون أن تُلغي هذه الفكرة القَبْلية للقانون، وقد عاودت هذه الفكرة الظهور من جديد باعتبارها الفكرة الجديدة-القديمة.

٢٧١٥ كرَّر سارتر مبدأ كانط عن الواجب المُطلَق بعد أكثر من مائة عام. يقول سارتر: «نحن لا نختار الشرَّ، وإنَّما نختار الخير دائمًا، ووحده ما هو خير للجميع يمكنه أن يكون

خيرًا لي» (سارتر، الوجودية مذهب إنساني). وقد وصف أوتو بولنو Otto Bollnow هذه الفكرة التي أوردناها من سارتر بأنَّها «الإعادة الوجودية لمبدأ الواجب المُطلَق». الأخلاق لا تاريخ لها، هناك فقط «عَوْدٌ أبدي».

٢٧١٦ هل يقوم القانون على العقل أم على الإرادة؟ كلُّ نظرية أصيلة في القانون تنظر إلى العقل، بدرجة ما، باعتباره جوهرها. والرأي المقابل الذي يتبنَّى الإرادة لن يكون إلا طريقًا مُختصَرًا لنفي القانون، سواء في النظرية أو في التطبيق، أي إزالة الفارق بين الحالة القانونية والحالة الفوضوية، ومن ثمَّ ترسيخ العنف نظريًا وعمليًا.

٢٧١٨ هل الفنُّ مجرَّد إعادة إنتاج لهذا «العالم الواقعي» أم إنَّه يبدع عالمًا نسبيًا آخر؟ يُعبِّر هذا السؤال عن جوهر الانقسام في فلسفة الفن.

٢٧١٩ يرى ماركس أنَّ القانون ما هو إلا «أسطورة حديثة»، تتكوَّن من العدالة والحرية والمساواة التي ينبغي أن تَعمَّ الواقع الاجتماعي الذي يَعجُّ بالفوضى والظلم والتفاوت وغياب الحرية. وفي مقال له بعنوان «الطبقة البورجوازية والثورة المضادة» كتب ماركس: «إنَّ منطلقاتنا ليست قانونية، بل ثورية».

٢٧٢٣ القضية الأساسية في فلسفة القانون هي قضية الشخصية الاعتبارية القانونية. وقد عبَّر هيجل عن هذا في عبارته الشهيرة: «كن شخصية مستقلَّة، واحترم الآخرين كأشخاص مستقلِّين». إنَّ الذات الاعتبارية تملك الوعي بالذات وحرية الإرادة، وهما الشرطان الأساسيان اللازمان لحيازة صفة «ذات اعتبارية». ويرى هيجل أنَّ فكرة القيمة المُطلقة للفرد هي «الأساس الذي قام عليه قانون الذات الاعتبارية، وهي الفكرة التي قدَّمتها المسيحية».

٢٨٥٣ (حول العقوبة و«الدفاع الاجتماعي»): ألغى القانون الجنائي السويدي مفهوم العقوبة ذاته، وحلَّ محلَّه تعبير «عاقبة الفعل المُرتكَب»، وذلك مجاراةً لنظرية «الدفاع الاجتماعي». قد يكون هذا الإجراء خاطئًا، إلا أنَّه مُتَّسق تمامًا مع هذه النظرية.

٢٨٥٥ ليس إمَّا العلم أو الدين، وإنَّما العلم والدين؛ هذا هو الإسلام.

٢٨٦٣ في قصائد ديوان «مراثي دوينو» يتحدَّث ريلكه إلى الملائكة مباشرة.

٢٩٠٢ لا يمكن القضاء على القانون. تحاول الدول الاشتراكية أن تفعَل هذا، ولكن دون جدوى. وهي تتحمَّله على مضض، إلا أنَّها تعمل جاهدة على دفعه بعيداً إلى الهامش.

٢١٢٣ إنَّ تحليل الثقافة الشعبية في العصور الوسطى سيُفضي بنا إلى فهم مُثير لمزج وتضافر الأفكار الدينية المسيحية مع الحاجات الدنيوية للجماهير. ويتَّضح هذا جيداً من خلال فكرة القداسة التي انتشرت في أرجاء العالم المسيحي في العصور الوسطى. يقول آرون غوريفيتش Aron Gurevich الذي درس ظواهر بعينها في العصور الوسطى: «تطوَّرت عبادة القدِّيسين في العصور الوسطى إلى درجة أنَّها اخذت خصائص العبادة الوثنية، وتقبَّلت الكنيسة هذا الأمر رغم أنَّه يتنافى مع تصوُّرات الكنيسة. كانت العلاقة بين الناس والقدِّيسين واضحة. ففي مقابل ما كان يُقدِّمه هؤلاء التابعون للأبرشيات من صلوات وقرابين، كانوا بدورهم يترقَّبون أن يتلقّوا الثواب كاملاً على الفور في صورة معجزة. والقدِّيس الذي لا يقوم بمعجزات لم يكن يتمتَّع بالشعبية أو الإجلال، والعكس صحيح، إذا لم يَفِ التابعون للأبرشيات بالتزاماتهم، كان القدِّيس يتحوَّل إلى منتقم لا يرحم. كما كان القدِّيسون المحلِّيون موجودين في كلِّ مدينة وقرية ومُقاطعة وكانوا ناشطين بين الناس، ومن ثمَّ كانت العلاقات المتبادلة بينهم علاقات حميمية للغاية، بل أكثر حميمية من العلاقة مع الربِّ البعيد الذي يتعذَّر الوصولُ إليه» (آرون غوريفيتش، إشكاليات الثقافة الشعبية في العصور الوسطى). وتعليقي: هكذا نرى أنَّ شعبية القدِّيسين بين الناس ترجع إلى إيمان الناس بأنَّ القدِّيسين لديهم بعض القوى الخفية التي تُمكِّنهم من مساعدة الناس وحمايتهم، أكثر من كونها ترجع إلى الإجلال بسبب الحياة السامية للقدِّيسين.

٢١٣٩ يُثبت چون روبرتس (كاتب ومُقدِّم أحد البرامج التليفيزيونية عن الحضارة الأوروبية) أنَّه يوجد في قلب الحضارة الأوروبية رؤيتان كان لهما تأثير حاسم على مسارها وتطوُّرها. الرؤية الأولى هي أنَّ الإنسان له الحرية في أن يختار ويحكم حياته ومصيره.

والثانية هي فكرة التاريخ؛ أي تصوُّر الأشياء عبر الزمن. تتأسَّس الرؤية الأولى على «متلازمة الوعي المنقوص»؛ أي الشعور بالنقص الذي يستدعي الحاجة إلى الكمال والطموح الدائم لتغيير الاشياء. ويرتبط بهذه الفكرة مفهومُ قيمة الإنسان كفرد حُرٍّ، كشخصية مُستقلَّة، ومن الواضح أنَّه مفهوم مسيحي. أمَّا الرؤية الثانية فتتأسَّس على فكرة «الشعب المختار» ورحلته الشاقَّة عبر الصحراء نحو «أرض الميعاد». هذه صورةُ شعب يتحرَّك ليُغيِّر وضعه، يتحرَّك في اتجاه مُحدَّد، نحو الحرية، نحو حياة هادفة يَنبذ فيها الإنسان حياةَ العبودية ليُصبح سيِّدَ حياته ومصيره. «أرض الميعاد» هي أول صورة للطوبيا. أرض الميعاد هي مدينة الشمس (كامبانيلا). إنَّ كلَّ طوبيا ذات أصلٍ يهودي، وتقبع أرض الميعاد خلف الستار، باعتبارها صورتَها الأصلية وفكرتَها الأصلية. ولهذا فالحضارة الغربية هي حضارة يهودية-مسيحية.

٢١٤٢ إنَّ معيار تقييم أي مجتمع هو موقفه من الفئات التالية؛ خصومه (مُعارضيه) والمرضى والمحتاجين وكبار السن. في الطوبيا، وحيث لا يوجد أي حس إنساني، هذه الفئات من الناس محكوم عليها بالفناء، ربَّما ليس بشكل صريح، وإنَّما بشكل ضمني. فلا مكان لهم في الطوبيا.

٢١٤٧ قطع القماش العشر البيضاء التي عرضها كلاين كأعمال فنِّية يُمكن أن تعني فقط دليلاً قويًا، يصل إلى درجة اللا معقولية، على أنَّ الفنَّ لا يزال إلهامًا فقط وليس هو العمل الفنِّي ذاته. وإذا لم يكن هذا هو المقصود من قطع القماش العشر هذه، فإنَّها إذن لا تعني شيئًا أو تُمثِّل خديعة كبرى موجَّهة إلى المُتعجرفين المُدَّعين.

٢١٥١ ينظر نيتشه إلى الأخلاق المسيحية على أنَّها «عار العالم». «هل فهمتموني؟ ديونيزوس ضد المسيح المصلوب» (نيتشه، هذا هو الإنسان)(*)

(*) هذه هي العبارة الأخيرة في كتاب نيتشه «هذا هو الإنسان»، وديونيزوس هو إله الخمر عند قدماء الإغريق ومُلهم طقوس النشوة والسكر والابتهاج في الأساطير الإغريقية. يستلهم نيتشه شخصية ديونيزوس ويتأمَّلها في الكَثير من أعماله، ونجد هذا في الصفحات الأخيرة من كتاب «ما ورء الخير والشر»، وكذلك يظهر في أعمال أخرى باعتباره تجسيدًا لمفهوم «إرادة القوة»، وهو المفهوم المحوري في فكر نيتشه، وذلك كما في «أفول الأصنام» و«عدو المسيح» و«هذا هو الإنسان». (المترجم)

٢١٧٠ في اللغة الألمانية، الصفة gemein تعني بسيط وشائع ودارج. وليس هذا مُجرَّد مصادفة.

٢١٧٢ الاتجاهات الحديثة في الفنِّ (مثلاً، الفن اللاشكلي، الفن التصوُّري، التجريدية، التعبيرية، السريالية، «الصورة الجديدة»، «الهندسة الجديدة»، إلخ) لا تدور حول جوهر الفن، وإنَّما تدور حول الأسلوب الذي يحاول الفنَّان من خلاله، في إثناء إبداع عمله، تناولَ بعض القضايا الفلسفية، وبشكل أساسي القضايا المتعلِّقة بلغة الفنِّ والقناعات الخاصة بالفنَّان. إنَّ الفنَّان الذي ينتمي إلى اتجاه فنِّي بعينه -لأنَّ بعض الفنَّانين ليس لهم انتماء مُحدَّد- يؤمن بأنَّ أعماله تنتمي إلى سياق إنساني أوسع تنعكس فيه معضلات العصر الأساسية. ولهذا فالأفكار، وليس الفن ذاته، هي التي تُكوِّن الاتجاهات الفنِّية.

٢١٧٤ من الخطأ القول بأنَّ الدين لا يُغيِّر العالم. إنَّ الدين يُغيِّر الإنسان، ومن ثمَّ فهو يُغيِّر العالم، وأحيانًا بشكل جذري. والعالم الذي يسكنه أُناسٌ يحترمون الوصايا العشر، أو يعرفونها على الأقل، يختلف بشكل جوهري عن العالم الذي لا مكان فيه لمثل هذا التصوُّر. تغيير الإنسان؛ هو الثورة التي قام بها الدين.

٢١٧٦ عرَّف شخصٌ ما العملَ المعماري بأنَّه «فنُّ النحت المُفيد» (أي فنُّ النحت الذي له وظيفة يقوم بها).

٢١٨٠ من بين أمور عديدة يظهر فيها الفرق بين الآلية العضوية، يبدو هذا الفرق ظاهرًا جليًا في اختلاف العلاقة بين الصورة والمادة. ففي حالة النظام الآلي، تُفرَض الصورة بالقوة (خارجيًا) على المادة التي هي غريبة عليها. أمَّا في حالة النظام العضوي الحي، فالصورة والمادة تنسجم كلٌّ منهما مع الأخرى وتكوِّنان كُلاً واحدًا. وبتعبير آخر، على عكس النظام المادي الذي يبدو فيه نوع من الاغتراب بين الصورة والمادة، فالنظام العضوي الحي يُظهر نوعًا من التغلغل المتبادَل بين الصورة والمادة، نوعًا من الاستسلام الجوَّاني والوحدة الطبيعية.

٢١٩٠ لقد ثبت أنَّ الطيور المُهاجرة تهتدي بما يُعرف بخطوط المجالات المغناطيسية أو

العواصف المغناطيسية الناتجة عن النشاط الشمسي. وأحيانًا تبدأ هذه الطيور رحلتها في وقت مُبكِّر لأنَّها «تظن» أنَّ الخريف قد حلَّ. كيف ولماذا؟

٢١٩١ وصف شخصٌ ما المسيح بأنَّه «الشخصية الأكثر صموداً في تاريخ البشرية». وإنَّه لكذلك.

٢١٩٥ يقول يوڤيتشا أشن في مقدمته لموضوع عن الأشباح والعفاريت: «قد نُنكر وجود الأشباح والعفاريت، إلا أنَّها مخلوقات قريبة منَّا، حتى إنَّنا قد نُحبُّها أو نكرهها، نخافها أو نتقبَّل وجودها كحُرَّاس لنا. ونحن إمَّا آباؤها أو أبناؤها. ومنذ بدء العالم وحتى الآن، لا نستغني عنها».

٢١٩٨ حول التشخيص الشاعري للعالم: «شجرة زيزفون حيرانة» جاء هذا التعبير في قصيدة «موت الشاعر» للشاعرة آنا أخماتوڤا Anna Akhmatova.

2200. تحدَّث ماركس عن مملكتين: مملكة الضرورة ومملكة الحرية. وتصوَّر أنَّ مملكة الحرية ستقوم على الوفرة المادية. يا له من وهم! أن يُنظَر إلى مملكة الحرية باعتبارها الغاية من عملية الإنتاج والاستمتاع بثمار عملية الإنتاج.

٢٢١٣ تُمثِّل المناطق الجديدة في أي مدينة، برتابتها ومبانيها المتماثلة، ما يُطلق عليه «عمران الضرورة البحتة». فالمناطق العُمرانية في مجتمع ما هي صورة لخصائصه وقيمه الأساسية. وتنعكس روح المجتمع، أو غياب الروح، في عمران وعمارة هذا المجتمع، كما ينعكس الشيء في المرآة الصافية.

٢٢١٤ إنَّ كلَّ عمل فنِّي نوع من السيرة الذاتية، إنَّه قصة الذات. عندما قام المُخرج السويدي إنغمار برغمان Ingmar Bergman بإخراج فيلم «فاني وألكسندر» تعرَّف النقَّاد والمشاهدون على قصة طفولته، وتعرَّفوا على قصة شبابه عندما أخرج مسرحية «هاملت» لشكسبير في وقت لاحق. بل إنَّه جاء بمُمثِّل شاب مغمور يُشبهه للغاية ليقوم بدور هاملت.

٢٢١٨ لاحظ ماركس نفسه هذه السمة المميِّزة للتقدُّم الإنجليزي. فمن خلال منظوره «الطبقي»، رأى إنجلترا وهي تحطُّ رحالها في المستقبل عند «الطبقة المتوسطة». وانتهى في

أحد كتاباته إلى أنَّ إنجلترا «هي الدولة الأكثر مدنية من بين جميع الدول المتمدِّنة، حيث تشكَّلت الأرستقراطية المدنية والبروليتاريا البورجوازية». هنا في مقولة «الطبقات» نجد الطريقة ذاتها في الجمع بين المفاهيم التي بينها تناقض جوهري.

٢٢٢٢ الفنُّ هو الاسم الذي يُطلق على عدم الانسجام بين الإنسان والعالم، وذلك بمعنى مزدوج: (١) هو تعبير الإنسان عن القلق، إنَّه احتجاج ضد العالم الذي لا يتناسب معه، و(٢) هو محاولة الفنَّان لخلق عالم مُوازٍ ينسجم مع حلمه. إنَّ الفنَّ هو ذلك العالم الجديد المختلف، إنَّه حلم الشاعر الذي تحقَّق.

٢٢٢٤ يقول هنري ميللر في مكان ما إنَّه على قناعة راسخة بأنَّ الفن سيختفي يومًا ما، بينما سيبقى الفنَّان. سيختفي العمل، ولكن سيبقى الإحساس.

٢٢٣١ لماذا سيظلُّ القانون حيًا، رغم الجهود التي تقوم بها جميع الأنظمة الحاكمة للقضاء عليه أو قمعه على الأقل؟ إنَّ الأمر لا يرجع هنا إلى القانون، وإنَّما إلى الإنسان. فالشعور بالعدل والظلم مُكوِّن أساسي ممَّا نُسمّيه الطبيعة الإنسانية، وهو شعور أصيل مثل الإلهام الديني أو الفنِّي. لا يمكن القضاء على القانون إلا بالقضاء على الإنسان. ولهذا، فالطوبيا مُستحيلة لأنَّها صورة مجازية لانعدام القانون.

٣٠٤٤. يتحدَّث أفلاطون عن العلاقة السببية بين الموسيقى ومصير الدولة قائلاً: «لا يمكن تغيير أصول الموسيقى دون أن تتغيَّر القوانين الأساسية للدولة. إنَّ خرق القوانين يُثبِّت أقدامه في صمت ويتغلغل خلسة في الطباع والعادات حتى يزداد قوة ويتحكَّم في حياة المواطنين، ومن هناك ينتقل إلى مهاجمة القانون والدستور بكُلِّ وقاحة، ويصل في النهاية إلى الإطاحة بالحياة الخاصة والعامة يا سقراط» (الجمهورية، الكتاب الرابع). وبعد قرون عديدة جاء أتين دي لا بوايسيه(*) Étienne de La Boétie وقال: «تُؤدِّي الموسيقى النشاز إلى أسوأ التشويهات في الأفكار»، كما قال شكسبير (على لسان لورنزو): «من لا يشعر بتناغم الألحان اللطيفة فقد وُلِد للخداع والغش والسرقة».

(*) أتين دي لابويسيه (١٥٣٠-١٥٦٣م) قاض وكاتب فرنسي ومؤسس الفلسفة السياسية الحديثة في فرنسا. اشتُهر بمقالته التي تحمل عنوان «مقالة في العبودية الطوعية». (المترجم)

٣٠٤٩ كان كارل بوبر(*) مُحقًا في قوله إنَّه لا يوجد في نهاية المطاف سوى صورتين للدولة: الدولة التي يمكن فيها إسقاط الحكومة بالانتخابات، والدولة التي لا يمكن فيها هذا. وهذا هو المبدأ الأساسي الذي تدور حوله الديمقراطية، ولا معنى هنا للجدل حول الكلمات أو المُسمَّيات. فإذا تشكَّلت السلطة بحيث يكون إسقاطها مستحيلاً نظريًا وعمليًا، فهي ديكتاتورية واستبداد. وحتى لو لم تكن هكذا في البداية، فسوف تصبح هكذا بمرور الزمن. إنَّ إمكانية إسقاط الحكومة أهم من قضيةِ أيُّ حزبٍ سيكونُ الحزبَ الحاكم؛ اليمين، اليسار، العمال، الرأسماليون، إلخ، وهيَ القضية التي تشغلنا كثيرًا جدًا. كما أنَّ كلَّ حكومة يُمكن استبدالها بغيرها ستعمل جاهدة على إرضاء شعبها، والعكس صحيح، فأي حكومة، حتى ولو كانت الحكومة الأفضل، إذا لم يكن إسقاطها ممكنًا، ستكون حكومة فاسدة، فليس هناك ما يدفعها لتكون حكومة نزيهة.

٣٠٥٠ ظاهرة التقارب بين الفنِّ والدين واضحة للغاية في حالة الرسَّام الإيطالي ريناتو غوتوسو الذي رحل مؤخَّرًا. فقد نظر البعض إلى معرض أعماله الذي أُقيم في ١٩٨٧م تحت عنوان «شعور وروحانية» باعتباره فضيحة (وخيانة) لأنَّ الفنَّان كان معروفًا بأنَّه شيوعي ناشط، أي من المُفتَرَض أنَّه مُلحد؛ في حين أنَّ جميع اللوحات التسع والأربعين المعروضة، والتي رُسمَت في الفترة ما بين ١٩٣٨ و١٩٨٥م (٤٠ عامًا تقريبًا)، كانت تُصوِّر أفكارًا من الكتاب المُقدَّس. قد يكون غوتوسو الإنسانُ مُلحدًا بوعي وإدراك، إلا أنَّ غوتوسو الفنَّان لا يمكن أن يكون كذلك. كما طالب بعض النقَّاد، بسبب استيائهم من هذا «النفاق» لدى الفنَّان، بإعادة النظر في القيمة الحقيقية لأعماله؛ مع أنَّ ريناتو غوتوسو يُحتَفَى به كواحد من أعظم الرسَّامين الإيطاليين في القرن العشرين. وهذا دليل آخر على أنَّ النقَّاد يعرفون كلَّ شيء عن الفنِّ ما عدا جوهره.

(*) كارل بوبر (١٩٠٢-١٩٩٤م) فيلسوف بريطاني من أصل نمسوي. يُعد أحد أهم فلاسفة العلم في القرن العشرين، كما كتب في الفلسفة الاجتماعية والفلسفة السياسية. تتركز أعماله الفلسفية حول البحث عن معيار صادق للعقلانية العلمية، وتُعتبر فلسفة كارل بوبر نقطة تحول في تاريخ فلسفة العلم من خلال إدخاله مبدأ القابلية للتكذيب، أي قابلية الكشف العلمي للاختبار التجريبي والتكذيب. عمله الأشهر والأهم هو «منطق الكشف العلمي»، ومن أعماله أيضًا: «المجتمع المفتوح وأعداؤه» و«عقم النزعة التاريخانية» و«أسطورة الإطار» و«بحثًا عن عالم أفضل». (المترجم)

٣٠٥١ كيف أمكن الحفاظ على التوازن بين المواليد من الإناث والذكور في الجنس البشري؟ الإجابة: عن طريق شفرة جينية. وهكذا، كلُّ شيءٍ بسيط وواضح: يوجد شفرة جينية؛ ولا أحد يسأل أين وكيف خُلقَت هذه الشفرة.

٣٠٦٨ مُعظم المذاهب والأيديولوجيات والنظريات والأديان كان نصيبها الإخفاق؛ لأنَّها أرادت أن يكون العالم شيئًا آخر غير ما هو عليه. وربَّما كانت هذه الرغبة سامية ونبيلة، وفي الغالب كانت كذلك، ومع هذا فقد كانت بلا جدوى، وكُتب على واعظيها أن يُهزَموا. ويمكن ملاحظة هذا عبر التاريخ.

٣٠٧٥ يقول ميلان كونديرا عن اليهود: «إنَّهم الأمة الصغيرة الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة ونجت من وحشية التاريخ ومساره التدميري».

٣٠٨٢ في كتابه «حكمة القلب»، الذي يتحدَّث عن دراما حياة المسيح، وصل هنري ميللر إلى نتيجة مفادها أنَّ «التسلسل المتتابع للأحداث كان يجري في اتجاه مُعاكس لمسار التاريخ، عكس اتجاه الزمن» (ص ١٧٨).

٣٠٨٤ ظلَّ بلزاك طوال حياته يتحدَّث عن تجربة غريبة مرَّ بها في طفولته عندما زاره ملاك في مدرسة ڤاندوم، وظل يؤمن بهذا الأمر حتى وفاته. يرى بلزاك أنَّ هذا الحدث كان تجربة له من العالم الآخر، وهي التجربة التي كتب عنها كتابه «سيرافيتا» عندما أصبح رجلاً راشدًا. وقال هنري ميللر عن هذا الكتاب إنَّه يوافق عليه بدون أي تحفُّظ باعتباره «عملاً صوفيًا من الدرجة الأولى» (هنري ميللر، حكمة القلب، ص ١٧٧). ولا ريب أنَّ الأمر ذاته ينطبق على كتاب آخر لبلزاك هو «لويس لامبير» الذي يحمل طابع السيرة الذاتية، حيث يوصف الكاتب الفرنسي الكبير بأنَّه مؤمنٌ وَرِع بعقيدة باطنية.

٣٠٨٩ يقول حكيم بوذي: «يُكافح كلُّ شيء من أجل العودة إلى الانسجام الذي جاء منه». بينما يقول العلمُ إنَّ كلَّ شيء يتحرَّك في اتجاه الإنتروبيا الشاملة، الفوضى المتصاعدة. وهكذا ينظر كلٌّ من الدينِ والعلم إلى العالم على نحو مختلف تمامًا.

٣٠٩٢ يرى الشعراء أنَّ كلَّ مدينة كبيرة في العالم «تفوح منها رائحة كريهة تصل إلى السماء».

٣١٠١ وصلت الكنيسة «المستنيرة» وأتباعها من اليسوعيين، من بعض النواحي، إلى الطرف المُضاد، وهو ما يعني نقضًا للمسيحية. وعند قراءة كتاب «مبادئ اليسوعيين» الذي كتبه إغناطيوس دي لويولا منذ أكثر من خمسة قرون نعثر على عبارات تُظهر نوعًا من العداء للإنجيل. والعبارة الأشهر بالتأكيد هي تلك التي تُقرِّر أنَّ الغاية تُبرِّر الوسيلة (بالنسبة للمسيح قد يكون الأمر عكس هذا تمامًا). وكذلك: «لكي نبقى دائمًا متمسّكين بالحقيقة، علينا أن نرى الأسـود أبيض إذا رأت سلطات الكنيسـة أنَّه أبيض». أو: «لكي تُحكَم الجماعة كما ينبغي، فمن المفيد جدًا للقائد العام أن يحتفظ بالسيطرة الكاملة على الجماعة». وقد فرضت الستالينية ومحاكم التفتيش منطقًا مماثلاً وممارسة شبيهة بهذا ولكن باسم مبادئ مختلفة تمامًا. ومن اللافت أنَّ كليهما أكَّد على الاعتراف بالإثم، وهو ما يمكن تفهُّمه في حالة محاكم التفتيش وليس في حالة مُراقبي حملات التطهير حيث يمكن أن يتوقَّع المرء أن يرى مبدأ المسئولية الموضوعية العامة. وها هو نيكولاي سلمانوڤيتش روباشوف، أحد شخصيات رواية «ظلام في الظهيرة» التي كتبها آرثر كوستلر، يشرح هذا الأمر بوضوح: «بالنسبة لنا، لا تهمُّنا مسألة نيَّة الفرد. فمن يرتكَب خطأً، لا بد أن يدفع الثمن. هذا هو القانون عندنا. ويُعلِّمنا التاريخَ أنَّ الكذب يكون أحيانًا أنفع من الصدق. لقد جرت مقارنتنا بمحاكم التفتيش التي قام بها بابوات الكنيسة في العصور الوسطى، وهذا لأنَّنا كنَّا، مثل مُحققي محاكم التفتيش، على وعي دائم بالمسئولية الملقاة على كاهلنا من أجل مستقبل الفرد الكامل».

٣١١٢ الفلسفة التي تُشكِّل أساس ما يُعرف بالعمارة الجديدة أو «العمارة النقية»، وهي العمارة التي عرَّفها ووضع حدودها المعماري لو كوربوزييه Le Corbusier، كانت فلسفة مادية. فمثلاً، تقول «وثيقة أثينا» الشهيرة التي كتبها لو كوربوزييه عام ١٩٤٣م إنَّ «البحث عمَّا يُناسب الإنسان يعني تحديد احتياجات هذا الإنسان. وهذه الاحتياجات قليلة وثابتة لدى الناس جميعًا، لأنَّ جميع الناس تشكَّلوا بطريقة واحدة من القالَب ذاته». والنتيجة المنطقية لهذا الكلام هي تعريف البيت بأنَّه «آلة للسكن»، وهو ما يعني وجود: «مرحاض، أشعة الشمس، ماء ساخن، ماء بارد، درجة الحرارة المرغوبة، طعام مُعلَّب، نظافة، منزل نمطي، أثاث نمطي». ومن أجل تصوُّره لمدينة نظيفة بها أشعة الشمس

والاستجمام والنباتات الخضراء والطرق الواسعة، دافع لو كوربوزييه عن هدم قلب باريس القديمة، وهي المنطقة التي شُيِّدَت على مبادئ معمارية مختلفة، بل ومُناقضة غالبًا لمبادئ لو كوربوزييه. ومع ذلك، وبعد فترة من الحماسة التي لم تدم طويلاً، سُمِعَت أول أصوات مُعارضة في الستينيات والسبعينيات، ولم تأت هذه الأصوات من سُكَّان «المدينة الجديدة» فحسب، بل أيضًا من مُخطِّطي المُدُن والمعماريين. وكذلك أصبحت ضاحية سارسيه بالقرب من باريس، والتي يقطنها ٨٠,٠٠٠ نسمة وقد شُيِّدَت طبقًا لهذه الوصفة، أصبحت مُرادفًا لجميع المظاهر السلبية لـ «المدينة المتوهجة» الجديدة؛ أي أصبحت مجرَّد «مهجع»، «مخزن للبشر»، «هضبة النمل»، «معسكر اعتقال»، وهي تعبيرات تدلُّ على مدى الاستياء من الحياة في هذه المستوطنات الهندسية النمطية.

٣١١٨ ينعكس الاختلاف بين العهد القديم والعهد الجديد، أي بين روح اليهودية وروح المسيحية، ينعكس بشكل حرفي تقريبًا في التعارض القائم بين مبادئ العهد القديم ومبادئ العهد الجديد. كان الإدراك المسيحي للعهد القديم إدراكًا حرفيًا فقط، وكان لا بدَّ أن يكون كذلك. ومن منظور الروح، كان العهد القديم غريبًا تمامًا بالنسبة للروح الفردية للمسيحية. فالصورة، أي الرمز، كتأكيد على المبدأ الفردي للعالم، قُدِّر لها أن تَهزم مبدأ تحطيم الأيقونات الذي ظهر في المرحلة المبكِّرة من المسيحية. كان أوريجين السكندري وكليمنت السكندري، وكذلك الكثيرون غيرهم، من المدافعين عن مبدأ تحطيم الأيقونات، ودخلا في صراع طويل من أجل هذا المبدأ مع المؤيدين الأقوياء للأيقونات والصور، وكان صراعًا خاسرًا منذ بدايته الأولى. وكما يُظهر التاريخ، لم يكن الصراع قاصرًا على المجادلات المُرَّة، وإنَّما تحوَّل إلى حرب حقيقية وتصفية جسدية للمُخالفين. لقد كانت جميع التصاوير الدينية والمنحوتات، والتي حظيت بثناء بالغ خلال أكثر عصور المسيحية مجدًا، كانت انتهاكًا خطيرًا لأول تحريم ورد في الكتاب المقداس («لا تصنع لك تمثالاً منحوتًا، ولا صورة ما ممَّا في السماء من فوق، وما في الأرض من أسفل، وما في الماء من تحت الأرض»). وفيما يتعلَّق بالإسلام، كان من المناسب أن يعتبر أنَّ تحريم التماثيل والأصنام لا يزال ساريًا، كما تكرَّر في القرآن، ولكن فقط من أجل منع الوثنية وعبادة الأصنام. وأعتقد أنَّه لا قيمة ولا معنى لهذا التحريم وراء نطاق هذه الوظيفة.

٣١٢٩ . قام ألكسندر رودشينكو Alexander Rodchenko بعرض عمل له عنوانه «اللوحة الأخيرة» في عام ١٩٢١م . وكانت اللوحة «أسود على أسود» ، كتعبير عن اختفاء الصورة وإنكار وجودها ، وكان من المُفتَرَض أن تكون هذه اللوحة علامة على «نهاية فنِّ الرسم» .

٣١٣٠ من الواضح أنَّ انتصار عقيدة الأيقونات في أرجاء العالم المسيحي (مع بعض الاستثناءات التي تُثبت القاعدة) له بعض الأسباب الأكثر تعقيدًا . ولعلَّ من الصواب القول بأنَّ هذا الانتصار كان حتميًا ، أي إنَّه مُستمَّد من طبيعة المسيحية ذاتها . ولا شيء يُظهر بوضوح شديد مدى الاختلاف بين روح العهد القديم وروح العهد الجديد مثل هذا الاختراق الحتمي الذي أحدثته الصورة والوجه في ثقافة العالم المسيحي . لقد كان انتصارًا مُحقَّقًا لمبدأ التصوير رغم التحريم الواضح الذي فرضه العهد القديم . ولا بدَّ للمرء أن يسأل نفسه : هل كانت المسيحية ذات الطابع الفردي قادرة على أن تنصاع لأمر التحريم وتلتزم به وهي على هذه الطبيعة؟

٣١٤٢ يمكن لمتابعة النقَّاد ومراجعاتهم النقدية أن تكون شيئًا مُمتعًا ، وأنا شخصيًا أقرأ لهم بكلِّ سرور أحيانًا ، ولكن أعتقد أنَّ لدينا بعض الأفكار الخاطئة عن وظيفتهم . لا يوجد تأثير للمراجعات النقدية على مسار الأدب وارتقائه (أو الفنّ عمومًا) . فالإبداع يسبق النقد دائمًا . وأعتقد أنَّه لا يوجد كاتب واحد غيَّر شيئًا في أسلوبه بسبب مراجعات النقَّاد . فتأثير المقالات النقدية يكون في الغالب على شُهرة الكاتب ومبيعات كُتُبه ، أي على وضعه المادي وليس على عمله الإبداعي . هذا إذا كان كاتبًا حقيقيًا بطبيعة الحال .

٣١٦٣ لا يعرف كثير من الناس أنَّ عبادة الشيطان منتشرة بشكل هائل في العالم المُتحضِّر . في عام ١٩٥٦م ، أسَّس الممثل السينمائي الأمريكي أنطون ليفي Anton LaVey أهم مؤسَّسة شيطانية في الولايات المتحدة (وهو الممثِّل الذي قام بدور الشيطان في فيلم «طفل روزماري») ، وهي كنيسة الشيطان الموجودة في سان فرانسيسكو . كما أنَّه مؤلِّف ما يُطلق عليه «الإنجيل الشيطاني» الذي تقول رسالته الأساسية : «طوبى للأقوياء ، لأنَّهم سوف يحكمون الأرض» (وهذه إعادة صياغة مُناقضة للعبارة التي وردت في الإنجيل :

«طوبى للمساكين بالروح، لأنَّ لهم ملكوت السماوات»). وأثناء طقوس عبدة الشيطان المُثيرة للشهوات البيهيمية، يتلون أشعار بودلير ويشتركون في اللهو والعربدة ويُمجِّدون الشيطان باعتباره سيِّد «الشرِّ الأبدي».

٣١٩٥ يقول الرسَّام الإنجليزي المُعاصر فرانسيس بيكون(*)، وهو أحد مُمثِّلي مدرسة «التعبيرية المتجددة»، يقول عن فنِّ الرسم: «إنَّه شيءٌ مُلغز، إنَّه صيرورة دائمة. انظر إلى رامبرانت، إلى بورتريهاته الشخصية؛ ما الذي يمكن أن يُقال عن الأسلوب الذي رُسمَت به؟ لا شيء، لا شيء تقريبًا. عليك أن تنظر إليها، وهذا هو كلُّ شيء، هذا هو فنُّ الرسم». ويُضيف: «لم أُعجب إطلاقًا بالتعبيرية المُعاصرة، وفي الحقيقة أنا مُعجب بالفنِّ المصري للغاية. إنَّه أعظم فن في تاريخ البشرية» (نقلاً عن صحيفة «ڤيسنك»، زاغرب، ٥ ديسمبر، ١٩٨٧م). كذلك وجد نيتشه في الفنِّ اليوناني القديم «نماذج لا تُضاهى». وكما نُلاحظ، فقد ردَّ بيكون ذروة الفنِّ إلى الماضى السحيق، إلى بداية التاريخ ذاتها أو حتى إلى حافة ما قبل التاريخ.

٣١٩٨ «فوضى مُعقلَنة»؛ هذه تسمية أخرى لعالم الحضارة المُغترِب (صاحبها هو الكاتب اليوغوسلاڤي فيليب ديڤيد).

٣٢١٠ ما علاقة التراچيديا والشفقة بالعالم الدارويني الإقليدي؟ لو كانت هذه هي الحياة الوحيدة والأخيرة، فمن هم أكبر الخاسرين، ولماذا نتعاطف مع الخاسرين؟ من أين ينبع إعجابنا بالأبطال المهزومين الذين يصحبوننا منذ ملاحم ما قبل التاريخ، كملحمة الإلياذة وملحمة جلجامش؟ بل والأفلام الغربية منخفضة التكلفة؛ ألا تستحوذ على تعاطفنا الفطري مع الضحية (أي الخاسر) وموقفنا المضاد للمصالح المادية؟ إنَّ التعاطف مع الضحية لا ينبع من العقل، وإنَّما من الروح فحسب، أي من المبدأ الذي لا ينتمي إلى «هذا العالم». إنَّني أقول التعاطف وليس التفهُّم، لأنَّه ليس تفهُّمًا ولا يمكن أن يكون كذلك. وما من سبيل لأن نفهم، أو نشرح بلغة عقلانية، تضحيةَ البطل من أجل الحقِّ أو قضية

(*) فرانسيس بيكون (١٩٠٩-١٩٩٢م) رسَّام إنجليزي من أصل أيرلندي، كانت لوحاته تُعبر في الغالب عن العنف والمأساة والخوف والرعب والمعاناة التي يعيشها الإنسان المعاصر، وكذلك كانت تعكس طبيعة حياته الخاصة غريبة الأطوار. (المترجم)

عادلة. يعجز تفكيرنا كلُّه وحكمتنا بأسرها عن تفسير وتبرير حالة تضحية واحدة قام بها بطل من أجل العدالة والحقيقة. إنَّها شيء قريب للغاية من روح كلِّ إنسان وتُدركه هذه الروح، بينما يعجز العلم أو الفلسفة عن تفسيره. بين الفعل المُبرَّر وتبرير هذا الفعل، لا يمكن إقحام التفكير أو توسُّطه وتقليب الأسباب مع أو ضد، بل يمكننا القول لا وجود للزمن. إنَّه ردُّ فعل تلقائي من الروح تجاه كلِّ ما هو خيِّر وعادل، تجاه شيء يُحدِّد نفسه بنفسه. لا مكان للتراجيديا ولا للحدث التراجيدي في العالم الذي يصفه الملحدون بالعالم الوحيد. في عالم كهذا، لا يوجد سوى وقائع ومُصادفات.

٣٢١١ المرحلة الكلاسيكية للرسم عند الفنَّان جورجيو دي شيريكو Giorgio de Chirico يُطلَق عليها أيضًا «الفنّ الميتافيزيقي».

٣٢٣٨ كتب ماركس (في شبابه على الأرجح): «نظرًا لأنَّ أصل الإنسان هو الإنسان ذاته». كيف يتسنَّى لهذه العبارة المثالية أن تتوافق مع نظرية الانعكاس والاعتماد الكامل للحقائق الروحية للحياة على الحقائق المادية؟ الإجابة الوحيدة الممكنة هي أنَّ ماركس غير مُتَّسق مع نفسه، أو أنَّ ماركس «الناضج» استخفَّ بماركس الشاب وتخلَّى عنه.

٣٢٥٠ يقول ميشيل دي مونتين Michel de Montaigne: «يريدون أن يخرجوا من جلدهم وألا يكونوا بشرًا». من هم؟ حسنًا، كلاهما؛ المسيحيون والماديُّون. يريد المسيحيون تحويل البشر إلى ملائكة؛ بينما يؤكِّد الماديُّون أنَّنا حيوانات وسنظلُّ حيوانات. فماذا عن الإنسان؟ إنَّ الإنسان أسمى من الملائكة ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ** ﴾ وليس أسمى من الحيوانات فحسب.

٣٢٨٣ في سياق ثبات ما يُعرف بالفلسفة المادية على إخلاصها لنظريتها حول «الانعكاس» وتطبيقها على مشكلات الفكر، نجد أنَّ هذه الفلسفة المادية تُعرِّف الفكرة بأنَّها «انعكاس دلالي للخصائص الجوهرية (الحتمية) للأشياء المادية». ومن ثمَّ، على سبيل المثال، ففكرة «المنزل» هي انعكاس لجميع الخصائص الجوهرية (المشتركة) لجميع المنازل. وفيما يتعلَّق بالروح (طبقًا للفلسفة التي تقول بهذه النظرية) فلا بدَّ أن تأتي في مرتبة أدنى من الواقع المادي، ولا بدَّ أن تكون العلاقة التي تربطها بهذا الواقع المادي هي علاقة تبعية له

وانفعال سلبي به. ومع ذلك، فمع أول بادرة للتدقيق في هذه النظرية، تُصبح مُشوَّشة مضطربة. فلدينا أفكار حول ظواهر ومشاعر نفسية مختلفة ليست موضوعات مادية، مثل الفرح، الغضب، الحياء. وكذلك لدينا أفكار في غاية الوضوح حول الكثير من المفاهيم المُجرَّدة (النقطة، الكسر، المربع، الأرقام غير الحقيقية أي السالبة) أو بعض التصوُّرات الخيالية (الجن، السحر، الجنَّة). وهذه «الموضوعات» ليست مادية ولا نفسية، ولا يمكن أن تكون «انعكاسًا» لشيء ما. فكيف يكون لدينا أفكار عنها؟

٣٣٠٨ كتب الشاعر ميودراغ باﭬلوﭬيتش Miodrag Pavlovich كتابًا بعنوان «جماليات طقس التضحية»، وفيه يُحاول الشاعر النفاذ ببصيرته إلى جوهر فكرة تقديم القربان. ويرى أنَّه من خلال فهم طقس التضحية فإنَّنا نقترب أكثر من فهم الصور الرمزية للوجود الإنساني والأعمال الفنِّية. وقد وصفت دار النشر «نوليت» هذا الكتاب بأنَّه أفضل كتاب منشور في عام ١٩٨٧م.

٣٣٠٩ «لقد أثبتنا من خلال علم الوراثة أنَّ البشر جميعًا مختلفون، حتى التوائم المتطابقة، التوائم الحقيقية. فرغم أنَّ لهم الشفرة الجينية ذاتها، إلا أنَّ البيئة تُساهم في تشكيلهم على نحو يجعل أحدهم مختلفًا عن الآخر» (چان دوسيه، عالم فرنسي حاصل على جائزة نوبل، في مقابلة مع مجلة «بداية»، ٦ فبراير ١٩٨٨م). وتعليقي: من الواضح أنَّ الله سبحانه يُحبُّ التنوُّع والاختلاف.

٣٣٦٠ الاشتراكية بطبيعتها تتَّسم بـ«التفاؤل التكنولوجي»، أي الإيمان بأنَّ التقنية والتكنولوجيا ستجلب السعادة للناس.

٣٣٧٤ (حول حملات التطهير والعقوبة): «حملة التطهير» هي سلوك تجاه شيء، أمَّا العقوبة فهي سلوك تجاه إنسان. ولكي يتعرَّض الإنسان للتطهير، فلا بدَّ أولاً أن يتوقَّف عن أن يكون إنسانًا ليُصبح شيئًا أو حيوانًا. وبهذا المعنى، كانت الداروينية شرطًا أساسيًا للستالينية. فلا يمكن أن تظهر حملات التطهير بهذه الصورة المُتعمَّدة المنهجية إلا في عالم لا يعترف بوجود الله، ومن ثمَّ لا يعترف بوجود الإنسان كذلك.

٣٤٤٨ ثمَّة ظواهر لا يمكن إدراكها عقليًا أو فهمها بشكل كامل. اللعب ظاهرة من

هذه الظواهر. ومن الواضح أنَّه ينطوي على عنصر كوني أو حسٍّ داخلي كوني. وقد لاحظ الفيلسوف الألماني يوجين فينك Eugen Fink المتخصِّص في دراسة ظاهرة اللعب، لاحظ أنَّ «اللعب اللاإنساني في جوهره لحظة من اللعب الكوني الشامل». كما يستفيض فينك حول هذه الفكرة بقوله إنَّ «اللعب ليس ظاهرة أنثروبولوجية، كما يُعتقَد عادة، وإنَّما هو شيءٌ أكبر من هذا بكثير، إنَّه الطريقة التي يوجد من خلالها اللا نهائي».

٣٤٥٥ توسَّع الأناركيون في الحديث عن المبدأ الذي ينظر إلى الجريمة باعتبارها مشروطة بالوضع الاجتماعي، ووصلوا بالحديث إلى نتائج بعيدة للغاية. وأكَّد بيتر كروبوتكين Peter Kropotkin أنَّه في المجتمع الاشتراكي لن يكون هناك مجرمون من أي نوع، نظرًا لأنَّ الجريمة ترجع فقط إلى العلاقات القائمة على الملكية الخاصة ووجود حكومة ديكتاتورية. وانطلاقًا من هذا المبدأ، طالب باكونين وكروبوتكين بإغلاق جميع السجون نهائيًا. ودافع كروبوتكين بشكل خاص عن الرأي القائل بعدم كفاءة عقوبة السجن. وفي مقاله «السجن وآثاره على الإنسان» أيَّد كروبوتكين فكرة أنَّ «من يدخل السجن مرَّة واحدة، سيرجع إليه بالتأكيد كمجرم، ولكن بسبب جرائم أخطر بكثير من المرة الأولى». قد نتَّفق معه في رأيه حول عدم كفاءة عقوبة السجن، ولكن ليس هناك حلٌّ أفضل حتى الآن.

٣٤٦٠ عاش أعظم كُتَّاب التراچيديا اليونانية في القرن الخامس قبل الميلاد. إسخيلوس ٥٢٥-٤٥٦ق.م، سوفوكليس ٤٩٥-٤٠٦ق.م، يوربيديس ٤٨٠-٤٠٦ق.م. هذا الأمر يحثُّنا على التفكير في العلاقة بين التاريخ والفن. فالفنُّ، بخلاف العلم، لا يعرف التطوُّر.

٣٤٦٥ بعض الشركات الأمريكية الآن (١٩٨٨م) يوجد بها مُوظَّفون «عاديون» بنسبة ١٠-١٢٪ فقط من إجمالي العاملين، والبقية هم خبراء كمبيوتر وخبراء مُتخصِّصون وعلماء وباحثون ومُصممون، وما شابه ذلك.

٣٤٧٠ قال العالم العربي البيروني بدوران الأرض حول محورها وحول الشمس قبل كوبرنيكوس بخمسةَ قرون. ومع هذا، لم يُتَّهم بالهرطقة بسبب قوله هذا، ولم تُعتَبَر

نظريته هذه مُخالفة للدين. ولم يكن هذا لأنَّ المجتمع كان ذا توجُّه أكثر تحرُّرًا. بينما كان نظام كوبرنيكوس القائل بمركزية الشمس في صدام مع التصوُّر المسيحي للعالم. لم يكن الأمر يتعلَّق بالأرض وموقعها، وإنَّما بالإنسان ومكانته في الكون. فقد وضع كوبرنيكوس الإنسان، والأرض كذلك، في مَدار هامشي إلى حدٍّ ما. ولم تعد الأرض ولا الإنسان بمثابة مركز الكون. هذا الأمر قد يُزعج الكنيسة كثيرًا، ولا يؤثِّر في شيء في حالة الإسلام الذي لم يكن مُثقلاً بأية فكرة متغطرسة عن الإنسان. مع أنَّ العقيدة التي كانت مستعدة لمطابقة الإنسان مع الإله («الإنسان الإله») كان لا بدَّ لها أن تعتبر نظرية كوبرنيكوس هرطقة لا تُغتَفَر واعتداءً على أحد التصوُّرات الأساسية لديها. وهذا يُفسر اختلاف ردِّ الفعل تجاه كوبرنيكوس والبيروني واختلاف مصير كلٍّ منهما.

٣٤٧٧ الفنُّ هو معرفة الخاص، بينما الفلسفة والعلم هما معرفة العام.

٣٤٩٤ كتب رالف إيمرسون في يومياته بتاريخ ٣٠ يوليو ١٨٣٥م: «أنت تؤكِّد أنَّ المسيح كان إنسانًا كاملاً. وأنا أنحني أمامه بإجلال صادق. ولكن إذا قلتَ لي إنَّه حقَّق جميع أحوال الوجود الإنساني، وإنَّه قد نمَّى جميع الإمكانيات الإنسانية إلى أقصى درجة، فسوف أتراجع عن قبولي له. فأنا لا أرى فيه البهجة، ولا أجد فيه حبَّ العلوم الطبيعية، ولا أرى في أي مَيْل تجاه الفنِّ، ولا أرى فيه شيئًا يُذكِّرني بسقراط أو لابلاس أو شكسبير. ينبغي على الإنسان الكامل أن يُذكِّرنا بهؤلاء العظماء». وتعليقي: هذا سوء فهم واضح. من المُفتَرَض أنَّ المسيح كان ضحية، كان شهيدًا، كان أعظم رمز لهذه الفئة. وقد كان كذلك بالفعل.

٣٥٠٢. تعيش الذئاب في قطعان لأنَّ هذه الطريقة تجعلها أقوى. ولكن إذا أُصيب أحد الذئاب أو بدأ يعرج، فسوف تلتهمه الذئاب الأخرى بلا تردد. هذا دليل واضح على أنَّ القطيع يقوم على المصلحة والغريزة، ولا علاقة له بمفاهيم التضامن أو الصحبة أو التكافل. فالطبيعة لا تعرف مثل هذه الأشياء.

٣٥١٠ تُفضي المثالية المسيحية المُفرطة إلى النفاق. ونظرًا لأنَّ الناس لم يستطيعوا أن يُوفّوا بمطالبها السامية للغاية فقد بدأوا يتظاهرون بها. ومن ثمَّ، بدلاً من التضحية

الحقيقية، أصبح لدينا محاكاة لها. هذه واحدة من الحقائق البسيطة للحياة، إنَّها شيءٌ ينشأ بالضرورة من العلاقة الثابتة بين قوى الإنسان: الجسد والعقل والروح. ومع ذلك فقد ساعد هذا المسعى المسيحي، رغم أنَّه لم يتحقَّق بشكل كامل، على أن يُصبح العالم والإنسان في حال أفضل. فلولا التجربة المسيحية، لكانت البشرية أقلَّ إنسانية، بل من الصعب تخيُّل مدى التدهور، الروحي والأخلاقي، الذي ربَّما حاق بالبشرية من كلِّ الوجوه.

٣٥٢٨ لاحظ طبيب نفسي شهير، كان قد درس العلاقة بين الفنِّ والطب النفسي، أو على وجه التحديد إبداعات الفنَّانين المصابين بالجنون، لاحظ أنَّ ڤان جوخ، وهو الرسَّام المُصاب باضطراب عقلي، قام برسم المناظر الطبيعية الأكثر إشراقًا. فكيف يمكن تفسير هذه الظاهرة والظواهر المماثلة المتعلِّقة بالإبداع الفنِّي؟ هذه إحدى الإجابات: «لا يوجد سوى فنٍّ واحد. وإذا كان الفنُّ نابعًا من روح الإنسان، بصرف النظر عن انتمائه إلى الجنس الأبيض أو الأحمر أو الأسود، فلا مجال للسؤال عمَّا إذا كان المبدع رجلاً بالغًا أم طفلاً صغيرًا. ولا يهم ما إذا كان الفنَّان قادمًا من أشهر شوارع باريس أم من صحراء النوبة أم من جليد الإسكيمو، أو كان صادرًا عن فنَّان سليم العقل أم عن فنَّان مُصاب بالجنون. إنَّ قوة العبقرية الفنِّية تكمن في تلك القوة الكامنة في الروح الإنسانية التي لا تنكسر حتى ولو أُصيب الإنسان باضطراب عقلي» (ماركو بييتش، طبيب نفسي درس أعمال الفنَّانين المُصابين بالجنون).

٣٥٢٩ بلغ الفنُّ ذروتَه في مرحلة الصبا من عُمْر البشرية، في اليونان القديمة، ربَّما لأنَّها موطن الصبا بالنسبة للبشرية.

٣٥٣٥ فيما يتعلَّق بالطبيعة الطقوسية للفنِّ، فقد عثرتُ على الكثير من الحقائق والإشارات المفيدة في كُتُب الشاعر ميودراغ باڤلوڤيتش: «جماليات طقس التضحية»، و«حديث عن لا شيء»، و«الكلام والفعل الطقوسي». يقول باڤلوڤيتش في إحدى المقابلات معه: «تبدو دراسة الطبيعة الإنسانية أصعب بكثير من دراسة النجوم والسديم في الأغوار السحيقة للكون. كان العمل الفنِّي مُكمِّلاً للعمل الطقوسي، ولكنَّه أيضًا حلَّ

محلَّ العمل الطقوسي في العصور الأولى المُبكِّرة، وكان بمثابة البديل للقربان الذي كان يُقدَّم في العمل الطقوسي».

٣٥٣٨ (عن الإنسان والآلة): هناك اختلاف جوَّاني بين الإنسان والآلة. ودائمًا ما يكون التطوُّر الآلي (مثل: تقديم آلة جديدة، اختراع المُحرِّك، إدخال الكهرباء، إدخال النقل الجوي) متبوعًا بردود أفعال اعتباطية من قِبَل الناس. وتُثبت آخر ظاهرة، المعروفة باسم «رهاب الكمبيوتر» Cyberphobia، تُثبت أنَّ ردود الفعل لم تكن فقط نتيجة الخوف من فقدان الوظيفة، فقد أُجريت دراسة في الولايات المتحدة عام ١٩٨٧م بناءً على فحص سلوك ٤٦٢ من المُدراء وخبراء الكمبيوتر، وأظهرت هذه الدراسة أنَّ نسبة كبيرة إلى حدٍّ ما من مستخدمي الكمبيوتر تظهر عليهم أعراض «اضطرابات عصبية مرتبطة بالكمبيوتر»، في حين أنَّ عددًا منهم يُعاني من مرض جديد يُدعى «رهاب الكمبيوتر» (أعراض هذا المرض هي أنَّهم يشعرون أمام الكمبيوتر بالذعر والرعب ويتنفسون بصعوبة ويرتجفون ويُحطِّمون الأجهزة). وعلينا أن نذكر هنا جنون الاضطهاد الذي تحدَّث عنه أورويل؛ ذلك الخوف غير المفهوم من التكنولوجيا المتطوِّرة.

٣٥٤١. إذا كانت القصص التي دوَّنها بلوتارخ حقيقية، وقارنَّا أنفسنا بأبطال بلوتارخ، لوجدنا أنَّ الإنسان قد انتكس عبر التاريخ. ففي الوقت الحاضر، لا يوجد أُناسٌ بمثل هذه القيمة (العظمة) الإنسانية والأخلاقية التي كانت لدى أبطال السير التي كتبها بلوتارخ منذ خمسة وعشرين قرنًا. وقد يكون صحيحًا أنَّ ٩٠٪ من العلماء، أي من بين جميع العلماء الذين عاشوا عبر التاريخ، قد عاشوا في زمننا هذا، إلا أنَّ ٩٠٪ من بين جميع الرجال العظماء حقًا قد عاشوا في العصور السابقة على زمننا هذا. تبدو النسبة هنا عكسية. فالتاريخ هو تقدُّم المجتمع والحضارة، وهو في الوقت ذاته انتكاس الإنسان والثقافة (قارن هذا بما جاء في القرآن الكريم: ﴿**ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ**﴾

٣٥٤٢. إنَّ احترام الإنسان منقوش على جدران الروح. إلا أنَّ إيمرسون كان مُحقًا في قوله إنَّه ليس احترامًا للإنسان، وإنَّما احترام لروحه، يقول إيمرسون: «إنَّها الروح هي التي

تحترم ذاتها». إذا ما نظرنا إلى الإنسان، من يكون وكيف يبدو، فلا نملك إلا أن نتَّفق مع إيمرسون.

٣٥٦١ تمتد ثقافة أمريكا فيما قبل كريستوفر كولومبوس لتشمل حقبة تاريخية تبلغ ثلاثة آلاف عام (من ١٥٠٠ق.م. حتى الغزو الإسباني في ١٥٢١م). وجميع فنون هذه الثقافة ذات طابع ديني.

٣٥٩٠. يستعصي الفنُّ، مثل الحياة تمامًا، على كلِّ محاولة لتعريفه. ويبدو أنَّ الفنَّ الذي يُعرَّف لم يعد فنًا بأي حال، وجميع الفنَّانين الكبار على وعي بهذا الأمر. تُنسب العبارة التالية لبيكاسّو: «لو عرفتُ ما الفنُّ، فلن أخبر أحدًا بذلك، سأحتفظ به لنفسي».

٣٥٩١ كتب إدوارد كوتزباك Edward Kotzback في مكان ما أنَّ المسيحية والماركسية تُمثِّلان «ثنائية المصير الإنساني»، موقنًا أنَّه لا يمكن لأحدهما أن يصل بنفسه إلى الحقيقة كاملة، ولكن من خلال التغلغل المتبادل بينهما يمكن فتح آفاق اجتماعية وسياسية جديدة (انظر مقال «السلطة الصمَّاء» لكاتبه جيليكو كروشيلي، مجلة «اليوم»، ١٢ يوليو ١٩٨٨م).

٣٦٠٧ لقد وُلدنا جميعًا بالحسِّ الأخلاقي ذاته، سواء جئنا إلى الحياة في قصر مَلَكي أو في كوخ خشبيَ. وقد اكتُشف، على سبيل المثال، أنَّ أبناء المُجرمين الذين عاشوا في بوتاني باي، وهي مستعمَرَة إنجلَيزية سابقة في أستراليا مُخصَّصة لنفي المجرمين إليها، كان لديهم حس أخلاقي سليم مثل الأطفال الآخرين تمامًا. إلا أنَّ الحياة اللاحقة والتعليم والظروف الخارجية تفعل فعلها، ولذلك لا يمكننا أن نقول الشيء ذاته عن البالغين؛ ومع ذلك، فنحن جميعًا نولد ولدينا الرصيد الأخلاقي ذاته.

٣٦١٠ «إنَّ المجتمع يتآمر في كلِّ مكان ضد الطبيعة الإنسانية داخل كلِّ فرد فيه» (هكذا يقول إيمرسون في مقاله «الثقة بالنفس»). يرى إيمرسون أنَّ الفرد فقط هو من يمتلك القدرة على الارتقاء الأخلاقي، بينما «لا يُظهر المجتمع أي ارتقاء أخلاقي أبدًا».

٣٦١١. لا يمكن اختزال الحياة في مبدأ واحد فقط، ولذلك فإنَّه حتى الأفكار الأكثر حكمة والأكثر انتشارًا تبدو متناقضة إلى حدٍّ ما. يقول إيمرسون، وهو صاحب كتاب

«المجتمع والعزلة»، يقول إنَّ الاتِّساق التام «يجتذب العقول المحدودة، ولا يُعلي قدره سوى التافهين من رجال الدولة والفلاسفة والكهنة». إذ إنَّ الأمر يتعلَّق هنا، رغم كلٍّ شيء، بالتنازع حول الأسماء والألقاب والتعريفات، في حين أنَّ الحياة شيءٌ أكثر تعقيدًا وتركيبًا من كلِّ هذه الأشياء.

٣٦٣٠ علينا أن نصفح، لأنَّ هذا هو السبيل الوحيد لكسر سلسلة الشر. أو علينا ألا نصفح، بل علينا أن نُعاقب الشرَّ، أن نقاوم الشرَّ بالشرِّ، وإلا فإنَّه سيغمر العالم. أيُّ الموقفين هو الصواب؟ أين الحل؟ ماذا نفعل؟ الإجابة الصحيحة الوحيدة هي: العقوبة والصفح. إنَّ هؤلاء الذين عاشوا طويلاً وراقبوا الناس والعالم بعيون مفتوحة وبلا هوى، هؤلاء جميعًا يقبلون هاتين الحقيقتين اللتين تبدوان متناقضتين للوهلة الأولى. لو كانت الحياة قائمة على مبدأ واحد، لكانت هناك إجابة واحدة فقط واختيار واحد: إمَّا العقوبة أو الصفح. هذا المثال يعكس العلاقات المتبادَلة بين موسى وعيسى ومحمد، أو بين العهد القديم والإنجيل والقرآن. الأول يؤيد العقوبة، والثاني يؤيد الصفح، بينما يأخذ الثالث بكليهما معًا.

٣٦٣٧ الطلاق مُحرَّم في الهندوسية؛ وهذا تداخلٌ آخر، ومنطقي إلى حدٍّ ما، مع المسيحية.

الشيوعية والنازية:
بعض الحقائق التي لا ينبغي نسيانها

الفصل الخامس

الشيوعية والنازية: بعض الحقائق التي لا ينبغي نسيانها

٣٤٧ جاء في مرسوم الجنرال غيورغي چوكوف إلى جنوده عند احتلالهم برلين في عام ١٩٤٥م: «أيها الجندي السوڤييتي، انتقم! هاجم بما يجعل هجومَ جيشنا أهلاً لأن يتذكَّره ليس فقط الألمان المعاصرون، بل وأحفادهم. وتذكَّر أنَّ كلَّ ما يملكه هؤلاء الألمان الهمج الآن هو ملكٌ لك. أيها الجندي السوڤييتي، لا تأخذك بهم شفقة ولا رحمة!» (نقلاً عن «الصحيفة الإعلامية الأسبوعية» ٣ مارس ١٩٨٥م).

٤٣٨. (فيما يتعلَّق بأعداد القتلى في الاتحاد السوڤييتي خلال «حملات التطهير» قبل الحرب العالمية الثانية وفي أثنائها)، يقول ألكسَندر سولجنيستين(*)، مستندًا إلى تقديرات البروفيسور بولغاكوف، إنَّ الشعب السوڤييتي فقد ٦٦ مليون نسمة خلال سنوات الإرهاب و٤٤ مليون في الحرب. ويُعتقَد أنَّ هذه الأرقام مُبالَغٌ فيها، ولكن حتى التقديرات المعتدلة ليست أقلَّ ترويعًا. أجرى الخبير السكَّاني ماكسودوف بعض التحليلات وتوصَّل إلى أنَّه في الفترة ما بين ١٩٣٢م و١٩٤٩م مات حوالي ٤٣ مليون شخص لأسباب عديدة، من بينهم حوالي ٢٠ مليون عسكري ومدني لقوا مصرعهم في ساحات القتال وبسبب آثار الحرب، وهو ما يُطابق البيانات الرسمية. أمَّا الفارق الذي يتمثَّل في ٢٣ مليون فهو يُشير إلى هؤلاء الذين قُتلوا خلال سنوات القمع الستاليني والمجاعة قبل الحرب. وطبقًا لتقديرات ماكسودوف، فإنَّ رجلاً من كلِّ رجلين، وامرأةً من كلِّ أربع نساء، ماتوا خلال حكم ستالين بطريقة غير طبيعية، أي لم يعيشوا طويلاً كما يُتوقَّع لهم (وفقًا لما ذكره روي ميدڤيدف في «ستالين المجهول»، نُشرت منه هذه المقتطفات في مجلة «قوس قزح»، بلغراد، ١٦ أبريل ١٩٨٥م).

(*) ألكسندر سولجنيستين (١٩١٨-٢٠٠٨) روائي ومؤرِّخ وناقد روسي، كان معارضًا لسياسات الاتحاد السوڤييتي الاستبدادية. مُنح جائزة نوبل للأدب عام ١٩٧٠م، وطُرد من الاتحاد السوڤييتي عام ١٩٧٤م وعاد إلى روسيا عام ١٩٩٤م. أشهر أعماله رواية «أرخبيل الجولاج» و«يوم في حياة إيڤان دينيسوڤيتش». (المترجم)

٤٥٣ . (الشيوعية مقابل النازية) . في عام ١٩٤٠م أعلنت الأكاديمية الروسية للعلوم في الدورية التي ينشرها قسم الفلك التابع لها أنَّ النظرية التي تقول بوجود نوع من السلام الاجتماعي النسبي هي «من خيال الأعداء عملاء الإمبريالية العالمية والدعاية الساقطة المدعومة من الأيديولوجيا البائدة» . ويُشير هذا إلى أنَّ كلاً من الدعاية الرسمية النازية والشيوعية كان لديها الآراء السلبية نفسها حول نظرية النسبية لأينشتين . فقد صرَّح دكتور ڤالتر غروس Walter Gross ، مستشار الدولة «لأرينة العلم» (أي صبغه بالصبغة الآرية) في ألمانيا النازية ، صرَّح في ١٩٤٠م بأنَّ نظريات أينشتين هي «من نتاج سُعار الليبرالية المُدنَّسة والحماقة الديمقراطية ، وهي غير مقبولة على الإطلاق لدى العلماء الألمان» .

٤٥٩ . في مقال روي ميدڤيدف المنشور في صحيفة «الجمهورية» الإيطالية (مايو ١٩٨٥م) تحت عنوان «سيئات وحسنات الرفيق ستالين» ، وردت الفقرة التالية : «في عام ١٩٤٣م ، أجاز ستالين وجود الكنيسة الأرثوذكسية واعترف من جديد بمنصب رئيس الأساقفة ، ونجح بهذا في استغلال ليس فقط القوى السوڤييتية ولكن أيضًا كلِّ القوة الوطنية الروسية . إلا أنَّه ، في الوقت ذاته ، هاجم بكلِّ قسوة السكَّان المسلمين في القرم والقوقاز وحوض نهر الڤولجا ، الذين طُردوا قسراً إلى سيبيريا والقوقاز ، حيث فقد مئاتُ الآلاف أرواحهم في عملية الإجلاء المُروِّعة هذه» .

٥١٧ . «تتمتَّع معسكرات العمل في الاتحاد السوڤييتي بسمعة طيبة باعتبارها مؤسَّسات لإعادة تأهيل الآلاف من البشر» هذه كلمات الصحفية الأمريكية آنا لويز سترونج في ١٩٧٣م . وتعليقي : يتقلَّب لهذه الكلمات الملايين من ضحايا هذه المعسكرات في قبورهم .

٥٧٦ . » . . وبدلاً من أن يُترك ربُّ الأسرة ليعود إلى بيته لتناول العشاء ، كان يُرسَل إلى المناطق التي يكون الطقس فيها مناسبًا للدُبِّ الأبيض ، لا للبشر» .

٥٩٢ . الواقعية الاشتراكية في الأدب والمزارع الجماعية في الاقتصاد تسيران معًا يدًا بيد .

٥٩٣ . «حملات التطهير» لا تتعامل مع البشر ، وإنَّما تنظر إلى الإنسان باعتباره مادة ، والمادة لا شخصية فيها ولا روح .

٦٢٧ في محاولة لاسترضاء النظام الستاليني الحاكم في المجر، قال چورچ لوكاش في كلمته أمام الأكاديمية المجرية للعلوم في يونيو ١٩٥١م إنَّ كتابات ستالين في حقل اللغويات (المنشورة عام ١٩٥٠م) ذات أهمية تاريخية، كما انتقد لوكاش زملاءه الذين يحاولون ترويج آراء بعينها غير مقبولة سياسيًا. كان انتقاد لوكاش لزملائه مجرَّد نوع من الشجب العلني، حيث دافع في ورقته عن الصورة الأكثر ابتذالاً من نظرية الانعكاس، مختزلاً الفن والأدب في مجرَّد العلاقات الاجتماعية الاقتصادية.

٦٢٩ يحكي منصور سيفيروڤيتش Mensur Seferovic في كتابه «الستة المحكوم عليهم» قصةَ ستة شيوعيين حكم عليهم الحزب الشيوعي بالإعدام في ١٩٤٢م لأنَّهم رفضوا تنفيذ قرار الحزب بتصفية عدد من وجهاء مدينة بيهاتش البوسنية. تراجع الحزب لاحقًا عن الحكم ولكن تحت شرط واحد: أن يقوم الرجال الستة بتنفيذ القرار في غضون موعد جديد مُؤجَّل. أُلغي القرار فيما بعد، ووقع ردُّ اعتبار للرجال الستة المحكوم عليهم (نقلاً عن صحيفة «التحرير»، ١ سبتمبر ١٩٨٥م).

٦٣٧ «لينين أكثر حياة من كلِّ الأحياء» أو «لينين أكثر إنسانية من كلِّ البشر»، يمكن قراءة هذه الشعارات أو شعارات مشابهة في شتى أنحاء الاتحاد السوڤييتي. ولاحقًا، يتغيَّر الاسم إلى ستالين ثم خروتشوف ثم بريغنيڤ.

641. في روايتها «الأجنحة الثقيلة» (التي تُرجمت في الغرب) تُصوِّر الكاتبة الصينية زانغ چي Zhang Jie الحياةَ في جمهورية الصين الشعبية بشكل مُروِّع: الفساد، المؤامرات، العلاقات الإنسانية المشوَّهة، استعباد النساء. جميع أبطال الرواية ساخطون على حياتهم، وجميع الشخصيات الإيجابية غير مهتمين بالسياسة. وقد قضت الكاتبةُ نفسُها عامًا في مؤسَّسة تعليمية إصلاحية أثناء ما يُعرف بالثورة الثقافية. وتصف زانغ چي في حوار مع مجلة «دير شبيغل» الألمانية الوضعَ في تلك المؤسَّسة بقولها: «كنتُ هزيلة نحيفة بشكل مُرعب، ومع هذا كان عليَّ أن أقوم بأشقِّ الأعمال التي لا يقوم بها إلا الرجال» (جاء هذا في مجلة «اليوم»، زغرب، ٢٨ أغسطس ١٩٨٥م).

٦٤٢ في كتابه «البُقع البيضاء في ثوب الاشتراكية» (الصادر عن غلوبوس، زاغرب،

١٩٨٥م) يصف يانيز ستانيتش J anez Stanic ما يُطلق عليه دائمًا تشوُّهات الاشتراكية في روسيا والصين. ويورد بعض النماذج القاسية التي تشمل المزارع الجماعية في الاتحاد السوڤييتي التي أُنشئت في الثلاثينيات، والمعروفة أيضًا باسم «تصفية المزارعين الأثرياء باعتبارهم طبقة»، وهناك الإبادة الجسدية الحقيقية التي قضت على حياة ستة ملايين إنسان (عبر النفي والموت في سيبيريا)، وهي الأحداث التي يعتبرها الكثير من المؤرِّخين، حتى المؤرِّخين السوڤييت مثل ميخائيل هيلر Mikhail Heller وألكسندر نكرتش Alexandr Nekrich، من أكبر جرائم الإبادة الجماعية في القرن العشرين. ولم تتعافَ الزراعة السوڤييتية إطلاقًا من هذه الأحداث، فالدولة التي يوجد بها أكبر مساحة من التربة الخصبة على مستوى العالم تعجز الآن عن إطعام مواطنيها وأصبحت من أكبر المستوردين للغذاء.

النموذج الثاني هو ما يُطلق عليه «الوثبة الكبرى إلى الأمام» Great Leap Forward في الصين في نهاية الخمسينيات، عندما أُجلي عشرات الملايين من الناس عن قُراهم ليعملوا في بناء المصانع والسكك الحديدية والسدود وما إلى ذلك (كان هذا يُطلَق عليه في الإعلام الرسمي «إطلاق الطاقات الإبداعية للجماهير»). كان هناك أحد نشاطات «الوثبة الكبرى إلى الأمام» المعروف باسم «حملة الصُّلب». نتج عن هذه الحملة بناء حوالي ٢ مليون ورشة صغيرة بدائية لتصنيع الصلب في المجتمعات الريفية، وكان يعمل فيها حين كانت الحملة في أوجها (١٩٥٨-١٩٥٩م) أكثر من ٦٠ مليون عامل. خلال تلك الفترة، أنتجت الصين حوالي ١١ مليون طن من الصُّلب، أنتجت مصانع الصُّلب الحقيقية ٨٠٪ منها، ولم يتعدَّ ما أنتجته الورش البدائية ٢٠٪. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك تفاوت هائل في عدد العاملين، حيث عمل في مصانع الصُّلب الكبرى حوالي مليون عامل وأنتجوا حوالي ٩ مليون طن من الصُّلب، بينما أنتج حوالي ٦٠ مليون عامل الـ ٢ ٢ مليون طن المتبقية. نُشرَت هذه البيانات في وقت لاحق خلال عملية «تصحيح الأخطاء». أمَّا المشكلة الأساسيةَ والخسارة الكبرى فقد نتجت عن توقُّف هذه الملايين عن زراعة أراضيهم (مجلة «اليوم» زاغرب، ٢٨ أغسطس، ١٩٨٥م).

٦٤٥ في كتابه «الشعوب المُعاقَبة» يستقصي ويصف الكاتب السوڤييتي ألكسندر نكرتش الإبادةَ الجماعيةَ التي قام بها ستالين ضد الشعوب الصغيرة في الاتحاد السوڤييتي.

كما أُقيل الجنرال غريغورينكو وأُعلن أنَّه مجنون وأُودع مصحة نفسية لأنَّه دافع عن ردِّ الاعتبار لتتار القرم والسماح لهم بالعودة إلى أرضهم.

٦٥٤ في كتابه «حكايات من كوليميا» (حول معسكرات الاعتقال الستالينية) قدَّم ڤارلام شالاموڤ(*) تصويراً للحياة والموت في سجون معسكرات سيبيريا. من المستحيل أن تُعيد حكي هذه القصص مرة أخرى، ومعظمها لا يكاد يُصدَّق، كما يقول بريدراغ ماتڤيچيڤيتش. ويقول سينياڤسكي: «تتَّخذ قصص شالاموڤ مقياسًا غريبًا: فهي بمثابة دليل لمدى تحمُّل المادة، ولكنَّه دليل مُطبَّق على الإنسان». في أغلب هذه الحالات المذكورة في الكتاب، تختفي الثقافة والحضارة في هذه المعسكرات أسرع مما يتخيَّل المرء. لا يوجد أبطال في [قصص]معسكرات الاعتقال السوڤييتية. يقول شالاموڤ: «كنتُ مجرَّد جثة تحيا وفقًا لعلم نفس الحيوان» (ص ٢٥١). «من بين أمور أخرى، قدَّم شالاموڤ إجابات لأسئلة مثل: كيف أصبح هذا ممكنًا؟ هذا الانتقام الجماعي من ملايين البشر مرَّ دونَ عقاب، لأنَّ هؤلاء البشر كانوا بلا حول ولا قوة» (بريدراغ ماتڤيچيڤيتش، «الصحيفة الإعلامية الأسبوعية» ١١ أغسطس ١٩٨٥م).

٧١٨ وما الذي كنتُ أنتظره من القُضاة (النوَّاب العموم والمحققين) الذين أقاموا معرفتهم بالقانون على المقدمة الماركسية التي تقول «إنَّ القانون هو إرادة الطبقة الحاكمة تحوَّلت إلى تشريعات» وهي صيغة تتعارض مع فكرة القانون تعارضًا يُنبي عن العبثية.

٧١٩ تقول القاعدة الكلاسيكية: لأن تترك مائة مذنب بلا عقاب خير من معاقبة بريء واحد. ولكنَّ لينين تبنَّى قاعدة مضادة: لا يهم إطلاقًا أن تعاقب على الجريمة بقسوة زائدة، ولكن يجب ألا تترك جريمة واحدة بلا عقاب»، ذكر هذا بوريس إيليسوڤ نائب وزير الداخلية السوڤييتي، في مقابلة مع مجلة «بانوراما» في ١٩٨٥م. وجاء في المجلة نفسها أنَّ ١٠٪ من الجرائم تبقى غير مُكتشَفة في الاتحاد السوڤييتي، أي تبقى بلا عقاب. وعلى حدِّ علمي، فالوضع في الولايات المتحدة عكس هذا تمامًا. أمَّا كيفية تحديد ثمن هذه «الكفاءة» وعدد الذين عوقبوا بهذه الطريقة، فهذه قصة أخرى.

(*) ڤارلام شالاموڤ (١٩٠٧- ١٩٨٢م)، كاتب وروائي وصحافي روسي، قضى حوالي ٢٥ عامًا في معسكرات الاعتقال السوڤييتية. من أشهر أعماله «حكايات من كوليميا» و«مقالات من العالم السفلي». (المترجم)

٧٤٦ تُشكّل الأقلّيات العرقية ٥,١٢٪ من سكّان بلغاريا البالغ عددهم ٩ مليون نسمة، وقد بدأت عملية «دمج الأقلّيات» في وقت مبكّر في ١٩٥٦م. ومنذ ذلك الوقت، دُمِّر عدد كبير من المساجد يصل إلى ١٢٩٩ مسجداً بالإضافة إلى رموز دينية وقومية أخرى. وأُعلن في مؤتمر الحزب الشيوعي البلغاري العاشر في ١٩٧١م عن إنشاء «أُمَّة اشتراكية واحدة»، وكذلك، وهذه طُرفة أخرى، دمج المواطنة مع الأصول العرقية. الذي حدث بعد ذلك كان صدور قرار بتغيير أسماء المسلمين إلى أسماء بلغارية، وكلُّ شيء كان يحدث باسم حماية الاشتراكية والشيوعية والوطنية. وهؤلاء الذين اعترضوا على هذا القرار قيل لهم: «من لا يريدون أن يواصلوا العيش في قراهم الأصلية ويريدون أن يغادروا، ستوفِّر لهم السلطات المختصة إمكانية المغادرة خلال ثلاث أو أربع ساعات» نطق هذه الكلمات ستانكو تودوروف عضو المكتب السياسي والمتحدث باسم الجمعية الوطنية لجمهورية بلغاريا الشعبية، في مطلع ١٩٨٥م (جاء هذا في صحيفة «ديلو» السلوڤينية، ١٢ مارس ١٩٨٥م).

٧٤٨ المقدمة الأساسية التي ينطلق منها ليشك كولاكوڤسكي Leszek Kolakowski هي أنَّ الدور التاريخي للماركسية قد اكتمل، وأثبت مشروع التغيير الثوري للعالم فشلَه.

٧٤٩ في عمليات الترحيل الجماعي للناس تنوَّعت الأساليب وكذلك حجم المُرحَّلين (بين ستالين، وماو، وبول بوت، و«الفارِّين من ڤيتنام على متن القوارب»، إلخ) إلا أنَّ رومانيا قد حقَّقت سبقًا وانفراداً في هذا الموضوع. فقد أصدرت رومانيا في ربيع ١٩٨٥م قراراً إداريًا أعلنت فيه أنَّ عدداً كبيراً من المواطنين (ألف شخص تقريبًا) غير مرغوب فيهم وقامت بترحيلهم. قامت السلطات الرومانية بشحنهم بكل بساطة على الطائرات وأرسلوهم إلى برلين الغربية وستوكهولم. ولم تكن السلطات في هذين البلدين تعرف كيف تتصرَّف، حيث وصل هؤلاء المُرحَّلون بدون جوازات سفر، ولم يتمكنوا من تحديد هوياتهم (من صحيفة «إنترڤيو» الأسبوعية، بلغراد، ٢٢ نوفمبر ١٩٨٥م).

٨١٣. اضطهاد الأقلِّيات هو نوع من «الحالة الطبيعية» التي يمكن تقييدها بالثقافة والحضارة. وقد رأينا في قرننا هذا أنَّ هناك حالات نمطية من الاضطهاد العرقي تحدث

-ولعلَّ المفارقة تكمن هنا- في الدول التي يوجد بها ما يُطلَق عليه «الديمقراطية الشعبية»: بلغاريا وألبانيا ورومانيا والاتحاد السوفييتي. مئات الآلاف من الأتراك والمقدونيين والصرب والغجر والأكراد الذين يعيشون في بلغاريا أُلغي وجودهم بين عشية وضحاها عبر مرسوم من الدولة، وأصبحوا بلغاريين بأسماء بلغارية. وفي ألبانيا، في الوقت ذاته، كان هناك ۱۲۰,۰۰۰ من المقدونيين وأبناء الجبل الأسود والصرب جرى تقليصهم بكلِّ قسوة إلى ما لا يزيد عن ۳۰۰۰ مقدوني يعيشون في تسع قرى. وفي الوقت ذاته، كانت هناك توتُّراتٌ متزايدة بين المجر ورومانيا حول مصير مليونين ذوي أصول مجرية يعيشون في ترانسيلڤانيا، وهم مجموعة تسعى رومانيا إلى تذويبهم في المجتمع الروماني (كما جاء في مجلة «اليوم»، ۱۷ ديسمبر ۱۹۸٥م). وأقلُّ استعلام من بلدهم الأم عن مصيرهم يُفهَم على أنَّه «تدخُّل في الشئون الداخلية» لدولة أخرى. ويبدو الميل إلى «تذويبهم» شيئًا طبيعيًا. كيف يحدث هذا، كظاهرة تدلُّ على التخلُّف، في دول من هذا النوع، حيث لا يتوقَّع المرء أن تكون «المعايير العرقية» مهيمنة؟ يكمن السبب في أنَّهَ لا يوجد في القانون ما يمنع هذا الميلَ الطبيعي نحو تذويب الآخرين؛ بل إخضاعهم وقمعهم. بل على العكس، فازدراء حقوق الإنسان وجميع الحقوق الأخرى، وهو السمة المُلازمة لهذه الأنظمة السياسية والأيديولوجيات الحاكمة، يفتح الباب على مصراعيه للنزعة القومية الهمجية لدى الأغلبية التي لا يعترض سبيلَها أيُّ شيء على الإطلاق. وفي هذا النوع من الدول، يمضي ازدراء حقوق المواطنين خطوة أبعد، حيث يحدث تجاهل قوانين الدولة ذاتها. فالحجة السائدة هنا هي حجة حرية الإرادة والاختيار التي تنشأ مباشرة من الصيغة الشهيرة التي قدَّمها ماركس (وإنجلز) حول أنَّ القوانين هي التعبير عن إرادة الطبقة الحاكمة.

٨٦٣. واجهت أوروبا في عام ۱۹۳۹م أصعب معضلة في تاريخها: أن تختار بين «شر فيه أمل» (الستالينية) و«شر لا أمل فيه» (النازية). هكذا كان يبدو الأمر، ولكن على المستوى النظري فقط. فكلاهما كان شرًا، وكلاهما كان ميئوسًا منه.

٨٩١. كان الفنَّانون في الاتحاد السوفييتي، أعضاء الاتحادات المُسجَّلة، ملتزمين، كما ينصُّ أحد القوانين، «بتصوير الحياة في ضوء المبادئ الاشتراكية» (وهذا أحد أصول الواقعية الاشتراكية). فالمشاعر والخبرات التي لا علاقة لها بالعمل والتنمية الاشتراكية

كانت تُعتَبَر من المنظور الاشتراكي لا قيمة لها، وليست ممتعة بما يكفي لتصبح موضوعًا للفن.

٨٩٢. هناك أسباب كثيرة تجعلنا نُصدِّق أنَّ عمليات إجلاء الناس خلال «الثورة الثقافية» في الصين كانت مصحوبة بأشكال غير مسبوقة من الإرهاب، بسبب وفرة التقاليد لدى الصينيين وخيالهم الهائل. كانت الثورة الثقافية غير ثقافية تمامًا؛ بل كانت الحركة الأكثر همجية في هذا القرن، ليس فقط بسبب العنف الذي صاحبها، وإنَّما أيضًا بسبب قمعها لعدد هائل من البشر، حيث يُقدَّر، بطريقة أو بأخرى، عدد من عانوا من وحشيتها بأكثر من ١٠٠ مليون إنسان.

٨٩٣. فيما يتعلَّق بحظر الكتب، ليست المشكلة الأكبر هي وجود قائمة بالكتب المحظورة، فالأسوأ من ذلك عندما لا توجد مثل هذه القائمة، ومن ثمَّ تصبح جميع الكتب، عدا تلك التي تُجاز رسميًا، إمَّا أنَّها مشبوهة أو محظورة، أي إنَّه توجد قائمة بالكتب المسموح بها بدلاً من أن توجد قائمة بالكتب المحظورة. إنَّها النزعة التدميرية في أقصى صورها التي مارسها الشيوعيون الصينيون في الفترة ما بين ١٩٦٦ و١٩٧٦م.

٩٦٠ خلال «الثورة الثقافية» الصينية تأسَّست «لجان مراقبة المسوخ البورجوازية». هذه المسوخ كانت الكتَّاب والفنَّانين بالدرجة الأولى.

٩٨٩ ذكر خروتشوف في خطابه في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي أنَّه من بين ١٣٩ عضوًا ومرشَّحًا للجنة المركزية الذين وقع عليهم الاختيار في المؤتمر السابع عشر للحزب، فإنَّ ٩٨ منهم اعتُقلوا وأُعدموا. كان ستالين هو صاحب فكرة «عدو الشعب» التي استُغلَّت كمبرِّر للقيام بأكثر أشكال العنف وحشية وعمليات الإعدام دون اتِّهامات مُوجَّهة أو محاكمات.

١٠٢٩ من منظور تاريخي، فإنَّ شرف إدخال قانون جريمة الدعاية المعادية، وهو ما يعني مصادرة حرية التعبير، يعود إلى أول دولة اشتراكية في العالم، أي الاتحاد السوفييتي. يقول لينين في المُقتَرَح الذي أعدَّه لتعديل القانون الجنائي في الاتحاد السوفييتي، في مايو ١٩٢٢م، يقول إنَّ الدعاية المعادية هي واحدة من ست جرائم جديدة

يُعاقب عليها بالإعدام. ويُقدِّم لينين مع المُقتَرَح التوضيح التالي: «أتمنى أن تكون الفكرة واضحة: لا بدَّ أن تكون صيغة القانون شاملة وعامَّة قدر الإمكان، لأنَّ الذي سيُحدِّد التطبيق المناسب لها هو القانون الثوري والوعي الثوري فقط» (من رسالة إلى المفوض القضائي ديمتري كورسكي، منشورة في الصحيفة اليومية «السياسية العالمية»، بلغراد، ١٨ مارس ١٩٨٦م).

١٠٣١ (القومية في ظلِّ الاشتراكية) انتشرت الأبجدية الكيريلية (*) بعد ثورة أكتوبر حتى في الأمم التي كان لها أبجديتها الخاصة وثقافتها الخاصة، مثل قرغيزستان وأوزبكستان وكازخستان. وقُدِّمَت تبريرات لهذا بأنَّها كانت كتابة وثقافة قديمة «أُقيمت على أُسس لغوية أجنبية». هذا الأسلوب الذي يغلب عليه طبع العنف إلى حدٍّ بعيد جعل الأبجدية الكيريلية هي الأبجدية الأساسية لبعض الأمم الضاربة بجذورها في التاريخ، وصولاً إلى الجمهوريات ذات السكَّان السلافيين. بل لا زالت الكيريلية تستخدم في منغوليا حتى اليوم.

١٠٤٤ في رواية «الأخوة كرامازوف»، أوضح دوستويفسكي -أو على الأقل أراد أن يوضِّح- أنَّ الإنسان السوفييتي الناشئ، الذي تُمثِّله عائلة كرامازوف (أليوشا، ديمتري، إيفان، فيودور؛ وجميعها شخصيات مختلفة تمامًا أحدها عن الآخر) لديه استعداد للأعمال العظيمة واستعداد للشر كذلك على حدٍّ سواء، ومن ثمَّ فلديه استعداد لإقامة مملكة الله وكذلك إمبراطورية الشيطان على هذه الأرض على حدٍّ سواء. وما حدث كان هو الأمر الثاني.

١٠٨١ يمكن فهم الشقاء الذي عاشته الإنسانية على أنَّه عقابٌ إلهي على محاولة الإنسان إنشاء جنَّة على الأرض بلا إله بل وضده. أخذ مثلُ هذا المشروع بُعدًا كوكبيًا في القرن العشرين، ومن ثمَّ كان العقاب ذا سمة كوكبية كذلك. لقد انتهت هذه المحاولة بإنشاء أكبر جحيم في تاريخ الإنسانية.

١٠٩٩ في القرن العشرين، بينما نحن فخورون للغاية باسم هذا القرن وإنجازاته، إذ بنا نجد أنفسنا أمام نوع من الأدب يُعرَف باسم «أدب المعتقلات» والذي وُلِد من رحم

(*) هي الأبجدية الخاصة باللغات السلافية كاللغة الروسية. (المراجع)

الأوضاع الرهيبة داخل معسكرات الاعتقال الستالينية والهتلرية. وتختلف مشاعر القُرّاء تجاه هذا الأدب؛ وقد يُفضِّل الكثيرون منهم ألا يقرأوه إطلاقًا، أن يُغمضوا أعينهم ويصمُّوا آذانهم تجاهه حتى لا «يعرفوا» به، هذا إذا كان لهم الحقُّ في تجاهله. وعندما يُواجهنا وصف المعاناة الإنسانية فقد نتَّفق مع الرأي القائل إنَّ هذا الأدب يُمثِّل «البصيرة النافذة التي تدرك الحقيقة القائلة إنَّ الإنسان، حتى في أدنى مستويات المهانة والذل، يكتشف أنَّ إنسانيته غير قابلة للتدمير النهائي، ومن ثمَّ فهو يدركها باعتبارها حقيقة تقع خارج حدود الطبيعة» (يوڤيتشا آشن، صحيفة ديلو، بلغراد، رقم ٤-٥، ١٩٨٦م، ص ٩).

١١٠٨ «يعرف المرءُ بمجرَّد أن يقضي بضع سنوات في معسكرات الاعتقال أنَّه لا يحتاج إلى أي شيء، ويُصبح كلُّ شيءٍ بالنسبة له ترفًا» هكذا كتبت الكاتبة الألمانية مارجريت بوبر نيومان Margarete Buber-Neumann التي قضت سنتين في أحد معسكرات الاعتقال السوڤييتية في كراغندي بكازخستان، ثمَّ قضت خمس سنوات أخرى في أحد المعسكرات النازية بعد أنَّ سلَّمها ستالين إلى هتلر (فقد كانت يهودية).

١١٦٢ وُلِد الكاتب الروسي ڤارلام شالاموڤ في ١٩٠٧م ورحل في ١٩٨٢م، كتب حكاياتٍ من معسكرات الاعتقال («حكايات من كوليميا»)، وكان قد قضى حوالي ٢٥ عامًا فيٍ معسكرات الاعتقال؛ من ١٩٢٩م إلى ١٩٣٤م، ثم من ١٩٣٧م إلى ١٩٥٧م. يقول هذا الكاتب الشهيد إنَّ الحصان يفقد قوَّته أسرع بكثير من الإنسان، وإنَّه لا يوجد حصان (عدا الحصان الياقوتي) يمكنه تحمُّل ما تحمَّله البشر في معسكرات ستالين في سيبيريا. ويَخلُص شالاموڤ من هذا إلى إنَّ الإنسان هو الحيوان الأكثر تحمُّلا، من الناحية الجسدية، وإنَّ هذا هو السبب (وليس عقله أو روحه) في أنَّ الإنسان عزل نفسه عن عالم الحيوان وأصبح إنسانًا في المقام الأول. ويواصل شالاموڤ قائلاً لعلَّ الأمل هو ما جعل الإنسان يصمد في أصعب الظروف، لأنَّ الحيوان لا يعرف شيئًا عن الأمل، بينما الإنسان، وبفضل قدر من الحماقة أيضًا، يتمسَّك بالأمل ويبقى على قيد الحياة رغم كلٍّ هذا.

١١٦٩ (حول الأحكام السياسية). يحدث كثيرًا أن ينظر عامَّة الناس إلى المتَّهمين بجريمة سياسية على أنَّهم مُذنبون، وذلك لأسباب «أنانية»، وهذا نوع من الآلية الدفاعية.

فالناس لا يقبلون حقيقةَ أنَّهم يعيشون في عالم (مجتمع) لا يحمي الإنسانَ فيه القانونُ ولا النظامُ، ومن ثمَّ تظهر لهم مشكلة؛ كيف يبقون صامتين إزاء هذه الأحكام الظالمة؟ ولهذا يُفضِّلون تصديق أنَّ هؤلاء المحكوم عليهم مجرمون، وأنَّهم على الأقل قد خرقوا القانون بشكل ما، وإلا ما كانوا قد حُوكموا وسُجنوا. فإذا حُكم على إنسان ما حتى ولو كان بريئًا وحُكم عليه ظلمًا، فإنَّ هذا الذي يُفكر في الأمر لم يعد آمنًا، وهذه هي الحالة التي يميل فيها الناس غريزيًا إلى رفض فكرة أنَّ الأحكام ظالمة، كآلية للدفاع عن النفس. وكلَّما كانت العقوبة أشدَّ وأكثرَ قسوة، كان الأسهل أن يفرض هذا الاستنتاج نفسه على المرء وأن يقبله. ففي حالة غياب الدليل، تُصبح العقوبةُ القاسيةُ نفسُها هي الدليل على وجود جريمة. وهكذا يُفكِّر عامَّة الناس: لو لم يكن مُجرمًا، لحُكم عليه بسنتين أو ثلاث وليس خمس عشرة سنة من السجن. وهذه هي بالضبط وجهة النظر التي اعتمد عليها من أصدر الحكم علينا (بطبيعة الحال لم تكن المحكمة هي التي أصدرت الحكم، وإنَّما لجنة الحزب).

وإذا لم تكن الجريمةُ واضحةً وظاهرةً، يُصبح الحُكم المُخفَّف محلَّ شكٍّ ويُظهر أنَّ السلطات غير واثقة بنفسها. أمَّا إذا كانت العقوبةُ قاسيةً، فلا مجال للشكِّ هنا. وبهذا يُعاقَب الإنسانُ البريءُ مرَّتين. وهذه حيلةٌ قديمةٌ، وقد لجأ إليها النازيون أيضًا، وطبَّقوها ليس فقط من زاوية مُدَّة العقوبة ولكن أيضًا في وحشية تنفيذها في معسكرات الاعتقال. (لو لم يكونوا خونة ما كانوا ليُعاملوهم بهذه الوحشية، إنَّهم خونة؛ هكذا كان يُفكِّر عامَّة الألمان).

١١٧١ كانت معسكرات الاعتقال الألمانية في غاية الوحشية، ومع هذا كانت خاضعةً للحسابات العقلية، قائمةً على نوع من العلم شيطاني. كان تعذيب سجناء المعسكر وإذلالهم أمرًا عقلانيًا بمعنى أنَّه كان مدروسًا بحيث تنكسر شخصية الإنسان وإرادته في أقلِّ وقت ممكن. وكانت شرطة الدولة السرية/ الجيستابو تُطبِّق المنهج نفسه في الاعتقالات، أي في انتقاء هؤلاء الذين سيُرحَّلون إلى المعسكرات. هؤلاء المُرحَّلون كانوا بالدرجة الأولى العناصر القيادية وقادة المجتمع الذين كانوا محلَّ شكٍّ بأنَّهم قد يُصبحون خصومًا للنظام. وقد تتَّسع دائرة المعتَقَلين إذا لم يكن هذا كافيًا. وقد نجح هتلر خلال وقت قصير نسبيًا وبحسابات قليلة نسبيًا في قمع المعارضة وتوجيه الشعب الألماني نحو الهدف الذي حدَّده.

أمَّا فيما يتعلَّق بأساليب معسكرات الاعتقال السوفييتية، فيمكن للمرء أن يقول إنَّها كانت كذلك قاسية ووحشية، ولكنَّها، على خلاف المعسكرات النازية، لم تكن خاضعة للحسابات العقلية المنطقية. كانت الوحشية من أجل الوحشية في ذاتها، وكان التعذيب بلا غاية على الإطلاق، وكانت الاعتقالات بلا أية دوافع أو منطق. ومع ذلك، تظلُّ معسكرات الاعتقال الألمانية إدانةً خطيرةً مُوجَّهةً ضد مَلَكَة الإدراك لدى الإنسان المُتحضِّر، وتُثبت أنَّه بدون الأخلاق لا يمكن إقامة النموذج الإنساني التراحمي. يقول برونو بيتلهيم، وقد كان هو نفسه أحد المعتقلين في المعسكرات، يقول: «بمجرَّد أن يصل المعتقل إلى المرحلة الأخيرة من التكيُّف مع أوضاع المعتقل، تكون شخصيته قد تغيَّرت ويبدأ في تقبُّل قيم «الوحدة الوقائية» Schutzstaffel باعتبارها قيمَه الخاصة». أحد السلوكيات «العقلانية» لمعسكرات الاعتقال الألمانية هو سلوكها مع المعتقلين العاجزين عن العمل والمرضى، حيث اعتبر الجيستابو أنَّه من الأفضل تصفيتهم بأسرع ما يمكن، ومن ثمَّ فقد قُتلوا أو حدث معهم أي شيء آخر ليُعجِّل موتهم. نتج عن هذا «الاختيار العقلاني» قتل جميع المعتقلين الضعفاء في مرحلة مبكِّرة خلال الأيام الأولى من اعتقالهم. يُسمي بيتلهيم هذه المعتقلات «معامل الجيستابو لإذلال الأحرار»، حيث كلمة «معمل» هنا ذات دلالة عقلانية، بل وعلمية، لكنَّها ليست إنسانية وتراحمية على الإطلاق.

١١٧٣ في معسكرات الاعتقال السوفييتية، كثيرًا ما قام الناس بإلحاق الأذى بأنفسهم عمدًا لكي ينالوا، ولو بشكل مؤقَّت على الأقل، حقَّ الدخول إلى المستشفى، وبهذا يهربون من ظروف الحياة والعمل التي لا تُطاق داخل المعسكرات. ولكن بمجرَّد تكرار هذه الحالات بشكل كبير، اكتشفت السلطات ما يحدث ولم تقبل إلا الإصابات المؤكَّدة. أمَّا الحالات الأخرى كلُّها فكانت توصف باعتبارها «إصابة مُتعمَّدة للنفس» وبهذا اعتُبر أصحابها مُخرِّبين وعوقبوا بعشر سنوات اعتقال إضافية. كتب عن هذا الأمر جوستاف هيرلنغ غرادينسكي في مقاله «البعث» (صحيفة «ديلو»، لوبليانا، ٤-٥، ١٩٨٦م).

١١٧٤ تظلُّ النازية والستالينية، بسبب معسكرات الاعتقال والأهوال الرهيبة، إدانةً خطيرة مُوجَّهة ضد الحضارة الغربية. ومهما يكن ما نُفكِّر فيه، فإنَّ هذه الأساليب الرهيبة

وهؤلاء الذين طبَّقوها، كلُّ هذا كان أحد الاحتمالات الكامنة في هذه الحضارة، وهو الاحتمال الذي تحقَّق للأسف.

١٣٦٠ في التعريف الشهير الذي وضعه لينين، «ديكتاتورية البروليتاريا هي سلطة وقوة مُطلَقة تعتمد على العنف. . » إلخ، (لينين، الأعمال الكاملة)، يمكن للمرء أن يدرك الإشادة بالعنف، ليس باعتبار العنف وسيلة أو حتى ضرورة طارئة، وإنَّما باعتباره هو مبدأ وغاية في حدِّ ذاته. هذه القصيدة الغنائية في مدح العنف لا تُغضبنا فحسب، وإنَّما تُزلزلنا.

١٩٤٦ يقول الكاتب البولندي ڤلاديسلاف بارتوزيڤسكي Wladyslaw Bartoszewski (الذي عانى من الاعتقال في معسكر أوشڤيتز النازي، ما بين عامي ١٩٤٠ و ١٩٤٥م، والذي اعتُقل بعد ذلك من عام ١٩٤٦ إلى عام ١٩٥٣م في بولندا، ليجد نفسه مُعتقلاً مرَّة أخرى من ١٩٨٥ إلى ١٩٨٦م باعتباره أحد نشطاء حركة «تضامن» في بولندا)، يقول: «من يُنقذ حياةَ إنسان واحد، فقد أنقذ البشرية كلَّها». قارن هذا بما جاء في القرآن الكريم: ﴿ **من قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاس جميعًا ومنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاس جميعًا** ﴾ مُنِح بارتوزيڤسكي جائزة الناشرين الألمان للسلام لعام ١٩٨٦م.

٢٠٠٤ أعلن ستالين أن الديمقراطيين الاشتراكيين هم أكبر تهديد للشيوعيين، و من ثمَّ فقد حظر أيَّ تعاون انتخابي بين الشيوعيين والديمقراطيين الاشتراكيين. وهكذا ساهم الألمان في وصول هتلر إلى السلطة بتصويتهم ضد الديمقراطيين الاشتراكيين في بروسيا.

٢٠٤٨ كان في روما القديمة قانونٌ يُعرف باسم محو الذاكرة Damnatio memoriae والذي يقضي بحذف أسماء جميع من ارتكبوا جريمة أو خيانة بحقِّ روما من جميع السجلّات وكتب التاريخ. وبناءً على هذا القانون، فقد حُذف اسم اثنين من الأباطرة، هما كاليجولا ونيرون. يمكننا أن نجد عملية مشابهة في الاتحاد السوڤييتي، ولكن بشكلٍ أكثر تطرُّفًا، وهي إعادة تفصيل التاريخ وإعادة تزييفه. إلا أنَّ الجانب الأكثر وضوحًا في عمليةٍ إعادة التفصيل هذه، وباستخدام المقص، بالمعنى الحرفي، هي تعديل الصور. في البداية،

كان الهدف من تعديل الصور مجرَّد تقديم القيادات وإنجازاتهم التنموية في صورة أفضل، أعني إيجاد نوع من الدعاية في شكل سيرة تصويرية. وبدءًا من الثلاثينيات فصاعدًا، تحوَّل الهدف إلى التخلُّص من غير المرغوب فيهم. فهؤلاء الذين استُبعدوا من الحياة السياسية اختفوا من الصور (وغالبًا كان هذا يعني التصفية الجسدية أيضًا). وقد أُقيم في ١٩٨٦م، في متحف الفن الحديث بباريس، معرضٌ للصور التي تُزيِّف التاريخ، وقد ضمَّ المعرض عددًا ضخمًا من تلك الصور السوفييتية المُنقَّحة. وقد أظهر المعرض أنَّ هذه العملية كانت تحدث دائمًا، إلا أنَّها لم تحدث بهذا الشكل الضخم المُمنهج القاسي إلا في الدول الاشتراكية في القرن العشرين. وقد جاءت أغلب الصور من الاتحاد السوفييتي والصين وكوبا وألبانيا (مجلة «بداية»، زاغرب، ١٤ نوفمبر ١٩٨٦م).

٢١٣٦ اتَّهم هربرت جورج ويلز G. H Wells في أحد كتبه (في العشرينيات) ونستون تشرشل بأنَّه لا يُصدِّق ما تقوله دعايته الخاصة عن البلاشفة أو الشيوعيين بأنَّهم وحوشٌ أيديهم مُلطَّخة بالدماء وما إلى ذلك. ويقول ويلز إنَّ تشرشل خائفٌ تمامًا من أنَّ الشيوعيين في طريقهم إلى خلق حقبة تاريخية جديدة حيث يسود التفكير السليم والإنجازات العلمية، وحيث «لن يكون هناك مكان لأمثال تشرشل».

٢١٤٩ كلُّ دولة أيديولوجية (حتى الدولة الإسلامية) تغرس مذهبها وأيديولوجيتها في أذهان أتباعها، بدرجات متفاوتة، وتفرض نسقها الخاص من المعتقدات والآراء، غير أنَّ هذه العملية في الدول الاشتراكية المعاصرة بعيدة تمامًا عن المنهج الشيوعي، فهذه العملية الآن ليس لها نسق مُحدَّد من القيم. فهي تطلب من أتباعها يوميًّا أن يقبلوا ويُصدِّقوا «الحقائق» الجديدة التي تمَّ تفصيلها لتتلاقى مع حاجات السلطة. وقد تتعارض حاجات اليوم مع حاجات الأمس. قبل توقيع معاهدة ١٩٣٩م بين السوفييت والألمان كان العاملون في الدعاية السوفييتية يتحدَّثون بطريقة معينة عن النازية، وبعد المعاهدة تحدَّثوا بطريقة مختلفة تمامًا، ومن ثمَّ كان مطلوبًا من الشعب كلِّه أن يُغيِّر بعض معتقداته ١٨٠ درجة بعد توقيع المعاهدة. وفيما بعد، في ١٩٤١م، خلال الحرب العالمية الثانية، قدَّمت الدعاية السوفييتية التحريضية «حقيقة» ثالثة عن الألمان مختلفة تمامًا، ومرَّة أخرى كان لا بدَّ للشعب أن يُصدِّقها. وما زالت الحكاية مستمرة، وتُعاد مرارًا وتكرارًا.

٢١٥٥ هناك حقيقة نالت أهمية عالمية تقريبًا، وهي أنَّ الحركة الاشتراكية قد ضاقت ذرعًا بالثقافة الإنسانية حيث كانت دائمًا في صراع مع الكتَّاب. من الخطأ الاعتقاد بأنَّ هذا الأمر كان قاصرًا على الشرق الاشتراكي، ففي الغرب، وبالتحديد بين الحربين العالميتين، يمكننا أن نجد الظاهرة نفسها، ولم تكن مصادفة على الإطلاق!

٢٢٣٢ الواقعية الاشتراكية هي أحد وجهي الواقع؛ أمَّا الوجه الآخر الوقح فكان مُعسكرات الاعتقال السوڤييتية. فصورة الواقع المُعالجَة على نحو مثالي هي تعويض عن الحقيقة الواقعية وتجميلٌ لها. والطغيان يحتاج إلى الكذب بشدة؛ فهو يُنتج الكذبَ تمامًا كما تُنتج الحريةُ السخريةَ. وبهذا التحليل، يمكن للمرء أن يبدأ من الطرف الآخر ليستنتج أنَّ الطغيان لا يمكنه أن يتحمَّل السخريةَ (ولنتذكَّر رواية ميلان كونديرا «المزحة»).

٢٢٣٧ قضت والدة الكاتب والشاعر السوڤييتي بولات أوكوچاڤا Bulat Okudzhava تسعة عشر عامًا في أحد معسكرات الاعتقال السوڤييتية.

٢٢٤٠ يوجد الآن في إحدى أقدم كنائس مدينة لينينغراد «متحف الإلحاد» («الصحيفة الإعلامية الأسبوعية» ٤ يناير ١٩٨٧م).

٢٢٦٢ تعلَّمنا في المدرسة أنَّ الإنسان دخل التاريخ وأصبح «كائنًا تاريخيًا» بمجرَّد أن تعلَّم كيف يكتب، ولكنَّه أصبح ما هو حقًا، أي أصبح إنسانًا، بمجرَّد أن تعلَّم كيف يتكلَّم، كيف يُعبر عن أفكاره. ثم ظهر أُناسٌ منعوه من الكلام واخترعوا تلك الجريمة سيئة السمعة؛ «الجريمة اللفظية»، جريمة الرأي، وأعادوا الإنسان إلى الحفرة المظلمة التي خرج منها.

٢٢٦٧ قال عالم البيولوچيا السوڤييتي تروفيم ليسينكو Trofim Lysenko ذات مرَّة: «نحن لا نُنجب بشرًا في الاتحاد السوڤييتي، نحن نُنتج كائنات حيَّةً ثمَّ نحولها إلى طُهاة وأطبَّاء وميكانيكيين وعُمَّال صيانة الطرق ومهندسين، إلخ». (مجلة «إنترڤيو»، ١٦ يناير ١٩٨٧م). صدِّق أو لا تُصدِّق، كان ليسينكو فخورًا وهو يقول هذا الكلام.

٢٢٩١ الاشتراكية تفاؤلٌ بالإكراه.

٢٣٠٦ أُنشئ في الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٢٥م جمعية أُطلق عليها «اتحاد الملحدين المناضلين». وفي الفترة من ١٩٢٢ إلى ١٩٤١م كانت تصدر عنه صحيفة اسمها «المُلحد»، وبدءًا من ١٩٢٥م كانت تصدر مجلة بالاسم نفسه. وفي الوقت ذاته، كانت صحيفتا «المُلحد» و«المُلحد المناضل» تصدران كذلك. وفي أكاديمية العلوم الاجتماعية (التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي) أُنشئ معهد خاص للإلحاد العلمي في ١٩٦٤م، وفي أحد برامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي لعام ١٩٦١م كُتب أنَّ الحزب يوصي باستخدام جميع وسائل النشاط الفكري المتاحة من أجل أن «يبرأ الناس من كلِّ هوى ديني» (من مقال «حلم الملحدين وإيقاظ المؤمنين» في صحيفة «الكفاح»، بلغراد، ٣١ يناير ١٩٨٧م).

٢٣١٠ بعض الإحصائيات عن الاتحاد السوفييتي: في ١٩٢٠م كان ٧٥٪ من السكَّان أُمِّين، و٨٢٪ من السكَّان يعيشون في المناطق الريفية. وبعد الحرب العالمية الثانية بقليل، كان عدد النساء يفوق عدد الرجال بعشرين مليون، وهن الآن يفقن الرجال عددًا بحوالي عشرة ملايين. أعمار الرجال أقصر، والأسباب: الفودكا والحوادث وظروف الحياة الصعبة. يعيش ثلث سكَّان المدن الكبرى بدون زواج، وتُعرف هذه الظاهرة في الاتحاد السوفييتي باسم «ظاهرة المنعزلين». وبينما كانت نسبة الطلاق منذ خمسين عامًا هي ٣,٢٪ من حالات الزواج، فقد ارتفعت النسبة إلى ٣٤٪ في ١٩٨٦م. وهذه هي النسبة المتوسطة على مستوى الاتحاد السوفييتي كلِّه، حيث تزداد النسبة سُوءًا في الجزء الأوروبي من الاتحاد السوفييتي، بينما لا يزال الطلاق أمرًا نادرًا إلى حدٍّ ما في آسيا الوسطى. أكثر أسباب الطلاق انتشارًا هو إدمان الزوج للخمور، والسبب الثاني هو العبء الثقيل على كاهل المرأة (فهي موظَّفة وتعمل في البيت كذلك). يوجد في الاتحاد السوفييتي ١٣٥ مليون من الموظَّفين و٥٨ مليون من المتقاعدين، وهناك ستة ملايين مهندس، مليونان منهم فقط لديهم مكان عمل مناسب. التعليم الثانوي إجباري على الجميع. ومن بين الـ ١٣٥ مليون موظّف يوجد ٣٤ مليون من الحاصلين على درجة جامعية (أو ما يُعادلها). عدد الأطفال في تناقص مستمر. والإجراءات التي اتُخذت لرفع نسبة المواليد لم تُؤتِ النتائج المطلوبة (المعلومات مُستقاة من عرض عالم الاجتماع السوفييتي إيقور بيستوَغيف لادا Igor Bestuzhev-Lada، «الصحيفة الإعلامية الأسبوعية»، ١ فبراير ١٩٨٧م).

٢٤٤٩ البلشفة أو «إضفاء الطابع الشيوعي» أصبح هذا هو الوصف المناسب لعملية السيطرة الكاملة والشاملة على كل مناحي الحياة.

٢٤٥١ في إحدى جلسات اتِّحاد كتَّاب موسكو، اتُّخذ قرار باستبعاد بوريس باسترناك(*) Boris Pasternak من اتِّحاد الكتَّاب السوفييت وحظر أعماله. وفي سجلات هذه الجلسة (التي عُقدت في ٣١ أكتوبر ١٩٥٨م) يمكن للمرء أن يقرأ تصريحات صادمة صدرت في الغالب عن كتَّاب مجهولين ضد زميلهم الذي كان مُتقدِّمًا عليهم من كلِّ الوجوه. تَرَأس الجلسةَ س. سميرنوف الذي طلب من الأعضاء المستقلِّين التصويت على القرار، وقال: «أوافق تمامًا على أنَّ رواية «دكتور چيڤاغو» هُراء، وأعتقد أنَّ هذا النازح الداخلي، بوريس باسترناك، يجب أن يُطرَد من الاتحاد السوڤييتي»، واقترح تقديم طلب إلى الحكومة السوڤييتية بطرد باسترناك من الاتحاد السوڤييتي. وقال أوشانين وزيلينين وبيرتسوف وبيزيمنسكي وسوفرونوف: «يجب أن يخرج من بلدنا»، وقال أنطونوف وسلواتسي ونيقولائيف: «إنَّ قصة باسترناك هي قصة الخيانة العظمى»، وقال سولوخين: «هذا الكتاب هو سلاح الحرب الباردة ضد الاتحاد السوڤييتي»، وقال باروزدين: «لم يعرف شعبُنا باسترناك ككاتب، ولكنَّه سيتذكَّره كخائن»، كما تحدَّث بوليڤوي وآخرون كثر بكلام مماثل. وبعد تسعة وعشرينا عامًا من هذا الموقف، في مطلع عام ١٩٨٧م، وفي القاعة نفسها التي جرى بها هذا الموقف، أُعيد لباسترناك اعتباره. وفي هذه المرَّة، وطبقًا لأوامر السلطات، وإن كانت مختلفة، تغنَّى الكتَّاب بمدح باسترناك. ولكن هل تحدَّثوا يومًا ما بما يقصدونه حقًا؟

٢٤٥٥ أخيرًا نُشرَت قصيدة «قُدَّاسٌ جنائزي» Requiem للشاعرة آنا أخماتوڤا وهذا هو تعليق صحيفة «بولوتيكا» اليومية (١٥ مارس ١٩٨٧م): «ظلَّت قصيدة آنا أخماتوڤا لوقت طويل هي الترنيمة السرية المحظورة لكلٍّ من عانى من الإرهاب الستاليني. أمَّا المؤسَّسة الأدبية السوڤييتية، التي اعترفت في ١٩٨٤م بآنا أخماتوڤا كأحد الأدباء السوڤييت

(*) بوريس باسترناك (١٨٩٠-١٦٠م) كاتب وروائي وشاعر روسي، مؤلِّف الرواية الشهيرة «دكتور چيڤاغو»، مُنح جائزة نوبل للأدب عام ١٩٥٨م، إلا أنَّ الاتحاد السوڤييتي منعه من استلامها، مما اضطرَّه للتنازل عنها. (المترجم)

في القرن العشرين، فقد صدَّقت على نشر قصيدتها «قُدَّاسٌ جنائزي» التي كانت بمثابة الترنيمة المحظورة لكلٍّ أولئك الذين سقطوا كضحايا الإرهاب الستاليني في الثلاثينيات. وقد نُشرَت القصيدة كاملة في عدد شهر مارس من الدورية الأدبية (أكتوبر)». قبل ذلك، لم يكن مُتاحًا للقُرَّاء السوفييت سوى بعض أجزاء من القصيدة فقط. القصيدة مُهداة إلى ابن الشاعرة الذي قُتل في أحد معسكرات الاعتقال. وقد جاء في أحد مقاطع القصيدة:

سبعةَ عشر شهرًا أتوسَّل إليك

أناديك، أن ترجع إلى البيت

أرمي بنفسي عند قدمي الجلاد

أنت ابني، ورعبي

كلُّ شيءٍ الآن يغرق في فوضى أبدية

ولم أعد أفهم

مَن الإنسان، ومَن الوحش

وإلى متى سأنتظر لحظة الإعدام؟

رحلت آنا أخماتوفا في ١٩٦٦م، وقد أُشيد بها في العقد السابق على الثورة البلشفية كأحد أبرز شعراء روسيا، وكان زوجها قد أُعدم في ١٩٢١م.

٢٤٥٦ هذه بعض الأشياء المعروفة عن ضحايا النظام الشيوعي في الاتحاد السوفييتي والصين. طبقًا للتقديرات في الغرب (بالطبع إذا كانت هناك أي تقديرات في الشرق فلا يُعلَن عنها) فقد قُتل من ثمانية إلى عشرة ملايين إنسان في حملة التطهير الستالينية خلال الفترة ما بين ١٩٣٦ و١٩٣٨م. أمَّا بخصوص فترة حكم ستالين من ١٩٢٤ إلى ١٩٥٣م، فقد ارتفعت حصيلة القتلى إلى ١٥ مليون إنسان. وعندما ذكر صحفي إيطالي عام ١٩٨٠م أنَّ ستالين قد قتل في حملات التطهير أكثر ممَّا قتلَت «الثورة الثقافية» في الصين (١٩٦٦-١٩٧٦م)، فقد علَّق الزعيم الصيني دينغ شياو بينغ قائلاً: «لستُ متأكِّدًا من هذا، لستُ متأكِّدًا على الإطلاق». أمَّا هُو ياو بانغ، الذي كان يشغل منصب السكرتير

العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني حتى عُزِل مؤخَّرًا، فقد كشف لمراسلي الصحف اليوغوسلافية عن الحقيقة التي كانت مجهولة حتى ذلك الوقت، وهي أنَّ تكلفة «الثورة الثقافية» كانت ثلاثة ملايين ضحية. وإذا أضفنا إلى هذا الرقم أعضاءَ عائلاتهم وأقاربَهم وأصدقاءَهم ومعارفَهم، الذي عانوا من الاضطهاد بسببهم أو معهم، فإنَّ التقديرات ترتفع لتصل إلى حوالي مائة مليون إنسان عانوا من هذه العملية البوليسية والسياسية (مجلة «اليوم»، ١٧ مارس ١٩٨٧م).

٢٨٤٣ بعد الخلاف الذي حدث بين الحزب الشيوعي اليوغوسلافي ومكتب الإعلام الشيوعي في عام ١٩٤٨م، وقعت عمليات نزوح قهرية للأقلِّيات العرقية اليوغوسلافية في بلغاريا والمجر ورومانيا. وقد أبلغ مندوب يوغوسلافيا في الأمم المتحدة، ياكسا بيتريتش، أبلغ الأممَ المتحدة عن عمليات الترحيل الوحشية للأقلية الصربية في رومانيا إلى مناطق شديدة البرودة في باراغان، في الواقع هي صحراء، وكانت عمليات الترحيل هذه تتمُّ بوحشية بالغة، ممَّا أدَّى إلى مصرع الكثيرين في أصعب ظروف يمكن تخيُّلها (مجلة «اليوم»، ١٦ يونيو ١٩٨٧م). كان الشيوعيون يحكمون رومانيا في تلك الأيام، وكانوا تحت السيطرة المطلقة للاتحاد السوڤييتي.

٢٨٤٦ من المثير أنَّ النازيين والشيوعيين على حدٍّ سواء عارضوا موسيقى الچاز، وكانوا يُسمُّونها «موسيقى آكلي لحوم البشر».

٢٨٨٨ عندما نُفكِّر في الثقافة والإنسان (الثقافة والإنسان المتحضِّر)، فلا ينبغي لنا ولا يمكننا وليس مسموحًا لنا أن نتجنَّب هذا السؤال: كيف تسنَّى لهذا الحنق والجنون والسعار والسفاهة والوحشية، كلُّ هذا الذي «قدَّمه» لهذا العالم نظامان استبداديان -النازية والشيوعية- كيف تسنى لهذا كلِّه أن يحدث في قرن الثقافة والحضارة هذا؟ ينبغي لإجابة هذا السؤال أن تجعلنا نعيد النظر مرَّة أخرى في جميع نظرياتنا وأفكارنا التي نربطها دائمًا بمفهومي الثقافة والحضارة.

٢٨٨٩ لا يمكننا أن نهدم جدار برلين، ولكن يمكننا أن نبغض ونحتقر من قاموا ببنائه. وذات يوم، سيَهدم استهجانُنا هذا الرمز المُخزي للهمجية في القرن العشرين.

٢٨٩٠ ماذا نقول عن دولة تنتهي الخلافات العلمية فيها بالنفي إلى سيبيريا؟

٢٨٩١ نيقولاي غوميليف Nikolay Gumilev ، شاعر روسي وزوج الشاعرة أنا أخماتوڤا، أُعدِم في بتروغراد بعد ثورة أكتوبر. أُعيد إليه الاعتبار في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوڤييتي.

٢٩٠١ أعلن ماو تسي تونغ صراحة أنَّ الإرهاب هو قانون النظام الشيوعي، وقال إنَّ الثورة الثقافية بحاجة إلى أن تتكرَّر كلَّ عشرين عامًا لكي تحول دون شيخوخة المجتمع وإصابته بالشلل (مجلة «اليوم»، ١٤ يوليو ١٩٨٧م).

٢١٢٦ كتب الصحفي ألكسندر ڤاسنسكي Alexander Vasinsky في صحيفة «الأخبار» الروسية عن ظاهرة «انقسام الإنسان»؛ أي التفكير في شيء والتحدُّث عن شيء آخر، وهي الظاهرة المفروضة على عدد كبير من المفكِّرين في الاتحاد السوڤييتي، ويُسمِّيها ڤاسنسكي «التفكير بانحراف». يقول روبرت تاكر Robert Tucker، الأستاذ بجامعة برينستون وأحد أهم الخبراء الأمريكيين بما يخصُّ الاتحاد السوڤييتي، يقول في أحد الحوارات: «يرجع أصل هذه الظاهرة إلى حكم ستالين الطغياني وإرهاب الثلاثينيات. فإذا لم يتعلَّم المرء كيف يسكت وكيف يتصرَّف على الملأ وفقًا للسيناريو المُحدَّد سلفًا، فإنَّ اختفاءه أمر وارد بدرجة كبيرة (الصحيفة الإعلامية الأسبوعية، ١٩ يوليو ١٩٨٧م).

٢١٣٠ كتب الناقد الثقافي الألماني ماكس نوردو(*) (١٨٤٩ - ١٩٢٣) كتابًا بعنوان «الانحطاط» حيث فسر ظهور الحداثة الأوروبية من منظور الاضطرابات النفسية. ومن المثير أنَّ كلًا من النازيين والماركسيين على السواء قد قبلوا تعبير «الفن المنحط» الذي قدَّمه، وهذا واضح من خلال الجدالات التي حدثت في روسيا في مطلع القرن مع أتباع الرمزية. كما ظهرت أفكار نوردو عن الفن «السليم» والفن «السقيم» (المنحط) فيما بعد في المقالات التي كان الشيوعيون المحافظون يناضلون من خلالها ضد معارضي الواقعية الاشتراكية.

(*) ماكس نوردو (١٨٤٩-١٩٢٣م) مفكر يهودي ألماني، وزعيم صهيوني سياسي، ومن أهم المساهمين في صياغة الصهيونية كما كان الساعد الأيمن لهرتزل. من أعماله: «الانحطاط» و«الأكاذيب التقليدية لحضارتنا» و«مفارقات» و«مرض العصر» (المترجم)

وفي إحدى المقالات التي كتبها مكسيم غوركي ضد الشاعر بول ڤرلين، يُشير غوركي بوضوح إلى نوردو.

٢١٣٢ إحدى ثمار الواقعية الاشتراكية في روسيا هي «رواية الإنتاج». وقد جاء إلى العالم أوّلُ مولودٍ ميِّت من هذا النوع مع غلادكوف، وكانت الرواية ذات عنوان لائق: الأسمنت.

٢١٣٨ وضع الشيوعيون مبدأ «التبرير الثوري» (الانتهازية) في مواجهة حكم القانون والشرعية، وهو المبدأ الذي تحوَّل إلى مُبرِّر للفوضى اللا نهائية والاستبداد؛ لأنَّ ما هو مُبَرَّر ثوريًا في مرحلة ما يكون مُفضَّلاً لدى الزعماء (في الغالب يكون رجلاً واحدًا) الموجودين في السلطة. وكما هو معروف، فعند نقطة بعينها يكونون قد انتهوا إلى أنَّه من المبرَّر تدميرُ القضاء المستقل وتدبيرُ محاكمات هزلية وفرضُ الرقابة والقضاءُ على نخبة الفكر والثقافة واحتلالُ دول الشعوب الأخرى وإجبارُ الملايين على النزوح الجماعي، وما إلى ذلك. وهذا كلُّه نتيجة لنظرية التبرير الثوري بدلاً من حكم القانون.

٢١٦٣ في عام ١٩٣٧م افتُتِح في مدينة ميونيخ معرضان كبيران: الأول هو «المعرض الكبير للفن الألماني» (الفن النازي في الحقيقة)، وبعد ذلك بيوم افتُتِح معرض «الفن المنحط» (التعبير الذي صاغه ماكس نوردو). قدَّم هذا المعرض الثاني ٧٣٠ قطعة (لوحات ومنحوتات وصور) لمائة واثني عشر فنَّانًا، وقُدِّمَت الحداثة الأوروبية هنا باعتبارها ظاهرة نفسية مَرَضية.

٢٢٠٦ قليلٌ من الناس يعرفون أنَّ غوبلز وزير إعلام هتلر كتب ثناءً على لينين (في كلمته «لينين أم هتلر؟») وأنَّه أوصى مخرجي السينما النازية بأن يدرسوا فيلم «المُدمِّرة بوتمكين»، في حين أنَّ الكاتب السوڤييتي ڤاسيلي غروسمان Vasily Grossman يتناول (في روايته «الحياة والمصير») الفكرةَ المذهلةَ التي تقول إنَّ اللينينية والنازية تشبه إحداهما الأخرى كأنَّهما توأمان. وفي أحد المشاهد في الرواية التي هي تنويع على هذه الفكرة، يتحدَّث ليز، الضابط في الوحدة الوقائية النازية، إلى ضابط روسي أسير وأحد الشيوعيين المقيمين في موسكو قائلاً: «صدِّقوني، من يعتقد أنَّنا إرهابيون فهو يراكم أيضًا إرهابيين».

٣٠٧٥ بعد الحرب مباشرة، حُكم على بوريسلاف بيكيتش (مؤلِّف ملحمة «الفروة الذهبية» وروايات عالمية أخرى شهيرة) بالسجن خمس عشرة سنة لعضويته في تنظيم شبابي ذي توجُّه اشتراكي ديمقراطي. قضى في السجن خمس سنوات ووصف هذه السنوات في الرواية التي تحمل العنوان المميَّز «السنوات التي التهمها الجراد».

٣١١٩ «تحت ضغوط هذه الأجواء العصيبة [الإشارة هنا إلى وضع وموقف وحدات البارتيزان/ جيش التحرير الوطني اليوغوسلافي، في منطقة الهرسك في ١٩٤٢م، التعليق من عندي]فقد تولَّد لدى القيادة العامة للبارتيزان Partisans وقيادة الحزب اعتقاد جازم بأنَّ من يقف وراء مليشيات التشيتنيك Chetniks (القوات الصربية غير النظامية) هو طابور خامس من المزارعين الأغنياء، والذين كانت تصفيتهم جسديًا هي المهمة الأولى لوحدات البارتيزان وفقًا للمراسلات بين مركز قيادة العمليات لقطاع منطقة كالينوڤيك مع القائد الأعلى لحركة التحرير الشعبية في شهر أبريل ١٩٤٢م، وكذلك وفقًا للتقارير التي أرسلها مركز قيادة عمليات منطقة الهرسك إلى القائد الأعلى. وحول الهجوم على تحصينات مدينة بوراتش، كتب قائد مركز العمليات لقطاع منطقة كالينوڤيك في تقريره: «عند إجلاء سكَّان المدينة سقطت المنازل واحدًا تلْوَ الآخر. أعتقد أنَّنا بحاجة إلى تطهير جميع الوحدات المتطوِّعة ونزع سلاح العدد اللازم منهم وإعدام بعضهم. وهذا يحدث الآن بالفعل في منطقة عمليات هذه القيادة. وبعد إسقاط مدينتي بلانينا وبيليمتشي، فإنَّنا نُخطِّط للقضاء على الطابور الخامس في مدينة ترنوڤو ثم مدينة زاغوري. لأنَّ هذه هي معقل المزارعين الأغنياء وميلشيات الخُضر. وسيكون من الأفضل لو كان بإمكانكم أن ترسلوا لنا بعضًا من نشطائكم السياسيين إلى هذه المنطقة ليوضِّحوا للناس ضرورة عملية تطهير المزارعين الأغنياء هذه». وبعد معرفة القائد الأعلى لحركة التحرير الشعبية بهذه الحملة التي يقوم بها قائد العمليات لقطاع منطقة كالينوڤيك، أصدر بعد يومين الأمر التالي إلى القائد ريد هاموڤيتش: «يجب تصفية كلٍّ من وقف في طريق الكفاح في مدينة بوراتش. هذا الأمر مسئوليتك الشخصية. وأيضًا، يجب عليك تطهير الطابور الخامس في المنطقة. ومن ثمَّ، عليك أن تتحرَّك بهمَّة أكثر». فردَّ قائد

قطاع منطقة كالينوفيك على القائد الأعلى سريعًا: «سنقتل بلا رحمة كلَّ من هو في الطابور الخامس، وسنحرق قرية غرادينا تمامًا. فما أصاب رفاقَنا في الهرسك من بأسٍ قد أصابنا أيضًا، لأنَّنا لن نستطيع أن نتحرك إلى أي جهة إذا لم نستأصل ليس الطابور الخامس فحسب، ولكن أيضًا من سينضمُّ إليهم في العشرين عامًا القادمة». (جميع الاقتباسات من كتاب «الحركة الإسلامية المستقلة والتقسيم الثالث عشر للوحدة الوقائية» من تأليف إنڤر ريچيتش Enver Redgich).

٣١٣٧ فَهِمَ البعضُ العبارة الرمزية التي تدور حول بناء مجتمع جديد فوق «أنقاض المجتمع القديم» بشكل حرفي، ومن ثمَّ لم يتوقَّفوا إطلاقًا عن التدمير. وكثيرًا ما تحوَّل هذا التدمير إلى تدمير التراث والاجتثاث العنيف للقيم الثقافية.

٣١٤٢ يقول أندريه سينياڤسكي Andrei Sinyavsky، وهو كاتب روسي مُهاجر وسجين سابق في معسكرات الاعتقال ويعيش الآن في باريس، يقول إنَّ احدَّ سجَّانيه قال في لحظة صدق: «أودُّ لو أضع الأدباء جميعًا، من أكبرهم إلى أصغرهم، شكسبير وتولستوي ودوستويڤسكي، جميعهم وكلّ واحد منهم، بلا استثناء، أودُّ لو أضعهم في مصحة للمجانين؛ إنَّهم يعترضون سبيل الحياة الطبيعي».

٣١٤٣ في الاتحاد السوڤييتي، كان هناك وضع قانوني خاص للكاتب المُتَّهم بشيء ما، حيث كان يوصف بأنَّه «مجرم في حقِّ الدولة على نحو خطير». وكان هذا ما وُصف به أندريه سينياڤسكي وعدد آخر من الكتَّاب الذين أُودِعوا في معسكرات الاعتقال.

٣١٦١ الاسم الرسمي للمؤسَّسة المسئولة في الاتحاد السوڤييتي عن الرقابة على الأدب والمواد المطبوعة عمومًا هو: لجنة حماية أسرار الدولة في الصحافة (مجلة «اليوم»، ١٠ نوفمبر ١٩٨٧م).

٣١٩٧ هذا وصفٌ لمحاكمة چوزيف برودسكي الحاصل على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٨٧م: «شاهدنا للتوِّ مسرحية مُدهشة لم ينقصها من عناصر الشكل شيء. نعم، لقد راعت المحاكمة كلَّ القواعد والأعراف: فعلى المنصة جلس على الكراسي المرتفعة المحفور

عليها شارات الاتحاد السوفييتي ثلاثةٌ من القضاة مرتَدين معاطف؛ أحدهم قاضي الشعب المعيَّن بشكل قانوني وهناك أيضًا القاضيان اللذان اختارتهما التنظيمات الشعبية، وكذلك هيئة المحلِّفين الشعبية المُعيَّنين بشكل قانوني. كلُّ شيء سار وفقًا للنظام المُعَدِّ سلفًا: استجواب المُدَّعى عليه، إفادات شهود الادعاء وشهود الدِّفاع، كلمة النائب العام وكلمة محامي الدفاع، مداولات القُضاة في الغرفة الخاصة، ثمَّ النطق المهيب للحكم باسم الجمهورية الروسية الاتحادية الاشتراكية، بل وتصفيق الجمهور بعد نُطق الحكم، وكذلك اصطحاب الحُرَّاس للمتَّهم من قاعة المحكمة. خداع في خداع» (نقلاً عن الكتاب الوثائقي التاريخي «مذكِّرات شخص غير متآمر» من تأليف إيفيم إتكند، لندن، ١٩٧٧م).

٣٢٨٦ عدد أعضاء الحزب الشيوعي الإيطالي في الجنوب الأقل تطوُّرًا (الأقرب إلى الطابع الريفي) أكبر من عدد الأعضاء في الشمال الصناعي ذي الطابع العُمَّالي، وهو أمرٌ شاذ من منظور الماركسية.

٣٢٩٠ «يُقدَّر عدد العاملين في الجهاز الإداري في الاتحاد السوفييتي بحوالي ١٨ مليون موظَّفًا. وعلى الأقل فإنَّ ثلثي هذا العدد من الموظَّفين زائدون عن الحاجة. ولكن خلف هؤلاء الاثني عشر مليون موظَّفًا الزائدين عن الحاجة هناك على الأقل عشرة ملايين عالة عليهم؛ مثل أطفالهم وآبائهم وأقاربهم وأصدقائهم المُقرِّبين. هولاء جميعًا يحصلون على بعض التسهيلات والامتيازات؛ مثل مخازن خاصة للأغذية ومستشفيات خاصة وعيادات خارجية وڤيلات وسائقين، إلخ. وهؤلاء هم أشرس المعارضين لأي تغيير» (من لقاء مع تنغيز أبولادزه Tengiz Abuladze مخرج فيلم «توبة»، في «الصحيفة الإعلامية الأسبوعية»، بلغراد، ٣١ يناير ١٩٨٨م).

٣٣٠١ عندما عُرض فيلم «توبة» الشهير المناهض للشيوعية للمخرج تنغيز أبولادزه في مدينة تبليسي عاصمة جورجيا، أُجري استطلاع رأي وكانت نتيجته أنَّ الجمهور أشاد بالفيلم كثيرًا وأثنى عليه، ومع ذلك كانت هناك استثناءات. فمن كان هؤلاء؟ يُجيب أبولادزه عن هذا السؤال في أحد الحوارات معه، متسائلاً: «كان هناك سبعة وعشرون بالضبط من المعترضين، وأغلبهم رجال قانون وقُضاة، وأعمارهم ما بين الستين والسبعين

عامًا. ألم يكن هؤلاء هم الذين يُرهبون الناس ويُعذِّبونهم وهم الذين يكشفهم فيلمي؟». ثمَّة عنف وظلمٌ في كلِّ المجتمعات، وكانت السمة المميِّزة للطغيان الشيوعي هي الفوضى المُتَستِّرة بإحكام وراء قناع من القانون والنظام، إنَّه النفاق الذي يُولِّد الفوضى الشاملة. بعض الناس يعيش ويموت في أنظمة كهذه ولا يعرف أبدًا الفرق بين الصدق والكذب. ومن خلال ثقتهم الساذجة في الصحافة والسلطات والبيانات الرسمية، فهم يعيشون في وهم مستمر، ومن ثمَّ فهم يدعمون الكذب والظلم بلا إرادة وبلا وعي منهم. وهؤلاء هم الذين تسمع منهم، مذهولاً، التبرير الساذج: «قرأتُ هذا في الصحف». الستالينية وهذه الجماهير الجاهلة غير المثقَّفة يسيران معًا يدًا بيد، ولا غنى لأحدهما عن الآخر.

٣٣٠٥ بعد أن قام إيزهوف Â Yezhov، قائد الشرطة السرية السوفييتية «مفوضية الشعب للشئون الداخلية» NKVD، بتنفيذ العديد من المهام الوحشية خلال حملات التطهير في نهاية الثلاثينيات، بناءً على أوامر ستالين، (كان آخرها إعدام كلِّ قيادات الكومسومول «تنظيم الشباب الشيوعي»)، اتُّهِم هو نفسه بالخيانة العظمى وأُعدِم (أعتقد أنَّه كان في أبريل ١٩٤٠م). حول تصفية قياداتِ الكومسومول، انظر صحيفة «بولوتيكا»، ١٥ فبراير ١٩٨٨م.

٣٣١٣ إنَّ العجز الموجود اليوم لا يُشبه العجز الساذج لدى الناس العاديين خلال النظام الإقطاعي أو الرأسمالية المبكرة أو في العصور الوسطى، فالأمر اليوم أصبح مسألة عجز مقصود ومُتعمَّد ومُنظَّم. ففي زمن الثقافة الواسعة ووسائل الإعلام ووسائل الاتصال، لا يمكن لهذا العجز إلا أن يكون مُتعمَّدًا ومُنظَّمًا.

٣٣١٧ حول أوضاع الأقلِّيات العرقية في دول ما يُسمَّى بالاشتراكية الفعلية (المنطقة السوفييتية): في المؤتمر الدولي لحقوق الإنسان الذي عُقد في ڤيينيسيا (في الأول من فبراير عام ١٩٨٨م)، اتَّهم الألمانُ بولندا باضطهاد الألمان في بولندا بعد الحرب العالمية الثانية، وأُشير إلى «اختفاء» البولنديين في الاتحاد السوفييتي، و طالَبَ الأتراك بإدانة بلغاريا لاستئصالها الأقلِّية التركية هناك عبر تغيير أسمائهم إلى أسماء بلغارية، بينما انتقد المجريون رومانيا بشدة بسبب التمييز العنصري ضد المجريين في ترانسلڤانيا، واعترض

الإيطاليون على الحالة المتردِّية للأقلية الإيطالية في يوغوسلاڤيا، إلخ. وفي كلمة واحدة، لقد اضطُّهدت الأقلِّيات العرقية في الأنظمة الشيوعية «الرافضة للقومية» في بولندا وروسيا وبلغاريا والمجر ورومانيا ويوغوسلاڤيا. يا له من أمر ذي دلالة!

٣٣٢٤ في دول ما يُعرَف بالاشتراكية الفعلية (الاتحاد السوڤييتي وما يتبعه) يُلاحَظ أنَّه يوجد احتكار حزبي للوظائف من خلال نظام ما يُعرَف بنظام النومينكلاتورا/ النخبة الحاكمة. النومينكلاتورا Nomenklatura هي في الحقيقة قائمة الوظائف المهمة في السياسة والاقتصاد والثقافة، إلخ، ولا يُعيَّن أحد فيها ولا يُستبعَد منها إلا بموافقة من لجنة الحزب. وتنقسم النومينكلاتورا في الواقع إلى قائمتين: قائمة المناصب المُتاحة فقط من خلال موافقة هيئة الحزب المنوطة بذلك، وقائمة الأفراد الذين يمكن اختيارهم لهذه المناصب. وكلا القائمتين يجري تداولهما داخل الحزب فقط (انظر الدراسة التي أعدَّها ڤلاديمير غواتي «مكانة الحزب في الأنظمة السياسية للدول الاشتراكية). وتتضمَّن النومينكلاتورا امتيازات تُوزَّع طبقًا للنظام الطائفي؛ فليس هناك حدود للامتيازات التي يحصل عليها أعضاء المكتب السياسي، وتحت هذه الطبقة هناك امتيازات متنوعة (مرتَّبات ضخمة، بيوت في الريف، مقصورات خاصة في القطارات، مدارس خاصة للأطفال، تصاريح دخول المستشفيات الخاصة، مخازن خاصة للأغذية، إلخ). وتُوزَّع الامتيازات بشكل هرمي، حيث تتناقص نوعيتها وجودتها ومقدارها من الأعلى إلى الأدنى (الصحيفة الإعلامية الأسبوعية، ٢١ فبراير ١٩٨٨م). وصفت إيڤا بيركوڤيتش Eva Berkovic في كتابها «مظاهر التفاوت الاجتماعي في يوغوسلاڤيا» نظام الامتيازات المشابهة في دولتنا (مرتبات، ڤيلات، وحدات سكنية، سيارات، منتجعات رخيصة الثمن لقضاء العطلات، إلخ) وهو النظام المنتشر من المستوى الفيدرالي حتى الجمهوري. وتقول بيركوڤيتش: «إنَّ أي نقاش عام، أو حتى نقاش داخلي على مستوى الحزب فقط، بشأن هذه الامتيازات كان يُمنَع باعتباره ضد الاشتراكية وضد الدولة». أما الفكرة التي تقول إنَّ وجود نظام النومينكلاتورا يعني أنَّ الانتخابات لا قيمة لها على الإطلاق ويُحوِّلها إلى مجرَّد مسرحية هزلية للناس البسطاء، هذه الفكرة لا تحتاج إلى أي توضيح أكثر من ذلك.

٣٣٦٢ منذ وصول غورباتشوف إلى الحكم، كُشفَ النقابُ عن كثير من الحقائق المجهولة عن فترة حكم ستالين. فمن بين أشياء كثيرة، تأكَّد أنَّ رجال لافرينتي بيريا Lavrentiy Beria اعتادوا أن يختطفوا الفتيات الصغيرات الجميلات من الشوارع، ثم يضعهون في السيارة ويأخذوهن إلى رئيسهم، وقد تختفي هذه الفتيات إلى الأبد بعد ذلك! (مجلة «اليوم»، زاغرب، ١٥ مارس ١٩٨٨م).

٣٣٧٢ ما يُميِّز الطغيان الستاليني عن الأشكال الأخرى المماثلة من الطغيان هو شموليته، حيث لم يكن ستالين يهتمُّ كثيراً بالتدقيق والاختيار. فلم يكن المفكِّرون أو الأدباء أو رجال السياسة أو الجنرالات أو رجال الأعمال أو المديرون أو اليهود هم فقط من عانوا من طغيانه وفقدوا حياتهم، وإنَّما شملت المعاناةُ الكثير من الناس العاديين، خصوصًا الفلاحين، حيث مات الملايين منهم جوعًا وبسبب الظروف غير الآدمية في حملات التهجير الجماعية وظروف العمل الوحشية في معسكرات الاعتقال. أمَّا الفصل الاستثنائي في هذه المأساة الشاملة فكان فصل المعاناة الشاملة للمرأة. وهناك الكثير من الشهادات والإفادات حول معاناة النساء وامتهانهن وتعذيبهن أكثر من الرجال (مثل كتابات سولجنيستين وشالاموف ويڤغينيا غينزبرج Yevgenia Ginzburg، إلخ). إنَّ معاناة المرأة في معسكرات الاعتقال الستالينية هي أكبر مأساة جماعية منظَّمة حدثت للمرأة في تاريخ الإنسانية.

٣٤١٢ يستشهد المؤرِّخ السوفييتي يوري بورشيوف، المتخصِّص في فترة عبادة شخصية ستالين، يستشهد برسالة تعود إلى عام ١٩٣٧م طلب فيها إيزهوف، وزير الداخلية حينذاك، موافقة ستالين على تصفية عدد كبير من الناس. وقَّع على الرسالة ستالين ومولوتوف، وكانت التوقيعات مشفوعة بكلمة «نعم». نُشرت الرسالة في مجلة «كومسومولسكايا براڤدا» في ٢ أبريل ١٩٨٨م، وجاء فيها:

الرفيق ستالين، أكتب إليك لأطلب التصديق على القوائم الأربع لأشخاص خضعوا لحكم هيئة المحكمة العسكرية:

١- القائمة الأولى (شخصيات عامة).

٢- القائمة الثانية (شخصيات عسكرية سابقة).

٣- القائمة الثالثة (شخصيات سابقة بجهاز الشرطة السرية).

٤- القائمة الرابعة (زوجات أعداء الشعب).

أرجو منكم التصديق على إنزال العقوبة بهم وفقًا للفئة الأولى.

التوقيع. إيزهوف

يُوضِّح بوريشوف المقصود بالفئة الأولى بأنَّها عقوبة الإعدام. ووفقًا لبوريشوف، فقد نظر ستالين إلى القوائم كلِّها، ووضع أمام كلٍّ منها «نعم» بالإضافة إلى توقيع كلٍّ من ستالين ومولوتوف) صحيفة «التحرير»، ٣ أبريل ١٩٨٨م، ص ٥).

٣٤٢٩ بعد عودته من المنفي في منطقة غوركي في ١٩٨٧م، أرسل أندريه سخاروف Andrei Sakharov رسالة إلى غورباتشوف تتضمَّن عدة أشياء، من بينها السطور التالية: «أناشدكم المساعدة على إطلاق سراح جميع سجناء الرأي، سواءء المعتقلين أو المنفيين، والذين حوكموا وفقًا للمواد ١٠٩/ ١ و٧٠ و١٤٢ من القانون الجنائي للاتحاد السوفييتي، والمواد المناظرة في قوانين الدول الأخرى، وكذلك سجناء الرأي الذين أُودِعوا المصحات النفسية الخاصة لأسباب أيديولوجية وسياسية» (الصحيفة الإعلامية الأسبوعية، ١٠ أبريل ١٩٨٨م، ص ٣٥).

٣٤٣٣ كتاب «تشريح أخلاق شخص ستاليني» لمؤلِّفه إيڤريم بيركوڤيتش، وهو عبارة عن السيرة العسكرية لميلوڤان چيلاس، وصف يوزا ڤلاهوڤيتش هذا الكتاب بأنَّه «بحر من الأعمال الجنونية الكارثية وجرائم القتل التي ارتكبها ميلوڤان چيلاس حينما لم يكن هناك أحد يردعه عن فعل ذلك».

٣٤٣٨ كانت طباعة واستيراد الكتاب المقدَّس محظورة في الاتحاد السوڤييتي حتى عام ١٩٨٨م. ففي هذا العام، ولأول مرة، وبمناسبة مرور ألف عام على دخول المسيحية إلى روسيا، سُمِح باستيراد ١٥٠,٠٠٠ نسخة من الكتاب المقدَّس مُهداة من جمعيات الكتاب المقدَّس الاسكندناڤية. وحتى ذلك الحين، كان الكتاب المقدَّس يُعامَل كأي سلعة محظورة، وكان يُعاقَب على طباعته كأي جريمة تهريب أخرى، أي بمصادرة المضبوطات

وغرامة قد تصل إلى السجن (صحيفة «بولوتيكا» ١٣ أبريل ١٩٨٨م، مقال مأخوذ عن صحيفة «الأخبار» النمساوية).

٣٤٤٥ سُحبت الجنسية السوفييتية من ألكسندر سولجنيستين في الأساس بسبب كتابه «أرخبيل الجولاج» بعد طباعته في باريس عام ١٩٧٤م. وقد سبق طباعةَ الكتاب حادثةٌ مأساوية: حيث حصلت إحدى المعتقلات سابقًا وصديقة الكاتب على نسخة من مخطوطة الكتاب ولم تُعدها إليه معتبرة أنَّ من واجبها الاحتفاظ بها في حالة اختفاء نسخة المؤلِّف الأصلية تحت أَي ظرف. إلا أنَّ نسختها هي التي صودرت، وشنقت هي نفسها بعد أن استجوبتها الشرطة. ولم يُقرِّر سولجنيستين طباعة الكتاب إلا بعد هذه الحادثة المأساوية؛ إذ إنَّه كان عازفًا عن طباعته قبل تلك الحادثة.

٣٤٨٩ لم يبدأ الإرهاب في الاتحاد السوفييتي مع ستالين، وإنَّما مع لينين. ويَعتبر سولجنيستين أنَّ لينين هو صاحب فكرة معسكرات الاعتقال، ويقول إنَّ الحجة التي اتُّخذت مبررًا لإنشاء معسكرات الاعتقال كانت هي المحاولة الفاشلة لاغتيال لينين، حيث وقَّع بعدها الزعيم البلشفي نفسه على قرارات الإرهاب الوحشي والجماعي. وبرَّر لينين إنشاء المعسكرات «بالحاجة إلى تنظيف التربة الروسية من الحشرات الضارة كلِّها»، ومن ثمَّ دخلت تعبيرات مثل «تنظيف» و«تطهير» إلى حيز الاستعمال، ولم يكن المجرمون بشرًا وإنَّما حشرات. وتُفيد الإحصائيات بأنَّه في نهاية عام ١٩٢٠م كان يوجد في الجمهورية الروسية وحدها ٨٤ معسكر اعتقال بها أكثر من ٥٠,٠٠٠ معتقل. ومنذ ذلك الوقت، وأعداد المعسكرات وكذلك المعتقلين في تزايد مستمر. ووفقًا لإفادة سولجنيستين، فقد اختفى أكثر من ٥٥ مليون إنسان خلال حكم الشيوعيين. وهناك مصادر أخرى تقول بأرقام أقل بكثير، إلا أنَّ أيًا منها لا يقل عن ١٥ مليون إنسان.

٣٤٩٢ جاء في كتاب «أرخبيل الجولاج» لألكسندر سولجنيستين: «لا بُدَّ أنَّ عمليات اعتقال الشخصيات العادية من أعضاء الحزب كانت وراءها فكرة خفية غير منصوص عليها صراحة في لوائح الاتهامات أو الأحكام القضائية؛ وهي أن تُنفَّذ الاعتقالات بقدر الإمكان بين أعضاء الحزب الذين التحقوا به قبل عام ١٩٢٤م. وطُبِّق هذا الأمر بصرامة شديدة في لينينغراد، حيث وقَّع كلٌّ من كان هناك على «وثيقة» المعارضة الجديدة (المقصود هنا

زينوڤيف وكامينيف، ملاحظة المؤلِّف). وإليكم صورة بسيطة توضِّح كيف كان الموقف بالفعل خلال تلك السنوات. كان أحد مؤتمرات الحزب المنعقد في إحدى مقاطعات منطقة موسكو يترأسه سكرتير جديد للجنة الحزب بالمقاطعة، والذي حلَّ محلَّ السكرتير السابق الذي اعتُقل مؤخَّرًا. وفي ختام المؤتمر تُقرأ رسالة تتضمَّن إجلالاً وتقديرًا للرفيق ستالين. وبطبيعة الحَال، وقف الجميع (تمامًا كما يقفز الجميع في المؤتمر واقفين على أقدامهم عند كلِّ ذكر لاسم ستالين). ودوَّت القاعة الصغيرة بعاصفة من التصفيق تحوَّلت إلى هتاف حماسي. مرَّت ثلاث دقائق، أربع دقائق، خمس دقائق، ولم تتوقَّف عاصفة التصفيق الحماسية. إلا أنَّ الأكُفَّ بدأت تشعر بالتعب، والأذرع المرفوعة كانت تتألَّم بالفعل. وكان كبار السنِّ يلهثون من التعب. حتى هؤلاء الذين كانوا يعبدون ستالين بالفعل بدأوا يشعرون أنَّ الأمر سخيف وثقيل الظل. ولكن، من يجرؤ أن يكون أول من يتوقَّف عن التصفيق؟ قد يفعلها سكرتير لجنة المقاطعة ويكون أول من يتوقَّف، فهو الذي قرأ الرسالة ولا يزال واقفًا على المنصة. لا، إنَّه سكرتير جديد، وقد جاء بدلاً من شخص اعتُقل بالفعل، وهو أيضًا يشعر بالخوف، لأنَّه في هذه القاعة الصغيرة يوجد عملاء من الشرطَة السرية يُصفِّقون ويراقبون باهتمام لمعرفة من سيكون أول شخص يتوقَّف عن التصفيق. واستمرَّ التصفيق الحماسي لزعيمهم في هذه القاعة الصغيرة النائية في هذه المدينة البائسة، استمر يهدر لمدة خمس دقائق، سبع دقائق، ثماني دقائق! لقد خارت قواهم! هذا أقصى ما لديهم جميعًا! ولن يتوقَّفوا إلا أن تصيبهم سكتة قلبية تنقذهم الآن! ويمكن لمن يقف في أبعد زاوية من القاعة أن يتحايل قليلاً ويُصفِّق بوتيرة أبطأ وأقل نشاطًا وحماسًا. ولكن ماذا يفعل هؤلاء الذين يقفون على المنصة، هؤلاء الذين يراهم الجميع؟ حتى مدير مصنع الورق، الرجل المستقل والقوي، والذي يقف على المنصة ويُصفِّق، هو أيضًا يعي أنَّ الموقف مُفتعَلٌ وبائس، ومع ذلك، فقد ظلَّ يُصفِّق لمدة تسع دقائق! وفي الدقيقة العاشرة، نظر مستميتًا تجاه السكرتير، إلا أنَّ السكرتير لم يجرؤ أن يتوقَّف. إنَّه جنون! جنونٌ جماعي! تبادل زعماء المقاطعات النظرات بين بعضهم البعض بأملٍ ضعيف، وواصلوا التصفيق متظاهرين بالحماسة على وجوههم، واصلوا التصفيق حتى سقطوا في أماكنهم، حتى حُملو خارج القاعة على نقَّالات. وحتى هؤلاء الذين بقوا في القاعة لم ينبسوا ببنت

شفة. ثمَّ، وبعد إحدى عشرة دقيقة، تظاهر مدير مصنع الورق بنظرة جادَّة وجلس. و. حدثت معجزة! أين ذهبت الحماسة التي لا تُوصف ولا تُقاوَم؟ فجأة، توقَّفو جميعًا عن التصفيق وجلسوا. لقد نجوا! وأخيرًا، الخلاص! ولكن، هكذا كانوا يكتشفون الأرواح الحُرَّة، وهكذا كانوا يتخلَّصون منهم. فقد اعتُقل مدير المصنع في الليلة ذاتها. وبكلِّ سهولة حكموا عليه بالسجن عشر سنوات بتُهمة مختلفة تمامًا لا علاقة لها بهذا الأمر» (مجلة «اليوم»، ١٧ مايو ١٩٨٨م).

٣٥١٣ كتب جوزيف برودسكي، الشاعر الروسي الحاصل على جائزة نوبل عام ١٩٨٧م، كتب يصف الاتحاد السوڤييتي: «إنَّه بلد مرعب تمامًا، ولكنَّ هذا الرعب هو ما يجعله بلدًا مثيرًا، كما أنَّ روسيا مثالٌ واضح وبسيط لما يستطيع الإنسان أن يفعله بإنسان آخر. أظهرت روسيا في هذا القرن درجة استثنائية من الإمكانيات السلبية داخل الكائن البشري. كانت روسيا بمثابة درس لما يمكن للإنسان أن يفعله. لقد هلك عدد هائل من البشر هناك، أُبيد الملايين، ولكن لكي تُبيد الملايين فأنت بحاجة إلى ملايين يقومون بعمليات الإبادة. ووفقًا للنتيجة النهائية والحساب الختامي، يمكن القول إنَّ روسيا تتكوَّن من جلادين وضحايا. وهكذا، أو نحوه، تجري الأمور هناك» (من حوار مع چيرزي إليغ لمجلة «بلس» البولندية، نُشر جزءٌ منه في دورية «المجلة الأدبية» الصربية، ١٥ مايو ١٩٨٨م).

٣٥٥١ «الطبقة العاملة الخالصة هي في الحقيقة قناع وهمي للدكتاتورية الاستبدادية. وفي الواقع، نجد أنَّ ما يُطلَق عليها «دولة العُمَّال» تتصرَّف باسمها، رغم أنَّها ليست من «العمَّال» في شيء. وقد توقَّع باكونين هذا الأمر في وقت مبكِّر في ١٨٧٠م، ففي أحد جدالاته مع ماركس قال إنَّه لن يكون العُمَّال هم من يحكمون، وإنَّما العُمَّال السابقون سيحكمون العُمَّال الفعليين، وإنَّ هذا الحكم سيكون أكثر وحشية من الحكم الرأسمالي» (البروفيسو دراڤين كالوجيرا Draven Kalodjera، مجلة «بداية»، ١١ يونيو ١٩٨٨م).

٣٥٧٦ «في حين أنَّ المثقَّف الفرنسي تفاعل مع الظواهر الاجتماعية مهتديًا في ذلك باختياره أو اختيارها الحر فقط، بضميره الخاص أو ضميرها باعتباره الحكَم الوحيد، فإنَّ

تاريخ المثقَّف في أوروبا الشرقية هو تاريخ طويل ومؤلم من الحظر والحلول الوسط والرقابة والرقابة الذاتية والتشهير والاعتقال وإعادة الاعتبار بعد الموت» (من تقديم دانيلو كيش(*) لكتاب «في مديح المثقَّفين» من تأليف برنارد هنري ليڤي Bernard-Henri Lévy ، بلغراد، ١٩٨٨م).

٣٥٨٠ الشريحة البيروقراطية هي الأكثر عدداً والأقوى مكانة في المجتمع السوڤييتي، ويصل عددها إلى حوالي ١٨ مليون رجل وامرأة.

٣٥٨١ يوضِّح الفنَّان السوڤييتي إيليا غلازونوف Ilya Glazunov في أحد الحوارات معه كيف دُمِّر ٨٠٪ من موسكو القديمة من أجل إنشاء الوحدات السكنية الشيوعية، «آلات الإسكان» كما كان يُسمِّيها لي كوربوزيه (مجلة «اليوم»، ١٨ يونيو ١٩٨٨م).

٣٥٨٢ نشر بيير بورديو Pierre Bourdieu كتابًا في فرنسا عام ١٩٨٨م عن الشخصيات الأغنى في العالم، وهو ثمرة عامين ونصف من العمل وشارك فيه نحو ثلاثين خبيرًا، وذُكر فيه أيضًا الرئيس الروماني نيكولاي شاوشيسكو. ويقول الكتاب إنَّ شاوشيسكو كان لديه ثروة شخصية تُقدَّر بحوالي ٣٣ مليار دولار، وإنَّه كان يُدير الدولة كما لو أنَّه مدير لشركة بها اثنان وعشرون موظَّفًا، كما أنَّه كان يستعرض كلَّ الدلائل الخارجية التي تُظهر ثروته الهائلة (القصور، الطائرات، اليخوت، إلخ). (مجلة «اليوم»، ٢٨ يونيو ١٩٨٨م).

٣٥٨٤ رحل نيكيتا خروتشوف في ١٢ سبتمبر ١٩٧١م، ودُفن كمواطن عادي في المقبرة الجديدة بموسكو. وأعلنت وسائل الإعلام أنَّ «نيكيتا خروتشوف رحل، كمواطن متقاعد». وفي عام ١٩٨٤م رحلت زوجته نينا، التي كانت ناشطة في الحزب لسنوات عديدة. وبهذه المناسبة، نُشر نعيٌ في صحيفة موسكو المسائية اليومية يُعلن عن وفاة نينا بيتروڤنا كوهارتشوك Nina Petrovna Kukharchuk. لقد حُذف لقب خروتشوف تمامًا.

(*) دانيلوكيش (١٩٣٥- ١٩٨٩م) أديب وروائي صربي يوغسلافي يعتبر من أهم أدباء يوغسلافيا السابقة في القرن العشرين. من أهم أعماله المجموعة القصصية «ضريح لبوريس داڤيدوڤيش» ورواية «الحديقة والرماد». (المترجم)

هذه التفصيلة لا قيمة لها بالنسبة للمرأة الميِّتة، ولكنَّها ذات دلالة مخيفة كعَرَضٍ لشيءٍ آخر؛ إذ لم يبقَ أمامنا سوى ستة عشر عامًا من القرن العشرين.

٣٦٣٢ (حول الأشكال المختلفة من الطوبيا) هناك الطوبيا الأدبية عند توماس مور وتوماسو كامبانيلا، وهناك الطوبيا الواقعية عند ستالين وماو تسي تونغ وبول بوت. وكذلك هناك ما يُعرف بالطوبيا الإيجابية (ألدوس هكسلي) والطوبيا السلبية (چورچ أورويل). وأعتقد أنَّني يمكنني أن أكتب كتابًا فكرته المحورية أنَّه لا يوجد فرق جوهري بين هذه الظواهر التي تُسمَّى طوبيا، سواء كانت أدبية أو واقعية، إيجابية أو سلبية. فنفي الفرد (الشخصية) في الطوبيا الأدبية يتحوَّل إلى إبادة فعلية واستئصال للإنسان في دول الطوبيا عند ستالين وبول بوت(*) Pol Pot كما أنَّ ما يُعرف بالطوبيا الإيجابية لا تقل همجية عن الطوبيا السلبية، وكلاهما لا يعترف بالإنسان ولا بوجود الله. إنَّ الطوبيا ما هي إلا محاولة لخلق «الجنة على الأرض»، بدون الله وضد الله. والنتيجة معروفة. ورغم أنَّنا قد عرفناها، إلا أنَّنا لم نستطع إثباتها حتى منتصف القرن العشرين. والآن، عند نهاية قرننا هذا، أصبح كلُّ شيء واضحًا، وما حدث كان تجربة تاريخية. وللأسف، كان ثمن التجربة مائة مليون مأساة إنسانية وعائلية.

> *اليوم هو الثامن من أغسطس ١٩٨٨م، بلغتُ الثالثةَ والستين من عمري، وقد أمضيتُ في السجن خمس سنوات ونصف، وبقي أقلُّ من نصف المدة؛ ثلاث سنوات ونصف. وبينما تقع خارج السجن أحداثٌ عاصفة مُثيرة، فأنا لا أملك إلا مراقبتها. ومع ذلك، فهذا أفضل من لا شيء. يبدو المشهد في غاية الإثارة.*

٣٦٤٠ يحكي محمد أسد في كتاب «الطريق إلى مكة» قصة انطباعه الأول، والذي استمر بعد ذلك، عن الاتحاد السوڤييتي. وقعت القصة في محطة قطار «مارڤ» في

(*) بول بوت (١٩٢٥-١٩٩٨م) قائد الحركة الشيوعية (الخمير الحمر) في كمبوديا من ١٩٦٣ إلى ١٩٨١م، ورئيس وزراء كمبوديا من ١٩٧٦ إلى ١٩٧٩م. فرض خلال توليه للسلطة سياسات قمعية دموية، وبعد اجتياح القوات الڤيتنامية لكمبوديا في ١٩٧٩م انهارت حركة الخمير الحمر وهرب مع من تبقَّى من الحركة إلى منطقة الغابات في جنوب غرب لكمبوديا حتى اعتقله القائد العسكري للخمير الحمر في ١٩٩٧م. (المترجم)

تركمنستان في ١٩٢٦م. على أحد جدران المحطة كان هناك مُلصَق ضخم ذو تصميم أنيق يُصوِّر شابًا من الطبقة العاملة يرتدي زيَّ العُمَّال الأزرق يركل رجلاً مُسنًا غريب المنظر بلحية بيضاء ويُخرجه من بين سُحب السماء. وفي أسفل المُلصَق، كُتب تعليق باللغة الروسية: هكذا أطاح عُمَّال الاتحاد السوفييتي بالإله من سماواته! التوقيع: اتحاد الملحدين في الاتحاد السوفييتي.

٣٦٧٣ يقول إيڤان كريچنار Ivan Krijnar، رئيس لجنة «تاريخ الحزب الشيوعي السلوڤيني»، يقول في مقابلة مع صحيفة «الكفاح» اليومية حول عمليات داتشاو Dachau processes إنَّ مجموعة من قيادات وزارة الداخلية السلوڤينية، التي تُطبِّق الأساليب الستالينية، قامت في ١٩٤٢م بإعدام المشتبه فيهم الذين وجدوهم في المنطقة المُحرَّرة في وادي دولينسكا في سلوڤينيا. وقد تلقَّت هذه المجموعة تدريبات في أكاديمية ديرجنسكي للشرطة في موسكو، وشكَّلت أساس الشرطة السرية السلوڤينية. كما شاركت هذه المجموعة فيما بعد في تنفيذ عمليات داتشاو (مجلة «اليوم»، ٣٠ أغسطس ١٩٨٨م).

٣٦٧٥ هذه واقعة مثيرة تُلقي الضوءَ على منطق وتفكير الحكم الشيوعي. ففي بولندا، على سبيل المثال، وخلال الموجة الأخيرة من الإضرابات في عام ١٩٨٨م، كانت هناك اتهامات متواصلة للعُمَّال بأنَّهم لا يرفعون مطالب اقتصادية فحسب، بل وسياسية أيضًا (تُشير السلطات هنا إلى مطلب العُمَّال بالاعتراف القانوني بحركة تضامن). انظر إلى النقد. لماذا لا يملك العُمَّال الحقَّ في رفع مطالب سياسية؟ متى فقدوا هذا الحقَّ. ومن ذا الذي انتزعه منهم؟ ومع ذلك، فالسلطات البيروقراطية، وبكل صفاقة، تَعتبر أنَّ العُمَّال وغيرهم من المواطنين لا يملكون مثل هذا الحقَّ، بل ونجحت هذه السلطات في إقناع معظمهم، عبر إعادة وتكرار هذه النقطة مرارًا وتكرارًا، بأنَّ هذا السُخف والهراء هو شيءٌ منطقي ومعقول. ومن هنا نجد أنَّ المواطنين، عندما يطالبون بالنظر في حقوقهم أو عندما يُقدِّمون الشكاوى، فإنَّهم يقولون إنَّ مطالبهم (لا سمح الله!) لا علاقة لها بالسياسة. فالحقوق السياسية حكرٌ على البيروقراطية الشيوعية إلى الأبد.

أفكار حول الإسلام؛
ملاحظات تاريخية وغيرها

الفصل السادس

أفكار حول الإسلام: ملاحظات تاريخية، وغيرها

٤٠ . لقد بقينا حتى الآن نتحدَّث عن الخسائر والهزائم التي ألحَقَها بنا الآخرون. وحان الوقت لأن نبدأ الحديث عن الخسائر والهزائم التي ألحقناها نحن بأنفسنا، وستكون هذه بداية رُشْدنا.

٤١ . يمكن تعريف الصيام باعتباره أوضح محاولة للروح لترويض الجسد والحفاظ على هذا الانتصار والتمسُّك به ولو بشكل مؤقَّت. ويمكن تحديد معان وفوائد أخرى للصيام، ولكن من الواضح أنَّها ذاتُ صلة ثانوية بالموضوع. وتبقى الدلالةَ الأولى والأهم للصيام هي العلاقة بين الجسد والروح، وتعزيز الجانب الروحي.

٤٢ . لماذا لا تكون الشعوب التي ترتبط صلاتها بالطهارة واحترام الوقت مثالاً للنظافة والدقَّة؟ لماذا لا تكون الشعوب التي تَحرم نفسَها من الطعام والشراب ثلاثين يومًا في السنة مثالاً لضبط النفس والسلوك؟ بعد أربعة عشر قرنًا من هذه الممارسات التي تكون أحيانًا قاسية وصارمة، كيف لا تكون النظافةُ والدقَّةُ وضبطُ النفس عادات ثابتةً بل وهَوَسًا بالنسبة لهم؟ من يُقدِّم إجابة مُقْنعة لهذين السؤالين يستحقُّ جائزة نوبل.

٧٧ أثبت هيرودوت أنَّ شعب الكولخيد (شعب قديم كان يستوطن ما يُعرف اليوم بسوريا) وقدماء المصريين والإثيوبيين قد مارسوا الختان.

٨١ . يعتقد هيجل أنَّ ما تتميَّز به حكايات «ألف ليلة وليلة» من خيال وسحر هو أمر غريب على الروح العربية، ويتلمَّس جذوره في مصر. وكما نعلم، فإنَّ هامر(*) لديه رأي مماثل.

٨٣ . القرآن والإسلام هما الوسط الذي يعيش فيه العالَم كما يعيش السمك في الماء.

(*) جوزيف ڤون هامر (١٧٧٤-١٨٥٦م) مستشرق نمسوي، ترجم أجزاء من ألف ليلة وليلة وسيرة عنترة بن شدَّاد وتائية ابن الفارض إلى الألمانية، وقام بمحاولة أولى لكتابة تاريخ الأدب العربي. (المترجم)

٨٤ . في حين أنَّ القومية هي علاقة تقوم على رابطة ماديَّة طبيعية، فإنَّ الإسلام هو علاقة تقوم على الروح والشريعة والأخلاق.

١١١ في تاريخ الشعوب الإسلامية، يجب أن نُفرِّق بين هؤلاء الذين بدأت ثقافتهم مع دخولهم في الإسلام، وهؤلاء الذين كانوا على درجة ما من الثقافة قبل دخولهم في الإسلام، ونحن نلتقي بكلتا الحالتين في التاريخ الإسلامي.

١١٧ «لم يُعرَف أنَّ الحماسة قد حقَّقت مآثر عظيمة كهذه من قبل» هكذا كتب هيجل عن الانتشار المبكِّر للإسلام. (هيجل، فلسفة التاريخ).

١٦٥ وفقًا لما يقوله فضل الرحمن في كتابه (الإسلام، دار نشر جامعة شيكاغو، ١٩٧٩م)، فإنَّ مثل هذه الفلسفة حول السلام مع الكون قد «حملت الرخاء في وقت كان الوضع الظاهر أبعد ما يكون عن الاستقرار» وجاءت «في المجتمع الذي صار عُرضةً بشكل متزايد للانحلال والتفسُّخ الجوَّاني». ويبقى السؤال قائمًا حول ما إذا كانت هذه الفلسفة سببًا لذلك الوضع أم نتيجة له؟

١٨٥ في البداية، كان القرآن يُفسَّر بحرية، إلا أنَّ عملية التفسير الإبداعي «التفسير بالرأي» قُيِّدَتْ تدريجيًا بالسُّنَّة والقياس والإجماع وما شابه ذلك، إلى أن تجمَّدت بنظرية «إغلاق باب الاجتهاد» (في القرن الثالث الهجري). وتوقَّف الإبداع تمامًا.

الإجماع في الإسلام يعني الاتفاق الجماعي في الرأي.

١٨٧ كان هناك موقفٌ في التاريخ أُطلق عليه «الاعتراض التقليدي» على الحديث، ولم يكن المعترضون يعترضون على الحديث ذاته، ولكنَّهم قالوا إنَّ (العمل)، أي الفعل الثابت عن النبي باتفَّاق الآراء، أكثر مصداقية من الحديث في تفسير القرآن ومدلولاته، حيث يمكن التشكيك في صحة الحديث.

١٩٢ يُعاتب القرآنُ الرسولَ ﷺ وذلك كما في سورة التوبة الآية ٤٣، ومطلع سورة عبس.

١٩٥ أقرَّ أصحاب المدارس الفقهية المبكِّرة مبدأ الإجماع باعتباره الحجة الواضحة والحاسمة في كل شيء، رغم أنَّ التركيز لم يكن على الصحة المطلقة لمضمونه، ولكن على قيمته العملية.

١٩٦ أخذت العقيدة والفقه الشكل النهائي في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري (أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الميلادي)، وأُغلقت أبواب الاجتهاد. ومنذ ذلك الحين وحتى الآن، طرأت تغييرات قليلة للغاية على الفقه والعقيدة الإسلامية.

١٩٧ يستشهد الماوردي (المتوفَّى ٤٥٠ هجرية) بحديث يقول إنَّه يجب طاعة الحاكم حتى ولو كان فاسدًا، بشرط ألا يُصدر أوامر فاسدة (نقلاً عن فضل الرحمن، الإسلام، ص ١١٨).

١٩٨ الواقع هو أنَّ مستشاري الملوك الأمويين لم يفسّروا القرآن والحديث على أساس قاعدة المصالح والمفاسد، ممَّا أدَّى إلى تحريفات خطيرة. وخلال حكم العبَّاسيين أُلحقَتْ بالشريعة بعضُ التشريعات القليلة التي صدرت عن السلطات المدنية، بينما قام السلاطين الأتراك بسَنٍّ قائمة من التشريعات عُرفت باسم (القانون)، وذلك بالإضافة إلى الشريعة. ويستنتج فضل الرحمن أنَّ «التشريع الوضعي كان نتاجًا لحكم السلاطين وليس الخلفاء» (فضل الرحمن، الإسلام، ص ١٢٢). وحيث إنَّ القُضاة كانوا مُعيَّنين من قِبَل سلطات الدولة، فإنَّ استقلالهم كان موضع شكٍّ إلى حدٍّ كبير. ولهذا، تشير بعض الأدبيات إلى حالات عديدة خلال حكم الأمويين حيث كان العلماءُ والفقهاءُ والمتصوِّفةُ يتِّهمون القُضاةَ بأنَّهم في خدمة الحاكم وليس الشريعة والعدل.

٢٠٢ هل تكون حرية الإنسان في طاعة الله، كما يقول بعض علماء السنّة الذين دحضوا أقوال المعتزلة (العقلانيين الإسلاميين)؟ إنَّهم يتحدَّثون عن «الأثر الشديد للكبر والعقلانية السطحية التي تسعى لجعل العقل مساويًا للنقل، بل وسابقًا عليه». وقد أكَّد أبو الحسن الأشعري (المتوفى ٣٣٠ هجرية) أنَّ العدل الإلهي لا يمكن تعريفه بالمقاييس البشرية.

٢٠٧ «العلم» و«الفقه»، مفهومان متعارضان ولكنَّهما متكاملان، وقد عُرفا منذ البدايات الأولى باعتبارهما وسيلتين لمعرفة الإسلام. أحدهما نوع من المعرفة المكتسبة المكتملة، والآخر عملية إبداعية ومفتوحة. الأول هو العامل الموضوعي في عملية المعرفة، والثاني هو العامل الذاتي.

٢٠٩ يرى فضل الرحمن أنَّ القرآن يحتوي على قدر قليل للغاية من العقيدة الكلامية النظرية، فقط «الحد الأدني الذي لا يوجد الدين بدونه» (فضل الرحمن، المرجع السابق، ص ١٥٣).

٢١٢ في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة (العاشر والحادي عشر من الميلاد) انقسم العلم الديني الإسلامي ليأخذ اتجاهين مختلفين: (١) علم الكلام العقلاني الصوري العقدي. (٢) العلم الديني الصوفي التأمُّلي. وفيما بعد، سوف يحتكر علمُ الكلام مجالَ الميتافيزيقا كلَّه بل ومجالَ البحث في نشأة العالم، رافضًا حق حرية البحث في العالم والطبيعة. لقد حكمت طريقة التفكير هذه على الإسلام بالركود العلمي والسياسي.

٢١٣ من المثير أنَّ أربعة تيارات أساسية متباينة وجدت لها مكانًا في الإسلام: التيار العقلاني، والصوفي، والكلامي، والفقهي.

٢١٧ عندما تحلُّ الخرافةُ محلَّ مبادئ العقيدة الواضحة، يصبح القصور الأخلاقي بديلاً عن المبادئ الأخلاقية. فالخرافة تسير يدًا بيد مع التخلِّي عن الالتزام الأخلاقي؛ ذلك لأنَّ الخرافة ليست مجرَّد نوع من البلاهة، بل هي سخرية من العقل سرعان ما تتحوَّل إلى سخرية من الأخلاق. والتديُّن الصوفي للجماهير (دين العوامّ) لم يُدرك المبادئ العَقَدية ولا المبادئ الأخلاقية. إنَّ انتشار الانحطاط الأخلاقي يمكن إرجاعه إلى حدٍّ كبير إلى المُعتقَد الصوفي الذي يؤكِّد أنَّ «من يشاهد إرادة الله لم يعد مُلزَمًا بأمر الله».

٢١٨ أدَّى قبول مبدأ «إغلاق باب الاجتهاد» إلى جمود واستمرار بنية الأنساق التشريعية السارية بلا تغيير، وكان هذا الموقف هو الباعث الأساسي للسلطات المدنية لإصدار مجموعة من التشريعات الوضعية، ووفقًا لما يقوله فضل الرحمن، فقد كانت قوانينَ «مُكمِّلةً للشريعة في بداية الأمر، ثم حلَّت محلَّ الشريعة فيما بعد». ص ١٦٧

٢١٩ عند بداية ظهوره، خَلَقَ الإسلامُ (وأخلاقه ومبادؤه وعقيدته، إلخ) خَلَقَ وحافظ على شعور مُرهف بالعدل والظلم، وهو الشعور الذي يؤدِّي دائمًا إلى شريعة صحيحة مستقيمة، وأيضًا إلى تطبيقها وممارستها بشكل صحيح. ومن دون هذا الشعور، يصبح كلُّ تشريع عاجزًا وبلا جدوى. إنَّ الموضوع الذي يسود في كتب الفقه الإسلامي والمناقشات التشريعية الإسلامية هو مسألة «النيَّة»، وهي مسألة أخلاقية جوَّانية تمامًا. يقول فضل الرحمن: «إنَّ أكثر ما أشاعه الإسلام بين معتنقيه الأوائل، حتى وإن كان بدرجات متفاوتة، هو الشعور الجادّ بالمسئولية أمام العدل الإلهي» ص ١٨٦

٢٢٠ من الواضح أنَّ الفلاسفة المسلمين قد أخذوا فكرة الثنائية الجوهرية بين الجسم والروح، أي بين المادة والروح، من النظريات الفلسفية والميتافيزيقية اليونانية. وقد وجدوا في هذه الفكرة نقطة الاتفاق بين القرآن والفلسفة اليونانية.

٢٢٢ فيما يتعلَّق بصحة الحديث، فليس السند (سلسلة من قاموا برواية الحديث حتى مصدره الأول) هو ما يُعوَّل عليه أولاً، بل الانسجام الكامل للحديث مع روح القرآن. وعلى سبيل المثال، فإنَّ الأحاديث التي توصي بالانسحاب من العالم -ويبدو أنَّ هناك أحاديث كثيرة من هذا النوع- ليست جديرة بالثقة، بغض النظر عن كونها وردت في أي كتاب من كتب الحديث. وفي مثل هذه الحالة، لا يجب إنكار الحديث من ناحية مصدره وسنده، ولكن ينبغي النظر إليه في ضوء تفسير معتبر للقرآن، الذي هو المرجع الأوحد والأسمى.

٢٢٣ «رفض الإسلامُ بوضوح موقفَ المتصوِّفة السلبي تجاه العالم، وهو الموقف الذي انتشر بين المتصوِّفة بشكل مذهل» (انظر: فضل الرحمن، الإسلام، ص ١٩٢). ويرى فضل الرحمن أنَّه لولا وجود مقاومة لهذا الموقف، لانتهى الأمر بالحركة الصوفية إلى تأسيس «طرق رهبانية حقيقية، والتي كانت ستؤدي إلى القضاء على بنية النظام الإسلامي كلِّه» (فضل الرحمن، المرجع السابق).

٢٢٤ صنَّف الصوفي ذو النون المصري (توفِّي ٢٤٥ هجرية) درجات الارتقاء الروحي بطريقة مشابهة للغاية للطريقة الهندوسية، واتُّهم بالهرطقة.

٢٢٥ أقامت بعض الطرق الصوفية نظامًا للأولياء كما هو موضَّح بالتفصيل في أحد كتب الحكيم الترمذي (القرن الرابع الهجري). وفي تطوُّر لاحق، أدَّى هذا الأمر إلى وجود مذهب يختص بطبقات الأولياء الذين «يحفظون العالم». ويقول فضل الرحمن إنَّ هذا المذهب أصبح مكونًا أساسيًا في المعتقد الصوفي في وقت مبكِّر في القرن الرابع الهجري، وإنَّ هؤلاء الأولياء قد وُهبوا القدرة على القيام ببعض المعجزات ولديهم بعض القدرات الخاصة والكرامات. وفي نهاية الأمر، زعم الحلاج أنَّه اتحد مع الله، قائلاً: «أنا الحق»، وتحوَّل الإسلام تدريجيًا إلى دين مسيحي.

٢٢٧ غيرت ظاهرة التصوُّف الفلسفي سيماءَ الإسلام بل وصبغت ما يقرب الألف عام، من القرن الخامس الهجري إلى القرن الثالث عشر الهجري (الحادي عشر الميلادي إلى القرن التاسع عشر الميلادي). وفي الوقت ذاته، أدَّت إلى شلِّ طاقة أفضل العقول أو تحويل طاقتهم الروحية إلى الداخل، مُسدلةً الستار على الأمر القرآني «انظروا». وكانت هذه خطوة بعيداً عن الحياة الواقعية، خارج التاريخ؛ فقد تحوَّلت الأبصار بعيداً عن الطبيعة، وهو الأمر المناقض لما يقتضيه القرآن. إنَّ الأمر القرآني «انظروا»، بصرف النظر عمَّا ينطوي عليه من معان مختلفة، ليس هو الحقيقة الصوفية قطعًا، أي ليس هو المعرفة الجوَّانية عند المتصوِّفة، فالنَّظر المقصود هو معرفة خارجية تمامًا. وينبغي أن نعرف أنَّه حتى أكبر العقول مثل الفارابي وابن سينا قد شاركوا في تكوين أنساق كبرى من التصوُّف الفلسفي. كما أنَّ التصوُّف الفلسفي عند ابن عربي هو تصوُّف حلولي تمامًا ويقول بوحدة الوجود، «ومناقض تمامًا لتعاليم القرآن» كما يقرر فضل الرحمن (ص ٢٠٥). ويرى فضل الرحمن أنَّ هذا المذهب الصوفي الحلولي، المعروف بمذهب وحدة الوجود، «قد هدَّد وزعزع أصل الإسلام وأصل الشريعة».

٢٢٨ من الأمور المعروفة ممارسة الصوفية لتقديس الأضرحة والأولياء (على سبيل المثال، يركع العوام أمام ضريح الصوفي الشهير علي الهجريري في لاهور). إنَّ الإسلام الخالص يتراجع أمام التصوّف، ولو أنَّه لم يستسلم تمامًا. ومن ناحية أخرى، كان التصوّف عملاً احتجاجيًا ضد الطغيان السياسي، وقدَّمت الطرق الصوفية في أفريقيا مقاومة مسلَّحة

في مواجهة زحف الجيوش الأوروبية الاستعمارية، إلا أنَّها كانت مقاومة سلبية أكثر من كونها مقاومة إيجابية حيوية.

٢٣٠ أدَّى انحسار الوضوح واليقين الذي تميَّز به العلم الشرعي -هذا الانحسار الناتج عن ما يُسمَّى الطريق الصوفي الجوَّاني للمعرفة، والحدس، والنور، والوجد- أدَّى في بعض الأحيان إلى شعوذة وانحراف ودجل روحي، وانتشار المتسوِّلين المتطفِّلين والدراويش المستغلِّين. ويُقرِّر فضل الرحمن أنَّ «الإسلام قد تُرك تحت رحمة المشعوذين» (المرجع السابق، ص ٢١٦). كما أنَّ شيوع الإيمان بالبركات والفيض قد أدَّى إلى عبادة وتقديس الأضرحة والأولياء وآثار مزعومة لأناس آخرين (فضل الرحمن، ٢١٧). بل ظهر الشخص الوسيط، وهو رجل دين في مكانة السلطة المطلقة لقطب صوفي، ويطلق عليه الشيخ (البير أو المرشد في بلاد فارس والهند، والمقدَّم في أفريقيا السوداء).

٢٣٢ علم الكلام مُفعَمٌ بالنظام والقانون والعقل والانضباط، ولكنَّه مجرَّدٌ من الخيال، وجافٌّ كالمنطق. أمَّا التصوُّف فيتَّسم بكل ما هو عكس ذلك، فهو مُفعَمٌ بالحماسة، ولكن بالعشوائية أيضًا، مما مكَّنه من الوصول إلى قمم لا نظير لها من الحقيقة والفضيلة، وكذلك السقوط في هاوية الوهم والرذيلة. علم الكلام هو علم (كما هو ظاهر من اسمه)، أما التصوُّف فهو شعر. وفيما يتَّصل بهذا الأمر، هناك ظاهرتان: كان إسلام علم الكلام هو دين الحَضَر المتمَدِّنين، والطبقات ذات الثقافة العالية، والتي تتَّسم غالبًا بالضحالة والتمسّك بالشكليّات. وعلى النقيض، أصبح التصوُّف دينًا رائجًا وشعبيًا، وتحت زعم التقوى والورع فإنَّه فتح الباب لانحرافات في الشعائر، وفي بعض البلاد، كالهند وإندونيسيا، انطوت الشعائر على عناصر كثيرة ذات أصل بوذي وهندوسي، وتحت القشرة الإسلامية يمكننا أن نجد عادات وأديانًا وثنية خالصة. إنَّ التشدُّد في تفسير الدين كان يجاريه تشدُّد في الأخلاق. وما كانَ ينطوي عليه علم الكلام من قانون ونظام وانضباط كان يُجارَى بقانون ونظام وانضباط في مجال الأخلاق. ومن ثمَّ، فإنَّ ظهور الخرافات الصوفية ترتَّب عليه «تحرُّر» مماثل في نطاق الأخلاق.

ومن ناحية أخرى، كان علماء الكلام يدافعون دائمًا عن الوضع السياسي القائم، وكذلك هناك الموقف المعروف للعلماء بطاعة الحُكَّام الطغاة، إلخ. وكان شعارهم هو أنَّه

حتى الحاكم الفاسد خير من الفوضى، وعلى المرء أن يطيع وليَّ أمره حتى ولو كان فاسدًا وظالمًا. وعلى النقيض، كان التصوُّف يحمل ضمنيًا ثورة ومقاومة وما إلى ذلك. وفي بعض الأحيان، كان هذا التعارض بين التصوُّف وعلم الكلام مُثمرًا للغاية، كما في حالة انتشار الإسلام في أفريقيا. ففي البداية كان الأمر مجرَّد تحوّل العوام من خلال موقف وسط مع العادات الموجودة والدين القائم، ولاحقًا قام الإسلام السلفي بتطهير وتعزيز الإسلام لدى هؤلاء المهتدين الجدد الذين كانوا قد اهتدوا في الأصل من خلال المتصوِّفة.

يرجع تاريخ أقدم طريقة صوفية (الطريقة القادرية، نسبة إلى الإمام عبدالقادر الجيلاني) إلى القرن الخامس والقرن السادس الهجري، وهو زمن متأخِّر نسبيًا. والشكل الأفريقي لهذا التنظيم هو طريقة أحمد باوبا (في السنغال) الذين أقلعوا عن الصلاة والصيام. أمّا الطريقة البدوية (مؤسسها هو أحمد البدوي في القرن السابع الهجري) فقد امتنعت عن الكلام (مثل التقليد الرهباني المسيحي). والطريقة البكتاشية ذات الانتشار الواسع في تركيا هي الأكثر بُعدًا عن الإسلام الحقيقي، وهنا يمكننا اكتشاف أحد أسباب نجاح حركة كمال أتاتورك، فقد أصبح هذا النوع من الإسلام سهلَ الانقياد والانكسار أمام التحدِّيات الغربية. أمَّا الخوارج، فيدعون إلى المساواة والمسئولية المطلقة أمام الله، «والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، ويقولون إنَّ أي مسلم يمكنه أن يكون خليفة، وليس فقط من ينتمي إلى قبيلة النبي محمد، ﷺ، وهذه مثالية متطرِّفة. وهناك حركتان في العصر الحديث استلهمت بعض تعاليم الخوارج، وهما: الإخوان المسمون، والجماعة الإسلامية في باكستان.

٢٣٦ يقول جولدتسيهر Goldziher(*): الإسلام السُّنِّي هو دين الإجماع، بينما الإسلام الشيعي هو دين السلطة (الإمامة). يوجد الإجماع لدى السنَّة، ولكن لا يوجد اجتهاد (التأويل الحر والإبداعي)، والأمر معكوس لدى الشيعة. ويقول فضل الرحمن: «تؤمن الجماهير الشيعية، إجمالاً، بالخرافات أكثر بكثير من السنَّة» (المرجع السابق، ص ٢٤٤).

(*) جولدتسيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١م) مستشرق مجري يهودي، من أول من أسَّسوا للدراسات الإسلامية في أوروبا، وأول مستشرق قام بمحاولة للتشكيك في الحديث والسنة النبوية والطعن فيهما (المترجم)

٢٣٧ يقول فضل الرحمن: في المراحل المبكّرة للإسلام، كان أكثر المعلّمين في حلقات التعليم الأوليّة (الكُتَّاب) من غير المسلمين، وبشكل أساسي من النصارى واليهود (المرجع السابق، ص ٢٥٣).

٢٤١ أحد الأعراض المميِّزة لركود الفكر الإسلامي كان تقليد كتابة «الحواشي على الشروح» في حين أنَّ النصوص الأصلية التي خضعت للشروح والتعليقات كانت قد غابت تمامًا في طوايا النسيان. وتقلَّصت العلوم الشرعية إلى أربعة موضوعات أساسية: الحديث، والفقه، وعلم الكلام، والتفسير. ويلاحظ الكاتب التركي كاتب كلبي (في القرن السابع عشر) في كتابه (اتزان الحقيقة) أنَّ الأمر القرآني ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ﴾ قد نُسي تمامًا. بل تحوَّلت الشروح والتعليقات في الغالب إلى ألعاب كلامية وجدل لفظي وحذلقة نحويَّة، وهناك قصيدة في قواعد النحو العربي تُعرف باسم «الكافية» أعطاها البعضُ تأويلات صوفيةً باطنية! لقد تسلَّل التصوُّف إلى كلِّ شيء. هناك ظاهرة أخرى جديرة بالنظر وهي التعليم عن طريق التكرار المتواصل والحفظ عن ظهر قلب بدلاً من البحث عن المعرفة. كلُّ هذا كان أعراضًا أو أسبابًا لركودٍ شامل.

٢٤٥ كان شاه وليُّ الله الدهلوي، وهو مفكّر هندي من مدينة دلهي (١٧٠٢-١٧٦٢م)، أوَّلَ من حاول صياغة ما يُطلق عليه «الإسلام المتكامل». وكان لدى حركة حاجي شريعة الله في الهند أيضًا (المولود في ١٧٦٤م) برنامج تضمَّن النقاط الآتية: (١) مقاومة الحكم البريطاني في الهند، (٢) الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي في مواجهة الإقطاعيين الأثرياء لصالح الفلاحين، (٣) التخلُّص من الأفكار الهندوسية والغلوِّ الصوفي. إلا أنَّ ما يميِّز هذه الحركات هو وجود عناصر صوفيّة إلى جانب الأفكار الإسلامية السلفية، كما هو الحال بالنسبة للحركة الوهابية والحركة السنوسية. وفي واقع الأمر، كانت هذه هي ظاهرة «التصوُّف الجديد»، أعني أنَّه تصوُّف مُهَذَّب على أصول سلفية وأعيد تأويله ليحمل معنى المبادرة والإيجابية.

٢٤٩ يعتقد بعض المفكِّرين أنَّ الحضارة الغربية هي استمرار للحضارة الإسلامية لأنَّ نقطة انطلاقها كانت هي النقطة التي تمثِّل ذروة الحضارة الإسلامية. وأحد هؤلاء المفكِّرين

هو محمد إقبال (في كتابه تجديد الفكر الديني في الإسلام) إذ يقول إنَّ الفكر الغربي الحديث هو استمرار مباشر للثقافة الإسلامية التي امتدَّت الى الغرب عبر إسبانيا وصقلِّية.

٢٥٢ أظهر مشروع كمال أتاتورك في تركيا عقمًا روحيًا شاملاً، فبعد ستين عامًا من عمر هذه الحركة لم يظهر مُنظِّرٌ واحد ذو شأن من بين المفكِّرين الأتراك ليقوم بتطوير وتعزيز مذهب العلمانية المتطرِّفة في تركيا. وهذه الحالة الفريدة من النجاح الكامل لنهج علماني في العالم الإسلامي كانت ردَّ فعل لتطرُّف آخر وهو الهيمنة الكاملة للطريقة البكتاشية الصوفية خلال قرون عديدة. لَم يكن الإسلام هو الذي تخاذل أمام هذا التحدّي العلماني، وإنَّما الطريقة البكتاشية التي سادت في تركيا، والتي كانت غير إسلامية مثل نقيضها العلماني تمامًا، ولكن تحت لافتة مختلفة.

٢٥٣ لا بدَّ من تذكير الحداثيين دائمًا بأهميَّة الدين، وتذكير المحافظين بأهميَّة العلم. الإنكار المتبادل هنا هو مجرَّد وهم.

٢٥٥ حتَّى ضياء كوك ألب(*) (المتوفَّى في ١٩٢٤م)، مُنَظِّر القومية التركية الذي اعتبره كمال أتاتورك أحد الأيديولوجيين المؤيدين للنظام، لم يكن مؤيدًا للنهج العلماني المتطرِّف، وكان مناهضًا للسلطة الدينية وسلطة رجال الدين، وليس للإسلام.

٢٥٩ بينما يرجع المسمون الشيعة إلى المبدأ الشرعي لسلطة الإمام، فإنَّ المسلمين السنَّة يرجعون إلى مبدأ الإجماع الديمقراطي.

٢٦٢ أدَّت عقيدة الطاعة المطلقة للحاكم إلى أفول الحضارة الإسلامية تدريجيًا، وذلك عبر سلسلة واضحة من الأسباب والنتائج.

٢٦٣ نحن بحاجة إلى تقييم موضوعي ونقدي لتاريخنا.

٢٦٤ يقول فضل الرحمن: «إنَّ المُثُل العليا الروحية الصوفية قُدِّمت للناس باعتبارها خلاصًا من واقع الحياة الكئيب والضيق المادّي والفوارق الاجتماعية والتخبُّط السياسي» (المرجع السابق، ص ٣٣٥). بدلاً من أن يبحث التصوُّف عن مخرج، فإنَّه لقَّن الناس

(*) ضياء كوك ألب (١٨٧٦-١٩٢٤م) مُنظِّر قومي تركي وكان أستاذًا لعلم الاجتماع، حمل لواء علمنة تركيا وسلخها من ماضيها القريب، وكان متأثِّرًا للغاية بأوروبا الغربية الحديثة ومؤيدًا بقوة لأتاتورك. (المترجم)

آليات معيّنة للإيحاء الذاتي والتنويم المغناطيسي، أي النسيان، أمَّا المجتمعات والمؤسَّسات والحركَات المدنية فليست بديلاً عن الطرق الصوفية، فليس لديها شيءٌ من العمق الروحي للطرق الصوفية القديمة.

٣١٠ القرآن والإسلام أجلُّ من أن يُتركا للشيوخ فقط.

٤٤٤ وصف مالكوم إكس، ببراعة، عدم وجود أيِّ مشاعر عنصرية في العالم الإسلامي بأنَّه «عمى ألوان». لا ينظر المسلمون إلى اللون، إنَّهم ينظرون إلى الإنسان. فاللون لا قيمة له، ولا يُنبئ عن معدن الإنسان.

٤٩٠. يرى هيجل أنَّ المرحلة النهائية من تطوُّر الفكر الديني ينبغي أن تؤدي إلى التحرُّر من طور العبادة، أي التحرُّر من طور تقديس ما هو حسي والتحوُّل نحو الداخل ونحو التجريد. هذا الطور الذي يُطلق عليه دين الطقوس كان وثيق الصلة بالصور والتماثيل. يقول هيجل في كتاب (محاضرات في علم الجمال): «لن نركع مرة ثانية أمام الأصنام». ولا نعرف مدى صحّة هذا القول، ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار ملحوظاته الأخرى الصحيحة تمامًا، فلا بدَّ لنا أن نسأل أنفسنا: لماذا ظلَّ هيجل غير مكترث بالإسلام؟ هل لأنَّه لم يكن على دراية كافية بالإسلام أم بسبب نزعة المركزية الأوروبية لديه؟ كان هيجل سيتعرَّف في الإسلام على المرحلة الأسمى من مراحل تطوُّر الفكر الديني، طبقًا لرأيه، حيث يتخلَّص الدين من كل شَبَه تصويري وينقِّي نفسه ليصبح تنزيهًا خالصًا بالمعنى الهيجلي لكلمة تنزيه. إنَّ الإسلام مثال واضح كلَّ الوضوح لذلك التطوُّر الذي يتحدَّث عنه هيجل.

٦٧٠ ما الذي يمكن مقارنته بالاتزان الكامن في طقس الوضوء الذي يؤديه كلُّ مسلم؟ فلا يوجد فيه أيُّ زيادة أو نقصان.

٧١٢ فلتبدأ التفكير في نفسك باعتبارك مسلمًا في المقام الأوَّل، لتنقذ نفسك من الحدود الضيقة للقبيلة أو الدولة. كن أحدَ أبطال التجديد الإسلامي والثقافة الإسلامية.

٧٥٠ ما الذي يمكن للمرء أن يقوله عن هذا الاضطراب الشامل في الشرق الأدنى والشرق الأوسط، حرب الجميع ضد الجميع، اختطاف الطائرات، العمليات

الاستشهادية، الحروب العبثية، الانقلابات وما إلى ذلك؟ هذا الجزء من العالم يشبه قدْر الضغط، واستنتاجًا من حالة الغليان داخله، فإنَّ أشياء كثيرة ستحترق وتتلاشى مُخلِّفَةً وراءها الأفكار والناس القادرين على الحياة والبقاء. وبعد تلك الفوضى الشاملة، بعد أن تهدأ كلُّ العواصف ويتوقَّف التخبُّط، سيبقى في المشهد مسلمون ويهود يصلحون لعهد جديد.

٧٥٦ حول العلاقة بين المجتمع العربي المسلم والمجتمع الإسباني الكاثوليكي في الأندلس خلال العصور الوسطى، يقول أورتيجا إي جاسيت في تقديمه لكتاب طوق الحمامة لابن حزم: «من العار أن تظلَّ العلاقة التي وُجدت بين هذين المجتمعين في طي الكتمان حتى الآن. ولا بدَّ لنا أن نعترف أنَّ مستعربينا (العلماء الذين يَدرسون العالم العربي)، وعلى رأسهم ريبيرو، قد قاموا بخطوات مهمّة في محاولة الوصول إلى صورة أوضح للطريقة التي عاش بها المسلمون والإسبان معًا. ولكن، إذا لم تُعالج هذه القضية بعمق، فلا يُمكن تحقيق أي تقدُّم أكثر من ذلك». ويعتقد جاسيت أنَّ العلاقة بين أوروبّا والإسلام اتَّسمت بشكل عام بنقص المعرفة أو بالمعرفة الهزيلة وأنَّ «الجهل بالحقيقة هو أحد الحقائق الكبرى في تاريخ الغرب».

٧٥٧ تعرَّف العرب على الثقافة الهلّينية/ اليونانية عبر الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وتعرَّف الأوروبّيون عليها عبر الإمبراطورية الرومانية الغربية.

٧٥٩ يجب الانتباه إلى أنَّ ثمار الحضارة تختلف في بداية الحضارة عنها في نهايتها. فقد تقلَّصت كلُّ إنجازات الثقافة القديمة الكلاسيكية، عند أفولها في القرن الخامس الميلادي، إلى بعض المختارات والموسوعات والمعاجم، وتوقَّف ظهور الأعمال الكبرى العظيمة. وكان الوضع مماثلاً في الثقافة الإسلامية خلال القرن السادس والقرن السابع الهجريين؛ إذ توقَّف ظهور المفسرين الكبار للقرآن، رغم وجود عدد هائل من الحفَظَة. وبدلاً من التفاسير الإبداعية توقَّف الأمر عند مجرَّد الحفظ عن ظهر قلب، وبدلاً من التحليل والتركيب والتأليف توقَّف الأمر عند مجرَّد الإعادة والتكرار.

٧٦٣ نشر هارولد ديكسون(*) في ١٩٤٩م موسوعة شاملة حول حياة القبائل التي تقيم على سواحل الخليج العربي. وقال إنَّ الخيانة الزوجية (سواء من جانب الرجل أو من جانب المرأة) لم تكن معروفة عند العرب حينذاك، ولكنَّه ذكر في الوقت ذاته أنَّ الطلاق كان سهلاً وشائعًا. يبدو أنَّه لا بدَّ لنا أن نتحمَّل أحد هذين المكروهين.

٧٦٤ يرجع أصل الحب العذري النبيل إلى العرب، كان حبُّ الفرسان هذا ذا طابع أفلاطوني، وكان يعني الفراق، حيث كان العشَّاق يفترقون بلا أمل، ولم يكن هذا مصدر سرور، ولكن بالأحرى مصدر ألم عذب وجرح محبوب. كما أنَّ «الحب البغدادي» كان مشهورًا في الشعر العربي، ويعتقد أورتيجا إي جاسيت أنَّه كان نتيجة لإدخال الحس الأفلاطوني إلى الحياة الروحية لذلك العصر. وتحكي إحدى الروايات عن قبيلة عُذرة، حيث كان الرجل يموت عشقًا لأنَّه كان يهجر محبوبته عن قصد. كان هذا بمثابة زهد كاملٍ من المنظور الجنسي.

٧٦٨ باستثناء حضارة المايا التي انتهت بموت عنيف مفاجئ، نجد أنَّ كلَّ الثقافات الأخرى المعروفة عبر التاريخ انتهت تدريجيًا نتيجة للشيخوخة والهرم وبطء إيقاع الحياة ونوع من الجمود والشلل، أي نتيجة للتغيُّرات الجوانية. يمكن تتبُّع هذه العملية بوضوح أكثر في الحضارة الرومانية، حيث كان اجتياح البرابرة مجرَّد رصاصة الرحمة التي أُطلقت على كائن حي يعاني سكرات الموت منذ قرنين. لم تكن الحضارة العربية استثناءً من هذه القاعدة. ويجب على المؤرِّخين الوقوف على ما كانت تعاني منه تلك الثقافة، ودراسة أسباب انحدارها وأفولها، حيث لم يكن خضوعها للاستعمار سببًا لسقوطها، وإنَّما كان نتيجة لسقوطها الجوَّاني. على أي حال، جاء في القرآن الكريم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾، ويمكن القول إنَّ هذه القاعدة لها قوة القانون الطبيعي في حياة الشعوب وحركتهم عبر التاريخ.

(*) هارولد ديكسون (١٨٨١–١٩٥٩م)، سياسي ومؤرِّخ بريطاني، عمل في الشرق الأوسط وكيلاً للاستعمار البريطاني في الفترة ما بين ١٩٢٠ إلى ١٩٤٠م. له بعض الكتابات عن الجزيرة العربية، منها: «عرب الصحراء: نظرة على الحياة البدوية في الكويت والسعودية» و«الكويت وجاراتها». (المترجم)

٨٨٢ . خلال الحكم الفرنسي، كان التعليم كلُّه في الجزائر باللغة الفرنسية. وبشكل عام، كان الموقف في الجزائر هو الأصعب من بين كلِّ الدول المُستعمَرَة. وكان الأمر أقلَّ حدَّة نسبيًا في تونس والمغرب.

٨٨٥ . علينا أن نحذر من أن يكتب غيرُنا تاريخَنا. يقول الكاتب الجزائري عبد القادر محداد(*): «عندما لا يكتب شعبٌ تاريخَه الخاص، سيكتبه الآخرون نيابة عنه، ولكن بطريقتهم الخاصة».

٩٦٨ لا وجود لما طواه النسيان. كان إلغاء حروف الأبجدية العربية في تركيا بمثابة نفي جذري للتاريخ التركي. إذا كانت تركيا تريد حقًا أن تنسى ماضيها وتُغيّر وجودها وتتوقَّف عن أن تكون ما كانت عليه -وقد كانت في حقيقتها أُمَّةً إسلاميةً مرموقة- فإنَ تغيير حروف الأبجدية كان الطريقة الأكثر فعالية وكفاءة لتحقيق ذلك. ما كان لإجراء آخر مفروض من خلال مرسوم فوقي أن يخدم ذلك الغرض أفضل وأسرع من هذا الإجراء. (كانت هذه حالة نسيان قومي لم يسبقها مثيل).

١٠٥٠ من الملاحظ أنَّه لم يحدث قط أن اجتمع نشاطان مختلفان روحيًا، كالطبِّ والفلسفة، كما حدث في المغرب العربي في القرن الثاني عشر الميلادي. فقد كان أشهر الأطبَّاء في ذلك الحين هم كبار الفلاسفة في الوقت ذاته: ابن باجه، ابن طفيل، ابن رشد، موسى بن ميمون، ابن سينا، وغيرهم. كان هذا نوعًا من «الاتحاد الذاتي» للطبِّ والعلم الشرعي والفلسفة، وهو نموذج إسلامي بامتياز.

١٠٦٩ يُلاحظ ابن طفيل في كتابه (حي بن يقظان) أنَّ النجمين بيتا وجاما (الفرقدين) في مجموعة الدُّبِّ الأصغر يُكوِّنان أصغر الدوائر خلال حركتهما. وبالطبع هذا مجرَّد وَهْم (كما يبدو للراصد من الأرض) مثل وَهْم ثبات النجم القطبي الشمالي.

١١٢٤ يتوافق الإسلامُ مع أصحاب البشرة البيضاء وأصحاب البشرة السوداء، ومن ثمَّ فهو يناسب جميع الأجناس، أو بدقة أكثر، يناسب الجنسَ البشري متعدِّدَ الألوان.

(*) عبد القادر محداد (١٨٩٦-١٩٩٤م) أديب وسياسي جزائري، كان عضواً في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، شارك في النضال الوطني ضد الاحتلال الفرنسي، وكان مدافعًا عن الهوية العربية الإسلامية للجزائر. كتب الكثير من المقالات وحقق ونشر كتاب «زاد المسافر» لأبي بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسي. (المترجم)

١١٤٨ يعيش أكثر الناس تجربة الحج ويتذكَّرونها كحكاية أسطورية، وهي هكذا بالفعل. الحج هو حلمٌ بالمساواة، ويبدو هكذا لكثير من الناس بالدرجة الأولى بسبب روح الوحدة التي تنبثق من الاختلاف الكامل. وينبغي مقارنة الحج برحلة هيرمان هيسه(*)، حيث نرى فيها أيضًا «اختلاف العوالم حيث تجتمع المتناقضات وتتوحد لتخلق الانسجام والتوافق» كما يقول أحد النقَّاد.

١٢٨٨ لكي يكون المجتمع قادرًا على أن يؤدي دوره بشكل ديمقراطي ينبغي أن يوجد ما يُعرف بالتوافق الاجتماعي، جوهر الاجتماع، أي الاتفاق الأساسي على هدف رئيس واحد على الأقل أو مبدأ أساسي أو مصلحة أساسية. ومن الواضح في العالم الإسلامي أنَّ الإسلام فقط هو الذي يمكن أن يقوم بهذا الدور. فلا يوجد في عالمنا إلا عدة مجتمعات قليلة يمكنها أن تفخر بوجود توافق قوي حول مبدأ واحد كما هو الحال مع الإسلام في البلاد الإسلامية.

١٤٧٣ الانطباع الأساسي الذي يخرج به المرء عند النظر إلى العالم الإسلامي المعاصر هو وجود فجوة ثقافية وتكنولوجية هائلة بينه وبين الغرب المتقدم. يمكن التغلُّب على الفجوة التكنولوجية في وقت قريب نسبيًا، بشرط وجود اهتمام حقيقي بالتنمية الثقافية، وبالدرجة الأولى من خلال نظام تعليمي رشيد وتشجيع كافة أشكال الثقافة الشعبية. فالمجتمع الذي يُنظِّم نفسه ويضع هدفًا واضحًا يمكنه تحقيق تقدم تكنولوجي خلال فترة زمنية قصيرة نسبيًا، وبغير هذا سيستغرق الأمر عقودًا أو حتى قرونًا من الزمن.

١٥٤١ يقوم مبدأ الحكم المَلَكي على وهم وجود الإنسان الكامل، ومثل هذا الافتراض غريب على الإسلام.

١٥٤٨ عندما أتحدَّث عن العبادة في الإسلام يخطر في بالي نموذج مُضاد، وهو شخصية مانفرد Manfred التي كتب عنها اللورد بايرون. مانفرد هو رجلٌ لا يجد سلامَه النفسي، لديه معرفة واسعة، يدرك عقلُه ما لا تستطيعه عقول الآخرين، لديه القوة ويُدمِّر أعداءه، يستحضر الأرواح وتخضع له وتُنفِّذ جميع أوامره ورغباته عدا أمر واحد:

(*) رواية لهيرمان هيسه بعنوان «الرحلة إلى الشرق». (المترجم)

لايمكنها أن تمنحه السكينة. الشيء الوحيد الذي يرغب فيه مانفرد المغرور هو شيءٌ لا يمكنه الحصول عليه، سلام الروح.

١٥٩٢ دافع سان سيمون(*) عن علاقة تربط العلم بالدين، ولكن هذه العلاقة ليست كما تُفهَم في الإسلام. كانت العلاقة التي تحدَّث عنها علاقة زائفة وبرَّانية، حيث كان نموذجه هو عالم طبيعة فيلسوف يتربَّع على كرسي البابوية (من بين أعماله، كتاب ذو عنوان مميَّز: «المَسيحية الجديدة»).

١٦٢٥ جاء في القرآن الكريم الصيغتان «ينظرون» و«يتفكَّرون»، وهما طريقان مختلفان ويؤديان إلى غايتين مختلفتين تمامًا. الاختلاف بينهما هو الاختلاف بين الطبيعة (الفيزياء) وما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا). «النظر» (الملاحظة) هو بداية أي علم، وهنا تكمن تجريبية القرآن. على العكس، كان هدف الميتافيزيقا دائمًا هو اكتشاف مبدأ مطلق يمكن من خلاله تفسير كلِّ هذه الكثرة والاختلاف في العالم. سلكت العلوم طريقَ النظر والملاحظة والتجريب من أجل اكتشاف القوانين التي يمكن من خلالها تفسير الأشياء في العالم الخارجي، وكان هذا كافيًا بالنسبة لها للوقوف على العلاقات بين الأشياء (الظواهر) دون ادعاء الوصول إلى جوهر هذه الأشياء والظواهر. وكانت هذه هي المُهمَّة التي تصدَّت لها الميتافيزيقا ولم تستطع تحقيقها بطبيعة الحال.

١٦٢٧ ما علَّة الصيام؟ الصيام صراع معيش بشكل مباشر بين الجسد والروح. خلال الصيام، يُعاني الَجسد ويطلب فلا يجد مُلبِّيًا، بينما تُمسك الروحُ بزمام تلك المعاناة. هو انتصار الروح على الجسد، انتصارٌ مُوجعٌ معيش بشكل مباشر. إذا استطاع المرءُ أن يعيش الصيام بهذه الطريقة، فسيصبح قُرَّةَ عينٍ له، لا مصدر ألم ومعاناة فحسب.

١٧٠١ انطلقت المسيحية من المقدمة الدينية التي تقول إنَّه كلَّما خسرتْ الحياةُ من مظهرها الخارجي، ارتفعت قيمتُها الروحية. وفقًا لذلك، فالقيم البرَّانية والجوَّانية تكون في صدام مع بعضها البعض، في ارتباط سلبي مُتبادَل. فهل هناك حاجة للتأكيد على أنَّ

(*) سان سيمون (١٧٦٠-١٨٢٥م) مفكِّر فرنسي نظَّر مبكرًا للأفكار الاشتراكية ولتدخُّل الدولة في الحياة الاقتصادية، أثَّرت أفكاره في كثير من فلسفات القرن التاسع عشر، خاصة الفلسفة الماركسية والوضعية. (المترجم)

الإسلام لا يشترك مع المسيحية في هذه الفكرة وأنَّه هنا يكمن الاختلاف الأساسي بين الإسلام والتعاليم المسيحية؟

١٧١٨ الشعر الحداثي كلُّه هو، في الحقيقة، ثورة ضد ذهنية النفاق. إنَّه شعر تدميري ينتهي إلى تأليه الموت باعتباره المخرج الوحيد للشخصية الحرة. فالإنسان الذي لديه الشجاعة ليموت في صراع مع المجتمع الذي لا يحتمل حرية الفرد هو إنسانٌ حرٌّ. فالحرية جريمة في مجتمع كهذا.

ولكن ما ذهنية النفاق؟ إنَّها ابتذال سواء في الفضيلة أو الرذيلة: أخلاق صورية، رياء، قمع الإبداع والتفرُّد، سلطة المال، زواج المصلحة، وما إلى ذلك. الشخص المنافق يستنكر القتل بينما يوافق على الحرب وعقوبة الإعدام، يستنكر الفسق والفجور بينما يُجيز البغاء وزواج المصلحة، يرفض السرقة بينما يُجيز الاحتيال في شكل تجارة غير شريفة وربا ومُضاربات تجارية ومصرفية وعمليات مالية خادعة. الشخص المنافق يؤيد الحرية شكليًا، ومع ذلك فهو يُجيز ترويع الزوج لزوجته، والآباء للأبناء، والمدير للعاملين معه، والرئيس للمرؤوسين والموظفين. ومن المهم أنَّ كلَّ شيء يحدث بموجب القانون؛ ولا يسأل نفسه أبدًا أي قانون هذا، فالقانون هو القانون، وهو مُقدَّسٌ، إلخ. ومع ذلك، فالفنُّ الحداثي لا يعترض على هذه الرذائل ذاتها، وإنَّما يعترض على صورها المُقنَّعة وأشكالها الخفية. بالإضافة إلى ذلك، احتفى شعر الحداثة وصوَّر بكلِّ صراحة رذائلَ وجرائمَ الشخصيات الجسورة الشجاعة، إذا ارتكبوها جهارًا وإذا كانوا على استعداد لدفع ثمن جسارتهم وشجاعتهم. «لا يهمُّ من أنت ولا ماذا تفعل، ولكن فقط كن صادقًا مع نفسك حتى النهاية». كيف يمكن تفسير هذا الثناء الصريح على الشخصيات الساخرة والمستهزئة بكل شيء في الأدب الأوروبي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلا من خلالٍ حقيقة أنَّ النفاق والأخلاق الزائفة قد شاعت في المجتمع لدرجة تُثير الغثيان؟ وقد أثبت الوعظ الأخلاقي أنَّه عاجز في مواجهة النفاق، لأنَّ النفاق يُكرِّر القصة ذاتها باستمرار، فالكلمات هي هي لا تتغير، والوعظ الأخلاقي هو هو لا يتغيَّر. ولهذا نجد أنَّ هذا النوع من الأدب الأوروبي لا يضع امرأة شريفة إلى جانب عاهرة سابقة أصبحت

إحدى «سيدات المجتمع الراقي»، وإنَّما يضع عاهرة إلى جانب امرأة لعوب تشارك في الدعارة وتُبرِّرها بكل وقاحة. وبحسب رأي الحداثيين، كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لزعزعة الأسس الفاسدة النتنة لما يُسمَّى بالفضائل (الزائفة) للمدنية.

لماذا كان الأمر هكذا؟ وفقًا لقانون المخالفة؛ كان لا بدَّ للنموذج الأخلاقي المسيحي بعيد المنال أن يكون له نظيره المضاد وهو نموذج الإثم والجريمة. كان ردُّ الفعل على الدعوة إلى التضحية بالذات من أجل الآخرين (تضحية المسيح) هو الدعوة إلى الأنانية المُطلقة، أي كان ردُّ الفعل على الدعوة إلى دين التضحية هو الدعوة إلى دين الخطيئة والإثم. هذه الظواهر الواضحة هي إحدي الملامح المميِّزة للحضارة الغربية وحدها، وعلى حدٍّ علمي لا يمكن أن نجد شيئًا مماثلاً في أي ثقافة أخرى. يبدو أنَّ المثل العليا يجب ألا تكون بعيدة المنال، فعدم القدرة على بلوغها وتحقيقها يجلب خيبة الأمل والنفاق والرياء. كما أنَّ السخرية الشديدة من المثل العليا تنشأ كردٍّ فعل على النفاق والرياء. وفي كلتا الحالتين يغيب المعيار الإنساني. ،أي لا يوجد مطلب أخلاقي في مُتناول الإنسان واستطاعته. والحالة المُثلى هي تحقيق التوازن: أن تعيش لنفسك وللآخرين في الوقت ذاته، مثل خلية في جسم سليم.

١٧٢٣ يتغنَّى الأدب الأوروبي بالثناء على «جمال الرذيلة». ويتحدَّث القرآن كذلك عن الجمال المُغوي للمعصية، الذي هو من فعل الشيطان، وذلك كما في الآية: ﴿ **وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ** ﴾.

١٧٢٤ نجد تقريبًا في كلِّ روايات أوكتاف ميربو(*)، المعروف بشاعر الرذيلة، نموذجًا واحدًا لا يتغيَّر لتطوّر النفس الإنسانية. يأتي الطفل إلى العالم مُحمَّلاً بالحبِّ وشعور داخلي بحياة مرحة سعيدة، وفي النهاية يجد نفسه في مواجهة جنون الحياة والبشر المجرمين والأشرار. وبالنظر في هذا النموذج، لا بدَّ لنا أن نسأل أنفسنا: هذا «الضوء الكاشف» عن الشر والخطيئة في صفِّ مَن؟ هل هو في صفِّ براءة عالم الطفل أم في صفِّ البشر الأشرار؟

(*) أوكتاف ميربو (١٨٤٨- ١٩١٧م) روائي وصحافي وناقد أدبي وكاتب مسرحي فرنسي. من أعماله: «يوميات وصيفة» و«حديقة التعذيب» و«جبل الجلجلة». (المترجم)

المذهب الطبيعي زائف (أو يُمثِّل نصف الحقيقة)، وكذلك المثالية. في روايات ميربو، كلُّ الكهنة منافقون، كلُّ العلماء خَدَمٌ للسلطة، كلُّ الموظَّفين أو رجال الشرطة إمَّا أنَّهم فاسدون أو غير أكفّاء، كلُّ صاحب متجر أو مصرف هو لصٌّ، كلُّ رجل في السلطة هو طاغية ومستبد، كلُّ أسرة هي مرتع للأكاذيب والفسق. لو كان هذا تفسيراً صحيحًا للعالم، فلن يمكن تفسير التطوّر الكلّي للحياة والمجتمع، وخصوصًا في بعض الأحداث الفاصلة في القرن العشرين والتي لم يشهدها ميربو. ولن يمكن تفسير هذا التاريخ السابق واللاحق على ميربو، بل وحياته الخاصة، من خلال هذه الفلسفة. فالإنسان ليس ملاكًا ولا مجرمًا، والسرُّ الأعظم في الإنسان هو أنَّه لا هذا ولا ذاك، وإنَّما أنه «إنسان». إنَّه اللغز الأكثر تعقيداً وصعوبة في الفهم والتفسير في الكون كلِّه. إنَّ مَن يُصوِّرون الإنسان على نحو مثالي ومَن يرون فيه وحشًا، كلاهما يقوم بتسطيح القضية. فلو كان الإنسان وحشًا، لكان كلُّ الشعر والأدب شيئًا لا قيمة له وغير ضروري. وما الهدف المرجو لدى كاتب حيوان يريد أن يُثبت لقارئه أنَّه هو أيضًا حيوان وأنَّ كلَّ من يحيطون به هم كذلك حيوانات؟ خصوصًا لو كانوا كذلك بالفعل أو يُفترض أنَّهم كذلك ولا يستطيعون تجنّب أن يكونوا كذلك. ومع ذلك، يبدو أنَّه يوجد في هذا النوع من الأدب فكرةٌ خفيةٌ مسكوت عنها (أو افتراضٌ غيرُ واعٍ) بأنَّ الإنسان من المفروض أن يكون إنسانًا، وأنَّه للأسف عاجز عن أن يكون كذلك، وأنَّ هذا العجز يجعل حياتنا كلَّها وتاريخنا كلَّه بل حتى الكون كلَّه شيئًا بلا معنى وغير مفهوم. كما نجد أنَّ أعمال هؤلاء الكُتَّاب تطفح بالاحتجاج واليأس والاستنكار، ولكن ضد ماذا؟ إنَّه احتجاج ضد شيءٍ واحد، ضد الإنسان الذي ليس إنسانًا ولكن ينبغي أن يكون كذلك. بل إنَّ روايات ميربو هي خير مثال لهذا الأمر، وبغضِّ النظر عن الاختيار الواعي للكاتب وهدفه فهذه الروايات تكشف عن ازدواجية الموقف الإنساني.

لعلَّنا نتوقَّع أن يتخذ أصحاب المذهب الطبيعي موقفًا علميًا موضوعيًا غيرَ مُبال، مثل عالم الجغرافيا أو الجيولوجيا. فالجيولوجي يصف، بلا هوى أو عاطفة، الطَّبيعةَ الصحراويةَ والبراكين التي تثور فجأة وبلا تحذير مُدمِّرةً كلَّ ما يُحيط بها. ولعلَّنا، بالمثل، نتوقَّع من إميل زولا وبلزاك وميربو أن يصفوا بلا مبالاة مماثلة صحراء النفس الإنسانية

والبراكين التي تثور منها. إلا أنَّ الأمر ليس هكذا، فهم يغضبون ويُدينون أبطالَهم وينقلون لنا شعورَهم الحادَّ باليأس والقنوط. لماذا؟ بالتأكيد لأنَّهم يرون أنَّه يجب ألا يكون الحال هكذا، ليس حتمًا أن يكون هكذا. يقول ميربو على لسان بطله چان مينتييه في رواية (جبل الجلجلة): «كم من الأطفال كانوا سيصيرون رجالاً عظماء لو لم يُعطّلهم جهل آبائهم ومُعلِّميهم وافتقارهم إلى الفهم والمعرفة؟». فلا معنى للاحتجاج والثورة ضدَّ شيءٍ حتمي لا مفرَّ منه.

١٧٤٥ تبدو عظمة الإسلام وسموُّه على نحو لافت في نقطة في غاية الأهمية وهي تصوُّره عن الله. هذا التصور يُشبه السماءَ: بسيطة، إلا أنَّها في الوقت ذاته عظيمة وهي مَعينٌ لا ينضب. في كلِّ الأديان الكبرى الأخرى كان هناك بعض الالتباس والاضطراب حول هذا الموضوع الأساسي. يُمثِّل التصور النقي العميق عن الله كما جاء في القرآن ميزةً كبرى للإسلام في غاية الأهمية وذلك في دائرة الفكر الإنساني والتأثير الروحي. وأعتقد أنَّ الفكر الإسلامي سينمو ويتطوَّر في هذه الدئرة بلا حدود.

١٨٧١ يحمل المنهجُ الإسلاميُّ رسالةً تقول بأنَّه يجب غرس شتلة جديدة عوضًا عن كلِّ شجرة مقطوعة.

٢٠١٣ ليس هدفنا الإنسان المثالي، ولا حتى المجتمع المثالي. كلُّ ما نريده هو أُناس أسوياء ومجتمع سوي. فلتحفظنا يارب من أي «مثالية».

٢٠١٤ إذا حذفنا أجزاء معادلة العلاقة بين الغرب والشرق الإسلامي جزءًا بعد الآخر من الطرفين، فما الذي يبقى في النهاية باعتباره الاختلاف الذي لا يمكن التعويض عنه بين الطرفين؟ إنَّه العلاقة بين الرجل والمرأة. قد يتبنَّى الإسلامُ أشياء عديدة من الغرب (والعكس صحيح) ولكن إذا أقرَّ الإسلام بالعلاقات الأسرية كما هي في الغرب فإنَّه لم يعد العالم الإسلامي بعد ذلك. وذلك لأنَّ الغرب يواصل سيره في اتجاه الحرية الجنسية، ولا يبدو في الأفق حاجزٌ يكبح هذا الأمر. سيقدِّم الإسلام للمرأة حقَّ التعليم والحقوق السياسية، ولكن سيظلُّ محافظًا على صرامته الأخلاقية.

٢٠٤٨ الإسلام هو المثال النموذجي للاستمرارية في التاريخ والثقافة، فقد صدَّق على جميع الرسل والأنبياء الذين جاءوا قبله بلا استثناء (هذا الموكب الذي يضمّ جميع الرسل المعروفين وغير المعروفين). وإذا أخذنا بعين الاعتبار سموَّ التعاليم الأخلاقية عند سقراط وبوذا وكونفوشيوس ولاو تسي وكذلك بعض مؤسسي الأديان الهندية، فسيكون لدينا مبرِّرٌ لأن نظنَّ أنَّهم كانوا أيضًا من بين الرسل. فهل من تفسير لذلك؟

٢٠٦٧ يُعاش الحجُّ باعتباره رحلة عبر الزمان والمكان، وذلك بسبب مواقف تاريخية استثنائية تعود إلى ما قبل التاريخ. كما أنَّ مشهد مئات الآلاف من الناس في زي الإحرام الأبيض يأخذ بأفكارنا إلى أقصى حدود الطوبيا.

٢١١٤ «مجمع عقيدة الإيمان»(*) الحالي، وهو أعلى هيئة في الكنيسة الكاثوليكية، هو «المجمع المقدس لمحكمة التفتيش» سابقًا.

٢١٥٦ عندما أفكِّر في حال المسلمين عبر العالم، يتبادر إلى ذهني هذا السؤال: هل نلنا المصير الذي نستحقُّه؟ وهل الآخرون مسئولون دائمًا عن حالنا وهزائمنا وخيباتنا؟ وإذا كنَّا نحن المسئولين عن هذا -وهذا ما أعتقده- فما الذي كان يجب أن نفعله ولم نفعله؟ أو ما الذي فعلناه وما كان ينبغي أن نفعله؟ بالنسبة لي، هذا السؤالان لا مفرَّ منهما فيما يتعلَّق بموقفنا الذي لا نُحسد عليه.

(*) مجمع عقيدة الإيمان Congregation for the Doctrine of the Faith كان يُسمَّى من قَبْلُ «المجمع المقدس الأعلى لمحكمة التفتيش الرومانية والعالمية» Supreme Sacred Congregation of the Roman and Universal Inquisition وقد تأسس عام ١٥٤٢م من قبَل بولس الثالث، وكان واجبه الدفاع عن الكنيسة ضد الهرطقات بالإضافة إلى نشر العقيدة الكاثوليكية، وهو أقدم المجامع التسعة في الكوريا الرومانية وهي الجهاز الإداري والتنفيذي والاستشاري الذي يساعد البابا في الڤاتيكان على إدارة مهامه المختلفة. في ١٩٠٤م تغير اسمه إلى «المجمع الأعلى المقدس للمنصب المقدس» Supreme Sacred Congregation of the Holy Office، وفي ١٩٦٥م تغيَّر إلى الإسم الحالي «مجمع عقيدة الإيمان» بعد انعقاد المجمع الڤاتيكاني الثاني، وفي ١٩٨٨م أصدر بابا الڤاتيكان يوحنا بولس الثاني الدستور الرسولي المسمَّى بالراعي الصالح الذي يتضمن في الفقرة ٤٨ واجبات هذا المجمع كالآتي: «إنَّ الواجب الصحيح لمجمع عقيدة الإيمان هو تشجيع وحماية العقيدة الخاصة بالإيمان والأخلاق في العالم الكاثوليكي كلِّه، ولهذا يقع ضمن اختصاصه كلُّ ما يتعلَّق بمثل هذه الأمور بأي حال من الأحوال». ويُصدر هذا المجمع سنويًا عددًا من البحوث والدوريات حول معظم العقائد المسيحية ويُصادق على أي منشور كنسي يصدر عن البابا، سواء كان رسالة أم خطابًا أم تفسيرًا لعقيدة معينة أو حتى إعلان عقيدة جديدة. (المترجم)

٢١٨٤ تندمج خمس دول اسكندناڤية تدريجيًا لتصبح دولة واحدة، وهي فنلندا والسويد والنرويج والدنمارك وأيسلندا. ومن ثمَّ، على سبيل المثال، يستطيع مواطن فنلندي أن يعمل في السويد، ويحصل على الرعاية الصحية في النرويج، ويحصل على راتب التقاعد في الدنمارك. وعندما يتعلَّق الأمر بالمصالح المشتركة تنطلق مجموعة من المؤسسات المشتركة مثل: بنك الشمال للاستثمار، شركة الاتصالات الشمالية، الصندوق الشمالي للتنمية التكنولوجية، مجلس وزراء دول الشمال، وكذلك هناك حوالي ستين هيئة مشتركة أخرى. وقد أُلغيت الحدود بين هذه الدول تقريبًا، وتحدث عملية الاندماج تحت شعار «دولة اسكندناڤية واحدة». كان المُشرِّعون الشماليون الذين بدأوا عملية الاندماج هذه قد اجتمعوا لأول مرة منذ حوالي مائة عام. عندما أتحدَّث عن اندماج واتحاد العالمَ الإسلامي فإنَّني أتخيله شبيهًا بعملية الاندماج هذه. سيستغرق الأمر بعض الوقت، لكنَّه ليس مستحيلاً، فقد استغرق الاندماج الاسكندناڤي بعض الوقت كذلك.

٢٢٢١ يقول فرانشسكو غابرييلي: «لم يكونوا من العرب لكنَّهم كتبوا باللغة العربية: كان أبو نواس، أحد أعظم شعراء العربية، فارسيًا. كما كتب ابن المقفَّع، وهو فارسي أيضًا، أجمل وأعذب النثر العربي (في القرن الثاني الهجري). كما كان كلٌّ من سيبويه (النحوي الشهير الذي نسَّق ودوَّن قواعد اللغة العربية) وابن سينا والعالم الكبير البيروني كانوا فارسيين. وكان ابن الرومي من أصل إغريقي مثل العالم الجغرافي اليعقوبي، بينما كان الإخباري المؤرِّخ ابن أعثم الكوفي والفقيه والمؤلِّف ابن حزم والشاعر الكبير ابن قزمان، كانت أصولهم ترجع إلى القوط الغربيين» (فرانشسكو غابرييلي، تاريخ الأدب العربي، ص ١١).

كانت هيمنة اللغة العربية في القرون الأولى للإسلام هيمنة مطلقة. ولم يعترضها سوى حركة إعادة بعث القومية الفارسية في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة، في الشعر أولا ثم في النثر بعد ذلك، ولم يحدث الانفصال التام بين الأدب الفارسي والأدب العربي إلا مؤخَّرًا. فقد كانت هيمنة اللغة العربية تمتدُّ إلى كلِّ مكان بفضل هيمنة القرآن على الحياة الروحية.

٢٢٢٤ حكمت الدولةُ الأمويةُ خلال القرنين الأول والثاني الهجريين، والدولةُ العباسيةُ من القرن الثاني حتى القرن السابع الهجري. شكّلت حقبة هاتين الدولتين التي استمرَّت حوالي ستة قرون ما يُسمَّى بالعصر الكلاسيكي للثقافة الإسلامية. تلا ذلك الغزو المغولي في الشرق في القرن السابع الهجري، وسقوط الأندلس (من القرن السابع حتى التاسع الهجري)، ونتيجة لهذا حدث تفسُّخ وتدهور حاد خلال القرون الخمسة أو الستة التالية والذي استمرَّ حتى مطلع القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلادي. كان ابن خلدون هو الاسم الوحيد الذي برز خلال ذلك التدهور، وبدا كأنَّه واحة في صحراء شاسعة.

٢٢٢٥ هناك أربعة أسماء كبيرة في الشعر الفارسي (والعالمي): الفردوسي ونظامي وسعدي وحافظ.

٢٢٢٦ علينا ألا ننسى أن رسول الله محمد ﷺ قد حارب المشركين، ولكنَّه تفاوض معهم أيضًا.

٢٢٣٥. كان من نتائج إصلاحات كمال أتاتورك أن توقَّف الحوار أو التدفُّق الضروري الدائم بين الماضي والحاضر والمستقبل، ومن دون هذا الحوار أو التدفُّق لن يوجد في أي أُمَّةٍ نظامٌ راسخٌ من القيم ولا شعورٌ حقيقي بالكرامة.

٢٢٩٠ لا يوجد أدب متفائل جيد. وقد قيل: «يعيش الأدب على الشر الموجود في العالم».

٢٢٩٣ يُوفِّر توازنُ القوى القائم على انقسام العالم إلى كتلتين مناخًا مناسبًا لإيجاد وتنمية مجموعة ثالثة من القوى في العالم. ففي عالم ثنائي القطب، تكون كلٌّ من القوتين العظميين عاملَ توازن في الغالب. فمن دون وجود الاتحاد السوفييتي سيخضع العالم لعملية أمركة سياسية وروحية. بل يبدو أكثر وضوحًا أنَّه لولا وجود الولايات المتحدة الأمريكية ستظهر على المشهد عملية صبغ العالم بصبغة سوفييتية بطريقة عنيفة. وهكذا يكون البناء الطبيعي والناجح للاتحاد الأوروبي (على مؤسسات السوق الأوروبية المشتركة الموجودة حاليًا) هو أمر ممكن تحت الظروف الراهنة فقط. صحيح أنَّ تدخُّل القوى العظمى للحيلولة دون ذلك لا يزال قائمًا حتى الآن، إلا أنَّه سيكون بدرجة محدودة للغاية. وفي

ظلِّ هذا الصدام بين العملاقين، يمكن لقوة عظمى جديدة أن تُولد وتنمو من خلال خطط وأفكار العالم الإسلامي وعلى امتداد أرجائه. وقد أظهرت السوق الأوروبية المشتركة كيفية القيام بهذا تدريجيًا، وهي النموذج الذي يمكن احتذاؤه.

٢٣١٢ الرؤى المتنوعة للحياة إما على شكل نثر أو شعر، وهي السمة التي تُميِّز الإسلام، تنعكس حرفيًا في القرآن الكريم، والذي يُمثِّل، من ناحية شكله الأدبي، مزيجًا من النثر والشعر.

٢٣١٣ كان الهدف هو إيجاد مجتمع يجمع بين الانضباط الأخلاقي والحرية السياسية. هذه مُهمَّة صعبة، ولكنَّها ممكنة، وأؤمن بأنَّها فكرة إسلامية في الأصل.

٢٣١٤ كان الأخطل، وهو أحد أكبر ثلاثة شعراء في العصر الأموي -جرير والفرزدق والأخطل- كان نصرانيًا من بلاد ما بين النهرين. يصفه المؤرِّخون بأنَّه كان يتجوَّل في قصر الخلافة بدمشق بصليب ذهبي يتدلَّى حول عنقه وكان يرفض اعتناق الإسلام. (غابرييلي، المرجع السابق، ص ٩٥).

٢٣٢٩ كان الخلاف الذي ساد في العالم العربي خلال الحقبة الكلاسيكية (القرون الخمسة الأولى) مُدمِّرًا في الجانب السياسي، ولكن لم يكن كذلك في الجانب الثقافي. يقول غابرييلي: «ومع ذلك، لم يؤدِّ ذلك الانقسام السياسي (شرق-غرب، هذا التعليق من عندي) إلى قطع الروابط الثقافية، وكانت هذه سمة مميِّزة للعصور الإسلامية الوسيطة. فالثقافة الإسلامية كانت مُوحَّدة في جوهرها، مع بعض التنويعات والملامح الإقليمية، ومن ثمَّ يمكننا القول إنَّه لم تكن هناك حدود سياسية أمام القيم الروحية».

٢٣٣٢ قدَّم عرب الأندلس شكلاً جديداً من الشعر على شكل مقطوعات (الموشحات)، ويرجع اختراعه إلى الشاعر مقدم بن معافي الضرير. تتكوَّن قصائد هذا النوع عادة من خمسة أو ستة مقاطع مع تراكيب مختلفة للقافية. وقد قام خوليان ريبيرا Julián Ribera ورامون مينيندز بيدال Ramon Menéndez Pidal بتحليل مقارن شامل لهذا الشعر العربي الأندلسي، وللشعر البروڤينسي فيما بعد، وأثبتا الكثير من التشابهات، خاصة في أوزان القصيدة. ويكون التشابه أعمق مع شعر الغزل العفيف ويصل إلى

مضمون الشعر ذاته، خاصة من ناحية إدراك الحب باعتباره طقسًا دينيًا. وقد أثبتا أصل هذه الفكرة في شعر المغرب العربي من خلال نتائج بحث شامل ومُوثَّق جيدًا. ولا شكَّ أيضًا أنَّ أصل القصائد الرومانية ذات السجع يرجع إلى شعر المغرب العربي.

٢٣٣٥ يقول فرانشيسكو غابرييلي: «من يتصفَّح كتابَ الفهرست لابن النديم، وهو ثبْتٌ منهجي بأسماء الكُتُب والمؤلِّفين باللغة العربية كُتب في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، من يتصفح هذا الكتاب سوف يرى ما يمكن للثقافة العربية الإسلامية أن تفخر به من سعة اضطلاع عظيمة وثقافة علمية، وسيدرك أنَّ ما دُرس حتى الآن من تلك العلوم والمعارف ليس إلا مجرَّد جزءٍ صغير مقارنةً بما لا يزال في حَاجة إلى الدراسة والتحليل وما فُقد نهائيًا».

وهكذا، فما تعرفه الأجيال المتأخِّرة من الثقافة العربية الإسلامية هو جزءٌ صغير نسبيًا. ولن تكون هناك نهضة للعرب والمسلمين حتى يُرفَع الحجاب عن هذه الثقافة الدفينة التي أُبدعت في ظلِّ التأثير الشديد والمباشر للمنابع والمصادر الإسلامية: القرآن والحديث والتابعين الأوائل. لن تكون هناك بداية جديدة دون دراسة ومعرفة المنابع والأصول، كما ثبت من تجربة الثقافة الغربية.

٢٣٣٦ عندما أتأمَّل في الإسلام من بعض الجوانب المختلفة، فلا بدَّ أن أعترف بأنَّ هناك شيئًا ما بدائيًا وفطريًا فيه، ولكن بالمعنى الإيجابي للكلمة. ما أعنيه هو قُربُه والتصاقه بعناصر الحياة والواقع، ونفوره في الوقت ذاته من التكلُّف والافتعال والثقافة الفارغة والترف. إنَّ الإسلام قريبٌ من بعض حقائق الحياة التي لا تُعجب الشعراءَ المرضى أو الرومانتيكيين المضطربين، ولكنَّها تأسر قلوبَ وأرواحَ هؤلاء الذين ﴿ **يضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ من فَضْلِ اللّهِ** ﴾.

٢٣٥٨ لم يُكتَب التاريخُ الإسلامي حتى الآن، وما هو موجود الآن تحت هذا العنوان يصلح أن يكون أيَّ شيء إلا أن يكون تاريخًا حقيقيًا، وهو ليس بالأمر الغريب. فالمُدوَّن حتى الآن لم يكتبه عقلٌ موضوعي متخصص ذو خبرة وسعة اضطلاع، وإنَّما كُتب إمَّا من خلال كراهية عميقة أو حُبٍّ عميق! والكراهية والحبُّ يصلحان لكتابة الشعر، لاَ التاريخ.

خلال أكثر من ألف سنة كان هناك الكثيرون ممَّن أمسكوا بالقلم لكي يطعنوا أو ينتقصوا أو على الأقل يحجبوا التاريخ الإسلامي. واستُخدم اللون الأسود كثيرًا لوصف وتصوير بعض الأحداث، أو حتى عصور كاملة، لتبدو أسوأ من حقيقتها. لاحقًا، ظهرت بعض العقول الأكثر موضوعية، ولكن كيف يتسنَّى لهم الوصول إلى صورة حقيقية عن زمن لم يستطيعوا أن يعرفوه بأنفسهم (مباشرة) وإذا كانت كلُّ المعلومات المتاحة لهم تنضح بالكراهية المريرة؟ هل يستطيعون إصدار أحكام موضوعية وصادقة حتى لو كانوا يرغبون في ذلك؟ ومن ناحية أخرى، بالغ المؤمنون المخلصون المتحمسون بطريقتهم الخاصة، وذلك من خلال تمجيد وتعظيم أي نجاح من أي نوع. غير أنَّ الحقيقة الواقعية كانت على الأرجح في مكان ما بين هذا وذاك، لأنَّ الحياة، بطبيعتها، فيها الارتفاع والسقوط، لحظات النور ولحظات العتمة. ومع ذلك، كانت المبالغة السلبية هي الأكثر شيوعًا وخطورة، ومن ثمَّ كان لها تأثير حاسم على الصورة التي تكوَّنت حول التطوُّرات التي وقعت في أقطار العالم الإسلامي الحديث.

٢٣٥٩ تُرجم كتاب «الخطابة» لأرسطو إلى العربية مُبكِّرًا في النصف الأول من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. وعلى الأرجح كان المُترجِم هو حنين بن إسحق. (نقلاً عن غابرييلي، المرجع السابق، ص ١٨٧).

٢٣٦١ تزامن خمود الفكر النقدي في الثقافة الإسلامية في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي مع بدايات التدهور والانحدار السريع في كلِّ المجالات. حيث سادت عمليات التكرار المتواصلة والتصانيف المدرسية المتحذلقة، لتبدأ حقبة من السُّبات التاريخي التي استمرَّت حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي وبدايات القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلادي.

٢٣٦٣ تُقدِّم فقرةٌ واحدة من موسوعة الطبري التاريخية الضخمة (تاريخ الرسل والملوك) تُقدِّم لنا بعضَ الإشارات حول مكانة (ودور) المرأة في العهد المبكِّر من الإسلام. يتضمَّن الوصف التفصيلي لمعركة القادسية التي كانت ستحسم مصيرَ الإمبراطورية الفارسية السطور التالية: «فأصبحوا من اليوم الثالث؛ وهم على مواقفهم؛ وأصبحت

الأعاجم على مواقفهم. وقد قُتلَ من المسلمين ألفان من رثيث وميت، ومن المشركين عشرة آلاف من رثيث وميت. وقالَ سعد: من شاء غسل الشهداء، ومن شاء فليدفنهم بدمائهم، وأقبل المسلمون على قتلاهم فأحزروهم، فجعلوهم من وراء ظهورهم، وأقبل الذين يجمعون القتلى يحملونهم إلى المقابر، ويُبلِّغون الرثيث إلى النساء، وحاجب بن زيد على الشهداء، وكان النساء والصبيان يحفرون القبور في اليومين: يوم أغواث، ويوم أرماث، بعُدوَتَيْ مُشَرّق، فدفن ألفان وخمسمائة من أهل القادسية». (نقلاً عن غابرييلي، المرجع السابق، ص ١٩٨-١٩٩).

٢٣٦٥ أصبح السلاجقة الأتراك عاملاً حاسمًا في الشرق الأوسط في وقت مبكِّر، وتحديدًا في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

٢٣٦٩ إذا قال أحد من الناس إنَّ الرؤية الإسلامية للعالم تقوم على مركزية الله، فأعتقد أنَّنا سنتَّفق معه. ففي التصوُّر الإسلامي، الله هو مبتدى الحقيقة وقلبها وغايتها.

٢٣٧٣ في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي كانت مدينة باليرمو لا يزال نصف سكَّانها من المسلمين. وقد زارها الكاتب الرحَّالة ابن جُبير الأندلسي في عام ١١٨٤م وهو في طريقه إلى مكة، ووصف ابن جُبير، وهو يكتب عن رحلته، ما رآه خلال مروره بمدينة باليرمو، حيث رأى الكثير من المساجد ولاحظ أنَّ زيَّ النصرانيات هو زيُّ نساء المسلمين. يقتبس غابرييلي جزءًا من هذا الوصف (في المرجع السابق، ص ٢٢٠-٢٢٢).

٢٣٧٩ بعض المعلومات من التاريخ الإسلامي: كان القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي بدايةً لأزمة كبرى. فقد تدفقت جحافل المغول من آسيا، حيث قهرت بلادَ فارس في الموجة المغولية الأولى، والخلافةَ الإسلامية في بغداد في الموجة الثانية. كما خيَّم خطر الإفرنج على الشام ومصر. وفي الأندلس، قضت حروب الاسترداد على المرابطين، واقتصر الحكم الإسلامي على غرناطة وما يحيط بها. وغادر العرب المشهد لمدة ستة قرون تالية، وتولَّى العثمانيون زمام الأمر. وبدأت مصر تستعيد عافيتها شيئًا فشيئًا تحت حكم المماليك خلال القرون السابع والثامن والتاسع من الهجرة/ الثالث عشر والرابع عشر

والخامس عشر من الميلاد، وذلك بعد طرد المغول من دمشق والصليبيين من بيت المقدس. في مجال الثقافة، لم يظهر إلا أقلُّ القليل من الأعمال المبتكرة والأدب الحقيقي والشعر الأصيل، وانتشرت الموسوعات والمختارات والتصانيف المُكرَّرة المُعادة، وهذه علامات نموذجية للسقوط والانحدار.

٢٣٨٢ يقول غابرييلي إنَّ حكايات ألف ليلة وليلة أكثر انتشاراً وشعبية في الغرب منها في الشرق، وإنَّها آخر علامات العصر الكلاسيكي للأدب العربي.

٢٣٨٤ من المفيد دراسة وتحليل إلى أي مدى أسهم اجتياح القوى الأوروبية للبلاد الإسلامية خلال القرن التاسع عشر الميلادي في إيقاظ البلاد المقهورة. في الواقع، كان لا بدَّ لهذه المواجهة مع الثقافة الأجنبية الأوروبية المسيحية أن تسهم في يقظة هذه الشعوب. بالإضافة إلى ذلك، كان وصول الأوروبيين بالنسبة لكثير من البلاد العربية، من العراق إلى الجزائر، كان يعني مجرَّد تغيير في سلطة الاحتلال. فبدلاً من الدولة العثمانية، التي أصبحت مُنهكة ولا تملك أيَّ شيء لتُقدَّمه، جاءت أممٌ جديدة نشطة حاملةً معها ثقافتها المزدهرة. هذه حقيقة علينا الاعترافُ بها. وبالطبع، يتبقَّى تحديد مدى مسئولية كل طرف عن الركود الشامل خلال السيطرة العثمانية من ناحية، والعجز والإنهاك الذي ساد الأمة العربية من ناحية أخرى، والتي كانت ستبقى على الأرجح على هامش التاريخ، حتى من دون السيطرة العثمانية. على أي حال، لقد طالت «عُطلة» الشعوب العربية كثيراً جداً.

٢٣٨٦ لا أعرف كيف كان موقف جمال الدين الأفغاني من الدولة العثمانية، ولكن ثمَّة دلائل على أنَّ مصر في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين الميلادي، ورغم أنَّها كانت خاضعة للاحتلال البريطاني، كانت تُقدِّم حريةً أكبر لمُؤيدي القضايا العربية الإسلامية أكثر من البلاد الخاضعة للحكم العثماني. وبوضوح، فرض العثمانيون سياسةً قوميةً خالصةً أدَّت إلى هزيمتهم تمامًا في الحرب العالمية الأولى وانهيار الإمبراطورية العثمانية.

٢٣٨٧ هكذا يرى الشاعر العربي ميخائيل نُعيمة (المولود في ١٨٩٩م) الموقف في وطنه بعد الحرب العالمية الأولى (في قصيدته «أخي»):

أخي! إنْ ضَجَّ بعدَ الحرب غَرْبِيٌّ بأعمالهْ
وقَدَّسَ ذكْرَ مَنْ ماتوا وعَظَّمَ بَطْشَ أبطالهْ
فلا تَهزجْ لمن سادوا ولا تشمتْ بِمَنْ دَانَا
بل اركعْ صامتًا مثلي بقلب خاشعٍ دامٍ
لنبكي حَظَّ موتانا
أخي! قد تَمَّ ما لو لم نَشَأْهُ نَحْنُ مَا تَمَّا
وقد عَمَّ البلاءُ ولو أَرَدْنَا نَحْنُ مَا عَمَّا
فلا تندبْ فأُذْنُ الغيرِ لا تُصْغِي لِشَكْوَانَا
بل اتبعني لنحفر خندقًا بالرفْشِ والمعْوَل
نواري فيه مَوْتَانَا
أخي! مَنْ نحنُ؟ لا وَطَنٌ ولا أَهْلٌ ولا جَارُ
إذا نمْنَا، إذا قُمْنَا، رِدَانَا الخِزْيُ والعَارُ
لقد خَمَّتْ بنا الدنيا كما خَمَّتْ بِمَوْتَانَا
فهات الرّفْشَ وأتبعني لنحفر خندقًا آخَرَ
نُوَارِي فيه أَحْيَانَا

هذا هو الوصف الشاعري لميخائيل نُعيمة. وحده الشاعر يُدرك حجمَ السقوط والفاجعة، ووحده الذي يجد الكلمات المناسبة لوصفها.

٢٣٩٤ بما أنَّ فنَّ النحت كان منبوذًا (أو حتى مُحرَّمًا) في دائرة الثقافة الإسلامية، فيمكننا أن نتصوَّر أنَّ طاقة الفنِّ التشكيلي في تلك الدائرة وُجِّهَتْ نحو فنِّ العمارة. ألا يُعَدُّ البناء، في النهاية، نوعًا من فنِّ النحت؟

٢٣٩٦ (بَيْدَبا المنسيُّ) لم يُنكر الكاتب الفرنسي الشهير چان دي لافونتين (١٦٢١-

١٦٩٥م) Jean de La Fontaine أنَّه مدين بفضل كبير في حكاياته الرمزية للكاتب العربي بَيْدَبا. ظهرت حكايات بيدبا الرمزية باللغة العربية حوالي سنة ٧٧٠م بعنوان «كليلة ودمنة»، وكان مصدرها هو كتابٌ هندي للقصص الرمزية اسمه «بانشاتانترا Panchatantra» تُرجم أولاً إلى الفارسية، ثم من الفارسية إلى العربية. وفي القرون التالية تُرجمت حكايات بَيْدَبا الرمزية إلى اليونانية (في ١٠٨٠م)، ثم إلى العبرية (في ١٢٥٠م)، ثم إلى الإسبانية (في ١٢٥١م)، ثم إلى الألمانية (١٥٥٢م)، ثم إلى الفرنسية (١٥٧٠م) إلخ. وبمرور الزمن نُسي اسم بَيْدَبا، ولهذا تذكر الموسوعات الكبرى الآن فقط إيسوب Aesop ولافونتين وكريلوف Ivan Krylov وبعض مؤلِّفي القصص الرمزية المتأخِّرين. وقد لاقى كتاب بانشاتانترا المصير ذاته، مع أنَّه المصدر المباشر لحكايات بَيْدَبا الرمزية. ويمكن ملاحظة هذا «النسيان الفرويدي» في مجالات أخرى كذلك.

٢٣٩٧ أُنشئت مدرسةٌ للترجمة في بغداد مع نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وكانت مهمتها الأساسية تقديم ترجمة للنصوص اليونانية والرومانية إلى اللغة العربية. وقد ثبت على نحو موثوق أنَّ جميع الكتب الطبية المهمة التي كتبها القدماء، خاصة كتب أبقراط وجالينوس، قد تُرجمت إلى العربية قبل عام ٢٨٦هـ/ ٩٠٠م.

٢٣٩٨ كتب الكاتب المصري المعاصر محمد كامل حسين (المولود في ١٩٠١م) رواية «قرية ظالمة» التي نُشرت عام ١٩٥٥م. تُقدِّم الرواية إعادة بناء مُدهشة وتفسيرًا باهرًا لآلام المسيح، «وهي مكتوبة بتوازن رائع وتعاطف أخلاقي خالص بيد أحد عموم المسلمين المعاصرين، وهو روائي وأخلاقي وعالم في الوقت ذاته» كما يقول غابرييلي، المرجع السابق، ص ٢٨٦ هذا الكتاب عبارة عن مزيج من النثر القصصي والمقال في تضافر مع الملاحظات التاريخية والفلسفية والدينية.

٢٣٩٩ كتب توفيق الحكيم، أشهر كاتب مسرحي مصري (المولود في ١٩٠٣م)، مسرحية بعنوان «أهل الكهف»، مستلهمًا قصة أصحاب الكهف من القرآن الكريم. فكرة المسرحية هي أنَّ هؤلاء استيقظوا بعد عدة قرون من النوم وحاولوا وصل تيار الأحداث المنقطع من حيواتهم السابقة، ولكنَّهم فشلوا في هذا «الصراع مع الزمن».

٢٤٠٣ إذا تأمَّلنا عملية الترجمة النشطة للنصوص اليونانية إلى اللغة العربية خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين/ الثامن والتاسع الميلاديين، قد نخلص إلى استنتاج عن نوعٍ من الانسجام والتوافق بين الروح الإسلامية والروح اليونانية، أو على الأقل عن غياب أيِّ ممانعة أو تعصّب. لو كان في فكر المفكرين اليونانيين الكبار أيُّ شيء غريب على الإسلام، لحدثت عملية الألفة مع الثقافة اليونانية (أو تَبَنِّيها) بكثير من التريُّث والبطء، ولكنَّها، كما نعرف، كانت عمليةً تجري على قدم وساق دون أن يعترض سبيلَها شيءٌ، على غرار عملية «اكتشاف الكنوز المفقودة» (كما يقول محمد أسد)(*) وعلى حدٍّ علمي، لم تُبحث هذه الظاهرة من هذه الزاوية من قبلُ. وبطبيعة الحال، ستجد طريقةُ التفكير الغربية أنَّ هناك اختلافًا واسعًا بين فكرة مركزية الله في الإسلام وفكرة مركزية الإنسان في الفكر اليوناني. غير أنَّ هذا الاختلاف ليس كما تراه العقول الوضعية المنطقية في أوروبا. فلا التمركز الإسلامي حول الله يُنكر وجود الإنسان، ولا التمركز اليوناني حول الإنسان يُنكر وجود الله. ودائمًا سيقى الصراع بين النزعة الإنسانية والدين شيئًا زائفًا ومُصطنعًا. وذلك لأنَّه كما أنَّ الإنسان لا يمكن أن يوجد بدون وجود الله، فكذلك لن تكون هناك نزعة إنسانية بدون وجود الدين. وأخيرًا، فإنَّ ما شهدناه في قرننا هذا من امتهان وإذلالٍ للإنسان، يؤكِّد هذه العلاقةَ الوثيقة بين إنكار وجود الله وهذه الظاهرة الكارثيةَ.

٢٤١٦ إنَّ أميةَ الإسلام وعالميته تعني رفضَ أي تعصب أو إقصاء قومي. فهي تُمكِّن الإسلام من الانفتاح على القيم الحقيقية لكلِّ الشعوب، لتشمل حدودُ هذا الانفتاح الإنسانيةَ بأسرها. وتُفسر هذه الحقيقةُ الانفتاحَ وغيابَ التعصُّب خلال قبول ورضى العالم العربي لجميع إنجازات الثقافتين اليونانية والفارسية في القرون الأولى للإسلام.

(*) يُشير بيجوفيتش هنا إلى ما ذكره محمد أسد في كتاب «الإسلام على مفترق الطرق» في فصل «روح الغرب» عن استعادة أوروبا لثقافة وتراث وفكر الأجداد اليونانيين عن طريق الحضارة العربية الإسلامية، حيث وجدوا العرب قد نقلوا هذا التراث وحافظوا عليه بل وأضافوا إليه، فأقبلت عليه أوروبا تترجمه وتنقله إلى ثقافتها في عملية اكتشاف جديدة للكنوز اليونانية المفقودة، يقول محمد أسد: «وظهرت أمام عيون الباحثين والمفكرين الأوروبيين المذهولة حضارةٌ أخرى، حضارة نقية، متقدمة، تضجُّ بالحياة المتَّقدة، وتمتلكُ الكنوزَ الثقافيةَ التي فقدتها ونسيتها أوروبا منذ زمن طويل». (المترجم)

٢٤١٩ هناك فرضية رائجة حول الشكِّ في إيمان وإخلاص خلفاء بني أُمَيَّة. ينظر البحث التاريخي المعاصر إلى هذه الفرضية على أنَّها لا أساس لها، وأنَّه ينبغي البحث عن مصدرها في الدعاية العبَّاسية التي تعمَّدت تشويهَ سمعة الأمويين بعد إسقاط حكمهم بغرض تثبيت شرعية الحكم العبَّاسي.

٢٤٢٠ ينظر المؤرِّخون إلى فترة الحكم العبَّاسي باعتبارها «العصر الذهبي» العالمي للحضارة الإسلامية، حيث كانت حضارة باللغة العربية، ولكن أبدعها رجال من أجناس مختلفة «جمعهم الوعي بالانتماء إلى الفضاء الواسع لحضارة واحدة» كما يقول داركو تاناسكوفيتش(*) كان أكثر مَن ساهموا في هذه الحضارة من غير العرب، وهذه الحقيقةُ تمنح هذه الحضارةَ ميزةً مزدوجة؛ أنَّها إسلامية وعالمية على السواء. يقول غابرييلي: «إنَّ ما يُثيره التزمُّت المتعصب للقومية الحديثة من جدل حول الخلفية العرقية لهذا الكاتب أو ذاك، لم يكن له أيُّ معنى في ذلك الوقت، حيث كان الجميع يَعتبرون أنفسهم مواطنين في الدولة الإسلامية، وكانوا يتكلَّمون باللغة العربية والتي كانت أنسب وأفضل وسيلة للتعبير عن أفكارهم» (غابرييلي، تاريخ الأدب العربي).

٢٤٢١ جميع الثقافات المعروفة على مَرِّ التاريخ هي ثقافاتُ أمٍم بعينها، أي ثقافات قومية: صينية، يونانية، رومانية، هندية، إنكية، إلخ. ولكن هناك استثناءان؛ الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية، اللتان تقومان على دينين عظيمين: الإسلام والمسيحية.

٢٤٢٢ هناك تعريف مثير للعروبة قدَّمه جب (هاملتون ألكسندر جب Hamilton Alexander Gibb، وهو باحث إنجليزي متخصص في الدراسات الإسلامية، ١٨٩٥-١٩٧١م). فالعرب، حسب رأيه، هم «كلُّ هؤلاء الذين تُمثِّل البعثةُ المحمدية وتُمثل الإشارةُ إلى الإمبراطورية العربية بالنسبة لهم الحدثَ التاريخي الأساسي، والذين يعتبرون اللغةَ العربيةَ وتراثَها المكتوب ملكَهم المشترك».

(*) داركو تاناسكوفيتش Darko Tanaskovic (١٩٤٨م-) مستشرق صربي، وأستاذ بكلية اللغات بجامعة بلغراد، يُعرف بأنَّه مستشرق مُتطرِّف ومتعصّب للقومية الصربية. من أعماله: «نحن والإسلام» و«العثمانية الجديدة». (المترجم)

٢٤٢٤ أدَّى الخلاف السياسي في الأندلس الإسلامية خلال القرون الخامس والسادس والسابع الهجرية/ الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر الميلادية إلى هزيمة العرب وانسحاب الإسلام أمام حروب الاسترداد. هذا أحد النماذج النادرة في التاريخ التي هُزمت فيها الثقافة القوية، ليس هزيمة عسكرية فحسب، وإنَّما هزيمة مطلقة؛ وذلك لأنَّ ما حدث في الأندلس، على خلاف الحالات الأخرى، هو أنَّ الطرف المنتصر كان أضعف روحيًا ولم يتقبَّل ثقافة الطرف المهزوم، ولكن فرض دينه وثقافته هو. في الحقيقة، كان أقوى مَن تحالَفَ مع حروب الاسترداد الكاثوليكية هم الحُكَّام المسلمون أنفسهم المتفرِّقون والمعادون لبعضهم البعض. هذا السقوط، الذي يبدو مستحيلاً وانتكاسيًا من وجهة نظر الحضارة والذي وقع في إسبانيا ما قبل رحلات كريستوفر كولومبوس، ما كان ليقع دون دعم ومساعدة هؤلاء الحُكَّام.

٣٠٩٣ يُذكِّرني تباهينا بعدد المسلمين الضخم، والذي يزداد بسرعة كبيرة، يُذكِّرني برجل يستعرض بدانته وسمْنته مسرورًا بما يكتسبه من كيلوجرامات جديدة. متى سنبدأ في التركيز على روحنا وعقلنا وإنجازاتنا؟ فقد يُضيف إلى الإنسانية شخص نحيل البدن عظيم الروح. أين قوتنا وعلمنا وآدابنا؟ أين اكتشافاتنا ومشاركاتنا في الخير العام؟

٣٢٩٥ كنتُ أفكِّر في الإحرام الذي يرتديه الناس أثناء الحج: قطعتان بسيطتان من القماش الأبيض، أبلغ صور البساطة والمساواة التي يمكن للمرء أن يتخيَّلها. صورة خياليَّة وكأنَّها من عالم آخر. ما من شيءٍ فرَّق وميَّز بين الناس منذ الأزل مثل الملابس، فهي تعكس بكلِّ وضوح تفاوتَنا في الثروة والطبقة والمهنة والجنسية.

٣٣٢٣ أحدث نظرية عن الكون هي نظرية عن الطبيعة العكسية للجسيمات الأساسية للمادة، حيث يوجد لكلِّ جسيم من جسيمات المادة نسخة مطابقة له، هي الجسيم المضاد. ويُعتقَد أنَّه يوجد في أعماق الكون عوالم مضادة ونجوم مضادة ومجرات مضادة مكُوَّنة من هذا النوع من المادة الذي يُمثِّل الصورة العكسية لخواص مادتنا التي نعرفها. اكتشف بول ديراك نظرية المادة المضادة في الفيزياء، وهو الذي أثبت نظريًا عام ١٩٣٠م أنَّ الجسيمات المضادة توجد كنظائر للجسيمات التي نعرفها ومساوية لها تمامًا في الطاقة. اكتشف ديراك،

صاحب الأفكار التي تتعلّق بالطاقة السلبية والكتلة السلبية، اكتشف هذا الأمر من خلال منهج رياضي خالص، حيث قادته معادلاته إلى مثل هذا الاستنتاج. اكتُشف أول جسيم مضاد في ١٩٣٢م، وهو جسيم ذو شحنة موجبة (مضاد الإلكترون/ البوزيترون (Antielectron/Positron، وأُنتج أول مضاد بروتون Antiproton في أحد مُعجِّلات الجسيمات في ١٩٥٥م. (قارن هذا بقوله تعالى ﴿**سبحانَ الَّذي خَلَق الأَزْوَاج كُلَّهَا ممَّا تُنْبِتُ الأَرْض ومِنْ أَنفُسِهِمْ ومِمَّا لا يَعْلَمُونَ**﴾.

٣٣٧٩ دخل الدين مع الديانة اليهودية في حالة من الجمود التام، حيث أصبح أسير الطقوس والمظاهر، وعاجزًا عن الانتشار وقد وصل إلى أقصى حدوده. أخذت قوته الدافعة الجوّانية في التباطؤ تدريجيًا حتى توقّف تمامًا. وكان لا بدَّ من ظهور المسيح لكسر هذه البنية الجامدة. ولهذا كانت كلماته تُدوِّي ضد الشكل والمظهر. قد تبدو كلماته هذه غريبة أحيانًا، كتلك التي تقف ضد العلم والنظافة («طوبي للمساكين بالروح»، «أين أنتم أيها المتعالمون»، «أنتم تغسلون أيديكم وآنيتكم، وأرواحكم قذرة»). هذه الأوامر المبالغ فيها لا تعني حرفيًا ما هو ظاهر منها. بل كانت على الأرجح الثورة النبيلة لروح آلمها غيابُ أي شيء يمكن أن يكون إيمانًا حقيقيًا. بمجيء المسيح، تأرجح البندول بكلِّ قوة إلى الجانب المقابل. وفي سعي الدين لإنقاذ نفسه وروحه، رفض في تلك اللحظة كلَّ ما هو برّاني، كلَّ المظاهر والطقوس. ثمَّ أرسل الله رسولاً سيكتشف التوازنَ الحقيقيَّ بين الروح والجسد، الجوهر والمظهر، الروح والقانون، موسى وعيسى. وكان هذا هو محمد، ﷺ.

٣٥٠٨ جاء في صحيفة «التحرير» في عدد ٢٩ مايو ١٩٨٨م: عبَّر الكاتب السوڤييتي ألكسندر بروخوروف في عددِ ١٦ فبراير ١٩٨٨م من «الصحيفة الأدبية» عن وجهة نظره بأنَّ التدخُّل السوڤييتي في أفغانستان كان خطأً كارثيًا. وذكر كلمات أستاذ قدير في جامعة كابول والذي قال في وقت مبكِّر في ديسمبر ١٩٧٩م: «لن تكون هناك اشتراكية في أفغانستان، لأنَّ الطاقة الإسلامية لدى الشعب ستُحوِّل كلَّ ما هو غريب عن التقاليد الإسلامية إلى رماد ورُفات».

٣٥١١. كثيرًا ما وُجِّهت الانتقادات إلى الإسلام لأنَّه لم يُبطل الرقَّ مع مجيئه في القرن

السابع الميلادي. ولكن، هل كان ذلك ممكنًا حينذاك؟ دعنا نتذكَّر أنَّه حتى في القرن التاسع عشر الميلادي، أي بعد اثني عشر قرنًا، كان الناس في الولايات المتحدة الأمريكية يَقتلون بعضَهم البعض لأنَّ جزءًا كبيرًا من الجنوب كان يقف ضد إلغاء العبودية. كما أنَّ مؤسسي أمريكا، چورچ واشنطن وتوماس چيفرسون، كانوا من مالكي العبيد، وكذلك نجد أنَّ قانون العبيد الفارّين Fugitive Slave Act صدر في وقت قريب عام ١٨٥٠م. وفقًا لهذا القانون، كان كلُّ مواطن أمريكي مُلزَمًا، تحت تهديد السجن، بالقبض على العبيد الهاربين من الجنوب وإعادتهم. ولم يُصدر الرئيس ليندون چونسون قانون الحقوق المدنية إلا في عام ١٩٦٤م.

٣٥٤٦ هذا هو ما يمكن أن يفعله الاستعمار في بلد ما، بالاشتراك مع الوَهَن المحلِّي في ذلك البلد: عدد من كبار كتَّاب المغرب العربي لا يكتبون باللغة العربيـة ولكن بالفرنسية. على سبيل المثال، رواية «ليلة القدر» للكاتب المغربي الطاهر بن چلّون، الفائزة بجائزة الغونكور الفرنسية والتي باعت ٣٤٠,٠٠٠ نسخة، هذه الرواية كُتبت بالفرنسية. كذلك الأمر مع الكاتب الجزائري كاتب ياسين (الفائز بالجائزة الوطنية الكبرى للآداب في فرنسا). كما يكتب بالفرنسية أيضًا كلٌّ من محمد ديب وعبدالكبير الخطيبي وعبدالوهاب المدبّ وغيرهم. اشتُهر هؤلاء أولاً في الخارج، ثم في بلادهم لاحقًا. ولا يوجد في التاريخ كلِّه حالة شبيهة بهذه؛ بل يصبح الأمر أكثر مأساوية إذا علمنا أنَّ اللغة العربية واحدة من اللغات العالمية التي تعجُّ المكتبات بالكتب المكتوبة بها.

٣٥٥٥ يتَّهم البعضُ المسيحيةَ بأنَّها «بيضاء للغاية»، وهو اتهامٌ لا يمكن توجيهه للإسلام. فرسول الإسلام، ﷺ، كان ينتمي إلى الشعب الذي يبدو الأكثر سوادًا بين البيض، والأكثر بياضًا بين السود. كما أنَّ السود يجفلون قليلاً من «المسيح أبيض البشرة أزرق العينين».

٣٦٣٩ أحيانًا يبدو لي الإسلامُ، في مجموعه، وكأنَّه دعوةٌ للإنسان أن يتمسَّك بفطرته، فلا يحاول أن يكون ملاكًا لأنَّه لا يستطيع أن يكون كذلك، ولا ينحطّ إلى مستوى الحيوان لأنَّه يجب ألا يكون كذلك.

رسائل
من أبنائي

مُلحق: رسائل من أبنائي

ذكرتُ في تصدير الكتاب أنَّني سأنشر في نهاية الكتاب بعضَ المقاطع المميَّزة من الرسائل التي كنتُ أتلقَّاها من أبنائي الثلاثة خلال فترة السجن التي تزيد عن خمس سنوات. توضِّح هذه الرسائل ظروفَ عائلة سجينٍ سياسي ومشاعرَها خلال تلك الأيام، كما تُلقي بعضَ الضوء على من كتبوا تلك الرَسائلِ. وإليكم هذه المقاطع.

سابينا، ٩ يوليو ١٩٨٣م

أبي الحبيب:

مضت أربعة أيام منذ التحق براتسو بالجيش، قمتُ أنا وبكر وسيكا بتوصيله ومرافقته حتى بوابة المعسكر، وقد اتَّصل بي في الصباح التالي. معسكره جميل ومليء بالنباتات الخضراء ومُنظَّم ونظيف جداً. سأذهب غداً بالأوتوبيس لزيارته وسآخذ له بعض السجائر والفواكه.

لا أشعر بثقل الوحدة لأنَّ هناك دائمًا شيئًا ما أفعله. في الواقع، هناك دائمًا من يزورني، أو أخرج أنا إلى مكان ما. وهكذا يمضي الوقت، وهذا شيءٌ حسن. كالعادة، تتحسَّن حالة جَدِّي أحيانًا، وتسوء أحيانًا أخرى. لا تزال أمي عند ليلى، لكنَّها تنوي الانتقال إلى بيت بكر قبل أن تلد سيكا لكي تساعدهم. سيكا بخير، وقد بدأوا بالفعل شراءَ الحفَّاظات وكلِّ احتياجات الطفل. كلُّ الأمور الأخرى تسير كعادتها، وكلُّ شيءٍ على ما يرام. اعتنِ بنفسك ولا تقلق علينا.

مع كلِّ الحبِّ، ابنتك سابينا.

ليلى، ٩ أغسطس ١٩٨٣م

حلمتُ منذ ليلتين حلمًا قصيراً: رأيتُك تستند إلى طاولة، واقفًا في الظلمة. أدركتُ أنَّك قد عُدتَ من السجن، إلا أنَّك لم تردّ على تساؤلاتي لأنَّك لم تكن واثقًا من عودتك. أخذتُ وجهك بكلتا يديَّ وقبَّلتُ وجنتيك. لا أعرف ما إذا كنتُ شعرتُ من قبلُ طوالَ حياتي، حتى عندما كنتُ طفلة، بمثل هذا الحبِّ العميق القوي تجاهك.

تمضي حياتنا كما لو أنَّها مُسيَّرة بقوة ما أكبر منَّا. نقوم بإعداد وجباتنا، ونأكل، ونعمل، ونخرج إلى النزهات. وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الحال، على الأقل عندما يوجد لدينا أطفال صغار. فعلى المرء أن يخترع الحكايات ويضحك ويستعمل خياله، وإلى جانب هذا كلِّه عليه أن يجيب على أسئلتهم التي لا حصر لها.

سابينا، ١١ أغسطس ١٩٨٣م

أبي الحبيب:

رُزقتَ اليوم بحفيدة أخرى، والآن أصبحتَ جداً لثلاثة أحفاد بالفعل، بينما أصبحتُ أنا عمَّة وخالة لهؤلاء الثلاثة. وُلدتْ الطفلة حوالي الساعة الثانية عشرة، وعلمتُ بالأمر عند الساعة الثالثة بمجرَّد أن خرجتُ من قاعة المحكمة. تمشَّيتُ في الأروقة بحثًا عن أي شخص ينقل إليك هذه الأخبار السعيدة، إلا أنَّ الجميع كانوا قد غادروا المكان. يقولون إنَّ المولودة بنت صغيرة جميلة. سيكا بخير، ولم أرَ بكر بعدُ -في دوره الجديد- كأب. لكنَّه كان فخوراً للغاية عندما حضر إلى قاعة المحكمة صباح اليوم حوالي الساعة السابعة أو الثامنة ليخبرني أنَّه قد نقل سيكا إلى المستشفى.

بكر، ٢٣ أغسطس ١٩٨٣م

ياسمينة، طفلتنا الصغيرة، طفلة جميلة للغاية، تمامًا مثل كلِّ أحفادك. لها شعر بُنِّي وبشرة فاتحة، وهي، بطريقة ما، وردية اللون تمامًا. ومن العجيب أنَّ ملامحها واضحة ومميَّزة؛ عينان واسعتان، شفتان كبيرتان مرسومتان، شعر غزير، حاجبان صغيران رقيقان. في النهار، تكون هادئة ونائمة في الغالب، أمَّا في الليل! حوالي منتصف الليل تبدأ في التمطِّي والتثاؤب والحركة استعداداً لليلة أخرى مجنونة لا تُنسى، بينما يقف شعرنا أنا وسيكا. بعدها، تقضي سيكا الليلة ترضعها وتغيِّر لها الحفاظَّات، والطفلة تصرخ بدون سبب أو تستلقي في صمت فاتحةً عينيها على اتساعهما، ومن ثمَّ لا نستطيع النوم حيث نترقَّب أن تستأنف الصراخ من جديد. وحوالي الخامسة صباحًا، تهدأ وتنام بكل براءة، بينما أنا وسيكا ينظر كلانا إلى الآخر مُشْعَثين شاحبين وتظهر تحت عيوننا هالات سوداء

واسعة. (كنت أمزح قليلاً، ولكن هناك شيءٌ من الحقيقة في كلِّ هذا، فحفيدتك ليست ملاكًا بالمعنى الحرفي للكلمة).

مع كلِّ الحب، بكر.

سابينا، ١٩ سبتمبر ١٩٨٣م

اليوم هو ثالث أيام عيد الأضحى، وبهذه المناسبة أتمنى أن تكون أقلَّ حزنًا وأكثر أملاً. بالتأكيد أنت تعرف كيف تبدو لنا أيام الأعياد هذه بدونك. وحتى مع وجود حلوى ماما الجميلة، إلا أنَّ الأمور لم تعد كما كانت من قبل. نحاول قدر الإمكان أن نتبع نصيحتك وأن نحيا حياتنا بشكل طبيعي، ولكنَّه أمر عسير، لأنَّه حتى الشوارع والبيوت لا تبدو كما كانت.

أشعر أنَّك حزين هذه الأيام. أفكِّر فيك دائمًا، وأحلم بك كلَّ ليلة. ليتك تعرف كم أشتاق إليك. أرجوك أن تعتني بنفسك، ولا تدخِّن كثيرًا، وحاول أن تتمشَّى كثيرًا قدر الإمكان.

ليلى، ١٤ ديسمبر ١٩٨٣م

لم أكتب لك من قبل كم كنتُ أودُّ أن أراك وأتبادل الحديث معك قبل اعتقالك بيوم أو يومين. كنتُ أشعر بأنَّ لديَّ الكثير لأشاركك فيه وأواسيك لعلَّك تنسى المشاكل التي كانت تؤرِّقك حينذاك. لا تزال لديَّ هذه الرغبة. أحلم بك كثيرًا جدًا كما لو أنَّك تأتي إلينا، ولكن يكون عليك أن تعود إلى هناك، تأبى أن تنظر إليَّ، وتكون في عجلة من أمرك. ليتني أحظى بنظرة واحدة، سيكون هذا كافيًا ليعوِّضني عن الحديث الذي أشتاق إليه كثيرًا.

بكر، ٣٠ ديسمبر ١٩٨٣م

إذن، ها نحن نودِّع عام ١٩٨٣ وراءنا. لم يكن عامًا جيدًا على الإطلاق، ولكنَّني أميل إلى الصفح عنه، فعلى الأقلِّ شهدنا خلاله مجيء طفلتنا الصغيرة ياسمينة عزت بيجوفيتش. أبي الحبيب، أتمنى لك عامًا جديدًا أكثر راحة وسعادة، أتمنى لك السلام في

قلبك وروحك، وسأكون أسعد إنسان إذا تغيَّرت الظروف التي تعيش فيها الآن، وحيث يبدو هذا مستحيلاً حتى الآن، فأتمنى أن تجد الراحة داخلك.

فكِّر كيف أنَّنا سنعيش معًا مرَّة أخرى يومًا ما، نشرب قهوتَنا الصباحية معًا، نسافر ونشتري ملابس للفتيات الصغيرات (لدينا الآن واحدة أصغر وأرق من الأخريات). حاول أن تتماسك دون كثيرِ قلقٍ أو شكٍّ، واعتنِ بنفسك حتى لا تترك هذه الأيام أيَّ تأثير عليك.

سنزورك خلال أسبوعين، وتفكِّر سابينا أن تحضر لك معها رواية جورج أورويل «١٩٨٤». أرجو أن تكتب لنا ما إذا كنتَ تريد فعلاً هذه الرواية أو أي كتاب آخر. هل تقرأ أحيانًا في كتاب «علامات على الطريق»(*)؟ سيكون من المفيد أن تقرأ منه صفحة أو صفحتين من وقت إلى آخر.

ليلى، ٢٣ يناير ١٩٨٤م

مضت عشرة أشهر حتى اليوم منذ أن بدأتْ كلُّ هذه المحَن، وأودُّ أن أنقل لك خبرًا جميلاً: لقد نُشر كتابُك(**)! نُشر في كلٍّ من لندن والكويت! ونحن جميعًا نشاطرك فرحتك. أتمنى أنَ يُسعدك هذا الأمر، وأتمنى قبل كلِّ شيء أن يدرك هؤلاء الذين سيقرأونه أنَّ مؤلِّفَه لا يتمنى إلا كلَّ خيرٍ للإنسانية.

أفكِّر فيك دائمًا، ليلى.

سابينا، ٦ فبراير ١٩٨٤م

لا أطيق الانتظار حتى انتهاء دورة الألعاب الأولمبية لكي يُسمَح لنا بزيارتك. إنَّه شعور غريب لأنَّنا نعوِّل كثيرًا جدًا على هذه الزيارات، كما لو أنَّ معجزة ستحدث فتجلس معنا في السيارة وتعود معنا إلى البيت. لذلك يكون الأمر صعبًا للغاية حين نجلس في السيارة وحدنا ونتركك وراء تلك البوَّابات الضخمة. لا يمكنني الاعتياد على هذا، لن أقبله ولن أتفهَّمه أبدًا. إنَّ الأمر لا يتعلَّق فقط وحصرًا بالقلب، لأنَّ عقلي أيضًا يرفضه. كلُّ خلية

(*) هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من الأفكار واليوميات التي كان يدوِّنها الروائي إيڤو أندريتش، ثم جُمعت ونُشرت بعد رحيله. (المترجم)

(**) تقصد كتاب «الإسلام بين الشرق والغرب». (المترجم)

منِّي تتمرَّد، وفي كلِّ مرَّة أستيقظ وأدرك هذا الأمر مرَّة أخرى لا أستطيع أن أصدِّق أنَّه يحدث، ولو كنتُ أملك قوَّة كافية لدمَّرتُ هذا العالم الذي نعيش فيه وإلا عدتُ إلى أحلامي حتى أنسى الواقع. غير أنِّي لا أستطيع أن أقوم بهذا ولا ذاك، ومن ثمَّ يتحتَّم عليَّ أن أستيقظ وأعمل وأتناول الطعام وأتعايش مع العالم. إنَّني أبذل كلَّ ما أملك من قوَّة لأتعايش مع العالم، ولكن ما زلتُ أشعر أحيانًا أنَّ ما أملكه من قوَّة غير كاف. ولكن هناكَ أُناسٌ وأحداثٌ تملأني أحيانًا بالأمل، وهكذا أقضي أيامي يومًا بعد آخر. كذَلك أكون في غاية السعادة عندما يسألني أحدهم «هل تربطك صلة قرابة مع علي عزت بيجوڤيتش؟» فأقول «إنَّه أبي». هذا يجعلني في غاية السعادة.

ليلى، ١٤ فبراير ١٩٨٤م

رحل جدُّنا الحبيب (الجدُّ العجوز) في ١٢ فبراير ١٩٨٤م. ربما تكون قد علمتَ فعلاً بهذا، وأعرف أنَّه يعزُّ عليك ألا تكون معنا الآن. لقد دُفن أمس في المقبرة الجديدة، على مسافة مترين من مقبرة جدَّتي.

لم يغادر الجدُّ سريره منذ حوالي عشرة أيام، لم يأكل ولم يُدخِّن، وتغيَّرت نظراته كثيرًا. كانت أمي والخالة وحيدة هناك طوال هذه الفترة، بينما قرَّرنا أنا وبكر أن ننام هناك بالتناوب، حيث نام بكر هناك يوم الجمعة، وأنا نمت ليلة السبت. كنتُ على وشك ألا أذهب تلك الليلة لأنَّ سابينا اتصلت بي وأخبرتني أنَّ الجدَّ نائم في هدوء وليس من الضروري أن أذهب في وقت متأخِّر. غير أنَّ شيئًا ما ساقني إلى هناك، وعندما دخلتُ إلى غرفته حوالي الساعة الحادية عشرة مساءً وجدتُه يتنفَّس بصعوبة ولكنَّه نائم.

لا أعرف لماذا لم أغمض عيني على الإطلاق تلك الليلة، وواصلتُ الإنصات إلى الأصوات القادمة من غرفته، لكن لم أسمع صوته ولا مرَّة واحدة. وفي حوالي الساعة الثامنة أطلَّتْ عليه سابينا وقدَّرتْ أنَّ هناك شيئًا ما غير طبيعي. وثمَّة ما جعلني أغسل وجهي وأُمشِّط شعري أولاً قبل أن أدخل غرفته. لم يكن غطاؤه قد تحرَّك، كان صدره ساكنًا، وعيناه مغمضتين وفمه مغلقًا، وكلتا يديه مُمدَّدتين على صدره، إحداهما فوق الأخرى، وكانت جبهته باردة كالثلج. ذهبتُ لأخبر سابينا ولكن قرَّرت أن أعود وألقي

عليه نظرة أخرى، لأنَّ الأمر يتطلَّب قدرًا كبيرًا من الشجاعة حتى تقول إنَّ إنسانًا ما قد مات. وضعتُ يدي على صدره، لم تكن هناك حياة. كان صدره صلبًا وباردًا كالصخر. كنتُ أنظر إلى رجل ميِّت لأول مرة في حياتي، بلا خوف أو اضطراب، ولكن كان يغمرني حزن شديد لرحيله. كان رجلاً مفعمًا بالمرح، كان يحب أن يرفع يديه ويرقص، كان قويًا وكثير الحركة. كان قد تجاوز الستّين من عمره عندما وُلدتُ، ولكن ما زلت أتذكَّره كأنَّه شاب مبتسم، لأنَّه كان يبتسم لي كلَّما نظرتُ في عينيه. أَعرف أنَّه كان يحبني كثيرًا، وكنتُ أيضًا أحبه كثيرًا. لا أصدِّق أنَّه مات في أوّل ليلة أقضيها معه، رغم أنَّني كان لدي إحساس أنَّ هذا سيحدث.

بكر، ١٤ فبراير ١٩٨٤م

أبي الحبيب:

عدنا منذ عشر دقائق من عند ليلى. عندما كنَّا هناك أوقفنا البنات الثلاث الصغيرات في صفٍّ واحد، وجدنا أنَّ أسماء أطول من ياسمينة، وسلمى أطول من أسماء. كانت أسماء تؤدي أحدى رقصات الشوارع (تعرف ذلك النوع من الرقص الذي يؤديه الزنوج بينما يحرّكون أجسامهم بشكلٍ عجيب). ورغم أنَّ ياسمينة تستطيع بالكاد أن تمشي، إلا أنَّها حاولت تقليد أسماء. ولكي يكتمل المشهد كان هناك الببغاء الأصفر، وقد أطلقتْه ليلى ليُحلِّق ويرفرف بحرية في الشقة، وكانت ياسمينة في غاية الفرح. وهكذا تستمتع ياسمينة بوجودها في بيت ليلى. فالشقة واسعة ومن ثمَّ يمكنها أن تركض كثيرًا كما يحلو لها، وهناك الكثير من ألعاب الأطفال، وهناك أطفال آخرون، وهو ما يبدو أنَّه الشيء الأهم. كما أنَّ سلمى تحبُّ ياسمينة جدًا، رغم أنَّ فارق السنِّ بينهما كبير إلى حدٍّ ما، وتُبدي أسماء قبولاً نحوها إلى حدٍّ كبير، حيث إنَّ وجود ياسمينة يهدِّد أسماء، فقد أخذت مكانها كأصغر طفلة في العائلة. ولا تزال ليلى تعطيها ملابس أسماء وألعابها، إلخ. منذ شهر، حاولت أسماء إدخال قدميها بالقوة في حذاء أصبح صغيرًا جدًا بالنسبة لقدميها، وكان يبدو على وجهها تعبير «إنَّه-ضيِّق-للغاية-ولكن-لن-أُظهر-لكم-هذا» ثم ادَّعت أنَّ الحذاء مضبوط، إلا أنَّ أسماء، بشكل عام، كريمة وسرعان ما ترضى وتهدأ.

ليلى، ١٩ مارس ١٩٨٤م

قد لا تعلم أنَّني كنتُ أراك كلَّ يوم حين كنتَ تغادر المحكمة، بل إنَّني ناديتُك باسمك ذات يوم، لكنَّك لم تلتفت، ربما لأنَّك لم تسمعني. ودائمًا كانت تقع أمور جديدة مثيرة. كنتُ أريد أن أراك وأقترب منك قدر الإمكان، لأنَّه كان هناك ما يعوق الرؤية ساعتها ولم أستطع أن أراك بوضوح، في حين كان رجال الشرطة يدفعوننا بعيداً بخشونة كما لو أنَّهم أرادوا أن يقولوا: «إنَّه لنا الآن!». وبعدها، فجأة، بدأ رجل عجوز يلعنهم ويسبُّهم، وكانوا يدفعونه بعيدًا، وسأل هل هؤلاء الذين يُطبِّقون القانون والنظام لديهم أبناء؟ وبدا لي أنَّ كلَّ شيءٍ حولنا قد انتفض عندما أطلق الرجل العجوز لعنته عليهم.

ليلى، ١٩ ديسمبر ١٩٨٤م

أبي الحبيب:

بالنسبة لمعدتي، لم أشعر بأية آلام منذ حوالي عام حتى الآن وزاد وزني ٤ كيلوجرام. أما بالنسبة للصداع فالأمر مختلف، فهو متواصل وقد تعلَّمت أن أتعايش معه. سيكون من الأفضل فقط لو أمسكتُ عن ذكْر هذا لأحد. ذهبتُ إلى أحد الأطباء، وقال لي ما يواسيني: «حوالي ٦٠٪ من النساء يعانين من صداع حادّ بعد الإنجاب، ولكنَّه يتوقَّف بعد سنِّ الخمسين». ومن ثمَّ عليَّ أن أقبل بالأمر وأتكيَّف معه. ولحسن الحظ، لم يعد الأطفال صغاراً وبالتالي لم أعد مضطرَّة أن أستيقظ أثناء الليل، ويمكنهم أن يلعبوا بعد الظهر عندما أستريح. هكذا تبدو الأمور يا أبي الحبيب، فلا تقلق عليَّ، ولكن أحيانًا أشعر أنَّني أمشي على أربع. وكلَّما تقدَّمتُ في السنِّ، أصبح من السهل أن أتقبَّل الحياة كما هي.

حلمتُ ليلة أمس حلمًا ما يزال مسيطرًا عليَّ سائر اليوم؛ رأيتُ حقلاً واسعًا به بيت، وأنا ضيفة في هذا البيت، أعطاني شخص ما بعضَ البذور الملفوفة في ورقة لأزرعها، فزرعتُها فورًا. وعندما استيقظت في الصباح التالي، رأيت الشمس تشرق وراء أحد التلال وبراعم خضراء طويلة نَمَتْ أثناء الليل. قلتُ للرجل: «ستزهر قريبًا»، فقال: «ستزهر الليلة إذا لم ينزل الجليد، إنها زهور الجلاديولاس».

بكر، ٨ يناير ١٩٨٥م

أبي الحبيب:

دخلتُ مكتبي للتوِّ حيث الجوّ في الخارج برد جليدي ودرجة الحرارة ١٣ درجة تحت الصفر. ولهذا أعتقد أنَّ خطِّي المخيف سيكون أسوأ بكثير.

إنَّه شتاء حقيقي. إنَّه يذكِّرني بطفولتي، فنحن لم نشهد مثل هذا الثلج وهذا البرد منذ خمسة عشر عامًا. ظلَّتْ سراييڤو مُحاطةً بكُتَل ضخمة من الثلج والجليد لمدة يومين خلال عطلة نهاية الأسبوع. كما أنَّ طبقة من الثلج غطَّت الشوارع.

دخلت سابينا في المرحلة الأخيرة من الحمل، ويبدو بطنها كبيرًا إلى حدٍّ ما، رغم أنَّ وزنها لم يزدد إلا قليلاً، وتتحرَّك بشكل غريب، وعندما تجلس لا تجد وضعًا مريحًا إلا بصعوبة، ولا تتوقَّف عن التنهُّد وتغيير جلستها.

أمَّا فيما يتعلَّق بياسمينة، فلا بدَّ لي أن أشكو منها مرَّة أخرى. فقد غطَّت رأس الدُبِّ الدمية البريء بالحساء، وحتى أكون منصفًا فقد فعلت هذا بحُسْن نيَّة، حيث كانت تريد أن تُطعمه. وقد تظاهرت بأنَّها هي نفسها قد فوجئت حين وجدناها متلبِّسة بالجريمة ممسكةً بالملعقة في يدها، ثم فضَّلت الدفاع عن نفسها بالصمت. وإلى جانب هذه الجريمة هناك مِكائد أخرى ثانوية لا حصر لها، كأن تخفي حذائي، أو تسكب اللبن على السجَّاد ثم تفركه بشكل كامل، أو تُطلق على جيراننا المهذَّبين لفظ «الأغبياء»، إلخ، إلخ.

سابينا، ١٩ يناير ١٩٨٥م

أكتب لك كلَّ يوم في خيالي رسائل لا حصر لها وأقوم بأحاديث طويلة جدًا معك. ومن ثمَّ، عندما أبدأ في الكتابة بالفعل فإنَّني أحتار بين ما كتبتُه لك بالفعل وما فكَّرتُ فيه فحسب. أريد أن أكتب لك عن كلِّ شيء، لأنَّ هذا يمنحني الشعور بأنَّك معي هنا. كنتُ في غاية السعادة عندما كتبتَ لي تقول إنَّه ينبغي عليَّ أن أنقل المدفأة إلى الغرفة، وألا يخرج الأطفال إلى فناء البيت حينما يتساقط الثلج من فوق الأسطح. وبالنسبة لهذا الأمر الأخير، فقد أخذنا بنصيحتك ومن ثمَّ لم يسقط الثلج على رأس أحد، أمَّا بالنسبة للمدفأة فهي لا تزال في المطبخ.

لقد وصلت الآن رسالتك بتاريخ ١٤ يناير وكذلك الرسالة التي قبلها، ويبدو أنَّه حتى الرسائل تسافر ببطء في ظلِّ هذا الطقس ومن ثمَّ فهي تلتقي في الطريق. أسماء، أو بالأحرى أسامة، لا تنتمي إلى أي جنس حتى الآن، فنحن نناديها باسم رفيقها في الروضة «بوشكو» فتبدو لنا كأنَّها ولد، فتعترض وتصبح كالعادة في غاية الشراسة وتقول: «أنا أسماء»، ناطقةً اسمها بوضوح عجيب وصوت رنَّان. يوجد في الألبوم الأخير لفرقة «الزرّ الأبيض» أغنية بعنوان «إلى أسماء»، تسمعها باندهاش، ثم تقرِّر أنَّ عبارة «أسماء وأنا» تشير إليها هي وأمها. ومن ناحية أخرى، فهي لا تقبل بأي تفسير لعلاقات الأب-الأم-الأطفال-الجدَّة، إلخ، وتُقدِّم تفسيرها الخاص البسيط للغاية وهو أنَّ الأم قد ولدت الجميع. أحيانًا أستمتع بمضايقتها بأن أوضِّح لها العلاقات العائلية، لكنَّ قرارها المعتاد والنهائي هو «لا أريدها هكذا». يمكنني أن أكتب لك صفحات وصفحات عن أسماء، ولكنّ إليك إحدى روائعها: عندما سُئلت هل تريد من عمَّتها أن تلد براتسو (ولد) أم سيكا (بنت)، قالت إنَّ العمة (تقصدني أنا) قد ولدتْ براتسو بالفعل (وهذا هو زوجي) وقد حان الوقت لأن تلد سيكا من باب التغيير.

بكر، ٣٠ يناير ١٩٨٥م

أبي الحبيب:

لمَ لا أكتب لك ولو رسالة واحدة على الآلة الكاتبة ومن ثمَّ لا تُجهد نفسك في قراءة خطِّ يدي؟

لم تصلني منك أية رسائل منذ زيارتنا الأخيرة، ولو لم تكن قد كتبتَ إلى ليلى وسابينا لكنتُ بدأتُ أقلق عليك. من المحتمل إلى حدٍّ كبير أنَّ رسالتك إليَّ قد ضاعت بطريقة ما.

حلمتُ ليلة أمس حلمًا مُخيفًا ولم أستطع التخلّصَ من تأثيره طوال اليوم. لم أحلم بأنَّك كنتَ مريضًا، وإنَّما كنتَ حزينًا وبائسًا. لا أعرف هل حدَّثتُك من قبلُ عن أحد أحلامي الذي تحقَّق أم لا (وأرجو ألا يتحقَّق أيضًا حلم ليلة أمس). في العام الماضي، وقبل أن تُصدر المحكمة العليا حكمها، حلمتُ أنَّ أشجار الزيزفون أمام بيتنا قد قُطعت في أحد الأيام، وقد فسَّرتُ ذلك مباشرة -في الحلم- بأنَّه نذير شؤم لنتيجة محاكمتك.

وعندما ذهبتُ إلى شارع حسن كيكيتش بعد ذلك وجدتُ أشجار الزيزفون مقطوعة بالفعل، فصُعقتُ. كانت الأشجار لا تزال صغيرة نضرة ومزدهرة ولم يكن هناك أيُّ داعٍ لقطعها. كان الحكم عليك قد صدر قبل هذا الحادث مباشرة، وبالطريقة نفسها، أي قطع واجتثاث ما هو طبيعي وفي غاية الازدهار.

سابينا، ١٨ فبراير ١٩٨٥م

اليوم هو عيد ميلاد ليلى، ولا يَهُمُّ أيُّ عيدٍ هو، لأنَّ أختي ليلى ستظلُّ بالنسبة لي هي لوليتا الصغيرة، ستظلُّ طفلة وأصغر بكثير من عمرها الحقيقي. سأذهب الآن لأشتري لها هدية، وبعد الظهر سنأكل الحلوى. يمكنني أن أتخيَّل ليلى وهي متأنِّقة وناسية أنَّها مُتعَبة بمجرَّد أن نكون معًا (ويحدث شيءٌ ما).

أبي الحبيب، يوشك فبراير أن ينتهي وأرجو أن يكون مارس لطيفًا فيمرَّ سريعًا ومن ثمَّ يأتي إبريل. إن شاء الله سوف نرتِّب زيارة لك حتى نستطيع أن نأتي كلُّنا معًا ومعنا الطفلة الصغيرة. كلَّما فكَّرتُ في هذا الأمر، يُهيأ لي أنَّ الأمور ستأخذ مسارًا مختلفًا ومن ثمَّ لن يكون هناك لا سجن فوتشا ولا المزيد من الزيارات إلى السجن، بل تأتي أنت معنا. من يدري؟

ليلى، ٢١ فبراير ١٩٨٥م

أبي الحبيب:

أعرف أنَّك تتوقَّع أخبارًا عن سابينا كلما فتحتَ رسالة منَّا هذه الأيام. حتى الآن ليس هناك جديد. ويبدو أنَّ المولود لن يصل قبل مارس.

لا أعرف لماذا أرى الولادة أمرًا مثيرًا، إنَّ فكرة الولادة ذاتها تبكيني. في الحقيقة، إنَّها تصدمني. عندما ولدتُ أسماء كنتُ أعرف أنَّني قد استقبلتُ جرحًا مؤلمًا آخر قد تُطلق الحياةُ عليه سهامَها السامَّة، وليس في هذا العالم وقاية أو علاج لمثل هذه الجراح. إنَّها تنمو جنبًا إلى جنب مع الحب.

زارنا بكر وسابينا يوم الإثنين وشاهدنا معًا إحدى حلقات مسلسل «العائلة الحاكمة Dynasty». وبطبيعة الحال، سخر براتسو وبكر من كلِّ الشخصيات، مفسدين جوَّنا

النسائي. فقمنا بمضايقة براتسو بأن قلنا له إنَّه يشبه چيف كولبي، ولم يبدُ أنَّه يمانع في هذا لأنَّ كولبي رجل وسيم إلى حدٍّ كبير.

سمعنا بأنَّ المحكمة الفيدرالية بدأت العمل، ولا أدري هل كتبتُ لك عنها في بطاقتي البريدية أم لا، ولكنَّنا سنعرف النتائج في حوالي العشرين من مارس. وندعوا الله أن يأخذ بأيديهم إلى طريق العدالة.

أبي الحبيب، لا تيأس، نُحبُّك جميعًا ونرسل لك قُبلاتنا.

ابنتك ليلى.

ليلى، ٢٦ فبراير ١٩٨٥م

أبي الحبيب:

كنتُ أحلم طوال هذه الشهور الأخيرة باللحظة التي أمسك فيها بالقلم وأكتب إليك عن أحد هذين الخبرين السارَّين، ولكن لم يخطر ببالي قط أن تأتي الفرحتان معًا في وقت واحد. أولاً: أصبح لديك حفيدة رابعة! أتمنى لك السعادة ولنا جميعًا. هذه البنت الصغيرة ذات الشعر الطويل جعلتنا كلَّنا في غاية الفرح.

ثانيًا: وبعد طول انتظار، أخيرًا نُشرَ كتابُك في أمريكا. لقد وصَلَنا الكتابُ وكأنَّه كائن جاء من عالم آخر، كأنَّه خلاص وأَمل. كنتُ في منتهى الفخر! لا أعرف كيف أصف شعوري أمس عندما فتحتُ الطرد وعرفتُ أنَّ الكتاب موجود الآن وأنَّني أمسكه بين يدي. لقد تحقَّق الحلم. كان هذا بعد ظهر يوم ٢٥ فبراير ١٩٨٥م، وبعدها فقط بأربع وعشرين ساعة، أي اليوم في الساعة الخامسة مساءً، أصبحت سابينا أُمًّا. عليك أن تعترف أنَّ الخبرين كلاهما أحلى من الآخر.

سابينا، ٢٧ فبراير ١٩٨٥م

أبي الحبيب:

هذه رسالة قصيرة أخرى، لقدت أنجبتُ حفيدة أخرى من أحفادك، وأرجو أن تحمل لك السعادة. أنا بخير، في الواقع أنا في أحسن حال، وسأكون مُستعدَّة للعودة إلى البيت

بعد غد. أتمنى أن يكون خبر نشر كتابك قد حمل لك قدرًا من الفرح، إنَّه كتاب أنيق جدًا، ومُصممٌ بذوق رفيع، سأكتب لك عنه بالتفصيل لاحقًا. وبطبيعة الحال، سأكتب أكثر عن حفيدتك الصغيرة. ما يمكنني أن أقوله لك الآن هو أنَّها بصحة جيدة وسمينة ومتوردة وذات شعر منكوش، وهو ما يكفي في بداية الحياة. عليَّ أن أُنهي الرسالة الآن لأنَّ هذه ليست طاولتي وبالتالي لا أستطيع الكتابة بالتفصيل.

هذان الخبران لمسا أعماق روحي، وأنتظر بلهفة خبرًا آخر، أحبُّك.

ابنتك سابينا.

ليلى، ١٢ مارس ١٩٨٥م

أنا في العمل، أجلس منتظرة إصلاح جهاز الكمبيوتر حتى يمكنني أن أبدأ العمل. جهازي القديم هذا يتعطَّل كثيرًا جدًا، ولا يمكن للمرء أن يعتمد عليه ويبدأ في مهمة ما وهو ضامنٌ أنَّها ستكتمل. في هذه الأيام أكون قد أكملتُ عشر سنوات منذ بدأتُ العمل، وقد تسلَّمتُ مكافأة رمزية (ألف دينار). وقد وعد المدير أن يشتري جهاز كمبيوتر أفضل وأكبر، ولكن كلُّ شيءٍ يتحرَّك ببطء، والوقت يمرُّ.

تحتاج سابينا أن تتعافى وتحتاج الطفلة أن تصبح أقوى حتى يمكنهما أن تأتيا معنا إلى سجن فوتشا. الطفلة الآن صغيرة جدًا ورقيقة للغاية وكأنَّها مخلوقة من القطن. سابينا في غاية السعادة، وكلَّما نظَرَتْ إلى الطفلة تمتلئ عينها بالدموع. أتذكَّر في مثل هذا الوقت من العام الماضي أنَّها قالت: «عليَّ أن أتقبَّل حقيقة أنَّني لن أنجب أبدًا. من الأفضل لي أن أقبل هذا الأمر حالاً بدلاً من أن أقضي حياتي في الانتظار».

كنتُ أعرف أنَّ هذا مجرَّد كلام في الظاهر ومُسكِّن، وقلتُ لها إنَّه من الأفضل لها فعلاً أن تُفكِّر في الأمور بهذه الطريقة، لكنَّني كنتُ على يقين أنَّها ستكون أُمًّا في وقت قريب جدًا لأنَّ هذه هي طبيعتها، فقد كانت تحبُّ الأطفال دائمًا وترى في كلِّ طفل شيئًا جميلاً وجذَّابًا.

أراها الآن وهي تحمل «مخدَّتها الصغيرة» هنا وهناك في البيت، وكيف تتكلَّم معها بمنتهى الفرح والحنان. الحمد لله على أن رزقها تلك النعمة.

سابينا، ٢٦ مارس ١٩٨٥م

أرجو أن تسامحني على خطِّي الرديء، وهذا بسبب طريقة جلوسي ولأنَّني في عجلة من أمري لأنَّني أتوقَّع أن تصحو الطفلة في أية لحظة، وعندئذ من يدري متى يمكنني إنهاء هذه الرسالة. وصلتني رسالتك بتاريخ ١٨ مارس، وأستطيع أن أقرأ بين السطور أنَّ مشاعر متباينة تتنازعك، من السعادة إلى الحزن والأسى. أعرف كيف يكون الأمر بعد كلِّ زيارة (حتى ولو بشكل جزئي) لأنَّنا أيضًا نشعر بالشيء ذاته. ولكن لا بدَّ لنا نحن أن نعود إلى هذه الحياة، إلى أعمالنا ومشاكلنا، وسط هؤلاء الناس، في حين يجب أن تبقى أنت هناك. وأسوأ ما في الأمر بالنسبة لي هو أنَّه يجب أن تبقى أنت هناك. أنا على يقين تامّ أنَّ الأمر سيكون أهونَ عليَّ لو كنتُ أنا مكانك هناك.

سابينا، ٢ إبريل ١٩٨٥م

مرَّ الشهر الماضي سريعًا جدًا، كما لو أنَّه كان حلمًا، وأشعر الآن أنَّني أتعافى رويدًا رويدا. كان من الغريب أنَّني فقدتُ الاهتمام بأي شيء عدا الاهتمام بالطفلة الصغيرة، فلم أكن أقرأ الصحف ولا أشاهد التلفاز، بل لم أكن أتناول الطعام أو أنام إلا عندما يسمح لي الوقت بهذا. كما أنَّني أهملتُ عملي تمامًا، ولكنَّني أرغب الآن في العودة إلى عاداتي القديمة وواجباتي. وبالطبع، هذا فقط في حالة إذا سمحت لي بذلك هذه الدجاجة ذات الأربعة كيلوجرام.

أخبرتني ماما أنَّك كتبتَ لها كيف يهاجمك الحزن بحلول المساء، ولا أدري هل شعرتَ بهذا من قبلُ أم لا، ولكن بالنسبة لي كان هذا الشعور يقع لي دائمًا عندما يأتي المساء، وكان عليَّ أن أشغل نفسي بأيِّ شيء حتى أكبته. أحيانًا يكون هذا الشعور عبارة عن حزن مصحوب بخوف وضعف بدني. أعرف أنَّه كان من الصعب عليَّ دائمًا أن أرتدي ملابسي للخروج في المساء. إلا أنَّ كلَّ شيء ينتهي بمجرَّد أن أخرج ويُخيِّم الليل. يبدو الأمر كما لو أنَّ مخاوفي وشكوكي وأحزاني قد اجتمعت في هذا الشعور. كنتُ دائمًا أفكر أنَّه في مثل هذه الحالة يُقرِّر الناس تعاطي الخمور والمخدرات للهروب من هذه الحالة. أقول لك كلَّ هذا لأنَّني أريدك أن تعرف أنَّني بطريقة ما أعرف هذا الشعور وأتخيَّل شعورك الآن.

وبالتأكيد فإنَّ السجن يزيد الأمر صعوبة، تمامًا كما أنَّ الشعور بالحرية في هذا البيت يساعدني على التحايل حتى يمضي هذا الوقت من اليوم. قد يكون أفضل شيء لك هو أن تحاول أن تُسلِّي نفسك بشيء ما بمجرَّد أن يباغتك هذا الشعور، أن تقرأ شيئًا ما خفيفًا إذا استطعتَ ذلك، أو تحلَّ الكلمات المتقاطعة، أو تشاهد التليفيزيون. وما أنا على يقين منه هو أنَّه في هذه اللحظات، أي عند حلول المساء، لا يُفضَّل أبدًا أن يُطلق المرء العنانَ لأفكاره ومشاعره. فهذا يزيد الأمر سوءًا.

وكما ترى، فها أنا أعيش دور الحكيم مرَّة أخرى، ولكنَّني أردتُ فقط أن أهوِّنَ عليك. في الحقيقة، إنَّ أقصى ما أتمنَّاه هو لو أنَّك تكون عندي في مثل هذه اللحظات وتشرب معي كأس قهوة. وطالما أنَّ هذا لم يحدث، فلتعرف، على الأقلِّ، أنَّني أفكِّر فيك دائمًا، وخصوصًا عند حلول المساء.

سابينا، ١٥ مايو ١٩٨٥م

بالأمس، تناولنا طعام الغداء عند ماما، وقد وصل كوبر ومعه أوَّل راتب حقيقي له، وجاءت ليلى مع أطفالها، وفي المساء عدنا إلى البيت ومعنا سرير صغير وحقيبتان مليئتان بالملابس للأطفال كانت لابن عمِّهم الأكبر سنًا.

أشتاق كثيرًا لرؤيتك، وأعدُّ الأيام حتى موعد زيارتنا القادمة رغم أنِّي أعرف أنَّها ستكون زيارة قصيرة للغاية، وأنَّنا سنشعر، بمجرَّد مغادرة السجن، كما لو أنَّنا تعرَّضنا للسرقة. أتمنى في هذه المرَّة أن يُسمح لنا بزيارة أخرى لمدَّة ساعتين، على الأقلِّ حتى أستطيع أن أراك، لأنَّني أعرف بالفعل أنَّني سأنسى كلَّ الأشياء التي أريد أن أقولها لك. يمكنني الآن سماع صوت زخَّات المطر، وناديا الصغيرة تتنفَّس بصوت خفيض وهي نائمة في حضني. يقول بعض الناس إنَّها تشبهك، خاصَّة عينيها وجبهتها. أحبُّك كثيرًا.

ابنتك سابينا.

سابينا، ٣٠ يونيو ١٩٨٥م

أنت تعرف أنَّني لا أتوقَّف إطلاقًا عن التفكير فيك، وبمرور الوقت يصبح تقبُّل غيابك أكثرَ صعوبة. ليس صحيحًا أنَّ الزمن يداوي كلَّ الجراح، فكلُّ يوم يزيد ما أشعر به من

غضب وألم، وكلَّما زادت المحنة بعدًا في الماضي، فكَّرتُ فيها أكثر، وأشعر اليوم أنَّني لم أعد أتحمَّلها. عندما أكتب لك عن أمور الحياة العادية، فهذا بالدرجة الأولى لأنَّني لا أستطيع أن أكتب لك عن أفكاري ومشاعري اليومية المعتادة المتعلِّقة بكلِّ ما مررنا وما نزال نمرُّ به، ولأنَّني لا أستطيع أن أتقبَّل أنَّ هذا كلَّه ما يزال يحدث. أثق تمامًا أنَّك تدرك كلَّ هذا، ولكن، وبرغم ذلك، لا بدَّ لي أن أخبرك أنَّني لم ولن أعتقد أو أصدِّق، ولا حتى للحظة واحدة، أنَّ هناك ذرَّة من العدالة الإنسانية في هذا كلِّه، وأتمنى أن نجد مثل هذه العدالة في قرار المحكمة الفيدرالية.

بكر، ٧ يوليو ١٩٨٥م

قرأتُ القرآن الكريم كثيرًا خلال شهر رمضان الكريم. ورأت سيكا أنَّ هذا أمر مبالَغ فيه إلى حدٍّ ما (فقد كنتُ أقرأ من خمس إلى ستِّ ساعات يوميًّا طوال الشهر بدون انقطاع)، كما رأت أنَّ اهتمامي المتزايد بالإسلام هو أمر غريب كذلك. وقد طلبتْ مني أن أخبرها بصدق أليس هذا نوعًا من الاضطرار والتكلُّف ونتيجة للغضب بسبب كلِّ ما حدث لنا. وأخبرتُها الحقيقة، وهي أنَّ الأمر بالتأكيد ليس نتيجة غضب، وإنَّما لأنَّني قمتُ بتنقية بعض الأمور داخلي ومن كلِّ قلبي، وأشعر كما لو أنَّني قد غسلتُ روحي وتطهَّرتُ.

سابينا، ٢١ يوليو ١٩٨٥م

تبدو ياسمينة وأسماء في غاية الجمال، وقد كبُرتا كثيرًا، خاصة ياسمينة. كانت ياسمينة مضحكة بشكل فظيع عندما ظهرت في فناء البيت وهي تدفع عربتها الضخمة وعليها الدمية، وكانت تُعلِّق في أحد ذراعيها حقيبة بلاستيك تحتوي على كلِّ أغراضها ومعها قطعة قماش، يبدو أنَّها غطاء للدمية. كانت في أفضل زينة: عقد حول عنقها، وطوق، والكثير من دبابيس الشعر- تمامًا كما أفعل أنا عندما أخرج لأتمشَّى في المدينة ومعي ناديا. لعبت ياسمينة وأسماء كثيرًا معًا، ثم اكتشفتْ أسماء أنَّ هناك بعض الموز في المطبخ فالتهمته كلَّه. لأسماء تسريحة شعر مضحكة، تُسمَّى «تسريحة القنفذ»، وهي أكثر شخص خفيف الدم في العائلة كلِّها رغم أنَّ ناديا تنافسها على هذا المركز، ويمكنك أن تلحظ هذا من خلال الصور التي نرسلها إليك. أسماء بصحة جيدة، وهي نائمة الآن ولا

تتخيَّل أنَّها ستأخذ التطعيم الأسبوع القادم. أخذتها يوم الجمعة لعمل أشعة على منطقة الحوض، وبمجرَّد أن شمَّت رائحة العيادة بدأت في الصراخ، وهي نادرًا ما تصرخ، ولكنَّها أصبحت على ما يرام عندما خرجنا من العيادة إلى الهواء الطلق مرَّة أخرى.

ربما تكون عرفتَ أنَّ المحامين لم تصلهم أية معلومات من المحكمة الفيدرالية، وهو ما يعني أنَّه لن يكون هناك شيء مُهمٌّ حتى سبتمبر، بل ربما حتى بعد سبتمبر. إذن، على المرء أن يتحلَّى بالصبر، وأن يوفِّر أعصابه، وصحَّتَه بالطبع.

لا تيأس، كلُّنا نفكِّر فيك، ونحبُّك.

ابنتك سابينا.

سابينا، ٢٦ أغسطس ١٩٨٥م

اليوم عيد الأضحى، وهو أول يوم غائم منذ جئنا إلى هنا. ونستعد للخروج هذا المساء لتناول بعض الحلوى أو الأيس كريم عند «سوبيتار» القريب. اليوم، تبلغ ناديا ستة أشهر من عمرها، تبدو فتاة كبيرة، وظهر لها أول سنَّتين من أسنانها، ولهذا لم أذق طعمَ النوم تقريبًا الليلة الماضية. فبالإضافة إلى أسنانها، كان هناك الناموس والرياح وذلك الديك الفظيع الذي يبدأ في الصياح عند منتصف الليل. وإذا حدث ذات صباح أن وجدوه بجوار الشجرة القريبة من بيتنا، فهذا لأنَّني سأكون قد ربطته هناك. إنَّني أحلم بهذا الديك كلَّ ليلة عند الساعة الثانية فجرًا عندما يبدأ في المنافسة بصوت عالٍ مع ديك آخر يمكننا أن نسمعه في مكان ما بعيد. وبطبيعة الحال، فهذا الديك معه حوالي عشرون دجاجة، تُعلن كلٌّ منها في صخب عن كلِّ بيضة تبيضها، لكنَّها لا تزعجني كثيرًا.

لو تعرف كيف ذُهلتُ صباح اليوم، كنَّا نشرب القهوة عندما سمعنا رنين جرس الباب، وهذا لم يحدث هنا من قبل، لأنَّنا نكون خارج البيت معظم الوقت، كما أنَّ الباب مفتوح دائمًا. ظننتُ أنَّه أحد الضيوف المقيمين في الطابق العلوي، وذهب كوبر ليرى من بالباب. كنتُ مُنصتةً، ومن خلال الردهة سمعته يقول: سابينا، إنَّه بابا. لوهلة، ظننتُ أنَّك كنتَ تقف بالباب وتسمَّرتُ في مكاني، ثم ظهر كوبر ومعه رسالتك في يده، كان هذا ساعي

البريد جاء حاملاً رسالتك، لا أعرف كيف حدث لي هذا، ولكن في تلك اللحظة بدا الأمر كأنَّه حقيقي.

سابينا، ٣ سبتمبر ١٩٨٥م

ذهبتُ صباح اليوم إلى وزارة الداخلية لاستعادة جواز سفري. في الواقع، ذهبتُ إلى هناك للسبب نفسه مرَّات كثيرة حتى الآن، ولكن قبل أن أذهب إلى البحر. كنتُ قد ملأتُ نموذجًا أعطوه لي، وفي هذه المرَّة كان لديَّ أملٌ كبير إلى حدٍّ ما. ويبدو أنَّني ضيَّعتُ وقتي مرَّة أخرى؛ فقد أخبروني بأنَّ الردَّ على طلبي جاء بالرفض، وإنَّني سأتلقَّى قريبًا توضيحًا لا يتضمن سبب سحب الجواز أصلاً. لماذا أنا الشخص الوحيد الذي لا يستطيع الحصول على جواز سفر؟ لا أعرف، ولكن لديَّ رغبة شديدة في معرفة الأسباب وما الذي كان يفكِّر فيه الشخص الذي أصدر هذا القرار بنفسه. وأنا أقبل أن يرفضوا إعادة جواز سفري لفترة مماثلة، فقط لأعرف الأسباب. ولكن يبدو أنَّني سأظلُّ ممنوعة من أخذ جواز سفري ومن معرفة الأسباب.

ليلى، ٦-١٠ سبتمبر ١٩٨٥م

لعلَّك لاحظتَ أنَّ أكثر حديثي يكون عن الوقت الحاضر، هذا لأنَّ الحديث عن الماضي يثير داخلي بعضَ الذكريات البغيضة، بينما يحمل الحديث عن المستقبل، الزمن الذي لم نعشْه بعد، بعضَ التخوُّف كما لو أنَّني أدخل منطقة محظورة.

ثمَّة شيءٌ ما مثير هنا. إنَّ الإنسان يكون أقوى بكثير في الحاضر منه في بعض الأوقات في الماضي أو المستقبل. يبدو الأمر كما لو أنَّ الإنسان لا يدرك أنَّه يستطيع أن يصمد كثيرًا وأن يتغلَّب على الكثير. ولهذا أعتقد أنَّه لا أحد يرغب في أن يعود إلى طفولته ويعيش حياته مرَّة أخرى. نحن جميعًا نخاف من الحياة، وفي أعماق أعماق روحنا لا نستطيع أن نصبر حتى ندرك حقيقة الحياة، حتى نرى نهايتها، كما لو أنَّ هنالك، عند تلك النهاية، وطنًا حبيبًا ينتظرنا.

سابينا، ١٣ سبتمبر ١٩٨٥م

أبي الحبيب:

وصلتني رسالتك، تلك التي تحتوي على قصيدة. القصيدة رائعة، ولكنَّها كانت بالنسبة لي كأنَّها «جرعة مفرطة» لدرجة أنَّني بكيتُ. تخيَّلْ، عندما رأيت كلَّ هذه الأبيات، ظننتُ للوهلة الأولى أنَّك قد أصبحتَ شاعراً. عليك أن تعترف أنَّ هذا سيكون أمرًا مُدهشًا. إذن، لقد هزَّتني القصيدة بلا شك، والآن لا أمتلك الشجاعة الكافية لقراءتها مرَّة ثانية.

بخصوص ماك ديزدار(*)، أعرف أنَّه كان جارًا لنا، وأعرف جيدًا قصيدته «النهر الأزرق». كما أنَّني أعرف ابنه منذ أن كان الشاعر لا يزال على قيد الحياة، لأنَّ ابنه في تلك الأيام كان صديقًا لليلى.

سابينا، ٣٠ سبتمبر ١٩٨٥م

بدءًا من الغد سأعمل هنا، والمهمَّة هنا لفترة محدَّدة، أي لمدَّة شهرين، حتى تنتهي الأمور الشكلية المتعلِّقة بالإعلان عن الوظيفة. وحتى ذلك الحين، سيكون لديَّ كلُّ امتيازات والتزامات الوظيفة الكاملة، وهو ما يعني راتبًا كاملاً، وبدلاً لوجبة الإفطار وتذاكر الترام. وهذا يعني مبلغًا لا يمكن الاستهانة به، لأنَّه بمجرَّد إضافة التأمين إليه يكون الفارق أكبر بكثير مما كنتُ أتقاضاه من خلال خدمة الباحثين والطلبة التي كنتُ أقوم بها حتى الآن، كما أنَّ المبلغ يُحوَّل مباشرة إلى حسابي البنكي، وهذه هي الطريقة الطبيعية لتقاضي الراتب.

ويكفي هذا القدر فيما يتعلَّق بالأحداث اليومية. كما أنَّ ترقُّبَ قرار المحكمة الفيدرالية بات جزءًا من الأحداث والأفكار اليومية. ومنذ عدَّة أيام، ونحن نهرع عند كلِّ رنين لجرس التليفون مع شيء من الخوف والتوجُّس. ولكن ما من جديد حتى الآن. وقد أخبرنا المحامي أورهان من بلغراد أنَّ القرار لم يصدر بعد، فإلى متى سوف يستمرُّ كلُّ هذا؟ أشعر أنَّ الأمور بدأت تتحرَّك وأنَّنا سنسمع شيئًا ما قريبًا. ولكن هناك شيء واحد يقلقني وهو أنَّ تفاؤلي قد تلاشى، وبدأ الخوف يساورني أكثر من الأمل، إلا أنَّ الأمل لا يزال هو سبيلنا الوحيد للحياة ولا نملك التخلِّي عنه.

(*) انظر التعريف به في الفصل الثالث، هامش الفقرة رقم ١٨٨٣ (المترجم)

سابينا، ١٦ أكتوبر ١٩٨٥م

أُفكِّر فيك دائمًا، وأظنُّ أنَّك تلقَّيتَ رسالتي التي تتضمَّن قرار المحكمة الفيدرالية. ليتنا كنَّا معك ولو لمدَّة خمس دقائق. ومع أنَّك كنتَ تقول دائمًا إنَّك غير مبال وإنَّك مستعدٌّ لأي شيء، إلا أنَّني أعرف أنَّ الأمر لن يكون هيِّنًا بالنسبة لك. إنَّه قرار حاسم ونهائي، ولم يعد هناك أيُّ مجال لأية افتراضات. لا أعرف مدى الإحباط الذي سيسببه لك ذلك القرار، ولكنَّه سبَّب لنا خيبة أمل رهيبة.

سابينا، ٨ ديسمبر ١٩٨٥م

أبي الحبيب، أشتاق إليك كثيرًا. هل وصلك كتاب «دفاتر السجن»(*)؟ وجدتُ الكتاب عَرَضًا وقرأتُ الرسالة التي تتحدَّث عن البقاء في السجن لأكثر من ثلاث سنوات. يُقال إنَّه حتى ذلك الوقت فإنَّ فترة ثلاث سنوات في السجن هي عتبة الثبات والقدرة على الاحتمال، وبعدها يُصاب المرء بنوع من الخدر ويتغيَّر تمامًا. لا أعتقد أنَّك قريب من مثل هذه الحالة، أو على الأقل فأنا على قناعة بأنَّك لن تصل أبدًا إلى هذه المرحلة.

سابينا، ٩ ديسمبر ١٩٨٥م

أُحبُّ بيتي هذا، بل إنَّني أُحبُّه الآن أكثر مما كنتُ أُحبُّه عندما كتبتُ لك عنه منذ عشرة أيام. وهكذا يكون الأمر عندما يكون هناك حبٌّ حقيقي. لقد افتقدتُه كثيرًا مؤخَّرًا عندما كنتُ في رحلة عمل وكدتُ أتجمَّد بسبب الرياح والثلج الغزير، فقد فاتتني الطائرة، وتأخَّرت جميع القطارات، ولكنَّني كنتُ محظوظة إلى حدٍّ كبير بأن حصلتُ على تذكرة عربة نوم «بطريقة غير قانونية». وعندما وصلتُ إلى المكتب عند الظُّهر سادت حالة من الانفعال والتأثُّر. وأخيرًا عندما وصلتُ إلى البيت بعد الظُّهر، كنتُ في منتهى السعادة لأنَّني عدتُ إلى بيتي الذي تركتُه وفيه كوبر ونادِيا، ورسالتك التي تنتظرني. بالنسبة لي،

(*) هو الكتاب الذي يضم الرسائل والدفاتر التي كتبها الفيلسوف والمفكِّر الإيطالي أنطونيو غرامشي داخل السجن، حيث قضى آخر عشر سنوات من حياته في سجون موسوليني ومات تحت التعذيب في ١٩٣٧م. (المترجم)

هذا النوع من العائلة، وهذا النوع من البيت هو شيءٌ ضروري للغاية حتى أستطيع أن أواصل حياتي. والشيء الوحيد الذي ينقصنا هو أن تكون معنا، وعندما يحدث هذا لن تكون لي أيَّة أمنياتٍ أخرى.

بكر، ١٤ ديسمبر ١٩٨٥م

أبي الحبيب:

أعتقد أنَّ رسالة سابينا قد وصلتك، تلك الرسالة التي تخبرك فيها أنَّ الحُكْم قد خُفِّض إلى تسع سنوات. كنَّا نتوقَّع أفضل من هذا، ولكن هذا هو الحال، فأرجو ألا تنزعج.

لقد أُصبنا بخيبة أمل شديدة، والله أعلم كيف سيكون شعورك في اللحظة التي تعلم فيها بالأمر (قد تكون هي اللحظة التي تقرأ فيها هذه الرسالة). كنتُ أحاول أن أبحث عن الكلمات التي أطمئنك بها، وفي هذه الأثناء وجدتُ أنَّني قد هدَّأتُ نفسي بطريقة ما. كلانا، أنا وأنت، نؤمن بالقضاء والقدر ونعرف أنَّ اليوم الذي ستخرج فيه من السجن مُحدَّدٌ ومكتوب. أمَّا الأرقام مثل ١٤ و١٢ و٩ فهي ليست إلا مجرَّد أرقام، وينبغي ألا يهتمَّ المرءُ بها كثيرًا. لقد كنتَ مُحقًّا عندما قلتَ في نهاية كتابك إنَّ عظمة الإنسان تكمن في «قوة نفسه في مواجهة مِحَن الزمن»، وبهذا المعنى فلا تزال لديك فرصةٌ لأن تحيا حياة حقيقية؛ أن تكون في المَكان الصحيح، في حين أنَّنا جميعًا، والآخرين جميعًا، نحيا بالفعل على هامش الحياة أو في أي مكان آخر، وفي أفضل الأحوال فنحن مجرَّد متفرِّجين، فلا تترك قواك تضعف، ولا تكن في شكٍّ من هذا.

طبقًا لحكم المحكمة الفيدرالية، فأنت مُدانٌ طبقًا للمادة ١٣٣ (وأتمنى ألا تكون هذه معلومة خاطئة أخرى، لأنَّ الحكم قد صدر هنا في سراييفو). ولم يبقَ لنا سوى الأمل في العدول عن هذه المادة في نهاية الأمر إلى عفوٍ عام أو أي قرار آخر يجعل عقوبة السجن للسجناء السياسيين أقلَّ صرامة من حيث ظروف المعيشة (ونحن الآن بحاجة إلى أن نضغط عليهم بهذا الخصوص، وعندما أقول نحن فأنا أعني العائلة).

بكر، ٢٦ ديسمبر ١٩٨٥م

قرأتُ نَصَّ الحكم، وبالفعل خُفِّض الحكم إلى تسع سنوات، ولكنَّني متأكِّد أنَّ هناك أمرين قد يُخفِّفان عنك: لم تعد المادة ١٣٦ موجودة، ولم يعد كتابك «الإسلام بين الشرق والغرب» كتابًا ممنوعًا. وبخصوص هذا النقطة الثانية، أي رفع الحظر عن كتابك، فقد كنتُ على استعداد أن أدفع سنة من عمري ثمنًا لها.

ذهبتُ لزيارة أدهم بيشاكشيتش(*)، ولم يعرفني، فقد كانت هذه هي المرَّة الأولى التي نلتقي فيها. وكما تعرف، طبقًا للحكم الأصلي كان من المفتَرَض أن يُطلق سراحة في ١٩٩٠م ولكنَّه خرج في ١٩٨٥م. لا أعتبر الحكم عليك بتسع سنوات أمرًا نهائيًا. وبمشيئة الله سيكون أقلَّ من ذلك، وسيأتي الناس لزيارتنا كما يذهبون الآن لزيارة بيشاكشيتش (والأجواء هناك احتفالية بعودة ربِّ الأسرة). وبطبيعة الحال، سألتُه عنك وكيف تتعاملون مع الأمور هناك -كنتُ أتأكَّد من روايتك عن السجن وأحواله ومدى نجاحك في أن تجعل الأمور تبدو لنا أفضل مما هي عليه بالفعل. قال أدهم إنَّ الأمر ليس صعبًا لدرجة عدم الاحتمال (يبدو أنَّكما لم تتَّفقا على الرواية التي سيقولها كلٌّ منكما لنا عندما نسأل عن السجن، أليس كذلك؟). هاهي ياسمينة الصغيرة تقترب منِّي الآن، يارب احفظني!

سابينا، ٣٠ ديسمبر ١٩٨٥م

وصلتني رسالتك، وهي الأولى بعد زيارتنا لك. ويمكنني أن أقول إنَّك قد درستَ الحكم بالتفصيل، مثلي تمامًا. كما أنَّ النقطة المتعلِّقة بالكتاب هي نقطة مُشرقة في الحكم، وأعتقد بأنَّنا يمكننا الآن أن نذهب إلى وزارة الداخلية لطلب النسخ المصادَرة.

يؤسفني أنَّك فقدتَ صحبة أدهم (هذه أنانية منِّي، أليس كذلك؟) ولكنِّي سعيدة بعودته إلى البيت. ذهبنا لزيارته، وأخذنا معنا ناديا الصغيرة. كان لديَّ إحساسٌ دائمٌ بأنَّه أوَّلُ من سيخرج من السجن (يا لها من حكمة!) ولمدة ثلاث سنوات وأنا أتخيَّل اليوم الذي يصبح

(*) أدهم بيشاكشيتش (١٩٥٢-) رئيس وزراء وزراء البوسنة والهرسك الأسبق من ١٩٩٦ حتى ٢٠٠١م، وكان رفيقًا لبيجوفيتش في سجن فوتشا. (المترجم)

بمقدورنا أن نزوره فيه. في الحقيقة، لم نكن نعرفه من قبلُ، على الأقل لم نكن نعرفه بشكل رسمي، لأنَّني لم أره إطلاقًا قبل المحاكمة. تحدَّثنا طويلاً وكأنَّنا نعرف بعضنا البعض جيدًا منذ زمن. وكان أكثر ما جذب انتباهي هو حديثه عن أحوال السجن، وماذا تفعلون هناك، ولكنَّني متأكِّدة أنَّنا قد نحتاج إلى أيام وأيام لنسمع كلَّ شيء. كانوا يستقبلون ضيوفًا هناك، وقال إنَّ الضيوف يأتون لزيارته وكأنَّه قد تزوج مؤخَّرًا، ولذلك فهم يعتزمون الهرب إلى شاطيء البحر لبعض الوقت للابتعاد عن هذا الضجيج.

هل تعرف أنَّني حلمتُ في وقت ما، قبل محاكمتكم، بأنَّ أدهم كان يجلس في الصف الأول في قاعة المحكمة، ولم أكن أستطيع رؤية الآخرين الذين يجلسون خلفه، إلا أنَّني حين رأيت ذلك الحلم أدركتُ أنَّه قد يكون أوَّلَ شخص يُطلق سراحه. وحيث إنَّ هذا الحلم قد تحقَّق، فهذا شيء أشبه بالمعجزة. وقد حلمتُ بأنَّه كان في مكان ما قريب من بيتنا، عند مدخل الحديقة، حيث تعوَّدتُ أن أحلم بك كثيرًا.

سابينا، ١٣ فبراير ١٩٨٦م

عدتُ منذ قليل من عند ماما، ذهبتُ لأعطيها نتائج بعض الفحوصات الطبية التي أجرتها وبعض الأدوية. لا تزال مُرهَقة، ولكن تركتُها وهي تقوم بعمل فطيرة. وكنتُ قد تركت الصغيرة ناديا مع عمَّتها. وحتى الساعة الثامنة صباحًا كانت ناديا مليئة بالنشاط ومستعدَّة للعب، بل إنَّها نجحت في نفش شعري وحاولتْ أن تخلع القرط من أذني. ثم سكبت عليَّ كوب الماء عندما حاولتُ أن أعطيها الدواء. كما أنَّني عليَّ أن أقلِّد صوت القطة ثم صوت الفأر وكلِّ الحيوانات الأخرى لكي أتحايل عليها حتى تبتلع نقطتين من الدواء. وذات مرَّة، وعندما أوشكتُ على الانتهاء من إعطائها الدواء، بدأتُ في عمل أصوات مثل الدُبِّ، فكانت في غاية الدهشة حتى إنَّها ابتلعت المزيد من الدواء. كما أنَّنا نخوض حربًا معها كلَّما حان وقت الطعام. من المحتمل أنَّها فقدت بعضًا من شهيَّتها، ولكنَّ الحيلة الأساسية التي تقوم بها هي انتزاع الملعقة حتى تستعملها بنفسها. ولذلك، إذا أردتُها أن تأكل وجبة كاملة، فعليَّ أن أضع كلَّ شيء أمامها وأن أطعمها بيدها الصغيرة. وإذا كنتُ أريدها أن تبقى هادئة لدقيقة واحدة على الأقلِّ، فإنَّني أعطيها طبقًا وملعقة ثم

تجلس هي بعيدًا وتتظاهر بأنَّها تأكل من الطبق الفارغ وتومئ برأسها بجدية. ابنتي الصغيرة هذه لذيذة كالعسل.

بكر، ١ مارس ١٩٨٦م

تعوَّدتُ أن أُحضر لياسمينة قطع الصابون الصغير الخاص بالفنادق كلَّما عدتُ من رحلات العمل. وذات مرة مازحتُها وقلتُ لها إنَّني سرقتُها فقط لأجل إسعاد ابنتي الصغيرة الجميلة الذكية (استمعتْ لهذا المدح بعينين نصف مغلقتين). وبالأمس، سمعتُها تتباهى أمام رادا، جارة بيسيرا، بأنَّني أسرق الكثير من الأشياء من أجل ابنتي الصغيرة الجميلة.

ليلى، ٥ مارس ١٩٨٦م

أبي الحبيب:

وصلتني رسالتك بالأمس. تسألني كيف كان شعوري في عيد ميلادي، حسنًا يا أبي، لم أعد طفلة! وهذه المرَّة تقبَّلتُ هذه الحقيقة بشكل حاسم. وأرجو خلال العقد القادم أن أدرك أنَّني لم أعد في مطلع شبابي. أذكر أنَّك قلتَ لي ذات مرَّة إنَّك عندما تستيقظ في الصباح فإنَّك تحاول أولاً أن تقنع نفسك بأنَّ لديك ثلاثة أبناء كبار وأنَّك لم تعد الرجلَ نفسَه الذي كنتَه قبل خمسة وعشرين عامًا. من الصعب علينا جميعًا أن نتقبَّل مرور الزمن والتغيّرَ الحتميَّ نحو الأسوأ والحركةَ الأقل والمللَ الأكثر، ولكن لا أحد يريد أن يعود إلى شبابه، وهذا أمر أكيد. وهو شيء غريب، كما لو أنَّنا جميعًا لا نزال نأمل في شيءٍ أفضل من الفرص المتاحة.

ليلى

بكر، ١٠ مارس ١٩٨٦م

كنتُ أفكِّر اليوم في فترة العقوبة التي تقضيها في السجن، إن شاء الله ستكون أقصر. ولكن، إذا بقيَتْ كما هي -لا قدَّر الله- فأنا أعرف أنَّك ستتحمَّلها وسوف تترك ذلك

المكان كما تحبُّ أن تكون. ينجح الرياضيون في الحفاظ على أجسامهم فَتيَّةً وصحيَّة أكثر منَّا، نحن الناس العاديين، الذين لا نستعمل أجسامنا كما ينبغي. كما أنَّ الشخص الذي يستعمل عقله ويُمرِّنه ينجح في الاحتفاظ به أكثر من هؤلاء الذين يستعملون رؤوسهم فقط لتحمل قُبَّعاتهم. وحيث إنَّك تتمتَّع بلياقة بدنية، كما أنَّ خلايا مُخِّكِ تكون دائمًا نشطة وتحت ضغط، فليس لدي أيَّة تخوُّفات من أنَّك ستصبح يومًا ما عجوزًا خَرِفًا مثل هؤلاء الذين أشعر بالشفقة تجاههم. وإن شاء الله أعتزم أن أعيش طويلاً معك في هذا العالم، وأن تكون لنا معًا أحاديث طويلة طويلة.

بكر، ٣١ مايو ١٩٨٦م

ليس لديَّ شيء استثنائي لأخبرك به. أذهب بانتظام إلى نيوم(*)، وأصوم رمضان، والعمل يستلزم تحرُّكات كثيرة، وهو ما يجعلني عصبيًا إلى حدٍّ ما. أحيانًا آخذ سيكا معي، وأعتزم أن آخذ ياسمينةً أيضًا بعد العيد (كان من المفترَض أن أبقى في نيوم بشكل دائم منذ أول مايو، ولكن طالما إنَّهم يؤجِّلون هذا الأمر فقد بدأتُ بالفعل في الإعداد لقضاء الصيف على هذا المنوال من الرحلات الأسبوعية). فأنا أقضي ثلاثة أيام في نيوم ثمَّ يبدأ الشوق لسراييڤو، تلك المدينة الكبيرة، وللأسرة، ولطعام البيت. ثمَّ أقضي ثلاثة أيام في سراييڤو ويبدأ الشوق للسباحة في نيوم وللعُزلة والحرية.

قمنا بقصٍّ شعر ياسمينة ليصبح قصيرًا، وكان علينا أن نتحايل عليها؛ فأقنعتُها بأن همستُ في أذنها، حتى لا تسمعني سيكا، بأنَّنا سنذهب إلى إحدى مصفِّفات الشعر وهي متخصِّصة في أن تجعل البنات الصغيرات يشبهن السيِّدات الكبار. ثمَّ تبادلنا النظرات المتآمرة وارتدينا ملابسنا وخرجنا. تحمَّلتْ ياسمينة قصقصة شعرها دون أي انفعال، فأنت تعرف كم يكره الأطفال هذا الأمر، وعدنا إلى البيت وشعرها أقصر، وقد ارتسمتْ على وجهها نظرة شرِّيرة.

(*) نيوم، إحدى مدن البوسنة والهرسك، تقع على ساحل البحر الأدرياتيكي، وهي المدينة الساحلية الوحيدة في البوسنة. (المترجم)

بكر، ١٣ سبتمبر ١٩٨٦م

ذهبتُ إلى حوالي خمس عشرة مكتبة في سرايیڤو وزاغرب للبحث عن كتاب كانط «نقد العقل العملي» ولم أجده، قالوا «نحن نبيعه، ولكنَّه نفد، سنأتي بنُسَخٍ أخرى». سوف أبحث عن نسخة عند أشرف، ومن ثمَّ يمكنني أن أحضرها لك في زيارتي القادمة إن شاء الله.

خصَّصتْ لك مجلةُ العربي عمودَها الشهري «شخصيات» في عدد سبتمبر ١٩٨٦م. يحتلُّ هذا العمود صفحة كاملة، وقد قدَّم هذا العمودُ في آخر عددين كلاً من روجيه جارودي وعمر خليفة العدَّاء السوداني الذي قاد ماراثون العدْو المخصَّص لجمع مساعدات للمجاعة في إثيوبيا، وإذا وقعتْ يدي على نسخة، فسوف أرسل لك ترجمة النص.

تلقيَّتُ بطاقة تهنئة بعيد ميلادك من إنجلترا، طولها ثلاث صفحات، وقد وقَّع عليها ٣٠٠ شخصية، وطلبوا منِّي أن أحاول توصيلها إليك، وحيث إنَّه لا يمكنك أن تتسلَّم إلا رسائلنا فقط، سأكتب لك شيئًا عن هذه البطاقة: إنَّها جميلة للغاية، وعليها ورود بأحجامها الطبيعية، وحجمها أكبر من هذه الورقة التي أكتب عليها.

بكر، ٢٢ سبتمبر ١٩٨٦م

هذه هي آخر أيام الصيف هنا في نيوم (وأوائل الربيع عندك في فوتشا). وبعيدًا عن النسمات القليلة التي تهبُّ على الشاطئ في وقت الظهيرة، فكلُّ شيءٍ هادئ وساكن ويغتسل بأشعة الشمس الذهبية اللطيفة. كما أنَّ المكان غير مزدحم، فالناس قد رحلوا وتركوا الشواطئَ الخاليةَ، والمقاهيَ الخاويةَ، والمقاعدَ الخاليةَ، وأجملَ أوقات السنة، تركوا كلَّ هذا لي أنا وسيكا وياسمينة لنستمتع به كما نشاء. لدينا غرفة واسعة لها شُرفة ومنظر يصل مداه إلى الجهة المقابلة في إيطاليا. يبعد الشاطئ حوالي ٢٠ مترًا عن البيت، وعندما نذهب إلى السوق فإنَّنا نتمشَّى بمحاذاة الشاطئ، ومن ثمَّ يمكننا أن نرى في المساء فتاة صغيرة مألوفة ترتدي ثيابَ بحَّار تسير مع والديها ومعهم عنَب وبطيخة، عائدين إلى البيت.

نشرت مجلة «الكلمة الأدبية» مقالاً عن جرائم الرأي، ويذكر المقال أنَّ هذه الجرائم تُعامل في دول الاتحاد اليوغوسلافي على نحو متفاوت من دولة إلى أخرى. فمثلاً، في سلوڤينيا لا يفعلون أي شيء مع أصحاب الكلمة، أمَّا في البوسنة فهناك «محاكم التفتيش، وإساءة معاملة المعتقلين، والأحكام القاسية، وخير مثال على هذا هو محاكمة المثقَّفين المسلمين في سرايڤو عام ١٩٨٣م».

مع حُبِّي، بكر.

سابينا، ٢٤ سبتمبر ١٩٨٦م

أبي الحبيب:

أنا بخير حال، وأنا وناديا نشعر بتحسُّن وبدأنا نمارس حياتنا مرَّة أخرى. وصلتني رسالتك اليوم، ولهذا أكتب لك هذا الردَّ. عادت ماما من فوتشا إلى هنا مباشرة يوم السبت، ولذلك وصلتني أخبار جديدة عنك وعن الزيارة، وبالطبع وصلتني قُبلَتُك.

فيما يتعلَّق بناديا، فهي لديها الآن استراتيجية جديدة: ففي ليلة تتركني أنام حتى الساعة الخامسة أو السادسة صباحًا، وفي الليلة التالية تقوم بتنظيم مظاهراتٍ واحتجاجات. ويومًا بعد يوم تصبح شرِّيرة وثرثارة كبيرة. لقد دلَّلتُها الأيام القليلة الماضية عندما كنتُ في البيت، وعندما جاءت بيبا (جليسة الأطفال) يوم الإثنين، جلست ناديا في حجري، وخبَّأت رأسها، وابتسمت وقالت «فلتذهب بيبا إلى العمل»، أي ينبغي أن تذهب بيبا إلى العمل وأن تبقى ماما معي هنا. فماذا أفعل معها؟

لا أعرف ما إذا كان عدد الصفحات التي تقرأها يشمل رسائلنا أم إنَّها شيءٌ إضافي. ومع هذا، لا أعتقد أنَّك ستصاب بالجنون بسبب القراءة إذا كنتُ أنا لم يصبني الجنون بسبب عدم القراءة. وقد بدأتُ هذه الأيام أقرأ رواية «الخوف من الطيران»، وهي رواية نسوية فجَّة لم يعجبني بها إلا هذه السطور: «في الحقيقة، أحيانًا أتمنى لو كانت لديَّ طفلة؛ فتاة صغيرة ظريفة وذكيَّة للغاية، تكبر لتصبح المرأة التي لن أكونها أبدًا. فتاة صغيرة مستقلَّة جدًّا بلا ندوب على عقلها أو روحها. فتاة صغيرة لا تعرف الخضوع الذليل ولا التدلُّل

المداهن. فتاة صغيرة تقول دائمًا ما تقصده، وتقصد ما تقوله. فتاة صغيرة لا تكون وضيعة أو كاذبة ماكرة، لأنَّها ستكون فتاة صغيرة لا تكره أُمَّها ولا نفسها». حسنًا، أنا لديَّ فتاة صغيرة، أرجو فقط أن تصبح مثل تلك الفتاة.

ليلى، ٢٧ سبتمبر ١٩٨٦م

أبي الحبيب:

لو سألوني لماذا أحبُّ الخريف أكثر من أي فصلٍ آخر من فصول السنة، فسوف أقول: لأنَّه يُعيدني إلى شبابي من جديد، وتشعر قطعةٌ من روحي أنَّها في عمر العشرين من جديد. أشعر أنَّ الأمر سيكون هكذا دائمًا حتى ولو عشتُ لأكون عجوزًا طاعنة في السنِّ. ولا أعرف ما إذا كان الآخرون يرون الأمر هكذا مثلي أم لا، وأبحث عن هذا في وجوههم، ولكن لا أجد أيَّ شيء حتى ولو كان شبيهًا به، أو من المحتمل أنَّهم يُخفونه حتى عن أنفسهم. وهذا أسهل! أن تعيش فقط من أجل اللحظة الحاضرة، ويكون الماضي والحاضر شيئًا غريبًا، فمن يدري ما إذا كنَّا موجودين يومًا ما قبل ذلك أو هل سنوجد فيما بعد.

كم أودُّ أن أتحدَّث طويلاً معك، فقد يجعلني هذا في حال أفضل.

سوف أبدأ يوم الإثنين في المستوى الثالث من دورة اللغة الإنجليزية، ولن يكون في صعوبة المستوى السابق لأنَّه سيستغرق وقتًا أطول وسيُعقد في الشركة خلال ساعات العمل. سيبدأ في السابعة والربع صباح كلِّ يوم وينتهي في الثامنة صباحًا. لذلك، من الآن فصاعدًا فسوف أبدأ يومي بـ «صباح الخير» بالإنجليزية.

سابينا، ١٥ أكتوبر ١٩٨٦م

أبي الحبيب:

منذ يوم الإثنين وأنا أريد أن أكتب ردًا على رسالتك التي أرسلتَها بعد زيارتنا. إذا قلتُ لك إنَّني بالأمس عدتُ إلى البيت بعد حلول الظلام، وأوَّل أمس كنتُ أعدُّ طعام الغداء في الساعات الأولى من الليل، ستدرك أنَّني أصبحتُ مرَّة أخرى مشغولة للغاية. لدينا في

العمل اجتماعات مع أجانب طول الوقت، وأكاد أفقد صوتي، إلا أنَّني راضية إلى حدٍّ بعيد. تشعر في هذا النوع من الترجمة الفورية أنَّك مُهِمٌّ جدًا، وتشعر أيضًا أنَّ لك تأثيرًا قويًا إذا كنتَ متمكِّنًا فيها. ويكون الأمر صعبًا بشكل خاص عندما تترجم لعدد قليل من المديرين الذين يمكنهم التحدُّث باللغة الإنجليزية، ففي مثل هذه الحالة تكمن الصعوبة في أنَّ هناك الكثير من مصطلحات الكمبيوتر المتخصِّصة. وأنا أكون موجودة هناك فقط لكي تسير الأمور على ما يرام ولكي يكون بإمكانهم أن يُركِّزوا على أشياء أكثر أهمية من الترجمة. ولذلك فهم يستمعون إليك ويسيطرون عليك بعض الشيء، وهذا يكفي لأن تفقد عقلك، هذا إذا لم تنعزل عنهم في عقلك في البداية وتُركِّز في عملك. وعلى أي حال، فأنا أتقدَّم في عملي وأعتقد أنَّني سأكون أفضل في الترجمة الفورية. المشكلة الوحيدة الآن هي أنَّني لستُ متأكِّدة هل هذا هو ما أريده بالفعل أم لا. فقد اكتشفتُ أن مثل هذا النوع من المهارة قد يكون نتيجة لاستعمال آلية ما بعينها وامتلاك بعض الخبرة، وقد بدأتُ أنفر من هذا الجانب «الآلي» في العمل، ربَّما لأنَّه بدأ يسيطر عليَّ، حتى إنَّني لم أعد قادرة على إيقافه عندما أكون خارج العمل. فهذا الجانب الآلي يستمر في العمل خارج سيطرتي: فكلُّ ما أسمعه أو أقوله أو أفكِّر فيه أقوم بترجمته إلى الإنجليزية في رأسي، بل أحيانًا أترجمه إلى الفرنسية في الوقت ذاته. وعلى سبيل المثال، هذه الرسالة التي أكتبها تعمل آلية الترجمة تلقائيًا على ترجمتها إلى الإنجليزية، وعليَّ أن أبذل مجهودًا لتجاهلها.

قد يساعدني هذا الأمر في حلِّ المعضلة العاصفة التي تتعلَّق بعملي، أعني أنَّه يبدو أنَّ هؤلاء المديرين قد قرَّروا فجأة أنَّهم يريدون أن أبقى هنا وهم يسألونني الآن ما إذا كنتُ أقبل الاستمرار بهذه الوظيفة أم لا. قبل ذلك كان من السهل أن أعزم بسعادة على التوقُّف عن العمل والانتقال إلى الشركة المجاورة مباشرة، والجميع هنا يعرفون مدى قوَّتها. وإذا كانوا جادِّين في إقناعي بالبقاء هنا، فسوف يفسدون ارتياحي لفكرة القدرة على ترك هذا المكان، وسيكون عليَّ أن أفكِّر ما إذا كنتُ سأترك المكان نهائيًا أم لا

على أيّة حال، وحتى لا تعتقد أنَّني مشغولة جدًا بعملي لدرجة أن أنسى الصغيرة ناديا، فسوف أقول لك إنَّها في البيت مع «جاجيتشا» التي تزورنا ليومين أو ثلاثة. كما أنَّها تحبُّ أن تشاهد ألبومات الصور وتسأل باستمرار: «من هذا؟». وعندما رأت صورتي مع بعض اليابانيين في دورة الألعاب الأوليمبية، كان عليَّ أن أخبرها أنَّ الرجل الذي يقف بجواري هو رجل ياباني، فأعجبها المقطع «باني» للغاية، وفي السوبرماركت تعرَّفت على الفور على أحد الغجر وبدأت تصيح «العم باني».

أبي الحبيب، سأكتب لك مرَّة أخرى قريبًا.

مع حبي، ابنتك سابينا.

بكر، ٢٨ أكتوبر ١٩٨٦م

أبي الحبيب:

ها هو الطقس يتحسَّن من جديد في نيوم، فقد شهدنا بعضًا من الأمطار المرعبة والبرد الشديد. ومع ذلك أحضرتُ معي من سراييڤو بلوڤر وجوارب صوف ولحاف، إلخ، من قبيل الحرص. وبينما أكتب لك هذه الرسالة، تدخل أشعة الشمس إلى غرفتي من ناحية الغرب (في الواقع من الجنوب الغربي، فهذا هو اتجاه غروب الشمس الآن). وكلُّ ما يمكنني رؤيته هو البحر والشمس وجزء من غابة دائمة الخضرة. وأفكِّر كم سيكون رائعًا لو كنتَ معي هنا من حين إلى آخر، وعندها سوف أعدُّ لك القهوة، وستجلس أنت في الشرفة وتأكل ذلك العنب الأحمر الذي ينضج في الخريف.

لا أعرف هل كتبتُ لك أنَّ إيڤو أندريتش قد فقد بريقه فجأة بالنسبة لي. فقد اعتدتُ أن أقرأه بكلِّ سرور، ثمَّ قرأتُ قصَّتَه القصيرة «مصطفى مچار»، وكنتُ قد قرأتُها حين كنتُ صغيرًا ثمَّ أصبحتُ أتجنَّب قراءتها مرَّة أخرى. وأعتقد أنَّه كان لدي هاجس بأنَّها ستفسد عليَّ أعماله الأخرى. يكتب أندريتش عن شخصية مصطفى بشكل بشع وكاذب تمامًا، ويتَّهمه بكلِّ الفظائع التي لا يمكن إثباتها، ويصف كلَّ هذا بأسلوبه المتقَن المقنِع، ومصطفى غير موجود ليدافع عن نفسه. وقد بدا لي أندريتش حينئذ وكأنَّه رجل مُسلَّح

جيدًا وذو مهارة عالية يُمزِّق رجلاً بريئًا (ومن بين أشياء أخرى، يكتب أندريتش في الصفحة نفسها كيف قام مصطفى، مع مجموعة صغيرة من الرجال، بالتقدم وراء جنود الجيش النمسوي واقتحمهم كالأسد ليبدأ المعركة التي هَزم فيها البوسنيون الضعفاء النمسويين، وهذه حقائق تاريخية، ولكنَّه يعود ويستأنف التلفيق بأنَّ مصطفى كان منحرفًا ومجنونًا).

ولهذا أحضرتُ معي كُتُبًا أخرى لا تجلب لي الحيرة ولا تُسهب في الكلام عن أمور مزعجة (ألا ترى أنَّ إحدى وسائل مواجهة الشر والقبح هي أن نُقلِّل من ذكره والحديث عنه قدر الإمكان؟).

ها هي ساعة الغسق، ويبدو أنَّ الغد سيكون يومًا مُشمسًا، فهناك احمرار في اتجاه الغرب. ستبدأ مباراة كرة القدم بين يوغوسلافيا وتركيا خلال نصف ساعة. وقد أخذ الأصدقاء أماكنهم حول التليفيزيون، أمَّا عمال موقع البناء فهم في قاعة التليفيزيون في فندق نيوم. ومن ثمَّ، فنحن ذاهبون إلى التشجيع.

ليلى، ٢٩ أكتوبر ١٩٨٦م

ها أنا أشرب قهوتي معك، لأنَّ سلمى في المدرسة، وزوجي في دورة اللغة الإنجليزية، وماما لديها بعض الأعمال في بيتها. وأسماء ترسم على الطاولة المواجهة لي. قد لا تفهمني عندما أقول لك إنَّني كنت سعيدة بقضاء فترة الظهيرة وحيدة، وأحبُّ أن أفعل هذا عندما أكون متعبة.

عندما دخلتُ البيت رأيتُ رسالتك، وهذه فرحة تكفيني اليوم. قد يبدو كلُّ هذا نوعًا من الاستبداد، ولكن هكذا هو الأمر. ولا يمكن لأي أحد أن يأخذ مكان أحاديثي مع أبي. هذا المكان في حياتي وداخلي سيبقى خاويًا حتى تعود. وعندما يُعيدك الله إلينا يومًا ما، ستكون سعادتنا أكبر ما تكون، حتى إنَّها قد تبدو غير حقيقية.

بكر، ٣١ أكتوبر ١٩٨٦م

أبي الحبيب:

عليَّ أن أتباهى أمامك، فقد منحني اتحاد العمال تقديرًا ممتازًا لجهودي وحصلتُ أيضًا على زيادة ٥٪. وأترقَّب احتمال نقلي إلى الدرجة التالية، لأنَّني عُيِّنتُ مشرفًا عامًّا في موقع البناء هذا. سأتركهم يُفكِّرون هم في ترقيتي.

لقد ألفْتُ نيوم وحياة العزلة هنا. قمتُ لتوِّي بعمل بعض القهوة، كم سيكون رائعًا لو كنَّا نتقاسمها معًا. لديَّ أيضًا بعض الشوكولاته. ليتك تقضي معي ولو أيَّامًا قليلة هنا.

لا أعرف هل أخبرتُك أنَّ سيكا حصلت منذ بضعة أيام على درجة ٨ في امتحان علم العقاقير «الفارماكولوجي» أم لا هذا هو الامتحاني الثاني في السنة الرابعة، وبتبقى لها أربعة إمتحانات، تستغرق دراسة الطب خمس سنوات، لم يبقَ الكثير على نهاية هذه الدراسة. أتمنى لها أن تنهيها سريعًا. وأتمنى أيضًا أن أستطيع في غضون ذلك (من خلال معجزة ما) أن أتوصَّل إلى شيءٍ ما حتى يكون لديَّ دخلٌ كافٍ لكي أُعيل أسرة مكوَّنة من أربعة أو خمسة أشخاص.

سابينا، ١٤ نوفمبر ١٩٨٦م

أبي الحبيب:

الساعة تجاوزتْ العاشرة صباحًا، وقد انقشع الضباب قليلاً لينتشر ضوء الشمس. ليس لديَّ أيُّ عمل منذ الصباح، ولهذا أتمشّى حول المكتب وأفكِّر. وقد عادت زميلتي التي كنتُ أقوم بعملها من إجازتها المرضية، ولذلك فحتى لو كان هناك الكثير من العمل الآن فإنَّنا نتقاسمه وننجزه أسرع بكثير. أعتقد أنَّ هذه الدرجة من السرعة في العمل ستكون أمرًا جيدًا وأكثر قابلية للتحمُّل. والآن أستطيع بالكاد أن أترجم بعض الأشياء بالفرنسية والكثير والكثير بالإيطالية. وأفضل يوم في العمل هو اليوم الذي أجري فيه مكالمة هاتفية بالفرنسية وأترجم رسالة بالإيطالية وأترجم صفحات قليلة من النشرات الإنجليزية.

ذهبتُ بالأمس إلى سكرتيرة وزارة الداخلية لأسأل عن جواز سفري، ليس هناك جديد، فأنا بالنسبة لهم فتاة غير صالحة. وعلى العموم، من الواضح لي أنَّني لن أحصل على جواز سفري، ولكن لا زلت لا أفهم السبب. ولا أستطيع التنبُّؤ بتأثير هذا الأمر على وظيفتي. ومع هذا، فإنَّ أكثر ما يؤلمني هو أن يقوم شخص ما بمثل هذا الفعل تجاه شخص آخر. وفكرة أنَّني ليس عندي جواز سفر، مما يعني احتمال عدم الحصول على وظيفة، هي أمر يشغل بالي. أمَّا ما يزعجني ويؤلمني حقًا فهو ذلك الأمر الأول. ولكن أرجوك ألا يزعجك أيُّ شيء من هذا كلِّه، فحياتي لطيفة للغاية حتى بغير جواز السفر وسأكون في منتهى السعادة إذا أعادوك أنت إلي.

مع حبي، ابنتك سابينا.

بكر، ١٣ نوفمبر ١٩٨٦م

ها هو الطقس الجميل يعود مرَّة أخرى، وكأنَّه الربيع في نيوم (أنا أُشبه الرجلَ الإنجليزي من ناحية أنَّني أشكو دائمًا من الطقس). هذا هو أوان ظهور الفراولة البريَّة، وهي تشبه الفراولة ولكنَّها ليست بالمذاق الجميل نفسه وتنمو في الأرض الصخرية. وقد تعوَّدتَ أنت وأمي أن تقطفوها لأسماء بالقرب من بلدة دوبروڤنك، حيث الفراولة البرية واليوسفي والبحر الهادىء والأرض القاحلة تحت ضوء الشمس المعتدل. ذهبتُ بالأمس إلى هوتوڤو، هل يمكنك أن تتخيَّل كيف تبدو هوتوڤو في شهر نوفمبر؟ يوجد بها مكتب بريد ومحطة قطار قديمة (هل تذكر خط السكة الحديد بين تشابلينا ودوبروڤنك؟) ومطعم ومتجر خضروات ومدرسة ابتدائية، وخمسة أو ستة متسكّعين يرقدون تحت ضوء الشمس الضعيف يقتلهم الملل، بالإضافة إلى حدائق صغيرة ذات أرض حمراء ينتشر فيها الحصى ونبات الكرنب. ودَّع الجغرافيون البلدة وغادروا في آخر قطار مُتَّجه إلى دوبروڤنك. وفي الشارع الرئيسي يتمشَّى الدجاج والماعز.

ليلى، ١٩ نوفمبر ١٩٨٦م

أعتقد أنَّك تفتقد رسائلي. تأتي عليَّ أيام لا أستطيع أن أجلس وأركِّز، خصوصًا إذا كنتُ أريد أن أكتب شيئًا مُبهجًا وساراً. لا يمكنني القول إنَّني في مزاج سيِّئ؛ ولكن فقط أنا

آخذ الأمور بمنتهى الجد ولذلك فالموضوعات التي أودُّ مناقشتها لا تناسب الورقة . ومن ثمَّ، فسأقول لك اليوم مباشرة كم أشتاق إليك وكم أنا سعيدة لأنني أستطيع أن أكتب اسمك مع بضع كلمات جميلة وأعرف أنَّها ستصلك إن شاء الله، لأنَّك موجود بيننا .

أقرأ الآن كتاب «علامات على الطريق» للعبقري إيڤو أندريتش . لا أعرف هل لاحظتَ كم كان يشتكي من الحياة أم لا، ويبدو لي أنَّه قد عبَّر عن ذلك بكلٍّ بساطة وإخلاص، وبدون أن يذكر ذلك بشكل مباشر .

أُنهي الآن برنامجًا كان قد بدأه أحد المبرمجين قبلي، وقد ترك العمل دون أن يُكمل البرنامج، لذلك كان عليَّ ألا أضيّع يومي . أحيانًا يكون الأمر سهلاً، وأحيانًا أخرى أبكي . ولكنِّي مطمئنة الآن أنَّ كلَّ شيء على ما يرام . عندي دروس في اللغة الإنجليزية يوميًا، وهي ليست دورة مكثَّفة ولكن أن تكون ثابتة وبها الكثير من المراجعة فهذا يعني لي الكثير . حصيلتي من المفردات لا تزال ضعيفة إلى حدٍّ ما، لأنَّني كسولة للغاية في الحفظ عن ظهر قلب، ولا بدَّ من بذل مجهود!

سابينا، ١٩ نوفمبر ١٩٨٦م

تحدَّثتُ هذا الصباح إلى ليلى وبكر، حيث نرتّب مع أسرة ليلى للخروج مساء يوم الجمعة . سنترك ناديا تبيت عند ماما، ثم نأتي صباح يوم السبت لنشرب القهوة مع ماما ونأخذ ناديا . إنَّني أعدُّ من جديد أيامَ الخريف التي لا يهبط فيها الثلج، وأفكّر في الثلج الذي يهبط مع بداية السنة، حيث يخيِّم علينا الشتاء . علينا أن نعترف بأنَّ الحدود الفاصلة بين الشتاء والربيع قد تحرَّكت بعض الشيء باتجاه الربيع، لأنَّه وحتى وقت قريب كان الثلج لا يزال يهبط بعد انقضاء الفترة التي يهبط فيها الثلج في بداية السنة . ومع هذا، أعتقد أنَّه من اللطيف أن يخدع المرء نفسه قليلاً كما هو الحال مع كل شيء في الحياة .

وكما ترى، لديَّ المزيد من الوقت لأكتب لك مرَّة ثانية . أعتقد سيكون من الأفضل لي ولزميلتي في العمل أن تسير الأمور على هذا النحو، هذا إذا كنَّا نتحلَّى بالذكاء الكافي . الآن نحن نتناول طعام الإفطار والقهوة بهدوء، بل يمكننا أحيانًا أن نخرج لنتمشَّى .

أصبحت ناديا تنام بشكل أفضل، ولذلك بدأتُ أعود إلى طبيعتي القديمة مرَّة أخرى. تُذكّرني هذه الفترة التي مررتُ بها بذلك الشيء المثير عندما دفعوا رجلاً إلى شلالات نياغرا التي تتدفَّق بسرعة هائلة. قد أكون أبالغ بعض الشيء، إلا إنَّني كثيرًا ما تصيبني الدوخة عندما أرى شيئًا يسقط من مكان مرتفع.

سابينا، ٢ ديسمبر ١٩٨٦م

تقول إنَّك لا تريد أن تكتب عن نفسك، وهذا هو عين ما أبحث عنه في كلِّ رسالة من رسائلك، ولذلك أرجوك أن تكتب أكثر عن نفسك. وهذا ما أفعله أنا، حتى عندما أكتب عن ناديا أو ماما أو براتسو أو العمل أو البيت فأنا أكتب في الحقيقة عن نفسي. وأتمنى ألا تجد ذلك شيئًا مُملًا.

وأيُّ شيء آخر يفعله كلُّ هؤلاء الذين يكتبون؟ يبدو لي أنَّهم جميعًا يكتبون عن أنفسهم، يعبِّرون عن أنفسهم بشكل ما. وقد تأكَّدتُ من هذا بشكل خاص عند نهاية دراستي عندما كان عليَّ أن ألتهم كميَّةً كبيرة من الكتب، ومن ثمَّ بدأتُ أشعر بالنفور من كلِّ هؤلاء الكُتَّاب الذين يريدون أن يقولوا لنا شيئًا ما، ثم يجبروننا في المدرسة على قراءة كلِّ هذا. والآن أحبُّ أن أقرأ شيئًا بعد أن هدأتُ قليلاً، ولكن ناديا لن تسمح لي بذلك. وأرغب أيضًا في السفر، لكن لا أستطيع أن أفعل هذا أيضًا.

وطالما ذكرتُ ناديا، فمن الإنصاف أن أكتب شيئًا عنها. بدايةً، هي في غاية الجمال لدرجة تعجز الكلمات عن وصفها، وتتكلَّم كثيرًا ويمكن القول إنَّها شرّيرة صغيرة كذوبة إلى حدٍّ ما. عندما تريد أن تحصل على قلم رصاص مهما كان الثمن، فإنَّها تقول: «مامي، أعطني القلم الرصاص، ناديا تريد أن تكتب رسالة إلى الجَدِّ علي»، وطبعًا بعد أن تحصل القلم تذهب لترسم قطة صغيرة على مجلاتي غالية الثمن وعلى الجدران.

بكر، ٥ يناير ١٩٨٧م

ما إنْ يأتي يناير، حتى يكون الصباح أكثر إشراقًا وبهجة بشكل ما. إنَّه طقس يناير الأصيل في الخارج، ضوء رمادي وأبيض مع القليل من رقائق الثلج الصلب الخفيف.

وحتى إن كان النهار لا يزال قصيراً، وإن كان الشتاء لم يأت بأسوأ ما عنده حتى الآن، فنحن نعرف أنَّنا قد هبطنا إلى القاع وستكون الأيام القادمة شاقَّة وعسيرة، وسيمرُّ فبراير ومارس ثم يأتي النصف الأجمل من السنة. وعلى الأرجح فأنت تخوض معركتك الخاصة مع هذا الطقس والبرد، وأعتقد أنَّ الأمور صعبة عليك إلى حدٍّ ما.

كنتُ أفكّر فيك هذه الأيام، لقد حافظتَ على كرامتك وتصرَّفتَ كرجُل، وهو ما يليق بك. قد تبدو هذه الكلمات ساذجة، ولكن أعتقد أنَّه من الواجب علينا أن نقول لك إنَّنا نفخر بك وإنّه لم يكن هناك أفضل ممَّا قدَّمتَه لنا. وأرجو أن يكون المثل القائل «من شابه أباه فما ظلم» صحيحًا. لا تهتمّ بما يقولونه عنك من عدم الوطنية وتلك الأكاذيب الأخرى، فحقيقتك تصبح أكثر سطوعًا في مقابل خلفية مُظلمة كهذه.

مع حبي، ابنك بكر.

بكر، ٧ يناير ١٩٨٧م

أبي الحبيب:

منذ وقت قليل كان هناك مطر غزير بالخارج، وقد غسل المطرُ عمودَ الخرسانة المُهمَل الذي يحمل المصباح النيون. كنتُ أضع بعض الخبز القديم في الفرن وأسخِّن بعض اللبن عندما خطر لي أنَّني قد تغيَّرتُ، فلو حدث منذ خمس أو ستِّ سنوات أن كنتُ في غرفة صغيرة في بيت مهجور في مدينة نيوم المنعزلة المطرة، لقلتُ إنَّ هذا بمثابة عقوبة لي. أمَّا الآن فهذا الأمر لا يزعجني على الإطلاق. والآن سأواصل القراءة في موسوعة نركيز سميلاجيتش Nerkez Smailagic، ومعي بعض الزبيب والقهوة، والمدفأة تدفئ ظهري جيدًا.

مضى عام تقريبًا منذ جئتُ إلى نيوم، وقد ألفْتُ هذا المكان المُملَّ. لقد بُنيتْ نيوم وسُكنتْ عنوةً وبشكل فوضوي. لا يوجد هنا فنُّ العَمارة الموجود في منطقة دالماسيا ولا حتى طريقة الكلام الموجودة هناك. البيوت هنا لا هويةَ لها، فهي تشبه تمامًا البيوتَ الأخرى الموجودة في الضواحي الأخرى، أو يمكنك القول إنَّها «مبنيَّة على الطريقة

الحديثة». ومن الطريف أن تسمع اللهجة البوسنوية هنا بالقرب من البحر. تقع نيوم على خليج، فلا يوجد بحر مفتوح ذو أمواج ممَّا ينتج عنه شواطئ رملية طبيعية. تقوم الفنادق بعمل شواطئ صناعية من حصى النهر الرمادي أو من الحصى الموجود على الطرق.

ومع ذلك فهناك عدَّة أشياء في نيوم أقنعت «الأسرة الصغيرة» بأن تأتي إلى هنا الأسبوع القادم، فهناك الشمس والهواء النقي والممشى الطويل بالقرب من البحر وملعب الأطفال الذي يوجد به مزالق وأراجيح، إلخ.

أعتقد أنَّه سيكون بإمكاني أن أرسل لك كتاب «نقد العقل الخالص» قريبًا، فالرجل الذي وعدني بأن يعيرني إياه لا يملك الكتاب الآن لأنَّه كان قد أعاره لشخص آخر.

كيف حالك مع الالتهاب الشُّعَبي في هذا البرد؟ ليتني أستطيع أن أعطيك مدفأتي والجوارب الصوف التي اشتريتها من السوق في مدينة موستار منذ بضعة أيام.

ليلى، ٣١ مارس ١٩٨٧م

أبي الحبيب:

مضى وقت طويل منذ آخر حديث حميمي بيننا، فقد سَلَبَتْنا هذه السنواتُ أحاديثَنا الحميميَّة. أحيانًا يبدو لي أنَّ أبي هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن يستمع إليَّ بصدق ويتفهَّم همومي ومشاعري الصغيرة، والتي قد تبدو تافهة لأول وهلة. وعادة ما أواسي نفسي بحقيقة أنَّ أبي لا يزال على قيد الحياة ويتمتَّع بصحة جيدة، أي إنَّني لا يزال لي أب.

أحيانًا أشتاق إلى صحبة، إلى أُناس يتكلَّمون ويضحكون. وفي أحيانٍ أخرى يبدو لي كلُّ هذا كأنَّه إهدار لوقتي ويزعجني كلُّ ما يبدو أنَّه مضيعة للوقت. وما يثير سخطي هو مزاجي المتقلِّب بل ويجعلني مهمومة أحيانًا. هل أنا، في الحقيقة، عاملة عظيمة أم عاطلة عظيمة؟

أخشى بعد أن يمضي العمر أن أندم على أنَّني أخذتُ حياتي بجدِّية.

ليلى، ٧ إبريل ١٩٨٧م

أبي الحبيب:

كان الفرح يبدو عليك خلال زيارتنا لك، ومع ذلك لا أعرف ما الحالة التي كانت عليها روحك، وعلى الأرجح لم يكن الفرح يغمرها بما يكفي. لم تستغرق عودتنا إلى البيت وقتًا طويلاً، ساعة ونصف فقط. أحيانًا أشعر ببعض الإعياء بعد زيارتي لسجن فوتشا، إلا أنَّني هذه المرة تغلَّبتُ على ذلك الشعور بالعمل في البيت. وأنت تعرف طريقتي في العمل: أقوم بإلقاء الكثير من الأشياء القديمة وغير المفيدة، وقد أراحني هذا وأزاح عنّي بعضَ أفكاري المزعجة.

عندما حان وقت النوم، شعرتُ بالرغبة في المزيد من العمل أو في القيام ببعض التمارين الرياضية.

أحيانًا يبدو لي أنَّ هذه الوظيفة الجديدة أفضل لي بكثير عند مقارنتها بالوظيفة القديمة. فدائمًا هناك جديد: نشتري أجهزة كمبيوتر، ندرس بعض الكورسات، ومع أنَّنا نعمل كثيرًا إلا أنَّ زملائي لديهم حسٌّ لطيف بالدعابة ونضحك كثيرًا أثناء تناولنا القهوة، وأغلبهم في نفس سنِّي أو أصغر منِّي.

إليك نصيحة جيدة وهي أن نتعامل مع الحياة بأكبر قدر ممكن من البهجة والفرح بصرف النظر عن مشاكلها. وهذا هو الحلُّ الوحيد. فأن تكون مُصابًا بالقليل من الجنون طول الوقت أفضل من أن يصيبك الجنون مرَّة واحدة وإلى الأبد.

بكر، ١٢ مايو ١٩٨٧م

أبي الحبيب:

لم يبدأ الصيف في نيوم حتى الآن، فالناس لا يزالون يسيرون مرتدين السترات والمعاطف، وإذا حدث وكان هناك يوم مُشمسٌ عارضٌ فإنَّه يبدو كما لو أنَّه ضلَّ الطريق إلى هنا مصادفة، ولا يكون هناك أيُّ قلق، فمن المؤكَّد أن الصباح التالي سيكون غائمًا.

وقد فسدت محاولاتي لإحضار ياسمينة هنا لكي تأخذ حمَّام شمس، وهذا يجعلني في مزاج سيئ. إلا أنَّ هذا النوع من الطقس هو الأفضل للصيام، وقد تعوَّدتُ عليه تمامًا لدرجة أنَّني لم أعد أشعر بأنَّني صائم. تمرُّ الأيام وتسلبني بعضًا من وزني (قد أكون فقدت كلَّ ما حقَّقته من زيادة في وزني خلال الشتاء، فقد أصبح البنطلون فضفاضًا). برنامجي اليومي يناسبني تمامًا؛ ففي الصباح أتمشَّى بالقرب من البحر وأنا ذاهب إلى الفندق (لم يعد موقع بناء)، كما أنَّ عملي ليس مُرهقًا، فنحن لا نعمل تحت ضغط، لأنَّ كلَّ شيء أُنجز تقريبًا، وفي حوالي الرابعة عصرًا أتمشَّى عائدًا إلى غرفتي. وهناك أتصفح كتابَ نركيز أو أيَّ كتاب باللغة الإنجليزية حتى السادسة مساءً، ثم أذهب لشراء الجرائد وأذهب إلى السوبرماركت، ثمَّ أواصل القراءة حتى السابعة والنصف مساءً، ثم أذهب للإفطار، وبعد الإفطار أعود إلى غرفتي (يتساءل زميلي ميلان، مندهشًا، ماذا أفعل في غرفتي طوال النهار)، وأشرب بعض القهوة، وآكل بعض الزبيب، وأقرأ قليلاً.

من المؤكَّد أنَّ يومك وطعامك أسوأ بكثير، ولكن، إن شاء الله، ستكون هناك أيام كثيرة أفضل (قد يكون غريبًا أن أتنبَّأ بمثل هذه الأمور، لكن لدي إحساس دائم بأنَّك ستعيش في رغد وسعة من كلِّ شيءٍ خلال السنوات القادمة).

بكر، ١٦ يونيو ١٩٨٧م

حضرتُ مؤخَّرًا حفلة موسيقية ممتعة، وكانت الفرقة التي تعزف هي فرقة «ممنوع التدخين» بمصاحبة أمير كوستوريتسا، وهم ينتمون إلى حركة البدائيين الجدد؛ تلك الحركة الفنية التي ظهرت في سراييڤو. وهم يتحدَّثون بأسلوب فظّ عن أشياء لطيفة ومؤثِّرة، فعلى سبيل المثال تحدَّثوا عن رجل غارق في عالم الخمور والقمار ويحاول إقناع زوجته «فكريتا» بأن تتركه وترحل لعلَّها تجد حياة أفضل (ضجَّ الناس بالضحك عندما انطلق المُغنِّي قائلاً «فكريتا، أنت تحولين بيني وبين الحضيض. . » لكنَّهم أصبحوا جادِّين لاحقًا).

دخل الليل، سأخرج لأتمشَّى قليلاً.

سابينا، ١ سبتمبر ١٩٨٧م

أبي الحبيب:

ها قد مرَّ الربيع والصيف وجاء اليوم الذي كان يبدو حينذاك بعيدًا جدًا بشكل لا يُصدَّق، ولم تساعدني كلُّ تلك الشهور على أن أستعدَّ لما هو قادم، وهو طفل جديد غير ناديا، عضو رابع في العائلة سيصرخ قريبًا، إن شاء الله، بين هذه الجدران باحثًا عن طريقه الخاص. كلَّما تذكَّرتُ انتظاري لناديا، فأتذكَّر أنَّ الأمر كان مختلفًا تمامًا، كان شيئًا حقيقيًا تمامًا، وكنتُ أنتظره طوال حياتي، وكنتُ مستعدَّةً له. أمَّا الآن فأنا أشعر بالمفاجأة، كما لو أنَّني نائمة وعليَّ أن أستيقظ في أي لحظة، وعلى الأرجح ستكون يقظة عنيفة مُدَوِّيَةً لأعيش حلمًا جديدًا بطفل جميل يتمتَّع بصحة جيدة كما آمل.

أشرب قهوتي في البيت، وقد ذهبت ناديا مع بيبا إلى الحديقة. بالخارج هناك يوم جميل من أيام سبتمبر، وتفكيري مستغرق تمامًا في العام القادم وكلِّ ما أتوقَّع أن يحمله إلينا. أحد أعظم آمالي لذلك العام القادم هو أنت، فأنا أذهب بخيالي إلى الأول من سبتمبر العام القادم وأحلم كيف أنَّنا جميعًا سنكون معًا حينذاك.

ليلى، ٣ سبتمبر ١٩٨٧م

أبي الحبيب:

ودخلتْ ابنتي الصغيرة المدرسة، وها هي قد حازت مكانتها العملية، لأنَّنا جميعًا كان لدينا هذه المكانة ما عدا هي. وأعتقد أنَّها سعيدة تمامًا بهذا، وأصبحت الآن قادرة على أن تطاول سلمى ولو من جانب واحد على الأقل. وقد جلبت لنا جوًّا رائعًا في البيت، وهنا يمكنني أن ألمس اختلافًا بين الأختين.

يوم الإثنين، ذهبت أنا وياسمينة مع أسماء إلى المدرسة، وكانت منفعلة ومتأثرة تمامًا. وقد راقبتُها حين كانت المُعلِّمة تتحدَّث، وكانت تنظر إلى المُعلِّمة دون أن تطرف عيناها الواسعتان وكان فمها مفتوحًا بعض الشيء وكأنَّها عصفورة صغيرة. وعندما عدنا إلى البيت لاحظتُ أنَّها كانت تتذكَّر كلَّ ما قيل في المدرسة تقريبًا.

وبالأمس حصلتْ في الرياضيات على أعلى درجة، والرياضيات تُدرَّس الآن بأسلوب جديد لطيف، حيث التركيز على المنطق والتفكير من خلال المجموعات والعلاقات. والأطفال بارعون في هذا الأمر. وفي نهاية الأمر فهذه هي طريقة تفكيرنا.

أتحدَّث مع سابينا كلَّ يوم، وأنت تعرف أنَّها في إجازة مَرَضية، إلا أنَّ السيدة التي تقوم لها بعمل البيت قرَّرت التوقُّفَ عن العمل، ولن تأتي بعد نهاية هذا الأسبوع، وهو الأمر الذي أحزن سابينا، ولكن أعتقد أنَّه يمكننا أن نجد غيرها بالأجر نفسه. سنبذل ما في وسعنا.

أقوم هذه الأيام ببعض الأعمال اللطيفة والسهلة، وقد انتهيت منها تقريبًا وأشعر بأنَّني راضية إلى حدٍّ كبير. وفيما يتعلَّق بالنقود، فقد كانت كافية جدًّا هذا الشهر، فقد زاد راتب زوجي زيادة كبيرة، فعمله يعتمد مباشرة على الإنتاج. ولا يزال الوضع في شركتي مستقرًا وأرجو أن يكون كذلك في المستقبل.

ليلى، ٢٥ سبتمبر ١٩٨٧م

أبي الحبيب:

كما تعرف، فكلُّ ما كان يقلقنا قد انتهى على خير والحمد لله. فقد رُزقنا طفلة صغيرة جميلة ذات شعر أسود وعينين على شكل لَوْزَتَيْن، وقد جاءت ومعها الكثير من الحبِّ لهذا العالم.

أرسل براتسو إليك برقية يوم الإثنين في الصباح الباكر، وقد اعتمدنا جميعًا على ذلك، وقد أرسلتُ لك بطاقة بريدية، ولكنَّني أريد الآن أن أُهنِّئك بقدوم حفيدتك الخامسة. أتمنَّى لها أن تُحبَّك وأن تعيش معك أيامًا طويلة جميلة وسعيدة.

ذهبنا يوم الثلاثاء لنحضر سابينا من المستشفى، وكان كلُّ شيء احتفاليًا في البيت كما هي العادة عندما يأتي إلى البيت طفل جديد. لقد كان يوم الثاني والعِشرين من سبتمبر يومًا دافئًا على غير العادة.

الآن، يمكنني أن أخبرك بصراحة أنَّني كنتُ في غاية القلق عليها بسبب آلام الولادة، بيد أنَّ سابينا أقوى ممَّا تصورت.

ربما تعرف أنَّنا لم نتوصَّل بعدُ إلى أفكار بخصوص اسم الطفلة، ولذلك إذا كانت لديك أية مقترحات فأسرع بها لنعرفها. اقترحتُ «عامرة»، إلا أنَّه سيكون اسمًا مُربكًا، لأنَّ أقرب صديقة لسابينا اسمها «عامرة». في ذلك اليوم، كان هناك هاجس يساورني وبقيت أفكِّر في سابينا وأنا في طريقي إلى سرايفو. وبالفعل، عندما اتَّصلتُ بها بكَتْ وقالت إنَّها كانت تنتظرني منذ ساعات. ذهبت سابينا إلى المستشفى في حوالي التاسعة مساءً، وعند حوالي الواحدة صباحًا اتصل بي براتسو ليخبرني أنَّ المولود بنْتٌ وأنَّ كلَّ شيءٍ على ما يُرام. وبالطبع، كانت سلمى هي من بلَّغ ماما بالأخبار الجميلة في الصباح.

سابينا، ٥ أكتوبر ١٩٨٧م

أبي الحبيب:

منذ ثلاثة أيام وأنا أكتب هذه الرسالة، وفي هذه الأثناء كانت الأجواء عصيبة بعض الشيء. فالطفلة الصغيرة لا تنام، وكذلك ناديا أيضًا، وأنا كنتُ أحاول اقتناص لحظات قليلة من الراحة. كنتُ أنظر باستمرار إلى هذه الرسالة التي بدأتُها على أمل أن أنهيها «في لحظة»، غير أنَّ شيئًا ما يحدث كلَّ مرَّة ويُعطِّلني. يبدو أنَّ الطفلة الصغيرة تعاني من تشنُّجات، ولذلك فهي أحيانًا تبكي لساعات فنهدهدها أنا وكوبر بين ذراعينا بالتناوب. أمَّا الصغيرة ناديا فلا تتحمَّل كلَّ هذا فتتوتَّر وتتحوَّل إلى شخص شرِّير. تتعاقبنا اللحظات الرائعة واللحظات الصعبة واحدة بعد أخرى، وأتمنى أن يتغير هذا الموقف إلى الأفضل في غضون شهر أو نحو ذلك، وأن يكون كلٌّ منا قد اعتاد على الآخر، وأن أكون قادرة على تأسيس نظام ما لحياتنا.

من ناحية أخرى، فأن يكون لديك طفلان لهو تجربة مُذهلة تمامًا بالنسبة لي، إنَّها تجربة مختلفة تمامًا عن كلِّ ما كنتُ أتخيَّله. لقد أخذت الحياة كلُّها منظورًا مختلفًا، وكذلك ناديا أصبحت مختلفة، أمَّا أنا فحدِّث ولا حرج. أن يكون لديكَ طفلان لا يعني وجود طفل واحد مرَّتين، لا أعرف كيف أو لماذا، بيد أنَّ وجود طفلين يشبه وجود طفل واحد، والأربعة منَّا كأنَّهم واحد وأربعة في الوقت نفسه. هذا كلُّه يدور في فوضى داخل رأسي، وآمل أن أفهم كلَّ هذا في العام القادم.

أخيرًا، وصلتْ رسالتك بتاريخ ٤ أكتوبر ١٩٨٧م، وجدها كوبر هذا الصباح عند مدخل البيت وهو يغادر إلى العمل. يبدو أنَّ ساعي البريد كان يعمل في وردية ليلية. تقول إنَّك مُتعب، وأنا كذلك أعاني بالمثل ممَّا ذكرتَه. وأسأل نفسي كلَّ يوم كيف تتحمّل كلَّ هذا، هل حقًا مرَّت أربع سنوات ونصف؟ فإذا كنَّا نحن في عائلتنا فقط وُلدَ لنا كلُّ هذا العدد من الأطفال خلال تلك الأربع سنوات ونصف، فماذا عن كلِّ تلك الأحداث والأشياء الأخرى والناس الذين جاءت بهم الحياة أو ذهبت بهم خلال تلك الفترة الزمنية؟! عندما نكون معًا من جديد، لا أريد أن نكون مختلفين كثيرًا عمَّا كنَّا عليه قبل أربع سنوات ونصف. لا أعرف لماذا، غير أنّي لا أودُّ أن أعترف أنَّ كلَّ هذه السنوات قد غيَّرتنا، وإن كان، فأرجو أن تكون قد غيَّرتنا إلى الأفضل. اعتنِ بنفسك.

مُحبتُك للأبد، ابنتك سابينا.

ليلى، ٢٧ أكتوبر ١٩٨٧م

وصلتني رسالتك منذ عدَّة أيام، وألاحظُ أنَّك في غاية القلق، خاصة على سابينا. أنا كذلك أدعو الله لها أن تخرج من هذا الحال سليمةً معافاة وبصحة جيدة. الأمر ليس خطيرًا، وقد حدث لأنَّها لا تنام بشكلٍ كاف منذ فترة طويلة، لأنَّه عندما تنام إحدى البنتين تستيقظ الأخرى، ويستمرُّ الوضع هكذا طوال الليل، وفرق العمر بين البنتين صغير جدًا، كما أنَّ ناديا إمَّا أنَّها حسَّاسة جدًا أو عنيدة جدًا (وهي تغضبني بالفعل في بعض الأحيان) ولذلك فإمَّا أنَّها لا تستطيع النوم أو لا تريد أن تنام.

ذهبنا ليلة أمس إلى حفلة موسيقية في مدرسة الموسيقى، ومن المفترض أن تشارك سلمى المرة القادمة، ولذلك أصطحبناها معنا لترى كيف تجري الأمور هناك، وكذلك ذهبت أسماء معنا. أعتقد أنَّ بكر قد حدَّثك عن زيارة أسماء لهم ذات ليلة، وهناك لعبت ياسمينة وأسماء معًا ما يكفيهن وأكلن الفطائر.

كما أنَّ بكر وسيكا جاءا لزيارتنا ليلة أمس في زيارة متأخِّرة الساعة التاسعة مساءً، وأنا أفضِّل هذه الزيارات المتأخِّرة حيث يكون الأطفال نائمين ويمكنني إعداد الطعام للعشاء.

وقامت سيكا بإجراء مقابلة معي أنا وزوجي، عبارة عن استطلاع رأي بخصوص الخدمات الطبية، ولكن كانت هناك بعض الأسئلة ذات خصوصية ممَّا أدى إلى بعض الضحك والسخرية عندما أجبتُ أنا وزوجي كلٌّ على حدة.

هناك أوقات أنظر خلالها بتفاؤل إلى انتهاء محنتنا. ولأول مرة في حياتي أستطيع أن أرى حلقات كاملة من الأحداث مثل تلك التي توجد في رواية بوليسية رخيصة، ولو كان لأحد أن يكتب هذه الرواية لظنَّ أنَّ حبكة الرواية غريبة للغاية.

سابينا، ١١ سبتمبر ١٩٨٧م

لم تصلني أية رسائل منك منذ خمسة أو ستة أيام. قلتَ في رسالتك الأخيرة إنَّك لستَ في حالة جيدة، وأتمنى أنها كانت حالة عابرة وأن يكون هذا الطقس المشمس قد جعلك أكثر ابتهاجًا وسرورًا. الأسبوع الماضي كنتُ مكتئبة جدًا، حتى قبل أن تمرض ناديا، ولم أعرف كيف أنتزع نفسي من تلك الحالة. وفي صباح ما، استيقظت وأنا أشعر بتحسُّن كبير بكلِّ بساطة، ولا أدري لماذا. وحاولتُ أن أجدِّد ذهني بأن خرجت لأتمشّى في شوارع المدينة، من متجر إلى آخر، ولكن بدا لي شارع تيتو قبيحًا جدًا، حيث بدت المتاجر كئيبة خلافًا للعادة، والملابس مُملَّة، وكان الناس متبلِّدين وكئيبين. فذهبتُ إلى بيت ليلى، ولكن عندما وصلتُ هناك تساءلتُ لماذا أنا هنا، ولم أستطع حتى أن أشرب قهوة أو عصير ليمون (فيتامين ليلى)، لأنَّني كنتُ قد سئمتُ كلَّ شيء. حدث هذا كلُّه بلا سبب، وفجأة تلاشى هذا الشعور الفظيع. وأرجو الآن أنَّ حالتك السيئة كانت كذلك عابرة، رغم أنَّي أعرف أنَّ تجنُّبَ مثل هذه الحالة يكون أصعب بكثير حيث أنت الآن.

سابينا، ٢٣ يناير ١٩٨٨م

أبي الحبيب:

وصلتنا بالأمس رسالتك وبطاقة التهنئة. الألوان البنفسجية جميلة جدًا وتُذكِّرني بتلك الألوان البنفسجية أيام طفولتي والتي كنتُ قد أرسلتُها إليك في رسالة (بمساعدة ماما) بمناسبة عيد ميلادي السابع، وكنتَ أنتَ وقتها في مكان ما بعيد، كما هو الحال الآن.

مضى على زواجنا أنا وكوبر ستة أعوام، ودخلنا اليوم عامنا السابع، وهو العام الحرج، كما يقولون. وعلى الأرجح فنحن لم نلاحظ «أزمة الزواج» بسبب وجود الأطفال، وكدنا ننسى ذكرى زواجنا حتى آخر لحظة. وقد اخترتُ بالفعل إحدى الهدايا وقمتُ بإعداد غداء احتفالي.

ذهبنا جميعًا ليلة أمس عند ليلى للاحتفال بعيد ميلاد أسماء. وكان المكان مليئًا بالضجيج والجلبة: أحد عشر من الكبار، وتسعة أطفال، والمولودة الصغيرة أمينة. كانت أسماء في كامل زينتها وتورَّد وجهُها من الانفعال. كذلك قضت ناديا وقتًا رائعًا، مع أنَّها لم تتقبَّل فكرة أنَّ هذا ليس عيد ميلادها. قلتُ لها: «سنشتري هدية لأسماء»، فأضافت على الفور «ولي أيضًا»، وفي النهاية وافقت وأعطت الهدية لأسماء وهي تتمتم «عيد ميلاد سعيد». من ناحية أخرى، فهي الآن في مرحلة الأسئلة اللانهائية. أحيانًا أتعب من الإجابة على الأسئلة، وأحيانًا لا أعرف ماذا أقول. وذات مرَّة كنتُ أعاني بالفعل من الصداع، ولكن لحسن الحظ تذكَّرتُ أنَّ لديَّ بعض الشوكولاتة فأعطيتها لها لأغير الموضوع. لقد بدأتْ بالفعل تسأل أسئلة عن الموت، فقد شاهدت على التليفيزيون بعض الصيادين يقتلون بعض الخنازير البرية، فجاءت تهرول إليَّ في المطبخ وهي تصيح: «ماما، كيف ماتوا؟ أخبريني، كيف ماتت هذه الحيوانات؟». ومع أنَّها ترهقني، فأنا أحبُّها جدًا جدًا ولا أطيق الانتظار حتى يأتي كوبر ويُعيدها من عند ليلى، حيث باتت هذه الليلة هناك.

بكر، ٣١ يناير ١٩٨٨م

أبي الحبيب:

دائمًا ما تُذكِّرني بلغراد برحلتنا معًا منذ نحو خمسة وعشرين عامًا، حين ذهبنا إلى مطار سورجين، وحديقة الحيوان، وشاهدنا فيلم الكاوبوي «نجمٌ ملتهب»، وأكلتُ أنا الكثير من الأيس كريم حتى تعبتُ.

الطقس هنا في بلغراد جميل جدًا، وسيأتي الربيع قبل موعده.

كلُّ الحب من ابنك بكر.

سابينا، ٣١ يناير ١٩٨٨م

كيف حالك؟ هل تشمُّ عبير فبراير في فوتشا؟ كم أتمنى أن يكون هذا آخر فبراير لك هناك! الشتاء يكافح ليعلن وجوده هنا، يسقط الثلج والمطر معًا في الوقت ذاته، ويكون الجوُّ ربيعًا في لحظة ثم يُصبح شتاءً في اللحظة التالية، وأنا في حاجة شديدة لهذا الربيع، ولا أعرف بالضبط ما الذي أنتظره منه، ولكن بإمكاني الآن فقط إدراكه وكأنَّه شعاع من نور بعد فترة ظلام طويلة، أو قد يكون مجرَّد شوقٍ شديد للنور تحوَّل إلى استشراف.

عادت ماما وسلمى من ساحل البحر ليلة السبت، وقابلناهم في المحطة أنا وناديا وأسرة ليلى. وعندما رأت ناديا ذلك الجمع من الناس نسيتني وخبَّأت وجهها في معطف أسماء والتصقت بها، وقد ذكَّرتني بكلب صغير في أحد الشوارع وقد بدأ يتبعك من أحد المنعطفات إلى البيت منتظرًا أن تُطعمه. وهكذا ألقت صغيرتي ناديا بنفسها في السيارة معهم وسمحت لها ليلى بأن تقضي معهم تلك الليلة في بيتهم. وفجأة شعرتُ بالحرية بمجرَّد ركوب الترام واستمتعتُ بالرحلة إلى مدينة كارشيا كما لو كنتُ في حافلة سياحية في قلب باريس.

تبدو أمينة في غاية الجمال، وعندما أنظر إليها لا أعرف ماذا أقول. قام كوبر الآن بإحضارها من سريرها وواصل تقبيلها، وهاهي تبتسم وتنظر إليَّ بعينيها الواسعتين الداكنتين. شعرها يشبه شعري تمامًا عندما كنتُ طفلة، غير أنَّ وجهها أصغر وعينيها مائلتان وداكنتان. كما أنَّها تحب صُحبة الناس وقد تنسى الجوع وتنام عندما تكون محاطة بالناس. وهي لا تزال غير قادرة على النوم جيدًا بالليل، وتُسبِّب لها معدتها بعض المشاكل ولا أعرف كيف أساعدها.

لا توجد أخبار مُهمَّة، وغالبًا ما يكون عندنا ضيوف ويسألون عنك دائمًا. ولديَّ الكثير من السلامات والتحيات طُلب منّي أن أوصلها لك، وهي من الأصدقاء والأقارب ومن أولئك الذين اشتركوا معك في المصير ذاته في السنوات الأخيرة.

بكر، ٨ فبراير ١٩٨٨م

كنتُ أول أمس عند ليلى، وعند سابينا ليلة أمس. الجميع بخير وبصحة جيدة والحمد لله. وقد علّقتُ على رسالتك عند ليلى، أقصد ذلك الجزء الذي تذكر فيه «كلّ الاحتفالات التي تخطِّطون لها هذا العام» ممَّا دعانا «أنا وزوج ليلى» أن نمسك بالجيتار والكمان ونعزف بعض الموسيقى. وكانت هذه أول مرة في حياتنا نعزف فيها معًا أمام زوجينا.

سابينا، ٣ مارس ١٩٨٨م

بدأ النصف الثاني من إجازة رعاية الطفل، وآمل أن يكون النصفَ الأفضلَ والأسهلَ كذلك. أبذل كلَّ طاقتي في الأعمال المنزلية حيث يأخذ الطبخ الكثير من وقتي ولا يمكنني التصالح مع هذا الأمر، وأشعر أنّني أقضي نصف حياتي في الانشغال بالطعام، وأقوم دائمًا بجلب كميات هائلة من الطعام إلى البيت وإلقاء كميات هائلة من الزبالة.

لا أعرف إن كنتَ سمعتَ أنَّ چولا أنجبت طفلة صغيرة يوم ٢٧ فبراير ١٩٨٨م، ومن المفترض أن تخرج اليوم من المستشفى ولا أطيق الانتظار حتى أراها هي والطفلة. ستنتقل كلُّ أشياء أمينة لطفلتها، وكلُّ شيءٍ مُعَدٌّ بالفعل، وستحتفظ بهذه الأشياء لطفل آخر في الطريق، حيث تنتظر زوجة جمال ميلاد طفلها الثاني في أغسطس. وحيث إنَّ شقيقة چولا الصغرى قد تزوَّجت مؤخَّرًا، فعلى الأرجح ستنضمُّ هي أيضًا إلى الفريق. هذه الأشياء تسلّيني كثيرًا، وأكون في غاية الفرح عندما أسمع بولادة طفل جديد. ومن الغريب أنَّ هذه الأفراح والآلام الشائعة بيننا جميعًا لا تجعلنا، نحن النساء، أكثر حميمية وارتباطًا. فرغم كلِّ شيء، نحن نتشاجر أكثر بكثير من إظهار العاطفة والحب، ونؤذي بعضنا البعض بدلاً من أن نساعد بعضنا البعض. وهذا أمر غير مفهوم على الإطلاق، تمامًا مثل أشياء أخرى كثيرة في هذا العالم.

أحبُّك دائمًا، ابنتك سابينا.

سابينا، ١٥ مارس ١٩٨٨م

اليوم يومٌ ربيعي جميل ولا أصدِّق هذا. كنتُ أريد أن أذهب مشيًا إلى الشركة بصحبة أمينة لأستمتع بهذا الهواء النقي، ولكنَّها أفسدت خططي، فالساعة الآن الواحدة والنصف وما زالت هي نائمة.

أصبحت ناديا تحبُّها بالفعل وتعاملها بغاية اللطف ما دمنا نحن لا نبالغ في تدليلها. وتبدأ ناديا هجومها المباغت عندما يبدأ أحدنا في إظهار الاهتمام بأمينة، ومن ثمَّ تدخل في مزاج سيئ وتصبح عصبية وعدوانية. ومن ناحية أخرى، فهي بالفعل أفضل حارس لأختها الصغيرة. لو رأيتَها عندما قلبنا أمينة رأسًا على عقب (وكانت هذه طريقة لعلاج النزلة الشُّعَبِيَّة)، حيث بدأت تضربنا نحن الاثنين وتصيح في ذُعر: «دعوها!». وفضلاً عن هذا، تبدو ناديا جذَّابة حقًا في هذه المرحلة من عمرها، فقد طلبتْ مني منذ عدة أيام أن أشرح لها معنى كلمة «مُطلَق»، فقلت لها: «أنت جميلة بشكلٍ مُطلَق»، «ذلك الرجل في التليفزيون مُملٌّ بشكل مُطلَق»، «أنت لي بشكل مُطلَق». فقالت: «لا، لستُ كذلك، أنا لبابا ولك ولجاجا». وكما ترى، فقد بدأتْ تفهم بعض الأمور.

بكر، ٧ إبريل ١٩٨٨م

بالأمس كان عندنا احتفال صغير بعيد ميلاد سيكا الثامن والعشرين (يُقال إنَّ أطول عشر سنوات في حياة المرأة تكون من عمر ٢٨ إلى ٣٨ سنة). وقد حضر الحفلَ ياسمينة وسلمى (الكبيرة) وبكر وليلى وسابينا وأطفالها، وقضينا وقتًا رائعًا وضحكنا كثيرًا. وقد واسيتُ سيكا بأنَّها لا يزال أمامها ١٢ سنة حتى تبدأ العقد الخامس من عمرها.

سابينا، ١٣ إبريل ١٩٨٨م

لا توجد أحداث كثيرة هنا، عدا بعض الأشياء القليلة الجديدة: فقد وصل الربيع إلى حديقتنا وساحة البيت، وعاد جواز سفري إلى البيت منذ يومين، وقام كوبر بنقل أغراض ماما إلى سراييڤو، وقريبًا سيأتي كلٌّ من شمس وفاتا، ولم يبقَ إلا أن تأتي أنت أيضًا. تسألني ما إذا كنتُ أنتظر رسائلك، حسنًا، إليك، على سبيل المثال، كيف بدا الأمر صباح

اليوم؛ كانت ناديا قد ذهبت إلى الحديقة، وكانت أمينة نائمة، وكانت أذني تنصت إلى الأصوات القادمة من ساحة البيت، سمعتُ صوت باب المدخل يُفتح فخفَّضتُ صوت الراديو وانتظرتُ حتى تقترب الخطوات أكثر، فصاح الرجل «ساعي البريد!» وكأنَّه عرف أنِّي كنت أنتظر رسالتك، وهكذا يكون الأمر كلَّ يوم تقريبًا. لقد تعوَّدتُ تمامًا على رسائلك حتى إنَّني أشعر أنَّني سأفتقدها عندما تعود، وسيكون عليك وقتها أن ترسل إلينا بطاقات بريدية كلَّ فترة على الأقل.

ليلة أمس ذهبتُ أنا وكوبر إلى السينما مع بكر وسيكا، وكانت هذه المرة الثالثة التي نخرج فيها منذ ميلاد أمينة، ولذلك فأنا لم أتعوّد على هذا الأمر حتى الآن. عندما نلتقي هكذا بكلِّ حرية في شارع تيتو يعتريني القلق وأرغب فقط في العودة إلى البيت، وبعد فترة أهدأ قليلاً، ولكن في تلك المرَّة كان علينا أن نسرع عائدين إلى البيت في ذلك الحين. وقد لاحظتْ ناديا ليلة أمس أنَّني أستعدُّ للخروج فبدأتْ تسأل إلى أين نحن ذاهبون، وحيث إنَّني توقَّفتُ عن الكذب عليها فقلتُ لها إنَّني سأذهب مع كوبر إلى السينما، وهو ما لم يعجبها، فخرجَتْ إلى ساحة البيت وحدها وجلست على الأرجوحة وبدأت تشفق على نفسها «لا لا لا يمكنني أن أبقى وحدي مع الطفلة الصغيرة. لا وأنتظر وأنتظر ويأتي الظلام ولا أحد هنا. يا إلهي!» وظلَّت تهذي وتهذي وهي تذرف دموع التماسيح بينما كنتُ أضحك وأحاول أن أستعدَّ للخروج.

وعلى أي حال، فقد أشفقتْ على نفسها كثيرًا حتى إنَّني عندما أوضحتُ لها أنَّ بيبا ستأتي لتجلس معها ومع الطفلة الصغيرة قالت لي ودموعها تسيل: «لا، أريد أن أكون وحدي تمامًا، وأبكي وأبكي، ويأتي الظلام». وبالطبع، نسيتْ كلَّ شيء بمجرَّد أن وصلَتْ بيبا، بل لم تنتبه لي عندما خرجتُ.

ليلى، ١٣ إبريل ١٩٨٨م

أبي الحبيب:

لا يوجد الكثير من الأحداث الجميلة، الشيء الوحيد الجميل هو أنَّ بعض الحمام الصغير قد خرج من البيض خارج نافذتنا. سلمى الآن في غاية الرقة، ويؤسفني أنَّك لستَ

هنا لتسمع وصفها لهذا الحدث وكيف تهتم بكلٍّ ما تفعله الحمامة الأُمُّ لتجلب لصغارها الراحة والأمان.

ليلى، ٢٤ إبريل ١٩٨٨م

مرَّت هذه الزيارة سريعًا لدرجة أنَّه يبدو لي أنَّني لم أجد فرصة لأتحدَّث معك. كم هي طويلة تلك السنوات التي «أكلها الجراد»! كما يقول بيكيتش. ومع ذلك، فأنا أتعلَّق دائمًا بذكرى أحاديثنا الأخيرة ولقائنا أمام المتجر الصغير، لو تذكر، قبل اعتقالك مباشرة. سأحاول أن أربط تلك اللحظة مع اللحظة التي طال انتظارها، لحظة عودتك. بيد أنِّي أعرف أنَّنا سنقسم الحياة دائمًا إلى الحياة ما قبل والحياة ما بعد. وفيما يتعلَّق بانشغالنا باللحظة الحاضرة، فأنا أعتقد أنَّنا سنتجاوزها عرَضًا ومن غير قصد.

بكر، ٢٣ إبريل ١٩٨٨م

ربما تكون قد قرأتَ منذ عدَّة أيام في صحيفة «التحرير» أنَّه تجري مراجعة القانون الجنائي وأنَّه قد شُكِّلَتْ لجنة في البرلمان اليوغوسلافي لفحص كل قضايا الجرائم السياسية، خاصة قضايا الرأي، كما ستقترح اللجنة العفو عن كلٍّ هؤلاء الذين أُدينوا ولكن لم يشتركوا في أيَّة أعمال أخرى ضد الدولة. ولذلك أعتقد أنَّه سيكون هناك شيءٌ ما يخصُّك، سواء كان العفو أو تعديل القانون.

لم أكن أعرف أنَّ الرقيب في السجن لن يسمح بإدخال حلوى «باتشارشيا» التي وضعتُها في علبة بسكويت. كنتُ أتخيَّلك بالفعل وأنت تختار بعد الإفطار قطعة كعك، أو بعضًا من ثمر الجوز، أو حلوى التفاح المجفَّف. كما أنَّني لست بالذكاء الكافي لأدرك الفرق بين اللحم المجفَّف الذي يُسمح بدخوله واللحم المشوي الذي لا يُسمح بدخوله، خاصة وأنَّ الكثير من الأمراض والديدان وما شابه ذلك عادة ما تكون بسبب اللحم المجفَّف. وكذلك لا أفهم لماذا يُسمح بدخول بسكويت مضى على تاريخ إنتاجه ٢٤ شهراً، ولا يُسمح بدخول الحلوى المشتراه من «باتشارشيا»، إلخ.

ليلى، ٢٨ إبريل ١٩٨٨م

لا زلتُ غير متأكِّدة إن كنتَ تمزح في رسالتك الأخيرة أم لا، لأنَّني أعرف بنفسي أنَّني نادرًا ما أسألك عن صحتك وعن حالتك النفسية. وأحد أسباب ذلك هو محاولة عقلي اللا واعي أن يتجنَّب إثارة إجابة غير حقيقية منك، وقد أكون أعرف بالفعل كيف تشعر في أي لحظة، فرسائلك هي المقياس الأصدق بالنسبة لنا لمعرفة حالتك. ومؤخَّرًا، يبدو لي أنَّ هناك شجنًا ينبعث من بين سطور رسائلك الأخيرة.

هل يمكن أن يكون هذا نتيجةً لكلِّ ما قيل عن العفو وتعديلات المادة ١٣٣ أو نتيجةً لتلك السنوات الخمس الطوال في السجن؟ وبما أنَّنا تطرَّقنا لهذا الأمر، فأنا أريد أن أخبرك كم أنا مُعجبة بك، فقد تحمَّلتَ قدرك دون أن تشتكي ولو مرَّة واحدة. ولا أعرف، لو كنتُ مكانك، هل سأكون قادرة على أن أفعل مثلك أم لا

رافقتُ زوجي إلى المطار بالأمس، وقد أخذ معه كلَّ ملابسه تقريبًا، عدا تلك الثقيلة جدًا، وأدركتُ أنَّ هذا إشارة إلى أنَّه سيغيب لفترة طويلة، وعليَّ أن أعترف أنَّني حزنتُ لهذا الأمر. قد يكون من الضروري لكل شخص أن يعمل في الخارج يومًا ما، لكنَّ ليبيا لم تعد المكان الذي تزوره من أجل المتعة.

وقد ذهب معه اثنان من زملائه وسيقضون معًا أول ثلاثة شهور في بيت خشبي، وعلى الأرجح سيطبخون طعامهم معًا. سيعمل زوجي في وظيفة «كبير مهندسي الإضاءة» في شركة كبيرة، وقد بدأ عمله اليوم بالفعل، وأنتظر أن أعرف انطباعاته الأولى قريبًا.

سابينا، ١١ مايو ١٩٨٨م

أبي الحبيب:

وصلتْ رسالتُك، وأرى أنَّك تتباهى بصحّتك الجيدة وأرجو أن تكون صادقًا فيما قلتَ. نحن جميعًا بخير، فيما عدا أمينة التي أُصيبت بنوع من البكتيريا في الحلق، ولذلك كان علينا أن نعطيها بعض البنسلين.

عندما حصلتُ على نتائج الفحص الطبي عدتُ إلى البيت وسألت أمينة: «أين تلك البكتيريا يا صغيرتي؟» فأجابت ناديا وهي تتكلَّم من أنفها: «في البيت الصغير في الحديقة»، وهي دائمًا ما تسمع وتُعلِّق على كلِّ شيء، ولذلك هناك مواقف كثيرة مثل هذا الموقف الأخير.

أقوم هذه الأيام برسم كوبر وأمينة بجوار فراشك وأتمنّى أن ترى هذه اللوحة قريبًا. ومن ناحية أخرى، تبدو الحديقة وساحة البيت في غاية الجمال، وقد أزهرت شجرة التفاح الموجودة في ساحة البيت وتنشر عبيرها في المكان كلِّه، ولكن تتساقط الأزهار منها الآن وتغطّي الساحة كلَّها. كما أنَّ هناك شجرة سفرجل صغيرة في الحديقة وبدأت تزهر أيضًا، ولم أكن أعرف أن شجر السفرجل له زهور جميلة هكذا. ونحن نأكل بالفعل من الحديقة الخس والبصل والبقدونس، وتعطينا الدجاجات أربع بيضات يوميًا. ماذا أقول لك؟ إنَّها «مزرعة» حقيقية كما يقول بكر.

ليلى، ١٧ مايو ١٩٨٨م

أبي الحبيب:

هل تعرف الأغنية التي تقول: «لم تعد الأعياد أعيادًا. . »؟

استيقظتُ هذا الصباح لأجد نفسي وحيدة، فزوجي قد سافر، والأطفال عند ماما، وأنت في «مهمة رسمية». ولم أستطع حتى أن أشمَّ رائحة الفطيرة بالتوابل. وجهَّزتُ نفسي سريعًا للخروج حتى لا تهاجمني أفكار بعينها. دخلتُ المكتب ووجدتُ الزملاء متجمّعين لشرب القهوة، وكانوا ينتظرونني أن أحضر لهم البقلاوة. وسألني آتسو عن الحلوى، فأخبرته أنَّه سيحصل بالفعل على بعض الحلوى عند تعديل المادة ١٣٣ وقد فهمني هو على الأرجح، أما الآخرون فلم يفهموا ما علاقة الحلوى بالقانون الجنائي. ربما فهموا أنَّني كنتُ أمزح، ولكن بدا الأمر غريبًا بالنسبة لهم.

اتصلتُ بالعَمَّة سامكا لأهنّئها بالعيد السعيد، وكانت المرأة المسكينة تبكي. ماذا أقول لها لأواسيها؟ ماذا أقول لها بينما أرى أنَّها بين فكّي المرض والزمن، ولم تعرف قط كيف

تواجه هذه الحياة. حاولتُ كثيرًا أن أقنعها بأن تنتقل إلى شقّة أخرى حتى تستطيع أن تخرج لتتمشى كلَّ يوم. ومع هذا، فأنا متأكّدة أنَّها تعرف أنَّ هذا لن يجدي شيئًا.

كان عليَّ أن أتصل بالعَمَّة وحيدة، ولكن سأفعل هذا لاحقًا. وقد قرَّرتُ زيارة كلِّ هؤلاء الناس خلال هذه الأيام القليلة، فكلُّهم أسعدوني حينما كنتُ طفلة، وكانت زيارتهم لبيتنا كأنَّها عيد، لأنَّني كنت أشعر أنَّهم يحبّونني بصدق.

بكر، ٢٨ مايو ١٩٨٨م

قرأتُ القرآن الكريم مرَّة أخرى خلال شهر رمضان. وشدَّتني هذه المرَّة، بشكل خاص، الآياتُ التي يمكن القول إنَّها تُعلِّم الإنسان بعض السلوكيات؛ مثل تلك الآيات التي توصي، على سبيل المثال، بعدم اغتياب الآخرين، وألا تتكلم بلا بيِّنة، وأن تحترم خصوصية الآخرين، وألا تتبَّع عيوب الناس، وألاّ تُفشي أسرارهم، وألا تقول لوالديك أفٍّ عندما يبلغان الكبر، إلخ. وفي كلِّ مرَّة أقرأ القرآن يبدو مختلفًا. وفي الحقيقة، من يتغيَّر هو أنا، أما القرآن فيبقى كما هو.

ذهبنا للعشاء عند سابينا منذ عدة أيام، وجلسنا في ساحة البيت وبدأنا الشواء عندما حلَّ المساء. وأحضرت ليلى الجيتار (كنتُ قد تركتُ الجيتار عندها من أجل سلمى) وغنَّينا قليلاً. وكان هناك سبعة من الكبار وستة من الأطفال. وأكثر ما أعجب الأطفال هو السباق حول موقد الشواء والاختباء تحت الطاولة التي نضع عليها القهوة، خاصة لو كانت مائلة وتحتاج فقط لدفعة خفيفة حتى تسقط. كما أنَّه أعجبهم التأرجح على تلك الأرجوحة المعلَّقة على شجرة التفاح في ساحة البيت، وقد أعجبهم ذلك لأنَّ الذي يتأرجح يصطدم بقوة بمن لا يتأرجح فيسقطون جميعًا على الأرض ويتصايحون. وعند وقت معين اضطُررنا لطردهم جميعًا إلى داخل البيت ولم نسمح لهم بالخروج، وكلَّ عدَّة دقائق يُحدِّق أحدهم من وراء الباب ويطلب شيئًا ما أو يشكو من الأطفال الآخرين، إلا أنَّنا لم نتهاون معهم. فقط كنَّا نذهب للاطمئنان عليهم عندما لا يظهر أحد منهم لمدة عشر دقائق وعندما يتوقَّف الصياح والضجيج داخل البيت، لأنَّ هذا يحدث عندما يكونون في أشد حالاتهم خطورة.

سابينا، ٢٤ يونيو ١٩٨٨م

أينما ذهبتُ إلى أي مكان، فإنَّني أكون في غاية القلق على بكر. صحيح أنَّني أفتقد ليلى، وأفكِّر كثيرًا في ماما، ولكنَّني أقلق جدًا على بكر. لا أعرف السبب، ولكن سأحاول الاتصال به اليوم، فقط لأطمئن أنَّ كلَّ شيءٍ على ما يرام.

أحبُّك جدًا، وأفكِّر فيك كثيرًا.

ابنتك سابينا.

بكر، ٣١ يوليو ١٩٨٨م

أبي الحبيب:

ها قد انقضى شهر يوليو، وبعد شهرين نعود إلى الشتاء. الزمن يمرُّ سريعًا، على الأقل بالنسبة لي (قد يكون الأمر مختلفًا بالنسبة لك). كما أنَّ مرحلة منتصف العمر مُملَّةٌ إلى حدٍّ ما، فكلُّ عام يُشبه الذي قبله. في حين أنَّني عندما كنتُ شابًا، كان كلُّ عام في حياتي مُمَيَّزًا بحدث ما: ذهبتُ إلى المدرسة الثانوية، ثم ذهبتُ إلى الكلية، وكان هناك تغيير مستمر، ودائمًا كانت هناك أشياء عظيمة يمكن توقّعها وانتظارها. لم أُحب منتصف العمر قط، فالشباب جميل، والشيخوخة بها شيءٌ من الحكمة، أما منتصف العمر فيزدحم بالالتزامات، ومُملٌّ إلى حدٍّ ما.

بحثتُ عن كتاب محمد أسد الذي أوصيتَني بقراءته، إلا أنَّه قد نفد. ومع ذلك، فهو موجود عند جمال وسوف أستعيره منه. لم أرسل لك أيَّ كتاب منذ فترة طويلة، فاكتب لي ما الكتاب الذي تريده وسوف أرسله إليك. إذا كانت خزانتك مزدحمة للغاية، فيمكنك أن ترمي رسائلنا. كان عليك أن تفعل هذا منذ وقت طويل، وثقْ أنَّك لن تقرأها مرَّة أخرى أبدًا (بما أنَّك لا تقرأها في هذا الموقف الحالي)، وليس هناك داعٍ لأن يقرأها أي شخص آخر، ولذلك.

كلُّ الحب من ابنك بكر.

سابينا، ٣ أغسطس ١٩٨٨م

في كلِّ مرَّة أنسى أن أحدثك عن تلك الواقعة. كان أحد أصدقائي خارج البلاد والتقى هناك بأستاذ جامعي (لا أتذكَّر من أي بلد هو) كان يسأل عن مؤلِّف كتاب «الإسلام بين الشرق والغرب» الذي أثار إعجابه والرغبةَ في لقاء مؤلِّفه المعتقل. حاول صديقي أن يوضِّح له أنَّه لا يمكنه زيارته في السجن، إلا أنَّ الأستاذ قال إنَّه لا بدَّ له أن يقوم بهذا لأنَّه يشعر بامتنان تجاه مؤلِّف الكتاب. وعلى أي حال، فنحن لا نعرف هل سافر هذا الرجل إلى سجن فوتشا أم لا، ولكنَّنا نعرف أنَّ هذا العالمَ عالَمٌ صغير فيما يبدو، وجميل.

سابينا، ١٠ أكتوبر ١٩٨٨م

أحضر بكر ذلك الطلب الذي كتبه أحد المسلمين لتخفيف الحكم عليك. ويبدو أنَّه مكتوب بشكل جيد، وبه بعض المقاطع الممتازة، وعند نهايته يبدو مكتوبًا بلغة «شاعرية» تمامًا. كما أنَّ نيقولا هذا ليس سيئًا على الإطلاق. وهناك شيءٌ واحد مؤكَّد: لقد استجمع عقله وقلبه من أجل قضيتك.

وحسب علمي، فإن البرلمان لم ينظر في المادة ١٣٣، وأعتقد أنَّهم لديهم أمور أخرى أكثر أهمية ليتناولوها في الوقت الراهن. فما يحدث في الدولة شيءٌ مرعب، ويمكنني أن أتخيَّل كيف يبدو الأمر عندك. والشيءُ الأهمُّ بالنسبة لي لأقصى درجة هو أن تعود إلى البيت قريبًا.

بكر، ٢٤ أكتوبر ١٩٨٨م

أبي الحبيب:

يبحث الكلب لوري دائمًا عن من يلاعبه. يرقد على الأرض منتظرًا أن ينظر إليه أحد لينهض ويثب على قدميه. عادة ما يُحضر لي أحد أحذية ياسمينة القديمة ومن ثمَّ نتنازعه فيما بيننا، حيث يحاول كلٌّ منا أن يلويه ويشدَّه ناحيته، ويبدو عليه الرضا عندما أبدأ أصرخ قائلاً: «اترك الحذاء، إنَّه ليس حذاءك، إنَّه حذاء ياسمينة» فيدمدم بحنجرته. بالأمس، رأى عنكبوتًا كبيرًا في البلكونة وبدأ يلعب معه، وحاول العنكبوت المسكين أن

يخرج من اللعب حيث يُضرب على رأسه كلَّما تحرَّك، ولكنَّه مات للأسف. كان لوري في غاية الدهشة عندما رأى أنَّ العنكبوت لم يعد يتحرَّك، فقذفه إلى أعلى بقدمه وبدأ يعوي علينا لنأتي لمساعدته.

أرجو أن تكون بخير وأن يكون لديك ما يكفي من القوة والجَلَد (وأنا على يقين من هذا). أنت تعرف أنَّ الشمس تُشرق بعد المطر، وأنَّ الربيع يأتي بعد الخريف والشتاء، إلخ. إن شاء الله، سيأتي يومٌ تكون فيه كلُّ هموم الماضي سببًا في أن تبدو سعادتنا وفرحتنا أجمل وأفضل. وبدون مبالغة أستطيع أن أقول لك إنَّني لو كان حظِّي من الحياة هو أن ألقاك فقط، لكنتُ محظوظًا، أمَّا أنَّ الله قد أنعم عليَّ بأب مثلك فهو شرف ما بعده شرف.

تذهب ياسمينة لممارسة التمارين الرياضية في المكان ذاته الذي كنتُ أنا أذهب إليه، ويبدو المكان كما هو منذ أن كنتُ أذهب إلى هناك للتمارين الرياضية منذ خمسة وعشرين عامًا. ستكون ياسمينة هنا في البيت بعد حوالي نصف ساعة، وستكون متأثِّرة للغاية، وسيكون عليَّ أن أشاهد كلَّ الحركات البهلوانية والوقوف على اليدين، إلخ.

بكر، ٢٤ أكتوبر ١٩٨٨م

أبي الحبيب:

أنا في حالة نفسية طيبة اليوم، ولديَّ شعور بالتفاؤل ورغبة في الحياة، وهو ما أتمنى أن أنقله إليك أيضًا. ولا أعرف ماذا أقول أو عن ماذا أكتب لكي أنجح في هذا. ببساطة، أشعر أنَّ كلَّ شيءٍ سيكون على ما يرام، وأنَّ الأمور ستكون أفضل قريبًا.

ذهبتُ اليوم في جولة بين واجهات العرض في المتاجر وفكَّرتُ في الملابس التي تناسبك. إليك هذه النصيحة المجانية بأن تسمح لهذا المهندس المعماري بأن يختار لك ويشتري زوجًا من الأحذية ومعطفًا. فقد أصبحت المعروضات أفضل كثيرًا، رغم الأزمة، منذ آخر مرَّة ذهبتَ أنت لشراء ملابس. ويمكن للمرء الآن أن يلبس كما يلبس أي شخص في إيطاليا، بل وبسعر أقل وجودة أفضل. ويمكنك الآن أن تجد هنا أفضل أنواع البنطلونات الجينز والمعاطف، وأفضل الأحذية، والقمصان القطنية، إلخ.

عندما تخرج، إن شاء الله، سيكون منظر سراييڤو مفاجئةً مُدهشةً لك. صحيح أنَّ ديوننا الخارجية حوالي ٢١٠ مليون دولار (حوالي ألف دولار لكلِّ شخص عامل في سراييڤو) أُنفقت على الإنشاءات والبنية التحتية، إلا أنَّ الأمر يستحق ذلك. كما أنَّ المدينة نظيفة، وهناك الكثير من المباني الجديدة، وقد رُمِّمَتْ الواجهات القديمة. أتمشَّى كلَّ يوم حتى منطقة السوق، ولا أشعر أنَّني على قيد الحياة إذا لم أفعل هذا. وكذلك يُجَدَّد مسجد «بيك» (ويُقال إنَّهم وجدوا على كلِّ حجر من حجارة المئذنة آية من القرآن الكريم)، كما تُجَدَّد أيضًا المدرسة (المدرسة الإسلامية العليا). كما رُصفت منطقة السوق بحجارة خشنة، ويجري بناء مجموعة من المتاجر في الجزء الذي وقع فيه حريق منذ عدَّة سنوات. كما افتُتح الكثير من من محلّات الحلوى والمخبوزات والمقاهي، وأصبحت القهوة والحلوى أفضل كثيرًا بسبب المنافسة (ولم يعد هناك تلك المقاهي الضيقة سيئة التهوية). ولا تزال مطاعم الكباب تحافظ على مستواها، وعادة ما نأكل أنا وسيكا الكباب من مطعم «جيليو»، حيث يكون للكباب تلك الرائحة التي لا زلتُ أتذكَّرها منذ طفولتي، فنأخذ الوجبات معنا ثم نأكلها في الطريق، حيث يكون مزيج الكباب والبصل مع الخبز شهيًا للغاية.

أراك قريبًا، إن شاء الله. مع كلِّ الحبِّ، ابنك بكر.

بكر، ٢٦ أكتوبر ١٩٨٨م

أبي الحبيب:

ذهبتْ زيارتنا الاستثنائية هباءً. ومن المحتمل أنَّ قاسم آغيتش قد نقل إليك الرسالة وأخبرك بأنَّني كنتُ أمام السجن، ولكنَّ مدير السجن لم يسمح لي برؤيتك. لو كنتُ موجودًا حين مرَّ المدير، ربَّما كنتُ أقنعتُه بأن يسمح لي ولو بخمس عشرة دقيقة (أخبروني بأن أنتظر في المطعم حتى يتصلوا بي بعد أن يفحصوا أمر زيارتي، حيث لم يكن لديهم تعليمات بالسماح لي بالزيارة). أحيانًا ينسى الناس ولا يكونون على اطلاع بأمور معينة. فالمدير، مثلاً، لم يكن يعرف أنَّني قد جئتُ من نيوم لأراك، وأنَّني قد حصلتُ على إذن من الرفيق تيانيتش، ونسي أيضًا أنَّك في السجن بسبب شيءٍ قلتَه وكتبتَه بينما يحصل الآخرون الذين ارتكبوا جرائم السرقة والقتل على زيارات مجانية، بل ويذهبون إلى

بيوتهم من وقت إلى آخر ويتمشّون في مدينة فوتشا ، إلخ . ولكن ما حدث قد حدث ، وأرجو ألا تكون مُحبطًا بسبب كلِّ هذه الأمور ، وخصوصًا لأنَّني سافرت هذه المرَّة بلا جدوى ، وأنا على استعداد أن أقوم بهذه الرحلة مرَّتين يوميًا لأجلك .

أرسل إليك صورة ياسمينة ، وقد أحضرتُها معي لأعطيها لك اليوم ، وتبدو ياسمينة في الصورة أكبر مما هي في الحقيقة ، وكأنَّها في سنِّ خمس أو ستِّ سنوات .

قضيتُ يوم الجمعة على ساحل البحر ، وكان يومًا حافلاً وغير عادي ، ففي البداية كانت هناك الرياح الجنوبية والسحب السريعة والأمواج العالية الهائلة . وذهبت إلى منطقة «بيليتشاس» لأحضر لياسمينة بعض ثمار التوت البرِّية ، ووجدتُ ثمرة حمراء كبيرة وبدت كأنَّها مصنوعة من البلاستيك ، وكانت تلمع كما لو كانت مدهونة بالزيت . وفجأة بدأت تهبُّ الرياح الشمالية الشرقية ، وتغيَّر الطقس خلال دقائق معدودة . تغيَّر اتجاه الرياح وأصبحت باردة ، واختفت الأمواج وبدأ البحر يتلقَّى ضربات من الرياح التي تهبط من التلال مرتطمة به . ثمَّ بدأت تمطر مطرًا غير عادي يهبط على فتَرات منفصلة كما لو أنَّ أحدهم يسكب الماء من دَلْو . توقَّف المطر وأصبح الجوُّ باردًا جدًا ، ثم أصبح مُشمسًا ! كان كلُّ شيءٍ مبتلًا ورطبًا ، إلاَّ أنَّ الشمس كانت مشرقة وساطعة أكثر من أيِّ مرة رأيتُها في حياتي . وكان الهواء نقيًا وصافيًا بشكل مُدهش ؛ فبعد الظهر وخلال طريقي إلى سراييڤو ومن فوق التلِّ الذي يقع في مواجهة مدينة أوبوزان كان بإمكاني أن أرى مدينة بلوتشه ، وهذا ما لم يحدث من قبل . ولم يكن بإمكاني أن أرى الميناء فحسب ، بل كنتُ أرى انعكاس الشمس ولمعانها على الأسطح المعدنية على السفن ، كنتُ أرى الجُزُرَ البعيدة والجبال التي تقع في قلب منطقة الهرسك . وحين كنتُ في منطقة بيليتشاس عند خليج بالقرب من مكان يُسمَّى بروتسه ، على مسافة حوالي عشرة أمتار من الشاطيء ، رأيتُ تلك الزعنفة المميزة تقطع البحر وهي تدور في الماء . إلا أنَّها لم تكن سمكة قرش وإنَّما كان أحد الدلافين يدور ويحوم أمامي لمدة عشر دقائق على الأقل . كان يقفز عاليًا ويلهو بالقرب من الشاطيء ، ولم تكن ياسمينة هناك لتراه .

أبي الحبيب، سيبدأ شهر نوفمبر بعد خمسة أيام، ومن ثمَّ، إن شاء الله، سنلتقي قريبًا. كلُّ الحبِّ من ابنك بكر.

سابينا، ٨ نوفمبر ١٩٨٨م

أبي الحبيب:

كلَّما كتبتُ لك رسالة، أتساءل أيّ رقم تحمله، وأعني رقمها بدءًا من آخر رسالة سأرسلها، كم رسالة سوف أرسلها بعدها؟ قليل أم كثير؟ وأميل إلى أنَّه لم يبقَ إلا القليل، ولكن بالأمس اشتريتُ لي عشرة أظرف للرسائل واشتريتُ لك عشرة طوابع فئة عشرين دينارًا. وأتمنَّى أن يتبقَّى لدينا بعضها.

وفيما يتعلَّق بأمينة، انسَ الشوكولاته، وتحدَّث عن القهوة والسجائر!(*) إنَّها أجمل سلوى بالنسبة لي. لا تزال غير قادرة على المشي بمفردها، لكنَّها تتجوَّل في البيت كلِّه من خلال دورانها المُضحك حول رأسها، وتتبعني في كلِّ مكان وتناديني باستمرار وتثرثر بشيء ما. تفهم كلَّ شيء عدا الأخبار التي يُقدِّمها التليفيزيون، وأحملها بين ذراعيَّ عندما أكونُ مُضطرَّة لأن أغيِّر لها ملابسها، أو أطعمها، أو أغسلها. وأكون في منتهى السعادة عندما تضغط بيديها الصغيرتين على وجهي وتبتسم لي بأسنانها غير المنتظمة، ثمَّ تضع أنفها الصغير على خدَّيَّ وتلهث قائلة: مامي، مامي، حتى تتذكَّر «العين» فجأة، وهنا يتوجَّه أحد أصابعها إلى عيني. أحيانًا تصرخ فجأة من فرط الفرح وتضربني برأسها، ثم تبكي. ولكن في الغالب لا يستمر التدليل وقتًا طويلاً، فإما أن يكون لديَّ عمل أقوم به أو تكون هي لديها شيءٌ ما لتفعله. وهي تريد ببساطة أن تمشي وحدها ثمَّ تصبح في غاية العصبية وتبحث عن أصابعي لتمسك بها بكلِّ قوة. كما أنَّه في حكم المستحيل أن آكل شيئًا أمامها؛ إذ تبدأ على الفور في الصياح: «أريد من هذا!»، ولديها رغبة دائمة في أن تأكل شيئًا ما. ليلة أمس شوينا بطاطا في الفرن وبسطنا الطاولة الصغيرة أمام التليفيزيون وجلسنا نحن الثلاثة على المقاعد وجلست أمينة على التواليت الخاص بها، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تجعلها هادئة لبعض الوقت حتى لا ترمي بكلِّ ما على الطاولة على الأرض. وهكذا، يا أبي الحبيب، هذا هو الجوُّ العام في بيتنا.

(*) يقصد كأنَّها ليست طفلة. (المراجع)

بكر، ١٩ نوفمبر ١٩٨٨م

هل تعرف أحدًا يمكنني أن أستعير منه نسخة من التوراه؟ فأنا أشكُّ في العهد القديم، وبالأحرى أشكُّ في مصدره. وأخشى أن يكون الناس قد حرَّفوه بدرجة كبيرة حتى يتلاءم مع أهوائهم وحاجاتهم الخاصة، ولو لم يكن يحتوي على الوصايا العشر لقلتُ إنَّه كتابٌ عن إله غير الله. فقد رُفِع الشعب المختار فوق الجميع للأبد، وليس هناك أيُّ ذكْر للعالم الآخر، وفضيلة التسامح غير موجودة (فلا يُغفَر لأحد أي شيء، كما أنَّ الرؤوس والأيدي والأقدام تُقطَّع بشكل مُرعب) كما أنَّ هناك تأكيدًا على الترف والبذخ في المعابد وعند رجال الدين، والمثل الأعلى هو الثروة والسلطة. وعندما قرأتُ ذلك الزعم بأنَّ موسى قد أمر بقتل كلِّ الأطفال الذكور والنساء المتزوجات، هذا بالإضافة إلى الأسرى الذين يعبدون الأصنام، أصابني الصداع، وظللتُ متوتِّرًا طوال اليوم.

سابينا، ١٧ نوفمبر ١٩٨٨م

رأيتُ حلمًا جميلاً صباح اليوم: صوتٌ نسائيٌ رقيق يقول لي على الهاتف إنَّه يجب علينا أن نأتي لنأخذك «غدًا، لأنَّ اليوم هو الأحد». ومن ثمَّ بدأنا نستعد لنأتي إليك.

اعتنِ بنفسك، أحبُّك دائمًا، ابنتك سابينا.

٢٥ نوفمبر ١٩٨٨م

كان ذلك يوم الخامس والعشرين من نوفمبر لعام ١٩٨٨م، تقريبًا بين الساعة الثالثة والساعة الرابعة بعد الظهر. استدعوني إلى مكتب الإدارة، حيث قرأ عليَّ قائد الحرس مالكو كورومان، مرتديًا زيَّه الرسمي وبصوته المهيب، قرارَ الرئاسة اليوغوسلافية بإطلاق سراحي وعدم إكمال فترة العقوبة. كان ذلك اليوم هو الخامس والسبعين بعد الألفين منذ اعتقالي.

عن المترجم:

محمد عبدالرءوف

- معيد بقسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة القاهرة؛ تخصُّص فلسفة اللغة والفلسفة المعاصرة.
- حاصل على ليسانس الفلسفة بتقدير جيد جدًا مع مرتبة الشرف، بترتيب الأول على دفعته.
- حصل على جائزة البروفيسور (أندريه لالاند)، وجائزة الدكتور (زكي نجيب محمود)، وجائزة الدكتور (عاطف العراقي)، وجائزة السيدة (عصمت قنديل)، من جامعة القاهرة عام 2012.
- للتواصل؛ البريد الإلكتروني: mrauf@cu.edu.eg

عن المُراجع:

أ. د. شكري مجاهد

- أستاذ ورئيس قسم اللغة الإنجليزية، كلية التربية، جامعة عين شمس.
- له أبحاث عديدة في الأدب الإنجليزي، والأدب المقارن، ودراسات الترجمة.
- ترجم عددًا من الكتب والدراسات في مجالات متنوعة بين الأدب والسياسة والتاريخ والدين والتربية، ومنها:

(1) اللغة الإنجليزية لغةً كوكبية، تأليف ديفيد كريستال، القاهرة، مركز تطوير تدريس اللغة الإنجليزية - 1997

(2) الوقائع الجديدة، تأليف بيتر دركر، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع - 1999

(3) ثورة في التعليم: من المدرسة إلى العمل، تأليف لين أولسون، القاهرة، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية - 2000

(4) موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي، الجزء الرابع المجلدين الأول والثاني (القرن الثامن عشر)، تحرير هـ. نسبت و ك. راوسون، القاهرة، المشروع القومي للترجمة – 2006

(5) البطل الدميم يذهب إلى العمل، تأليف ميتي نورجارد، الرياض، مكتبة العبيكان – 2008

(6) النساء أسلحة حربية: العراق والجنس والإعلام، تأليف كيلي أوليفر، الرياض، مكتبة العبيكان – 2008

(7) إعادة تشكيل الجامعة، تحرير رونالد بارنيت، الرياض، مكتبة العبيكان – 2009

(8) التواصل عبر الثقافات، تأليف دون و. برنس و مايكل هـ. هوب، سلسلة دليل الأفكار العملية، الرياض، مكتبة العبيكان بالاشتراك مع مؤسسة محمد بن راشد - 2009

(9) نظرة الغرب إلى الحجاب: دراسة ميدانية موضوعية، تأليف كاثرين بولوك، الرياض، مكتبة العبيكان – 2011

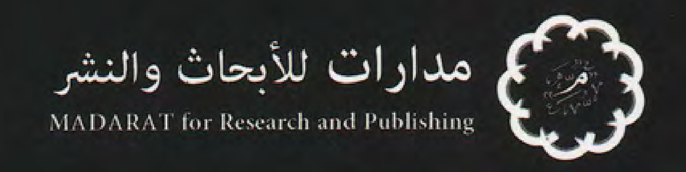
(10) نحو تنوير إسلامي: حركة فتح الله كولن، تأليف م. حاقان يافوز، الدوحة، منتدى العلاقات الثقافية والدولية – تحت الطبع

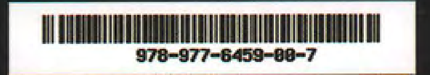


« هذا هو هروبي إلى الحرية. وللأسف، بالطبع، لم يكن هروبًا حقيقيًا، ولكن كنتُ أتمنَّى لو كان كذلك. كان هذا هو الهروب الوحيد المُتاح من سجن فوتشا بجدرانه العالية وقضبانه الحديدية؛ هروب الروح والفكر. ولو كان بإمكاني أن أهرب، لاخترتُ الهروبَ الحقيقي؛ الهروب الجسدي.

هذه أفكارٌ عن الحرية.. عن الحرية الجسدية أو الجوَّانية، عن الحياة والمصير، عن الناس والأحداث، عن الكتب التي قرأتُها ومؤلِّفيها، عن الرسائل المُتخيَّلة التي لم تُكتَب لأبنائي؛ وبتعبيرٍ آخر، عن كلِّ ما كان يخطرُ ببالِ سجينٍ خلال تلك الأيام والليالي الألفين الطويلة. في ذلك الوقت كنتُ أنتظر ثلاثة عشر عامًا تقريبًا في السجن، وبَدَا أنَّ الموت هو أملي الوحيد. إلا أنَّني أبقيتُ هذا الأمل مخبوءًا تمامًا كَسِرٍّ كبيرٍ لم يكن يعرفه أحدٌ سواي، سرٌّ لم يكن بإمكانهم أن ينتزعوه مِنّي. »

علي عزت بيجوفيتش


مدارات للأبحاث والنشر
MADARAT for Research and Publishing


978-977-6459-88-7